

موسوعة

عصر الطين المماليك

وتأليفه العامي والاردني

وليد بن زكريا

محمود زكي سليم

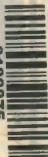
المجلد الأول

الناشر

مكتبة الآداب

٤٩ ميدان الزمبابوا - ت ٨٦٨١٠٨٩٠٠

0180875



Bibliothèque Alexandrina

عصر لا طين بها ليك ونشأه العلمي والأدبي

تأليف
محمود زوق سليم
وكيل كلية الدراسات العربية — جامعة الأزهر

المجلد الأول

وهو القسم الأول من الجزء الأول

ويحتوي على خلاصات في سير ملوك هذا العصر ، وأحوال الدولة ونظمها
وعاداتها وما يتصل بذلك من شئون ، مع ترجمة كثير من رجالها .

الطبعة الثانية
SPL101-HECA
مكتبة الآداب
١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م

سليم الطنج والنشر

مكتبة الآداب ومطبعتها بالجواميز ت ١٢٧٧٧

الطبعة الأولى
مكتبة الشارقة بالحمية الجديدة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

أعزائي الله سبحانه وتعالى لأن وجه قلبي وجهة صالحة ارتضاها ، ويسر لي سبيل عمل
محمداً ، ووفقني إلى أن أجد في هذا العمل النافع لذة نفسي و متاعاً روحياً بريئاً ، وهذا
إلى أن أبرزه للناس في ثوب قشيب ، واجامته جل وعلا ، أن يجعله خالصاً لوجه الكريم ،
لا رياء فيه ولا سمعة ، وأن يهب لي من لذه توفيقاً وقوة وجلداً ، إنه سميع مجيب .
وأصل وأسلم على نبيه سيدنا محمد أكل الناس خلقاً ، وأغزهم علماً ، وأسمهم مثلاً ،
وأعلامهم همة وأمضاهم عزماً ، وأنبلهم مقصداً ، وأبعدهم أثراً ، وعلى آله وصحبه الكرام .
وبعد ، فهذا كتاب سميت به عصر سلاطين المايك وتناجه العلوي والأدي ، يتكون
من أربعة أجزاء ، يصدر كل جزء منها في مجلدين - يحتوي الجزء الأول منه - على
خلاصات تاريخية واجتماعية ونحوها ، للعصر المذكور ، ويحتوي الثاني على وصف
الحركة العلمية فيه وما يتصل بها ، مع ذكر المؤلفات العلمية وترجمة عدد من العلماء
بين التفصيل والإيجاز . ويتكلم الثالث عن النثر الفني وعن الكتاب وما يتصل
بذلك . وخصص الرابع للحديث عن الشعر والشعراء وتراجهم والمجلد الذي تقدمه الآن
هو المجلد الأول أو القسم الأول من الجزء الأول .

وأعني بعصر المايك ذلك العصر الذي ولي عصر الأيوبيين في مصر ، لحكمها فيه
سلاطين من المايك ، حتى احتلها الأتراك العثمانيون ، وهي الفترة الواقعة بين سنتي ٦٤٨ هـ
و ٩٢٣ هـ .

ويرجع تفكيري في وضع هذا المؤلف إلى نحو عام ١٩٣٨ هـ ، وكنت أدرس لطلابي
العلماء الأدبية العربية المختلفة . فلحظت أن تاريخ الأدب العربي لم يدرس حتى اليوم
الدراسة السكافية الشافية ، ولم توضع فيه مؤلفات واسعة منظمة مبررة تكون معينا
فيأضاً سائفاً سهلاً ، قريباً للناهلين ، من طلاب الأدب في هذا الجيل . ولحظت أننا
لا نزال ندرس الأدب العربي المصري نابعا لأدب الدول العربية ومضافاً - في الغالب - إلى
أدب دمشق أو بغداد في عصورهما الأولى . وفي ذلك ما فيه من اهتمام الأدب المصري
الخالص ، وضياع معالمه وخفاء سماته واتجاهاته . ولحظت أن عصر المايك بصفة خاصة
من أكثر العصور الأدبية المصرية ، اهتمام حق وضياع معالم . فها تني ما رأيت .

(د)

ولا أريد في هذا المقام أن أعظم أهل الفضل فضلهم ، ولا أنقصهم حقهم .
وليس بالفاضل في نفسه من يشكر الفضل على .
فإن لكثير من أدباء العصر الحديث ، محاولات مشكورة ، وضروباً من
مذكورة ، اقتحموا بها على الأدب باباً ، وولجوا أعتابه ، وداعبوا أكوابه .
الطريق ، وأثاروه ، فكان لنا من عملهم خير نبراس ، وأثبت أساس .

غير أننا نشعر أن الوقت قد حان لوضع موسوعات جامعة في تاريخ الأدب العربي
بعمامة ، خروجا به عن هذا الحيز الضيق ، الذي لا يزال يمشى فيه وتيدا . ونشعر أن
الوقت قد حان لوضع موسوعات جامعة في تاريخ الأدب العربي في مصر بخاصة ، وأن
نبذل من عنايتنا بالأدب نصيباً محموداً لدراسة الأدب المصري وحده ، ولربط عصوره
أحدهما بالآخر . فإن في دراسته تلك تذبذباً للعقيدة المصرية ، والعاطفة المصرية ، وتركيزاً
لها ، وسعوا بهما وإصلاحاً لاتجاههما .

آن الأوان إذن الانتقال بحركة التأليف في آداب العربية وتاريخها انتقالاً جديداً
يراعي فيه الإسهاب وعرض النماذج عرضاً مشوقاً مع النقد والتحليل والربط والتعليل ،
وتوضيح الملابسات وقوة الاستنباط ، مع حسن التوجيه وتيسير الفهم والكشف عن
المراجع ، حتى لا تظل ضراً من المغيبات . بذلك نبيط اللثام عن نواحي الجمال في أدبنا
ونهي الباحث الجديد سبيل البحث ، ونعينه على بلوغ إربته بأيسر طريق وأقل مشقة .
وأحق بالعناية مصر وآدابها . فلو وضع في كل عصر من عصورها الأدبية مؤلف
جامع على هذا النمط الذي رسمناه ، وأحسن الربط والصلة بين كل مؤلف وآخر ،
لباننا من وراء ذلك أملاً مرموقاً ، وحققتنا أمنية طالما جاشت بها النفوس ، وأنصفنا
تلك العصور من ظلم النسيان .

ومن أبرز العصور المصرية المظلومة المهتزمة ؛ عصر الماليك ، الذي نحن بصدد
الحديث عنه ، فقد راعى ما أصابه من جفاء ، وهالتي ما ناله من صد ، وما يرمى به حيناً
من أنه عصر ظلمة وتأخر ، وانحطاط وتقليد ، مع أنه جليل الخطر عظيم الأثر ... ولم
تقدم لنا منه الكتب الحديثة إلا صبابة لا تنقع غلة ، وإلا ثمالة لا تروى طالب نشوة .
فاكتفته غوصة في أذهان كثيرين من طلاب الأدب الناشئين ، أكثر مما اكتفت
عصراً غيره . لذلك أجببت أن أدرسه ، وأن أطيل الوقوف بمعامله ، حتى أصل إلى

قرار الحق فيه . وعولت على الرجوع إلى ما كتبه بنوه أنفسهم الذين عاشوا ، فيه . آتيا البيوت من أبوابها ، فلأنهم - بلا شك - أصدق عنه حديثا ، وأقرب رجعا ، وأجل نجوى . وأغرائى البحث والقراءة ، حتى وجدتني غارقا في محيط من مؤلفات لا عدد لها ، فيها ~~الجمهرية~~ لكل أديب ، والمنهج لكل ناهج ، وهي كالبحر لا يانضب معينه ، وكالسيل لا تنفيس غيونه . ينهل المرء منه ، ويتجدد ظمؤه إليه . حيثئذ انهرت عيني ، وماجت الآمال في نفسي موجا ، ووددت لو استطعت أن أضنع موسوعة جامعة في أدب هذا العصر ، تكون منه للفادى . بمثابة المائدة الشبية التي عليها ألف طعام وطعام . يتناول منها ما لذ وطاب . ولكنني شعرت أن محاولة ذلك تحتاج إلى رفاهة عيش وبلهنية بال ، وفسحة أجل وطول صبر ، حتى تتم الموسوعة كما لاحت في الخيال . غير أنى أجمعت العزم ونقدمت إلى العمل قائلا للنفس : حسبي أن أضنع لبنة في البناء .

ومن الإنصاف أن أذكر أن عوامل عدة حببت إلى الإقدام على دراسة هذا العصر ، والكتابة في آدابه وعلومه بعد قراءة الكثير من مؤلفات أهله . ومن هذه العوامل ، كتاب وتأهيل الغريب ، لابن حجة الحموى أحد أدبائه عثرت على هذا الكتاب عرضا . وهو من المخطوطات الثمينة المجفوة ، وفيه جمهرة كبيرة من شعر شعراء هذا العصر في فنون شتى ، فزادني بهم معرفة وقيم حبا ، وأثار في نفسي كلفا بدراستهم ، والوقوف على حياتهم ، فقرأت ذخزانة الأدب ، لابن حجة أيضا ، وهو يحل قيم لكثير من رجال العصر كذلك . فوسع أمانى الأفق وأفسح المجال . وهكذا وهكذا ، تناولت كتب القدامى في التاريخ والتراجم والأدب ، كبديائع ابن إلياس وطبقات السبكي ، وطالع الأديوى ودرر ابن حجر ، وخطوط المقرئى وسلوكه ، ونجوم أبى المحاسن ، وضوء السخاوى وحسن المحاضرة للسيوطى ، وغير ذلك من دواوين ومؤلفات عديدة فقبست من كل قبسة ، وجمعت في كل أنارة . وأعملت الصكرة في كل أولئك ؛ حتى استقام لي هذا الكتاب واتسقت موضوعاته .

وقد أعجبت إعجابا لاحد له بكتاب تاريخ مصر لابن إلياس ، وهو المعروف ببديائع الزهور في وقائع الدهور . وشعرت حين قرأته ، أن رجلا مصريا صميا معاصرا شديد الصلة بى ، يحدثنى . وهو إلى قصة الأحداث السياسية والتقلبات الإدارية ، له نقدات عارضة ، وأوصاف اجتماعية قد يستطرد إليها في هوادة ورقق بمناسبة ، أو يفجأ

النارى، ما، وكانتا غير مقصودة لذاتها، ولكنها تبه الذهن على كثير من خفيات الأحوال العامة فتأملها، وإذا بك تشعر بجلالة وخطرها، وإذا بك بتتبع جزئياتها، تستطيع أن تكون فكرة، أو ترسم صورة، تجل فيها حالا من تلك الأحوال.

وكان بحثي أولا متجها إلى دراسة أدب عصر المماليك، فاضطرت إلى دراسة تلك
دراسة ما، تمهيدا للدراسة أدبية. فاكبت على كتب تاريخه، وهي فياضة بفنون أدبية
لاحد لها. وأعجبت - كما ذكرت - ببداية ابن إياس. فالتفت إليه أساسا وعجزت عن التوجه إلى
فيه ما يتجلى من أفكار وصور. هذبتها، وغذيتها، ونعيتها، بما وجدت من أمثاله في
كتب تاريخ العصر المذكور الأخرى. وجب إلى أن أجمع من جزئيات كل موضوع
على حدة، جملة، الأنتم بينها، وأحسن الصلة بين متفرقاتها، حتى يكون ذلك عونا على
دراسة أدبية نافعة. فرائتي مسوقا - بدون عمد - إلى أن أكتب فصولا تاريخية في عدة
نواح للحياة المصرية إذ ذاك، وجملة من تراجع رجلاها. فتألف منها «الجزء الأول»،
من هذه الموسوعة. وهو هذا الجزء الذي أدفع قسمه الأول بين يدي القراء. وأقل
ما يقال فيه. إنه ضرب من العرض جديد لبعض ماني ببداية ابن إياس وأنداده.

الجزء الأول إذن، جملة خلاصات في نواحي إدارية واجتماعية ونحوها . وفي
 لكثير منها نواحي لرجال من العصر ، بينهم وبين موضوعه صلة ، ويتهم من لم يجمع
 ترجمته حتى اليوم . هذا إلى أن حوادثهم الفردية ، تعين على فهم الأحوال العامة .

ووجدت من الضروري ، أن أقدم هذه الخلاصات بموجزات بسيطة في التاريخ السياسي للملك العصر ، ووقائع حروبهم ، وأن أقدم هذه الموجزات ، بملخص سريع في تاريخ مصر القديم أسير به حيثما ، حتى أربط بينه وبين العصر المملوكي ، على نمط من المؤلفات التاريخية القديمة ، حتى يكون الحديث أتم وأوفى وأكثر صلة . وبذلك يتم الجزء الأول .

وقسمته قسمين تسهلاً للاقتناء والحمل. وهذا هو قسمه الأول، وأتبعه بالقسم الثاني. ثم أتبعه بالأجزاء الأخرى، على النقط الذي سبّره القارئ الكريم، مزودة بموضوعاتها المدروسة، وتراجيحها المفصلة أو الموجزة، وعرض كثير من الكتب والآثار العلمية والأدبية النافعة، ما بين مطبوعة مخفية، أو مخطوطة مخبوءة، بما يغنى القارئ عن عشرات المؤلفات.

وأرجو ألا يتخيل القارىء أن لا صلة بين هذا الجزء - الأول - والأجزاء

الثلاثة الأخرى . نظراً لاختصاصه بمسائل تاريخية بحثية ، واختصاصها بوصف الثمرات الفكرية والأدب من شعر ونثر ، فإن فهم هذه المسائل ، يعين على معرفة روح العصر حتى اتجاهه ويعد تمهيداً حسناً لدراسة آدابه واقتطاف ثمراته .

في الحق أننى أحببت أن أرسم للعصر المذكور صوراً كثيرة متعددة ، لكل ناحية فيه ، صورة . وأن أضع هذه الصور جميعها في إطار واحد . فإذا جال فيها الناظر بنظره جولة ، أمكنه أن يعي العصر من كثير من نواحيه ، في سهولة ويسر .

وقد أشير على . بأن أفضل هذا الجزء - الأول - عن أجزاء الكتاب الأخرى ، لاختلاف موضوعه ، عن موضوعاتها ، وأن أصدره وحده مستقلاً بعنوان آخر . ثم أصدر الأجزاء الأخرى وحدها ، كأنها كتاب جديد مستقل . والمسألة كما يرى القارئ لا تعدو أن تكون شكلية ، فضلاً عن أنها لا تحقق الغاية التي أرى إليها من جمع صور العصر في إطار واحد - كما ذكرت - وهي غاية تركزت في نفسى ، واستقرت في ضميرى . ففصل هذا الجزء عن إخوته ، يشوه - كما أشعر - جمال هذه الغاية ، ويبعد القارئ عن فهم ما أرى إليه .

وتوخيت في كل فصول الكتاب ، سهولة العبارة ، والبعد عن الغموض وتبسيط الحديث بما يلائم ذوق عصرنا ، دون أن يبعد بنا عن جو العصر الذي نؤرخه . مع الاقتباس ، وإيراد النص القديم عند الحاجة ، ومع الإشارة إلى المرجع عند كل مناسبة حتى أعين القارئ على الاستيعاب السريع . وأعين الباحث على متابعة بحثه واستكناهه . ولم يكن همى الاستقصاء في كل خطوة . فهذا - وإن لم يكن أحد أغراضى - ضرب من العسر لا يستطيع تذليله رجل واحد ، وفي عمر محدود . وإنما أشرت إلى ذلك لكي أطمع الباحثين في البحث ، وأثير فيهم عوامله ودوافعه وحسبى أن أضع بذور اتصال ، إذا سقيت ، للنماء . وفي نماثها من بعد ، سعادة لامتدح للخلصين للعلم .

على أنى وطلدت العزم ، بعد الفراغ من طبع الكتاب كله ، أن أعرد إليه - إذا كان من الله عون ، وفي الأجل فسحة ، وفي العيش رفاة وفي الصحة بقية - فأهذب فيه ما استطعت ، وأضيف إليه ، وأصح منه ، وأعلق عليه .

ولا يخلو كل مؤلف صغير من هفوات ونقائص . فإياك إذا كان يضع مجلدات مليئة بالحوادث المقيدة بتواريخها ؟ وفي الحق أننى أنفقت جهداً كبيراً ، ووقتها طويلاً ،

(ح)

في سبيل الدقة وحسن الضبط ، ويشعر بذلك كل مزاول لمثل هذا العمل . فإن يكن من خطأ ، فغير مقصود . وأرجو أن يقبض الله لي من يرشدني إلى صوابه فأنني ولين . ولا بد من الإشارة هنا إلى حاجته الباحث الماسة إلى دور الكتب المصرية على اختلافها . وهو - بلا ريب - يجد من رجاها كل عون . غير أن فهرسها جديدة بالذات . فيا حبذا لو وضعت بها فهرس لأعلام المؤلفين الذين لهم كتب بالدار ، وترتب إلى جانب الترتيب الأبجدي ، ترتيبا حسب سنوات وفاتهم ، أو حسب عصورهم التاريخية التي عاشوا فيها . ويا حبذا لو قسمت فهرس المؤلفات هذا التقسيم أيضا ، ووضعت مؤلفات كل عصر على حدة . ويا حبذا أيضا لو عني بوضع فهرس للب موضوعات حتى يرجع إليها الباحث في يسر وسرعة .

هنا وإن في النهاية لأرجو من الله سبحانه وتعالى ، أن يجعل هذا الكتاب نافعا للناس ، وأن يهيئ لي أو لغيري ، وضع مؤلفات على نمطه في العصور الأخرى . حتى تكمل من الجُميع سلسلة وثيقة الخلفات في تاريخ الآداب المصرية . لتقدم بذلك بعض ما يجب علينا نحو وطننا العربي العزيز . والسلام ؟

المؤلف

مراجع القسم الأول من الجزء الأول

عينا باثبات مراجع موضوعات هذا الكتاب عقب التراجع وعند المناسبات ،
ذاكرين في أغلب الأحيان أرقام الصفحات مع أسماء المكتب . وفيما يلي نثبت بعض هذه
المراجع وطبعاتها التي اعتمدنا عليها :

١ - بدائع الزهور لابن أبياس المصري : طبع مطبعة بولاق ، ج ١ ، ٢ طبع سنة
١٣١١ هـ ، وج ٣ طبع سنة ١٣١٢ هـ ، وج ٤ ، ٥ طبع مطبعة الجوائب بالقسطنطينية
٢ - الخطط المقرزية : طبع مطبعة النيل بمصر ج ١ طبع سنة ١٣٢٤ هـ ، ج ٢ طبع
سنة ١٣٢٤ هـ ، ج ٣ طبع سنة ١٣٢٥ هـ ، ج ٤ طبع سنة ١٣٢٦ هـ .

٣ - حسن المحاضرة للسيوطي : طبع مطبعة الموسوعات بشارع باب الخلق بمصر
في شوال عام ١٣٢١ هـ .

٤ - التمرير بالمصطلح الشريف لشهاب الدين بن فضل الله العمري : طبع مطبعة
العاصمة بحوش الشرفاوى بمصر عام ١٣١٢ هـ .

٥ - تاريخ ابن خلدون : الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية المصرية .

٦ - صحيح الأعشى للقلقشندى : طبع دار الكتب بالمطبعة الأميرية عام ١٣٣٢ هـ

٧ - طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي : الطبعة الأولى بالمطبعة الحسينية
المصرية بكفر الطمايين ، تمت في شعبان سنة ١٣٢٤ هـ .

٨ - الانتصار لابن دقاق : ج ٤ طبع مطبعة بولاق عام ١٣٠٩ هـ .

٩ - ديوان ابن مطروح : طبع الجوائب عام ١٢٩٨ هـ .

١٠ - سلوك المقرزى طبع دار الكتب المصرية ولجنة التأليف والترجمة والنشر .

لناشره الدكتور محمد مصطفى زيادة ، منذ عام ١٩٣٤ م .

١١ - الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني طبع حيدر آباد بالهند .

١٢ - فوات الوفيات لابن شاکر الكتبي طبع مطبعة بولاق عام ١٢٨٣ هـ .

١٣ - الضوء اللامع للسخاوى لناشره مكتبة القدسي بباب الخلق ، منذ عام ١٣٥٣ هـ

١٤ - تاريخ حماة للصاوي . طبع حماة سنة ١٢٣٢ هـ

١٥ - النهج السديد لابن أبي الفضائل . طبع باريس سنة ١٩٢٠ م

١٦ - السراکب السائرة لانتجم الدين الغزى ج ١ طبع المطبعة الأمريكية ببيروت

سنة ١٩٤٥ .

بسم الله الرحمن الرحيم

نظرة سريعة في تاريخ مصر من الفراعنة إلى المماليك

تمهيد

مصر بنت النيل . الطيبة تربتها ، الصافية سماؤها ، المعتدلة أجواؤها ، الرضوية حياتها .
السمح أهلها ، الرحب جناحها ، مرت بها المصور تتوالى دونها ، وهي خود كماب .
صاحبت الشمس منذ مطلعها ، ورافقت الزمن منذ نشأته . وعبرت بها الأحداث حيرى
دونها ، مع كثرة غيرها وصروفها ، ولكن مصر كانت هادئة بإيمانها ، مطمئنة بيقينها .
لذلك لم تكن تألو أن تخلع على هذه الأحداث والغير والصروف أنوابا من الهزة ،
وأردية من السخرية ، أن أجتث أن العاقبة لها ، وأن الخلود في جانبها ، وأن البقاء من
فصيها . أما مادونها من عوادي الزمن وعن الأيام ، فإنها أمامها أشبه ببساط مشوره
يستعين به المراهجون والمتبطلون ، فيفككون الناس حيناً ببعض ألحاحهم وقصصهم .
فإذا ما انقضت آوتهم ، وانتهت فترتهم ، طورا بساط اللهو ، ورجعوا إلى عقر دارهم
قافلين ، فينشر غيرهم بساطا آخر جديداً ، وهكذا دواليك .

بين هذه الأمواج الصاخبة في بحر الزمان ، وبين هذه العواصف المتلاحقة في بحر
الليالي ، شهدت مصر ألوانا شتى من قصص الحياة ومثلها . آتت تسمو إلى ما هي له أهل
من السمو ، فتميزت بعدها على صولجانها ، فيأمر الناس بأمرها ، ويتنهون بنهبها ، وآتت
تهدمها الأحداث ، وتعاورها الخطوب ، فتشتى باسمه أمام العاصفة فتهمز شدتها بحم
جوب لها من لين ، وتقرم قبسوتها بما منحت من لطف ، وهي هي ، مصر الباقية
تالوادة .

مصر الفرعونية :

ومنذ فجر التاريخ ، ومنذ نحو أربعين قرناً ، ومنذ عهد ميناء ، حين وجد وجهها

حصر بزماته ، أشرفت هذه البلاد شمساً في سماء الحضارة والمرقان ، وعلمت على الدنيا بألوان من المدينة والرقى ، وضروب من العلم والفن ، تشهد بذلك نقوشها الخالدة وأهرامها الضخمة إحدى عجائب الدنيا وتماثيلها الدقيقة ، ومدوناتها " .
وجئت موقعاها المنحطة ، وغير ذلك ، عما خلد عظمها وبهرها فنون السمح
والبناء ، وعلوم الهندسة والطب والتشريح ، وضروب الصياغة والصباغة ، مع
من الأدب الرفيع ، وصنوف من مظاهر الآبهة والترف ، مما لا يزال الأيام
تضرب به الأمثال ، وما لا يزال علم القرن العشرين عاجزاً عن استنباط سره ،
واكتناه أمره .

وقد بسطت سلطانها في حقب كثيرة إذ ذاك ، على بلاد النوبة والسودان ، وفينيقية
وسوريا ، وشواطئ الفرات ، وارتبطت آناءجملة معاهدات سياسية واقتصادية .
وازدهى ملكها وامتد نفوذها في عهد بناء الأهرام ، وكذلك في عهد سيزوستريس
وأمينمست الثالث . وهي وإن سادها من بعد ذلك عهد ظلمة وفوضى ؛ أدى إلى أول
احتلال اجني عرفه لها التاريخ ، فتحكم فيما ملوك أجنبية هم : الهكسوس ، أو ملوك
قرعة ، كما يسميهم بعض المؤرخين - وذلك قبل الميلاد بأقل من ألف وسبعمائة
سنة ، فإن هؤلاء الأجانب - وكانوا قد بادروا إلى ظلم المصريين - لم يلبثوا أن اندمجوا
في غمار أبنائهم ، وتطبعوا بلبائهم ، وتدينوا بأديانهم ثم كونوا من أنفسهم أسرتين
من الأسر المصرية الحاكمة هما الأسرة السادسة عشرة والسابعة عشرة . غير أنه قامت
لإجلائهم عن البلاد ثورة وطنية جاعحة ترأسها الأمير المصري داحس ، من أمراء
طيبة بالوجه القبلي ، فطردهم من البلاد المصرية في أوائل القرن السادس عشر (ق . م)
ثم أسس الأسرة الثامنة عشرة . فدخلت مصر بذلك في دور حديث ، هو طور رقي
وتهوض ، وعزة ومنعة ، وبسط سلطان ، وامتداد رقعة ورخاء . وكان بين ملوكها
البارزين في هذا الدور : تحتمس الأول ، وتحتمس الثالث ، وداحس الثالث ،
ثم من ملوك الأسرة التاسعة عشرة : سبتح الأول ، ورعسيس الثاني ، أو الأكبر ،
و د منفتاح . واكل من هؤلاء الملوك غزوات موفقة رفع بهار أس مصر ، وإصلاحات
عمرانية عظيمة .

ثم ما عمت مصر بعد أن دالت الأسرة العشرون ؛ أن دخلت في دور انحلاله

وتأخر ، لتضخم نفوذ كهنة آمون ؛ ثم استيلائهم على الملك ، مع ملوك الأسرة الحادية والعشرين ؛ وذلك بزعماء أحدهم وهو « حرحور » .

وقد كان هذا الضعف تمهيدا للاحتلال اللوي ؛ وهو ثاني احتلال إبتليت به هذه البلاد ؛ إذ أسس بها قائد اللويين بمصر وهو « شيشق » أو « شيشاق » ، الأسرة الثانية والعشرين (٩٤٥ ق م) التي حكمت مصر زمنا . وبينما وقعت مصر في أيدي هؤلاء اللويين إذ فر أمراء السكينة إلى إثيوبيا ؛ فكان لهم بها شأن عظيم .

وكما حالت حال الهكسوس من قبل ؛ حالت حال اللويين ؛ فقد أخذوا في تقليد المصريين ؛ وتدينوا بأديانهم . وعبدوا لهم « آمون » ، واتخذوا مصر موطنهم ومستقرا ودستار حكمهم . ومهبطا لأسلافهم وغنائمهم . إلا أنهم ما لبثوا أن ضعفوا . فكسروا بذلك الضعف لملوك إثيوبيا من احتلال البلاد المصرية ؛ فدخلوها بزعماء ملكهم « بيمني » . (٧٢١ ق م) وحكموها منذ أيام الأسرة الثالثة والعشرين . وحافظوا على تقاليد البلاد وأديانها . وأقاموا شعائرها فازدهرت في عهدهم ازدهارا يذكر .

غير أن الحروب التي قام بها المصريون بعدئذ ضد الآشوريين قد انتهت بهزيمتهم . وباستيلاء الآشوريين على مصر سنة ٦٧٢ ق م . فماتت مصر على يد الآشوريين مصاعب جمة وشدائد كثيرة . جعلت أمراءها الوطنيين يتوصون الدوائر بالآشوريين ، وما هي إلا أن حانت الفرصة حتى هب من بينهم الأمير المصري « إيسانيك » ، وطرد الآشوريين من بلاده . كما طرد « أحس » ، ملوك الهكسوس من قبله .

ثم أسس « إيسانيك » الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٠ - ٥٢٥ ق م) وبذلك خلعت مصر من الاحتلال الأجنبي . وبدأت تدخل في دور نهوض جديد . إلا أنه كان يشوبه تضخم نفوذ الإغريق . لأن « إيسانيك » وغيره من ملوك أسرته . استعانوا بهم على توطيد سلطانهم ونشر نفوذهم .

غير أن ذلك لم يدم إلا ريثما ظهرت دولة الفرس ظهوراً قويا . آخذة في غزو البلاد المجاورة ، وضمتها إلى ملكها . فغزوا مصر في عهد « إيسانيك » ، الثالث بقيادة ملكهم « قبيل » ، وأسسوا بها أسرة جاكة جديدة هي الأسرة السابعة والعشرين لجأروا على المصريين وعثروا بأرضهم . ولبثوا حتى عام ٤٥٥ ق م فطردهم المصريون . وأسسوا

بها أسرا منها الأسرة الثلاثون التي ظلت تحكم البلاد حتى استولى عليها الإسكندر المقدوني عام ٣٣٢ ق. م بعد أن دخلها الفرس مرة أخرى .

مصر من عهد الإسكندر إلى فتح العرب:

نشطت دولة مقدونيا الصغيرة . وأخذت توسع نفوذها . وتستولى على جاراتها . حتى غدا ملكها ملكا على بلاد الإغريق . وكان ذلك في نحو عام ٣٣٨ ق. م . ثم ظهر ملكها الإسكندر الأكبر . . فقام بحروب عدة . وفتح بلاداً كثيرة . ووصل في فتوحه إلى بلاد الهند . وكانت مصر في جملة البلاد التي رحبت بقدمه وفتحت له بابها على مصراعيه . ويعتبر فتح الإسكندر لمصر فاتحة عهد احتلال أجنبي طويل . وقد كان من أم ما خلفه هذا الملك العظيم بمصر إنشاء مدينة الإسكندرية . . وبث نفوذ الإغريق في أرجاء البلاد . كما أنه خلف فيها دولة البطالسة . . فإنه بعد موته اقتسم قواده ممتلكاته . فكانت مصر من نصيب قائده الشجاع بطليموس الأول . الذي ما لبث أن استقر بمصر . واتخذها موطناً له ولذويه . وأسس فيها دولة البطالسة الشهيرة . وهي الدولة التي زهت في عهدها مصر وازدهرت بضروب من الإصلاح العلمي والعمراني . في مقدمتها إنشاء مكتبة الإسكندرية وجامعتها المسماة دار المتحف . ودولة البطالسة - وإن كانت إغريقية الأصل - لاشك في أنها أصبحت مصرية صميمه ، لأنها توطنت مصر . ووهبت جهودها لمصر . وحكمت باسم مصر . وغزت البلاد المجاورة وفتحتها ونشرت فيها راية مصر ، متخذة من شعب مصر شعباً . ومن جنودها جنوداً . على الرغم من أنها عاشت بها معيشة الإغريق . وجلبت إليها علم الإغريق . وإن زمتا طرولا كالذي قضته في حكمها (٣٢٣ - ٣١ ق. م) وعاشت فيه مصر دون سواها لجدير بأن يخلع عليها ثوب المصرية الكريمة . ولا نفي في أن عهد البطالسة . لو امتد في مصر . لكان لها خيرا من الاحتلال الروماني . الذي مهد له ملوك البطالسة الضعفاء في أخريات دولتهم .

فبينما كانت الدولة الرومانية تظهر في الوجود . ويشدد ساعدها . وينتشر سلطانها . إذ أملاك الترف والزراع أمراء البطالسة . وغلبهم على أمرهم . حتى تراموا في أحضان الرومان . يستمدون منهم العون والحماية . ويستجدونهم الفصل في فئزعاتهم . ومازالوا حتى انتهى أمرهم باقتحار آخر ملوكهم . وأخفى كليوباترا . واستيلاء أوكتافيوس .

الرومان نهائياً على مصر .

بدأ عهد الاحتلال الرومانى حوالى عام ٣٠ ق م . وفيه كانت مصر مزرعة لخدمة روما وشعب روما . يسعدون ويشقى سكان مصر فى سبيل سعادتهم . كان عهدا مليء ظلا وصفا وإرهاقا . ولم يخفف من أعبائه تلك الإصلاحات الضئيلة التى كان أباطرة الرومان يهودون بها على مصر بين الفينة والفينة . ولهذا ظلت مصر وليس لها كيان سياسى نحو ٦٧٠ سنة (٣٠ ق م - ٦٤١ م) . ولهذا كان تمام فتح العرب لنا فى هذا العام الأخير . وانزاعها من يد الرومان . ظفرا لها عادلا . ونجدة مفاجئة . أخذت من بعدها ثوب إلى رشدها . وتفق من سباتها الطويل . وإن يكن هذا الفتح ضربا من الاحتلال . ونحن نمقت الاحتلال أيا كان نوعه .

مصر من فتح العرب حتى قيام دولة المايك :

شغل العرب بفتح البلاد المصرية بين سنتي ١٨ هـ و ٢٠ هـ (٦٣٩ م - ٦٤١ م) وتم فتحها فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب وبمساعدة العربى الكبير عمرو بن العاص قاهر الرومان . فأصبحت من ذلك الحين جزءاً من الدولة العربية الفنية العظيمة فوفدت إليها وفود عدة وجلت إليها جوال كثيرة من بطون العرب وأنحازوا وتوالى عليها أمراء من العرب . يحكمونها من قبل الخلفاء الراشدين . ثم من قبل ملوك بنى أمية . وحينما زالت من الوجود دولة الأمويين . لم تجد خليفة الدولة العباسية . صعوبة تذكر فى الاستيلاء على مصر . ومن ثم تابع ولاية العباسيين أيضا على هذه البلاد . غير أن كثيرا من ولاية العباسيين حينئذ . كانوا من الترك ومنهم من يفضل الإقامة فى بغداد قريبا من دار الملك . عن النزوح إلى مصر . فكان منهم من يرسل نائبا عنه يحكمها باسمه . وفى ذلك ما فيه من هوان لمصر ؛ وإغفال لمراقبتها . ومضاعفة الظلم لأهلها . ولهذا كان مايعيا أن يتدخل حكم العرب لها ثورات متعددة ، آتاضيفة ، وآتاقوية . قوامها المنصر العربى حينئذ ، والقبلى حينئذ آخر ، وقد يتحد المنصران معا ، يتألف من المصلحة المشتركة .

ومما يمكن من شيء ، فإن الفتح العربى أرنخى ذيل النسيان على الفرعونية القديمة ، وإنشأ مصر لإنشاء آخر ، وكان الحكم الرومانى من عهود هذا النسيان . ويذكر التاريخ أنه قد فتح العرب بمصر ، أخذ أهلها من مسيحيين ويهود وغيرهم ، يدخلون فى دين

الله أفواجا ، وبخاصة في زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك الأشموي إذ خف ضطط الضرائب ، وانسخت العربية أداة لضبط الدواوين . حالة عمل اللغات الوطنية فيها . فساد الإسلام واشتد أذى اللغة . وغلبت على المصريين مقومات عربية كثيرة من عادات وتقاليده ونحوها .

ونحن وإن نعمنا من الفتح العربي بعممة الإسلام ، وحُبِّبَت إلينا لغته العربية لأنفسنا أنه أزال استقلال البلاد مرة أخرى ، فظلت تابعة لامتبوعة . وظلت كذلك حتى قتل ولاتها من قِبل العباسيين الأمير التركي بكباك ، أو بقيق ، وذلك في عام ٢٥٤هـ فأُتِيبَ عنه في حكمها د أحمد بن طولون ، وكان تركيا أيضا ، وعندما مات بكباك ، عهد الخليفة بولاتها إلى أمير آخر هو ماجور ، وكان حما ابن طولون . فاستبناه في نيابته ، لجمع ابن طولون حزمه وعزمه لكي يستقل بالبلاد ، فأصلح مرافقهم وقوى جيشها ووفر ما لها ، ثم منع إرسال آخرها إلى بغداد ، وحذف اسم الخليفة من خطبة الجمعة عام ٢٦٩هـ فكان ذلك إعلانا باستقلاله . وبني مدينة القطائع وجامعه المشهور بها ، فكان ذلك منه إيذانا بعودة الروح الاستقلالية إلى البلاد . غير أن خلفاء ابن طولون لم يحافظوا عافضة تامة على هذه الروح ، وإن كان مثلك ابنه خوارويه قد احتد إلى البلاد الشامية والموصل والجزيرة . ولقد عرف عن خوارويه ولوعه بالإنفاق والسرف ، والإغراق في الترف ، حتى أصبحت خزائن أبيه خاوية على عروشها ، وبخاصة من جراء زواج ابنته قطر الندى ، بالخليفة المعتضد العباسي . لذلك سرعان ما آلت مصر إلى حكم العباسيين بعد ولديه : د أبي العساكر ، و د أبي موسى . . وذلك عام ٢٩٣هـ . أخذ العباسيون يرسلون عليها ولاتهم من جديد ، فظلت نحو ثلاثين عاما كذلك ، وهي تموج بالفتن والاضطرابات ، حتى ولي عليها الأمير محمد بن طنج ، الإخشيد ، من قبل الخليفة العباسي عام ٣٢٤هـ (٩٣٥ م) فنهض بالبلاد نهضة محمودية ، وأبدى كفاءة ونشاطا في حكمها وصد الخارجين عليها ، ودفع الطامعين فيها . وامتد سلطانه حتى حكم دمشق ، وقلده الخليفة حكم مسكة والمدينة ، وجعل الحكم من بعده وراثيا في بني عقبه . غير أن ابنه د أبا القاسم أو توجور ، كان حداثا صغيرا ، فأقيم د أبوالمسك كاتور الإخشيدى ، وصيا على عرشه . وكان كافر خصيا حبشيا مملوكا من قبل للإخشيد ، علت عنده مكاتته لرجاحة عقله وتقرب بصره ، لحكم البلاد زمنا باسم سيده

عن أبي القاسم ، ثم استأثر بالحكم نهائيا بعد موته ، ثم مات كافور ، فلم تقم لدولة الإخشيديين من بعده قائمة .

هنا وجد الفاطميون مضر مراحا مباحا ، وملكاً شاعرا لا يحية أحد ، فاستولوا عليها زاحفون من الغرب بقيادة قاتدم المظفر ، جوهر الصقلي ، مولى المزمع لدين الله الفاطمي سنة ٣٥٨ هـ . والفاطميون ينسبون إلى فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . والمؤرخون مختلفون في صحة هذا النسب . ويرى أن المزمع الفاطمي بعد أن وفد إلى مصر ، جمع النسابة وأقنعهم بصحة نسبه إلى جعفر الصادق من نسل سيدنا علي . كرم الله وجهه ، ويرى أنه أثر بينهم الذمب وبسط أمامهم السيف وقال : « هذا حسي وهذا لبي » .

وقد كانت الفاطميين ببلاد المغرب دعوة فتوة ، فلما فتحوا مصر جلاوا إليها واتخذوها دار مقام ووطنا بنوا قاهرتهن المعزية وجامعها الأزهر ، وتشبهوا بخلفاء بني العباس الأوائل ، فتمسوا بالخلفاء . ونظموا دولهم وعنوا بظاهر الآبهة والتمخاظة . وأكثروا من الحفلات والموائد العامة والخاصة ، وأشاعوا الكثير من الموالد الدينية والأعياد والمواسم ، متخذين منها فرصة للبر والإحسان لكي يشغلوا الشعب عنهم بكل أولئك . وقربوا إلى مجالسهم العلماء والأدباء والشعراء ، فوجدت اللغة العربية لها منهم أكبر عون ونصير . فازدهرت بأدائها ورجالها . وعنوا بالبناء والزخرفة حتى أصبحت لهم طراز خاص . وكانوا في حملتهم محبوسين من أهل البلاد . لما تحلوا به من تسامح وعقل وعلم ، هذا على الرغم من غلوهم في مذهبيهم الشيعة . ورغبتهم في نشره بالبلاد . وعلى الرغم من قسوة بعض ملوكهم كالحاكم بأمر الله . وعلى الرغم مما أصيبت به البلاد في بعض أيامهم من جفط وجذب وغلاء ، كما وقع في عهد المستنصر بالله .

ويهمنا أن نتوه هنا بأن البلاد كانت منسقة عزيزة الجانب في عهدهم . وانتشرت كلهم إلى نواح عدة من الشام والحجاز والعراق ، حتى قيل إنه خطب الخليفة المستنصر بجائه على منابر بغداد نحو أربعين خطبة دعى له فيها .

ثم دب فيهم ديب الضعف ، وكان مذهبهم الشيعي الذي يخالف مذاهب الجمهور المصري في مقدمة الأسباب التي تفرقت عنهم . هنا ظهرت طائفة من الزعماء حتى كل منهم

إلى الوزارة واستبد بها دون الخليفة، فتنازعوا بينهم أمرهم، واستغل النزاع وتجهوا بالخلفاء في الرواح والقدو والحفلات والمجالس وما إلى ذلك، وعرفوا بالوزراء العظام، واجتروا على أن يتلقبوا بألقاب الملوك، ومنهم الملك الصالح وطلح بن رزك، وأوزيق، وزير الفاطمي، وكان أديباً شاعراً وعالماً مصلحاً. فكان ضعف الخلفاء وتشاحن الوزراء، واستنجاؤهم بأمراء الشام، ليعينوا بعضهم على بعض، وازدياد نفوذ العناصر التركية، والحدود الكامنة بين الترك والمغاربة، بسبب الحكم والسعي إليه، ثم عدم الوحدة بين الجنود المصريين - إذ كان فيهم ترك وعرب ومصادمة وصقابة وروم وعبيد سود - ثم قيام الحروب الصليبية، كان كل أولئك من أسباب زوال دولة الفاطميين سنة ٥٦٧ هـ. إذ قبض على زمام الأمر في البلاد ذرهم البطل الكركدي المعروف «صلاح الدين الأيوبي».

وفد «صلاح الدين بن أيوب بن شاذي» مع عمه «أسد الدين شيركوه» إلى مصر لإصلاح الحال فيها. وكان «أسد الدين» أحد قواد أمير الشام «نور الدين ابن زنكي». استعان العاضد الفاطمي هو وبعض الوزراء، بنور الدين، ليعينهم ويقض على حنازيعهم، فبعت إليهم بأسد الدين وابن أخيه صلاح الدين. فما زال صلاح الدين، حتى دعت الأيام بين يديه بمنصب الوزارة المصرية، في خلافة العاضد المذكور، فاستبد بالأمردونه، وأقصى عنه المتنافسين من الوزراء. وساعده على ذلك حنكته ودهاؤه. وجدد همته وشجاعته. لجمع السلطة في يده، وحكم مصر نائباً «عن نور الدين» ثم قطع اسم العاضد من الخطبة، ودعا للستضيء العباسي خليفة بغداد، وكان العاضد مريضاً. فمات. ثم مات من بعده «نور الدين»، وبذلك خلا وجه مصر لصلاح الدين الأيوبي وحده فأعلن نفسه سلطاناً عليها، ومن هنا ابتدأت الدولة الأيوبية.

أخذ صلاح الدين يسوس البلاد بمهارة وقدرة، وبصلح من أمرها ويمازج مريض للشئون فيها، ويرى مضطربها. فأبطل المذهب الشيعي، وعمل على نشر المذاهب السنية وبخاصة مذهب الإمام الشافعي، وعنى كثيراً من آثار الفاطميين، ووجد عناصر جيشه، فآخذ جنوده من الأكراد خاصة، فكانت عدتهم نحو اثني عشر ألفاً. ونظم الضرائب وأقام المبانى، وعدل بين الرعية فأحبته وتلقته به. ثم خاض غمار الحروب الصليبية، وانزع بيت المقدس، وأرعب المسيحيين. فسجل اسمه بين أبطال الإسلام الخالدين.

ويعتبر العصر الأيوبي في جلته امتدادا للنصر الفاطمي، من ناحية استقلال البلاد في إدارة شئونها وغزو أمراتها باسمها. زد على ذلك أن الأيوبيين — وعلى رأسهم مؤسس دولتهم صلاح الدين — نصبوا أنفسهم حماة عن الدين وذاة عن أهله عند متعصبى المسيحية. الراغبين في الاستحواذ على بلاد المسلمين باسم البلاد المقدسة. فوقفوا دونهم سدا منيعا. ومنعوا توغلهم في بلاد المسلمين خاصة وبلاد الشرق عامة. فلم يستطيعوا أن يتألوا في تلك المصور الوسطى ما تألوه في المصور الحديثة. وكم للأيوبيين من بعد صلاح الدين من موقعة أذلوا فيها أنوف الفرنجة، ونههوا من كبريائهم، وتلك موقعة المنصورة، في عهد المعظم «توران شاه». وفيها أسر جنود مصر «روادى فرانس»، أى ملك فرنسا لويس التاسع وغيره. ويحتموه في دار ابن لقمان وهو القاضي غفر الدين بن لقمان الذى كان كاتباً للسر، وداره بالمنصورة. ثم اقتدى نفسه وعاد إلى بلاده على ألا يفكر في غزو مصر مرة أخرى. وفي هذه الغزوة بالذات ظهر تضامن طبقات الشعب ظهوراً محمداً وعاونوا أولى الأمر حتى تم لهم النصر. وقد قال ابن إياس في الجزء الأول من تاريخه بصدد الموقعة المذكورة ما نصه :

« فلما كان يوم الجمعة ثاني عشر المحرم سنة ثمان وأربعين وستائة، ركب الأمير بيبرس البندقدارى، والأمير لاجين، وغيرهما من الأمراء، وخرج معهم السواد الأعظم من العوام والفلاحين وغير ذلك، وفي أيديهم السيوف والدبابيس والرماح، ومنهم طائفة يرمون بالشباب، لحملوا على الإفرنج حملة واحدة، فكانت ساعة تشيب منها النواصي. فانكسر الإفرنج أبخص كسرة، وولوا مديريز واقه تعالى ناصر الناصرين. وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم. فبلغ حدة من المشهد في هذه الواقعة من أمراء السلطان سبعة وستين أميراً غير الممالك. وقتل من العوام ما لا يحصى عددهم، وقتل من الإفرنج على فارسكور ما يزيد على اثني عشر ألف إنسان. »

وكان سبب هذه الموقعة غزو الفرنجة للديار المصرية عن طريق دمياط. أقول : ولم يتنصر نصيب الشعب على ما قام به عوامه، بل قام الخطباء بشيرون الحاشية في النفوس، ويوغرون الصدور على هؤلاء المعتدين. وفي كتاب (الخريدة) للعماد الأصهباني، وكتاب «الروضة» في أخبار الدولتين المقدسى ذكر لهذه الحروب وما لبسها من خطب وأشعار.

ولم يقصر ملوك بني أيوب في تقريب العلماء والنايحين والاستئناس برأيهم ومشورتهم. وهذا هو القاضي الفاضل عبد الرحيم البيهقي أديب مصر الذائع الصيت ، كان وزيراً لصلاح الدين وعضداً له قوياً . وابتنى كثير منهم العمائر والمساجد ، ورتبوا الدروس ، وشجعوا أدباء العربية ، وأسندوا ضروباً من البر والإحسان كثيرة . حتى بهروا الناس غير أن دولتهم لم تسلم من عمرها إلا نحو ثمانين سنة (٥٦٧ هـ - ٦٤٨ هـ) حتى كان الهرم قد أصابها لضعف ملوكها حينذاك ، ووقوع الخلف في صفوقهم . وطغيان نفوذ مماليكهم — مما سنفضله بعد — فكان آخر ملوكهم زوجة الصالح الأيوبي « شجرة الدر » أم خليل ، التي تزوجت أحد كبار ممالك زوجها « عز الدين بن أيبك » وخلعت نفسها من الملك ، فتسلم « عز الدين » مقاليدته معلناً بنفسه سلطاناً على البلاد عام ٦٤٨ هـ وبذلك حلت دولة الأيوبيين . وبدأت دولة المماليك ، وهي التي تفصل الكلام تفصيلاً فيما يلي :

١/ مصر في عهد المماليك

١٦٤٨ هـ - ٩٢٣ هـ (١٢٥٠ م - ١٥١٧ م) .

تقصد بهذا العصر ، الفترة التي حكم فيها سلاطين المماليك في مصر ، منذ انقضاء عهد الأيوبيين عام ٦٤٨ هـ إلى أن فتحها الأتراك العثمانيون عام ٩٢٣ هـ ، ولا تقصد هنا استيعابا تاريخيا للعصر المذكور ، وتفصيلا لافعاله السياسية وحروب ملوكه ووقائعه فإن ذلك مما يضيق به صدر كتاب كهذا ، زد على ذلك أن بين أيدينا موسوعات تاريخية ، كغلت إيضاح تلك الحوادث والحروب والوقائع ، وفيها إسماء بفتاح اللغة وروى الظما ، وإن كانت هذه الموسوعات تروى روايتها ونقص قصتها بعبارة تحتاج إلى التجديد والتمحيص والمقارنة ، مع جمال العرض وحسن التحليل ودقة التعليل ، كما يقتضيه فن كتابة التاريخ في عصرنا الحديث ذلك لأن الموسوعات المشار إليها قد كتبها مؤرخون عاشوا في العصور الوسطى ، كان أكبر مهمهم سرد الحوادث غالبا ، دون الربط بينها أو تحليلها أو تحليلها ، وعرضوها غالبا عرضا لا أناقة فيه ، بمروجة بصنوف أخرى من الحوادث والوقائع المختلفة . وهي بذلك تحتاج إلى إعادة النظر فيها لإخراجها في صورة جديدة شائقة تلذ للقارئ من طلاب التاريخ في العصر الحديث . وليس منها هنا أن تنقص قصتها ولا أن نعيد النظر فيها إلا بمقدار ما نخرج منها خلاصات سريعة وصورا عاجلة للحالات شتى من حالات عصر المماليك تعين على رسمه في الأذهان رسما واضحاً مقبولا . وإن يكن موجزا . منها هنا أن نعرض النظم المرمية في الدولة والأمة ، ونصف ضروبا من عاداتها وتقاليدها ، حتى نعين القارئ على تصور الأمة المصرية في ذلك العصر ونفهم اتجاهاتها ومعرفة روحها وأسس معيشتها ومدار حياتها ، ونشجع ذلك بتراجم كثير من رجالها . فترجمتهم تعين على حسن التصور ، وتساعد على تفهم الاتجاهات . ولن نترك الحوادث السياسية وسير الملوك جانبا . بل سنعرض لها بمقدار يسير . حتى لا يخلو هذا المؤلف من إحدى الدعائم الهامة التي يرتكز عليها تصوير العصر . ولنا بذلك كله - أو بالأحرى هذا الجزء التاريخي - نعين على فهم الحركات الأدبية والعلمية فهما أدق

وأوفى . وبذلك كله نفخى القراء عن عشرات من المصنفات التي لا غنية عنها لمن يريد فهم
المصر على أكل وجهه .

اعمل المالك

كان الرق منتشرا في العصور الوسطى ، وكانت تجلب الغلمان المرد والفتيان الحسان
من بلادهم البعيدة إلى أسواق الرقيق ، حيث توجد الرغبة في اقتنائهم ، وحيث يتنافس
في ذلك المتنافسون للخدمة أو اللهو . وكان هناك تجار أخصاء ، هم النخاسون ، يعرضون
هذه الأجسام البشرية بضاعة في الأسواق العامة وغير العامة ، ويصفون محاسنها للناظرين .
أما طريقة جلبهم لهذه البضاعة فالسرقة والخطف ، يسرقون الغلمان ، ويختطفون العذارى من
أهلهم ، ثم يستحلون بيعهم للناس ويستحل الناس شراءهم . وقد يشترق حط أو غلاء ، أيهم ويأمن
فتنون . حينذاك فلذ الأكباد على أهلها . فيفرطون فيها بالبيع . تخفيها للبلى ، وحفظا
للمرق ، بما يدفعه لهم البشارى الكريم ، وما كان يساعد على رواج تجارة الرقيق الغارات
الحرية التي يشنها غاز فاتح قاس غليظ القلب ، على أهل بلد وأدعين آمنين ، فيفترق شملهم
ويبيد جمعهم ويترك الولدان ، ويسبي الجوارى الحسان . فينشط النخاسون حينذاك ،
ويقالون في شراء هؤلاء . ولم لا يقالون ؟ وفي انتظارهم خلفاء وملوك وأمراء ووزراء
وعظماء ، على أهبة لقايتهم بصرد الدنانير الذهبية والأعطيات القيمة أجرا لبضاعتهم الجيدة .
فقد كان منهم من يدفع الآلاف والآلاف بل والآلاف ، ثمنا لجارية جميلة أو عام وسيم
وما ساعد على رواج هذه التجارة أيضا ما يتوقع من الحظ الحسن للأرقاء في مستقبل
حياتهم . فقد تدفع بهم الأقدار إلى أن يصلوا إلى ما يصل إليه أحرار الرجال وعقيلات
النساء ، من عز ورفاهية ومجد وطيب أحوال .

لهذا انتشر الرق في العصور الوسطى . وكان الأرقاء فيها أحياء باضربا من المنح والهدايا ،
يتبادلها العظماء والمترفون . وتلوق الناس وجود الرقيق بلاغربة ولا استكراه ، وكثر
القسري ، وتعددت جيوش الجورارى في القصور ، واستلأت أروقتها بالعلمان ، وأصبحت
أحيانا أولى قوة وأولى بأس شديد .

ولم يلب بالرق شئ من دونه أخز ، أو جنس دون غيره . فقد كان من الإرقاء : التركي

والجركسى والرومى والزنجى والحلبى والفارسى وغيرهم . وأروج ما كانت تجارتهم فى الأجناس التركىة والجركسية ، لما تنصف به من جمال وطيب مجلس ، ولما ابتليت به بلادهم من غارات وحروب طاحنة .

واستكثر منهم خلفاء بنى العباس والفاطميون والأيوبيون وغيرهم . ولقد كان لمصر نصيب من هؤلاء كبير :

وقد ذكر بعض مؤرخى عصرنا الحاضر ، أن أول من استخدم الماليك الأتراك فى مصر ، وجلبهم إليها ، واستعان بهم على تثبيت سلطانه ، خلفاء الفاطميين ، تشبها منهم ببنى العباس ببغداد ، ثم اتقن أثرهم فى ذلك ملوك الدولة الأيوبية .

ولكن الحق أن أول من استخدمهم وجلبهم إلى مصر ، وجعلهم عمدة جيشه هو « أحمد بن طولون » . وهو أول الولاة الذين استقلوا بمصر بعد الفتح العربى كما يئناه . فقد قال القلقشندى فى صبح الأعشى بالجزء الثالث عند السلام عن ولى مصر ملكا قبل دولة الفاطميين ما يلى : « وأولهم أحمد بن طولون . . . وفى أيامه عظمت نيابة مصر ، وشمنت إلى الملك ، وهو أول من جلب الماليك الأتراك إلى الديار المصرية ، واستخدمهم فى عسكرها » .

وقال ابن إياس فى الجزء الأول من تاريخه عند ذكر دولة الأمير أحمد بن طولون ما يلى : « قال ابن وصيف شاه : فلما تم أمر الأمير أحمد بن طولون فى ولايته على مصر ، واستقامت أحواله بها ، استكثر من مشترى الماليك الديالمة ، حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك » .

فأنت ترى أن ما اشتراه ابن طولون من هؤلاء الماليك — على فرض المباينة فى عدمهم — كان خير نواة لوجود الماليك فى مصر . وقد اتبع هذه السنة ملوك الفاطميين وخطوطا فى جندهم بين أجناس مختلفة . ولما آل الملك إلى صلاح الدين الأيوبي اتخذ جنوده من الأكراد ويجلوى المرتقة ، وحذا خلفاؤه حذوه .

ثم جاء الملك الصالح نجم الدين بن أيوب فى سنة ٦٣٦ هـ ، فرأى أن يثبت ملكه بجنود جديد ، فاستكثر من مشترى الماليك الأتراك ، ونشأهم تنشئة عسكرية . غير أنهم كانوا كثيرى العبث والشر ، يحوسون خلال الأسواق ، وينهبون البضائع من التجار ، حتى علا الضجيج بسببهم . فبنى لهم سيدهم قلعة خاصة بجزيرة الروضة ليقوموا بها

ولا يرحون . وسام البحريه واتخذ منهم أمراء دولته وخاصته وبطانته وحراسه .
وكانوا أقل من ألف علك (١) .

وقد كان هؤلاء البحريه عضدا قويا لذلك الصالح حرسوا ملاكه وذادوا عنه ، وثبتوا دعائمه ، وأبلاو بلاد عظيميا في موقعة المنصورة ، التي هزموا فيها الفرنجة ، والتي هونها بها . وعلى يد هؤلاء البحريه انتقل الملك من بنى أبوب إلى أمراء الممالك ، فلكوا مصر وأصبح منهم سلاطينها وكونوا فيها طبقة حاكمة جديدة ودولة من طراز جديد هي « دولة الممالك » .

وإذا ما ألقنا هنا لفظ « الممالك » أو « دولة الممالك » ، فإنما نقصد الدولة التي كونها هؤلاء . دون من قدمهم في عصر الأيوبيين أو الفاطميين ، أو تأخر عنهم في العصر العثماني .

وقد تتابع سلاطينهم على عرش مصر زهاء ثلاثة قرون ، واتبعوا في الحكم نظاما سنينيه فيما بعد . وقد جد السلاطين والأمراء في مشتري الممالك الجدد باستمرار . فكان من هؤلاء الجدد المدد التقليدى لهذه الطبقة الحاكمة . وقد ساعد على مشتراهم تعدد هجمات التتار إذ ذك على أواسط آسيا الخوارزمشاهية وبلاد التركان وشرق آسيا الصغرى ، وغير ذلك من نواحي آسيا . فكثرت سبي الصغار وفرار الكبار أمام هذا الخطر الداهم : وأقبل سلاطين مصر وأمراؤها على شراء هؤلاء الممالك ، وغالى بعضهم في ذلك ، ورفع أثمانهم حتى كانت الآباء تعطى أبناءها للنخاسين القادمين إلى مصر وتوصيهم ببيعهم فيها (٢) ، لما كان يدفع فيهم من ثمن كبير ، ولما كان ينتظرهم من مجد خطير .

ولو أنك رجعت إلى سيرة كثيرين من سلاطين دولة الممالك ، وأمراءها ، لوجدتهم من هذه الممالك المشتراة . وإليك أخيارا عن بعضهم ، نقلنا عن ابن إياس :
الملك الظاهر بيبرس : أصله تركى الجنس ، أخذ من بلاده وهو صغير ، فبيع لشخص يسمى الهاد الضائع ، ثم اشتراه منه الأمير علاء الدين البندقدارى ، ثم آل ملكه إلى الملك الصالح نجم الدين الأيوبي . ثم أعتقه وجعله من جملة الممالك البحريه .

١ - راجع خطط القرزى ج ٣ ص ٣٨٤ تحت عنوان « ذكر دولة الممالك البحريه » .

٢ - راجع خطط القرزى ج ٣ ص ٣٤٨ تحت عنوان « الطباى بساحة الإوان »

ثم دفعت به الأقدار فصار أتابك العسكر في دولة المظفر قطاز . فلما قتل قطاز صار بيبرس سلطاناً .

والملك المؤيد شيخ المحمودى : أصله من ماليك الظاهر بقوق ، اشتراه من الخوارج محمود شاه ، وأعتقه وأخرج له خيلاً ، ثم أخذ يترقى فصار أميراً ونايباً ، وعالوته الأيام حتى أصبح سلطاناً على مصر ، بعد خلع الخليفة المستعين بالله العباسى .
والملك الأشرف قايتباى : أصله من المجرس ، جلبه إلى مصر الخوارج محمود ، فاشتراه الملك الأشرف برسباى هو وعدة ماليك صفار ، كل ملوك بمخمسين ديناراً ، ثم أعتقه وترقى في سلك الإمارة ، حتى بلغ الأتابكية فالسلطنة بعد خلع تمرينا .

وعلى مثال ما تقدم نجد الأمراء . حقا قد ولّى سلطنة مصر في ذلك العصر أحيانا ملوك لم يكونوا من قبل أرقاء مثل : الناصر محمد بن قلاوون ، والناصر محمد بن قايتباى ، والمنصور عثمان بن جقمق . وهؤلاء وهؤلاء أبناء ملوك ، حكم آباؤهم من قبل ، فورثوا عنهم الملك ؛ ولكن بعد أن جرى الرق على آباؤهم ، وربما جرى على أمهاتهم أيضا . ومن غريب الأمر أن بعض الأمراء كانوا يتنادون بعضهم على بعض بالبيع والرق ... فقدرى ابن إياس في ترجمة الناصر بن قلاوون . قال : (١)

« وقع يوما بين الأتابكى بكتمر ، وبين الأمير قوصون ، نشاجر . فقال قوصون للأتابكى : « أنا ما نقلت من الإطباق إلى الاسطبلات ، بل أخذنى السلطان من شخص ناچر كنت في خدمته . فلما أخذنى السلطان اتفق أن في ذلك اليوم توفى واحد من الخاصكية الثقال ، فأنعم على السلطان بإقطاعه وبركته وبيته ، وصرت خاصكيا في ذلك اليوم . وسبب ذلك أن التاجر الذى كنت عنده ، لما قال له السلطان : « بئى هذا المملوك ، قال التاجر : « هو حر لوجه الله تعالى » فأخذنى السلطان برضاى ولم أقعد في طبقه ، ولم أكن تحت حكم آغا . ولم أبع مثل بقية المالك . فلما سمع الأمير بكتمر ذلك ، سكت عنه ولم يجبه بشئ . »

ويلاحظ أن قوصون وبكتمر المذكورين كانا من أمراء عهد الناصر محمد بن قلاوون ، وكان يدهما الحل والربط في البلاد المصرية يوما ما .

ومن التوارد الطريفة المناسبة ما رواه ابن عباس قال : (١) « غضب السلطان قايتباى على « شاد بك أباز ، الإينالى الأشرفى . أحد الأمراء فألبسه زنطا عتيقا ، وأمر بحمله إلى خان الخليلى ليباع وقد ثبت أنه باق على ملك المنصور عثمان ، فأمر السلطان بأن يباع ويحمل ثمنه إلى الملك المنصور . فشفع فيه الأتابكى « أربك ، فاقبل منه . وآل الأمر إلى أن حل إلى الملك المنصور (٢) . فأشهد على نفسه بعتقه » .

ويروى عن شيخ الإسلام « عز الدين بن عبد السلام » أنه صم يوما على بيع عدد من أمراء الدولة الأتراك ، لأنه لم يثبت لديه أنهم أحرار . وكان هو إذ ذاك قاضى القضاة . فاعتقد أنهم من جملة مال المسلمين ، وأنهم ملك بيت المال . فحجب الأمراء ! وكان بينهم نائب السلطنة . . . فأرسلوا إلى الشيخ يطلبون عدوله عن ذلك ، ولاطفوه ولاينوه ، فلم يزد إلا إصرارا على رأيه ، ولبت لا يجيز لهم بيعا ولا شراء ولا نكاحا . ولا أى نوع من أنواع المعاملة ، حتى لحقهم من ذلك أذى كثير ، مع أنهم سادة الناس وحكام الأرض . فغضبوا وهم أحدهم بضرب هامة الشيخ بالسيف تأديبا له ، فبيست يده . فأسقط في يده ، وانتهى الأمر بعرضهم للبيع ، وغالى الشيخ في بيعهم وضم ثمنهم إلى بيت المال ، لينفقة في شئون المسلمين ، (٣) .

هذا . ونظرا إلى أن هؤلاء المالك ، وفيهم السلاطين والأمراء ، أرقاء ، والأرقاء لا ينسبون عادة إلى آبائهم ، تجد أغلبيتهم العظمى قد نسبت إلى غير الآباء والأجداد جريا على العادة المذكورة . وينسب أحدهم إلى من اشتراه من السلاطين والأمراء فيقال مثلا : شيخو الناصرى (٤) نسبة إلى الناصر حسن حفيد قلاوون ، لأن شيخو من مشترياته ومعتوقيه . أو ينسب إلى من باعه من التجار فيقال مثلا : « برقوق العناني (٥) ،

١ — يفتح ج ٢ ص ١٥٣ .

٢ — الملك المنصور عثمان هو ابن السلطان جقمق . ولى الملك ثم خلع وأقام مكرما في عهد قايتباى . ومات بمياط ثم قتل رقاته إلى القاهرة .

٣ — حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٠ ، طبقات السبك ج ٥ ص ٨٠ .

٤ — انظر ترجمته في باب « أنفاذ الرجال » في هذا الجزء من كتابنا .

٥ — انظر ترجمته في يفتح ابن عباس ج ١ ص ٢٥٨ .

نسبة إلى الخوارج عثمان بائع الرقيق الذي جلبه إلى مصر . أو ينسب إلى مبلغ المال الذي اشتري به . فيقال مثلاً : « قلاوون الألفى (١) » ، لأن الأمير علاء الدين آق سقر اشتراه بألف دينار .

هذه طريقة نستعمل . ومن الحق أن نقول : إن النسب إلى الشاري أكثر من النسب إلى غيره ، وأن المملوك قد ينسب إلى أكثر من واحد ، عن تداولوا ملكه . وقد ينسب إلى البائع والشاري معا ، وهكذا .

ويظن المرء لأول وهلة أن عالميك مصر هؤلاء ، كلهم من الجنس التركي أو الجركسي . والواقع أن فيهم من أجناس أخرى عدداً ، فتمم التركي كالظاهر بيبرس (٢) ، والجركسي كالآشرف قايتباي (٣) ، والتتري كالعادل كتبغا (٤) والقبطي كالمصور قلاوون (٥) والهندي كالأمير جوهر التركي الشبكي (٦) ، والرومي كالظاهر تبرغا (٧) . ولكن الجنس التركي والجركسي كانا غالبين . وكانت للجنس التركي السيادة في الدولة الأولى ، الدولة البحرية ، وللجنس الجركسي السيادة في الدولة الثانية ، الدولة البرجية أو الجركسية . وكان من الأجناس الأخرى جماعات من الأورانية ، وهم طائفة من المغول ، استقدمها إلى مصر العادل كتبغا المنصوري ، وهياً لهم مساكن مناسبة ، وقد كانت مساكنهم الأولى على مقربة من جبال الأكراد (٨) . وكان منها أيضاً طوائف من التركان واللاظ والكرد والقراصة والأرمن والخطا (٩) . وكثرت أنواعهم وتعددت في الجزء الأخير من الدولة الجركسية .

ويلاحظ أن المملوك كان يشتري صغيراً ، ثم يربي — كما سنبينه — غير أنه قد أخربأت الدولة الجركسية . جلبت الممالك كباراً . ومنهم من كان عاملاً أو صانعاً عززت قبل جلده . فكان ذلك في جملة أسباب فسادهم ...

١ — انظر ترجمته في صبح الأعشى جزء ٣ ص ٤٣٥ .

٢ — ٣ — ٤ — راجع تراجمهم في بدائع ابن إيس .

٥ — خطط القرينى ج ٣ ص ٣٨٧ . ٦ — بدائع ج ٢ ص ١٠٤ .

٧ — بدائع ج ٢ ص ٨٧ . وراجع تراجمهم جميعاً أيضاً في الضوء اللامع للسخاوي ، والمهمل الصافي للأبي الحسن ، والدرر الكامنة لابن حجر السقلاقي .

٨ — كتاب التتريف باب « المخرجات » .

٩ — تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٣٦٩ تحت عنوان « الخبر عن دولة الترك » .

انتقال الحكم من الأيوبيين إلى المماليك

أخذ عدد المماليك يتكاثر في مصر من الأيوبيين وأخذ نفوذهم يزداد ويعظم . وكلما أصاب الضعف ملوك الأيوبيين ، ونهكهم الترف والانفاس في الملذات ، ودب بين أمرائهم الشقاق ، وقادتهم الألاع غير المشروعة ، أتاح ذلك للمماليك أن يكونوا ذوي شأن وسلطان . لأنهم اليد العاملة ، والقوة الفعالة في ملافاة هذا الضعف ، وفي قض هذا النزاع . فأكسبهم ذلك بأسا على بأس ، وسلطانا فوق سلطان .

وقد قوى بأسهم في عهد الملك الصالح نجم الدين الأيوبي . فإنه بعد أن استعان بفريق منهم على نزع الملك من أخيه العادل سيف الدين عام ٦٣٦ هـ ، اشترى عددا كبيرا من المماليك ومنهم تمرينسا عسكريا ، وانخذ منهم حراسا وجندا . ولكن كل فيهم شر ، وحج الناس من شرهم — كايينا — فبنى لهم قلعة بجزيرة الروضة بالقرب من المقياس ، وأسكنهم بها وسماهم « البحرية » (١) وأنشأ حول تلك القلعة مستودعات حربية مملوءة بالسلاح والذخيرة . وأمرهم ألا يخالطوا الناس بالمدينة ، وأجرى عليهم الرواتب والطعام والشراب والكسب . وكانوا دائما على قدم الاستعداد لتلقي أوامره للخروج إلى القتال .

وأخذ نجمهم في الصعود ، منذ أن هيئت لهم الفرصة ، لقتال الفرنجة والتغلب عليهم . وأمر ملكهم لويس التاسع ملك فرنسا عام ٦٤٧ هـ في موقعة فارسكور والمنصورة كايينا . وكان ملكهم الصالح قد أهاب بهم ودعاهم إلى القتال .

وكانت الأخبار قد تواردت بأن « روا دي فرانس » أي ملك فرنسا « أتى في جوج من الفرنجة زاخرة ، وفي ألوف من المقاتلين ، تحملهم السفن إلى دمياط » حيث ظلوا يحاصرونها زمنا . ثم ضيقوا عليها الحناق ، وغاف أهلها من القتل والسبي ، فهجروا مدينتهم فارين تحت جنح الليل ، فدخلها الفرنجة في الصباح . ومن ثم شرعوا يزحفون على بقية البلاد متجهين نحو مدينة المنصورة ، مقيمين في طريقهم لأستحكامات . وكان الملك الصالح قد أهاب بمماليكه البواسل فأحاطوا به وحملوه في عفة خيظه ، وساروا به نحو مدينة المنصورة ، ونودي أن يجتمع إليهم عربان الجهات «

ليتعاون الجميع على دفع العدو عن البلاد .

هنا فتك الملك الصالح بنائب دمياط ، وطائفة أخرى من أمراء الممالك ، كانوا معه في إخلاء المدينة ، وفراره منها ، وتركها غنيمة باردة في يد الفرنجة . فأقف بمالك السلطان من غدره ، وحارلوا الفتك به جزاء لما قدمت يده . ولكنهم ترثوا حتى يوقعوا بالفرنجة . وبعد ذلك يحاسبونه عما فعل . ولكن الموت سبقهم إليه ، وكفاه شرهم ... فكسّم ، وته حتى لا تكون إذاعته سببا في تحاذل جنده ، وتقوية الروح المعنوية عند الفرنجة ، فتكون العاقبة وخيمة . وحملت جثة الملك في زورق ، وسيره تحت ستر الليل إلى القاهرة ، ودفن بالقاعة مؤقتا . وأرسلوا إلى ابنه « المعظم توران شاه » - وكان مقما في حصن « كيفا » ببلاد الشام - وقام أمراء الممالك بتدبير الأمور حتى يعود . وكان على الأمراء : حسام الدين لاجين ، وفارس الدين أقطاي ، وعزالدين أيبك ، ويبرس البندقدارى . وأقاموا عليهم زوجة الملك الراحل - وهى « شجرة الدر » أم خليل - زعيمة ، يأتمرون بأمرها ، ويصدرون عن رأيها . فكان ذلك منهم أول خطوة في سبيل التأمر على ملك الأيوبيين ، وقلب نظام الحكم فيه ، وكان فيه تثبيت لغوهم وإعلان مبدئى بأعمالهم .

عاد « توران شاه » بعد نحو ثلاثة شهور من دعوته لتسلم مقاليد الحكم . فدخل القاهرة ، وأذيع موت أبيه الصالح ، ونودى له بالسلطنة وتلقب بالمعظم . ثم اجتمع الممالك تحت إمرته صفا ، وتحفzوا للقاء عدوهم بحماسة للجهاد وحب للاستشهاد . وكانت الأخبار قد توالى بزحف الفرنجة نحو « فارسكور » . تخفف إليهم جيش الممالك سائرا إلى شمال « المنصورة » ، يعاضده جمع عظيم من فلاحى البلاد ومعهم المقاييع والحجارة . وعازتهم أمداد من الشمال ، ضغطت على العدو فأصبح بين قوتين . وكأوا قد أرسلوا هذه الأمداد من قبل ، ومعها سفائن محمولة على جمال لينزلوها في البحر تجاه دمياط ، ومن ثم تسير في النيل نحو الجنوب . ثم هجم رجال القوتين هجمة صادقة على العدو فأبادوا جمعه ، وشكثوا شمله ، وأسروا منه عددا كبيرا ، ومنهم لويس التاسع (١) نفسه - وقد أشرنا

١ - هذا الملك سماه القرينى « روادى فرنس » . وابن لياس « ريدا فرنيس » . وابن خلدون « رى فرانس » . وابن الوردى « فرنس افرنيس » . وكتب عنه ابن شاعر الكتي في وفاته ج ١ ص ١٠٦ فضلا « سماه « البرنس الفرنيس » . وهذا تحريف . ومأخوذ عن Roi de France أى ملك فرنسا . وتبهم الأدباء في ذلك كما في شعراين مطروح .

إليه - فسجنوه في دار القاضى نجر الدين بن اثمان بالمنصورة ، ووكلا حراسته إلى الطواشى صبيح الفاطمى (١) . فظل في سجنه حتى افتدى نفسه بالمال . وقتل في هذه المعركة من الفرنجة نحو ثلاثين ألفا ، عدا من أخذ أسيرا ، وعدا الغنائم والأسلاب .
وبهذه المناسبة نذكر ماروى عن لويس هذا من أنه بدله أن يعود إلى غزو مصر في عهد سلطنة المنصور بن عز الدين بن أيك ، فبعث إليه المنصور رقعة يهدده فيها وفيها أبيات ساخرة للشاعر ابن مطروح . وهى :

قل للفرنيس إذا جئته	مقال صدق من قتل فبه -
آجرك الله على ما مضى	من قتل عباد يسوع المسيح
قد جئت مصر تبغى أخذها	تحسب أن الزمر ياطبل ر -
فما لك الحين إلى آدم	ضاق به عن ناطريك الفسيح
رحك وأصحابك أودعهم	بقبح أفعالك بطن الضريح
خمسون ألفا لا يثرى منهم	إلا قتيل أو أسير جريح
فردك الله إلى مثلها	لعل عيسى منكم يست -
إن كان باباكم ، بذراحيها	قرب غبن قد أن من نصيح
فاتخذك كاهنا إنه	أنصح من شق لكم أو سطيع (٢)
وقل لهم إن أضربوا عودة	لأخذ ثار أو تقصد صحب
دار ابن لقمان على عهدا	والقيد باق والطواشى صبيح (٣)

فرجع لويس عن عزمه .

وفي هذه الموقعة التى شرحناها ، ظهر تضامن طبقات الشعب ظهورا محمودا . وقد أسهنا في شرحها ، لأننا السبب المباشر لتوطيد سلطة المماليك وظهور قوتهم ، و بروز أطماعهم ، وظلوا من بعدها يتسلسون الفرصة للوثوب العلى إلى عرش البلاد . وقد أتيجت لهم هذه الفرصة عندما أساء لإلهم «توران شاه» وإلى شجرة الدر معا .

١ - هكذا سمى «صبيح» هذا بالفاطمى . وسماه ابن خلدون «المظلى» وهو أقرب لنسبه إلى المظلم توران شاه .

٢ - شق : كاهن كان في زمن كسرى . وسطيع كاهن آخر من بى دثب كان في الجاهلية .

٣ - هذه الأبيات من حسن المخاضرة للسيوطى ج ٢ ص ٣٩ ، ومن دوان ابن مطروح طبع الجوائب سنة ١٢٩٨ م ص ١٨١ ، ومن سلوك القرينى حوادث سنة ٦٤٨ هـ

لذكف عنهم الخير ، وتوعدم بالأذى ، وفضل عليهم أخصاء الرافدين معه من الشام . وكان أولى له أن يتخذ من المالك أليه هؤلاء قوة وسندا ، وعونا وعضدا ، لتدبير ملكه وحفظ عرشه ، وبخاصة بعدما ظهر منهم من قوة ونشاط وشجاعة وإقدام ، وبعد أن كانوا سببا في انتصاره ودحر عدوه . لذلك كان انصرافه عنهم وتهديده لهم طيشا منه وحما ، دفعهم إلى الانتثار عليه . وما زالوا به يأترون حتى قتلوه أشنع قتلة وأبشعها . وملكوا عليهم من بعده زوجة أليه وشجرة الدر . وأطاعوها تبعا لذلك ولما بدا منها لهم من عدل وكياسة ، ولما فرقتهم من وظائف وأعطيات . أو بالأحرى ، لإطاعتها لهم وانتصارها معهم ، وانفلواتها تحت كلبة أحد زعمائهم وهو الأمير عز الدين أيبك ، فبعيته «أنا بك العساكر» أى قائد الجند ، وهى أرفع مرتبة فى الجيش . فكان عز الدين المدبر لمملكته وصاحب الرأى فى دولتها ، على الرغم مما يقال من إنه كان لا يتصرف فى الأمور إلا بعد مشورتها .

ضربت شجرة الدر الحجاب على نفسها ، فكان لذلك أثره فى ضعف مشورتها ، وصعوبة اتصالها بأمرائها ، وحسن اطلاعها على مهام دولتها . زد على ذلك أنها كانت أول امرأة تملك فى الإسلام ، فكان تملكها غريبا ، حتى قيل إن الخليفة العباسى - على ضعفه - أرسل إلى المالك ينعى عليهم أن يملكوا امرأة ... كان ذلك كله حافظا لهم على إعادة النظر فى أمر الملك من جديد ، وكثر بينهم الأخذ والرد . حتى رأت شجرة الدر بثاقب نظرها ، ويعيد رأيها ، أن تخلع نفسها من الملك ، بعد أن مكثت فيه نحو ثمانين يوما . ثم استشير الأمراء والقضاة لاختيار سلطان جديد . قمت المشورة بسلطنة الأمير عز الدين أيبك . ثم تزوج هذا الأمير من «شجرة الدر» ، ليكون ذاصلة بالبيت المالك القديم ، مع أنها زوجة سيده .

كان ذلك فى ربيع الآخر عام ٦٤٨ هـ . فركب عز الدين فى حفل جامع زاخر ، وبأبهة وجلال ، وأجلس على سرير الملك . وقبل الأمراء الأرض بين يديه ، ولقيه «بالمالك المعز» . فكان أول سلاطين المالك بالديار المصرية ، وعلى يده انتقل الملك من الأيوبيين إلى طائفة المالك ، فمن بعده توالى سلاطينهم على عرش البلاد سلاطانا بعد سلطان .

دولتنا المماليك

١٢٤٨ هـ - ١٢٢٣ هـ

بدأ عصر سلاطين المماليك عام ١٢٤٨ هـ على يد الملك المعز دحر الدين أيك، وظلوا يحكمون البلاد المصرية حتى عام ١٢٢٣ هـ أى نحو ٢٧٥ سنة ، وانتهى عهدهم بالاحتلال العثماني . واتقسموا خلال هذه الحقبة دولتين هما : « الدولة البحرية » ، و « الدولة البرجية أو الجركسية » ، وانتكلم عن كل منهما بإيجاز ، فنقول :

الدولة البحرية ١٢٤٨ هـ - ١٢٨٤ هـ

مؤسسها « عز الدين أيك » ، وحكمت نحو مائة وثلاثين سنة بين سنتي ١٢٤٨ هـ - ١٢٨٤ هـ ١٢٥٠ م - ١٣٨٢ م . وكلمة « البحرية » ، أطلقت على طائفة من المماليك قبل تأسيس دولتهم . وهذه الطائفة هي التي أسكنها سيدها الملك الصالح « نجم الدين الأيوبي » ، بقلعة الرضة . فمروا بالبحرية . وصاحبهم هذا الاسم . وليس معنى ذلك أن كل سلاطين هذه الدولة أو ممالكها من المماليك الصالحية نفسها ، بل منهم سلاطين ومماليك من غير البحرية الصالحية . وذلك لأن هؤلاء تشتتوا من بعد ، وأصبحوا في حالة مزرية يرثى لها ، بعد قتل رئيسهم « فارس الدين أقطاي » في عهد السلطان الملك « المعز أيك » . لأن هذا السلطان شعر بتآمر الصالحية عليه . فأخذ يوقى نفوذه ، ويحصن عرشه ، وجند لنفسه مماليك جدد اسموا بالمعزية ، ثم بعاش بالبحرية فقتل زعيمهم « فارس الدين » ، وشدت جمعهم فسار كثير منهم إلى الشام . ومع ذلك ظلت هذه التسمية : « البحرية » ، أيضاً لصيغة مماليك هذه الدولة فسمروا بها . وسموهم بها المقرزى في خططه . وسموهم غيره « دولة الأتراك » ، (١) . وقد جمع الملك المنصور قلاوون ، بعد ذلك شتات الصالحية

١ - ذكر الدكتور الفاضل ناشر سلوك المقرزى في ص ٣٧ من السلوك ، أن تسمية دولتهم « بالبحرية » تسمية حديثة . ولكن يفهم من الفصل الذى كتبه المقرزى في خططه تحت عنوان « ذكر دولة المماليك البحرية » أنها تسمية قديمة .

وسمى بالبحرية ، أيضا ، لأنه أحدهم . فبقى هذا الاسم فيهم وفي بقاياهم ، وأطلق على إحدى طوائف أجناد الدولة .

وقد غزت الدولة البحرية جملة غزوات موفقة ، وكبحت جماع التتار في عدة وقائع . فدفعت خطرهم عن مصر دفعا تاما ، وكفكت من عدوانهم على بلاد الشام . وكان ملوكها بمصر مستقلين ، وملكوا باسمها - في أغلب أيامهم - بلاد الشام وجزيرة العرب ، ووصل نفوذهم حينئذ إلى شواطئ الفرات والجزيرة ، وما وراء ذلك ، كما وصل حينئذ آخر إلى بلاد المغرب . وسيوضح ذلك فيما يلي من هذا الجزء .

والآن نورد ثبوتا موجزا بأسماء ملوك هذه الدولة مع الإشارة إلى أهم الحوادث في أيامهم (١) . ذاكين أنه تعاقب على العرش منهم أربعة وعشرون ، من بينهم أربعة عشر ملكا من أسرة قلاوون وحدها .

١ - الملك الممزر «عز الدين أيك»

٦٤٨ هـ - ٦٥٥ هـ (٢)

هو عز الدين أيك الجاشنكير الصالحى التركمانى . كان من عماليك الملك الصالح نجم الدين بن أيوب ، فأعتقه ، وما زال به حتى رماه أميرا . ولما توفى الملك الصالح اشترك عز الدين في تدبير أمور الدولة ، مع بعض أمراء المماليك البحرية ، ريثما يعود «توران شاه» بن الملك الصالح ويتولى عرشه . فلما عاد «توران شاه» ، وانهمزم الفرنجة ، بنسب ما بينه وبين أمراء أبيه ، فأدى ذلك إلى قتله ، وصار الملك إلى «شجرة الدر» ، فهدرت ملكها بوساطة «عز الدين» . ثم خلعت نفسها ، واختير «عز الدين» سلطانا على البلاد ، وتزوج «شجرة الدر» ليحتل بعلاقة بيت الملك . وكانت سلطنته في ربيع الآخر عام ٦٤٨ هـ .

١ - لم نسب في ذكر هؤلاء الملوك وحوادثهم ، فنى سلوك القرى وبناى ابن لياى والنجوم لآبى الحسن متبع لآبى الإسهاب .

٢ - ذكر ابن لياى والقرى فى خطه أنه عام ٦٥٥ هـ . وتال الفقهى فى صبح الأعشى أنه عام ٦٥٤ هـ .

بدأ الملك يصفو لعز الدين، وأذ هو يضبط أموره. غير أن بلاد الشام اعتلت عليه، وكان قد ملكها الملك الناصر الأيوبي. ويبدو أن الأمراء أنفسهم على «عز الدين» أن يصفو له وجهه الملك. فانتزوا الفرصة وأرغموه على إقامة أحد الأيوبيين معه في الملك، لكي يستطيعوا به لقاء الخارجين على ملك مصر. فتم لهم ما أرادوا، واستقدموا إلى البلاد شخصاً من الأيوبيين، اسمه «مظفر الدين يوسف (١)»، بن «الملك مسعود الأيوبي» وسنة عشرون، أقاموه ملكاً أيضاً، ولقبوه بالأشرف. فصار للبلاد ملكان هما: المعز والأشرف. فصار المعز رئيساً قوياً عضده بممالك جدد سمى المعزية، وأمر منهم عندما، ثم انفرد بالملك، وبجنى الأشرف، ثم نفاه بعد قليل. وكانت قد وقعت بينه وبين الناصر وقائع، انهم فيها الناصر، ثم تم الصلح بين الاثنين عام ٦٥١ هـ على أن يكون للبصريين إلى الأردن، وللناصر ما وراء ذلك. وأن يكون للبصريين غزة والقدس ونابلس والساحل كله، وأن تطلق أسرى الشام، إلى غير ذلك. وقد أخذ المعز ثائرة عرب الصعيد والبحيرة غيرهما، وشق زعيمهم الشريف حصن الدين ثعلباً. ثم رأى أن خطر البحرية قد استشرى، وأنهم استطلوا عليه حتى هموا بقتله، ونقل عليه زعيمهم «فارس الدين أقطاي» — بالزعم من أنه عاونه في غزواته — فاحتال حتى قتله، وأدخل اليأس إلى قلوب أعوانه، فتفرقوا، ومنهم من رحل إلى الشام. وبذلك استراح المعز من الشاغبين عليه، ولم يعد إزاه غير زوجته الملكة «شجرة الدر». فقد حاول أن يتزوج سواها فوقع الخلف بينهما، وأساء في التصرف معها. قيل: وعزم على قتلها، فأحقتها وأثار غضبها. ولكنها تلطفت به حتى أمكنتها الفرصة فيه، ودست إليه من خدمها من قتله وهو يستحم. وهكذا بدأ المعز بالمؤامرات والدسائس التي لازمته. وكانت وفاة المعز في سنة ٦٥٥ هـ بعد أن حكم نحو سبع سنوات. وكان حازماً شجاعاً سافراً كالدماء. وقد حملت «شجرة الدر» بعد قتله إلى أم ولده على فقتلها جوارها ودفنت بعد أيام.

٢ — المنصور «نور الدين بن المعز» ٦٥٥ هـ — ٦٥٧ هـ

هو نور الدين علي بن المعز أليك. ولي الملك بعد قتل أبيه عام ٦٥٥ هـ، وكان صغير السن: فدير له المملكة الأتابكي «قطر». وفي عهده زاد خطر التتار، وغربوا بغداد،

١ — هذه رواية ابن إياس، وروى المقرئ في السلوك أنه «مظفر الدين موسى بن الملك المسعود الناصر صلاح الدين يوسف» وأن سنة كانت نحو ست سنين.

وأزالوا الخلافة العباسية منها ، وهبوا بالزحف على الشام ومصر . فشرعوا مراة مصر بالخطر الدام القريب ، ورأوا أن يملكوا عليهم أحد كبارهم ، ليعتمدوا عليه في صد العدوان . لذلك خلعوا المنصور بعد أن لبث في الحكم قرابة ستين وثمانية أشهر وملكوا عليهم أتابكيه « قطز » عام ٦٥٧ هـ .

٣ — المظفر ديف الدين قطز ، ٦٥٧ هـ — ٦٥٨ هـ

أصله من ماليك المعز أيبك ، وليس من البحرية . ولى الملك بعد المنصور بن المعز ، وهو الذى خلعه وقبض عليه وعلى أخيه وأمه وبجهم ، وذلك عام ٦٥٧ هـ . واعتذر إلى من خافه وناذعه من الأمراء ، بضرورة التأهب لمحاربة التتار وصددهم عن الديار ، ولا يكون ذلك على يد ملك صغير حدث . وأبدى استعدادده للتنازل عن العرش متى تم لهم هزيمة العدو ، ثم لية موانى الملك من يشاء ون . وهكذا أخذ يترصدهم ، ومن ثم استعد للقاء التتار . وبعد قليل دهم هولاء كوال التتار مدينة حلب وخرّبها وقتل أهلها وهدم قلعتها ، ولوى جيده إلى دمشق — وكان عليها الملك الناصر — ففر الناصر ، واستسلمت دمشق للفاتح . وبث هولاء خطابا إلى قطز يطلب إليه الطاعة والتسليم . فإكان من قطز إلا أن قتل رسل هولاء ، ولم شعث أمرائه ، وأعد العدة معهم للقتال ، وخرج للقاء التتار بجيوشهم الجرارة الزاحفة . وهناك بفسطين التقى بهم بموضعين أولهما عين جالوت . وثانيهما « بيسان » ، فذحرمهم شر ذخرة ، وشقت شملهم ، واستولى على الكثير من أسلابهم . وكانت موقعة عين جالوت ، أول موقعة هزم فيها التتار منذ قدروهم من ديارهم . وكان لهذه الهزيمة أثرها المعنوى في نفوس المسلمين ، إذ فهموا — على الأقل — أن التتار قوة يستطاع التغلب عليها . وبهذه النصرة وقى الله مصر شر التتار ، وفتح أمامها بلاد الشام ، فأصبحت تابعة لها إذ استولى قطز عليها من الفرات إلى حدود مصر .

عاد قطز من القتال مظفرا ، قدبر له الأمير بيبرس البندقدارى مؤامرة لاغتياله . وكان بيبرس في مقدمة أمرائه الذين أبوا معه بلاء حسنا في حروبه . فتمت قتلته على يده ويد المؤتمرين معه ، وذلك في أخريات عام ٦٥٨ هـ . ولم يكن قد أتم سنة في حكمه . وقفز إلى العرش بعده الأمير بيبرس .

٤ - الظاهر « ركن الدين بيبرس » ٦٥٨ هـ - ٦٧٦ هـ (١)

هو ركن الدين بيبرس البندقدارى . وقد لقب بالظاهر . ولى عام ٦٥٨ هـ . وهو أهم ملوك الدولة البحرية . وأصله من أرض القيقاق ، أسروبيح ، واشتره صغير السن رجل يدعى « العماد الضائع » ، فبأه للامير « علاء الدين أيدكين البندقدارى » . ثم انتقل ملكه إلى الملك الصالح نجم الدين الأيوبي ، فنسب لذلك إليهما وقد أعته الصالح وضمه إلى ممالكه البحرية ورباه معهم ، فشب شباعا بأسلا لا يهاب الموت . وقد عرفته الحروب - وهو أمير - مقداما صنديدا . عرفته في موقعة « المنصورة » التي هزم فيها الفرنجة في عهد توران شاه ، وموقع « عين جالوت » ، ود بيسان ، اللتين هزم فيهما التتار في عهد قطز . اشترك بيبرس ، قبل سلطنته ، في عدة مؤامرات ، منها مؤامراته مع المماليك البحرية بزعماء « فارس الدين أقطاي » ، ضد الملك المعز . فلما قتل « فارس الدين » وشقت شمل زملائه ، فر « بيبرس » مع بعضهم إلى بلاد الشام ، واتصل بمحبها الناصر . ثم عاد إلى مصر في عهد قطز ، وعين « أمابك العسكر » ، فقاتل معه في الطليعة . ثم دبر مؤامرة اغتيال « قطز » ، بعد انتماءهم على التتار ، إذ تقدم بيبرس إلى سلطانه ليقبل يده لأنه منحه جارية حسنة من سبايا التتار - كما قيل - وكانت هذه علامة بيبرس لأعدائه ، فاقضوا على سلطانهم بالسيف وقتلوه . وأقاموا بيبرس مكانه سلطانا . وقيل إن « قطز » كان قد وعد بيبرس بولاية حلب ، ثم أخلف ، فكان ذلك سببا للوحشة بينهما (٢) ، وسببلا للاتجار بالقضاء عليه .

ويعتبر المؤرخون « بيبرس المؤسس الحقيقي لعظمة الدولة البحرية » ، لما تم على يده وفي عهده من جليل الأعمال . فلقد اعتلت عليه بلاد الشام في أول عهده بالسلطنة إذ أعلن الامير « سنجر الحلبي » نفسه سلطانا عليها ، وتلقب بالملك المجاهد ، وجمع من حوله عدة من الأمراء . وزاد الطين بلة معاودة التتار الزحف على بلاد الشام ، فنهبوا وقتلوا وسبوا . هذا إلى زيادة نفوذ الفرنجة في إماراتهم الشامية ، وإلى قيام ممالك المعز بمؤامرة واسعة النطاق للقضاء على سلطنة بيبرس .

١ - ترجمة بيبرس موجودة بتفصيل واسع في سلوك القرزى ، كذلك في بدائع ابن لاس ونحوها . وفي الفتاوى لابن شاكر فصل عنه ج ١ ص ١٠٩ .
٢ - هذه رواية السيوطي في كتابه « تاريخ الخلفاء » عند الكلام عن شرح حال التتار .

هذه أمور جبهت مصر ، فلم يكثر لها ، وقابلها ثابته الجأش قوى النفس صلب الإرادة ماضى العزيمة . ففتك بممالك المعز وقضى على مؤامرتهم . ووجد جيشا قوى الشكيمة على بلاد الشام فأخضع أمراءها ، وأوقع بالتار ودمه عناءا حرين . وأذل الفرنجة ونهه من نفوذهم . وهزم الأتراك السلاجقة ، وفتح جملة من البلاد منها : البيرة والكرك ، وحص ، وبيسارية ، وأرسوف ، وصفد ، وبافا ، والشقيف ، وأنطاكية ، وحصن الأكراد ، وعكا ، وصافيتا ، وبلاد سيمس .

وقد غزا بيرس بلاد السودان واحتاز منها جزءا ، إلى جانب ما احتازه . فهاه الناس ، ودان له الملوك والأمراء ، وامتد في عهده ملك مصر ، وانتشر سلطانها شرقا وغربا ، وهيب منزلها . وظل بيرس سلطانا عليها يملا الدنيا مهابة ، زها سبعة عشر عاما ثم مرض وتوفى بدمشق ودفن بها عام ٦٧٦ هـ .

وأهم ما يتصف به بيرس : الشجاعة والإقدام على الحروب وحسن ترتيبها ، مع الدهاء والكرم وحب الخير والإحسان إلى الفقراء . وكان يكرم العلماء ويغطى تحت مشورتهم ، ويقربهم . وكان بعضهم يخاضه في الحديث والنصيحة فلا يبطش به لخاضته ، وكان يهاب سلطان العلماء في زمانه وهو عز الدين بن عبد السلام ، . ووقعت بينه وبين عبده الله يحيى النوروى أحد علماء الشام مكاتبات أغلظ له فيها النوروى الصيحة ، فزاد على أن نفاء من دمشق (١) . وبعث إليه ابن مالك النحوى صاحب الألفية المشهور رسالة عن الشام يستعينه فيها على صلاح حاله ، فأعانه .

ومن أجل أعماله : أن أمر بإبطال شرب الخمر ومقارفة الزنا ، وأشباه ذلك من المفاسد . وشدد التنكير على مقترفي هذه الآثام ، حتى شدا بذكره بعض شعراء عصره ، ونفك بذلك بعض منهم آخر (١) كما أنه نظم "بريد وخصص له الخيل ، وبني كثيرا من العائر ، ومن بينها مسجده الشهير . وجدد المسجد النبوى الشريف ، وشاد القناطر والأسوار ، وحفر الترغ والخلجان ، إلى غير ذلك من ضروب الإصلاح والإنشاء .

وقد آتاه البلاد في عهده قحط وغلاء ، وكان به ميل إلى ظلم الرعية والقسوة عليها بفرض الضرائب المرهقة ، بدعى الحاجة إلى المال للجهاد وإعداد الجند ، بسع امتلاء

١ — انظر الأعراس الكتاتبية في الجزء الثالث من هذا الكتاب .

٢ — انظر باب "الزجل في الجزء الرابع من هذا الكتاب .

بيت المال بالمال. غير أنه لم يكن به ضئيفاً على جنده. واتهمت طائفة من نصارى القاهرة بإحداث الحرائق في بعض أحيائها، فسكاد يحرق أفرادها عتياً بالهم. لولا شفاعة بعض أمرائه، فمقا عنهم يعد أن دقمو له غرماً مالياً.

ومن أهم الحوادث في عهده، أولاً: أنه أقام خلافة عباسية ثانية مركزها مدينة القاهرة وذلك بعد أن زالت الخلافة العباسية الأولى من بغداد على يد التتار. فكان في هذا كسب أدنى لمصر، وتأهيل لزعماء العالم الإسلامي وجعل القاهرة مركزاً للعلوم الإسلامية. ثانياً: أنه أعاد خطبة الجمعة والدراسة إلى الجامع الأزهر وعمره هو وجامع الحاكم بعد أن هجر أزمناطويل. ثالثاً: نصب أربعة قضاة شرعيين، واحد من كل مذهب من المذاهب السنية الأربعة، بعد أن لم يكن بالبلاد إلا قاضى قضاء شافعى واحد يقضى بمذهب الإمام الشافعى. رابعاً: أمر بأن يطاف بالتحمل حين خروجه من مصر إلى الأراضى المقدسة. - وولى الملك بعده ابنه الملك السعيد.

٥ - السعيد، أبو المعالى محمد، ٦٧٦ هـ - ٦٧٨ هـ

هو أبو المعالى محمد بركة خان بن الملك الظاهر بيبرس، ولى الملك بعد أبيه سنة ٦٧٦ هـ، وهو في الثامنة عشرة من عمره تقريباً. فبطش ببعض الأمراء، فأضرموا له الحقد والضغينة، وحاكوا له انؤامرات، وأعلنوه بالحرب حتى اضطر إلى أن يخلع نفسه من السلطنة، وينزع إلى الكرك، حيث مات بعد قليل، ونقل إلى دمشق ودفن مع والده. وكان خلعه بعد نحو ستين من حكمه عام ٦٧٨ هـ. وما يذكر أنه كان زوجاً لابنة قلاوون الذى ملك فيما بعده أخوه الملك "العادل".

٦ - العادل، سيف الدين سلامش، ٦٧٨ هـ

هو سيف الدين سلامش بن الملك الظاهر بيبرس. ولى الملك بعد خلعه أخيه. كان عمره سبع سنوات. فاستبد بتدبير دولته الأمير "قلاوون"، أتابك العسكر. فكان يخطب له مع السلطان يوم الجمعة، وضربت النقود باسميهما. ثم صفواوجه الأمور لقلاوون، فخلع العادل ونفاه إلى الكرك، بعد مائة يوم من سلطنته، وفي نفس السنة التى ملك فيها. ثم ولى قلاوون السلطنة.

٧ - المنصور سيف الدين قلاوون ، (١) ٦٧٨ هـ - ٦٨٩ هـ

هو سيف الدين قلاوون الألباني العلاءي الصالح النجمي ، ولقب بالمنصور . ولى الملك سنة ٦٧٨ هـ . وكان من قبل ملوكا يسع للأمير علاء الدين آق سنقر ، ثم ملكه الصالح نجم الدين الأيوبي ، فضمه إلى مملكته البحرية . ثم أعاق . ولقب يترقى في سلك الإمارة حتى صار أتابكيا في عهد المعادل بن بيبرس . وقد اشترك من قبل في حوادث البحرية .

ويعتبر قلاوون ، من أعظم سلاطين هذه الدولة ، لما قام به من فتوح وأعمال جليلة ، ولأنه رأس أسرة قلاوون التي تتابع على عرش مصر منها أربعة عشر ملكا . وحكموها وحدهم قرابة مائة عام وكان قلاوون ، مغرما بشراء الممالك الجدد ، قيل : بلغت عدة ما اشتراه اثني عشر ألف مملوك . وقيل : أقل .

وبعد توليته بقليل خرج عليه نائبه بدمشق الأمير « شمس الدين سنقر الأشقر » وأعلن بنفسه مسلحا عليها وتلقب بالملك الكامل ، فأرسل إليه ملوكه « طرطاي » ، وكان نائب سلطنته بمصر ، فزال به « طرطاي » ، حتى استسلم . ودانت بلاد الشام ثانية للمنصور . وكان التتار قد شرعوا في الهجوم على بلاد الشام ، وغربوا مدينة حلب . غرّب عليهم قلاوون ، بجند كشياف ، وشدت شملهم في مدينة « حمص » ، وأخذ يماود حربيهم ، حتى قلّ من عزيمتهم ، وثبط من همتهم ، وارتدوا عن الشام خائبين . وحاصر مدينة « طرابلس » أربعة وثلاثين يوما ، حتى انتزعها هي و « حصن المرقب » ، من يد الفرنجة . وخرب « طرابلس » وبنى على مقربة منها مدينة « طرابلس » الحالية وغزا بلاد النوبة مرتين ، واستولى منها على غنائم وأسلاب كثيرة .

ثم مات المنصور بعد أن حكم نحو إحدى عشرة سنة ، وبعد أن أذل التتار والفرنجة ، وأخضع الشام . وكانت وفاته عام ٦٨٩ هـ .

ومن أجل آثاره « البيارستان » المنصوري الذي أنشأه بالقاهرة ، وهو مستشفى عام لكثير من الأمراض ، ومدرسة طيبة . وكانت المقراء تعالج فيه بالجان . وفيه قبة عظيمة دفن فيها . وله كذلك مسجد مشهور . وقيل : إن سبب بناء « البيارستان » أن المنصور نوح أن العوام خافوا أمره وخرجوا عليه ، فأمر جنوده فأعملوا السيف في

رقابهم جزافا ثلاثة أيام ، حتى قتلوا منهم عددا لا يحصى ، وأخذ المسىء والبرىء . ثم بدا له سوء عمله ، فكف عنهم ، ثم ندم . ثم بنى هذا المسجد تكفيرا لذنبه ، وأوقف عليه أوقافا لا تحصى . كما أوقف غيرها على أعمال البر والإحسان .

ومن حسناته كذلك ، أن ألغى بعض الضرائب المرهقة ، ومنها ما كان يتقاضاه ناظر المال زكاة خاصة للبال ، من صاحبه أو من ورثته بعد موته ، ولو بعدوا ، أو ضاع منهم المال . ومنها ما كان يجلبها المبشرون بفتح من القنوج التي تتم على يد السلطان . ومنها رسم السباط الذي يجبي من الناس للاحتفال بوفاء النيل — وولى الملك من بعده ابنه الأشرف خليل .

٨ — الملك الأشرف وصلاح الدين خليل ، ٦٨٩ هـ — ٦٩٣ هـ

تولى الملك بعد وفاة أبيه ؛ بعد منه ، وذلك في سنة ٦٨٩ هـ — وكان بينه وبين نائب السلطنة وطرطاي ، في عهد أبيه بعض ، قتلته في بدء ولايته ، مع أنه هو الذى حفظ له العرش من عيث الأمراء له بالاستيلاء عليه . ثم أناب السلطان مكانه الأمير وعلم الدين الشجاعى . ولكن كان هناك وزير ذو صلة وثقى بالسلطان ، وهو ابن السعوس ، فكان هو المتصرف الحقيقى في شئون دولته .

وقد حارب الأشرف في بلاد الشام ففتح مدينة « عكا » بعد أن رامها بالمنجنيق وهدم سورها وقلعها وكانت بيد الفرنجة . وفتح « بيروت » وغيرها ، ثم دخل مصر عائدا دخول الفاتحين .

غير أن الأشرف اشتغل في القبض على أمرائه والتسكيل بهم بالسجن أو الحقن ، وسمع وشاية وزيره ابن السعوس في الأمير « بيدرا » وهو من كبار الأمراء ، فأنجنقه بهجر القول . فآك من « بيدرا » ، إلا أن تأمر هو وبعض الأمراء على اغتياله . فتم لهم ما أرادوا ، عندما كان الأشرف في بعض زهرة . فوثبوا عليه وقتلوه قتلة شنيعة مزقوا فيها جسده شرمزق عام ٦٩٣ هـ ، فمات وهو في نحو الثلاثين . بعد أن حكم نحو ثلاث

١ — مدار الكتب المصرية كتاب عن الأشرف اسمه « الألفاظ الحفية » لمؤلفه عبد الله ابن عبد الظاهر . طبع باريس ، ورقم ١٨٥٨ تاريخ منه جزء — وفي الفوات ١ ج ١ ص ١٩٣ فصل طويل عن الأشرف أيضا .

سنوات . وملك بعده «بيدرا» .

استقر رأى قاتلى الأشراف على تمليك هذا الأمير . فهو رأس المؤامرة ، ولقبوه « بالملك الأجد » . غير أن أتباع الأشراف لم يتركوا « بيدرا » فى ليته تلك إلا مقتولا فلم ينعم بسلطته ، ولم يعترف به أحد . ولذلك يسقطه كثير من المؤرخين من عداد ملوك هذه الدولة .

٩ - الناصر محمد بن قلاوون ، ٦٩٣ هـ - ٦٩٤ هـ

بويح بالسلطنة بعد مقتل أخيه الأشراف ، ومقتله «بيدرا» ، وذلك عام ٦٩٣ هـ ، وكان فى سن التاسعة . وهذه أول تولية له لأنه خلع من السلطنة وعاد إليها مرتين . وفى هذه المرة قام بتدبير الملك له نائب السلطنة الأمير « كتبغا » وكان صفر سن السلطان ، سببا فى طمع الأمراء فى المملكة ، واضطراب أحوالها . فقامت فتنة شـهـمـوا بين الأمير « كتبغا » والأمير « سنجر الشجاعى » جرت بسببها حروب داخلية ، انهزم فيها « الشجاعى » ، وقتل . فاستبد « كتبغا » بالملك ، ووافقه الأمراء على خلع الناصر ، فجعله بعد أن حكم أحد عشر شهرا . وتولى السلطنة مكانه . وتم ذلك عام ٦٩٤ هـ .

١٠ - العادل « كتبغا المنصورى » ، ٦٩٤ هـ - ٦٩٦ هـ

تولى الملك بعد أن خلع الناصر عام ٦٩٤ هـ . وأصله من سببا التتار الذين أسره المنصور قلاوون فى موقعة « حصص » ثم أعقبه ، وما زال يرقى حتى أصبح نائب السلطنة ، ثم وئب إلى سرير الملك . ومن أعماله أنه رحل إلى بلاد الشام فى السنة الثانية من حكمه ومهد أمورها ، وبينما هو فى الشام إذ أعان أمراء مصر خلعه سنة ٦٩٦ هـ بتدبير الأمير « لاجين » ، نائب سلطته ، وئب « لاجين » مكانه إلى السلطنة ، فظل العادل إزاء ذلك . مقبيا فى « صرخد » مغلوعا وإن كان مرعى الجانب مكرما ، وكانت مدة سلطته فى مصر نحو سنتين ، وفيها وقع الغلاء وانتشر الوباء وقصر ماء النيل ، وتوطنت بمصر طوائف من المغول تعرف « بالآويرانية » جلت إليها بأمر العادل .

ومما يذكر أن العادل هذا لبث حتى عاد الناصر بن قلاوون إلى السلطنة ، فولاه ملكا على نيابة « حماة » عام ٦٩٩ هـ . فظل بها نائبا عن سلطان مصر حتى أدرسته الوفاة عام ٧٠٢ هـ .

١١ - المنصور وحسام الدين لاجين ، ٦٩٦ هـ - ٦٩٨ هـ

أصله من معتوق قلاوون . وكان نائب ساطنة في عهد « كتبغا » فانتزح مقام سلطانه بالشام ودبر أمر خلعهم ، ووثب على سلطنته عام ٦٩٦ هـ . ومن أعماله : أنه جدد بناء جامع ابن طولون وأوقف عليه أوقافاً طائلة . وأنه أعاد تقسيم البلاد المصرية لإقطاعات جديدة ، وفرقها بينه وبين الأمراء والجنود ، وخص نفسه منها بنصيب كبير . وهذا التقسيم هو المعروف « بالروك الحسامي » . فكان سيافى النفرة بينه وبين الأمراء . وما زاد النفور ، أنه عين مملوكه « منكوتمر » نائباً عنه فزاد نفوذه ، وكان غاشماً ، أساء إلى كثير من الأمراء . فدبروا مؤامرة لقتلها ، فقتلوا في ليلة واحدة من عام ٦٩٨ هـ .

العودة الأولى للناصر محمد بن قلاوون ٦٩٨ هـ - ٧٠٨ هـ

بعد أن قتل المنصور لاجين ، استثار الأمراء بعضهم بعضاً فيمن يولونه السلطنة ، فانفقوا على إعادة الناصر محمد بن قلاوون . فعاد إلى عرشه بعد أن ظل نحو أربع سنوات مقصياً عنه . وذلك عام ٦٩٨ هـ . وعاونوه في تدبير شئون الدولة الأميران « سلا » نائب السلطنة و « بيرس » ، الجاشنكير أتابك العسكر (١) . وبعد سلطنته بقليل أراد التتار أن يمزقوا بلاد الشام ومصر . فاستعد الناصر برجاله وزحف إلى الشام . وهناك في « سلبية » قرب بعلبك ، وقعت بين الفريقين معركة حامية ، دارت فيها الدائر على الناصر وجيشه ، ففر من وجه التتار . وأمعن التتار في فلول المصريين سلباً ونهباً ، وفي بلاد الشام قتلًا وتخريباً . فقتشاور أهل دمشق فيما بينهم ، فاستمر رأى علمائهم على طلب الأمان من « غازان » ملك التتار ، فأمنهم ، وكان الأمير « قفجق » نائب الشام - كان - هو الذى حسن لغازان غزو الشام ، ولذلك عينه نائباً عنه فيها . - ومع ذلك ظل التتار يمشون في بلاد الشام فساداً . وأخذ الناصر بعد فرارته يحشد جيشاً جديداً للملافة أعدائه . ثم زحف إلى بلاد الشام ثانية عام ٧٠٢ هـ ومعه الخليفة وقضاة مصر الأربعة ونحو مائتي ألف جندي . فلاقى جنود « غازان » في موقعة « مرج راهط » (٢) ، فانتصر الناصر

١ - ذكر في السلوك أن بيرس هنا كان أستاذاً .

٢ - ذكر في السلوك أنهم تلاقوا في « شغب » ، وروى في البلائح « في مرج راهط » وذكر كل مؤامنه أنه « تحت جبل غياغب » قريباً من دمشق . وقيل إن « مرج راهط » هو « شغب » و « مرج الصفر » راجع العرب لابن خلدون ج ٥ ص ٤١٧ ، ٤١٨ .

عليهم انتصارا حاسما . وأقوى التآمر إفناء تاما ، حتى أنه لم ينج منهم إلا القليل ، وغنم منهم غنائم عدة . ولكن بعد أن قُتل من الأمراء مصر وجنودها وعربانها عدد كبير . — فدانت بلاد الشام بذلك لمصر ثانية ، وخضعت لمشيئة سلطانها . ثم عاد الناصر إلى مصر ، وقد صفا له وجه الملك . وما زال صافيا حتى قسدا ما بينه وبين « بيرس » . فرحل الناصر من القاهرة معلنا بأنه يرحل للحج — ولكنه عندما وصل إلى الكرك ، خلع نفسه من السلطنة ليولى الأمراء من يشاءون . وذلك عام ٧٠٨ هـ بعد أن حكم في هذه المرة نحو تسع سنوات ونصف .

١٢ — المظفر « الدين » بيرس ٧٠٨ هـ — ٧٠٩ هـ

هو بيرس الجاشنكير من ماليك المنصور قلاوون . وكان قد ترقى في عهد الناصر محمد ، فصار أتابكيا . فلما خلع الناصر نفسه عن الملك وقع اختيار الأمراء عليه فولى السلطنة عام ٧٠٨ هـ . فقبض على الأمراء الموالين للناصر ، فسكان ذلك سبيا في هروب بعضهم إلى الناصر والاجتماع به بالكرك . فأرسل المظفر إليه يده بسبب من يجتمع إليه من الأمراء . فثار غضب الناصر وكاتب نواب بلاد الشام في أن يكفروا عنه أذى المظفر بيرس . فأظهروا خضوعهم للناصر وطاعتهم . فلما رأى ذلك ، سار إلى بلاد الشام ودخاها ملكا وسلطانا ، وخطب باسمه على منابرهما . فكان ذلك خير تمهيد لعودته ثانيا إلى عرشه بمصر . ولما رأى المظفر بيرس أن الأمراء ينحازون إلى جانب الناصر ، كاتبه بخضوعه له ونزوله عن الملك . وعرض عليه أن يعيش في إحدى مدن الشام . ثم إنه فرق بعض خواصه إلى صعيد مصر . وزحف الناصر إلى البلاد المصرية منتصرا . فلما دخلها سنة ٧٠٩ هـ ، أرسل أمانا إلى المظفر بيرس ، وأمره بأن يسير من صعيد مصر إلى الكرك مباشرة . على شرط أن يرد جميع الأموال والتحف والماليك الذين غصبهم من بيت المال والخزائن ، ففعل وامثل الأمر ، وسار متوجها إلى الكرك . وبينما هو في طريقه إليها إذ قبض عليه وأُتي به إلى القاهرة ، ثم خنق أمام الناصر . — وكانت مدة حكمه عشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما .

العودة الثانية للناصر محمد بن قلالون ٥٧٠٩ هـ — ٥٧٤١ هـ

عاد إلى سلطنة سنة ٧٠٩ هـ بعد أقل من عام مضى على مفارقتها . ولما دخل القاهرة وصعد إلى القلعة ، بإيمه الخليفة المستكني بالله والقضاة الأربعة وسائر الأمراء . ثم قبض على الملك السابق وأعدمه كما بينا . ثم أخذ في القضاء قضاء حاسما على أعدائه والمؤتمرين به . ويظهر أنه رأى أن نواب السلطنة خطر عليه ، فكان يفتك بالواحد منهم تلوا الآخر ، ثم ألغى نياية السلطنة . ورحل في عسكر كثير العدد إلى بلاد الشام ، ومنها إلى البلاد الحلبية ، على أمل أن يلتقي بالبتار . ولكنهم لم يحسروا على لقائه . فامتد نفوذه في أرجاء تلك البلاد حتى هابه الناس . وخطب باسمه على منابر بلاد المغرب ، وسعت إلى هذه الملوك ، وأرسلت إليه الهدايا النفيسة . وذخرت خزائنه بالمال . وبلغ ما كان لديه من المال والامراء نحو أربعة وعشرين ألفا ، وقيل بلغ عسده ما اشتره اثني عشر ألفا ، وأنسهم الأفضة الثمينة ، وقدمهم السيوف المحلاة . وامتلا عصره بكثير من مشهورى العلماء والأدباء والشعراء .

ومن أعماله : أنه قسم البلاد الشامية والبلاد المصرية إلى إقطاعات جديدة بينه وبين الأمراء والجند . وهو يخالف التقسيم الذى تم في عهد الملك المنصور حسام الدين لاجين . ويعرف التقسيم الجديد باسم « الروك الناصرى » . وقد قام الناصر ببناء جملة قصور وعمارات ومساجد وقاطر . وهو الذى حفر الخليج الناصرى عام ٧٢٤ هـ ، ومن ذلك الحين أصبح لكسره سده كل عام يوم حافل . وهو الذى أنشأ حوش القلعة ، وجملة ببستان بديع . وحج مرتين (١) وبصحبته الملك المؤيد صاحب حماة وجمع من كبار الأمراء . وأهدى إلى السكبة الشريفة في حجته الثانية سنة ٧٣٢ هـ بابا من خشب السنت الأحر مغشى بالفضة . وقد ضيق الناصر الخناق على البغايا وأهل الفساد ، وأبطل بعض المكوس الظالمة . وولد أحد عشر ولدا ذكرا ، اعتلى عرش البلاد منهم ثمانية . وقد مات الناصر عام ٧٤١ هـ ، بعد أن أنزع ملك مصر في عصره شرقا وغربا ، وهاجتها جيرانها وثبت دعائم دولتها . وهو بلا ريب من أعظم سلاطين الدولة ، ولأيدية منهم سوى أبيه المنصور قلاوون ، والظاهر بيبرس . وكان مجموع السنين التى حكم فيها في المرات الثلاث ، نحو ثلاث وأربعين سنة وثمانية أشهر . وقد تولى من بعده ابنه أبو بكر ، وكان قد عهد إليه قبل وفاته .

١ — خرج الناصر لهج ثلاث مرهات . ولكن في المرة الأولى عدل عن الحج وأقام في الكرك .

١٣ — المنصور سيف الدين أبو بكر ، ٧٤١ هـ — ٧٤٢ هـ

هو ابن الناصر محمد بن قلاوون . بويع بالسلطنة بعد موت أبيه عام ٧٤١ هـ . وكان أبوه قد جعله وليا لعمده ، مع أنه ليس أكبر أبنائه . وجلس على سرير الملك وعمره نحو العشرين . ولكنه لم يدم فيه سوى تسع وخمسين ليلة ، ثم دبرت ضده المؤامرات ، فقبض عليه الأتابكي وقوصون ، وأرسله إلى السجن بمدينة قوص ، وهناك قتل . وتولى من بعده أخوه .

١٤ — الأشرف علاء الدين بكك ، ٧٤٢ هـ

وهو ابن الناصر محمد ، ولي السلطنة بعد خلع أخيه وذلك في أوائل سنة ٧٤٢ هـ . وكانت سنه حينئذ أقل من ثمانى سنوات . فاستبد الأتابكي وقوصون ، بالأمروكان قد جمع بين الأتابكية ونيابة السلطنة . وقد اضطربت أحوال الدولة ، ووقع الخلاف بين الأمراء . فتجمع عدد من أمراء الشام حول أحمد بن الناصر محمد ، وكان مقبيا بالكرك — وهو أكبر إخوته — فرغبوا إليه في أن يلى السلطنة عوضا عن أخيه بكك ، ، وتوجهوا جميعا إلى مصر فوقفن فتن إذ ذاك كثيرة ، أدت إلى النبض على وقوصون ، وخلع السلطان الأشرف بكك ، . وتولى مكانه أحمد . فزال ملك بكك في عام توليته بعد حكم خمسة أشهر قريبا .

١٥ — الناصر شهاب الدين أحمد ، ٧٤٢ هـ — ٧٤٣ هـ

هو أكبر أبناء الناصر بن قلاوون . ولي الملك بعد خلع أخيه سنة ٧٤٢ هـ ، وأول عمل قام به أمره بقتل سبعة من الأمراء ، وبمس آخرين ممن توهم فهم العداوة له . فكان هذا سببا في نفور قلوب الجند منه . ثم إنه أقام بالكرك زمنا طويلا ، ولم يلتفت إلى شئون الرعية . فنظر الأمراء في الأمر ، وقر قرارهم على أن يطلبوا إليه الجحضور . فلم يلب لهم طلبا . فغضبوا وخلعه وتولية أخيه إسماعيل . وهكذا انتهت سلطنته بعد شهرين واثني عشر يوما ، في ١١ أيار ، عام ٧٤٣ هـ . وظل مقبيا بالكرك زمنا ، ثم قتل بأمر أخيه .

١٦ - الصالح و علاء الدين إسماعيل ، ٧٤٣ - ٧٤٦ هـ

هو أبو الفداء إسماعيل بن الناصر بن قلاوون . ولى السلطنة عام ٧٤٣ هـ ، بعد عزل أخيه الناصر أحمد . وشغل بقتال أخيه زمنا حتى استسلم له في النهاية ، وقبض عليه وقتل . وكان الملك الصالح محبا للعدل معروفا بالبر والإحسان . وقد توفي سنة ٧٤٦ هـ .

١٧ - الكامل و شعبان بن الناصر محمد ، ٧٤٦ - ٧٤٧ هـ

بريع بالسلطنة عام ٧٤٦ هـ بعد موت شقيقه إسماعيل بمهد منه . ثم قبض على بعض الأمراء وبجهم ، وأخذ يصادر أموال المباشرين ، وعادى كثيرا من الأمراء ، وهم يقتل آخرون من إخوته منهما أخوه « حاجي » فكان ذلك سببا في تحزب بعض الأمراء عليه ، فدارت بين الفريقين موقعة في جهة قبة الهراء ، انهزم فيها السلطان وولى هاربا . فانفقت كلمة الأمراء على خلعهم وتولية أخيه « حاجي » . وكان ذلك عام ٧٤٧ هـ بعد تواليته بنحو سنة وشهرين ونصف . وقد قبض على الكامل فيما بعد ، وخنق في سجنه بأمر أخيه .

١٨ - المظفر و حاجي بن الناصر محمد ، ٧٤٧ - ٧٤٨ هـ

جلس على سرير الملك بعد خلع أخيه الكامل شعبان ، عام ٧٤٧ هـ . وكانت سنة دون العشرين . وفي أول عهده قبض على عدد من الأمراء ، وبجبنوا بغير الإسكندرية ، وأمر بتخنيق بعض الأمراء الآخرين . ثم إنه اشتغل بتربية الطيور والحمام واللعب بها ، ولها عن النظر الصادق في شؤون الدولة ، واستخف بالأمراء . فقتل قلوبهم عليه واتفقوا جميعا على خلعهم . فوقع بين الفريقين موقعة رائعة أسر الملك « حاجي » على إثرها في سجن ثم خنق ، فمات بعد سلطنة دامت سنة وثلاثة أشهر وثمانية عشر يوما ، وكان ذلك عام ٧٤٨ هـ . ثم ولى الملك من بعد أخوه .

١٩ - الناصر د أبو المحاسن حسن بن الناصر محمد ، ٧٤٨ هـ - ٧٥٢ هـ

ولى الملك بعد أخيه دحاجي ، عام ٧٤٨ هـ إذ اجتمع رأى الأمراء بعد لاي - على توليته . وكان عمره حينئذ ثلاث عشرة سنة . فصارونه بعض الأمراء في تدبير ملكه . ووقع في زمنه طاعون جارف وهو وباء عام ٧٤٩ هـ الذى أهلك كثيرا من الناس واشتد بسببه الغلاء . وقامت قتنة شديدة في بلاد الشام ، إذ اعتدى نائب طرابلس د جيفا ، على دمشق ، واغتال نائبها د أرغون شاه ، فوثب جندها على نائب طرابلس ، وقبضوا عليه ثم شقوه . ثم إن بعض الأمراء تأمر على خلع الملك فقبضوا عليه وسجنوه بالقلعة داخل منزل الحرم سنة ٧٥٢ هـ ، بعد أن لبث في الحكم نحو ثلاث سنين وتسعة أشهر . واختاروا من بعده أعاه صالحا .

٢٠ - الصالح د صلاح الدين بن الناصر محمد ، ٧٥٢ هـ - ٧٥٥ هـ

بويج بالسلطنة عام ٧٥٢ هـ بعد خلع أخيه حسن . وكان الساعى إلى تملكه الأمير د طاز ، ولذلك أصبح هذا الأمير صاحب التصرف المطلق في شئون الدولة . فدبت عقارب الحسد والبغض له في قلوب كثير من الأمراء ، وأجمعوا أمرهم على قتاله هو والسلطان . فوقعت حرب أهلية بين الفريقين قرب المطرية عند خليج الزعفران ، قتل فيها عدد كبير من الأمراء . ثم انتصر السلطان عليهم وقبض على بعضهم وألقاه في السجن . ثم خرج عن طاعته نائب حلب د بيبغا أروس ، ونائب طرابلس ونائب حماة ونائب صفد وغيرهم ، فوقعت البلاد الشامية في قتنة قاسية بسبب ذلك . فصار لإلهم السلطان بمسكر كثير ، وطارد د بيبغا حتى هرب إلى بلاد التركان . وقبض السلطان على كثير من جنوده ، وأعدم بعض الأمراء المنضمين إليه ، وسجن بعضا آخر . ثم عاد إلى القاهرة في حفل عظيم . وقد مات في زمنه الخليفة المستكن بالله العباسي ، فتولى الخلافة ابنه أبو بكر المعتضد بالله . وثار عربان الصعيد فأخذ ثورتهم ، وغنم منهم أسلحا عدة ، وأمر نحو سبعائة نفس منهم ، وأعدمهم في القاهرة .

وبعد أن حكم نحو ثلاث سنين وثلاثة أشهر ونصف ، دبرت مؤامرة لخنعه بزعامة الأمير د شيخو العمرى ، مع أن هذا الأمير كال مسجوناً من قبل ، فأطلقه هذا الملك ، وقد نجحت مؤامره ، فقبض على السلطان ، وسجن بمنزل الحرم بالقلعة أيضا . واتفق

الأمراء على إعادة الناصر حسن إلى العرش ثانية . وكان خلع الملك الصالح عام ٧٥٥ هـ .

عودة الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون ٧٥٥ هـ - ٧٦٢ هـ

عاد إلى العرش في سنة ٧٥٥ هـ بعد خلع أخيه الصالح . وكان طليعيا أن يطلق يد الأمير شيخو العمري ، الأتابكي في الملك . وقد شاركه في ذلك الأمير صرغتمش . وقد بنى الأمير شيخو مدرسة جليلة الشأن ، ودورا ، وخانقاه ، وغير ذلك من العمارات النافعة ، ثم أوقف عليها أوقافا واسعة . وكذلك فعل السلطان حسن ، إذ أنشأ مدرسته المشهورة عام ٧٥٧ هـ . وكان أحد المماليك يتخذ على الأمير شيخو ، ففأفله مرة وعاجله بضربة كانت القاضية . وبموته خلا الجو للأمير صرغتمش . وسرعان ما فطن السلطان إلى ضخامة نفوذه ، فغشى عاقبته ، فعجل بالقبض عليه . فثار ثائرة أتباعه فأخذوها السلطان ، وبين كثيرا منهم ، ثم إنه خنق صرغتمش ، وهو في سجنه . إلا أن الفساد كان قد امتد ، حتى لحق بـ بليغا ، الناصر مملوك السلطان ، فثار على سيده وهزمه وقبض عليه ، ثم سجنه . وقيل : إنه خنقه ورماه في البحر ، لأن جيشه لم يعثر لها على أثر . وذلك عام ٧٦٢ هـ . وكانت مدة حكمه زهاء عشرين سنة ونصف . ومن أعمال هذا السلطان : أنه نزح بعض الأراضي المحبوسة على منافع الكنائس والأديرة ، وأنعم بها على الأمراء وأنه أبطل كثيرا من العادات التقليدية الخرافية ، وكثيرا من أنواع الفساد .

٢١ - المنصور (محمد بن المظفر حاجي) ٧٦٢ هـ - ٧٦٤ هـ

هو حفيد الناصر بن قلاوون . برع بالسلطة بعد مقتل عمه الناصر حسن عام ٧٦٢ هـ . وكان عمره حينئذ أربعة وعشرين عاما . وقد قام بتدبير ملوكه الأمير بليغا ، العمري الناصر الذي أصبح أتابكيا . وفي أول عهده بالحكم أفرج عن كثير من الأمراء المسجونين . ثم اضطربت عليه أحوال البلاد الشامية ، فخرج إليها في عدد من أمرائه ، وجمع من جنده ، وأخذ قتلها ، وقبض على زعمائها ، ثم عاد إلى القاهرة . فابلت إلا ربنا قبض عليه الأمير بليغا ، وخلعه وسجنه بالقلعة ، وولى بدله ابن عمه . وذلك في عام ٧٦٤ هـ بعد أن حكم نحو ستين وأربعة أشهر .

٢٢ — الأشرف « شعبان بن حسين » ٧٦٤ هـ — ٧٧٨ هـ

هو أبو المعالي زين الدين شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون . ولى الملك بعد خلع ابن عمه المنصور عام ٧٦٤ هـ ، وكانت سنة العاشرة . فدبر له الملك الأمير « يلبغا » العمري ، وفي عهده غزا صاحب قبرص مدينة الإسكندرية وخرّبها . فسار إليه السلطان في جمع كثيف ، ولكنه وجدته قد غادرها إلى بلاده . ثم ثارت جماعة من أمراء المماليك على السلطان أو الأتابكي « يلبغا » ، وغالفوا أوامرهما ، فوقعت بين الفريقين معركة هائلة ، كادت تدور دأثرتها على السلطان وجنوده . ولكنهم انتصروا في النهاية ، وتمكنوا من القبض على أعدائهم ، فسجنوهم بالإسكندرية .

ثم إن الأتابكي « يلبغا » قام بتشييد عمارة بحرية كبيرة ، لاستخدامها في الذود عن الشواطئ المصرية ، وحمايتها من عبث الفرنجة . وفي يوم إزال هذه السفن إلى النيل أقيم احتفال رائع ، شهدته السلطان . فلما انتهى من شهود الاحتفال عبر إلى جهة الجزيرة ومعها أتابكيه « يلبغا » ، وكان « يلبغا » قد عذب طائفة من مماليكه . فانهزوا هذه الفرصة ، واقتحموا عليهما غيـمهما . ففر « يلبغا » إلى القاهرة ، أما السلطان فقد وقع في قبضة يدهم وانقاد لهم . وبينما كان هذا يحدث في ناحية الجزيرة ، إذا اجتمع عدد من الأمراء والمماليك بزعماء « يلبغا » وملكوا عليهم أبا السلطان الأشرف ، وهو « أنوك ابن حسين » . واجتمع الجمعان متقابلين على شاطئ النيل ، وتراشقا بالنشاب ، وتراميا بقذائف النفط . ثم تمكن الملك الأشرف من العبور إلى القاهرة خفية وصعد إلى مقره بالقلعة ، فالتفت به طوائف عدة من الأمراء والجند المواليين له ، فقت ذلك في عضد الفريق الآخر فتخاذل . ثم قبض على « يلبغا » وقتل شر قتله .

هذا . وقد شبت في عهد ذلك السلطان فتن متعددة منها ما دبر لحله من السلطنة ، وفي عهده أيضا اشتدت فتن الأمراء ، وزاد خطر المماليك الجند ، وضعف السلطان عن كبح جماحهم ، كما اشتد خطر الفرنجة على ممتلكات الدولة ببلاد الأرمن والشام ، ونهبوا المدن وقتلوا المسلمين . وفي عهده قضى وباء جلوف في القاهرة ، وانتشر الجراد في دمشق وضواحيها ، وثارت العامة على بعض الأمراء .

وخرج السلطان إلى الحج عام ٧٧٨ هـ . وبصحبته الخليفة والقضاة الأربعة وكبار الأمراء ، فانهز بعض الأمراء الباقين في القاهرة ، فرصة غيابه وثاروا ضده ، وملكوا

عليهم ابنه عليا . وكانت المالك المصاحبة للسلطان شعبان في ركبته ، قد ثاروا به أيضا ناحية العقبة . وكادوا يفتكون به . لولا أنه فر ودخل إلى القاهرة مخفيا ، فدلّت على مكانه إحدى النساء ، فقبض عليه الجند ، ثم سجن وخُنف في ذلك العام . بعد أن قضى في السلطنة نحو أربع عشرة سنة . ومن عجيب الأمر أن يقول ابن إياس : « لأن أيام هذا السلطان كانت هادئة من الفتن ، مع أننا علمنا أنها كانت ملأى بها .

٢٣ - المنصور « علي بن شعبان » ٧٧٨ هـ - ٧٨٣ هـ

هو ابن الملك السابق . ولي الملك في غيبة أبيه عام ٧٧٨ هـ . وكانت سنة نحو سبع سنوات . وقد أصبح الأتابكي « أيبك البدرى » صاحب الحول والطول في دولته . وامتلات أيام هذا السلطان بالفتن والحروب الداخلية بين الأمراء . وهى حروب أهلياع وأهواء . وكانت إحدى نتائجها أن قبض على الأتابكي « أيبك » ، ثم سجن . وما زالت الفتن تترى ، والوقائع يندلع لهيبها ، إلى أن توفى السلطان بعد أن مرض زمنا . وكانت وفاته سنة ٧٨٣ هـ بعد أن حكم نحو خمس سنوات . وبما يذكر أن الأمير « برقوق » العثماني الذي أسس الدولة الجركسية فيما بعد - قد ظهر في عهد هذا السلطان ظهورا قويا وسط هذه الفتن . وأخذ يستبد بأمور الدولة حتى وصل إلى الأتابكية . وبذلك صار صاحب الأمر والنهى فيها .

٢٤ - الصالح « أمير حاج بن شعبان » ٧٨٣ هـ - ٧٨٤ هـ

هو ابن الأشرف شعبان ، وأخو السلطان السابق . بويع بالسلطنة عام ٨٧٣ هـ بعد وفاة أخيه . وكان في نحو الحادية عشرة . فقام بتدبير ملكة الأتابكي « برقوق » العثماني الجركسي . وقد قام هذا الأمير بأعمال جليلة منها أنه أرسل حملة تأديبية إلى التركمان المغيرين على البلاد الخليفة ، وحاردهم منها . وأدب عرب البحيرة الثائرين . وأقام جسرا عظيما على أحد خلجان النيل جهة الروضة . إلا أن نفسه حدثته بالوثوب إلى السلطنة . فأخذ يعد العدة لذلك . فقضى على جماعة من منازعية من الأمراء ، ثم عمل على خلع الملك الصالح ، فجمع لذلك مجلسا من الخليفة والقضاة وكثير من الأمراء وتشاوروا في الأمر ، فوافقوا على خلع السلطان الملك الصالح ، وتولية الأتابكي « برقوق العثماني . بحجة أن الرعية فسدت وساءت أحوالها . كثر وخروج العربان عليها ، وذلك عام ٧٨٤ هـ . وبذلك انتهت الدولة البحرية . وبدأ عهد الدولة الجركسية . و« برقوق العثماني الجركسي » هو مؤسسها . وقد حكم « أمير حاج » في هذه السنة نحو سنة وسبعة أشهر .

دولة الممالك الجرسية

٨٧٨٤ - ٩٢٣

تلك هي الدولة الثانية من دولتي الممالك . وأصل ملوكها من الجنس الجرسي . ولعل هذا الاختلاف اليسير في الجنسية بينهما ، هو السبب في أن يعتبرها المؤرخون دولة أخرى جديدة مغايرة للداخية . مع أن الحق في أنهما لا يفترقان في مظهر جوهرى ، لأن ملوكهما من معتوق الممالك المشتراة أو من أبنائهم ، ولأنهما لم يتبعيا في الحكم إلا نظاما واحدا في أصل حقيقته . على الرغم من أن النظام الوراثى للسلطنة كان أكثر مراعاة في الدولة البحرية . وعلى الرغم من أن الثورات والغن والمؤامرات الداخلية . قد نشطت في الدولة الجرسية ، وعلى الرغم من فساد الجند ، ومن اختلاط أجناسهم ، وعدم العناية التامة بتربيتهم ، في الدولة الثانية ، بالنسبة لما كان من ذلك في الدولة الأولى .

أما ما عدا ذلك فهما فيسه متشابهتان . فقد امتد نفوذ مصر المستقلة في عهديهما ، فملكحت بلاد الشام والحجاز في أكثر الأيام . وبسطت نفوذها أحيانا على بلاد السودان والمغرب ، وما وراء بلاد الشام نحو الشرق . وشغلت بمحاربة التتار والفرنجية والسلاجقة . ويتشابه ملوك هاتين الدولتين في حب الظهور بمظهر المحافظة على الدين والفيرة على الشريعة ، فهابوا العلماء وقربوا أهل الدين والصالحين . واندفعوا إلى وقف بعض ممتلكاتهم على وجوه البر ، وبنوا المساجد والمدارس والمستشفيات والسبل . كما يتشابهون في النشأة العسكرية والصبر على الكفاح ، كما أن نظام العمل وترتيب الدواوين وما إلى ذلك ، كان يسير في الدولتين على وتيرة واحدة تقريبا . ولهذا لا أفهم كبير معنى لجمعهما دولتين لا واحدة ، إلا ما ذكرنا من اختلافهما في التركيبة والجرسية . وإلا ما راعاه البعض من أن البحرية ، كانوا يسكنون أول أمرهم قلعة الروضة ، وأن الجرسية كانوا يسكنون قلعة الجبل . وأصلهم من رعايا مملكة خوارزم ، أكثر المنصور قلاوون من شرابهم ، حتى بلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف

وسبجانة ، وأسكنهم في أبراجها . ولذلك يسمون أيضا « البرجية » (١) . غير أنه من الحق أيضا أن بعض السلاطين البحرية ، لم يكونوا من سكان قلعة الروضة ، وأن بعض السلاطين الجركسية أو البرجية لم يكونوا من سكان أبراج قلعة الجبل . ومهما يكن من شيء فأول ملوك الجراكسة هو « برقوق » بن آفص العثماني ، وعددهم جميعا واحد وعشرون ، علما سلطنة أحد آل فلاوون ، وأحد الخلفاء العباسيين كما سنبينه فيما يلي :

١ - الظاهر « برقوق العثماني » سيف الدين ٧٨٤هـ - ٧٩٠هـ

هو برقوق بن آفص الجركسي ، وينسب إلى الخواجا « عثمان » تاجر الرقيق الذي جلبه إلى مصر . وقد أسعده الحظ حتى وصل إلى الأناطكية في عهد الملك المنصور على ابن الأشرف شعبان ، فديره أمور الدولة ، ثم دبرها لأخيه من بعده ، ثم خلعه ووثب إلى سربر الملك في عام ٨٧٤هـ . وعلى يده انقضى ملك آل فلاوون تقريبا . وانتقلت الدولة إلى الجركسية .

وقد كان السبب في سلطته أن الملك آل إلى الصفار من آل فلاوون . فسرحت الفتن في البلاد ومرحت . فرأى الخليفة والقضاة والأمرأ ، أن يولوا في الملك رجلا قويا ينفذ الرعية من الفساد . واختاروا أن يكون الأناطكي « برقوق » هو ذلك الرجل . وكان أول ما قام به ، أن أهدى الخلع الثمينة والمناصب الرفيعة إلى أتباعه وخلصائه . وقبض على كثير من أعدائه ، وأودعهم في السجن دون رحمة . وكان فائسا قاسيا فهابه الناس ، وأبطل كثيرا من العادات الذميمة ، وبخاصة ما كان يعمل في عيد التيروز ، وذلك أن يقف كثير من العوام يقهرون عظماء الدولة على أن يعطوهم مالا . وفي ذلك اليوم ، يسكن ترشقهم بالبيض والتصافع بالانطاع ، إلى غير ذلك . فشدد « برقوق » النكير على القائمين بذلك وضرب على يدهم وهدم بالشنق ، حتى كفوا وارتدعوا عن غيبتهم . ثم بنى مدرسته الشهيرة عام ٧٨٨هـ ونظم فيها أمر الدراسة . وساق لمقاتلة « تيمورلنك » التتري حملة من الجنود . فهزمت في ناحية « سيواس » ومنعته العرب بالبلاد الحلبية . ثم شق عصا طاعته بعض أمراء الشام بزعامة الأمير

١ - في خطط القرطبي جزء ٣ ص ٣٩١ تحت عنوان « ذكر دولة المالك الجراكسة » ما يفهم منه أن الذي سماه البرجية هو المنصور فلاوون . وفي ص ٣٤٨ تحت عنوان « الطباي بساحة الأيوان » ما يفهم منه أن الذي سماه البرجية هو ابنه خليل .

د يلبغا ، الناصرى نائب حلب ، فسير إليهم برقوق جندا كشيفا . ولكن كانت عاقبته الخذلان . وزحف « يلبغا » إلى القاهرة فدخلها بعد قتال يسير . ثم نهبتها جنوده . فنظر الأمراء والخليفة فيمن يولونه سلطانا ، ولا سيما أن « برقوقا » قد اختفى ، فاجتمع رأيهم على إعانة الملك الصالح « أمير حاج » إلى الملك ثانيا . فتم في ذلك عام ٧٩٠ هـ . بعد أن حكم برقوق نحو ست سنين وتسعة أشهر .

عودة الصالح « أمير حاج بن شعبان » ٧٩٠ هـ - ٧٩٢ هـ

وهو من بنى قلاوون . وآخر ملوك الدولة البحرية . انفتحت كلمة الأمراء على دعوته للسلطنة ثانيا بعد اختفاء برقوق عام ٧٩٠ هـ ولقبوه بالمنصور ، بدل « الصالح » . ودبر له الملك الأمير « يلبغا الناصرى ، الأتابكى . لجد في البحث عن « برقوق » حتى قبض عليه وبجته في قامة الكرك مكربا . ثم شبت قننه ضد « يلبغا » ، ترعها الأمير « تمرغنا منطاش » . فوقعت بين الفريقين معركة حامية الرطيس في جبة الرملة . فانهزم « يلبغا » وقبض عليه ، وأصبح « تمرغنا » أتابكيا مكانه ويده مقاليد الأمور . ثم إن « برقوقا » انتز فرصة الفن الداخلية والحروب الأهلية الواقعة بين الفريقين ، وبث دعايته في الكرك ، حيث كان مسجونا ، وتحيل حتى ملكها وقوى بها أمره ، ففر إليه عدد كبير من مماليكه ، فاشتد بهم أزره . وعادته طوائف من العربان . فاستطاع الزحف بكل أولئك إلى البلاد الشامية ، فلحقها بعد جملة وقائع وبعد معاناة شديدة بينه وبين أهلها ونوابها . هنا خرج الملك الصالح ومعه الأمير « منطاش » والخليفة والقضاة والأمراء والجند لمحاربة « برقوق » وانتزع الشام منه ، فوقعت بين الفريقين معركة حامية في « شقحب » ، انهزم فيه « برقوق » . غير أنه ما لبث أن كثر على أعدائه كرة صادقة فقلعهم ، بعد أن أفنى منهم عددا كبيرا . فاضطر « أمير حاج » إلى خلع نفسه من السلطنة ، وأشهد الخليفة والقضاة على ذلك . فبايعوا « برقوقا » في مكان المعركة ، وعادوا جميعا وعلى رأسهم سلطانهم « برقوق » ، فدخل القاهرة في حفاوة زائدة ولقاء كريم . وبذلك انتهى ملك آل قلاوون نهائيا من مصر عام ٧٩٢ هـ .

عودة الظاهر « برقوق العثماني » ٧٩٢ هـ - ٨٠١ هـ

عاد إلى عرشه عام ٧٩٢ . وفي أوائل عهده وقعت اضطرابات متعددة في بلاد الشام

اشترك فيها « منطاش » . فلما طال عليها الأمد ، أعد السلطان العدة ، وخرج إلى بلاد الشام في عسكر كثيف ، فتمكن من القبض على كثير من أعدائه هناك وأعدمهم عن آخرهم ، وفيهم « بليغا » الذي كان سبياً في خلع من السلطنة في المرة السالفة . غير أنه لم يستطع القبض على « منطاش » . ولذلك لما عاد إلى مصر ، لبث « منطاش » وأعوانه يعيشون في بلاد الشام فساداً ؛ حتى أطلق بال السلطان . فشدد في طلبه حتى قبض عليه وقتل .

وما فرغ برقوق من القضاء على الفتن الداخلية والفتك بمنائمه ، حتى أخذ « تيمور لك » التترى يحرف على بلاد الشام ، بعد أن اجتاحت ملك فارس والعراق . غف السلطان لقائه ومعه أمراؤه وجنوده ، ومعه الخليفة والقضاة . وحينما بلغ مدينة حلب ، وافته رسل من ملوك عدة يخطبون وده . من بينهم رسول ملك العثمانيين « بايزيد » ، يعاهده على أن يتماونا لصد التتر . فرحب برقوق بكل هذه الوفادات . وسمع التتار باستعداد الجنود المصرية للقائهم ، ففضلوا العودة إلى ملكهم ، وكفوا عن الزحف على أملاك الدولة المصرية .

ثم مرض « برقوق » وعهد بالسلطنة من بعده لابنه فرج . ومن أهم آثاره مسجده المشهور ، كما أنه أقام كثيراً من الجسور والأسوار والعمائر . وأرصد أوقافاً طائلة على وجوه البر والإحسان . ثم توفي في عام ٨٠١ هـ . بعد أن حكم في هذه المرة نحو تسع سنين وثمانية أشهر . ومات وعمره ثلاث وستون سنة . وهو ولا شك من أعظم سلاطين المماليك . وعصره شيبه بعصر الناصر محمد بن قلاوون في كثرة من عاشوا فيه من العلماء والأدباء وأفذاذ الرجال . وقد ولي السلطنة اثنان من أبنائه .

٢ - الناصر « فرج » بن برقوق « ٨٠١ هـ ٨٠٨ هـ »

هو زين الدين أبو السعادات بن برقوق . ولي الملك سنة ٨٠١ هـ . بعد وفاة أبيه بعهد منه فبايعه الخليفة والقضاة وشيخ الإسلام عمر البلقيني والأمراء . وكانت سنة حينئذ اثنتي عشرة سنة . فقدر له الملك « الإناجي » « إيتمش الجاسي » . غير أن « إيتمش » المذكور اقلب ضد السلطان بعد قليل . ف وقعت الفتن بين أنصار الاثنين . وتلاقوا في معركة حامية ، فانهزم جند « إيتمش » ، وفرروا إلى الشام ، بعد أن عاشوا في القاهرة فساداً . وكان نائب الشام « تم » قد حدثه نفسه بالخروج عن طاعة السلطان ، فقتل الجنود

المهزومة بصدر رجب ، وانضم إليه في عصيانه نواب حلب وحماء وصفد وطرابلس ، وقويت شوكرته ، فجرد السلطان عليهم جيشا قويا ، وسار هو في طليعته . فهزمهم هزيمة منكرة ، وفروا من وجهه . وتمكن أعوانه من القبض على كثير من هؤلاء العصاة وبينهم « إيتش » فسجنوا ثم قتلوا . وعين السلطان نوابا جديدا عنه في تلك البلاد .

وفي عهده زحف « تيمورلنك » على مدينة حلب ، واستولى عليها وقتل بأهلها ، ومثل بهم أقيع مثله . فجمع له السلطان فرج عسكرا كثيفا وخرج للقائه . فقتلوا العسكران لقاء جزيا ثم تصالحا . إلا أن « تيمورلنك » انتهز عودة السلطان إلى مصر ، لتلاقي الفتى التي أثارها أمراؤه ، وطرق دهشق ، وأجبر سكانها على دفع أموال طائلة له ؛ ثم عاث جنده فيها فسادا ، فغلبوا أهلها ، وأئخوا فهم قتلا ، وهتكوا أعراض نسائها ، وأسروا عددا ضخما من علباتها وقضاتها وأعيانها وأمرائها وجنودها ، وصنعوا بها أشنع مما صنعوا بمدينة حلب . ثم أشعلوا النار في دورها وتركوها خربة مقفرة ... فهم السلطان فرج بالخروج للملاقاة ، ولكن « تيمورلنك » كان قد تلافى هذا التلاقي ، ورحل عن المدينة ، ونفطت السفارة بين المسلمين ، فصالحا على أن يطلق كل منهما ما لديه من الأسرى .

ومن أهم ما شغل بال السلطان فرج ، الفتى والثورات الداخلية التي أضرم نارها الأمراء فيما بينهم ؛ بسبب أطماعهم وحقوقهم ونزوعهم إلى العصيان ، واشتداد معاكساتهم له فسم السلطان تلك الحال ، ورأى أن يهجر القلعة - وهي مقر حكمه - ويحتفى . . بعد أن حكم نحو ست سنوات ونصف . فانفقت كلمة الأمراء على تولية أخيه « عبد العزيز ابن برقوق » ، وذلك عام ٨٠٨ هـ .

٣ - المنصور « عز الدين عبد العزيز بن برقوق » عام ٨٠٨ هـ

اختاره الأمراء ملكا على البلاد بعد أخيه عام ٨٠٨ هـ وله من العمر نحو عشر سنوات . فقدر له الأمر « الأتابكي » « بيرس » ، فأثار ذلك حقد منافسيه ولا سيما الأمير « يشبك الشعباني » . فجمع أعداء الأتابكي « بيرس » ، وجدوا في إعادة السلطان فرج إلى العرش - وكان مختفيا في منزل أحد أتباعه . فوقعت بين الفريقين المتنازعين معركة هائلة ، انتصر فيها أتباع فرج . فلما علم بذلك ، أسرع من مخبئه بالاصعد إلى القلعة ، وحين أعاد الصغير ، ولما يعض على سلطنته سوى شهرين وعشرة أيام .

عودة الناصر « فرج بن برقوق » ٨٠٨ هـ — ٨١٥ هـ

عاد إلى عرشه بعد قليل . وفي أوائل عودته خرج عن طاعته بعض أمراء البلاد الشامية ، وكاد بغت من يدة زمام تلك البلاد . وكان من الثائرين بها الأميران : « شيخ الحمودى » و « نوروز الحافظى » . فرحضا على البلاد المصرية بكتائب عدة فلاقاهم الناصر ، فهزموه . فأغرثهم هزيمته على أن يتبعوه إلى القاهرة . فكان هذا سببا في أن يكرّ عليهم ، فهزمهم هزيمة تكرّاء فروا من بعدها إلى الشام بعد فناء كثير من العسكرين . وقد كانت هذه الفتن المتوالية والعصيان المستمر ، سببا في أن حبيب إلى السلطان استخدام المنف والثذوذ في معاملة الممالك ، حتى كان كثيرا ما يلذخ بعض ماله ليكيد يده . . اقتفرت منه القلوب ، وهجره كثير من الجنود ، وانحازوا إلى أعدائه بالشام . فقويت شوكتهم وتجمعوا تحت قيادة الأميرين « شيخ » و « نوروز » . تخف السلطان فرج إلى لقائهم بجهة تدعى « الجون » بالشام ، فهزم وأفل نجمه . فخلع من السلطنة وقبض عليه ، ثم أعدم عام ٨١٥ هـ . بعد أن حكم في هذه المدة نحو سبع سنوات .

ويعتبر الناصر فرج من أعظم سلاطين الدولة الجركسية لشجاعته وبطولته في القتال ، وما جرده من المباني ، ولا مثله عصره بكثير من العلماء والأدباء . غير أنه - فيما قيل - كان عجا لشرب الخمر ، ميالا إلى سفك الدماء ، قليل الحرص على الدين ، ولهذا حكم عليه أعداؤه بالكفر ! ... وعانى الناس في عهده كثيرا من آلام الظلم والطغيان .

سلطنة الخليفة « المستعين بالله » العباس ، ٨١٥ هـ

هو أبو الفضل العباس بن الإمام محمد المتوكل على الله . وكان هو خليفة ذلك العصر من بنى العباس بمصر . ولّى السلطنة المصرية في عام ٨١٥ هـ وحسما للأزاع القائم بين الأميرين المتزعمين : « شيخ » و « نوروز » ، على أثر خلع السلطان فرج ، واختلاف الأمراء فيه من يولونه السلطنة من الأميرين . فانفق الرأى على تولية خليفة العصر أبى الفضل العباسى ، لدرء أسباب النزاع . وأعطيت بلاد الشام للأمير « نوروز » ابتداء من غزة إلى بلاد الفرات . أما الأمير « شيخ » فاختار أن يكون أنابكيا بمصر .

وهذا الخليفة هو الوحيد من بنى العباس الذى ملك مصر زمننا ، دفعته إلى ذلك أسباب قاهرة خارجة عن اختياره . ونظرا إلى حرج موقفه أمام الأتراك أصحاب السلطان ، ومعرفته

مقدما ما يستول إليه أمره ، احتاط واستبق لنفسه منصب الخلافة ، يعود إليه مستقبلا إذا لم تغلق سلطنته . والواقع أنه لم يكن له من أمره شيء ، بل كان المستقبل دونه بكل شيء . هو الأتابكي «شيخ» المحمودى . وكان وجود هذا الخليفة فى السلطنة ، من باب التهديد لسلطنة «شيخ» . ولذلك سرعان ما خلعه بعد ستة أشهر تقريبا . ووثب بنفسه إلى السلطنة بحجة أن البلاد فى حاجة إلى سلطان تركى ، يتولى بحسبته قيادها . وذلك فى عام ٨١٥ هـ .

٤ — المؤيد «أبو الفضر شيخ المحمودى» ، ٨١٥ هـ — ٨٢٤ هـ

كان من عماليك السلطان «برقوق» ، فأعقته . وأخذ يدرج فى مدارج الرقى والإمارة حتى صار نائب الشام . ثم تعاون هو وصديقه نوروز الحافظى على خلع السلطان فرج . ثم لما تولى الخليفة العباسى سلطنة البلاد من بعد فرج ، استبد به الأمير «شيخ» ، ثم خلعه وجلس مكانه على سرير الملك عام ٨١٥ هـ . وكان «نوروز» صديقه نائبا بالشام ، فشق عليه ملك «شيخ» . وخرج عن طاعته ولم يعترف بسلطانه . فذا كان من المؤيد إلا أن عبأ الجند وحلهم إلى دمشق وكرهم على عدوه «نوروز» ، فهزمه وقبض عليه وجز رأسه . وأخذ فى تهديد البلاد الشامية والحلبية . ثم عاد إلى مصر .

ولكن تكررت ثورة أمراء الشام عليه . فشدد النكير عليهم وقتل منهم عددا كبيرا ، فدانت له هذه البلاد . وقد مرض المؤيد ثم توفى فى أوائل سنة ٨٢٤ هـ .

ومن أهم آثاره جامع المشهور بالقاهرة بجوار باب زويلة . وكان المؤيد شجاعا كريما محبا للعلم والموسيقى . وقيل كان يفهم العربية وينظم الشعر بها . وتولى بعده ابنه .

٥ — المظفر «أبو السعادات أحمد بن المؤيد شيخ» ، ٨٢٤ هـ

اختير السلطنة بعد وفاة أبيه عام ٨٢٤ هـ . وكان ضيعا لما يقطع . فدبر له الأمر الأمير «ططر» ، وكان أمير مجلس وليس نائب سلطنة ولا أتابكيا . وكان «أتابكيا» العصر هو الأمير «الطنبغا القرشى» ، وكان قد أرسل على رأس تجريدة لتأديب العصاة من نواب الشام . فلما سمع بسلطنة المظفر امتنع عن طاعته واستقر ببلاد الشام . فترق حينئذ الأمير «ططر» إلى منصب الأتابكية بمصر . فلما تم له ذلك قوى نفوذه واشتد ساعده ، وزوج أم السلطان الرضيع ، وعول على تأديب «الطنبغا» . فرحل إليه فى جند كثير ، وحمل معه فى ركبه سلطانه ومرصعته وأمه ، فقبضوا على العصاة وأعدموهم .

ولما شهد د ططر ، ما آل إليه أمره من بسطة ملك وصفاء زمان ، خلع السلطان
وهو بدمشق ، وأعلن بنفسه سلطاناً على البلاد المصرية وما يتبعها . وبأيده الخليفة
والقضاء والأمراء وذلك في نفس عام ٨٢٤ هـ . وعاد إلى القاهرة قد خلع السلطان ، فلقبته
في أبيه حلة ... وبذلك انتهت سلطنة المظفر الذي لم يدم في الملك سوى ثمانية أشهر
لأقليل . - ثم إنه بمن وظل مسجوناً حتى توفى مطعوناً وسنه العاشرة تقريباً .

٦ - الظاهر د ططر « ٨٢٤ هـ

هو سيف الدين أبو سعيد ططر الظاهري الجركسي . كان في عداد عماليك د برفوق ،
ثم دفع به حظه إلى عرش السلطنة المصرية ، إذ بويع بها وهو في دمشق عام ٨٢٤ هـ .
ولكنه لم يدم في سلطانه ، إذ مرض بعد عودته من الشام ، ثم توفى في عام توليته . وقيل إن
معلقته - وهي أم السلطان السابق - قد دست له سماً كان السبب في مرضه ، وبويع أبنه من بعده .

٧ - الصالح د ناصر الدين محمد بن ططر « ٨٢٤ - ٨٢٥ هـ

بويع بالسلطنة بعد وفاة أبيه عام ٨٢٤ هـ ، وعمره حينئذ إحدى عشرة سنة . فدبر
له الأمر الأتابكي « جاني بك الصوفي » ، وكان لهذا الأتابكي أعداء من الأمراء ،
حافدون عليه ، وعلى ما صار إليه من عز وجه . وتزعهم في ذلك المقر السبي « برسبای
الدقاق » ، الدوادار . فزالوا به ، حتى قبضوا عليه وبجسوه . وانفرد بشئون الدولة
الأمير د برسبای ، المذكور . فلما رأى أن شوكته قد أصبحت قوية ، خلع السلطان
الطفل ، وتبوأ مقعده عام ٨٢٥ هـ .

٨ - الملك الأشرف د برسبای ، ٨٢٥ - ٨٤١ هـ

هو أبو النصر د برسبای الدقاق الظاهري . بويع بالملك عام ٨٢٥ هـ فأخذ في غزو
قبرص ، فهزم مائكها وأسره مع عدد من جنوده ، وسبقوا إلى القاهرة بمصفدين في الأغلال .
ولم يهدأ له بال ، حتى قبض ثانية على الأمير « جاني بك الصوفي » - لأنه كان قد فر من
بجته - فأعدم . ثم جمع الأشرف جنداً كثيراً ، ورحل بهما إلى بلاد الأرمن لتأديب
الخارجين عليه فيها ، وعلى رأسهم « قراملك » . ولكنه عاد من غير طائل .
مرض الأشرف بعد ذلك . واختلط عقله . فاضطربت أحكامه ، وشدت أوارمه

قيل : إنه رسم مرة بنى الكلاب إلى الجزيرة ، وعدم خروج النسوة ، وقتل بعض الأطباء ... وما زال حتى توفي عام ٨٤١ هـ . ودفن بمقبرته التي أنشأها بالصحراء .
ومن أعماله : مدرسته بسوق الوراقين ، ومدرسته بمخاضه سرياقوس . - وفي عهده وقع طاعونان جارفان بالديار المصرية أحدهما عام ٨٣٣ ، والآخر عام ٨٤١ هـ . واشتهر بدناييره الأشرفية ، أجود أنواع الدنايير ، وما يذكر أنه عهد إلى ولده بالسلطنة من بعده ، وجعل الأتابكي « جقمق » وصيا عليه .

٩ - الملك العزيز « يوسف بن ريساي » ٨٤١ - ٨٣٢ هـ

وهو أبو المحاسن جمال الدين ، بويع بالسلطنة في أواخر عام ٨٤١ هـ ، بعد موت أبيه وبعهد منه . وعمره حينئذ أربع عشرة سنة . فدبر له أمر المملكة ، وصيه الأتابكي « جقمق » ، لحسكت مؤامرة لخلعه ، نجحت بعد ثلاثة أشهر ، في أوائل عام ٨٤٢ هـ . وتولى السلطنة الأتابكي « جقمق » .

١٠ - الظاهر « جقمق العلاني » (١) ، ٨٤٢ - ٨٥٧ هـ

هو سيف الدين أبو سعيد جقمق العلاني . بويع بالسلطنة عام ٨٤٢ هـ بعد الملك العزيز . وقد تم الأتابكي « قرقاس الثمبائي » ، بأن ينقض على السلطان ، وينزع منه السلطنة . فوقع بين الفريقين معركة شديدة في جهة الرملة ، انهزم « قرقاس » على أثرها وفر هارباً ثم تمكن السلطان من القبض عليه ، وبجته ثم قتله ، وخرج عن طاعته نائب الشام ، فأدبه وقتله أيضاً . وفي عهده كذلك تجمع عدد من العبيد السود ، في ناحية الجزيرة ، وساءلوا منهم واحداً ، وعانوا في تلك الناحية فساداً . فبطش بهم السلطان جقمق بطشاً شديداً ، وجهمهم وساقهم إلى أسواق بلاد الزوم حيث بيعوا .

بعد أن انتهى السلطان من إطفاء نار الفتن المتوالية المذكورة ، عاشت البلاد في كنفه زمناً ، عيشاً هادئاً بعض الهدوء بالنسبة لمصور سابقه . ثم مرض عام ٨٥٧ هـ ، وأحس ذوو الموت . فثزل عن العرش لابنه في ذلك العام . وما لبث غير قليل حتى

١ - ترجم له السخاوي في الضوء بعض التفاصيل ج ٣ رقم ٢٧٨ ، وقال في السياق : إن الرضى محمد بن الضياء أحمد بن الفقيه « د » سرقة حقه . جافه . بالالف هذا قد ترجمه أيضاً شهاب الدين ابن عبد المنكف :

قبض ، بعد أن حكم أكثر من أربعة عشر عاماً . وكان جققم كريماً براً محباً للعلماء .
معظماً للأمراء .

١١ - المنصور دعيان بن جققم ، ٨٥٧ هـ .

بويغ بالسلطنة قبل وفاة أبيه بنحو شهر ، وذلك في أوائل سنة ٨٥٧ هـ . وهو
أبو السعادات بن الدين . وكانت سنة تسعة عشر عاماً . وعاونته في تدبير مملكته ،
الأمير د إينال العلاني . إلا أن قريفاً كبيراً من الممالك ، رغب في تملك الأتابكي
د إينال ، المذكور . فظفروا المنصور بعد سلطنته بثلاثة وأربعين يوماً لا غير . وتولى
السلطنة مكانه د إينال . فقبض على المنصور وبجته بالإسكندرية .

١٢ - الأشرف د إينال العلاني ، ٨٥٧ هـ - ٨٦٥ هـ

هو أبو النصر سيف الدين إينال العلاني الظاهري . ولي الملك بعد خلع المنصور
عشان عام ٨٥٧ هـ . وقد ساد في عهده الهدوء وقلت خلاله الشهورات الداخلية زمنًا .
ثم ثارت عليه الممالك والجلبان ، مراراً . ومن هذه المرات ثورة عام ٨٥٩ هـ التي اشترك
فيها خليفة عصره القائم بأمر الله حمزة بن المتوكل . فالتفتلوا جميعاً ، وخلع الخليفة من
منصبه ، وتولى مكانه أخوه المستنجد بالله . غير أن هؤلاء الممالك اجترأوا على السلطان ،
واضطروا إلى إسكاتهم بئيل المال لهم .

ومن أعماله : أن أرسل حملة لتأديب المفسرين على أملاكه الشمالية ، فنجحت في
تأديبهم ، وأنشأ عمارة بحرية لتأديب القرصنة المغيرين على قبرص وسواها ، ولكنها
لم تفد كثيراً . وعرف هذا السلطان بالكرم وهدوء النفس . ويقال إنه كان أمياً لا يعرف
القراءة ولا الكتابة . وهو من ممالك بروج .

وقد مرض الأشرف عام ٨٦٥ هـ . ولما أحسن دنو أجله ، تنازل عن ملكه لابنه
أحمد في هذا العام أيضاً . وما لبث حتى مات بعد قليل ، وبعد أن حكم حوالي مئتان
مئوت وشهرين .

١٣ - المؤيد د أحمد بن إينال ، ٨٦٥ هـ

هو أبو الفتح شهاب الدين أحمد بن الأشرف إينال . بويغ بالسلطنة قبيل وفاة أبيه ،
وكانت سنة نحو ثمان وثلاثين سنة . وقد جعل الأتابكي د خشقدم . معيلاً له في تدبير

الملك . ثم ثار عليه مائليك أبيه لأنه لم يحاجهم بالمال والوظائف . فثارت بين الفريقين واقعة نكراء في حجة الرملة ، استمرت ثلاثة أيام . فانزعم السلطان وفر واختفى . فطلب الثائرون الأناطكي « خشقدم » وباعوه بالسلطنة . وهكذا انتهى حكم المؤيد ولم يمض على يوم ثلثية سوى أربعة أشهر تقريبا .

١٤ — الظاهر « خشقدم الناصري » ، (١) ٨٦٥ هـ — ٨٧٢ هـ

هو أبو سعيد سيف الدين خشقدم . بويغ بالسلطنة عام ٨٦٥ هـ ، بعد الاعتداء على الملك المؤيد واختفائه . وكانت رغبة كثير من الممالك ، متجهة إلى تمليك نائب الشام الأمير « جانم » ، فكانت يهوى بذلك ، وملكوا عليهم « خشقدم » وقتا ريثما يعود الأمير « جانم » ويتسلم زمام السلطنة . إلا أن « خشقدم » ثبت في السلطنة ، وعاونته على ذلك « إبطاء جانم » في عودته .

وقد بدأ خشقدم حكمه ، بالقبض على الملك المؤيد ، أحمد بن إينال . وبجئته مع أخيه وأمه في نهر الإسكندرية . ثم أرضى الأمراء والجند ، وفرق عليهم أموالا طائلة . واسترضى كذلك الأمير « جانم » ليأمن جانبه وقتا . فاستبقاه في الشام . ثم رتب أمر البطش به سرا وأغرى به ، فكانت العاقبة قتل « جانم » . وبذلك تخلص من منافس قوى . وهبت بعد ذلك ثورة بين الممالك عاصفة ، بقصد الاعتداء على حياة السلطان . ولكنها باءت بالفجأة ، بعد محاولات عدة . ونظر السلطان من حوله فرأى هناك منافسا جديدا يعظم أمره ، ويشدد ساعده ، ويكثر تابعوه ، وهو الأمير « دجاني بك » ، فلم يتردد في أن دبر له كيداً ، قتله في صباح باكر .

ومن أعماله : أن أرسل تجريدة لتأديب الفرقة في رودس ، كما أنه أدب الغربيين الثائرين عليه . وقد مرض في عام ٨٧٢ هـ واستمر مريضا نحو أربعين يوما ، كانت البلاد فيها منزعجا لفوضى الجنود والأمراء معا . ثم توفي في العام المذكور بعد أن حكم نحو ست سنوات ونصف .

١ — الظاهر خشقدم أصله رومي الجنس ، وليس جركيا ، ولذلك لا يندم بعض المؤرخين من ملوك الدولة الجركية ، فهو مثل الظاهر تحريفا .

١٥ - الظاهر « أبو النصر بلباي » ٨٧٢ هـ

هو أبو النصر سيف الدين بلباي المؤيدى من معتوق الملك المؤيد شيخ . كان أتابكيا في عهد سلفه « خشقدم » . وقد دبر له أمر الثورة الأمير الدوادار « خير بك » . ولكنه اغترب في حكمه واثقال بعض الأمراء فاضطربت أحوال المملكة ، وكثر فيها الفساد ، وتفاقت الفتن . فنقم الأمراء الباؤون عليه ، وخلعوه من السلطنة في عام توليته وبايعوا الأتابكي « تمرغا » بالسلطنة . فأنتهى حكم « بلباي » بعد نحو شهرين فقط .

١٦ - الظاهر « أبو سعيد تمرغا الناصرى » (١) ٨٧٢ هـ

اختاره الأمراء للسلطنة ، بعد عزل الظاهر « بلباي » . فبقيع بها عام ٨٧٢ هـ . ولكنه لم يلبث في السلطنة سوى ثمانية وخمسين يوما . ثم غدر به جماعة من المالك الحشقدمية ، بزعامة « خير بك » الدوادار ، وقبضوا عليه ثم أعلن « خير بك » بنفسه سلطانا على البلاد . إلا أن أتابكي هذا النصر وهو الأمير « قايتباي » ، كان متغيبا . فلما سمع بهذه الحركة ، عاد بسرعة ، ومعه عدد كبير من الجنود ، دهم به السلطانين القديم والجديد ، على حد سواء ، وقذف بهما في السجن ، ووثب إلى عرش البلاد . أما « تمرغا » فقد هجمته في مدينة دمياط فظل هناك معزدا مكرا إلى أن توفي عام ٨٧٩ هـ .

١٧ - الأشرف « أبو النصر قايتباي » ٨٧٢ هـ - ٩٠١ هـ

هو أبو النصر سيف الدين ، الأشرف قايتباي المحمودى الظاهرى . جلبه إلى مصر الخواجه « محمود » ، فاشتراه الأشرف « برسباي » ، ثم انتقل معه إلى الظاهر « جقمق » . ولذلك ينسب إلى « محمود » وإلى « جقمق » فيقال : المحمودى الظاهرى . ثم أعنته الظاهر « جقمق » ، فأخذ سبيله في معراج الترقى والإمارة ، حتى وثب إلى العرش في عام ٨٧٢ هـ .

وقد واجه في هذه حكمه جملة عتبات : منها فرار السلطان السابق « تمرغا »

١ - ترجمته السخاوى في الضوء بنى من التفصيل ج ٣ . رقم ١٧٦ ، والظاهر تمرغا من الجنس الزومى وليس جركسيا وبذلك لا يعده بعض المؤرخين ملوك الجراكسة فهو كالظاهر خشقدم :

من يمنه بدمياط ، إلى بلاد الشام ، ومنها إلى حلب . فعمل السلطان على القبض عليه ، وإعادته إلى يمنه . ومنها خلو الخزان من الأموال ، مع شعوره بالحاجة إليها لإعداد الجنود ، حتى يرد الأخطار الخارجية عن المملكة . فعمل على جمع ما يستطيع منها ، على الرغم من «أرضه رجال الدين له في ذلك . ومنها اقتضاض «سوار» (١) - ملك الأبلستين وأحد أمراء التركان - على أملاك الدولة ، في شمال الشام والبلاد الحلبية . حتى عظم أمره واشتد بأسه ، واستولى على قلعة «إياس» . فجرد عليه السلطان حملة حملات ، فبادت بالحثية ، إلا الحملة التي قادها الأمير الشجاع «إياس» . فشبك الدوادر ، عام ٨٧٥ هـ ، فإنها هزمت جنود سوار ، وأعدت شمال البلاد الشامية والحلبية إلى طاعة السلطان . ووصلت في غزوها إلى شواطئ نهر جيحون ، وحاصرت قلاع التركان ، ثم شددوا الحصار على «سوار» ، حتى استسلم وخضع . فساوقه إلى مصر هو وجمع من الأسارى مصنفين في الأغلال ، بعد أن ولوا أخاه على بلاده مكانه . ثم قتل «سوار» على باب زويلة .

وبما شغل بال السلطان أيضا ، إغارة ملك العراقيين «حسن الطويل» ، على أملاك الدولة في الشام . فحاق إليه جيشا قويا بقيادة الأمير «إشبك الدوادر» ، أيضا ، فردّه على أعقابهِ . إلا أن هذا الأمير المتقدم ، قد قتل بعد ذلك ، حينما خرج بعض أمراء شرق الشام عن طاعة السلطان ، ووقعت بسبب ذلك فتنة عمياء بمدينة حماة ، تخلف الأمير «إشبك» ، لإطفائها عام ٨٨٥ هـ ، فنجح في ذلك نجاحا تاما . إلا أن انتصاراته المتوالية ، أغرته على أن يعمد في الفتح ، ويسير إلى شرق الفرات . فأصيب بهزيمة كبرى عند حصار مدينة الرها ، وقتل أمهاتها هو وكثير من جنوده ، وعذبت عدة من أمراء مصر المرافقين له في الحملة . وكادت البلاد الشامية والحلبية يفلت زمامها من يد سلطان مصر ، لولا أن تدارك السلطان هذا الخطر ، وبعث بحملة جديدة بقيادة الأتابكي «أزبك بن ططخ» ، فكان لها أثر حميد في إعادة الأمن إلى نصابه في تلك البلاد .

على أن قايتباي لم يلبث - بعد أن فرغ مما تقدم - أن واجه عدوا جديدا ، أخذ

١ - سوار هو ابن سليمان بن ناصر الدين بك بن دلفادر التركاني . كان حاكما على الأبلستين ومرعش . خرج عن طاعة سلطان مصر ، فخاربه مرارا حتى هزم وشق «أقرا» ترجمته في الضوء اللامع ج ٣ رقم ١٠٤٦ .

يطلب على أملاك الدولة ، ويغير على أطرافها . وهذا العدو العثمانيون ، الذين لم يسكنهم عدوانهم على البلاد ؛ فأغروا « على دولات » أها « سوار » بالثورة في وجه السلطان ، وطأوه على ذلك . فلم يجد السلطان بدا من محاربتهم ، فساق إليهم جندا من مصر ومن حلب كسروه شر كسرة ، ولكن بعد أن أئتمن قهيم قتلا . وكانت هذه الحادثة بدء النزاع الذي وقع بين المصريين والعثمانيين ، والذي كبر ونما في المستقبل ، حتى أفضى إلى الاحتلال العثماني للمقوق .

ولما رأى السلطان قايتباي ، ما يقوم به العثمانيون ضد بلاده ، حاربهم أكثر من مرة ، وعاتد إليهم جنده منتصرة فائزة ، تسوق في أصفادها عبيدا من الأسرى . ولقد خرجت إليهم في عام ٨٩٣ هـ ، حملة مصرية كبيرة العدد بقيادة الأتابكي « أربك بك » ، أيضا ، فأوقعت بمجد العثمانيين ، وهزمتهم هزيمة منكرة ، فولوا من بعدهم مدبرين ، بعد أن استولت منهم على مدينة « أدنه » ، « أطنا » . وخرجت إليهم حملة أخرى عام ٨٩٥ هـ ، فوصلت في زحفها إلى بلاد العثمانيين نفسها بآسيا الصغرى ، واستولت على « قيسارية » ، ثم تصالح الطرفان على تبادل الأسرى .

واعتقد أنه لو صفا قلب البلاد لسلطانها في ذلك الوقت ، وترك الأمور حرب المطامع والأهواء ، ونبد الجند حب المال والثروة في سبيل طلبه بحق ويغير حق ، والتفوا جميعا حول سلطانهم العظيم ، وقادتهم الشجعان ، لتفهم بهم وجه التاريخ ، ولشروا الراية المصرية المجيدة ، في آفاق من الدنيا بعيدة . ولا غرابة فقد واجه قايتباي ، أعداء من الخارج أقوياء عتيدين ، فقل غرهم ، وكشفهم من همهم ، وخضد شوكتهم ، حتى أرغهم على مصالحتهم . ولكن مع الأسف الشديد ، ثار الجند في عهده عدة مرات ، وأثروا بضروب من الفساد كبيرة . وبخاصة المماليك ، الجلبان ، الذين بلغ من حقهم أن استخفوا بالسلطان ، وأكثروا من العذران على الناس — واستمروا في حقهم وفي غوايتهم هذه ، حتى كانوا شرما بليت به مصر من جنود . إذ كان تخاذلهم فيما بعد ، سببا من أسباب الاحتلال العثماني في عهد القوري وطومان باي . ومن محاسن قايتباي : أن أدب العربان الثائرين بتواخي البلاد العائنين بها . كما أنه بطش مرارا عدة بخنود الفرنجة المغيرين على الشواطئ . كما أنه كان كثير التفقد للبدن الكبيرة والأمصار ، فزار مدينة الإسكندرية ودمياط والفيوم ، وطوف في بلاد

الشام وحلب نحو أربعة أشهر . وعرج على بيت المقدس .
ومن أعماله : إنشاء برج عظيم يكون كالحصن لمدينة الإسكندرية . وقد أقيم في
مكان منارها القديم عام ٨٨٢ هـ . وبناء كثير من العمارات النافعة ، وإصلاح بعض
المساجد كالجوامع الأزهر ، والحرم النبوي الشريف ، إذ شيد فيه نار صواعق فسميت
تألف جزء منه ، لجندة الأشرف قايتباي عام ٨٨٦ هـ . وله عدد من المدارس والمساجد ،
وضروب عدة من أعمال البر .

وقد أقدم بعض المماليك ، على العدوان على السلطان ، فرماه أحدهم بنشاب وهو في
سريره ، رغبة في قتله . فلما شعر السلطان بذلك حمّ ومرض ، واشتدت عليه وطأة المرض ،
فتولى الأمر مكانه ابنه محمد . ثم توفي الأشرف بعد قليل . وذلك في عام ٩٠١ هـ ، وله من
العمر نحو ست وثمانين سنة ، حكم البلاد منها نحو تسع وعشرين سنة ونصف .
ومن مساوئه : أنه قطع مرتبات بعض الجند والموظفين ، وصادر كثير منهم ،
وفرض عليهم الأتاوات والغرامات . كما أنه كان يميل إلى ابتزاز أموال الأوقاف ، للإتيان
منها على حروبه وتجاريده . ومهما يكن من أمر فإن الأشرف قايتباي ، من أعظم
السلطين الذين حكموا البلاد المصرية . وولى ابنه السلطنة من بعده .

١٨ — الناصر محمد بن قايتباي ، ٩٠١ هـ — ٩٠٤ هـ

هو أبو السعادات ناصر الدين محمد بن قايتباي . بويح بالسلطنة عام ٩٠١ هـ ، قبل
وفاة أبيه بيومين ، واستبد بتدبير دولته الأتابكي « قانصوه خمساته » ، والاستادار
« كرتباي الأحمر » . وقد اضطرب حيل الأمن ، وطمع « قانصوه خمساته » في السلطنة ،
فدبر مؤامرة اشترك فيها الخليفة المتوكل على الله أبو العز ، وقضاة الدولة الأربعة ، وعدد
من الأمراء ، وباعوا « قانصوه » ، فتسمى بالملك الأشرف .
ولكن السلطان الناصر تصب له جند كثير من مماليك أبيه . فوقعت بين الفريقين
حرب أهلية شعواء ، انزعم فيها « قانصوه » وجنوده وأصيب ، ففر واختفى ، بعد أن
وقعت القاهرة فريسة للنهب والسلب ، وعاد الخليفة واقتضاه إلى عباية الناصر . . .
وتركت هذه الفتنة في أعقابها قتلاً أخرى متعددة ، قتل فيها كثير من زعماء هذه
المؤامرات ومدبريها ، ووقع فيها أنواع شتى ، من فساد الجنود وعيهم ، حتى اضطروا

الناصر إلى تغيير لقبه والتلقب « بالأشرف » ، حتى يتساوى المالك الأشرفي وغيرهم ،
ويصبح الجميع منسوبين إلى السلطان ... ومع ذلك تمخضت هذه الحوادث عن انقسام
الأمراء والجند معسكرين : معسكر يزعمه الأمير « أقردى » ، ومعسكر يترجمه
« قانصوه بن قانصوه » ، وهو خال السلطان ، وقد بزغ نجمه في هذا العهد . ومن عجيب
الأمراء أن فريق « قانصوه » المذكور كان يدافع عن السلطان ، بينما كان هو طامعاً في الخفاء في
أن يقفز إلى كرسي السلطنة . . . والفريق الآخر يناوئ حزب « قانصوه » ، وهو حزب
السلطان الناصر ، بينما السلطان الناصر نفسه يعطف سرّاً على فريق « أقردى » ... وتقاتل
الفريقان وتراعى بالنتاب والراصاص وقذائف النفط ، وانضم إلى كل فريق جمع من
العربان . ومن الرأى أن كان كل منهما يتنادى : « الله ينصر السلطان » ! ويعلم الله مقدار
ما يضمررون له من الحب ! وظلت الحال كذلك ، والبلاد في قبضة هذين الفئتين الأهلية
العمياء ، يصيبها القحط ، ويصمى أبناءها القتل ، ويفنيها الخراب ، أكثر من شهر .
حتى أذن الله ، فانهزم « أقردى » ، الدوادار ، وسلك سبيله إلى بلاد الشام عائلاً بهياً .
فجعل السلطان بإرسال تجريدة خلفه بددت شمله ، ونكشت قتله ، ثم عادت إلى مصر ،
وعاد هو إلى عيشه ببلاد الشام . وبينما الفساد يتفاحم أمره ، والأهواء تذكو شرونها ،
لذا عاجل السلطان حين رصده له أحد أمراءه وهو « طومان باي » فقتل شر قتلة ، إثر
ليالي هو حادثة عام ١٩٠٤ هـ . فذهب في سن السابعة عشرة ، ضحية لطيشه ونزقه ، وعدم
إقامته على نية واحدة في تصرفاته ، بعد أن حكم نحو ستين وثلاثة أشهر وتسعة عشر يوماً .

١٩ - الظاهر « قانصوه بن قانصوه » ١٩٠٤ هـ - ١٩٠٥ هـ

هو أبو سعيد قانصوه الأشرفي ، أصله من مماليك « قايتباي » ، وأخوه سريته أم
السلطان الناصر بن قايتباي . وقد علا نجمه بسرعة ، فقد كان المتصرف في شؤون الدولة
في عهد ابن أخته . وظل يدبر الأمر لنفسه ، حتى وثب إلى الملك . ولم يمض بين إقامته
عموماً في أطباق القلعة ، وبين تسلمه كرسي المملكة سوى سنت سنوات . . .
وأول ما عنى به : إرسال حملة تأديبية ، على بلاد حلب ، وبلاد التركان ، حيث
انتشر فيها نفوذ غريمه « أقردى » ، الدوادار وأعرائه . فعادت الحملة ومعها عدد كبير من
أسراهم . وأدب غرب عزالة الضاربين بمهاجرات البحيرة ، بحملة قادها الأمير « طومان باي » ،

الدوادار. فمزم جوعهم ، وشدت شملهم وقبض على كثير منهم ، واستاقهم إلى القاهرة
مكبلين بالأصفاد .

ومن أهم ما حدث في عهده : خروج الأمير د قوصروه ، نائب الشام عن طاعته ؛ فهم
بتأديبه . ولكنه فوجى . بعصيان داخل على عنيف ، بإقامة الأميرين د جان بلاط ، الأنا بكي
د طومان باى ، الدوادار . فوقع بينهما وبين السلطان موقعة ، انتهت بانخزال السلطان
واخفافه ، بعد أن حكم أقل من عامين . وذلك في سنة ٨٩٠٥ .

٢٠ - الأشرف د جان بلاط بن يشبك ، ٨٩٠٥ - ٨٩٠٦

بريع بالسلطنة عام ٨٩٠٥ ، على إثر اختفاء الظاهر د قانصوه ، وهو أبو النصر
جان بلاط بن يشبك الأشرفى - فلما ملك ، دبر له ملكه الأمير د طومان باى ، وجد
في البحث عن الظاهر د قانصوه ، حتى قبض عليه ، وجمعه بالإسكندرية . ثم كثرت
مصادراته للوظفين وغيرهم ليجمع ما لا ينفقه على الجند .

وأهم ما شغل به خروج د قوصروه ، نائب الشام عن طاعته ، وتحصنه بها ، واستملاكه
على مدنها . وكذلك الأمير د دولاباى ، نائب حلب ، أعلن العصيان ، وقيل : إن هذا
كله بترتيب د طومان باى ، الدوادار ، إذ كان يمسد نفسه في الباطن . ومن سوء حظ
د جان بلاط ، أن أخرج إلى البلاد الشامية والحامية تجريدة كبيرة ، بقيادة د طومان باى ،
نفسه . فلما زحف بها على بلاد الشام ، انضم إليه عصاتها ، وأعلن بنفسه بينهم ساطاناً ،
وتلقب د بالعدل . ثم عاد إلى الزحف من جديد ، على البلاد المصرية . فلما رأى ذلك ،
السلطان د جان بلاط ، جمع جنده وعدده ، وتحصن بالقلعة ، وأقام بها على استعداد
للقاء الزاحقين ، وترك بقية لحاج البلاد مفتوحة أمامهم . فحاصروه بالقلعة ، ولم ينجم
الخرجة حصنه العتيق . فأمر بعد موقعة رائمة كثيرة الهول ؛ وحين في الإسكندرية ، ثم
خفق عام ٨٩٠٦ ، ومدة حكمه نحو نصف عام . وتولى السلطنة العادل د طومان باى ،

٢١ - العادل د طومان باى ، ٨٩٠٦

هو أبو النصر طومان باى الأشرفى ، من عماليك قايتباى . ذهب في عهد سلفه إلى
بلاد الشام لتأديب العصاة ، فألفهم حواره ، وسار على رأسهم ضد سلاطانه الأشرف
د جان بلاط ، بعد أن تسلطن هناك باسم د العادل ، في أواسط عام ٨٩٠٦ . وانتهى

أمه ، بأن أصبح سلطان مصر .

وطومان باى هذا هو الذى غدر بابن سيده فقتله ، وأعنى الناصر محمد بن قايتباى ، وهو الذى غدر بالسلطان « قانصوه » ، فكان من أهم أسباب خلعهم عن ملكه . ومع ما عرفته الرعية عنه من الضد ، كان مجبياً إليها فى أول عهده ، لظهوره بمظهر الرجل المحب لها الجذب عليها . غير أنه مالم يث حتى غدر بأحد الأمراء الذين عاونوه على السلطنة ، وأعنى « قوصروه » ، فقد أمر بخنقه . ومن ذلك الوقت أخذ شره يزداد وشد فى البحث عن أعدائه من الأمراء ، وألقى بالناس - بسبب البحث عنهم - أذى كثيراً ، حتى أصبح يفيض إلى الجميع . فخرج عليه عدد من الأمراء والجند ووقع بين الفريقين نزال ، انكسر فيه الملك العادل . فاقتنى بعد سلطنة لم تدم إلا نحو ثلاثة أشهر . وظل تحتفظاً زمناً حتى قبض عليه لخر رأسه . وتسلطن بعده الملك الغورى .

٢٢ — الأشرف « قانصوه الغورى » ، ٩٠٦ هـ — ٩٢٢ هـ

هو أبو النصر قانصوه الغورى ، من ماليك الأشرف قايتباى أعنته فأخذ سيده إلى الترقى ، حتى كان استأدارا فى عهد الملك السابق « طومان باى » . فلما اختفى « طومان باى » ، اتفقت كلمة الأمراء على تولية الغورى . فإزال يتأبى عليهم ، وهم يلحون عليه بالقبول ، حتى لبس خلعة السلطنة ، ودعمه يجرى إذ ذاك ، عام ٩٠٦ هـ . وكانت سنة ستين عاماً تقريباً .

تولى الأشرف الغورى أمر المملكة المصرية ، وهى فى أخرج ساعاتها ، فقد اضطربت أحوالها الداخلية ، وتركز فى نفوس أمرائها وجنودها حب العصيان والخيانة ، واعتادوا الفتنة والثورة ، والتأبى على أوامر السلطان . وابتليت مصر إذ ذاك بطائفة المالك والجليلان ، الذين بدأ شرم فى عهد « قايتباى » ، وضاعت من قلوبهم هيبة السلطان . ضحوا بمصلحة الوطن فى سبيل الاستحواذ على المال ، وإرهاق السلطان بالإتفاق عليهم . فهذا ببيان تصدع داخله ، ولم يبق له قوام ، غير هيكل خارجى ، أصبح يتم عما تحتوى جوانبه . لهذا طمع فى الدولة المصرية الطامعون ، وامتدت إليها أظافر القطط وغالبها ، ثم استأسدت عليها ، حتى هدمت بنيانها ، وقوضت أركانها ، وأدالت من حريتها ، وأزالت استقلالها ، فأصبحت تابعة ، وكانت متبوعة . وبانت خاضعة ، وكانت عجزية

منيفة . وتلك عاقبة محتومة لا مفر منها ، لمن لها وأمن مكر الزمان .
واجه الغورى منذبه حكه ، شرورا فى الدولة متعددة ، وشدائد جمة ، أخذ يعمل
جادا فى سبيل القضاء عليها . ولو أنصفه بنو جلده ، وتركوا الفن والمطامع ، ونبدوا
هوام جانبنا ، لتغير بهم وجه التاريخ ، وانقلبت أمامهم أوضاعه ، ولامتد ملك مصر
إلى شواطئ بحر مرمرية . . .

وأول ما عثى به الغورى ؛ القبض على السلطان السابق « طومان باى » فقبض عليه ،
ثم أعدم . وثار فى وجهه الأمير « مصر باى » . فما زال به حتى أعدمه . واضطرب أمر
الماليك عليه طلبا لتفتتهم ، فاضطر إلى اللجوء للأموال الموقوفة ، فأخذ منها جانبيا وفرض
الضرائب على الناس ، حتى تدمروا منها ولكن ماذا يصنع وخزائنه خاوية ؟ واشتدت
الفن فى بلاد الحجاز وبين أمرائها ، حتى اعتدوا على حجاج مصر ، والشام . فعمل على
تهديمه الحال وتأمين طريق المسافرين . وشذ عن طاعته بعض أمراء الشام ، فضانهم
حتى أعدمهم إليها . وازداد عبث عربان البلاد فى نواحها ، فكيف أبدبهم عنها .
إلا أن ذلك كله ، لم يكن غير تسكين وقى لهذه الأدواء ، لأنها كثيرا ما عادت
إلى ثوراتها من جديد .

ومع ذلك كله ، كانت أمامه أخطار خارجية يحسب لها ألف حساب . ولكنه
تباطأ فى الاستعداد لها فى الأوقات المناسبة . ذلك - فى أغلب الظن - بدافع الأحوال
الداخلية . وأهم هذه الأخطار : عبث الفرنجة ، وإغارة سلطان الفرس « الشاه إسماعيل
الصفوى » على أملاك الدولة ، وطموح العثمانيين إلى توسيع مملكاتهم .
أما الفرنجة ، ولاسيما البرتغاليون . فقد هلم ما كانت توجيه مصر ، وما يجنيه البنادقة ،
من الضرائب والأجور المفروضة على المتاجر بين الهند والشرق وبين أوروبا ، لمرزها
بطريق مصر . فما زالوا حتى كشفوا طريق جنوب إفريقيا . فتحولت بعض المتاجر إليه ،
ونقصت إيرادات مصر تبعاً لذلك . ولم يكتفوا بهذه ، بل أخذوا فى العبث بالسفن
المصرية ، والشواطئ المصرية والمتاجر المصرية ، فى الشمال وفى الشرق ، وألقوا على بعض
أمراء العرب والهند الذين تربطهم بمصر روابط اقتصادية . فاستغاثوا بالسلطان .
نخشى « الغورى » استفحال هذا الخطر ، وصنع عمارات بحرية ساقها لتأديب هؤلاء
الغاشين فى الشمال وفى الشرق ، وفى بحر العرب . وشواطئ الهند ، بقيادة الأمير « حسين

الكردي . ولكنهم لم تستطع كيح جماعهم ، بل وقتلوا كثيرا من جندها . ولم يقتصر خطر الفرنجة على هذا ، بل كانوا يرسلون إلى البلاد عددا من الجواسيس ، لاستطلاع أحوالها . وكانوا يُطمعون ملك الفرس « الشاه إسماعيل » بالاستيلاء على أملاك السلطان . واستطاع المصريون - في بعض الأحيان - أن يقبضوا على هؤلاء الجواسيس والنسائين ، ويمثلوا بهم شر مثلة .

وأما « الشاه إسماعيل » ملك الفرس ، فكثيرا ما أغارت جنوده على مدينة حلب وأطراف الشام ، وعيذت بها . وكان يراوغ السلطان ، فبينما تغير جنوده على البلاد ، إذ يرسل الهدايا والمكاتبات إلى السلطان ، معتبرا إليه عما جناه هؤلاء الجنود . ولولا ما شغل به « الشاه إسماعيل » من حروب أخرى ، لكان له - ولا شك - موقف آخر صريح تجاه مصر . فقد ابتلى « بأزبك خان » ملك التتار ، فإذالت الحروب تترى بينهما ، حتى قتل « أزبك » عام ٩١٦ هـ . قتال السلطان « الغوري » لموت ملك التتار ، لأنه مات ، ولكن لفراخ « الشاه إسماعيل » من الاشتغال به . . . ومع ذلك فقد سُلط على هذا الشاه من بعد : العثمانيون الطامعون في ملكه . فإزال به السلطان « سليم » العثماني حتى أذله وكرهه شر كرهة ، وملك جانبها كبيرا من بلاده . وأخذ يتفرغ للقاء سلطان مصر وأمرائها وجنودها .

ولقد بدأ تدخل السلطان سليم ، في شئون مصر ، بأن عاون ابن « سوار » ضد عمه « على دولات » نائب حلب ، في نزاع بينهما ، وطلب إلى السلطان أن ينصف هذا الابن ، فرفض السلطان هذا الطلب . وكان السلطان من قبل هذا ، قد أرسل حملة إلى مدينة حلب ، تقيم فيها ، ترقياً للحوادث والحروب الناشئة ، بين « الشاه إسماعيل » و « السلطان سليم » . ومن عجيب الأمر وغريبه ، أن عاث جنود هذه الحملة فساداً في مدينة حلب ، حتى فضل أهلها أن يهجروها . . ثم عادت هذه الحملة عام ٩٢٠ هـ دون أن تقوم بعمل ما .

وفي عام ٩٢١ هـ تحقق السلطان الغوري ، أن العثمانيين يزحفون على البلاد الحلبية ، متجهين نحو الجنوب ، وبينون الفلاح والحصون . قتيباً الغوري في الاستعداد لملاقاتهم وردحهم . واعتقد أن أهم أسباب تباطئه تلكؤ الأمراء عن تلبية نداءه تلبية سريعة ، وروح العصيان البادية في صفوف الجند ، وتذمرهم بسبب تأخر مرتباتهم .

زومها يكن من أمر ، فقد أخذ يعد العدة . لجهز حملة قوية ، لم يدخر وسعاً في الإنفاق عليها والدعوة إليها ، وتزويدها بكافة أنواع الأسلحة ، والخيل والملابس والقوت والمال . ونسكت الحملة من البلاد المصرية في ربيع الثاني عام ٩٢٢ هـ . فخرجت في حفاوة باهرة ، بين أكف الدعاء والرضا . وبدأت في أبهى زينة وأجمل حلة بمجنودها وأمراتها . وخرج السلطان ومعه الخليفة والقضاة ، قبلقوا أبواب حلب .

هنا بعث السلطان « سليم » ، رسلاً من عنده إلى الغورى ، يبدى له الود الكمين والحب الخالص ، ورفع إليه الهدايا الثمينة ، ويعلم الله أنها الحرب والمكر والخديعة . وأنها القدرة في الاستطلاع ، والبراعة في التخاذيل وتشيط الهمة . فرد الغورى أجمل رد . . . وكان أجمل به أن يحتاط للأمر ، ويأخذ له أهبة . ولكنه كان غافلاً عن مكر عدوه . فما وصلت رسل الغورى إلى السلطان سليم ، حتى مثل بهم ، وردم إليه أقبح رد . وعالتهم بزحفه للقاء سلطانهم ، في « مرج دابق » قريبا من حلب .

تلاقى الفريقان في « مرج دابق » في رجب عام ٩٢٢ هـ ، وعلى الرغم من كثرة العثمانيين وقوة مدافعهم ، أوقع المصريون الرعب في نفوسهم ، حتى هم السلطان سليم بالفرار . هنا مع الأسف وقع التخاذل في صفوف جنود مصر ، فقد أشيع أن السلطان يفضل فرقة منهم على أخرى ، فتقاعدوا عن القتال الصادق ، ثم ظهرت الحفيانة المدبرة التي تزعمها « خاير بك » نائب حلب ، إذ فر من المعركة دون سبب واضح ، وكان على مسيرة الجيش المصرى . فلما فر ، تبعه جنود كثيرون . فوقع الاضطراب والخوف في صفوف جند مصر ، ببنايت السلطان الغورى في عدد قليل من جنوده ، وهو يرى بعينيه ، خيانة خليفته وقضاته وأمراته ، واستسلامهم لعدوه دون مقاومة تذكر . وهو يرى بعينيه فرار جنده ، فيقول : « إلى أين يا أهل المروءة ! هذا وقت التجدة ... » هذا وقت المعونة . فلم يلتفت إلى نداءه أحد ، فأصيب بالشلل . . . ودمته الجنود العثمانية من كل جانب . وكانت قد عادت إليها شهاتها - فوقع إلى الأرض ، قتلتفته منها بك الخيل . ولم تدرك أين جثته ، ولا عر عليها من بعد - بذلك تمت الجريمة هناك على جيش مصر ، وأخذت قلوبهم تعود منهوكة القوى ، خائرة العزيمة إلى البلاد ، تاركين جسد سلطانهم وسط فيافي حلب مجحولا . وبذلك انتهى ملك الغورى ، بعد أن حكم نحو ست عشرة سنة .

وأم ما يؤخذ على الغورى : بطؤه وتراخيه فى الاستعداد لمقاولة الأخطار ، وتخوفه من الجند والأمراء ، وعدم الحزم فى معاملتهم ، وخصوصاً فى ساعات الشدة العصبية التى تعرض لها البلاد ، وانخداعه بالظواهر ، وعدم احتياطه منها ، وجمعه الضرائب الظالمة من الناس ، ثم إنفاقها فى إنشاء البساتين ، وجلب أشجار الفاكهة ، وتوسيع الميادين ، وإنشاء السواقى ، والعناية بالعائر والمياقى . وهذه كلها ضروب من الإصلاح محمودة ، ولكن لكل شئ إبان . وكان أولى به أن ينفق المال على تنظيم الجند وأن يضرب على يد من يضمرون له الغدر والخيانة . وكان محبا لأنواع الرياضة والزهرة والتسلية ، مع أن صوت الحرب من حوله كان صخاباً .

وهذا كله لا يمنعنا أن نذكر بعض منشئاته النافعة ، فقد أنشأ بحمة العقبة ، مخافاً وأرصفة وفنادق وسواقى ، وما إلى ذلك . مما يحتاج إليه الحجاج ، فى ذهابهم إلى الحجاز ، أو إيابهم منه . وأقام المئذنة ذات الرأسين بالجامع الأزهر . وجدد خان الخليل . وأنشأ ميدان القلعة ، وجعله بالأشجار المجلوبة من الشام وغيرها . وأجرى إليه الماء من النيل بوساطة سواقى متعددة . كما أسس كثير من الجسور على خليجان النيل ، وخصوصاً جسر الفيوم . وله منشئات كثيرة غير ذلك . وهو من أعظم سلاطين مصر . وقد ملك من بعده «طومان باى» ،

٣٣ — الملك الأشرف «أبو النصر طومان باى» ، ٩٢٢هـ — ٩٢٣هـ

هو من ممالك «قايتباى» . سم أعنته «الناصر بن قايتباى» . وما زال يدرج فى مدارج الرقى ، حتى بلغ فى مملكة الغورى منزلة سنية . سم كان نائب غيبة ، حينما خرج الغورى إلى قتال العثمانيين . جلب . وفى أثناء ذلك ملا قلوب الناس أمناً ، يسره على حفظهم ، وحرأصتهم من اللصوص وقطاع الطريق والمباشين ، فأجبه . ولما قتل الغورى ، اجتمعت كلمة الأمراء على توليته . فأخذ «طومان باى» بعد العدة للقاء العثمانيين ، ورده زحفهم عن البلاد . وكان شجاعاً قويا ، وبطلاً صنديداً لا يهاب ، ولكن حوله أمراء خائرين ضعافاً متنازعين ، وجنوداً منحل العزيمة ، قليلى الثقة بالنفس . ومهما يكن من شئ . فقد بدأ «طومان باى» بإرسال طليعة من الجند ، على رأسها الأمير «جان ردى الغزالى» ، وكان هذا قد أخضر الخيانة للسلطان كصديقه «خاير بك» نائب حلب . فالبثت طليعته أن انهزمت .

.. أحب « طومان باى » أن يبادر بالخروج إلى الشام بجنود كثيفة ، فنبهه الأمراء وأصبروه ، والعثمانيون يحضون ، حتى دخلوا مصر نفسها . فأحب « طومان باى » أن يبادر بلقائهم في جهة الصالحية ، قبل أن يصلوا إلى القاهرة ، ولا سيما أنهم في حينهم منهوكون القوى ، قليلو الغذاء ، لطول سيرهم . فمن السهل الفتك بهم . فنبهه الأمراء أيضاً وأصبروه ، ولم يحبوا أن يقاتلوا بعيداً عن القاهرة . كأن القاهرة وحدها هي وطنهم دون سواها ، أو أنها تلهم الشجاعة والإقدام دون غيرها ! لكنه الجن والخور والجهل والسفه وقصر النظر . ثم خرجوا إلى جانب القاهرة بناحية الريدانية ، وحصنوا ظهورهم ، حتى لا يطمعوا من الخلف . وقيل : كان عدد جنود مصر نحو عشرين ألف مقاتل . ولكن قوتهم المعنوية متداعية ، والاتحاد بينهم ضائع ، والتعاون مفقود . وأصبح كل منهم يفكر في نفسه لحسب ، ومصيره هو ، لا مصير البلاد . فوقعت بينهم وبين العثمانيين الراحقين ، معركة شديدة الروح في ناحية الريدانية في أواخر عام ٩٢٢ هـ ، قتل فيها من الجمعين عدد كبير . ودارت الدائرة على المصريين فقروا من الميدان . وفر كذلك « طومان باى » بعد أن ثبت زبنا مع فئة قليلة من أتباعه . وغنم العثمانيون غنائم لا تعد ولا تحصى . ثم زحفوا على القاهرة . وملكوها ، وعاثوا في أرجائها فساداً . وأخذوا في أهلها قتل وسلباً وهدمًا . وتحصن « طومان باى » بالصعيد ، ثم أخذ في الزحف نحو القاهرة . فلاقاه العثمانيون في ناحية الجزيرة . وهزموه هزيمة نكراء . ولكن بعد أن أظهر ضروبا من البطولة الحارقة . ثم فر طومان باى إلى بعض أصدقائه من عربان البحيرة ، فسلوه إلى السلطان وسليم . جزاء وفاقا لصداقته لهم ويده عندهم ... ولما قبض عليه ، شق أشنع شقعة ، على باب ذوبلة ، في الحرم عام ٩٢٣ هـ . وبموته انتهت دولة الجراكسة ، وبدأ عهد الاحتلال العثماني المعقوث .

تهذيب

على الرغم مما يحول في خاطري - وأنا مصرى - من الحق على دولتي المالك وسلاطينها وأمرائها وجنودها جماء ، وما يفيض بالنفس من شعور الأسف الشديد على ما اجتروحه ، من تجاهل الشعب المصرى ، ومن نبذ النبوة وعدم الاكتراث له ، والإقبال عليه بضروب من الظلم والفسوة والإرهاق ، وعلى ما ألفوه من

التنازع على السلطان تنازعا عليه الطمع والهووى ، لا الإيمان والعقيدة . وتوحى به المصلحا الذاتية العارضة ، لا المصلحة العامة الباقية ، — وسنين ذلك فيما بعد — أقول على الرغم من هذا كله ، خنقتى العبرة وملكتنى الزفرة ، عند ما طامعت أخبار الفتح العثماني اللعين ، وما اقترفه العثمانيون من مآثم في القاهرة وفي مصر . فقد كانت مصر في عصر المماليك ، مستقلة منفردة السلطان في جميع البقاع الإسلامية ، تدن لها هذه البقاع بالتبعية السياسية أو التبعية الأدبية ، فكانت مركز الإسلام ، ومبعث الحركة العلمية ، ومنزل الخلافة . أما العثمانيون فقد أزالوا استقلالها ، وعثوا بحرياتها . وزادوها ظلة على ظلة ، ومكثت مودة تحت عبء الاحتلال ، إلى أن قامت بهزبتها الحديثة من ولاياتها ، فعداها العلم والمال والحياة والحرية والقوة والمعنوية ، والإيمان بالنفس والثقة بالله .

العثمانيون نهبوا أموال البلاد وملتوا جماعهم بذهبها وكتبها وساقوا إلى القسطنطينية خليفاتها وقضاتها وأطبائها ومهندسيها ومباشرى الأعمال فيها وتجارها وحدادها ، وكل ذى علم وفن معروف فيها ، ثم تركوها قاعا صفصفا يجرى الخراب على أديمها . فأى لثم هذا الذى اقترفوه ؟ ... انتقل بهذا الاحتلال قلب الإسلام من القاهرة إلى القسطنطينية ، ومعه مركز العلم ومنزل الخلافة ، إذ تحمّلوا على الخليفة المتوكل فنزل لهم عنها وهو في قبضة يدهم ، وقد كافتوا خونة الأمراء المصريين الذين عاونوهم في خطة الفتح مكافأة قيمة فقد عين « خاير بك » نائباً عن السلطان العثماني في القاهرة واشتب « ملك الأمراء » ، وعين « جان بردى الغزالي » نائباً عنه في الشام . — ولو كانت في الشعب « حياة وقوة لمزق أجساد الخونة شلدر منفر ، مهما لاق في سبيل ذلك من سوء .

السلطنة ونظام الحكم

كتبنا كلمة سابقة عن منصب المالك ، وعرفنا أنهم كانوا يجلبون من بلادهم إلى الأسواق المصرية وغير المصرية ، فيشتريهم السلاطين والأمراء . وعرفنا أيضاً كيفية انتقال الحكم المصري من يد الأيوبيين ، إلى المالك البحرية ، وهم بالملك الصالح نجم الدين الأيوبي . وسنكتب فيما بعد ، كلمة نشرح فيها ثقافة هؤلاء المالك ، وأدوارها وطرقها . وسيتضح لنا أن المملوك ، في أغلب الأحوال ، كان يظل رقيقاً زمناً غير محدود ، يعيش في طباق القلعة معيشة جنسية خالصة . حتى إذا ما ثبت لدى السلطان ، أن مملوكاً ، ذو مقدرة وكفاءة ممتازة ، وبدا له ما يثبت تلك القدرة والكفاءة ، أعتقه ، وأنزله من الطباق إلى وظيفة أخرى . وأعاناه على حياته الحرة بما يعطيه من مال ورفق وشوخيل وما شابه ذلك .

وعتق المملوك لا يخرج منه أنه لا يزال من جند الدولة ، ومن سواعدها التي تستند إليها ، بل عتقه أول مراحل في خدمتها العليا . حيثئذ يتسع أفق الرقي أمام المملوك ، وتساوره المطامع ، وتدفعه قدرته وحظه معاً ، إلى التنقل في وظائف الدولة شيئاً فشيئاً ، ويخلع عليه السلطان لقب الإمارة ، قسموا بذلك منزلته ، وينتقل في مدارجها صعوداً ، أخذاً طريقه نحو المناصب الرئيسية . وقد تدفع به الحوادث إلى أن يكون أستاذاراً أو دوداراً أو أتابكياً أو نائب سلطنة . وهذه المناصب من أسمى وظائف الدولة ، وليس وراءها غير منصب السلطنة الجليلة . فإذا بلغ المملوك هذا الحد ، أصبح دانياً إلى هذا المنصب . وكثيراً ما تقلب الأيام ، وتبديل الحوادث ، فإذا بهذا الأتابكي أو النائب يُختار السلطنة ، وإن هذه المناصب المذكورة وما ماثلها كانت تؤهل شاغلها لتولي الملك . فإذا اختير ملك جديد ، أقام بالقلعة ، وأعني قلعة الجبل ، فقد استخدمت في معظم هذا العصر مقرأ رسمياً للسلطان .

وإليك بعض الأمثلة التي تبين المراق التي صعد بها بعض السلاطين ، من حالة الرق إلى حالة السلطنة ، وذلك تقليداً عن ابن إياس وغيره :

« السلطان كتبنا المنصوري : أسره الملك المنصور قلاوون في موقعة حصص ، التي

كانت بينه وبين التتار ، فأصبح من مائليكم . ثم أعتقه وجعله أمير عشرة ثم صار مقدم ألف ، وفي عهد الناصر محمد بن قلاوون صار نائب سلطنة . ثم خلع الناصر ، وقفز « كتبغا » إلى العرش .

« السلطان برقوق العثماني » : - نجّله إلى مصر « الخواجاجا عثمان بن مسافر » تاجر الرقيق ، فاشتراه منه الأتابكي « يلبغا » ثم أعتقه . ولما تغير وجه الدهر للمليك « يلبغا » ، هرب « برقوق » إلى الشام ، فخدم عند الأمير « منجك » نائب الشام ، ثم ترقى أمير عشرة . في دولة الأشرف شعبان ، ثم أمير أربعين ، ثم مقدم ألف ، ثم أمير أخور كبير ، ثم أصبح أتابك العساكر في دولة المنصور علي بن الأشرف شعبان . ثم صار سلطاناً .

« السلطان جقمق العلائي » : - أصله جركي جلبه « الخواجاجا كرل » ، فاشتراه منه « العلائي علي » بن الأتابكي « إينال اليوسفي » ، وقدمه إلى الملك الظاهر « برقوق » ، فصار من جملة الممالك السلطانية ، ثم رُفِّقَ خاصكياً ثم ساقياً . ثم قبض عليه ويحين في عهد الملك الناصر فرج ، ثم أطلق سراحه . وعين أمير طبلخاناه وخازن داراً في دولة المنصور شيخ ، ثم صار مقدم ألف في عهد السلطان طغرل ، ثم عين حاجب الحجاب في عهد الأشرف « برسبای » وترقى حتى بلغ الأتابكية ، فلما كان عهد ابنه العزيز ، أصبح « جقمق » نظام الدولة ومشيرها ، ثم خلع العزيز ، وولى « جقمق » السلطنة .

غير أن الزمن الذي يستغرقه ملوك أسعده الطالع ، وبلغه منصب السلطنة ، من عهده إلى عهد سلطنته ، يختلف طولاً وقصراً ؛ حسب اختلاف الأشخاص والظروف . غير أن أقصر زمن - ولا شك - كان زمناً طويلاً ، ولا يعتبر قصيراً إلا بالنسبة إلى سواء . فقد يسلخ المملوك أربعين عاماً وخمسين ، في حياة رقي مطرد ، حتى يصل إلى كرسى السلطنة . ولذلك عُدَّ أمراً عجيباً ، أن يصل السلطان الظاهر « قانصوه بن قانصوه » إلى منصب السلطنة ، في مدة لم تتجاوز ست سنوات ما بين رُفِّقِه وعُتِقِه وبين سلطنته .

والآن أصبح مفهومنا أن كل جندي ملوك ، قد يتحول عليه الزمان ، وتدفعه الأقدار ، إلى أن يكون سلطاناً يوماً ما . والأقدار إذا صنعت ذلك لا تتكلف معجزة خارقة ، أو شذوذاً عجيباً ، أو سمة غير معلومة ، أو التواء وتحويراً في سياسة متبعة . بل ذلك هو المترقب المنتظر . ولهذا لا يصح أن نقرّينا الدهشة ، عندما نجد هذا التاريخ أن فلاناً المملوك صار الأمير ، حدثته نفس يوماً ما ، بأن على السلطنة ، وبأنه إذا ولى السلطنة يصنع كذا

وكذا . فقد روى ^(١) أن الأمير حسام الدين لاجين المنصوري ، كان قد اختفى مرة في مثبنة جامع ابن طولون ، ونذر أنه إن صار سلطانا ليعمرن هذا الجامع ، وقد صار سلطانا ووفى بنبذره .

وروى (٢) : أن المنصور قلاوون لما كان أميرا ، في عهد الملك الظاهر « بيبرس » خرج في غزاة ، فأصيب بقولنج (٣) ، فعولج منه في مدينة دمشق ، بمعرفة أطباء جلبوا له الدواء من مستشفى « نور الدين الشهيد » فبرأ . فتأق إلى زيارة هذا المستشفى فزاره ، ونذر إن آياه الله الملك ، أن يبنى مستشفى « دارستانا » فلما أوفى الملك بربنذره ، وأقام « البيارستان المنصوري » .

وقيل (٤) : إن الملك المؤيد شيخنا ، سجن مرة وهو أمير — في خزانة شاميل — فحاسبى بها شدا تده عظيمة ، فنذر في نفسه ، إن خلص من هذه الشدة ، وصار سلطانا ، يهدم هذا السجن ، ويقم مكانه مسجدا . ولما صار سلطانا على مصر ، بر بوعده وبني جامع الشهيد بجانب باب زويلة ، مكان السجن المذكور .

وحكى (٥) : أن الأياكي تمرآز — الذى توفى عام ٩٠٢ هـ في عصر الملك الناصر محمد بن قايىبى — كان إذا سأله أحد في حاجة ، يقول : اصبر علينا حتى يحى وقتها . وكان طامعا في السلطنة فخابت فيه الظنون ...

هذا ، والسلطان وأمرآؤه وعاليكهم هم أهل الرأى ورجال الحكم وأرباب المناصب دون سواهم . يعاونهم بعض من يختارونهم من المتعممين ، ليلوا مناصب القضاء والكتابة وما إليها .

لأن : اعتبر المالك أنفسهم « الطبقة الحاكمة » في هذه البلاد وما يتبعها . وذلك بما لهم من القوة الباطشة ، والأيدى المسلحة ، والكثرة المجددة ، وحق القيام وحدهم بالفتح والغزو . ولم يخرج الملك عن أن يكون لواحد منهم . ولكن من هو هذا الذى يخصونه بهذا الشرف العظيم ؟ ... وكيف يحدونه ؟

لم يوضع نظام ما لوراثة السلطنة ، وإنما كانت مؤهلات الأمير الشخصية ، وما

١ — ابن لاس : ج ١ من ١٣٦ .

٢ — خطط المقرئى : ج ٤ ص ٢٦٠ .

٣ — القولنج : مرض معوى مؤلم يفسد منه خروج الفضل والريح .

٤ — ابن لاس : ج ٢ من ٢٣٠ .

٥ — ابن لاس : ج ٢ ص ٦ .

بروءه من حسنة ودهاء ، وما يديه من بلاء في الحروب ، ومن إحسان في السياسة ، ومن قدرة على الانتفاع من الفرصة السانحة ، وما يستطيع جمعه حول نفسه من ممالئكة الاختصاص ، وبغيرهم من محبيه ، ومن قوى المطامع ، بمن يكون له منهم عصبية قوية يخشى بأسها . كل هذه الأمور ، كانت هي التي تقرب الأمير تدريجياً ، وأوقد تقذف به أحياناً إلى المناصب المبكرى . مثل أتابك العسكر أو نائب السلطنة . فيصبح قاب قوسين أدنى من منصب السلطنة .

بل إن الأمير إذا ما وصل إلى مرتبة النيابة والكفالة أو الأتابكية ، يقع في نفسه — غالباً — أن الأقدار تهيئه بذلك لتولى السلطنة . فيعمل لبلوغ أمه هذا ، ولتحقيق إحساسه الباطني ، بكل وسيلة مشروعة أو غير مشروعة . حتى لتجده في أغلب الأحوال ، يدبر لسلطانه المكائد ، وينصب له الحبال ، ويخلق حوله المشاكل . ويحيك من أجله سلسلة من المؤامرات ، تنتهي غالباً بخلع السلطان أو قتله قتلة شريرة ، ووثوب النائب أو الأتابكي إلى كرسي المملكة .

فالآتابكي « قطز » خلع الملك المنصور نور الدين على بن المعز ، سنة ٦٥٧ هـ وتولى مكانه . والآتابكي « بيرس » البندقارى ، قتل بيده سلطانه « قطز » ووثب إلى عرش السلطنة عام ٦٥٨ هـ . والآتابكي « شيخ محمودى » خلع سلطانه الخليفة « المستعين بالله » وتولى السلطنة سنة ٨١٤ هـ . وهكذا .

وتعتبر هذه الحالة أمراً عادياً في دولتي المماليك . ومعنى ذلك أن نظام الوراثة لم يكن مراعياً لديهم . وهذا لا يمنعنا أن نقول : إن أسرة المنصور « قلاوون » كان لها نصيب كبير من وراثة الملك في الدولة البحرية . وإن أسرة « برقوق » كان لها نصيب آخر أقل من ذلك في وراثة الملك في الدولة الجركسية . وقد ولى السلطنة من أسرة « قلاوون » أربعة عشر ملكاً . وقد ولى بعضهم بناء على وصية من أبيه بذلك . فإن المنصور سيف الدين أبا بكر ، بن الناصر محمد بن قلاوون ، قد بويج بالسلطنة بعد موت أبيه بعد منه . وقد يكون هذا العهد يولد غير الابن الأكبر ، مثل عهد الناصر محمد إلى ولده المنصور المذكور .

غير أن مبايعة السلطان لا يمكن أن تتم في الواقع إلا بعد أن يتهاون الأمراء في الأمر فيما بينهم ، ويقع اختصارهم على من يصلح للملك . ثم إن هذه المشورة قد تستغرق زمناً . وفي خلال هذا الزمن يحكم المماليك البلاد بلا سلطان قهيد يقتل لأجبهين ، دبر الأمراء

الأمراء ، حتى عاد الناصر . وقد بقيت السلطنة شاغرة يومين عقب انكسار السلطان « قانصوه بن قانصوه » ، واختفائه . ثم تولى السلطنة الأتابكي « جان بلاط » . وبعد قتل الغوري بقيت البلاد نحو خمسين يوما بلا سلطان ثم تولى السلطنة « طومان باي » .

وقد درج أمراء الممالك — بعد وفاة السلطان أو خلع أو قتله مثلا — حتى أن يعقدوا مجالس للشورى ، يتبادلون فيها الرأي فيمن يصلح للسلطنة . حتى إذا ما انعقد على شخص ما ، أحضره في حفلة رائعة ، يتقدم فيها الخليفة ثم القضاة بما يمت به . ثم يقبل الأمراء له الأرض ، بعد أن يلبس شعار السلطنة ، ويحمل في موكب ، وعلى رأسه القبة والطير ، إلى أن يجلس على كرسى السلطنة . فتجري رسوم الحفلة المذكورة وعلى إرهابوز عليهم الخلع والعطايا والوظائف السنية ، فيرقى من يشاء ، ويقر من يشاء ، ويعزل من يشاء . فإذا وقع اختيارهم ، على معهود إليه بالملك من أمية المتوفى مثلا أو على ابنه أو أخيه ، ولو لم يكن معهودا إلى أحدهما ، ولو كان صغير السن — أقاموا له رسوم التولية وقبلوا له الأرض ، غير أنهم لا يستمرون على طاعته ، إلا بمقدار ما في هذا الاستمرار من نفع شخص لهم . لالأنه وارت شرعى السلطنة ، ولا لالأنه أصبح ذا حق قانوني فيها ، ولا لالأنه واجب الطاعة ، ولا لالأن في طاعته مصلحة عامة للشعب ، ثمون في سبيلها المصلحة الخاصة ... ١

وإذا شعر أحد الأمراء أو فريق منهم ، بأنه لم ينل في عهد السلطان الجديد ما ربه ، أو أنه إذا انتفض عليه وثار في وجهه ، ينال من يخلفه هذه المآرب ، فسرعان ما ينتفض عليه ويشور في وجهه ، ويدبر له المكائد ، ويضخم عيوبه ، وينشر مثالبه ... ثم قصد تمكن الفرصة هذا الثائر — وكثيرا ما تمكنه — من أن يطفى على سلطانه ، فيقتله أو يسجنه أو ينفيه من الأرض ، ويحل غيره محله . وقد يكون هذا الغير من لا يمتون إلى بيت الملك السالف بصلة ما . وهكذا .

ومن السلاطين من كان صغير السن ، ولذلك طمع فيه الطامع بسرعة ، وثار في وجهه ، ونزعه من السلطنة وتولى من بعده رجل جديد : كما وقع في عهد الناصر محمد بن قلاوون ، حينما تولى أول مرة ؛ وسنه تسع سنوات ، فحكم أحد عشر شهرا ، ثم خلعه « كشيغا » المنصورى ، وتولى بنفسه السلطنة عام ٦٩٤ هـ . وكما وقع في عهد الملك الصالح « أمير حاج بن شعبان » حفيد قلاوون ، حينما تولى أولى مرة وسنه إحدى عشرة سنة . فحكم نحو سنة وسبعة أشهر ، ثم خلعه « بروق » العثماني وتولى بنفسه السلطنة عام ٧٨٤ هـ وأسس الدولة العثمانية .

ولم تكن هناك نظم الوصاية على السلاطين الصغار تحفظ حقوقهم في الملك ، وتنشئهم تنشئة ملكية مناسبة ، تؤهلهم لأعباء السلطنة المقبلة . ويندر أن نجد سلطاناً ترك من خلفه طفلاً صغيراً إلى السلطنة من بعده ، ثم أوصى عليه أحد الأمراء الكبار . وإذا ما أوصاه فيغلب أن ينتزع الملك منه - مع العلم بأنه روى ما يفهم منه أن مجالس الوصاية كانت معروفة في تلك العصور . فإن الملك المظفر صاحب حماة والمث في عام ٦٤٢ هـ ، قد ترك من خلفه ابنه محمد المنصور ، وسنه عشر سنوات . فأقيم عليه مجلس وصاية مكون من أربعة رجال من أفذاذ مملكتهم منهم شيخ شيوخ حماة شرف الدين ، عبد العزيز الأنصاري . وكان هذا المجلس يرجع في رأيه إلى أم الملك (١) . هذا مع أن مملكة حماة كانت إحدى أقسام الدولة المصرية الواسعة في زمن المماليك . ولم يروا ابن إياس في بدائع من أخبار الوصاية إلا للحات يشعر منها المرء أن نظام الوصاية لم يكن مرعياً ، وما رواه ما ذكره في ترجمة الناصر حسن قال : « في سنة ٧٥١ جمع السلطان حسن القضاء الأربعة وسائر الأمراء ورشد نفسه واستعذر الأوصياء فأعذروا له في ذلك » .

وحقاً كان يعاون الملك الصغير كبير من الأمراء ، أتابكياً أو نائب سلطنة أو غير ذلك . فيصرف له شئون الدولة . ولكن مع هذا كله ، كان الملك الصغير يجلس مع الأمراء مجلس السلطان ، وتقدم إليه الأوراق الرسمية ، فيمهرها بتوقيعه الكريم . ويرقى من يشاء ويعزل من يشاء ، كما يفعل السلطان الكبير تماماً ، ولو أن تصرفه هذا كان سوريا . فقد روى (٢) أن الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون تولى الملك عام ٧٤٨ هـ فأهدى خلع الوظائف ، وألقاب الإمارة إلى من شاء وعمره ١٣ سنة . وروى : أن الأشرف بكك بن الناصر محمد بن قلاوون ولي الملك عام ٧٤٢ هـ وسنه سبع سنوات ، فيصرف في الأحكام صغيراً ، وعاونه الأتابكي « قوصون » . فكان إذا احتاج إلى توقيع السلطان أخذ « قوصون » يده « بكك » والقلم فيها ، ويريه كيف يوقع على المراسيم والمناشير ، وهكذا كان الحال في عهود غيرهما من السلاطين الصغار .

١ — كتاب تاريخ « حماة » للصابوني .

٢ — عن ابن إياس ج ١ — ١٩ و ١٧٧ .

هذا ، وإذا اختار الأمراء عليهم سلطانا ، فالمفروض أنه سلطان مدى حياته . ويستمر سلطانا فعلا مدى حياته ، حتى تصادفه وفاته الطبيعية . ألا إذا عاقته ثورة عاجية ، تكون فيها عاقبته ، من خلع أو مجن أو إعدام أو نفي أو اختفاء . ويندر أن يخلع سلطان بغير ثورة ، أو نزاع بين أنصاره وأعدائه . كما يندر أن يولى سلطان تولية مؤقتة يشها يعين سلطان سواء تعييننا دائما ١٠٠٠ فقد حدث ذلك مرة واحدة في تاريخ دولتي المالك ، حينما خلع الملك المؤيد أحمد بن إينال عام ٨٦٥ هـ وأرسل الثائرون إلى الأمير « جانم » نائب الشام ليتولى السلطنة . ثم ولوا فيها مؤقتا الأتابكي « خشقدم » قتلجب بالظاهر ، وانتظر الجميع عودة « جانم » ، ولكنه أبطل في العودة ، فساعتد المقادير الظاهر « خشقدم » على أن يثبت في سلطنته ، بعد أن كان فيها خارجا عن هيئة عمال الحكومة ١٠٠٠ ولبت يحكم نحو ست سنوات ونصف . والأمراء هم أصحاب الأمر في تولية السلطان . ولكن ذلك لا يتم بناء على قانون موضوع وقواعد مدونة محكمة ، وإنما هو العرف جرى على اتباعه . أما الجند فهم من ورائهم يشدون أزهرهم وليس لهم رأى فعلى قاطع وقت الشورى في أمر السلطنة . وإن كان الأمراء يرعون حينما اتجهوا رأى الجنود . ومع ذلك فقد تدخل الجنود في التولية في أخريات الدولة المجرسية . ومن ذلك تدخلهم عقب اختفاء الظاهر بن قانصوه عام ٩٠٥ هـ في أمر من يخلفه . فقد كان أمامهم ثلاثة مرشون ، هم : الأمراء « ناني بك الجلى » ، والأتابكي « جان بلاط » ، والدوادار « طومان باى » . وكان هناك مرشح رابع أيضا وهو الأمير « قانصوه خمسانة » الذى قد ملك آنا ولم يثبت ملكه ولم يعترف به فاختفى . - فنأدى الجنود على قانصوه خمسانة ، إذا أراد أن يظهر من خفائه ، فليظهر ، لتسند إليه السلطنة . فلم يظهر . ثم عرض اسم « ناني بك الجلى » فرفضه الجند ، ثم انحصر الأمر بين الأميرين « الصديقين » « جان بلاط » و « طومان باى » . وكان « طومان باى » مقربا من الجند ورغبتهم متجهة إليه ، فعرض اسم « جان بلاط » للسلطنة فلم يرضه الجند . ولكن « طومان باى » تعصب له وأما لم إليه - الحاجة في نفسه - فاستقر الرأى على اختيار « جان بلاط » في السلطنة . فكانت سلطنته تمهيدا لسلطنة « طومان باى » ، إذ خرج عليه وحاربه وهزمه وتولى مكانه (١) .

والأمراء كذلك هم أصحاب الأمر في خلع السلطان ، وإزاحته عن السلطنة بأى

بشكل ، ويبدو أن يتم ذلك بدون فتن ومؤامرات فيما بينهم ، ينقسمون فيها فريقين : فريقاً مع السلطان وفريقاً عليه ، يجتربان حتى يتصر أحدهما . أما الجند فالتغالب أنهم ذرو رأى مرعى وذوو أثر فعلي في مسألة خلع السلطان أو إبعاده عن كرسيه ، لأنهم هم الذين يعززون الفريقين المحترين من الأمراء ، فتدخلهم في الخلع أكثر من تدخلهم في التولية .

وهناك عنصر ثالث في تولية السلطان ، وهو الخليفة والقضاة الشرعيون الأربعة . فلا بد لتسليم التولية من حفلة مبايعة — كما ذكرنا — يتقدم فيها الخليفة أولاً إلى السلطان المختار فيبايعه بالسلطنة . ثم يقيم القضاة فيبايعون . ثم من بعدهم الأمراء . ولا تتم تولية السلطان بغير ذلك .

غير أن الخليفة والقضاة ليسوا ذوي رأى مرعى في التولية أو الخلع ، وإنما هم مأمورون فيؤدون ما أمروا به ، ولا قدرة لهم على الامتناع عن المبايعة ، ما دامت مشورة الأمراء قد تمت . ومن السهل إذا ما حدثتهم النفس بالامتناع عن المبايعة — وهي لا تحذتهم — أن يصرفوا عن وظائفهم ويقلدها سواهم فيقوم بما يطلب منه من المبايعة على خير وجه مرضى .

وقد اشدت نزاحم الأمراء حول منصب السلطنة ، وكثر تطلّعهم إليه وتشوفهم نحوه . وبسببه كانت ثوراتهم وتبدلاتهم . مع العلم بأن هذا المنصب الشائك كان كثير الأعباء ، وهو عمل ثقيل على عاتق حامله لأنه قل أن يُفْلته إلا مجلوعاً أو منقياً أو مسجوناً أو مقتولاً . فوق ما يلاقيه في حياته من أذى المؤامرات والفتن ، أو مسئوليات الحروب أو غير ذلك . ومن الطريف أن نقص في هذا المجال ، مذكروا ابن إياس به الشهابي « أحمد بن العيني » ، إذ روى أنه كان يقاتل السلاطين في مبعثته ، حتى أطلق عليه « عزيز مصر » . وعرض اسمه مرة للسلطنة ، ولكنه لم تتم سلطنته ، وقد لطف الله تعالى به حيث لم يل السلطنة لئلا يقضى عمره كله في القيد والسجن إلى أن يموت (١) .

ولذلك كان بعض السلاطين يتأني على الأمراء ، حين اختياره للسلطنة ، ويمتنع عن قبولها خوفاً من أعبائها ، ورهبة من مسئولياتها . ومنهم الغوري الذي قيل إنه

امتنع عن قبولها ، وألبسه الأمراء خلعة السلطنة ، ودعمه يجرى رهبة منها . - ولذلك كان بعض السلاطين يلجأ إلى دعوة الأمراء الذين اختاروه للسلطنة إلى أن يقسموا له عین الطاعة والولاء والإخلاص على المصحف العتيق ، فيقسمون والله يعلم ما تنطوي عليه قلوبهم من أهواء . . .

وقد يكون ضربا من ضروب التسلية أن نذكر للقارىء كيف تم اختيار الأمراء للأشرف ، طومان باى ، آخر الملوك الجركسية ، وكيف قبل السلطنة وذلك عام ٩٢٢ هـ . فإنه حينئذ رجعت فلول الجيش المصرى بعد هزيمة الغورى فى « مرج دابق » ، وبعد قتله . وقع إجماع الأمراء ، على سلطنة « طومان باى » ، وكان نائب غيبة . فامتنع عن قبولها ، وأصر الأمراء على توليته ، وهو يمتنع . ثم ركب هو والأمير « جلان » وجماعة من الأمراء ، وتوجهوا إلى كوم الجارح - خارج القاهرة - عند الشيخ « أبو السعود الجارحى » ، فلما جلسوا بين يديه ، عرض الأمراء عليه الأمر ، وذكروا تمنع « طومان باى » عن السلطنة . فأبدى « طومان باى » عنده ، واحتج بأن خزان بيت المال غاوية على عروشها ، وأنه لا يقبل السلطنة إلا إذا تعهد الجنود والأمراء بالإطاعته . بنفقة ، وأن الجميع رهن إشارته ، لا يخونونه ولا يعصونه إذا استمد الحرب ، بمناسبة زحف المشائين على البلاد . ولما تراضى الجميع بين يدي الشيخ ، أحضر لهم مصحفا شريفا فأقسموا عليه بما تراضوا عليه وتواصوا به . ثم جرت بعد ذلك رسوم التولية كالعتادة . . . وهكذا تدخل الأرياء الضالحون فى تنصيب سلطان البلاد !

بعد أن تبين لنا ملابسات السلطنة من تولية وخلع وما إليها ، نستطيع القول . إن عدم وضع نظام ثابت مقرر مرعى لوراثه الملك وطريقة الحكم ، كان من أهم أسباب الاضطراب والفتن فى دولتى المماليك . وأعطى نظاما آخر غير ما اتبعوه .

على أن النظام الذى اتبعوه ، يعتبر فذا وعجيبا فى التاريخ ، ووحيد نسجه . وقل أن نجدته ضريبا فى تاريخ الحكم وأدواره ، فى أية أمة من الأمم . فلا هو ملكية وراثية ، مطلقة أم مقيدة . ولا هو جمهورية شورية ، يرأسها فرد أو جماعة من المستبدین أو غير المستبدین .

ولعله أقرب شيا ، إلى حكومات الأشرف ، وهى التى عمادها بضعة نفر من الأئذاة والزروس ، فى الطبقات الغالية من الشعب . يقومون معا متعاونين على حكم الشعب ،

بخدمته شئونه الاجتماعية والاقتصادية .

غير أن هذا القياس لا بد فيه من بيان الفارق . إذ الأشراف في اليونان القديمة مثلا ، وخاصة في إسبرطة وأثينا قبل الميلاد بنحو ستة قرون ، كانوا من الشعب نفسه ، ومن صميمه ، وإن كانوا طبقة ممتازة من طبقاته . فهي تزار على الشعب غير طبيعية غير مجلوبة ، وتعطف عليه عطفًا عميقًا لا كلفة فيه . بل وكانت تعتبر نفسها صاحبة الوطن الأولى ، والمكلفة حراسته ، وتوجيه كل طبقة من طبقاته إلى خير المجموع ونفعه . وبينما كانت هذه الطبقة الممتازة الحاكمة المذكورة من « أشراف » الشعب ، إذ كان بين طبقاته عدد من « الأرقاء » يعملون في فلاح الأرض . هذا كان في بلاد اليونان . أما في مصر فقد كان الماليك طبقة طارئة على الشعب من الخارج ومن أمم شتى . فليست من صميمه ، ولا هي إحدى طبقاته التي قسمته إليها الأحداث الطبيعية والعوامل الاقتصادية . ثم إنها طبقة متجددة ، وتجدها يند عليا من الخارج عادة ، ومن أسواق الرقيق اثم إنها طبقة « أرتاء » ، أما طبقات الشعب الأخرى فهي من « الأحرار » . لو أن طبقة الماليك كانت من صميم الشعب ، مولودة منه وناجئة عنه . أولو أنها كانت طبقة طارئة عليه ، ولكن محدودة ، ثم أقامت هي وسلالاتها في هذا الوطن زمانًا طويلا ، بغير أن يكون لها مدد أجنبي من الخارج ، لطبعت بالطابع المصري الصحيح ، ولجرت في دماها الجنسية المصرية الخالصة ، ولأصبحت تغار على مصر ، لأن مصر وطنها المحبوب ، لا مسكها المحمى . ولأها البلاد العزيزة ، لا الضياع الخاصة .

ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا : إن حكومة الماليك ، كانت خليطًا متمازجًا عجيبًا ، من نوعين متمافرين . هما : حكومة الأشراف ، وحكومة للطغاة . فإن الطبقة الحاكمة هنا هي « طبقة الماليك » ، وأمرؤها هم الذين يدهم الأمر والنهي في البلاد وهم الذين يختارون سلاطنتها . لحكومتهم « حكومة أشراف » . ثم إن السلطان الذي يولونه ، على بعد ذلك كل الأمور بنفسه ، وقل أن يستشير ، وإذا استشار فبمحض إرادته ، وهو غير مقيّد بفانون ما . فيعمل وينفذ أن المصلحة فيما يعمل ، لحكومته « حكومة طغاة » .

أما الشعب — وقد كان يتكون من عناصر وأجناس شتى ، مما خلفته في البلاد العصور المنصرمة — فلا وجود له هنا ، ولا صوت له ، ولا مظهر لإرادته في إدارة بلاده ، وإنما هو آلة صماء يؤمر فيفعل ، وتقرض عليه الضرائب فيدفعها ، لا لأنها تتفق في المصالح

العامة وفي حاجات البلاد ، بل لأن الذى يفرضها عليه قوى غليظ القلب ، لا يجب إلا الطاعة إذا أمر . ولذلك توقف البعض عن دفع الضرائب خلال الزحف العثماني لانشغال الممالك به ، حتى يرى لمن ستكون البلاد فيؤدى إليه حيثئذ ما عليه من الضرائب ... ولعل المظهر الوحيد ، الذى يمكن أن نعتبره مظهرا لإرادة الشعب ، هو اشتراك القضاة في حفلة مبايعة السلطان — لأن هؤلاء القضاة ، من طبقات الشعب الأخرى غير طبقة الممالك . ومع ذلك قد علينا أنه لم يكن في مقدورهم ، الامتناع أو التخلف عن الحضور أو المعارضة ، فليس لهم في ذلك صوت مسموع . حتى إذا كان بينهم رجل قوى الشكيمة ، حديد رأى ، صلب العزيمة ، ورح القلب ، ذوغيرة على مصالح المسلمين ، وأراد أن يتوقف عن البيعة ، فإنه يستطيع ، وسرعان ما ينظر في أمره ويحاجب إلى طلبه . والغالب أنه يتوقف في أمور شكلية ، لا تمس صميم المبايعة ، ولا تعتبر من كرامة الشعب باعتباره شعبا .

ومن أمثلة مايجب في هذه المناسبة عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، شيخ الإسلام في عهد الظاهر بيبرس . أنه جلس في صدر المجلس الذى بايع بيبرس بالسلطنة . وامتنع عن مبايعته ، وقال له : ياركن الدين ! أنا أعرفك بملك البندقدار فما بايعه حتى جاءه من شهد له ، بخروج بيبرس عن ملك البندقدار ، للملك الصالح نجم الدين الأيوبي ثم اعتقه .

أقول : لقد كان الشيخ عز الدين ذا مهابة وجراءة في الحق ، ولكن يلقب بسلطان العلماء . قيل : إنه لما توفي كان بيبرس ينظر إلى جنازته ، وهو واقف بالقلمة ، ثم قال : ها استقر ملكي إلا الآن ...

ثقافة الممالك و تربيتهن

نقصد بكتابة هذا الفصل أن نرسم صورة موجزة ، ولكن واضحة ، نبين فيها طرق التربية التي اتبعت في تثقيف ممالك مصر في هذا العصر الذي نحن بصدده ، ونتائج هذه التربية ، مع بيان طرق استخدامهم بعد الانتهاء من عهد التربية الرسمي .

وقد كانت الرغبة في العصور الوسطى منصرفة في الدول التي كثر استخدام الرقيق فيها ، من سبائا الفرس والترك والروم ، إلى الانتفاع بهم في أعمال الخدمة في القصور ، وماشابه تلك الخدمة خارج القصور ، والتسرى بالجوارى الجميلات ، أو الانتفاع بمواهبهن في الخدمات المناسبة . ولم يكن تربية الذكور تربية جنسية منظمة استعدادا للانتفاع بهم في الحروب ، إذ كان الجنس العربي مختصا وحده بهذه التثنية دون سواه ، بدافع العصبية العربية ، وبثألى الأيام تداعت هذه العصبية ، واحتاج بعض الخلفاء إلى اتخاذ الجنود من الأجناس الأخرى غير العربية ، وبني لماليكه منهم المدن الخاصة . فبدأت من ذلك الحين تمتد العناية إلى الارتقاء وبتهم تربية جنسية منظمة .

وأول عناية افرسفت إلى تربية ممالك مصر ، الذين تولوا قيادها بعد انقضاء عصر الأيوبيين ، كانت عناية الملك الصالح نجم الدين الأيوبي ، فقد راعه ممالكه بإخلاصهم له ، حينما قبض عليه أعداؤه من ذوى قرابته ، وسجنوه بالسرك ، فبقى حوله هناك ممالكه ، فكانوا ثمانين رجلا . حتى أطلق وعاد إليه ملكه وجلس على أريكه مصر بمعاونتهم ، فعظمت مكانتهم لديه . وحينما استتب له الأمر في مصر ، أكثر من شرائهم ، وجعلهم أمراء دولته وبطائته (١) . قيل : فلما زاد شغفهم على الناس ، وعيبتهم ببضائع التجار ، وارتفعت أصوات القاهريين منهم بالشكاية ، بنى لهم الملك الصالح قلعة خاصة ، وهى قلعة الروضة . فأصبحت لهم بمثابة الشكنات العسكرية ، وأمرهم بالآياديلوها والأيخااطلوا الناس . وقلعة الروضة المذكورة تسمى قلعة المقياس أيضا ، وقد زودها الملك الصالح بكل ما يحتاج إليه ممالكه من زاد وأسلحة ، وبني حولها البساتين وجعلها خير تجميل (٢)

١ — عن خطط القرطبي جز ٣ ص ٣٨٤ « ذكر دولة الممالك البحرية » وكذلك تحت عنوان « الطبايع بساحة الأيوبي » ج ٣ ص ٣٤٦

٢ — اقرأ خطط القرطبي ج ٣ ص ٢٩٧ « ذكر قلعة الروضة » .

ويبلغ عدد من كانت بهامن الجنود أقل من الألف ، ومنهم الأمراء عز الدين بن أيك ،
وغيرهم . وقام الملك من الأمراء المذكورين في الدولة البحرية : عز الدين
ويبرس وقلادون .

وأطردت ثقافتهم طيلة عصري الدولتين ، وكانت ترى في جوهرها إلى الاحتفاظ
بهم جنودا - هم والأرقاء المجدد الطارئون عليهم باستمرار - وذلك لأتسب دولتهم لن
تقوم إلا لنا وحدث لها سواعد مفتولة ، وقلوبها تملؤها الشجاعة ، وعزولا أمهرتها
الدربة والمرانة في ضروب القتال . فكان لابد لهم إذن من الاحتفاظ بهم جنودا على
أهبة الاستعداد لحوض المعامع والمجروب ، والدفاع عن الوطن ، والذود عن حياض
الإسلام ، والاحتفاظ بالملك . يفزعون إلى حمل السلاح ، إذا ما نفخ في الأبواق ،
وفرعت السكشوس . ولا يمنع هذا أن يتزود منهم من يشاء ، ومن يدفعه ميله الخاص ،
من موارد العلم وموائد الأدب . لذلك لا تعجب إذا لقيت منهم رب القلم ، أو ناظم
الشعر ، أو الفقيه الدارس لعلوم الدين .

ولما كانت الثقافة العسكرية هي برنامج تعليمهم ، ناسب أن نورد هنا بعض التفصيل .
وقد كان للسلطان ممالك ، يقيمون في طيات قلعة الجليل ، يسمون « الممالك السلطانية » ،
هم أهم من توجه إليه العناية بالثقافة . وقد كان للأمراء ممالك آخرون ، لكل واحد
منهم طائفة . وهؤلاء بلا شك أقل ثقافة ودرجة من الممالك السلطانية .

والثقافة العسكرية المذكورة ، مرت في ثلاثة أدوار : ١ - دور الصرامة ٢ - دور
التسامح ٣ - دور الأهمال .
ولنتكلم عن كل دور منها .

١ - دور الصرامة

هو دور الأخذ بالشدّة ، وفرض النظم الدقيقة ، والسهر على تنفيذها ، بقسوة
لا تعرف سبيلا إلى اللين أو المصانعة . فهو دور الثقافة الكاملة .

وحقا ، إن قلعة الروضة قد تهدمت ، وقوض أركانها الملك المعز بن أيك ، وشدت
شمال ممالكها البحرية . وذلك لأنهم ضايقوه في أول عهد السلطنة ، وأرغفوه على
قبول أحد الأيوبيين شريكا له في الملك . فرضى مكرها ، وصارهم وصاير نفسه ، وعمل
على شراء ممالك له خاصة . حتى إذا ما رأى أنهم قد أصبحوا من حوله كثرة ، بسهل التقلب

بهم على أعدائه من الممالك البحرية ، بغش بهم ، وقتل رموسهم ، وشنت شمل الباقيين منهم ، ففروا من وجهه إلى بلاد الشام . وقد ملك من ممالك المعز بن أيك : الملك المظفر قطز . . . ولكن الممالك البحرية ، عادوا من بعد ابن أيك إلى هذه البلاد ، حتى ملك منهم الظاهر بيبرس ، فأعاد بناء قلعة الروضة ، وأسكن بها عددا من الأمراء والجنود . ومع ذلك ، قد بقي عدد من البحرية مشككين هم وأنباؤهم ، حتى جمعهم الملك المنصور قلاوون ، وأسكنهم بأبواب قلعة الجبل ، بعيدا عن البرجية . لأنه كان قد اتبى للملكة الاختصاص بروجها في تلك القلعة . جعلها بما جلبه إليها من بناء قلعة الروضة ، وأسكنهم بها وسماهم « البرجية » .

كانت هذه البروج طباق مقسمة ، يسكن في كل طبقة منها أبناء جنس واحد من الممالك . ويشرف على ممالك كل طبقة « أغوات » أو طواشية ، و « زمامون » يهيمنون على تنفيذ الأوامر وتعليم الممالك . ولكل طبقة فقيه أيضا . وأهم العصور التي سادت فيها الثقافة الكاملة : عصر المنصور قلاوون ، وابنيه الأشرف خليل ، والناصر محمد .

وينقسم التعليم في هذا الدور إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : تبدأ من عهد الصغر إلى سن البلوغ . فكانت الممالك تجلب صفار السن ، ثم يوضعون في الطباق تحت إشراف « الأغوات » ، فية ومون ببعض التمرينات الرياضية الهينة ، ويعلمون الكتابة والقراءة ، ويلقنون آيات من الذكر الحكيم ، وضروبا من الفروض الدينية ، ويعودون الصلاة ، ويحفظون بعض الأدعية لتلاوتها في مناسباتها . ومحجب لإهم الدين والنود عنه ، والتخلق بكل جميل من الأخلاق .

المرحلة الثانية : وتبدأ من سن البلوغ . وفيها يؤخذ المملوك بكل شدة ، فلا يتساع مع إذا غلط أو هفا ، أو بدا منه شذوذ خلق . بل يعاقب على ذلك عقابا قاسيا . ويقسم الممالك إلى طوائف ، وتوكل كل طائفة إلى معلم ماهر ، فيمرنها على السباحة في الماء ، واللبب بالسيوف ، والضرب بالرمح ، والقذف بالاطواق ، وركوب الخيل والعدو على ظهورها ، والمبارزة ، ورمي النشاب . ولعب الكرة . وقد تكون على ظهور الخيل . وليس هناك مانع من أن يجتمع المملوك في وقت فراغه إلى مطالعة علم أو مدارة أدب . ولذلك قد يتفقه أحدهم في الدين ، وقد يأخذ نفسه بنظم الشعر أو الكتابة .

ونهاية هذه المرحلة ليست محدودة بسن معينة ، بل هي رهن ظهور مهارة المملوك وبروز مواهبه ، وتوضح خواصه .

المرحلة الثالثة : إذا ما برزت مواهب المملوك ، فتنبه شأنه ، وذاع فضله ، وعرفت قدرته ، وسعة حيلته ، وشوهدت عليه ضروب الشجاعة ، وحسن البلاء في الرياضة العسكرية عرض ، واشترك في سباق أو مبارزة أو حفل أو لعب ، أو سيق في عداد المحاربين إلى صفوف القتال - وتكون مكافأته في النهاية أن يعفى ، وترد إليه حريته ، ويوكل إليه أمر وظيفة من الوظائف الصغيرة ، ويكتب له إقطاعا . - والإقطاع عبارة عن جزء من الأرض يستقله صاحبه كما يشاء . أو يفرض له عليه مال معين . ويمنح خيلا وقاشا ، وما شابه ذلك ، معاونة له على النهوض في حياته الحرة الجديدة . ويظل جنديا موظفا ، فيترقى في ذلك وظائف الجندية ، حتى يبلغ مبلغ الإمامة ، فيمنحه السلطان لقبها ، ثم يترقى في سلسلتها ، حتى يصل إلى كبريات المناصب في الدولة ، وقد تقذف به الحوادث والحظوظ إلى منصب السلطنة .

ولم يسمح للبلوك في هذا الدور ، أن ينزل إلى المدينة ، ولا أن يختلط بأهلها ، ولا أن يتزوج ، حتى يعفى .

وكانت السلاطين معنية بملابس ممالك الطبايق عناية محدودة ، والبسم بعضهم في بعض الأحيان الملابس الفخمة ، والمناطق الذهبية المزركشة . وقدمت لهم المأكول والمشارب الشهية وكان المنصور قلاوون ينزل إلى مواضع الطعام والمطامير ، ويشهد الأطلعة بنفسه قبل تقديمها إلى الممالك . ولا يتسامح مع المتهاون في إعدادها ، إذا ما وجد تهاونا . وسمح لهم الإشراف « خليل » ، بالنزول إلى المدينة بعض النهار ، بل تختلف إلى الليل . وعنى بتقسيمهم إلى طوائف حسب جنسياتهم . كما أسبغ عليهم الناصر « محمد بن قلاوون » كثيرا من النعمة ، وغالى في جلبهم . وكان يوصى تجار الرقيق ، بالعناية في اختيارهم من صفاء الغلمان . ورفع أثمانهم حتى وصل ثمن الواحد إلى آلاف الدراهم . ولذلك كان يسيل لعاب آباء الأطفال لهذا المان الوفير والخير الكثير . فيلقون بأطفالهم بين أيدي التجار ، ويوصونهم ببيعهم في مصر ، مهد النعمة الغزيرة والترف العالية والمستقبل الزاهر . وسمح لهم الناصر بالنزول إلى حمامات المدينة مرة في كل أسبوع . تحت عيون الرقباء .

وكانت نتيجة هذه الزينة العسكرية الخلقية من خير النتائج . وقد صدق المقرئ
إذ قال : « إنهم كانوا سادة يدبرون الممالك ، وقادة يجاهدون في سبيل الله ، وأهل سياسة
يبالغون في إظهار الجليل . »

ويظهر أن هذا النظام الدقيق الذي أخذوا به في هذا الدور كان طبيعيا ، إذ كانت الدولة
في بدء نشوئها ، فيها كثير من الحيوية . والممالك الجديدة حديثو العهد بعظمة سلطنتهم ، فكان
لابد من التشدد في تربيتهم ، حتى تبقى دولتهم قائمة ، وسلطتهم منشورة ، وفقودهم محدودا .
وعرف من الممالك في هذه الفترة الأولى ، أناس اشتهروا بحب الألعاب الرياضية
وبأعمال الفروسية ، ومنهم سلاطين مصر وكبار أمرائها . روى عن الملك السعيد
« محمد بن الظاهر بيبرس » ، أنه توفي عقب عشرة عثرها فرسه أثناء لعبه بالكرة
فكسرت أضلاعه ، وذلك عام ٦٧٨ هـ (١) . وروى عن « قطبجان بليان الجركندار »
وكان من أمراء الأربعة بدمشق — توفي عام ٧٢٠ هـ — أنه كان فارسا بطيلا خفيف
الحركات . ويقال إنه عدا بفرسه ، فقطع نصف سفرجلة من غصنها ، وبقي نصفها
الآخر مكانه ، وكان ماهرا في لعب الكرة (٢) . وروى أن « محمد بن بكتمر » المتوفى
عام ٧١٠ هـ انتهت إليه الرياضة في زمانه في لعب الكرة ، فلم يكن من يجاريه إلا
« علاء الدين قطبجا » . فكانا إذا اجتمعا ، رأى الناس منهما العجائب . وكان الناصر
« محمد بن قلاوون » يكرم محمدا هذا ، ويدعوه « أخى » (٣) . وقد كان للعب الكرة
عواصم خاصة من السنة ، يزاوله فيها السلطان وخاصة أمرائه ، وقد كان القورئ يزاوله
بالرغم من كبر سنه وإن تأخر عصره .

على أننا في الواقع لسنا في حاجة إلى الاستشهاد على قروسيهم بدليل ما ، وأما منا
حروبهم في الدولة البحرية ، وإيقاعهم بالفريضة ، وهم خلاصة جنود الأوربيين .
وبالتأثر ، وهم الذين اكتسحوا أواسط آسيا . فأوقعوا بهؤلاء وهؤلاء ، المرة تلو المرة ،
حتى ردوهم عن البلاد صاغرين .

هنا وقد قيل : إن مشنريات المنصور قلاوون بلغت ١٧ ألف ملك . وقيل إنهم كانوا
٦٧٠٠ ملك فقط . فإكلها ابنه الأشرف خليل ، إلى عشرة آلاف . وقيل اشترى الناصر

١ — عن ابن لاس جزء ١ ص ١١٤ ٢ — عن الدرر السكامة جزء ٣ رقم ٦٥١

٣ — عن الدرر السكامة جزء ٣ رقم ١٠٥٢

« محمد بن قلاوون ، نحو ١٢ ألف مملوك . وبلغت ممالك جيوشه ، نحو ٢٤ ألف مملوك .
وكان لكل أمير مملوك في هذه الآونة أيضا . وروى أن ممالك الأمير « صرغتمش »
المتوفى عام ٧٦١ هـ ، في عهد الناصر « حسن بن محمد بن قلاوون » ، بلغت عدتها ثمانمائة
مملوك . وأن ممالك الأمير « يلغا » العمري الذي قتل عام ٧٦٨ هـ ، في عهد الأشرف
شعبان ، بلغت عدتها ثلاثة آلاف مملوك .

٢ - دور التساهل

هو دور التراخي وترك التشدد ، وإباحة أنواع من الحرية للممالك الطباقي ، وعدم
حصصهم من التمتع . بل إن كانت محرومة عليهم في الدور السابق . وظهر هذا النور بوضوح ،
في عهد السلطان الظاهر « برقوق » العثاني ، مؤسس الدولة المملوكية . وقد استمرت فيه
التربية العسكرية التي وصفناها ، وأهم ما طرأ عليها التسامح في نزولهم من طباقهم إلى
المدينة ، وإباحة الزواج . فكان من أثر ذلك أن اختلطوا بالعوام وصاحبوا سفلة
الناس ، وعاشروا النسوة . فبدأ الترف الجسدي يكون محببا إلى نفوسهم ، وبدأت البطالة
تكون عادة مقبولة لهم ، وبدأت ملكيتهم الحرية تنعش وتغور ، وقنوتهم العسكرية تنفد .
والجندى كان ولا يزال آلة صماء ودابة غيياء . ما دام في ثكناته وبين رؤسائه .
فإذا ما أترف ، وأيسح له النعيم ، انصرف إليه انصراف الملهوف ، وانكب عليه انكباب
الظالم الصادي . فلا يبقى على شيء ولا يدرك .

٣ - دور الاهمال

وايتبدأ في عهد الملك الناصر « فرج بن برقوق » . ومنذ بعده لم توجه إلى تربية
الممالك العسكرية عناية كبيرة دقيقة ، كما كانت توجه إليهم من قبل . وترك لهم الحبل
على الغارب . وظن الناصر « فرج » ، أن إطلاق الحرية لهم ، سليل إلى إتمام مواهبهم ،
وإذ كلف ملكاتهم . فليس ثم ضرورة إلى دفعهم لفقيه أو مؤدب . بل قيل : « استقر
رأى الناصر « فرج » ، على أن تسليم الممالك للفقيه يتلقهم » .
وقد قلنت أجورهم ، ونغشت طعامهم ، وأعطوا جانباً من المال لينفقوا منه على
نآكلهم . فاختلقت في ذلك مشاربهم ، واتجهزوا وجنات عتباته فككت ونحتهم ،

وباعدت بينهم . ولم تعد تبذل في سبيل اختيارهم عناية ولا دقة . فاستقدموا كبار السن ، ومنهم من كان محترفا في بلده قبل وفوده إلى مصر .

وفي عصر الدولة الجركسية ، كان السلاطين أحيانا يتوالون على العرش بسرعة . ويؤولون بسرعة . ويغلب أن يتخذ كل سلطان لنفسه جماعة من الممالك جندا ، يطلق عليهم اسم ، ويسكنون في عداد ساكني الطباقة بقلعة الجبل ، يتعصب لهم السلطان ، ويتمصبون له . ويعني بهم عناية خاصة لا يظفر بها غيرهم من الممالك الآخرين . فتتج من ذلك أن تعددت أنواع الممالك ، فكان منهم — بمرور الأيام — في الطبقة : بمالك مؤيدة ، وإينالية ، وأشرقية ، وبرسية ، وخشقدمية ، وغير ذلك .

وكانت الحقوق والضغائن تفرق بين هذه الجماعات ، نتيجة للغيرة والتحاسد . ومن الطريف المناسب ذكره أن ممالك الأشراف قايتباي « الأشرقية » رأوا بعد وفاته أن ابنه الناصر قد كون لنفسه جماعة جديدة من الممالك ، وسماه « الناصرية » ، وصرف إليهم عناية حرمتها الأشرقية ، فثاروا ، وأرغموا الأمراء والسلطان على تغيير لقبه وتلقبه بالأشرف ، كإيه ، ليكون الجميع « أشرقية » ، فلا يفرق بينهم في المعاملة . وقد تم هذا التغيير فعلا . ١

ولما شح عليهم السلاطين ، بالمال والراية والتربية الصالحة ، فسدوا وكثرت ثوراتهم . وكان أكثرهم ثورة الممالك « الجلبان » . وقد أمر الناصر « محمد بن قايتباي » بإضافة عدد من هؤلاء الجلبان ، إلى كل أمير لتأكل معه من إقطاعه ... ١ فتأذى كل من الفريقين ، وكانت هذه الحالة أدعى إلى فساد الخلق .

وقد حاول بعض السلاطين كالتوري ، المحافظة عليهم ، وإعادة النظام إليهم ، ومنعهم من النزول إلى المدينة . ووضع القيود لهم في سبيل الزواج ، وحظر مخالطة النساء عليهم . ولكن كانت الثغرة قد انفتحت ، وكانت النفوس قد جنحت إلى الفساد ، وأشرقت حب العصيان ومخالفة الأوامر . ولذلك ذهب هبته المحاولات عبثا . وخلفت دون اكتشاف . بل روى أنه لما ناب الأمير طومان باي الداوداء عن السلطان « النوردي » في السلطنة عند غيابه في حروب العثمانيين ، بالبلاد الخلبية ، لم يازم أجناد الحلقة بالمبيت بالقلعة . وعن اشتقاق وجد في الممالك ، في الدولة الجركسية : الملك المؤيد شيخ ، فقد قبل بطنه بمالك « المؤيدة » نخصة آلافة بمولوك . والملك الأشرف برسماء ، بلغت بمالكه

« البرسيلية » خمسة آلاف مملوك ، والمملك الظاهر « خشقدم » بلغت بما يليك « الخشقدمية » أربعة آلاف مملوك . وكان الملك الأشرف « قايقباي » مغرما بشراء الممالك ، حتى قيل : إنه لولا الطواغين التي أصبحت بها البلاد في عهده لأصبح يحجج ما عنده ثمانية آلاف مملوك . وهكذا تعددت طوائف الممالك ، بتعدد الملوك واتجاههم وجهة حزبية خاصة في اقتنائهم .

ومع ضعف التربية العسكرية والحلقة في هذا الدور لم يترك السلاطين وكثير من الأمراء مزاوله ما أغرموا به قبلا من ضروب المرانة الرياضية . فلقد كان الأشرف الغوري — على الرغم من شيخوخته — لا يفتأ يلعب الكرة في مواسمها الخاصة هو وخاصته من الأمراء — كما ذكرنا — وكانوا يلعبونها وهم على ظهور خيولهم في ميدان القلعة ، وقد تصاحبهم الموسيقى وقت اللعب .

أما الجنود فقد كانت نتيجة الناهون في تربيتهم ، والإهمال في الإشراف الدقيق عليهم منذ نشأتهم ، واختلاط أجناسهم ، والبخل بالإفناق عليهم وخيعة . فكثرت ثوراتهم وتآلبهم على السلطان ، فأصبحوا لا يطيعونه أو يعظمونه إلا إذا أشبع بطونهم من الطعام ، وأنعم بجيوبهم بالمال . وانصرفوا عن التفكير في المصلحة العامة إلى المصلحة الخاصة . وضعفت فيهم الروح العسكرية ، حتى كانوا لا يخرجون إلى قتال إلا بعد رجاء وإلحاح من السلطان . وكانوا في أغلب أمرهم ييؤمون بالخيعة . وقد كانت هذه الحالة من أهم ما يجلب بسقوط الدولة الجركسية ، ووقوع مصر غنيمة باردة في يد العثمانيين . إذ سقطت هيبة الدولة ، وتطلع إليها الطامعون . وهذا كله نتيجة فساد المجددية في العصر الأخير . وقد صدق المقرئ ، إذ قال في وصفهم : « وصارت الممالك السلطانية أركل الناس ، وأدناهم وأخسهم قدرا ، وأشتمهم نفسا . وأجملهم بأمر الدنيا ، وأكبرهم إعراضا عن الدين . ما فيهم إلا من هو أذن من فرد ، وأص من فتارة ، وأفسد من ذئب » . (١) — هذا مع أن المقرئ توفي قبل انتهاء الدولة الجركسية بنحو سبع وسبعين سنة . لأنه مات سنة ٨٤٥ هـ .

الرتب والمناصب الهامة في الدولة (١)

قال القاضى شندى ما ملخصه : « إن الدولة الأيوبية ، لما خلقت الدولة الفاطمية خالفتها في كثير من ترتيب الدولة ، وغيّرت معاملها . وجرت على ما كانت عليه دولة عماد الدين زنكى ، بالموصل ، ودولة ابنه نور الدين محمود ، بالشام . ثم جاءت الدولة التركية ، وقد تنقحت المملكة وترتبت . فأخذت في الزيادة في تحسين الترتيب وتنفيذ الملك ، وقيام أجهته ونقلت عن كل ملكة أحسن ما فيها . فسلكت سبيله ، حتى تهذبت ، وفاقت سائر الممالك . »
وفهم مما كتبه في صبح الأعشى (٢) ، وكذلك المقرئى (٣) في خطط . وما نشره ابن إياس (٤) في ثنايا بدائع . ما يلى :

أن مناصب الدولة — عدا منصب السلطنة — كانت مقسمة بين نوعين من الرجال هما : المتعممون ، والأمراء . وقد أطلق لفظ « المتعممين » على المثقفين من أبناء الشعب ، المتخرجين في المساجد ، النابغين في علم أو أدب . وهؤلاء يختار منهم : قضاة القضاة ونوابهم ومساعدوهم ، وكتاب الدواوين ومعاونوهم ، وكتاب السروشيوخ المدارس والخواصق ، وما إلى ذلك . أى تركت لهم مناصب القضاء والكتابة والتعليم وما يتصل بها . وهؤلاء أجور ودواب وضروب من المعونة يمنحونها من أوقاف أو نحوها لقاء أعمالهم . أما الأمراء ، فأصلهم — كما بينا — من معتوقى الممالك ، الذين سمى بهم همهم وحظهم ، إلى مرتبة الإمارة . ولكل واحد من هؤلاء إقطاع يمنحه فيستغله وفق هواه ، أو يتناول منه مالا معيناً . ويتغير إقطاعه ، ويعطى أوسع منه ، كلما ترقى . ويرد الإقطاع إلى السلطان لينحله لأمير آخر ، إذا توفى صاحبه أو عطل .
ويستمر الأمراء جميعاً أعضاء عاملين في الجيش « ضباطا » ، لإلزام غضب عليه السلطان منهم ، فنفاه وجعله « طرغانا » : أى عاطلاً بلا عمل . ولكل أمير رياسة على طائفة من

١ — اعتمدنا في هذا الباب على ج ٤ من صبح الأعشى ، وج ٣ من خطط المقرئى ، ومتفرقات في بدائع ابن إياس وسلاوك المقرئى .

٢ — ج ٤ من صبح الأعشى تحت عنوان « من أحوال الملكة ما عليه ترتيب الملكة ... الخ »

٣ — ج ٣ من المخطط ص ٣٤٨ تحت عنوان « خار النياية » وما يندمها .

٤ — حوادث عام ٩٠٨ هـ ، ٩٢٢ هـ بدائر الزهور .

الجنود محدودة ، حسب مرتبته . ومن هؤلاء الأمراء من يشغل — بجانب إمارته — وظيفة من وظائف الدولة ، أو أكثر . ومنهم من يكون بلا وظيفة . والوظائف التي توكل إلى بعضهم ، هي ماعداد وظائف القضاء والكتابة والتعليم وما يتصل بهما باختصاص به المتعممون . فقصورها ، مقصور على طائفة الأمراء دون سواها . ويندر أن يوظف في إحداها متعمم ، إلا إذا كانت عملا كتابيا .

ومراتب الإمارة — في الغالب — أربع . وهي :

١ — أمير مائة ومقدم ألف : ويرأس مائة فارس ، وقد تزيد . ويتقدم ألف أمير ، بمن دونه في المرتبة . ويبدو لنا أنه تقدم أدنى لا غير . وهذه المرتبة أرفع مراتب الإمارة . ويختار من طبقتها نواب السلطنة ، وأكبر موظفي الدولة مثل الأتابكي وحاجب الحجاب وبلغ عدد الأمراء المتقدمين في أيام الناصر بن قلاوون أربعة وعشرين ، ثم نقص هذا العدد أو زاد قليلا . وبلغ في عهد القوري نحو ستة وعشرين أميراً .

٢ — أمير طبختاناه : ويرأس أربعين فارساً ، وقد تزيد . وهذه المرتبة ثانية مراتب الإمارة . ويختار من طبقتها موظفون أقل خطراً من سابقهم ، وكشاف الأعمال . وعدد أمراء هذه الطبقة لا ضابط له . وقد بلغ في عام ٥٩٠٨ هـ ، نحو خمسة وأربعين أميراً ، كان منهم عشرة موظفون ، والباقي بغير وظيفة .

٣ — أمير عشرة : ويرأس عشرة فرسان ، وقد تزيد . ويختار من طبقتها أصاغر الولاة والموظفين . وعدد أمراء هذه الطبقة لا ضابط له أيضاً . وبلغ في عام ٥٩٠٨ هـ نحو مائة وثمانين أميراً .

٤ — أمير خمسة : وهم قلائل ، ويعتبرون كأكبر الجنود .

ورتب الإمارة رتب عسكرية ، وتمنع عادة في حفل عظيم . وبخاصة عقب حفلة تولية سلطان جديد . وقل أن تمنح ألقاب الإمارة لأحد من أبناء السلاطين ، بل يعرفون بالآسياد . ويقال لأحدهم : سيدي فلان .

والملوك إذا اكتمل شبابه وأبنع ، وأظهر كفاءة ونشاطاً ، أعتق ، ومنح لقباً من ألقاب الإمارة . وهو أمير عشرة غالباً . ثم يعطى خيلاً وقاشاً ومالاً ، ويقدر له إقطاع جديدة مناسبة لبقية . وبعد زمن يقضيه في نشاط مستمر ، يرقى إلى أمير طبختاناه ، وبعد زمن آخر يرقى إلى أمير مائة ومقدم ألف ، وهكذا غالباً .

ويتكون الجيش من هؤلاء الأمراء ، ومعهم الجنود . والجنود أنواع ، وأهمها

وأوسعها عندا « الممالك السلطانية » ، وهم من تحدثنا فيما سبق عن ثقافتهم . وكثيراً ما يتخذ بعض الأمراء حاشية لنفسه وجندا ، من ممالك أخصاء يشترهم بماله الخاص . يعينونه إذا اشترك في حرب أو فتنة .

أما الوظائف التي يلبها بعض هؤلاء الأمراء ، فكثيرة . ولا نقصد هنا أن نستوعبها وتلتبع الأحوال التي تقلبت فيها . وإنما نذكر بعضها حسب . فنها :

١ - النيابة : وهي ثلاثة أنواع (١) نيابة السلطنة (ب) نيابة الأقاليم (ج) ونيابة الغيبة .

(١) نيابة السلطنة : هي أرفع مناصب الدولة . ويدعى شاغلها « نائب السلطنة » ، ويقال له أيضاً « النائب الكافل » ، و « كافل الممالك الإسلامية » . وهو يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان ، ويؤشر على ما ينبغي أن يؤشر عليه . فهو - في الواقع - الحاكم الفعلي وليس للملك إلا نائب مُعلنة واحد . وستحدث عن النيابة بتفصيل .

(ب) نيابة الأقاليم : كانت المملكة مقسمة إلى عدة أقسام ، هي وتوابعها ، كالبلاد الشامية والحلبية . ويقال لكل قسم « نيابة » . ويحكم كلا منها « نائب » ، يختار من كبار الأمراء . فكان مثلاً لكل من الشام وقلمة دمشق وحلب ، وصفد ، وطرابلس ، وحماة ، والسرک ، والإسكندرية ، « نائب » . وأعظمهم جميعاً « نائب الشام » .

ومما يذكر أن نواب « حماة » من بني أيوب أبناء المظفر ، أطلق عليهم لفظ « ملوك حماة » أيام الناصر محمد بن قلاوون تكريماً لهم .

(ج) نيابة الغيبة : وهي نادرة ، ولا تكون إلا إذا خرج السلطان ونائبه في غزاة خارج البلاد . حينئذ ينصب أحد كبار الأمراء « نائب غيبة » ، يقوم بالمهام حتى يثوب السلطان .

٢ - الأتابكية : ومعناها إمارة الجند . ويقال لشاغلها « أتابك » ، « و « أتابكي » ، « وأتابك العساكر » ، وهي تلي رتبة نيابة السلطنة في الأهمية ، وقد تضارعا ، وقد تجزعا ، كما سنبينه .

٣ - الحجوية : ويسمى شاغلها « حاجب الحجاب » . ويختار من أكابر الأمراء المتقدمين . وهو حاكم وقاض كبير له أعوان . ويفصل في المنازعات التي تقع بين الجنود والأمراء ، وفي قضايا الدواوين السلطانية . ولمنصبه أهمية كبرى ، حتى قيل إنه يلى نيابة السلطنة في الأهمية . وقد اتسع اختصاصه بتوالي الأيام حتى فصل في المنازعات المدينة ، بل وفي

بعض القضايا الشرعية . والتي تقع بين أفراد الرعية ، لا بين الأمراء والجند حسب . وذلك من باب استدرار الأموال من المتخاصمين . وقد وسوس له أنساع الاختصاص وحجب المال أن يقضى وفق هواه بفير مراعاة لأحكام الشرع وستحدث عنه في باب القضاء .

- ٤ — أمير مجلس : ويوكل إليه أمر الأطباء ومن إليهم .
- ٥ — أمير سلاح : وهو رئيس السلاح دارية من الممالك السلطانية . يوكل إليه : أمر الأسلحة السلطانية ، وحمل السلاح للسلطان في الأوقات الجامعة .
- ٦ — أمير أخور : يوكل إليه النظر في الاصطبلات السلطانية وغيوها .
- ٧ — رأس نوبة : يوكل إليه الحكم على الممالك السلطانية ، وكبح جماحهم .
- ٨ — الاستادار : يوكل إليه النظر في بيوت السلطان جميعها ، والإشراف على مطابخه ، ومشاربه وحاشيته وخدمه ، وينفق على بيوته ومن قضاها . ويدير له ما يحتاج إليه .
- ٩ — الدوادار : يبلغ رسائل السلطان ، ويقدم إليه للظالم والأخبار ونحوها ، وينظر في المقابلات السلطانية . ويقدم البريد إلى السلطان مع كاتب السر وأمر جلندار ، ويطلب توقيع السلطان على المنشورات والرسائل ونحوها .
- ١٠ — أمهرجاندار : يعاون الدوادار وكاتب السر ، ويستأذن الأمراء في الدخول إلى السلطان ؛ وينظم مواكب السلطان حين سفره ، ويقسم بعض المنسوب عليهم في معسكرهم في الزردخانه ، وهي تحت إشرافه .
- ١١ — الجاشنكير : ينظر في الموامد السلطانية ، مع الاستادار .
- ١٢ — الخازندار : ينظر في خزائن الأموال السلطانية ، تحت إشراف ناظر الخاص .
- ١٣ — شاد الشرايخانة : ينظر في المشارب السلطانية وما فيها من فاكهة وحلوى وأشربة .
- ١٤ — أستاذار الصحة : ينظر في المطابخ السلطانية ، ويشرف على الأطعمة وتنظيم الموامد .
- ١٥ — مقدم الممالك : يشرف على الممالك السلطانية ويحكم فيها .
- ١٦ — الزمام : يشرف على تربية الممالك السلطانية .
- ١٧ — نقيب الجيش : ينظم الجند ويزينهم وقت الحرب . ويحضر إلى السلطان أو نائبه من يحتاج إليه من الأمراء وغيرهم .
- ١٨ — المهمندار : يقابل الرسل والوافدين إلى الأبواب السلطانية ، من داخل البلاد أو خارجها .

- ١٩ - شاد الدواوين : وهويُعين الوزير في عمله ، ويستخلص الأموال ونحوها .
٢٠ - شاد العماثر : يوكل إليه أمر العماثر السلطانية ونحوها ، فيبنى أو يجدد .
٢١ - والى القاهرة : يقوم بالمحافظة على الأمن في هذه المدينة . وهو بمثابة المحافظ الآن . والنواحى الأخرى ولاية غيره .

٢٢ - الكاشف : وهو ضرب من حكم الأقاليم .

٢٣ - الوزير : ينظر في الأمور المالية وتحصيل المال وصرف النفقات وتعيين المباشرين . وكانت هذه الوظيفة جليلة الشأن ، وكان صاحبها قريبا من السلطان ، مهمتها نص خطرها وأثنت حينئذ . ويعاون الوزير أحيانا : شاد الدواوين وناظر الدولة . ويقوم مقام الوزير في عمله . ومستوفى الصحة ، وبعد المراسيم ليوقع عليها السلطان .

٢٤ - ناظر الخاص : وظيفة أحدثها التاثيرين قلاوون لما أبتلى الوزارة . وموضوعها : النظر في كل ما يتصل بمال السلطان الخاص . وأصبحت كالوزارة . ولشاغلها أتباع من كتاب ديوان الخاص ، كستوفى الخاص . وناظر خزانة الخاص .
٢٥ - ناظر الجيش : وعمله النظر في أمر الإقطاعات بمصر والشام ، والكتابة بالكشف عنها ؛ ومشاورة السلطان في أمرها ، ويتصل بالنظر في شئون المالك السلطانية ، وله أتباع .

٢٦ - المحتسب : ينظر في شئون القاهرة ، ويراقب الصانع والعمال والتجار ومن إليهم ، ويراقب استقامتهم ، ويضرب على يد المنحرفين منهم ، وهو شبيه بحكمदार العاصمة .

هذا ، وهناك كثير من الوظائف العامة ، غير ما سلف ، ضربنا الذكر صفحا عنها وعن اختصاصها . وحسبنا ما ذكرناه . ونرى من النافع في هذا المقام ، أن نتوء بهذا الثبت القيم ، الذى يجله ابن إياس في بدائعه في مطلع حوادث عام ٩٠٨ هـ مرة ثم ٩٢٢ هـ مرة أخرى . دون في كل أسماء القائمين بالأمر في الدولة ، والهيئة الحاكمة فيها . مع ذكر وظيفة كل منهم . ونحن هنا نتقل ثبت عام ٩٢٢ هـ ذاكرين الوظائف دون أسماء الشاغلين لها فعلا إذ ذاك . ففى تعيين على رسم صورة لأولى الأمر في البلاد ، ومن معاونهم . ومنهم من ضم وظيفتين . وهى بإيجاز :

١ - السلطان ٢ - الخليفة ٣ - قضاة القضاة الأربعة .

٤ - أمراء مقدمون أبواب وظائف ، وعددهم ستة وعشرون ، منهم من يشغلون .

الوظائف الآتية : أمير كبير ، أتابك . أمير سلاح . أمير مجلس . أمير أخور كبير . رأس نوبة النوب . حاجب الحجاب . الدوادار الكبير . الاستادار . كاشف الكشاف والباقون بلاوظائف .

٥ - نواب البلاد الشامية والحلبية : نائب حلب . نائب طرابلس . نائب حماة . نائب صفد . نائب غزة . نائب القدس . نائب الكرك . ومن النواب من شغل أكثر من نيا به واحدة .

٦ - أمراء طليخانات موظفون : شاد الشراب خانة . الزدركاش الكبير . تاجر الماليك . استادار الصحة . رأس نوبة ثان . الحاجب الثاني ، والى الشرطة . المهندس . نقيب الجيش . شاد الشؤون . الترجمان . معلم المعلمين . أمراء رءوس نوب كثيرون . قال ابن عباس : وقد تكامل في هذه السنة من الأمراء الطليخانات والعشرات فوق الثلاثة أمهر .

٧ - كبار المباشرين ، وهم من المتعتمدين : كاتب السرو ناظر ديوان الإنشاء . نائبه . ناظر الجيش . مستوفى ديوان الجيوش . ناظر الخاص . ناظر الأوقاف . الوزير . ناظر الدولة . كاتب الماليك . ناظر الأصطبل . مستوفى ديوان الخاص . ناظر الزردخانه . مستوفى الزردخانه . ناظر الحسبة . ناظر الأحباس . مستوفى ديوان الجيش الشامى : المتحدثان فى الخزائن الشريفة . المتحدث فى وظيفة الزمامية . المتحدث فى الديوان المفرد . البرددار . المتحدث فى الشؤون السلطانية وغيرهم من المباشرين وأعيان الدولة .

٨ - أعيان الخدام الطواشية والخاصكية : فى هذه السنة تكاملت الخاصكية ، فباضت نحو ألف ومائتى خاصكى من مشتريات السلطان .

وهذا . ونظراً لما لنباية السلطنة والأتابكية والوزارة والقضاء والخلافة من أهمية . أفردنا لكل منها فصلاً ، يبين أحوالها . وأتبعنا كل فصل ، بترجمة عدد من شغل منصبه . أما وكتاب السر ، فتحدث عنهم فى الجزء الثالث بعون الله .

نِياية السُلطنة (١)

درجت السُلطنة المملوكية منذ نشوئها تقريبا ، على أن يكون لها « نائب سُلطنة » .
و منصب « النِياية » أرقى مناصب الدولة جمعا . ونائب السُلطنة في المرتبة الثانية بعد
السُلطان . وهو أوسع الأمرء نفوذا ، وأكثرهم اختصاصا ، وذلك بحكم منصبه .
ويقوم بإنجاز كثير من الأعمال التي تعتبر من اختصاص السُلطان . فتعرض على سمعه
القضايا المرفوعة إلى السُلطان ، فيفصل فيها ، وقد ترسل إلى السُلطان طلبا لموافقته . وفي
هذه الحالة يكفيه النائب مئونة النظر بنفسه في تلك القضايا .

وينظر النائب في أحوال الجيش ويفتسه . ويخرج أئاما من الإقطاع ، ويختار لها
من يشاء ، ويرشح لمراتب الإمارة بعد مشاوره السُلطان . ويعين من يرده الوظائف المختلفة
ماعدا ما كان خطيرا الشأن منها ، كالتقضاء والوزارة وكتابة السر ، فإنه يعرض على
السُلطان من يصلح لها ، وقل ألا يحجاب (٢) .

والنائب يشاوره كثير من أرباب الدولة ورؤسائها في أمور اختصاصاتهم . ويكتب
إليه نواب الأقاليم فيما يكتبون فيه إلى السُلطان . ويمتاز عنهم بأنه يلقب « بالنائب الكافل »
و « كافل الممالك الإسلامية الشريفة » ، ويمشي الأمرء في ركابه . إلى غير ذلك من ضروب
الميزة والاختصاص . فهو السُلطان الثاني ، واليد العاملة المحركة لمؤن الدولة . وهو - في
الغالب - الحاكم الحقيقي في البلاد . وقد يشتد نفوذه ، حتى يطفى على نفوذ السُلطان نفسه .
ويختار النائب ممن أوسع الأمرء جمعا ، وأشد دم دهاء ، وأفضلهم ذكاء ،
وأكثرهم حنكة ودوية . وقد يعين في وظيفته نك ، خوفا منه أو ترضية له .

وكثيرا ما ترشح النِياية شاغلها التولى السُلطنة . فقد تتقلب الظروف بالسُلطان ، ويحتق

١ - راجع ما كتبناه بعد عنها في باب « أتابككية الساكر » .

وراجع كتاب « الصرف » لابن فضل الله تحت عنوان « النواب » . وخطط القرظي ج ٣
تحت عنوان « دار النِياية » . وصبح الأعشى ج ٤ تحت عنوان « النِياية » . بدائع ابن لياس في
حوادث السنين المذكورة . والساوك في ٣٨٤ ، ٣٩٠ وحوادث السنين المذكورة .

٢ - هنا مؤدى كلام القرظي . وفيهم من عبارة الفقهني أن النائب يعين من يشاء في الوزارة
يوكتابة السر . وقل ألا يحجاب فيمن يعينه

من مسرحه لسبب ما ، أو يدعوسبب إلى اختفائه ، وهنا يقفر النائب ويتولى السلطنة مكانه ، وقد يوجد من الدواعي ، ما يختفي لأجله نائب السلطنة نفسه . كأن يترأى للسلطان القبض عليه ، أو الحكم بإعدامه أو نقله من منصبه عقابا له . فإذا اختفى خلا منصبه ، وأقيم فيه نائب جديد . لذلك قد يتعدد نواب السلطنة في وقت واحد ، مثل عهد الناصر محمد بن قلاوون ، فقد شهد جملة من النواب . ويبقى لكل واحد منهم لقبه ، فيقال له « نائب السلطنة » ، وإن كان شاغل المنصب منهم واحدا فقط ، وهو الرجل العامل من بينهم .

وهناك منصب آخر يسمى « النيابة » ، ويطلقها جاجاها ونفوذها ، وهو « الأتابكية » — إمارة الجند — . وكثيرا ما طغى شاغله « الأتابك » بجاهه ونفوذه على ما للنائب من جاه ونفوذ . وربما جمع أمير بين منصب « الأتابكية » ، « والنيابة » معا ، فيبلغ بذلك الغاية من الملك والسلطان . ويرجع سبب ذلك — في أغلب الأحوال — إلى شخصيته . وإلى نصيبه من الحيلة والذكاء والأعوان .

ومهما يكن من شيء ، فقد تقلبت الأحوال بزيادة السلطنة ، طول العصر ، فصادفتها جملة أمور تلخصها فيما يلي :

في ١٣ شوال عام ٦٤٨ هـ استناب الملك المعز الأمير « علاء الدين البندقدار » ، بديار مصر ، لترتيب الأمور وكشف المظالم (١) ، فمر أول نواب السلطنة بمصره في خلال عام ٦٥٠ هـ أشر الملك المعز إليك عددا من ممايكه ، وجعل مملوكه الأمير سيف الدين « قطز » ، نائبا لسلطنته ، وكل إليه تدبير شؤنه (٢) . وكان واسع النفوذ ، أثرا عند سلطانه ، عاونته على تثبيت ملكه ودعم أركانه . ومن ثم توالى نواب السلطنة في كل عهد تقريبا . حتى كان عهد الأشرف خليل بن قلاوون ، وكان نائب سلطنته « طر نطاي » . فقبض عليه بسعاية وزيره « علم الدين سنجر » الشجاعى . واختار من بعده الأمير « بيدرا » عوضا عنه . غير أنه ما لبث أن عزل الوزير الشجاعى المذكور ، وعين مكانه صديقه وصفيه « شمس الدين بن السلوس » ، وزيرا عام ٦٩٠ هـ . وأطلق يده في شئون المملكة ، حتى صار صاحب الحل والعقد فيها . فطغى نفوذه على نفوذ النائب « بيدرا » ، ومشت الأامرا والقضاة في ركابه ، وقرئت القصص والمظالم عليه ، وفصل فيها برأيه دون أن

يستشير السلطان . وعظم بذلك منصب الوزارة ، وشأى النيابة وغيرها .
ولما ملك الناصر « محمد بن قلاوون » تتابع في عهوده عدد من نواب السلطنة ، ساءت
العلاقات بينهم وبينه ، حتى قرر إلغاء « النيابة » جملة ، كفا لشر النواب . فتم ذلك
عام ٧٣٧ هـ . غير أن هذا المنصب سرعان ما أعيد في عهد ابنه « المنصور » ، واختير
لنيابة سلطنته الأمير « طغتمش » . وذلك في عام ٧٤١ هـ .

ولما كانت سنة ٧٤٢ هـ . ملك الأشرف « بكك » بن الناصر ، وفي عهده جمع الأمير
« قوصون » بين مناصب « النيابة » و « الأتابكية » . وعظم أمره واستبد ، وغلب عليه
لقب « الأتابكي » . غير أنه لبث كذلك زمنا وجيدا ، ثم قتل ، وخُلع ملوكه فأنفصل
المنصبان . وعين في النيابة الأمير « طغتمش » .

ولبثت « النيابة » حتى كان عهد الناصر حسن بن قلاوون . فألغاها عام ٧٥٥ هـ . كما
ألغاها أبوه من قبل . وأنشأ مكانها وظيفة جديدة هي « الإمرة الكبيرة » ، واختار
لها الأتابكي « شيخو » العمري الناصري ، فهو أول من سنى بأمير كبير . وظل هو
والأمير « صرغتمش » صاحبي الحول والطول زمنا .

ولما زالت دولة الناصر حسن عام ٧٦٢ هـ ، عادت نيابة السلطنة إلى الظهور مرة
أخرى ، في عهد خلفه المنصور محمد بن حاجي . وعين فيها الأمير « قشتمر المنصوري » .
وظلت قائمة حتى عام ٧٧٥ هـ . إذ تولاها الأمير « منجك اليوسفي » ، وجمعها إلى
« الأتابكية » ، وأصبح صاحب الحول والطول في أيام الأشرف شعبان ابن حسين
ابن الناصر محمد . كما كان « قوصون » من قبل . فلما ولي ابنه علي بعده ، فصل بين المنصبين
وعين في « النيابة » الأمير « أقمتر الصاحب » الشهير بالحنبل . وفي « الأتابكية » الأمير
« طشتمر المحمدي » الشهير باللفاف . إلا أن الأمير « أيبك » البدوي ، نازع « أقمتر »
وأمره بالسفر إلى دمشق « نائبا » بها . فسمع وأطاع .

وقبض على « طشتمر » غلا الجو للأمير « أيبك » . فأُسندت إليه « الأتابكية » .
واستبد بها بعده الأتابكي « برقوق » قبل سلطنته . فاقتطعت « النيابة » حيناً . حتى أسس
« برقوق » دولته الجركسية عام ٧٨٤ هـ ، فاختار لنيابة سلطنته الأمير « وسودون الفخري »
الشيخوني . ويبدو لنا أن « النيابة » اتضعت عن قبل . فقد وفد إلى مصر المقر السني « بيدمر »
الخوارزمي نائب الشام زائراً ، فأكرمه السلطان برقوق ، وقدمه في المواقف الرسمية على

نائب سلطنته « سودون » .

وآل أمر النياية في عهد فرج بن برقوق إلى الأمير ، تمراذ . ويبدو لنا أنها عطلت من بعده زمنا طويلا ، واستبدت بأمور الدولة الأتابكيون وأخوانهم . حتى كان عهد السلطان « حقيق » عام ٨٤٢ هـ . فعين في أواخر العام المذكور الأتابكي « أقبغا » التمرزى نائبا لسلطنته ، مع الأتابكية ، فعظم أمره .

قال ابن إرياس ما ملخصه : « أن أقبغا التمرزى ، صار يحكم بين الناس ، وعلى باب رأس نوية ونقبا . وهو آخر من تولى نيابة السلطنة المصرية » .

هذا . وقد كان لنائب السلطنة ، دار خاصة بالقاهرة وتسمى « دار النياية » ، يقيم فيها لسباع القصص والأحكام : أى لمباشرة عمله . وقد بناها المنصور قلاوون عام ٦٨٧ هـ ، وأول من سكنها « طر نطاي » . قلنا ألقى ابنه الناصر نيابة السلطنة ، هدم تلك الدار . ثم أعاد النائب « قوصون » بناءها ، ولكن لم تكمل ، حتى قبض عليه ، ثم ما زالت حتى أقام بها النائب « آق سنقر » عام ٧٤٣ هـ ، بعد تعديدها . وظل النواب يقيمون فيها ، ويشرفون على الجيوش المصرية منها ، حتى عهد النائب « تمراذ » أيام « فرج بن برقوق » ، فخرجها ، ولم يبق بها .

نواب السلطنة (١)

ولى نيابة السلطنة ، كثير من أمراء الدولة متتابعين . ومنهم من بلغ السلطنة ، وملك البلاد . مثل : قطز المعزى ، وكتيغا المنصورى ، ولاجين المنصورى . ومنهم من لم يلبسها ، ووقف به جده عند النياية . ونحن هنا نترجم لعدد من هؤلاء في إيجاز مناسب ، مع ذكر مآثرنا عليه من سنوات وفاتهم بحسب ، إذ كثير منهم جهل أول سيرته . فقم :

١ - علاء الدين إندككين البندقدار الصالحى ٦٨٤ هـ .

أول نواب السلطنة بديار مصر . اختاره الملك المعز أيبك في ١٣ شوال ٦٨٤ هـ . جلس في دار العدل مع النواب ، وأخذ في ترتيب الأمور . وكشف المظالم . وما زال حتى اختار مكانه ملوك « قطز » عام ٦٩٥ هـ .

٢ - إبراهيم بن ملوك القرزى في تراجم هؤلاء النواب جميعا . وكذلك بدائع ابن لاس وأمثال الصاق لأبي المحسن والضوء اللامع لسفاحى ، وغيرها من كتب التراجم .

وهذا الأمير من جملة ممالك الصالح نجم الدين الأيوبي . كما أن الظاهر بيبرس ، كان من جملة ممالكه هو ، ولذلك نسب إليه قميل له : « البندقدارى » .
ولما سادت العلاقة بين المعز والممالك البحرية ، وبينه وبين زوجته شجرة الدر ، قبض على عدد من البحرية الصالحية ، ومن بينهم ، « إيدكين » ، واعتقلهم بالجلب بقلعة الجبل عام ٦٥٥ هـ . ثم لما ولي « بيبرس » السلطنة ، حظى هذا الأمير عنده ، وولى نيابة دمشق زمنا يسيرا ، ثم ولى نيابة حلب ، وشهد عصر الملك السعيد ، واشترك مع الثائرين عليه ، حتى خلعوه . وقد مات « إيدكين » عام ٦٨٤ هـ .
« سلوك القرزى ج ١ ص ٧٣٠ »

٢ - عز الدين « إيدمر » الحلبي ٦٦٧ هـ (١)

ورد ذكره في سلوك المقرزى ، ويفهم منه أنه كان نائبا للسلطنة في عهد السلطان « قطز » ، (٢) ، فلما ولي « بيبرس » السلطنة بعد قتل « قطز » ، حفظ « إيدمر » القلعة ، حتى سلمها إلى « بيبرس » . وسرعان ما عين « بيبرس » الأمير « بيبيك » الخازندار ملوكه . نائبا للسلطنة ، مكان « إيدمر » عام ٦٥٨ هـ .
وقد اختير « إيدمر » ٦٦٢ هـ ، ليكون « أتابكا » خاصا للملك السعيد بن بيبرس ، وهو ولى العهد . غير أنه يبدو لنا أنه احتفظ له بلقب « نائب السلطنة » ، وأنه كان ذا مكانة رفيعة لدى « بيبرس » . وفي أو آخر عام ٦٦٤ هـ ، طعنه أحد الجاندارية بسكين . فأصابه إصابة بالغة . راساه من أجملها « بيبرس » أكبر مواساة . وقال : « والله هون على موت ولدى بركة ، ولا يموت الحلبي » .

وفي صفر عام ٦٦٧ هـ اختار « الملك السعيد » - وكان يحكم عوضا عن والده - الأمير بلد الدين « بيبيك » الخازندار بدلا من « الحلبي » . وعقب ذلك خرج « الحلبي » مع السلطان « بيبرس » إلى بلاد الشام ، فأتى هناك بدمشق في أول شعبان عام ٦٦٧ هـ . عن نياف وستين سنة . ومن آثاره : أنه جدد الجامع الأزهر عام ٦٦٥ هـ . وأقام به مقصورة ومنرا جديدين ، وضم إلى أوقافه أوقافا كانت مغصوبة ، وكان سببا في عودة صلاة الجمعة فيه بعد عطله منها زمنا طويلا . وقد حج « الحلبي »

١ - في التهج السعيد ، دناه صفة « الحلبي » وصره « الحلبي » : انظر ج ١ ص ٨٢ ، ٤٩٠ .

٢ - وهذا يوافق رواية ابن أبي الفضائل في التهج السعيد ج ١ ص ٤٠٨ .

في هذا العام نفسه (١)

« سلوك المقرزي ج ١ ص ٤٣٧ ، ٤٤٥ ، ٤٥٩ ، ٥١٦ ، ٥١٩ ، ٥٣٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٦٢ ، ٥٧٣ ، ٨٥٠ — والتهج السديد، ج ١ ص ٤٠٨ ، ٤٨٢ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ . »

٣ — بدر الدين بيليك الخازندار ٦٧٦ هـ

كان ملوكا للظاهر بيبرس ، قبل سلطنته . ، فلما صار سلطانا ، خلع على مملوكه هذا وأقامه في نيابة سلطنته عام ٦٥٨ هـ . وفوض إليه شئون الدولة ، فصار صاحب الحل والعقد فيها . وخرج مع السلطان مراد^١ إلى بلاد الشام للقتال . ولعله أبعد عن النيابة زمنا ، وحل محله فيها ، « عز الدين لإبدر الحلج » ، حتى كان عام ٦٦٧ هـ ، إذ اختاره الملك السعيد حينما كان يجلس للحكم عوضا عن والده نائبا له .

ولما مات « بيبرس » ، في نواحي دمشق ، كان معه « بيليك » ، فكتم خبر موته لئلا يطمع التتار في بلاده في هذه الفترة العصيبة . وسار إلى مصر ، ومعه عفة السلطان كأنه فيها . حتى بلغ مصر ، فأعلن الناس بوفاة سلطانهم . وأتم سلطنة أبنته « الملك السعيد » ، وبذلك حفظ له العرش . فأقره « الملك السعيد » في نيابته . فلبث قليلا حتى مات عام ٦٧٦ هـ في ربيع الآخر . ويقال إن « الملك السعيد » دس إليه السم خوفا منه . وورث صاحب النهج السديد : أن « بيليك » ، دخل إلى والدته الملك السعيد ، عقب سلطنته مباشرة ، يعزى بوفاة « بيبرس » ، ويهتبا بسلطنة ابنتها ، فسقته سكرًا وليونًا ، أصيب عقبه ومرض . فرشوا طييبه « عماد الدين النابلسي » ، فأعمله فوات . — وقد كان « بيليك » محسنا كثير البر ، عارفا بالتاريخ ، جيد الخط . ومن آثاره : أنه بنى عام ٦٦٥ هـ مقصورة جديدة بالجامع الأزهر ، لما جده « عز الدين الحلج » ، ورتب فيه أيضا دروسا في فقه الشافعي ، والحديث ، والقراءات ، وأوقف على ذلك أوقافا كافية . ولما مات حزن الناس عليه ، وكانت جنازته حافلة .

« ابن إياس ج ١ ص ٩٩ ، ١١٠ ، ١١٢ — والسلوك ج ١ ص ٥٥٧ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٧٠ ، ٦٤٨ — والتهج السديد ج ١ ص ٤٩١ ، ج ٢ ص ٤٥٣ »

١ — في تهج البديع ج ١ ص ٤٩٠ ، ٤٩١ ما يفهم منه أن « إبدر » كان يطلق عليه « نائب » في حين أن « بيليك » كان نائبا لسلطنة المملوك .

٤ - شمس الدين آق سنقر الفارقاني ٦٧٦ هـ

اختاره الملك السعيد بن بيبرس ، نائبا لسلطنته عقب وفاة « بليك » ، عام ٦٧٦ هـ . فلبث قليلا ثم أثار غضب السلطان ، فقبض عليه ، وبجته بشعر الاسكندرية (١) ثم أمر بتحرقه في العام نفسه ، ودفن في بجته . - وذكر صاحب النهج السديد : أنه ولي النيابة عام ٦٧٧ هـ ، فوقع شقاق بينه وبين الخاصكية - حرس السلطان الخاص - فقتلوه في العام المذكور . « ابن لباس ج ١ ص ١٠٩ ، ١١٢ . - النهج السديد ج ٢ ص ٤٩٣ ، ٤٩٨ ، ٥٤١ ، ٤٦٣ - السلوك ج ١ ص ٦٥٠ ، ٧٠٤ » .

٥ - شمس الدين سنقر المظفرى الألباني ٦٨٠ هـ

ولى النيابة عقب وفاة « آق سنقر » . فرأى الأمور محزنة ، والنظام فاسدا ، بتحكم الصبيان الجبهة من الخاصكية ، الذين أخذوا يوغرون صدر السلطان عليه . فطلب إلى سلطانه الملك السعيد ، أن يقيه ، فأقاله . وما مكث إلا قليلا في نيابته . ومات عام ٦٨٠ هـ ، وهو مسجون - كما قيل - بالإسكندرية .

« النهج ج ١ ، وسلوك المقرئى (راجع الفهرس) .

٦ - سيف الدين كوندك الساقى ٦٨٠ هـ

ولى النيابة بعد استقالة « سنقر المظفرى » ، عام ٦٧٦ هـ . وهو من رجال الخاصكية . فكان إذ ذاك شابا ذكيا . ومن قبل كان مع سلطانه الملك السعيد في المكتب صغيرين ، فانعدت بينهما صلة الود . فلما ولى له نيابة سلطنته ، مكن له تمكيننا ، لم يكن لأحد قبله . ورسم بالآ يوقع لأحد إلا بقبله وعله ، وقد عاونه في مهمته الأتابكى قلاوون الألباني . - وفي عام ٦٧٨ هـ وقعت بينه وبين الخاصكية منازعة ، وكادوا يقتلونه . لولا أن حماه الأمير « سنقر الأشقر » . وطلبوا إلى السلطان عزله فأمره بالرحيل إلى حلب ، ومنحه إمرة أربعين ١ . فحاول أن يوقع بين السلطان وأمرائه ، - ومنهم « قلاوون » - ليقيم . فاستشرى الفساد بين الفريقين ، حتى خلع الملك نفسه .

وبعد حين ، ولى السلطنة المنصور « قلاوون » ، فتآمر « كوندك » عليه مع آخرين ،

١ - هذه رواية ابن لباس . ويضم من السلوك أنه لم يخرج للإسكندرية ، وأنه مات عام ٦٧٧ هـ .

«وهموا بقتله . فقبض عليه ، وسلم للأمير وحسام الدين طرطاي» عام ٦٨٠ هـ ، فضرب عنقه ، وأغرقه في بحيرة طبرية .

«ابن أبياس ج ١ ص ١١٣ - النهج السديد ج ٢ ص ٤٨٦ ، ٤٨٧ - السلوك ج ١ ص ٦٨٥ ، ٦٨٦»

٧ - عز الدين أيك الأقرم الصالحى

عينه السلطان بيبرس في أول سلطنته ، أمير جنادار (١) . فسافر في عام ٦٦٠ هـ . بعسكر إلى بلاد الصعيد ، وأوقع بمرابطها الثاثرين بقوص . وسافر إلى أسوان عام ٦٧٣ هـ مع آخرين لقتال ملك النوبة العايش بترك الجمات . - ثم أقيم نائباً للسلطنة في عهد العادل «سلامش» . ولكن الأمر كان في يد الأتابكي «قلاوون» . فلما ولي «قلاوون» السلطنة ، اختاره نائباً لسلطنته عام ٦٧٨ هـ . فلبث قليلاً ، ثم استعفى مدعيها المرض . فأعفاه السلطان ، ورتب له ما يكفيه . واستشاره فيمن يخلفه ، فأشار عليه باختيار الأمير «حسام الدين طرطاي» ، فوافق ذلك هوى في نفس السلطان . ولم يلبث أن ندبه مع عدد من الأمراء وجوع من الجنود ، لمحاربة «سنقر الأشقر» الذي حلك بلاد الشام ، وخرج على السلطان . فما زال به حتى أخضعه . واشترك مع السلطان في حرب التتار .

«ابن أبياس ج ١ ص ٩٩ ، ١٠٩ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١١٩ ، والسلوك ج ١» .

٨ - حسام الدين طرطاي ٦٨٩ هـ

هو طرطاي بن عبد الله . كان من ماليك المنصور قلاوون . وباه صفراً ، وترقى هو في خدمته . حتى تقلد المنصور سلطنة مصر ، فجعله نائب سلطنته ، بعد «الأقرم» الصالحى . وذلك عام ٦٨٧ هـ . وهو أول من سكن «دار النياحة» التي أنشأها المنصور عام ٦٨٧ هـ . وقد بعثه المنصور عام ٦٨٦ هـ . لقبض على الأمير «سنقر الأشقر» ، الذي أعلن بنفسه سلطاناً على بلاد الشام . فما زال به حتى استسلم ، فساقه إلى مصر .

١ - أمير جنادار : هو الذى يتأذن على الأمراء ليدخلوا خدمة السلطان . ويقدم إليه إلى السلطان ، مع الدواidar وكتب السر - «صبح الأعين ج ٤ ص ٥٧» .

ودفع به بين يدي المنصور .

ولما مات المنصور ، وتولى ابنه الأشرف خليل . حس له الأمير « علم الدين سنجر » الشجاعي ، الوزير دسيسة عنده . وكان الأشرف يكره « طر نطاي » قبل سلطنته ، لأنه يرمق أعماله وآماله . وقيل للأشرف : إنه يعمل على إفساد مملكته . فقبض عليه . عام ٦٨٩ هـ ، فسجنه باقطة ، ثم أمر بحرقه .

وكانت الأمراء قد حذرت من بطش الأشرف خليل ، وداردوه على ألا يعاونه . على إتمام سلطنته بعد أبيه ، وأغروه بالقبض عليه . ولكن « طر نطاي » ، كلن وانقا من نفسه معتمدا على مهابته ، حريصا على أن يكون وفيًا لسيده المنصور ، فلا يقدر بأبنة ، فراح ضحية ثقته ووفائه . وأحاط الأشرف بآماله ونحفه ، ويقال إنه ترك من ذلك الشيء الكثير . وكانت له مدرسة اشتهرت بالمدرسة الحسامية .

« ابن أبيس ج ١ ص ١١٥ إلى ١١٩ ، ١٢٢ - وخطط القرطبي ج ٤ ص ٢٢٨ .
تخصص عنوان « المدرسة الحسامية » - سلوك ج ١ ص ٦٥٥ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٧ ،
٧١٥ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ .

٩ - بدر الدين بيدرا ٦٩٣ هـ

ولى الوزارة حينما في عهد قلاوون ، بإشراف القاضي تقي الدين عبد الرحمن بن بنت الآخر ، وشهد له هذا القاضي عند سلطانه ، بالسداد والحزم والطف في العمل . ثم عزل منها ، وولياها القاضي المذكور . ثم عزل القاضي وألهد الأمير « بيدرا » ، فسار في أعمالها بمفرده . وكان حينئذ أمير مجلس . ثم رقى إلى الاستاذية مع الوزارة . وظل كذلك إلى آخر عهد المنصور قلاوون . ولما آل الملك لابنه الأشرف خليل ، خلع على الأمير « بيدرا » وجعله نايب سلطنته ، وذلك عام ٦٨٩ هـ ، بعد « طر نطاي » . وخرج عام ٦٩١ هـ ، فوجه من عسكر مصر لقتال سكان جبال كسروان ببلاد الشام ، فأب خاسرا ومريض بسبب ذلك . وكان الأشرف اجتنب لوزانته صديقه الحميم القاضي « شمس الدين بن السلوس » وأطلق يده ، فاستبد بتدبير المملكة ، وأصبح يدير الحل والعقد فيها ، وتطحن بقوة على نفوذ النائب « بيدرا » ، وتدخل فيها بمشور من اختصاصه ، فلم يظفر بذلك غضبا لعله يميل السلطان إليه . ثم لکن « ابن السلوس » ، أقر بعض الأخطاء التي

وقع فيها غلمان « بيدرا » ، ودس له عند السلطان ، حتى أحفقه عليه . فأحضره وأغلف له في القول ، وأثقل عليه في الحديث ، حتى جرح كرامته ، وتوعده بكل سوء . فتجمل الأمير « بيدرا » ، وتلطف به حتى خلس من بين يديه ، وفي نفسه ما فيها من الفيلسوف والحق . فأضمر له الشر ، وأخذ يدبر هو وأتباعه مؤامرة لاعتقاله . وقد سمحت لهم الفرصة المرجوة في يوم السبت ٥ المحرم عام ٦٩٣ هـ ، إذ خرج « الأشرف » في إحدى رياضاته بالجيزة ، ولم يكن في صحبته غير أخير واحد . وكان أتباع « بيدرا » يراقبون حرركاته وسكناته . حتى انفرد ، فهجموا عليه هجمة صادقة ، ومنزقوا جسده شرمزق ، وتركوه جثة هامدة رهن الخلاء .

ثم اتتمروا فيما بينهم فيمن يستحق السلطنة ، فاستقر الرأي على سلطنة « بيدرا » . فتلقب بالملك « الأجد » ، وقيل « الرحيم » . ولكن الخبر شاع وهلا البقاع . فهبت بقية الأمراء ، ومعهم المايك السلطانية ، ووفدوا إلى الجيزة ، وأحاطوا ب« بيدرا » ومن معه ، فقطعوه بسيفهم إربا إربا . فأنهى أمره بهذه العاقبة ، ولما تم على سلطنته ليلة كاملة . وقد ولى النيابة من بعده « كتبغا » ثم « لاجين » ، وقد صار كل منهما ملكا - كما بينا - .

« ابن إياس ج ١ ص ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ » .

١٠ - شمس الدين قرا سنقر المنصورى ٧٢٨ هـ .

هو قرا سنقر بن عبد الله . الجوكندار المنصورى . اشتراه المنصور قلاوون قبل سلطنته ، ثم ترقى في خدمته ، إلى أن ولاء نيابة حلب عام ٦٨٢ هـ (١) . ويقال إنه من أبناء التصاريح .

وفي عهد الأشرف خليل عزل من نيابة حلب عام ٦٩١ هـ ، ووفد في عصبة الأمير « بيدرا » ، نائب السلطنة حينذاك ، لقتال سكان جبال كسروان ، فلم يظفروا بطنائيل . ثم دخل القاهرة ، وانضم إلى « بيدرا » ، ودبر معه مقتل الأشرف خليل . ثم اختفى زمنا . ولما صار الملك إلى « لاجين » ، أقام « قرا سنقر » نائبا لسلطنته عام ٦٩٦ هـ (٢) .

١ - في السلوك ج ١ ص ٨٧ أنه ولى نيابة حلب عام ٦٨١ هـ .

٢ - هذا كلام ابن إياس . وفي الذرر : أنه ولى نيابة السلطنة في عهد « كتبغا » . والأول أصح ، لأن نائب « كتبغا » كان « لاجين » الذى وثب من بعده من النيابة إلى العرش .

غير أنه لم يلبث غير أشهر، ثم فسدت علاقته بالسلطان « لاجين »، وانتهت بجملة تهم، منها كثرة جباية الأموال بغير حق. وقبض عليه، فلبث في سجنه زمنا، ثم أطلق سراحه في عهد الناصر بن قلاوون. وقدم إلى الناصر ضروبا من المعونة، فخطى عنده. وولى عدة نيايات، منها نيابة الشام عام ٧٠٩ هـ. ثم فسد ما بينه وبين الناصر، ففر مع جماعة إلى « خريندا » ملك التتار، فأعجب به، وفسر بعقله وذكائه، وحجب إليه الإقامة لديه، وزوجه تربية حسنة عالية القدر، وهى ابنة قتلوشاه، أحد أمراء التتار السكيان. وقد توفى في ٢٧ شوال عام ٧٢٨ هـ. وقد كان شجاعا صديدا غير خياب، يقصده الطامعون في جنوده. ومدحه بعض الشعراء، وكان حسن التدبير راجح العقل. وقد بى عام ٧٠٠ هـ مدرسة بالفاهرة عرفت إذ ذاك بالمدرسة القراسنقرية.

« ابن إياس ج ١ ص ١٣٦، ١٣٧ - والنور السكامة ج ٣ رقم ٢٢٥ - والخطط

ج ٤ ص ٢٣٢ »

١١ - سيف الدين منكوتمر الحساى ٦٩٨ هـ

كان مملوكا للسلطان حسام الدين لاجين. فأنعم عليه في أول سلطته عام ٦٩٦ هـ بإمارة مائة وتقدمة ألف، فصار بذلك من عطاء الأمراء لجماعة. ولم ينصرم العام، حتى أقامه نائبا لسلطنته بعد قبضه على النائب « قراسنقر ». ولم يكن « منكوتمر » أهلا لهذا المنصب الحليل، إذ كان في الأمراء من يفوقه دربة وخبرة، وأحق منه بالنيابة لكفاءته وأقدميته... وبلغ من عناية السلطان به أن هم مرة يجعله وليا لعهده. كل ذلك أحقد عليه قلوب الأمراء. وأطلق السلطان يده في شئون الدولة فعبث بالحقوق و غير

وكان أكبر معوان للسلطان على تنظيم « الرؤك الحساى »، الذى قسم فيه الإقطاعات تقسيما جديدا، عده الأمراء والجنود تحمقا بهم. فأغرى السلطان ببعض الأمراء، فقبض على البعض وفر منه البعض. فثارت بذلك ثورة التآمر عليهما معا. وترصها الأميران « كرجى » و « طنجى ». فقتل « كرجى » السلطان غيلة في إحدى الليالى، فاستسلم « منكوتمر » على الأثر إلى « طنجى »، فبعثه إلى جب القلعة سجيناً، فكاد يطش به من فى الجب من السجناء الذين أرسلهم إليه من قبل. وسرعان ما استدعاه « كرجى » بعد ساعة، وذبحه يلب، وكان ذلك عام ٦٩٨ هـ.

وكان « منكوتر » ظالماً غشوماً كثير الدس للامراء ، مستبداً . فكان عمله هذا وبالاً عليه . ومن آثاره مدرسته المنكوتيرية ، بحارة بهاء الدين بالقاهرة - كانت - التي أكمل بناءها عام ٦٩٨ هـ .

« ابن إياس » ج ١ ص ١٣٧ ، ١٣٨ - خطط المقريزي ج ١ ص ١٤١ ، ١٤٢ و ج ٤ ص ٢٣٠

١٢ - سيف الدين « سار » المنصوري ٧١٠ هـ

أصله من التتار الأورالية ، اشتراه قلاوون قبل سلطنته ، ومنحه لابنه علي . فخدمه وخدم بعده الأشرف خليلًا . وحينما عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون عودته الأولى إلى ملكة عام ٦٩٨ هـ ، حقب قتل الملك « لاجين » ، عين الأمير « سار » نائباً للسلطنة في ذلك العام . فدبر له أمور دولته . وسار في رفقته عام ٦٩٩ هـ ، إلى بلاد الشام لقتال غازان ملك التتار .

ولما وافت سنة ٧٠٧ هـ ، سادت العلاقات بينه وبين سلطانة الناصر ، ودبت عقارب المشاحنات بينهما . وضغط على السلطان في تصرفاته حتى غص السلطان به وبالأنابكي « بيبرس » الجاشنكير ، اللذين كانا يدبران له أمر « ملكته » ، فاستبدا بذلك الأمر من دونه . فهزم الناصر على أن يخلع نفسه من السلطنة ، فرارا من هذين الخارجين . فأعلن عام ٧٠٨ هـ ، بزمه على الخروج إلى الحج . وخرج فعلاً ، ولكنه تخلف في السرك ، وخلع نفسه من الملك . فتشاور الأمراء فيمن يولونه . وكانت الرغبة متجهة بمجد إلى اختيار النائب « سار » ، ولكنه صمم رأيه وأعلن عزمه على عدم قبول هذا المنصب الرفيع ، مع أهليته له . فتمت بذلك المشورة على اختيار الأنابكي « بيبرس » ، فلقب « بالمظفر » ، وظل « سار » نائب سلطنة أيضاً في ذلك العهد الجديد .

ازداد نفوذ « سار » وعلا جله وقوته سطوته وظل كذلك زمناً ، حتى تقلبت الأحوال ، واتتمر كثير من الأمراء والجند على خلع « بيبرس » ، والتف عدد منهم حول الناصر بالسرك ، وكتبه أمراء الشام بالطاعة . فزحف بأنصاره من السرك إلى الشام ، وخطب باسمه على منابرهما . ثم أعد العدة للزحف على مصر . فاحتاط الأمير « سار » لنفسه ، وظهر بُعد نظره وقوة حيلته ، في أنه أخذ يزين للمظفر بيبرس أن يخلع نفسه من السلطنة ، ويعلن بطاعته للناصر ، قبل أن يدمه بمجنوده . فرضى المظفر مرغماً ، وأطاع ، وكانب الناصر بهذه الطاعة ثم فر .

أما «سلار» فإنه لم يظهر عداءه للناصر، وأعد العدة لحسن استقباله. فأطلق من في السجون من أمرائه الموالين له، وأغلق خزائن المال، واحتفظ بالملك سليما، ورثما يعود الناصر، فيقتله. - هذا إذا استثنينا مانبيه المظفر «بيرس» وقت هروبه، من حال وسلاح وتحف وبما ليك.

عاد الناصر إلى عرشه عودته الثانية عام ٧٠٩ هـ، فتقدم إليه النائب «سلار» وقيل «الأرض بين يديه، وطلب إليه أن يعفيه من مهام منصبه، وأن يسمح له بالإقامة بعيداً عن القاهرة في إقطاعه بجهة «الشوبك». فأعفاه. وبذلك انتهت نيابة سلطنته عام ٧٠٩ هـ، بعد أن قام بها نحو إحدى عشرة سنة. وأقام بالشوبك، وقيل بالمسرك.

ورق إلى علم السلطان الناصر بعد زمن أن أعاد «سلار» وأنباع «سلار» يدبرون مؤامرة لاغتياله. فقبض على طائفة منهم. ثم حمل «سلار» على العودة إلى القاهرة. فلما حضر بين يديه، دسه في السجن، فبق به زبناً قليلاً، ثم مات كيداً وحسرة عام ٧١٠ هـ. ولما توفي، حملت تركته إلى الناصر؛ فضمها إلى ممتلكاته. وقيل إنها كانت مليئة بأموال كثيرة. وأنواع شتى من التحف النادرة والجواهر الثمينة، مما يعد فذاً في بابه. وينسب إلى «سلار» أنواع من الملابس «السلارية»، التي استخدمت طيلة هذا العصر من بعده؛ وكذلك أنواع أخرى من الأسلحة وأدوات القتال. كما أنه كان كثير البر والتصدق على الفقراء. وقد دفن في المدرسة الجاولية.

«ابن إياس ج ١ من ص ١٣٩ إلى ١٥٦ - الفوات ج ١ ص ٢٣٢ - الدرج ٢ رقم ١٩١٣».

١٣ - بكتمر الجوكندار المنصوري ٧١٦ هـ

كان حسن الصلة بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون. ولاء إمارة الحاج عام ٧٠٠ هـ، قبذل ضروباً من البر، وشكرت سيرته. وقد أقامه الناصر نائباً لسلطنته عام ٧٠٩ هـ، عقب خروج «سلار» منها. ولكن ما لبث حتى فسدت علاقته بالسلطان، فقبض عليه عام ٧١١ هـ، وأودعه السجن بالإسكندرية. ثم نقل إلى المسرك، ويقال إنه قتل بها، عام ٧١٦ هـ، وكان زبناً لبن الجانب كثير الصدقات.

«ابن إياس ج ١ ص ١٥٤، ١٥٧ - الدرج ١ رقم ١٣٠٧».

١٤ - بيرس الدوادار المنصوري ٧٢٥ هـ

أصله من ماليك المنصور . ولاه نيابة الكرك ، ثم عزله الأشرف و خليل ، و رثاه
دوادار أكبراً . وقد أرسله الناصر محمد في عام ٧٠٩ هـ في إثر الملك المظفر بيرس ،
الجامشكير ، لما فر من وجهه ، إلى إخم . قتلطف هو والأمير بهادر آص ، به ،
حتى استرد منه ما نهبه من المال والتحف .

واختاره الناصر نائباً لسلطنته عام ٧١١ هـ . بعد القبض على بكتمر ، إلا أنه
لم يستمر طويلاً ، بل ساءت فيه ظنون الناصر . فقبض عليه ، وقذف به في السجن
عام ٧١٢ هـ . فلبث بسجن الإسكندرية نحو خمس سنين ، ثم شفع فيه النائب أرغون ،
فأطلق عام ٧١٧ هـ . ثم حج عام ٧٢٣ هـ . ومات عام ٧٢٥ هـ ، عن نحو ثمانين عاماً .
وقد اشتغل بيرس ، بالعلم والتاريخ ، ومن مؤلفاته : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ،
والتحفة الملوكة في الدولة التركية .

« ابن أبياس ج ١ ص ١٥٤ ، ١٥٧ - تاريخ آداب اللغة لجورجي زيدان ج ٢ ص
١٨٦ - حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٠ - الدرر ج رقم ١٣٨٤ » .

١٥ - أرغون الدوادار الناصري ٧٣١ هـ

اشتره المنصور « قلاوون » ، ورباه مع ولده الناصر محمد . فظل في خدمته ،
ولارمه . فلما قبض الناصر على نائبه بيرس ، عام ٧١٢ هـ ، اختار « أرغون » نائباً .
فحسن سيرته ، ودفع عن الناس كثيراً من الظلم . وزار مرة منية ابن خصب ، فغرب
بها كنائس للناصرى ، ومنع استخدام النصارى في ديوانه . وكلفه الناصر عام ٧٢٦ هـ
أن يقبض على « مهنا » العربي الثائر . فبسطاً . فأثار بذلك غضب الناصر ، فقبض عليه
ثم أخرجه نائباً على حلب . فأت بها عام ٧٣١ هـ . وكان ذا دراية بفقده أبي حنيفة ،
هوذا عناية كبرى باقتناء الكتب ، مع الحلم وحب الخير .

« ابن أبياس ج ١ ص ١٥٧ - الدرر ج ١ رقم ٨٧٣ » .

١٦ - طفر دمر الناصري ٧٤٦ هـ

أصله من ماليك المؤيد صاحب حماة . اتصل بالناصر محمد ، فعملت عنده مكائمه .

وزوج ابنته لولديه المنصور والصالح . ثم ولى نيابة السلطنة عام ٥٧٤١ هـ ، فى عهد المنصور أبى بكر بن الناصر . ولكن أمر الدولة كان يبد « قوصون » ، أنابكى العصر . قبض « قوصون » على المنصور ثم على نائبه ، ونفاه إلى دمياط . وأصبح « قوصون » نائباً وأنابكياً معاً . ثم أطلق سراح « طقزدمر » وأرسل نائباً على حلب فى أول عهد الصالح بن الناصر . ثم نقل إلى نيابة الشام . ثم أخصص إلى مصر مريضاً ، فمات بها . عام ٥٧٤٦ هـ .

« ابن إياس ج ١ ص ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨١ - الدرج ٢ رقم ٢٠٤٢ » .

١٧ - سيف الدين « قوصون » . الساقى الناصرى ٥٧٤٢ هـ

أحد أمراء مصر العظام . قدم إلى مصر لأول مرة عام ٥٧١٩ هـ (١) . حينما حضرت إلى مصر خطيبة السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وهى ابنة القان « أذربك » ، صاحب الموصل . حضرت فى ذلك العام ومعه طائفة من الأمراء والخدم والماليك . وكان « قوصون » بين هؤلاء الماليك فأعجب الناصر به إعجاباً دفعه إلى شرائه . وقيل دفع ثمنه ثمانية آلاف من الدراهم . وقيل ثمانين ألفاً . وقد أعنتق توا . فلم يعيش بين الطباقي بالقلعة ، كما عاش غيره من الأمراء . وكان « قوصون » يقتخر بذلك - وقد ذكرنا قبلاً المفارقة التى وقعت بينه وبين الأنابكى « بكتمر » ، الساقى ، وهى من هذا القبيل .

وقد صادف وجوده ، هوى فى نفس الناصر بن قلاوون ، حتى ركن إليه ، وقدمه فى كثير من الأمور والمهام . ورافقه فى سفره إلى الحجاز للفتح عام ٥٧٣٢ هـ . ثم زوجه من بعد ذلك إحدى بناته (٢) . فكان هذا الزواج إحدى مفاخره ، وقد زادت به منزلته ورفعة ، وجاهه علواً ، ونفوذه اتساعاً . حتى أضحى قريناً للأنابكى « بكتمر » فى المنزلة والجاه والنفوذ . بل ربما شآء فى ذلك . مع أن « بكتمر » هذا كان مدير شئون الملك الناصر ، وعليه كل اعتماد فى تصريف شؤنه . فلما مات

١ - ذكر فى المخطوط أنه قدم عام ٥٧٢٠ هـ .

٢ - يضمن من ابن إياس أن هذا الزواج كان عام ٥٧٢٣ هـ ، وذكر فى الدرر أنه كان عام

« بكتمر » ، خلا الجو الأمير « قوصون » ، وانفسح أمامه المجال ، واتسع الأفق : وازداد قربا من الناصر ، وأنعم عليه بأسلحة « بكتمر » . فلما انقضت أيام الناصر وتولى ابنه المنصور أبو بكر عام ٧٤١ هـ ، أقيم « قوصون » أتابكا للساكر . وكان هناك أمير يحقد عليه هو « طاجار » . اشتد بينهما الجفاء ، حتى انقسم الجند معهما فريقين متعادين . ثم حبيب « طاجار » إلى السلطان أبي بكر أن يقبض على « قوصون » ، فأوصى السلطان أحد خواصه من الجنود باغتياله . فإذ كان من الجندي إلا أن أسر الخبر إلى « قوصون » ، فعجل بتدبير مؤامرة مع فئة من الأمراء ، كانت تليجتها خلع السلطان ، وإقامة أخيه الأشرف علاء الدين كجك مكانه .

حينما تربع « كجك » في دست الملك كان صغير السن ، فكان « قوصون » بجواره كوصى عليه . وهنا بلغ قفه مجده ونهاية سؤده . فأبرم ونقض ، وحل وربط ، وأمر ونهى ، وجمع إلى الأناطكية نيابة السلطنة عام ٧٤٢ هـ . وأخذ في تجديد دار النيابة ، بعد أن كان قد هدمها الناصر بن قلاوون . قيل : وكان يجلس في داره ، وبعد للأمراء سباطا أعظم من سباط السلطان .

هذه الغاية التي بلغها « قوصون » ، أثارت الحقد والصفائن في قلوب منافديه وأعدائه . وما أشعل نيران هذه الحقد أيضا ، أن أصدر أمره بالقبض على من توسم فيهم العصيان من الممالك السلطانية ، ومن كبار الأمراء كالأمير « طغتمش » ، نائب حلب في ذلك الوقت ، والامير « ليدغش » ، أمير أخور كبير ، والامير « قطلبغا » الفخرى . فأماج بذلك على نفسه فتنة لم يقو على درتها . فقد أخذته الأعداء من كل جانب ، واستباحوا داره . وأغروا بها العوام ، فنهبوا من مكشوراتها ما أغناهم دهرأ . فقد كانت مليئة بكثير من المال والتحف والسلاح والخيول ، وغير ذلك . أما « قوصون » فقد احتسى بالقلعة . ورأى بعينه ما يفعله الرعاع بداره ، فلما اشتد الأمر ، أرسل إلى « ليدغش » في طلب الأمان ، فقبض عليه « ليدغش » ، وبجنت بالرد دخانة ، ثم أرسل في طي الليل إلى سجن الإسكندرية . وأهين أتباعه ، وقتل منهم كثير . ثم أعدم « قوصون » بالإسكندرية عام ٧٤٢ هـ .

هذه هي نهايته ، بعد أن بلغ من المجد مبلغا عظيما ، حتى هابته الأمراء . قيل : إنه لما تزوج ابنة الناصر محمد ، أهدى إليه الأمراء نحو خمسين ألف دينار . وكان كبرياء .

كثير البذل والسخاء . وله مسجد بناحية بركة الفيل بالقاهرة ، وبنائه بمهجة باب
القرافة - كانت - .

د ابن عباس ج ١ ص ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٦ ، إلى ، ١٧٩ - الخطط ج ٤ ص ١٠٤ -
الدرج ٣ رقم ٦٢٢ .

١٨ - طشتمر البدرى الساقى ٧٤٣ هـ

كان من عماليك الناصر بن قلاوون . وتوفى - قى بلغ الإمارة . ولكنه كان غليظ
القلب ، شديد البأس . لذلك لم يسترح إليه ضمير الناصر . فقبض عليه عام ٧٢٦ هـ
- وقيل عام ٧٢٧ هـ - . فشفع فيه بعض الأمراء ، فخل سبيله . ومع هذا ظل مقوفاً
لدى الناصر . وقد عين نائباً لحلب في عهد المنصور أبى بكر بن الناصر . وفى عهد خلفه
الأشرف ، بكك ، ، رغب نائب السلطنة الأتابكى ، قوصون ، فى القبض عليه فلم يفلح .
وأب عليه ، طشتمر ، بلاد حلب والشام . فلما زال عهدهما ، قدم ، طشتمر ، إلى مصر .
وعين نائباً للسلطنة فى عهد الناصر أحمد بن الناصر محمد عام ٧٤٢ هـ ، غير أنه لم يبق بها هذه
النيابة إلا شهراً تقريباً ثم سادت علاقاته بالسلطان ، فقبض عليه وبجته بالقلعة . ثم
سافر السلطان أحمد إلى الكرك ، فساق معه ، طشتمر ، وزيته ، قلوبغا ، فسجنوا فى
قلمها مدة ، ثم أعدما عام ٧٤٣ هـ . فكان قتلها مما جعل يخلع السلطان . ويتراى لنا
أن ، طشتمر ، كان شخصية نادرة مَلْئِية . وقد سباه العوام وحصن أخضر ، لأنه كان
يحب أكله . ولهم فيه أغاني وأشعار طريفة .

د ابن عباس ج ١ ص ١٦٤ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ - الدر ج ٢ رقم
٢٠١٧ - الخطط ج ٤ ص ٣٤٩ .

١٩ - شمس الدين آق سنقر السلارى ٧٤٧ هـ

كان فى جملة عماليك المنصور قلاوون . ثم ضم إلى الأمير ، سلار ، فنسب إليه . ثم
حسن اتصاله بالناصر بن قلاوون ، فوجه بابتنه . وولى فى عهده نيابة صفد وغيرها ،
فأحسن الولاية واشترك بعد الناصر فى عدة حوادث ، حتى ملك الناصر أحمد بن محمد ،
فحولاه نيابة السلطنة بدم ، طشتمر ، ، وظل بها فى عهد خلفه الصالح إسماعيل عام ٧٤٣ هـ
فأتم تجديد دار النيابة بالقلعة ، وأعادها إلى سابق مجدها ، وأقام فيها السماع القصص والشكايات .

غير أنه لم يقيم طويلا ، حتى تغير قلب السلطان عليه ، فسجنه بالإسكندرية أوائل عام ٧٤٤ هـ . ثم أطلق سراحه بعد زمن . وكان في عداد الثأرين على السلطان شعبان بن الناصر . فلما ملك المظفر حاجي ، قبض على « آق سنقر » ، ثم خنقه في عام ٧٤٧ هـ .
« ابن أبياس ج ١ ص ١٨١ ، ١٨٥ ، ١٨٧ — الدرر ج ١ رقم ١٠١٤ — الخطط ج ٣ ص ٣٤٩ ، ج ٤ ص ١٠٧ » .

٢٠ — سيف الدين الحاج آل ملك الجوكندار ٧٤٧ هـ .

أصله من سبي الألبستين . وآل ماسكة إلى قلاوون قبل سلطنته . ثم صار أميراً وترقى في الإمارة . وأعجب به الناصر محمد لرجاحة عقله . وولى نيابة السلطنة عام ٧٤٤ هـ بعد القبض على « آق سنقر » . — ومن أهم ما قام به أن هدم « خزانة البنود » التي كانت مبنية في عهد بني أيوب ثم اتخذها بعض الفرنجة داراً للفساد . وبنى مكانها مسجداً . لبث « آل ملك » في نيابته زمناً ، يجلس في دار النيابة للحكم ، حتى ملئت سلطانه الصالح إسماعيل عام ٧٤٦ هـ ، وتولى مكانه أخوه الكامل شعبان بن الناصر ، فقبض عليه ويجنه بالقلعة زمناً . ثم أفرج عنه ، وولاه نيابة دمشق فصفد . ثم أوصى بالقبض عليه ثانياً ، فأرسل إلى سجن الإسكندرية عام ٧٤٧ هـ فخنق . وكان يحنج نحو الخير ، وفيه دين وعبادة .

« ابن أبياس ج ١ ص ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٢١٠ — الخطط ج ٤ ص ١٠٨ — الدرر ج ١ رقم ١٠٦٤ » .

٢١ — أرقطاي القفجني ٧٥٠ هـ

كان من عماليك الأشرف ، وكان ذكياً خبيراً . ولى نيابة حصص عام ٧١٦ هـ ، ثم صفد وغيرها . ولما قبض السلطان الكامل شعبان ، على النائب « آل ملك » ، عينه مكانه في النيابة عام ٧٤٦ هـ (١) . فظل فيها حتى شهد عصر المظفر حاجي . فلما ملك الطيش هذا الملك ، تأمر الأمراء عليه بزعامة « أرقطاي » . ودارت رحى الحرب بين الفريقين . ثم قبض على « حاجي » ومضوا به حاصر الرأس إلى « أرقطاي » فلقية لقواء كريماً ، وأنف أن يقتله . وأمر بسجنه في القلعة . ولكن أحد الأمراء غدره وخنقه .

١ — ذكر في الدرر أنه ولى نيابة السلطنة لأول مرة في عهد المظفر حاجي .

وملك من بعده الناصر حسن ، فخلع نيابة حلب على أرقطاي ، عام ٧٤٨ هـ ، ثم نقل إلى دمشق نائباً . ولكنه كان مريضاً ، فأتى في طريقه إليه عام ٧٥٠ هـ . وسنة ٧٨٠ هـ . وكان كنيسته أديبا .

« ابن إياس ج ١ ص ١٨٤ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ — الدرر ج ١ رقم ٨٧٧ ، ٢٢ — يبيغا أروس الناصري ٧٥٤ هـ »

كان خاضعياً في أيام الناصر محمد . ثم كان في عداد الثائرين على المظفر حاجي . وهو الذي غدر به وساقه إلى المقابر في الباب المحروق ، وخنقه هناك ، بدل أن يمضي به إلى بحين القلعة . لهذا علت مكاتبه عند السلطان الجديد ، وهو الناصر حسن بن الناصر محمد . فأقامه نائباً لسلطنته ٧٤٨ هـ ، عوضاً عن أرقطاي ، الذي عين نائباً لحلب . ثم ما لبث أن تغير قلب سلطانه عليه ، فسجنه بقلعة الكرك عام ٧٥١ هـ . فلما خلع الناصر حسن ، وملك الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد عام ٧٥٢ هـ ، أفرج عنه ، وجعله نائباً لحلب ، في ذلك العام . فلبث زمناً ثم أظهر العصيان ، وزحف بجند كثيف إلى بلاد الشام ، ودخل دمشق . وانضم إليه كثير من الأمراء والعربان ، فعادت في دمشق فساداً . فخرج إليه الصالح في جيش كبير هزمه هناك هزيمة منكرة ، وقبض على كثير من أعوانه . أما هو فقد فر إلى بلاد التراكمة فأرسل خلفه من قبض عليه في الأبلستان . وقتل عام ٧٥٤ هـ . وهو أخو « منجك اليوسفي » الآتي ذكره .

« ابن إياس ج ١ ص ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، الدرر ج ١ رقم ١٣٨٧ ، ٢٣ — أرغون السكامل ٧٥٨ هـ »

أصله من ماليك الصالح إسماعيل ، رباة صغيراً ورقاء . وكان جميل الشكل حسن السياسة . وولاه الناصر حسن نيابة حلب . ثم ولي نيابة دمشق . واختاره الصالح صلاح الدين صالح ، نائباً لسلطنته عوضاً عن « يبيغا أروس » عام ٧٥٢ هـ . غير أنه كان قليل الحيلة لزاء الأمير « طاز » البوإدار ، الذي امتد نفوذه ، وأصبح صاحب الحل والعقد في البلاد . وانتقل إلى نيابة حلب عام ٧٥٤ هـ . (١) فثبت بها أركان السلطنة .

٦ — ذكر ابن إياس ج ١ من ٥٥٥ هـ نقله عن طريقه من كتابه « تاريخ الملوك » . فقله عن « يبيغا أروس » . وفي الدرر أنه عين نائباً لحلب عام ٧٥٣ هـ للمرة الثانية . ولم يذكر أنه كان نائباً بصرى .

ولبت بها حتى عين مكانه الأمير « طاز » عام ٧٥٥ هـ وقبض على « أرغون » وسجن بالإسكندرية زمنا . ثم أفرج عنه ، وعاش بالقدس عاطلا ، حتى مات عام ٧٥٨ هـ وهو دون الثلاثين .

« ابن إياس ج ١ ص ١٩٥ و ١٩٦ و ٢٠١ — الدرر ج ١ رقم ٨٧٤ ،

٢٤ — سيف الدين قبلای الناصرى ٧٥٦ هـ

ولى نيابة السكر ، ثم الحجوية فى أيام الناصر حسن بالقاهرة . وولى نيابة السلطنة فى أيام الصالح صلاح الدين ، بعد نقل الأمير « أرغون السكامل » منها عام ٧٥٣ هـ . ومن بعده شغرت نيابة السلطنة مدة فى عهد الناصر حسن ، حتى عين فيها « قشتمر » ، وقد مات « قبلای » عام ٧٥٦ هـ .

« ابن إياس ج ١ ص ١٩٦ — الدرر ج ٣ رقم ٦١٧ — الخطط ج ٣ ص ٣٥٦ ،

٢٥ — قشتمر المنصورى ٧٧١ هـ (١)

أقامه السلطان المنصور محمد بن المظفر حاجى ، نائبا لسلطنته عقب توليته عام ٧٦٢ هـ . ولما انتهى عهده لبت « قشتمر » نائبا لخلفه الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد . وكان نفوذه ضئيلا بجوار « يلبغا العمري » ، أتاكك العسكر إذ ذاك . ثم نقل نائبا لصفد عام ٧٦٤ هـ . ثم عاد إلى مصر . وعين فى عهد الأشرف شعبان أيضا ، حاجب الحجاب سنة ٧٦٨ هـ . وانتقل إلى نيابة حلب عام ٧٧١ هـ . وفى هذا العام وقعت فتنة بينه وبين الأمير « جبار » آل فضل ، وطوائف العربان . فاشتد القتال بين الفريقين ، فقتل خلاله « قشتمر » . وكان عالما بالعربية حسن الخط .

« ابن إياس ج ١ ص ٢١١ و ٢١٣ و ٢١٩ و ٢٢٥ و ٢٢٦ — الدرر ج ٣ رقم ٦٣٤ ،

٢٦ — على المنار ديبى ٧٧٢ هـ .

أصله من ممالك صاحب مازدين . وكان يجيد الضرب على العود . اتصل بالناصر محمد بن قلاوون منذ عام ٧٢٨ هـ ، فخطى عنده ، وترقى فى ممالك الإمارة . وولى مراراً

بلاد الشام نائباً . فلما خلت نيابة الساطنة في عهد الأشرف شعبان عام ٧٧٠ هـ (١) جعله نائباً . فلبث قرابة عامين ، ثم توفى عام ٧٧٢ هـ . وكان من خيار الأمراء ، كدبير البر والصدقات قليل الأذى .

« ابن إياس ج ١ من ص ٢٢٤ إلى ٢٢٧ - الدور ج ٣ رقم ١٦٠ وج ٤ رقم ٩٩٨ ،

٢٧ - طشتمر العلائي ٧٨٤ هـ .

لما توفى الأمير على المارديني نائب السلطنة عام ٧٧٢ هـ ، عين الملك الأشرف شعبان ابن حسين ، الأمير ، طشتمر العلائي ، نائباً عوضاً عنه . فلبث في النيابة زمناً ولعله هو الذي تولى الأتابكية بعد في عهد المنصور على بن الأشرف . « انظره في الأتابكية » . ومات عام ٧٧٤ هـ .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٢٧ - الدور ج ٢ رقم ٢٠١٨ » .

٢٨ - المقر السيفي إيدمرالدوادار ٧٧٥ هـ

كان نائباً على حلب ثم طرابلس . فاستدعاه الأشرف شعبان عام ٧٧٥ هـ وجعله أتابك عسكره ونائب سلطنته مما . فلبث كذلك مدة يسيرة ، ثم توفى في العام نفسه ، وقيل عام ٧٧٦ هـ . وكان حسن السياسة عادلاً متواضعاً .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٢٨ - الدور ج ١ رقم ١١٢٧ » .

٢٩ - سيف الدين ، منجك اليوسفي ، ٧٧٦ هـ

يعتبر هذا الأمير ، من أفضأ رجال عصر المماليك ، لثقلته فاشغله من المناصب وعديد ما قام به من الأعمال ، فوق اتعافه بالشجاعة والإقدام . وكان يندبه السلاطين لمهام الأمور ، فيقوم بها بكفائة ودرجة ودرم . وقد أتى عليه حين من الدهر كان صاحب الحل والنقد بالديار المصرية .

وكان « منجك اليوسفي » ، أحد الأمراء الممتازين ، في عهد الملك الصالح إسماعيل ابن الناصر محمد . فلما اشتدت الفتنة ، بين أخيه المخلوع المسمى الناصر أحمد ، المنفي في الكرك ، واستسلم الناصر لجنود أخيه السلطان ، فقيدوه ، أرسل السلطان لإيه الأمير « منجك اليوسفي » قطع رأسه وأحضره إلى القاهرة في علبة ، وذلك في صفر عام

١ - ذكر في الدور ج ٤ رقم ٩٩٨ أنه عين في نيابة السلطنة عام ٧٦٩ هـ ولكنه استغنى من النيابة بعد قليل ، ثم عين في الأتابكية في نفس العام . انظر ترجمته في الأتابكية .

٧٤٥ هـ . وكان إذ ذاك سلا حداراً .

ولما ثار الأمير « يلبغا اليحياوى » نائب الشام ، فى وجه السلطان الكامل شعبان ، وأظهر العصيان عام ٧٤٧ هـ ، اجتمع رأى الأمراء على أن يوفد السلطان الأمير « منجك اليوسفى » إلى الشام ، ليتحسس الأخبار ، فتوجه إليها توطاً قبل أن يتوجه إليها السلطان بمجنوده .

ثم ما زال يعلو به الجسد ، حتى عينه السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد ، وزيراً وأستادراً بالديار المصرية بإشارة من أخيه « يلبغا أروس » نائب السلطنة إذ ذاك عام ٧٤٨ هـ ، فنفذ أمور الدولة ودبرها واقتصد من نفقات الممالك مبلغ ستين ألف درهم شهرياً ، وقطع رواتب أخرى . وفى هذا العام انصرف بحرى النيل ، فتأكلت شواطئه وخيف الفرق . فوكل إلى الأمير « منجك » إصلاح هذه الشواطئ ، ففرض على كل متجر بمصر والقاهرة ، وعلى كل نخلة بجهة الشرقية ، درهمين من الفضة . فاجتمع له من ذلك مآل كثير . فاشترى عدة مراكب ، جلب بها الأحجار إلى الشاطئ ، لتقويته ضد المياه ، حتى يكسر من حدتها . وما زال جليداً فى عمله ، دون نتيجة حاسمة ، حتى زاد طغيان المياه ، وضج الناس بسببه . فأدى فشله فى مهمته إلى اتهامه ، والقبض عليه ومصادرة أمواله ، ثم عزل من الوزارة . ولكن سرعان ما عاد إليها .

ومما يذكر أنه وهو فى الوزارة ، أباح فى عام ٧٤٩ هـ للجند ، أن يزول عن الإطراح . أو المقايضة عليه . لجند جدم ، وبذل كل منهم ، إقناعاً لمن يدفع من العانة وسواها فى سبيله المال المناسب ، على شرط أن يدفع مبلغ نظير ذلك للوزير .

ويدون « منجك » كان يسعى إلى المال بطرق عدة ، ويخادعه لنفسه . وعنى بضروب من الاقتصاد لتوفير المال الدولة . غير أنه لم يخل من الشبهة . وأخذت الظنون تتجمع حوله ، والنفوس تتوثب حقداً عليه . وحاول أن يوسع فى اختصاصه ، وأن يضيق وظيفة نظار الخاص إلى الوزارة ، فاعترضه الأمير « شيخو العبرى » ومنه . فكان ذلك من جملة أسباب النزاع بين « يلبغا أروس » نائب السلطنة حينذاك . وأتت « منجك » وكان سبباً فى خروج « منجك » من الوزارة . إلا أنه عاد إليها بعد قليل . كما ذكرنا .

ولقد زاد موقفه حرجاً ، أدام السلطان حسن ، قبض عليه عام ٧٥١ هـ ، هو وخاتمة من الأتراء . ونجهم فى الإسكندرية وأحاط بهمالة ومدججهم « منجك » فى السجن ، حتى ولي الملك السلطان « صالح بن الناصر محمد » فأطلق سراجه عام ٧٥٢ هـ ، وأنعم عليه .

بتقدمة ألف ، وأعاد إليه بعض ما أخذ منه . وعرضت له محنة بعد قليل ، اختفى على أثرها . ثم قبض عليه . ثم أطلق عام ٧٥٥هـ . ثم عاد السلطان حسن إلى العرش ، فأصلحت الظروف بينه وبين «منجك» ، فعينه نائباً على طرابلس ، ثم نقل إلى حلب عام ٧٥٩هـ ، عوضاً عن الأمير «طاز» ، الذي قبض عليه ، ولكن الأمير «منجك» ، لم يلبث أن دب الفساد فيما بينه وبين السلطان ، فعول على الاختفاء ، فأختفى عام ٧٦٠هـ . فعاقب السلطان بعض شيعته ، وأقام الأمير «يديم الحوارزمي» نائباً لحلب مكانه . ثم آل أمره إلى القبرص عليه ، فأُخِص إلى السلطان ، فوبخه . ثم ما لبث أن عفا عنه ، ومنحه إمرة أربعين في الشام ، على أن يقيم هناك عاطلاً . فسافر لساعته إلى تلك البلاد . فلبث زمناً . ثم اشترك مع «يديم» نائب الشام ضد «يلغا» العمرى مديبر الدولة للنصور بن حاجي ، فقبض عليه وسجن زمناً ، حتى نصبه السلطان الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد ، نائباً للشام ، خلفاً للأمير «أزدمر العمرى» المتوفى ، ذلك عام ٧٧١هـ (١) . فظل بها حتى توفى المقر السيفي «يديم» نائب سلطنة مصر عام ٧٧٥هـ ، فاستدعاه حينئذ السلطان الأشرف شعبان وأقامه نائباً للسلطنة وأتاه بك عسكر مما ، لجمع بذلك بين أكبر منصبين في الدولة . وفوض إليه السلطان ، أمور المملكة في الديار المصرية والشامية ، وجعل من حقه أن يخرج أنواعاً من الإقطاع دون مشورة السلطان . ولاشك أن هذا العهد كان عهد عظمة الأمير «منجك» اليوسفي ، إذ أصبح صاحب الأمر في البلاد ومعتمد السلطان . فلبث يكفهما مشورة الرأي والتدبير ، حتى توفى عام ٧٧٦هـ ، وعمره نحو سبعين سنة . ودفن في الحلقاء التي أنشأها لنفسه في رأس الصورة تجاه «الطلبخانات» السلطانية إذ ذاك . وكان معروفًا بأبٍ والإحسان وله آثار عدة . - وعين من بعده «أقتمر بن عبد الغني» عام ٧٧٨هـ فلم يلبث إلا قليلاً . وبما يذكر أن السلطان «برقوقا» كان من عماليك «منجك» اليوسفي ، حينما كان نائباً على الشام . وابن أبياس ج ١ ص ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ - وخط المقرري ج ٣ ص ٣٥٦ ، ج ٤ ص ١٢٤ - الدور ج ٤ رقم ٩٨٥٠ .

(١) - منه رواية ابن أبياس ، وذكر المقرري في الخطوط ج ٤ ص ١٢٩ ، أنه ولي نابة دمشق على عام ٧٦٩هـ .

٣٠ - آقمر الصاجي

وهو الشهير بالحنبلي . عين نائباً للسلطنة عام ٧٧٨ هـ ، عقب تولية السلطان المنصور على بن الأشرف شعبان ، عوضاً عن المقر السني « آقمر بن عبد الغني » الذي عينه الأشرف شعبان نائباً لسلطته ، في ذلك العام نفسه ، فلم يمكث بها إلا قليلاً ثم عزل ؛ ثم عاد كما سنبينه فيما بعد .

أما « آقمر الصاجي » فإنه وقع تقور ونزاع بينه وبين الأمير « أيبك البدرى » ، وكان قد تزعم نزاعاً وقع بين الأمراء . فحاشا « آقمر » الصاجي على السلطان المنصور على بالقبض على « أيبك » . ولكن المشورة لم تم إلى غايتها . واستطاع الأمير « أيبك » البدرى ، أن يهدد الأمير النائب « آقمر » الصاجي ، وأمره بأن يغادر البلاد توجاً إلى دمشق . وتوعده بالقتل إن توقف عن تنفيذ الأمر . فصعد هذا به . ورحل إلى بلاد الشام في العام نفسه . وأصبح « أيبك » سيد الموقف في مصر ، كما سنبتضح في ترجمته . حتى قبض عليه . وفي هذا دليل على ضعف نيابة السلطنة في ذلك الحين .

« ابن أبياس ج ١ ص ٢٣٩ و ٢٤٠ » .

٣١ - آقمر بن عبد الغني

كان نائباً على الشام عام ٧٦٨ هـ . ثم عينه الأشرف شعبان حفيد الناصر ، نائباً للسلطنة عام ٧٧٨ هـ ، قبل « آقمر » الصاجي السابق ذكره ، وذلك وقت خروجه للحج . فلبث في منصبه قليلاً ، ثم عزل في العام نفسه . وقبض عليه وبجن . ولما نفي « آقمر » الصاجي إلى نيابة دمشق في عهد المنصور على بن الأشرف شعبان بتدبير الأتابكي « أيبك » البدرى ، أفرج عن « آقمر بن عبد الغني » وأعيد إلى نيابة السلطنة . فكان هذا دليلًا على نفوذ بيجوار « أيبك » .

« ابن أبياس ج ١ ص ٢١٧ و ٢٣١ و ٢٣٩ و ٢٤٠ - الدرر ج ١ ص ١٠٠٨ » .

٣٢ - سودون الفخري الشيعوني ٧٩٨ هـ (١)

شغرت نيابة السلطنة ، بعد « آقمر بن عبد الغني » إذ استبد بالملك في آخر أيام الدولة

١ - ذكر المقرئ في خطه جزء ٣ تحت عنوان « دار النيابة » قال : « ولم يل النيابة أحد في الأيام الظاهرية » . ولكن ابن أبياس صرح في أن « سودون » ظل زماناً في عهد الظاهر هـ . برقوق » ، وهو نائب سلطنة ، حتى مات .

البحرية الأتابكي « برقوق » . فلما صار سلطانا على مصر عام ٧٨٤ هـ ، وأسس الدولة الجركسية ، عين في نيابة سلطنته الأمير « سودون » الفخري الشيخوني . وقد وفد على مصر حينذاك الأمير « بيدمر » الخوارزمي نائب الشام ، فأكرمه « برقوق » وقدمه في بعض المواقف على « سودون » . وفي ذلك نافية من اتضاع منزله النيابة .

وقد اشترك « سودون » وبعض الأمراء ، مع « برقوق » ، في الفتنة التي أشعلها ضده . « يلغا » الناصري ، والتي أدت إلى اختفائه ، وعودة الصالح أمير حاج إلى السلطنة عام ٧٩١ هـ . وقبض على « سودون » وسجن في دمياط . ثم أفرج عنه بعد قليل . ولما عاد « برقوق » إلى السلطنة عام ٧٩٢ هـ ، أعاد « سدود » إلى نيابة سلطنته . فظل يشغلها في كنفه حتى توفي عام ٧٩٨ هـ . وقد كانت له يد طويلة في عودة « برقوق » إلى عرشه . « ابن لباس ج ١ ص ٢٦٠ و ٢٧٣ و ٢٧٥ و ٢٨٤ و ٢٨٦ و ٢٩١ و ٢٩١ و ٢٩٥ و ٢٩٦ » .

٣٣ — تمرأز

ذكره المقريزي ، وقال إن الناصر فرج بن برقوق أقامه في نيابة السلطنة ، فلم يسكن دار النيابة ، ولا خرج عما يعرفه من حال حاجب الحجاب ، وهو غير تمرأز الأتابكي في عهد قايتباي .

« الخطط ج ٣ ص ٣٤٨ »

٣٤ — أقبغا التمرأزي

أحد الأمراء الذين اعتمد عليهم السلطان الظاهر أبو سعيد جقمق . إذ خلع عليه عام ٨٤٢ هـ إمرة سلاح ، بعد أن كان أمير مجلس . وظل يتقدم في عليا المناصب لديه ، حتى عين في العام المذكور أتابكيا ونائبا للسلطنة معا . وهو آخر الثواب .

قال عنه ابن لباس : « صار يحكم بين الناس ، وعلى بابه رأس نوبة وتقباء » . وهو آخر من تولى نيابة السلطنة بالديار المصرية .

ولما فار نائب الشام « إينال الحنكئي » وخرج عن طاعة السلطان ، أرسل مكانه الأمير « أقبغا التمرأزي » نائبا على الشام . وبنقله من النيابة بمصر ، انتهى عهده .

« ابن لباس ج ٢ ص ٢٧ - ٢٥ »

أتابكية العسكر

روى القلقشندي (١) في صبح الأعشى ، قال : « الأتابكية ، ويعبر عن صاحبها بأتابك العساكر . قال السلطان عماد الدين في « تاريخه » : وأصله « أطابك » ، ومعناه الوالد الأمير . وأول من لقب بذلك نظام الدولة وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي ، حين فوض إليه ملكشاه ، تدبير المملكة سنة خمس وستين وأربعمائة ، ولقبه بألقاب ، منها هذا . وقيل : أطابك ، معناه « أمير أب » ، والمراد أبو الأمراء . وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل . وليس له وظيفة ترجع إلى حكم وأمر ونهي . وغايته رفعة المحل وعلو المقام » .

ويفهم من حديثه هنا أن « الأتابك » هو أبو الأمراء . أي مقدمهم جميعا . وأن لقبه هذا - في العصر المملوكي - لقب شرف لحسب . وأنه ليس لديه عمل جدى - بحكم لقبه - يشترك به في إدارة شئون الدولة .

ولكننا نشعر - وقد قرأنا تاريخ هذا العصر - أن الأتابكية كانت من أهم مناصب الدولة وألقابها . وأن « الأتابك » كان يشترك باستمرار في شئون الدولة ، ويدبرها ، وأنه كان يندب لحل كثير من مشاكلها ، وأنه كان فيصلا في المعقد من أمورها . وأنه كان - في الغالب - كبير قوادها ، والمقدم على رأس جندها ، والمشار إليه المذكور في حروبها ، بل كثيرا ما يذ « الأتابك » نائب السلطنة ، وغض من شأنه .

ولعل « الأتابكية » كان الملحوظ فيها عند بدء إنشائها ، أن تكون لقب شرف ولكن الأتابكيين في العصر المملوكي لم يقفوا عند هذا الحد . بل برزوا بوزا واضحا ، وكثيرا ما كان « الأتابك » محورا للدولة تدور حوله . والواقع أن الدولة عرفت « الأتابكية » منذ عرفت « النيابة » تقريبا . فقطر المعزى - وهو ثاني نواب السلطنة - كان أيضا أول الأتابكية ، وذلك في عهد المنصور على بن المعز أبيك ، جامعاً بين الرتبين ؛ ولما صار سلطانا اختار للأتابكية الأمير فارس الدين « أقطاي » المستعرب ، ووكّل إليه مع الوزير تدبير العساكر واستخدام الأجناد وسائر أمور

الدولة (١). ولم يحدث في أى عهد من عهود سلاطين المماليك ، أن شغل «الأنابكية» ، أمير لم يكن أهلا لها . أو كان دون نائب السلطنة مهابة ومكانة ، وشجاعة وإقداما وجاها وعصية ، وت دخلا في أمور الدولة . بل ربما كان «الأنابك» ، أقرب مجلسا إلى السلطان . وكثيرا ما رمت «الأنابكية» ، شاغلا لولاية السلطنة . وولى السلطنة سلاطين كانوا من قبل أنابكة . ولما خلع الناصر محمد بن قلاوون في المرة الثانية ، وقع الاختيار على سلطنة «الأنابكي» ، بيبرس الجاشنكير ، مع وجود نائب السلطنة ، الأمير سلا .

وقد تقلبت ظروف الزمان بنيابة السلطنة — كما بنا — ، فألفت أكثر من مرة ، وظلت شاغرة حتى توسى أمرها ، ثم لما عادت ، عادت أضعف مما كانت عليه . ولما شغلها «أقبغا» ، التمرأزي عام ٨٤٢ هـ ، ثم فارقا ، كان ذلك آخر عهد الدولة بها . في حين أن «الأنابكية» ، منذ نشأت في الدولة ، لازمتها ، حتى انتهت معها . ولم تحقف إلا لحات يسيرة ، كما وقع في عهد قلاوون وابنه خليل ، وكما وقع في عهد العادل «طومان باي» ، عام ٩٠٦ هـ ، بعد أن قتل «أنابكية» «قوصروه» ، فإنه لم يعين بدلا منه ، حتى أخذ القورى بزمام السلطنة . فأقام في «الأنابكية» ، الأمير «قيت الرجبي» . وفي الوقت الذي كان يحظر من «نيابة السلطنة» ، كان «الأنابك» ، مرجع السلطان وسنده ومستشاره . كالأنابكي الأمير الكبير «شيخو» ، العمري ، في عهد الناصر حسن . وحدثت في ظروف كثيرة ، أن ضخم نفوذ «الأنابك» ، حتى صار المتصرف الوحيد في شئون الدولة . — روى ابن إياس في ترجمة المظفر قطز قال : «لأنه خلع على الأمير بيبرس ، واستقر به أنابك الساكر ، وفوض إليه جميع أمور الدولة» . — وفي عهد المنصور بن حاجي ، عادت «نيابة السلطنة» ، بعد «الغارات» ، فحين فيها المقر السيني «قشتمر» ، المنصوري ، ولكنه كان ضعيف الكلمة قليل الجاه يازاء «أنابكي» ، عصره ، المقر السيني «يليتا» ، العمري الناصري ، إذ كان هو مدبر شئون الدولة دون سواه . — وفي عهد القورى ، كان «أنابكية» ، مرجعه في ضبط الأمور ، ولم تكن هناك «نيابة سلطنة» . والأكملة .

وقد تسمو منزلة أمير ليس «فانبا» ولا «أنابكيا» ، ويحمده السلطان بتقته ، ويطلب

مشورته ، ويطلق يده ، فيضخم نفوذه ويحمل من عداه من الأمراء ، سواء في ذلك « النائب و الأتابكي » . ومن الأمثلة على ذلك : القاضي المقراني « عبد الباسط » ابن القرشي : كان ناظر الجيوش في عهد « برستي » ، ولكنه ظل صاحب الرأي في دولته زمن . - والجمال « يوسف » ، ناظر الخاض في عهد « إينال » ، كنع مدبر مملكته . - والأمير « أقردى » الدوادار ، ضخم نفوذه في أحمريات عصر « قايتباي » ، حتى صار صاحب الحل والعقد . - والأمير « كرباي » الأحمر ، عين في عهد الناصر ابن قايتباي عام ٨٩٠ هـ ، وزيرا وأستادارا وكشف كنهات ، وصار صاحب الأمر في الدولة . وقد ظل « كرباي » هذا زمنا في أوائل عهد الناصر المذكور ، حتى وقعت فتنة اختسنت على أثرها . وظهر شعور آخر مكاله ، وهو حال السلطان ، ويحدث « قانصوه » ، حينئذ السلطان في « شادية الشراعية » . واجتمعت فيه فتنة الملك ، وأصبح بيده الحل والعقد بمصر ، مع وجود « الأتابكي » « تميز » . ثم اختير « قانصوه » هذا للمنطقة مع وجود الأتابكي « أزل بك بن ططخ » .

ومن طغى نفوذه على نفوذ أتابكي عصره : الأمير « طومان باي » الدوادار الذي ملك بعد باسم العادل ، كان دوادارا ، وأستادارا ، ووزيرا ، وكشف كشاف ، في عهد « جان بلاط » عام ٨٩٠ هـ ، وكان صاحب الرأي في الأمور ، مع وجود الأتابكي « تاني بك الجمالي » .

هذا . ويبدو أن لقب « الأتابكي » كان يلزم صاحبه - ولو بعدت به الأحوال عن شئون السلطان - أكثر مما كان لقب « النيابة » يلزم صاحبه . كما يبدو أنه إذا جمع أمير بين لقبى الأتابكي والنائب ، برز لقبه الأول ، وبقي ، أكثر من الثاني . ومن جمع بين الرتبتين : « قطز » و « قوصون » و « منجك ليوسى » :

ومن حظي بالمنطقة من الأتابكية : الظاهر « بيبرس » ، كان أتابكيا في عهد قطز (١) . والمنصور قلاوون ؛ وكان أتابكيا في عهد العادل سلامش . والظاهر « برفوق » ، كان أتابكيا في عهد الصالح أمير حاج . والمؤيد شيخ كان أتابكيا في عهد السلطان الخليفة العباسي . والظاهر جقمق كان أتابكيا في عهد العزيز .

١ - روى ابن رياس أن بيبرس كان أتابكيا من بدء عهد قطز ج ١ ص ٩٦ ، ٩٨ وفي السلوك أن « فارس الدين أطلای المسرب » هو الذى كان أتابكيا منذ أول عهد قطز : ج ١ ص ٤٥

ابن برساي . وغيرهم كثيرون .

الأنابكية (١)

ولى الأنابكية عدد كبير من الأمراء متتابعين ، وبلغ منهم السلطنة كثيرون .
أما من لم يبلغها ، فنحاول هنا أن نثبت له ترجمة مناسبة أيضا . ذاكين ما عثرنا عليه
من سترات الوفاة . فنهم :

١ - فارس الدين أقطاي المستعرب

ويعرف بالصغير . أحد أمراء الدولة البحرية . اختير أنابكيا في أول عهد المنصور
على بن المعز أيك عام ٦٥٥ (١) . ولكن الحل والعقد كان إذ ذاك ، بيد نائب السلطنة
الأمير « قطز » فلما ولي قطز السلطنة ، أقر « أقطاي » أنابكيا كما هو ، عام ٦٥٧ هـ .
وفوض إليه أمر عسكره ، واستخدمهم ، وسائر أمور الدولة ، بمعاونة صاحب
« زين الدين يعقوب » .

وقد اشترك « أقطاي » مع سلطنة « قطز » عام ٦٥٧ هـ ، في غزو التتار ببلاد
الشام ، وهزمهم في موقعي « عين جالوت » و « بيسان » . - غير أنه يبدو لنا أنه
صنع مع المتأمرين على سلطانه ، بزعامة « بيبرس » . فقتلوه على مقربة من أرض
الصالحية . وكان « أقطاي » أول من بايع « بيبرس » بالسلطنة لجعله بيبرس أنابكيا
لعسكره - كما كان - عام ٦٥٨ هـ . ولكنه كان أقل نفوذا من نائب سلطنته الأمير
« بيليك » الخازندار ، بملوك « بيبرس » ومحل ثقته .

وفي عام ٦٦٢ هـ . اتهم النصارى بإضرار الحرائق في أرجاء القاهرة ، فأمر السلطان
« بيبرس » بأن يجمعوا ويحرقوا . فشنع فيهم « أقطاي » ، فسُرض عليهم غرم مالي ،
بدلا من العقوبة ، مع إلزامهم إصلاح ما أتلفوه من الدور .
وهذا الأمير غير « فارس الدين أقطاي » ، رأس المماليك البحرية ، الذي قتله الملك
المعز أيك عام ٦٥٢ هـ .

« ابن إياس ج ١ ص ٩٨ - ١٠٤٠ - سلوك المقرئ ج ١ ص ٤٠٥ ، ٤١٨ ،

١ - راجع فهرس السلوك للمقرئ .

٢ - رواية ابن إياس ج ١ ص ٩٦ ، ٩٨ تدل على أن « أقطاي » بلغ الأنابكية لأول مرة في عهد
بيبرس عام ٦٥٨ هـ . رواية السلوك ج ١ ص ٤٠٥ تدل على أنه بلغها منذ عهد المنصور بن المعز عام ٦٥٥ هـ .

٤٢٣٣ ، ٤٢٣٦ ، ٥٣٢ ، ٥٥٦ ، ٥٧٣ - النج السديد ج ١ ص ٤٠٨ ، ٤٩٥ ، ٥٣٤ -
 بيج ٢ ص ٤١٢ ، ٤١٧ .

٢ - بكتمر الساق ٧٣٣ هـ .

ولى الأتابكية بعد « أقطاي » أتابكيون وصلوا إلى منصب السلطنة مثل المنصور
 قلاوون . وشغرت الأتابكية حيناً (١) ، وما زالت حتى وليها « بكتمر الساق » في
 عهد الناصر محمد بن قلاوون .

وقد ذكره ابن إياس فقال ما ملخصه : ولما خرج السلطان الناصر محمد بن قلاوون
 إلى الحجاز حاجاً للمرة الثالثة عام ٧٣٢ هـ . خرج بصحبه عدد من الأمراء ، من
 بينهم الأمير « بكتمر الساق » الأتابكي ، هو وولده الأمير أحمد . فلما قضوا حجهم
 ورجعوا ، مرض الأتابكي « بكتمر » في أثناء الطريق . فلما وصل إلى « عيون القصب »
 نقل عليه المرض فمات هناك ، ودفن في الناحية نفسها يوم ثاني المحرم عام ٧٣٣ هـ . ثم
 مرض ابنه ، وتوفى على أثره ودفن « بنخل » . وبعد مدة نقلت جثتها إلى القاهرة حيث
 دفنتا في الخانقاه التي أنشأها « بكتمر » بالقرافة الصغرى بالقرب من جبل المقطم (٢) .

وكان بكتمر من « مالك المظفر بيبرس الجاشنكير » ، ثم انتقل ملكه إلى الناصر محمد
 ابن قلاوون ، فخطى عنده وجعله ساقياً . وما زال يترقى ، حتى صار أتابك عسكره . وكان
 مقرباً منه كثير الجلوس إليه . وكان الناصر كثيراً ما يقيم بدار بكتمر ، ثم صاهره ، فعلا
 بذلك جده وأنسح جلعه . حتى صار الملك لا يبرم أمر أدون استشارته ، ولا يهتدى إليه نفيس
 دون أن يقسم له منه . فكثير ما له وزاد دخله غير أن هذا الحظ الذي إياه على يدي
 الملك نفسه أغراه به ، حتى قيل إنه أمل أن يقترع سلطانه من كرسية ، ويستوى بنفسه عليه .
 فبادر الناصر إلى مناجزته ، فقس له - كما قيل - من سقاء هو وابنه السم ، فأتا - كما تقدم -
 ترك « بكتمر » من النفائس ما لا حصر له . وقد كان وافر العقل زائد
 الحرمة كيس الحديث وقوراً محسناً . وهو الذي تلاهى مع الأمير وقوصون ، وتفاخرا ،

١ - ذكر في السلوك أن الأمير « بكتاش » كان أتابكاً في عهد لاجين .

٢ - روى في الدرر السكينة أن ابن بكتمر مات قبله بثلاثة أيام ، ويفهم من حديثه أن الناصر
 محمد بن قلاوون له دخل في موتها . وأبى موت بكتمر كان في أوائل عام ٧٣٦ هـ .

فخزوه « قوصون » ، لأنه لم يكن مثل « بكتير » ، ممن عاش في طلياق القلعة . وقد أشرنا إلى هذه المفاخرة آنفاً في باب « أصل الماليك » : وكان موته فوزاً « لقوصون » ، إذ ترقى واستولى على جميع الأسلحة التي خلفها « بكتير » ، وقد قومت بنحو ستائة ألف دينار .
« ابن إياس جزء ١ ص ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ - الدرر ١ ج ١ رقم ١٠٢٨ »

٣ - « سيف الدين شيخو العمري » ٧٥٨ هـ

من ماليك الناصر محمد بن قلاوون ، ظهر في أيامه وأيام أبنائه ، وحظي عند الخلفاء .
حاجي بن الناصر ، ولما اشتدت الفتنة بين هذا السلطان وبين أمراءه عام ٧٤٨ هـ بسبب طيشه وتهوره في معاملتهم ، ورأى أنهم على أهبة الاستعداد للإيقاع به ، رأى أن يوسط بينه وبينهم هذا الأمير « شيخو العمري » . فاجتمع بهم ليتفهم رأيهم . فطلبوا إليه أن يزل السلطان عن كرسيه . فبلغ الأمير « شيخو » هذه المقالة إلى السلطان فأبى . وانتهى الأمر بقتله وحواله ملكه . ثم مال بك أمر « شيخو » أن علا . وأخذ تحبه يصعد في أول سلطنة الناصر حسن ، فولد نيابة دمشق . غير أنه سرعان ما غضب عليه ، فسبق بسبب ذلك إلى السجن بقلعة دمشق ، ومنها أرسل إلى محسن الإسكندرية عام ٧٥١ هـ ، ثم أفرج عنه في عهد الملك الصالح صلاح الدين ابن الناصر محمد عام ٧٥٢ هـ . ومن ثم أصبح من خاصة رجاله ، حتى إنه رحل معه في حملة الأمراء إلى بلاد الشام عام ٧٥٣ هـ ، وقتلوا بعض الأمراء الخارجين في فتنة « يلغا أروس » ، وقبضوا على كثير منهم ثم عادوا .
وفي عام ٧٥٤ هـ ، اشترك مع بعض الأمراء بقيادة السلطان المذكور ، وأدبوا عربان الصعيد الذين شقوا عصا الطاعة على السلطان بقيادة شيخهم « ابن الأحذب » ، غير أنه مال بك أن تزعم حركة ائثار على هذا السلطان ، كانت نتيجة أن خلع من عرشه ، وأعيد مكانه الملك الناصر حسن بن الناصر محمد عام ٧٥٥ هـ . فلما تمت عودته إلى السلطنة ، كان طبيعياً أن يقرب إليه الأمير « شيخو » ، فصار أتابكي عسكره . وألغيت نيابة السلطنة ، وأقيمت مكانها « إمارة كبيرة » ، يسمى شاغلها « أميراً كبيراً » . وأول من شغلها هو « شيخو العمري » . وبذلك اجتمعت فيه السكمة ، وصارت بيده مقاليد الأمور . وعظمت مكانته وكثر حساده ومنافسوه ، ومنهم الوزير « منجك اليوسفي » . وكثرت أمواله ، حتى قيل له : « قارون عصره وعزير مصره » . واستطاع في عام ٧٥٦ هـ ، أن ينشئ مسجده المشهور وغانقاه بحي الصليبية الطولونية . وأنشأ بها حمامين وربوعاً .

وحوانيت ، وفظم فيها دروسا تلقى عقب صلاة العصر من كل يوم ، وأنظم فيها عندا من الصوفية . وكان المدرس الذي يلقي بهادوسه شيخ الإسلام أكمل الدين الحنفي من جلة الأحناف في عصره . وأجرى أروفا على هؤلاء الصوفية وأوقف على ذلك كله أروفا واسعة . ثم إنته في عام ٧٥٨ هـ - اغتاله ، وقتلوه جاء (١) السلطان أحد المماليك السلطانية والمليي يمت بصلة إلى « منجك اليوسفي » ، وهو في الإيوان يوم موكب ، فعزبه بالسيف في وجهه ثلاث ضربات ، فوقع مغشيا عليه ، وحمل إلى بيته ، ثم توفي بعد أيام ، ودفن في الخاتمة الشيخونية التي أنشأها . وكانت جنازته حافلة ويومه مشهودا ، وكثر حزن الناس عليه ، لجا له من الفضل الكثير ، والإيادي البيضاء ، أما قتاله فقد قبض عليه ، واعتبر أنه أديفعل إلى فعلته الضعفاء ، لأن الأيايكي لم يتجهده في مظلة رفعا إليه . وقد أمر السلطان بتسميته والطواف به ، ثم قتله على مشهد من مالمليد الأيايكي « شيخو » . وهذه المناسبة تذكر أن الأمير « شيخو » كان أحد الذين ضلوا بجلب المماليك وشرائهم وتربيتهم ، حتى بلغت عدة مالمليكة سبعةائة مملوك .

« ابن لياس . ج ١ . ص ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠٥ ، ٢٠٥ »

— خبط ج ٤ ص ١١٣ — دروج ٢ رقم ١٩٥٠ .

٤ — يلينا العمري الناصري الكبير ٧٣٨ هـ .

كان هذا الأمير من مالمليك السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد . وفي سنة ٧٦٠ هـ أنعم هذا السلطان على مملوكه « يلينا » بإقطاع واسع ، هو إقطاع الأمير وتكرزفا المارديني . أحد الأمراء المقدمين ، والمتوفى في السنة المذكورة . وصار « يلينا » أمير مجلس من ذلك الحين . وتعتبر هذه السنة بدءا للجد السعيد الذي صادف الأمير « يلينا » . فزال نجمه في الصعود ، حتى أصبح من خيرة المقربين لدى السلطان حسن ولكن ذلك حزن في نفوس أعدائه . فشوا بالسعاية والنس بين « يلينا » وسلطانه . وزينوا السلطان ضرورة . مناجزته قبل عدوانه . فإ كان من السلطان حسن . إلا أن هم بافتك بمملوكه ، إثر لياي قضاها السلطان في هو ولعب ومرح ، بين خيام أنيقة . ضربت لذلك في شط الجزيرة . وكان « يلينا » إذ ذاك أحد الذين أقاموا في الخيام مع السلطان هناك ، وسمروا معه . فلما أحس « يلينا » من السلطان بقرب غدره ، زایل خيمته في نفس الليلة التي لجأه السلطان فيها ، وهي ليلة الأربعاء ٩ جمادى الأولى عام ٧٦٢ هـ . وبذلك نجا من الفتك به . وفي

الوقت نفسه كان « يلبغا » قد در لسطانه كينا برز له في خلال عودته ، ف وقعت بينه وبين جند السلطان موقعة قاسية ، انكسرها السلطان ، وقر تحت جنح الظلام هاربا إلى القلعة . فلما أسفر الصباح كان الأمير « يلبغا » قد جمع جموع جنده ، وحاصر السلطان في القلعة . ففر منها ثم قبض عليه ، فسجنه « يلبغا » ، وقيل إنه خذمه ورماه في البحر ، لأنه لم يعثر له على أثر من بعده ؛ ولم يدفن في مدرسته داخل القبة التي أنشأها لذلك ، ولما تم ذلك كله أصبح « يلبغا » ، بعد أن هزم لسطانه وسيدته ، صاحب الكلمة والأمر والنهي . ولهذا سرعان ما اختاره السلطان الجديد ، وهو الملك المنصور محمد بن المظفر حاجي أتابكا . لعسكره ، في تلك السنة - ٧٦٢ هـ . - وأصبح القائم بتدبير الأمور في المملكة . وفي السنة التالية تزوج « يلبغا » ، بمخوندطولوز ، زوجة أستاذه الملك الناصر حسن وبلغ من نفوذ « يلبغا » أن خلع الملك المنصور من السلطة عام ٧٦٤ هـ ، وقبض عليه وبجته في دور الحرم بالقلعة ، محتفظا به للطرازي . وولى مكانه الملك الأنرف شعبان أبا المعالي ابن حسين بن الناصر محمد . وظل « يلبغا » أتابكا وأمير أكيرا أيضا . وطمح نفوذه على من عداه من الأمراء ، ولا سيما نواب السلطنة وقشعر المنصورى . وساعده على هذا الطغيان ، أن كان السلطان الأنرف شعبان في سن صغيرة ودون البلوغ .

وفي عام ٧٦٧ هـ واجه الأتابكي « يلبغا » فتنة شديدة تزعمها ضده الأمير « طنبغا الطويل » . وكان هذا الأمير برة أمير سلاح . فاستصدر « يلبغا » مرسوما سلطانيا « لطنبغا » بأن يكون نائبا على الشام . فرفض أن يعطيه المرسوم ، وجمع جموعه لمقاتلة جنود السلطان وأتابكيه معا . فقتل في الفريقان في ناحية « قبة القصر » فانتكسرت جنود يلبغا وفر هاربا . وكانت الهزيمة تم عليه ، لولا أنه كان قد أكن لأعدائه كينا لجأهم في عودتهم وكسرم شركسة ، وقبض على الأمراء المتزعمين في هذه الحركة ومنهم « طنبغا » ، وسيتوا في الإسار بين يدي « يلبغا » . فأرسلوا تحت جناح الليل إلى السجن بشر الإسكندرية . ثم فرقت رتبهم وإقطاعهم على رجال جدد . وعظمت بذلك منزلة « يلبغا » ، حتى كان الأمراء الكبار يسعون إليه بالهدايا النفيسة .

ومن أجل أعمال « يلبغا » ، أن رسم في عام ٧٦٧ هـ ، بإنشاء عمارة بحرية ترسل إلى الشواطئ . لكي تؤدب الفرجة المغيرين عليها ، وتمنع مجرمهم وعيهم على هذه البلاد . وقد احتفل بإنزالها إلى النيل احتفالا شاعرا .

وبينا كان الاحتمال على أنه إذ كانت المؤامرات تحاك للفتك بالأنابكي « يلبغا » .
 حينئذ كان شط الجزيرة مع السلطان ، إذ شعر بوثوب بعض مماليكه عليه ، لأنه ضرب
 أحدهم وقطع أنفه . ولكنه أن يفر وهو متزى بزى إقلاخ . ولما بلغ القاهرة
 جمع حوله عددا من الأمراء والجند ، ووقفوا في الصباح تجاه الجزيرة ، ووقف إزاءهم في
 الشاطئ الآخر المالك الثائرون عليه ، وقد أغروا السلطان وأرغوه على أن يقف بين
 حفرهم . وظل القتال دائرا بين الفريقين . - ومن الاجتياحات التي اتخذها يلبغا ،
 أن أعلن خلع السلطان الأشرف شعبان ، وبايع هو ومن معه أخاه « أنوك » ، وأقبوه
 بالملك المنصور ، ونادوا باسمه في أرجاء القاهرة . وكذلك أمر الملاحين في النيل بأن
 يمتنعوا عن نقل الفريق الآخر إلى شاطئ القاهرة . - ولكن أحد التوتية استدرجه
 سلطان شعبان ، فنقله هو وجموع من جنوده إلى الشاطئ المذكور . ومن ثم صعد إلى
 مقره بالقلعة . فتسامع الناس بصعده ، وتراجع عدد من الملتفين حول « يلبغا » ، عن
 نصرته . ففت ذلك في عضده ، ونكس عائدا إلى بيته بناحية الكباش في أسوأ حال .
 ولقي من العوام شرورا كثيرة في أثناء عودته . ثم إن السلطان الأشرف شعبان أرسل
 إليه من قبض عليه وبجته . غير أن مماليكه الثائرين أخرجه من السجن عنوة وأذاقوه
 ألوانا من العذاب ، وتقدم إليه أحدهم واسمه « قراتر » ، وضربه بسيفه ضربة أطاحت
 برأسه عن جنته . ثم ملأوا بها شرميل ، وبعد لآي دفنوه في مقبرة عند الباب المحروق .
 وكان قتله ليلة الأحد ٩ ربيع الثاني عام ٧٦٨ هـ . وهكذا كانت خاتمة « يلبغا العمري » .
 بيد أن شهد من العز والجاه الشيء الكثير ، واقتنى من الممالك ما يزيد عن ثلاثة آلاف
 مملوك . غير أنه على ما يظهر كان سيء المعاملة . وقال ابن إياس : إنه كان سفاكا للدماء .
 ولا أدل على خيائته وعدم وقائه من أنه غدر أستاذه الناصر حسنا وتزوج زوجته من
 بعده . - و « يلبغا » هذا غير يلبغا الناصري الذي ظهر في عهد برقوق وثار عليه . أما
 المترجم هنا فقد كان برقوق أحد مماليكه .

د ابن إياس ج ١ من ص ٢٠٧ إلى ٢١٩ - المروج ٤ رقم ١٢١٨ ،

ه - المقر السيفي استمر الناصري ٧٦٩ هـ

أحد أفذاذ هذا العصر . وقد عينه السلطان الأشرف شعبان ، أنابك العساكر ،
 عوضا عن « يلبغا » العمري ، بعد مقتله عام ٧٦٨ هـ . فسكن هذا الأمير حيث كان

يسكن الأتابكي « يلبغا » وولفت حوله عدد كبير من عماليسك و يلبغا ، وتقبه به في راحه وغنوه وعظيم جاهه ، حتى حصد كثير من الأمراء . وما زال الحصد يأكل قلوبهم ويستفخوا ، حتى ثابوا ثورة جامعة ، وطلبوا إلى السلطان أن يسلمهم الأتابكي « استمر » ليفتكوا به . ولكن « استمر » كان قد استطلع أن يضم إليه عددا كبيرا من أمراء وجنود ، ودم الثاوين عليه دمه قاسية ، فصر منهم من فر ، وانكسر في النهاية منهم من انكسر . ثم استطلع أن يقبض على كثير منهم ، ومن بينهم الأخير « الجاهي اليوسني » والأخير « يلبغا آخر » والأخير « أرغون شاه تتر » وغيرهم ، وسبقوا جميعا إلى بين الإسكندرية . خلال عام ٧٦٨ هـ أيضا . فظهرت حامية السلطان مؤقنا من بذور الفساد . وكان هؤلاء الأمراء يدعون أن « استمر » يسعى بالقصد والنم بينهم وبين السلطان . ولما ظهر أن نفس « استمر » لم تكن مخلصه للسلطان ، وأنه وقع تحت تأثير عماليسك « يلبغا » الذين جربوا لغة الفتن . فقد روي مرة بأن يخلق السلطان ويقوم هو مملكة على البلاد . ولكنه أنى . ولعل الفرض لم تكن واثقة بعد ، وهو في أول سئ أتابكيتيه . ولذلك سرعان ما أعد للأمر عدته في عام ٧٧٠ هـ ، بعد أن قبض على خمسة من كبار الأمراء بضغط من عماليسك « يلبغا » وساقهم إلى السجن . ثم هم بالقبض على السلطان . ومن سوء حظه أن كلن عماليسك « يلبغا » قد عائوا في الأرض فسادا ، وأذاقوا كثيرا من الناس سوء المناب . فكروههم وتمنوا زوالهم . وما هي إلا أن نشبت الحرب الأهلية بين جنود « استمر » اليلغاويين وبين جنود السلطان شعبان ، حتى انضم إلى جانب السلطان عدد ضخم من العوام ، ومعهم المقاتلح والحجارة ، انتقاما من هؤلاء الممالك . فكسروهم شركرة . وهرب « استمر » . ثم قبض عليه بعد أن قتل العوام عددا كبيرا من عماليسك « يلبغا » . ومن سوء تصرف السلطان شعبان أن سمع لمن تقدم إليه شافعا في « استمر » ، فأطلق سراحه وجعله في حراسة ابن عمته الأمير « خليل بن قوصون » . فإكان من الرجلين إلا أن تعاندا على الانتقاض على السلطان . وجهدا حتى اجتمع حولهما عدد ضخم من الأمراء ، والجنود . وشعر السلطان بدنو الوتية عليه وأوجس خيفة . ولكن جنوده ومن انضم إليهم من العوام ، شتقوا مثل المتأمرين في موقعة مروعة ، قتل فيها عدد كبير من عماليسك « يلبغا » ونفي عدد آخر ، وقبض على « استمر » و « خليل موغيزهما » وسيتوا إلى به

وأمر السلطان بالإفراج عن كثير من بينهم «استدمر» ومن بينهم الأمير «يلغا آص» الذي أسندت إليه الأتابكية من بعد .

«ابن إياس ج ١ من ص ١١٩ إلى ص ٢٢٤ ، الدروج ١ رقم ٩٧٢ (١)»

٦ — «يلغا آص المنصوري» : ٧٧٠ هـ

أحد الأمراء الذين ظهروا في عهد السلطان الأشرف شعبان حفيد قلاوون . ولما أسندت الأتابكية إلى «استدمر» الناصر ، كان الأمير «يلغا آص» ، في جملة الأمراء النافذين عليه ، والذين جرت بينهم وبينه فنن وقائع عدة ، كان من نتائجها أن قبض عليه مع آخرين وأودعوا في السجن عام ٧٦٨ هـ ، بشرف الإسكندرية . ولما وقعت قسنة «استدمر» بينه وبين السلطان وقبض في النهاية عليه ، رسم السلطان بالإفراج عن أعداء «استدمر» فخرجوا من السجن وفي جملتهم «يلغا آص» المنصوري عام ٧٧٠ هـ . فأسند إليه السلطان منصب الأتابكية . غير أنه لم يحسن سياسته تجاه السلطان ، إذ تحقق أنه يهيم بالانقضاض عليه . ففاجزه السلطان وقبض عليه ، وأعادته إلى السجن ، هو وبعض المتآمرين معه ، ومنهم الأمير «مليكتمر الشينخوني» . ثم قتله في ذلك العام — وذكر في الدور أنه قتل قبل ذلك .

وذكر في الدور أيضا أن الأشرف شعبان عين في الأتابكية بعده «استدمر» ثم «ملفتمر» النظامي ، ثم «مليكتمر» المحمدي و «يلغا» المنصوري معا . ثم «منكلي» بغا ، الآتي ذكره .

«ابن إياس ج ١ حوادث عام ٧٦٨ - ٧٧٠ هـ - الدروج ٤ رقم ٩٩٨ توجه منكلي بغا الآتي»

٧ — منكلي بغا الشمس ٧٧٤ هـ

أحد مالئيك الناصر حسن . ولى نيابة الشام زمنا في أول حكم الأشرف شعبان من عام ٧٦٤ هـ . ثم زار مصر عام ٧٦٨ هـ . بأمر السلطان ، وقدم إليه وإلى الأمراء هدايا نفيسة . فقتله إلى نيابة حلب ، وجعلها أرفع من نيابة الشام . ولما قبض على «يلغا آص» توالى من بعده عدد من الأتابكة . ثم ولى الأتابكية «منكلي» بغا ، عام ٧٦٩ هـ . فقتل بها حتى توفي عام ٧٧٤ هـ . وذكر في الدور أنه ولى نيابة السلطنة بمصر عام ٧٦٩ هـ . ثم

استعفى منها . وبعد قليل ولي الأتابكية .
وقد كان من أمثال الأمراء . وقد تزوج السلطان « برقوق » ابنته عام ٧٧٨ هـ . وهي
ابنة أخت الأشرف شعبان حفيد الناصر . وهو غير « منكلي بغا » الشمسى ، الذى ظهر
فى عهد المؤيد شيخ .
« ابن إياس » ص ١ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ - الدرر ج ٤ رقم ٩٩٨ -

٨ - سيف الدين الجاى اليوسنى ٧٧٥ هـ

هو الجاى بن عبدالله اليوسنى ، أحد البارزين فى عهد الأشرف شعبان حفيد الناصر
بن قلاوون . ويمتاز بأنه تزوج أم هذا السلطان وهى « خوندبركة » وله عليه فضل
رعايته صغيرا . غير أنه حينما أسندت الأتابكية إلى « أستدر » الناصرى عام ٧٦٨ هـ ،
كان الأمير « الجاى » فى عداد مناوئيه ، الذين ثاروا فى وجهه . ولكن « أستدر »
استطاع أن يقبض عليه وعليهم ، بعد قتال عفيف استغرق نصف يوم . وأرسلهم
مقيدين إلى سجن الإسكندرية . فليكن « الجاى » فى السجن حتى قامت الفتنة والقتال بين
« أستدر » ومعه مائليك « يلغا العمرى » ، وبين أنصار السلطان وانتهى الأمر بالقبض
على « أستدر » وسجنه . فرسم السلطان بالإفراج عن كثير من سجنهم الأتابكي « أستدر » ،
ومنهم الأمير « الجاى اليوسنى » . ومرعان ما عينه السلطان ، أمير سلاح عوضا عن
الأمير « أزدمر » العامرى الناصرى الحازندار ، وذلك عام ٧٧٠ هـ . وفى عام ٧٧٠ هـ ،
لما توفى الأتابكى « منكلي بغا » الشمسى استدعى السلطان الأشرف الأمير الجاى اليوسنى ،
وأسند إليه منصب الأتابكية . وهذه السنة بالذات ، توفيت زوجة « الجاى » وهى
أم السلطان الأشرف . وبظن أن هذا كان بداية النحس لهذا الأتابكى ، فإنه مالم ي
أوائل عام ٧٧٥ هـ ، أن سولت له نفسه أن يشق عصا الطاعة على سلطانه . وقيل أن
سبب ذلك خلاف وقع بينهما على ميراث الأم المتوفاة . فوقع بين أنصار الاثنين معارك
فادحة ، عرض السلطان أثناءها عليه أن يكون قائما على حماة ، ولكن الأتابكى « الجاى »
رفض هذا العرض . فكبى به جده ، وانهزم هزيمة منكرة ، وفر هاربا أمام جنود
السلطان نحو شبرا . ثم أيقن أنهم لا شك لاجقوه ، فزى بنفسه وجواده إلى النيل فغرق .
ثم أخرجت جثته ، ودفن بمدرسته التى أنشأها فى سويقة العزى ، وذلك يوم الجمعة ١٠
حرم سنة ٧٧٥ هـ . وقد كان عزيزا كثير الصدقات . وقد أنشأ مدرسة عام ٧٦٨ هـ وزودها

مجزأة كتب ، ورتب فيها دروسا - وثلوكه « جركس » هو الذى قتل بيده السلطان .
شعبان المذكور عام ٧٧٨ هـ .

« ابن إياس جزء ١٠ ص ٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤ - خطط ج ٤ ص ٢٤٩ » .

٩ - المقر السبقي (إيدمر) ٧٧٥ هـ

كان نائبا على طرابلس عام ٧٧٥ هـ . فاستدعاه السلطان الأشرف شعبان فى هذا العام ، وأسعد إليه الأتابكية ، بعد غرق الأتابكى « الجاى اليوسفى » ويظهر أن السلطان ضم إليه معها نيابة السلطنة . فقد ذكر ابن إياس أن « إيدمر » أقام فى نيابة السلطنة بمصر مدة يسيرة ، ثم توفى عام ٧٧٥ هـ . ولعل ما يرجح ذلك أن الأتابكى الذى خلفه ، انضمت إليه النيابة أيضا ، وهو الأير « منجك اليوسفى » . وقد ذكر ناعنه كفة فى ثواب السلطنة لهذا .

« ابن إياس جزء ١ ص ٢٢٨ - الدرر ج ١ رقم ١١٢٧ »

١٠ - المقر السبقي « أرغون شاه » الأشرفى :

صار أتابكيا بعد « إيدمر » و « منجك اليوسفى » فى عهد السلطان الأشرف شعبان . وقد صحبه فى خروجه إلى الحج عام ٧٧٨ هـ ولما عصاه الجنود ، وانشق عليهم عدد من الأتراء فى الطريق ، ووقع بين الفريقين معارك دامية ، فر السلطان وفر معه الأتابكى . « أرغون شاه » ، ودخلا القاهرة محتفين . ولكن أمراء القاهرة كانوا قد أعلنوا بالمعصيان أيضا وأقاموا ابن السلطان الأشرف ملكا عليهم وهو المسمى « عليا » فأنته . ترى أن ظروف هذا الأتابكى قد سمات إلى أبعد مدى .

« ابن إياس جزء ١ ص ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٩ »

١١ - الأهر « طشتمر الحمدي »

وهو الشهير بالفلاف كان أمير عشيرة ، فأقامه السلطان المنصور على بن الأشرف شعبان أتابكيا مباشرة عام ٧٧٨ هـ . عوضا عن « أرغون شاه » ، وأنعم عليه بممتلكاته أيضا ، وذلك إثر ثورة عتيقة خلع فيها السلطان الأشرف نفسه ثم قتل . وتولى مكانه ابنه على المذكور . ولبت « طشتمر » بمنصبه هذا قرابة ثلاثة شهور ونصف ، ثم عزله . ونفى إلى القدس عابلا .

« ابن إياس جزء ١ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ »

١٢ - الأمير «أينبك» البدرى

ظهر هذا الأمير واشتد جلعه وذاع صيته ، فى عهد الملك الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد بن قلاوون ، واستعان فى سبيل ظهوره ، بسلسلة من المؤامرات على سلطانه ، وعلى أنداده من الأمراء ، وسنحت له الفرصة ، حينما خرج السلطان الأشرف شعبان ، إلى الحج عام ٧٧٨ هـ فاشترك فى ثورة تزعمها الأمير طقشتمر ، المحمدى المعروف باللفاف . وكان مقرها القاهرة . وادعى الثوار أن السلطان شعبان . قد قتل فى العقبة . واستدعوا ابنه الأمير عليا ، وملكوه على البلاد ولقبوه بالمنصور . ولما تم لهم هذا الأمر ، زادت مكانة الأمير «أينبك» . واستطاع أن يشر على البيت الذى اختبأ فيه السلطان الأشرف شعبان بالقاهرة ، إذ فر من مالهيكه الثائرين عليه بالعقبة ، وعاد مختفيا إلى القاهرة ، هو وأتابكيه أرغون شاه . ولما قبض عليه الأمير «أينبك» شدد عليه فى السؤال ، حتى اعترف بأموال وذخائره . ثم أسله إلى بعض أعدائه ، فقتلوه أشد قتلة . واكتسب «أينبك» بذلك مكانة جديدة ، وصار أمير آخور كبيرا : وبلغ من جرأته أن دس منوما « بنجا » لأحد منافقيه من الأمراء وهو الأمير المقرئ السيفى «قرطاي» الطازى . رأس نوبة التوب فى ذلك الوقت . وأرثار قتلة ضد السلطان وكثير من أمرائه ، حتى اضطر نائب السلطنة إذاك وهو الأمير «أقتمر» الحنبلى ، أن يتقدم إلى السلطان المنصور على ويطلب إليه أن يقبض على الأمير «أينبك البدرى» . ولكنه كان قد استشرى شره ، وكثر معاونوه والمتصبون له والطامعون فى جاهه . فلم يجد خانما لديه من أن يتقدم نائب السلطنة وأن يتوعدة وأرسل إليه - وكان قد سار نحو المطرية - أن يخرج منها توا إلى دمشق ، وأن يكون نائبا على الشام . فلم يستطع نائب السلطنة أن يخالفه ، وسار إلى دمشق من المطرية . فخلا الجو فى الدولة من كثير من منافقيه . فكان طليعيا أن يخلع عليه السلطان منجبة أتابكية عسكرية ، وذلك فى أواخر شهر صفر من عام ٧٧٩ هـ . بعد القبض على «الأتابكي» «طقشتمر المحمدى» باللفاف . ويظهر أن من سببه حظ هذا الأمير ، أن تجمع عليه فى بلاد الشام كثير من أعدائه ومن خشيائهم . ووجع إليه أصبح مناصب الطفل والعصفى بالبلاد المصرية ، ينصرف إلى أمورها حسب مشيئته حتى إنه خلع الحليفة المتوكل على الله منها ثلاثة ، وبنى مكانه ابن عمه زكريا بن إبراهيم ، ولقبه بالمستعصم بالله ، وفرق مالهيكه الخاصة ، فأمكن

بعضهم في مدرسة السلطان حسن ، والبعض الآخر في مدرسة الأشرف شعبان . أقول : مع كل ذلك ، لم يستطع القضاء على جميع أعدائه في داخل القاهرة . وقد ثار عليه نواب البلاد الشامية ، وخرجوا عن الطاعة ، فجهز لهم جيشا خرج به إلى بلاد الشام ومعه السلطان المنصور على محمولا في محفة . وكان لا يزال صغير السن - وذلك في ١٩ ربيع الأول من عام ٧٧٩ هـ . ولكن الجيش ما عتم بعد خروجه من القاهرة ، ووصله إلى بلبيس أن وقعت في صفوفه الفتنة ، وتناق بعض من فيه إلى أن يفتك بالأمير قتلوا لجاه ، أخى الأتابكي « أيبك » ، وكان في طليعة الجند . فلما أحس الأمير « أيبك » وأخوه بالخطر ، فرأ قافلتي إلى القاهرة حاملين معهما السلطان . فانتشرا الخبر في أرجاء القاهرة ، وتشجع الجبناء ، وتحفز الكثير من الأمراء والجند إلى القضاء على الأتابكي « أيبك » ، فجمع كل من الفريقين جموعه ، وتلاقيا في ناحية الرملة ، واقتتلا قتالا شديدا . حتى انكسر الأمير « قتلوا لجاه » أخو « أيبك » . وقبض عليه . ففر الأتابكي « أيبك » ، واختفى زمنا . وذلك كله في يوم الاثنين ٣ ربيع الثاني من عام ٧٧٩ هـ . وفي الأحد التالي ظهر « أيبك » في مكان في كوم الجوارح ، فأرسل إليه الأمير « بليغا الناصري » - أحد أولى الأمر في ذلك الوقت - من قبض عليه . وأرسل مقيدا إلى بحن الإسكندرية ومعه عدد من المتعصبين له . فقال فيه الشاعر الشيخ شهاب الدين العطار المصري :

من بعد عز قد ذل أيبكنا وانحط بعد السمو من قسكا
وراح يبكي الدماء منفردا والناس لا يعرفون أين يبكي

ولقي في سجنه ألوانا شتى من التعذيب . وهو صاحب الدرب الذي في « السبع سقايات » .

« ابن أبياس ج ١ من ص ٢٣٢ إلى ص ٢٤٢ »

١٣ - المقر السيفي « طشتمر العلائي » ٧٨٤ هـ

كان نائبا على الشام . عينه في نيابته السلطان المنصور على بن الأشرف شعبان في أول ولايته الملك : وكان تعيينه في يوم الاثنين ٧ ذي القعدة سنة ٧٧٨ هـ . فسافر في ذلك اليوم من القاهرة إلى مقر وظيفته . ويظهر أنه كان وقورا جليل الشأن . لأن السلطان المذكور أرسل إليه يطلبه إلى القاهرة بعد زوال أتابكية « أيبك » البدرى . فلما حضر خرج السلطان إلى لقائه مع سائر الأمراء ، وأصعده إلى القلعة ومنحه مرتبة الأتابكية . فوجد استقدهم مهمه من ديار الشام طائفة من الأمراء من عصابته ، فأنتم عليه السلطان

برتب وألقاب عدة . وكان له عدد من الممالك ، وقعت فتنة بينهم وبين ممالك الأمازيغ .
والذين بركة الجوباني كان فيها القضاء عليهم وعلى سيدهم . إذ وقع بين الفريقين قتال
عنيف في الرملة . فلما طال أمر هذا القتال ، صعد الأتابكي «طشتمر» إلى باب السلسلة .
ولقي الأمير آخور برقوقا - الذي صار سلطانا فيما بعد - ويبدو أن غرض «طشتمر» أن
يتوصل إلى برقوق ليقتل هذا النزاع الدائرة رحاه . ولكن «برقوقا» كان كبير المطامع ،
فاتهم هذه الفرصة ، وقبض على «طشتمر» وأرسله إلى السجن بشفر الأسكندرية ، وذلك
كله في آخريات العام ٥٧٧٩هـ ، وبذلك انتهت أتابكية «طشتمر» ، وعين مكانه برقوق ، الذي
ظل في الأتابكية ، حتى صار سلطانا على البلاد المصرية . - ولعل «طشتمر» هذا هو
الذي كان نائب سلطنة بمصر عام ٥٧٧٢هـ . في عهد الأشرف شعبان بن حسين . ولعله هو
الذي مات عام ٥٧٨٤هـ .

«ابن إياس ج ١ ص ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣» - «الدرر ج ١ رقم ٢٠١٨»

١٤ - «المقر السيفي» «إيتمش البجاشي» (١) ، «الجر كس ٨٠٢»

ظلت الأتابكية بيد برقوق الثاني ، بعد القبض على «طشتمر» آخر عام ٥٧٧٩هـ ،
حتى صار برقوق سلطانا على مصر عام ٥٧٨٤هـ . فأقام في الأتابكية أحد أتباعه وهو الأمير
«إيتمش البجاشي» . وكان قد ظهر قبل ذلك في عدة حوادث هامة . فقد حاول الأمير
«بركة الجوباني» أن يوقع الشر والفتنة بينه وبين الأتابكي «برقوق» عام ٥٧٨١هـ ، في عهد
ملك المنصور على . ففقد أرسل الأمير «بركة» إلى «برقوق» في الأديعاء ١٧ صفر من العام
لأنه كور ، يخبره أن الأمير «إيتمش» ألبس بمالكة آلة حرب ، واستعد للوثوب على
برقوق . ولكن انضح أن الخبر عار عن الصحة ، وانتهى أمر هذه الدسيسة ، بأن تدخل بين
هؤلاء الأمراء شيخان هما الشيخ وأكل الدين الحنفي ، والشيخ أمين الدين الخلوتي ، وأتما
بينهم الصلح . فهدأت الفتنة حينها .

وأشرك الأمير «إيتمش» بمالكة مع عدد آخر من الأمراء بماليتهم ، في إطفاء
الحريق الحائل الذي شب بظاهر باب زويلة ، عند باب دار التفاح ، واتصل لهيه بكثير
من النواحي المجاورة . وأوصل لهما التلف والدمار . وذلك في ٢٥ من ذي الحجة
سنة ٥٧٧٩هـ . وفي آخريات تلك السنة أنعم السلطان المنصور على الأمير «إيتمش» بإمارته

أخورية كبيرة عوضا عن «برقوق» الذي صار حينئذ أنابكيا . وانمقدت المودة بين الاثنين حتى أن «إيتمش» عاون «برقوقا» وهو أنابكي على عصبة «إينال اليوسفي» الحاقدين عليه . إذ انحاز «برقوق» إلى دار «إيتمش» ففتح السلاح والماليك وقائلا معا حتى هرب عدوهما وذلك في شعبان عام ٧٨٠ هـ .

واشترك كذلك في إطفاء فتنة عربان البحيرة ، التي طمت وعبت عام ٧٨١ هـ . فقد تناهت الأخبار إلى القاهرة ، بأنه قد تجمع نحو خمسة آلاف من هؤلاء العربان وأغاروا على مدينة دمهور ، بزعماء أحدهم «بدر بن سلام» . ونهبوا أسواقها وبيوتها ، وألحقوا التلف ببلاد أخرى غيرها . فأرسل الأنابكي «برقوق» حملة تأديبية عليهم ، بقيادة ثمانية من كبار الأمراء ، كان الأمير «إيتمش» في عدادهم ، وقد نجحت هذه الحملة في مهمتها .

ولما آل الملك إلى «برقوق» عام ٧٨٤ هـ ، جعل الأمير «إيتمش البجاشي» أنابكيا للمسكر . فكان بذلك أول الأنابكة في دولة الجراكسة . وأصبح عندا قويا يعتمد عليه السلطان «برقوق» . وقد كان فيمن خرج عن طاعته الأمير «يلبغا الناصري» ، وكان حينئذ نائبا عن السلطان في حلب . وكان عصيانا في أوائل ٧٩١ هـ ، والتف حوله بعض أمراء البلاد الشامية وما والاها . فلم يجد السلطان بدا من أن يرسل على هؤلاء حملة عسكرية ، بكل إليها أمر تأديبهم . فكان الأنابكي «إيتمش البجاشي» أحد أمراء هذه الحملة . إلا أنها حينما بلغت مدينة دمشق . رأت «يلبغا» قد ملك الشام وقلعتها . وتلاقى الفريقان المتعاديان في ظاهر دمشق ، فانكسر عسكر السلطان ، وهرب من أمرائه من هرب وأسر من أسر . وكان نصيب «إيتمش» من هذا كله أن أمر ويحجن بقعة دمشق ، وذلك في ٢١ ربيع الثاني عام ٧٩١ هـ ، فظل في سجنه زمنا . أما يلبغا فقد استطاع الزحف إلى القاهرة . وكانت النتيجة أن نزل السلطان برقوق عن عرشه . وعاد إلى السلطنة الملك الصالح أمير حاج بن الملك الأشرف شعبان . فانتهت بذلك أنابكية إيتمش ، إذ عُنِين و يلبغا الناصري ، مكانه في الأنابكية في هذه الدولة الجديدة .

ظل «إيتمش» بعد ذلك منكور الاسم غير مذكور . حتى هجرت الأيام بحرى جديدا وعاد السلطان برقوق مرة ثانية إلى ملكه . فكان طبيعيا أن يعيد «إيتمش» إلى الأنابكية . غير أن ذلك لم يتم إلا عام ٨٠٠ هـ ، إذ كان يشغل الأنابكية آخرون بالتوالي ، فقدت بهم الأيام إليها بعد سجن «إيتمش» . ومع ذلك لم يفتأ «إيتمش» قبل أن يل الأنابكية للمرة

الثانية ، يعاون السلطان ويشارك في شئون الدولة . فمن ذلك أنه اشترك مع بعض الأمراء في دفع عدوان الأتابكي « منطاش » عن مدينة دمشق عام ٧٩٢ هـ . إذ كان ثائرا ضد السلطان « برقوق » ، ثم عاد « إيتمش » هو وجماعة من الأمراء ، إلى القاهرة بعد مطاردة « منطاش » ، وذلك عام ٧٩٣ هـ . وتوسط بين ممالك الطباقي وبين الأمير « جمال الدين محمود » الاستادار ، إذ ثاروا عليه - بسبب تصرفاته معهم - ثورة كادت تودي به ، لولا أن تدخل الأتابكي « إيتمش » في الأمر هو وما يليكه ، وكف عنه عدوان المعتدين ، ثم صالح الطرفين . وما زال هذا حاله حتى عادت إليه الأتابكية - كما قلنا - عام ٨٠٠ هـ . وأصبح من أقرب المقربين إلى السلطان « برقوق » . ولقد حدث في السبت ١٢ ذى العقدة من عام ٨٠٠ هـ أن لعب السلطان بالكرة والصولجان مع الأتابكي « إيتمش » ، فغلبه السلطان فقم الأتابكي « إيتمش » بعمل وليمة من ماله ، فثبته السلطان وقام هو بعمل الوليمة نيابة عنه ، فكانت وليمة فاخرة جمعت ما لذ وطاب ، والتأم فيها شمل كثير من الأمراء وغيرهم .

ما زال « إيتمش » مقربا من « برقوق » حتى مرض « برقوق » مرض الموت . فجعله في عهدا لاد وصيا على أولاده وماله وأوقافه . وتوفي ، وورث الملك من بعده ابنه « زين الدين فرج » عام ٨٠١ هـ . فثبت « إيتمش » في منصبه ومنحه أيضاً لقب أمير أخور كبير فظل صاحب حول وطول . وكان السلطان فرج صغير السن إذ ذاك ، فاستمد الأتابكي « إيتمش » من صغره سلطة ونفوذاً ، وتصرف في كثير من أمور الدولة ، وسكن بباب السلسلة . وأخذ يضرب على يد من يعصيه . فقبض فيمن قبض عليه ، على الأمير « سودون » ، أمير أخور كبير ، وهو أحد أقرباء « برقوق » وأحد الراجدين على « إيتمش » فقيده وسجنه بغير الإسكندرية . وقبض كذلك على الأمير « تميز » ، الناصري و « تمرغا » المنجكي وغيرهما فقيدهم وأرسلهم إلى السجن بغير الإسكندرية . ثم قبض على الأمير « يلغا » الأخدى الاستادار ، وألحق بهم وهكذا . وأصبح بذلك مسيطرا على شئون الدولة . متصرفا فيها ، تفقد عليه الإنعامات من الملك وما أن بلغ سن الرشد ، حتى حدث « إيتمش » نفسه أمارة ، بالثورة والاقضاض على السلطان . فجمع بماليكه وأعدم الحرب في يوم الاثنين ١٠ ربيع الأول من عام ٨٠٢ هـ ، وانضم إليه عدد من الأمراء . واجتمع إلى السلطان كثير من الأمراء والماليك ، وتقابل

الفرقان بباب السلسلة قتالا عنيفاً ، حتى انسكس « إيتمش » وهرب نجوبة النصر ، وخسر في هذه المعركة خسارة كبرى إذ نهبت ممتلكاته وزايله أنصاره . وكانت ثورته تلك وبالا على مدينة القاهرة ، وكاد يعم بسببها الفساد والتهب . — ثم إن الأتابكي « إيتمش » فر إلى بلاد الشام هو ومن لف لفه من الأمراء ، قبلوا دمشق يوم الاثنين ٢٤ ربيع الأول من عام ٨٠٢ هـ ، فقبولوا هناك بحفاوة بالغة ، إذ كان نائب الشام حينئذ من الذين شقوا عصا الطاعة على سلطنة فرج ، وهو الأمير « تيم » . فاجتمع شمل هؤلاء معا وقويت شوكتهم ، وانضم إليهم نائب حلب ونائب حماة ونائب صفد ونائب طرابلس ، وكاد الأمير « تيم » يكون سلطانا على بلاد الشام . إلا أن السلطان فرجا خرج بحملة عسكرية كبيرة ، لتأديب هؤلاء العصاة . فلما بلغ الشام انحاز إلى جانبه عدد من الثوار ، وحل الضعف في صفوف أعدائه ، ففر الأتابكي « إيتمش » ومعه « تيم » نائب الشام وكثير معهم . فرغب السلطان في صلحهم فأبوا . فتابعهم بجنوده حيثما حلوا وأوقع بهم في موقعة كبيرة بمكان يقال له : الحبسين . وانتهى أمر الأتابكي « إيتمش » بالقبض عليه هو و« تيم » وغيرهما ، فقيدوا وحبسوا بقلعة دمشق ، حتى أمر السلطان بقتلهم بقتلوا . قتل إذن الأتابكي « إيتمش البجاشي » ذبحا بـرج الحمام بقلعة دمشق . وأرسل رأسه مع رهوس غيره ، فطيف به في أرجاء القاهرة ، ثم علق على باب زويلة . وبهذا انتهت حياة ذلك الرجل في شعبان سنة ٨٠٢ هـ .

د ابن اياس ج ١ ص ٢٤٣ إلى ٢٤٥ ، ٢٤٩ ، ٢٦٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٠٩ ، ٣٠٨ ، ٣١٤ ، ٣١٧ إلى ٣٢٠ ، ٣٢٢ إلى ٣٢٤ . — الضوء ج ٢ رقم ١٠٥٩ .

١٥ — المقرر السيقى « يلبغا الناصرى » ٧٩٣ هـ

« يلبغا » الناصرى هذا كان من أتباع « يلبغا » العمرى الناصرى الكبير مملوك الناصر حسن المذكور سابقا . وقد بدأ نجم « يلبغا » الناصرى يتألق في عهد الملك المنصور على ابن الأشرف ، فكان أمير سلاح . وحياته كحياة أئداده من الأمراء ، عبارة عن سلسلة من الحوادث والمؤامرات والمغامرات التي يخوض عياها مقامرا ، فلعله يكون فيها من الفائزين . كان « يلبغا » في عداد الأمراء الذين دافعوا عن الأشرف شعبان ، ضد النائرين عليه حينما خرج للنج عام ٧٧٨ هـ ثم فر ، ثم اشترك عام ٧٧٩ هـ في قسنة شعواء ، تزعمها الأمير

«برقوق، العثماني - السلطان برقوق فيما بعد - والأمير «بركة» الجوباني وغيرهما ، وذلك في عهد السلطان المنصور على بن الأشرف فقاتلوا عدداً آخر من الأمراء المعادين لهم فاقصروا عليهم وبجروهم بئر الإسكندرية . وأقام الأمير «يلبغا الناصري» من ذلك الوقت يحكم في باب السلسلة بين الناس ، نحو سبعة أيام ، منفرداً في ذلك عن صحابته من أهل قنّته . فغفروا هذا إلى مناجزته . فهجم عليه الأمير «برقوق» العثماني والأمير «بركة» الجوباني ، في وقت الظهيرة ، وأنزلوه إلى بيته مرغماً . ومن ذلك الوقت دبت عقارب الحسد والحقد بين الأمير «يلبغا» الناصري وبين الأمير «برقوق» العثماني . وظل ذلك بينهما مساجلة ، ولا سيما بعد أن بلغ «برقوق» منصب الأتابكية ثم السلطنة ، فلما رقي «برقوق» إلى الأتابكية أخبريات عام ٧٧٩ هـ ، قبض على «يلبغا» وقيده وأرسله إلى السجن بئر الإسكندرية ، ونزع منه لحيته وإقطاعه طبعاً ، وأعطى لسواه ، وهو الأمير «إيزال» اليوسفي . ويظهر أنه أطلق سراحه بعد قليل ، لأنه ما لبث أن ظهر في ميدان الفتنة التي اندلعت لحيها ، بين الأتابكي «برقوق» والأمير «بركة» الجوباني . إذ كون الأمير «بركة» فرقتين لحرب «برقوق» ، إحداهما كان فيها الأمير «يلبغا الناصري» ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٧٨١ هـ . فتصدى لهذه الفرقة المذكورة الأمير «إيتمش» البجاسي ، فاندحرت أمامه وغلبت على أمرها ، وكذلك كان نصيب الفرقة الأخرى .

ويظهر أن قنّ هذا الأمير ، هدأت حيناً ، لأنه استطاع أن يعين نائباً لحلب . غير أنه ما لبث أن عاد إلى قنّته ، بعدما اعتلى «برقوق» كرسی المملكة المصرية . فقد بلغه في سنة ٧٨٧ هـ ، أن «يلبغا الناصري» نائب حلب ، متواطئ مع الأمير «سولي» ابن ذي القادر أمير التركان ، وأنهما قد اتفقا على العصيان . فلما تحقق السلطان «برقوق» صدق هذا الخبر ، أرسل إلى «يلبغا» الأمير «بهادر» المنجكي الاستادار ، يستقدمه إلى السلطان ، فقدم معه . فلما بلغا غرة قبض عليه وقيده ، وأرسله إلى سجن بئر الإسكندرية . وعين الأمير «سودون» المظفرى نائباً على حلب مكانه . وأرسل الأمير «جمال الدين» محمود ، شاد الدواوين ، إلى حلب لمصادرة ممتلكات «يلبغا» . ولبت «يلبغا» في السجن زمناً مضطرباً عليه . ثم أطلق سراحه ، وأعيد إلى نيابة حلب . وكان قد انتقل إلى سجن دمياط عام ٧٨٨ هـ . بأمر السلطان وظل فيه بغير قيد . فاستقدمه السلطان برقوق في شهر شعبان من سنة ٧٨٩ هـ وأكرمه وخلع عليه وأعادته إلى نيابته . ففشت دسائسه وانتابراته

من جديد ، وأساء إلى الأمير « سودون » المظفرى نائب حلب من قبله عام ٧٩١ هـ .
وخرج عن طاعة السلطان ، وقتل عددا من المماليك ، وقبض على عدد من الأمراء .
فهب السلطان « برقوق » للقضاء على هذه الفتنة . وكان يريد في الظاهر الإصلاح بين
« يلبغا » و « بين » « سودون » المظفرى ، وأوصى في الباطن بالقبض على « يلبغا » . وكان
رسوله في ذلك الأمير « تليكتمر » . وكانت هناك حجة وصداقة أكيده بين « تليكتمر »
و « يلبغا » . فبدأ « يلبغا » كميناً « لسودون » ، فقتله وهو قادم بدعوة منه للصلح . ثم
أظهر « يلبغا » عصبانيته للسلطان ، والتف حوله بعض الجند والأمراء ، ومن بينهم
« تمر بغا » الأفضلى المسمى « منطاش » الذى كان مملوكاً « لبرقوق » ، ثم قم عليه . ثم
صار من بعد « أتا بكيا » - كاسياً - . فعزله السلطان من وظيفته ، وجهز جيشاً لمكافحته .
ولكن « يلبغا » كان قد زاد شره ، وامتدت قوته حتى عمت بلاد الشام . فلما وصلت
حملة السلطان إلى الشام . احتربت مع عدوها فانكسرت وأسر بعض أمرائها ، ومن
بينهم « أتا بكى » « إيتش » « الجاسى » . وفر الباقيون . اشتد بذلك أذى « يلبغا » وزحف
يجنود من التراكمة والعربان على البلاد الشامية ومنها إلى البلاد المصرية ، حتى قارب
« الصالحية » قبلها . فاضطرب السلطان « برقوق » لذلك ، وأخذ يستعد لملاقاة عدوه . غير
أن عددا من الأمراء غدر بالسلطان وجره وانحاز إلى « يلبغا » ، فقت ذلك في عضده
ورأى ضعفه إزاء خصمه . فأرسل إليه يعرض التنازل عن العرش ، لقاء أن يؤمنه
على نفسه . فأمنه « يلبغا » ، واختفى « برقوق » ، وزالت سلطنته ، وتولاهما من بعده الملك
« الصالح » أمير حاج بن الملك الأشرف شعبان ، للمرة الثانية عام ٧٩١ هـ . وكان طبيعياً أن
يسكون « يلبغا » الناصرى « أتا بكى » العسكر فى هذه الدولة بدل « إيتش » . ابتسم الزمان
لهذا الأمير ، وأصبح صاحب الحول والطول فى البلاد . فاقبحت عنياته أولاً إلى القبض
على عدوه السلطان « برقوق » ، فأطلق المأذاة عليه فى القاهرة ، وهدد من يكون محتبثاً فى داره
بإشباع العقوبات ، حتى دل على مكانه ذليل . فقبض عليه وأرسله مسجوناً مقيداً بقائمة
الكرك فأكرمه نائبا يومئذ الأمير حسام الدين الكجكلى .

ظن « يلبغا » الناصرى ، أن الدهر قد صفاه له ، وأن وجه الأيام قد راق . وأن ميدان
المنافسة قد خلا من المنافسين . غير أن الظروف خلطت هذا الظن . فإنه سرعان ما وقع

بينه وبين صديقه ، منطاش ، خلف شديد ، ودبت بينهما عقارب الفتن والحسد . فتهيا
« منطاش » للبطش بصديقه يوم الاثنين ١٦ شعبان سنة ٧٩١ هـ ، وكا يدین الفتی یدان .
جمع منطاش ما ليك ، ولبسوا ثوب الحرب وأعدوا عدتها في ذلك اليوم واقتحموا
باب السلالة والتف حولهم عدد عظيم من الدوام والعبدان ، واجتمع لهم ما ليك « برقوق »
وغيرهم من الموتورين . وكان « يلبغا » قد استعد للقاء هؤلاء الثائرين . وتلاقى الجمعان
في الرميّة . فاستحرق القتال بينهما ، واستخدمت فيه شتى وسائله . وظل يومين حتى غلب
الأنابكي « يلبغا » على أمره ، وفرت تحت جنح الليل هو وبعض عصابته . ويمدوا شطرا
بلاد الشام . غير أنه ما وصل إلى بلبس ، حتى قبض عليه هو وصحابته . وسبقوا إلى
الآخرة . ومن ثم قيد وحبس بشعر الإسكندرية . وبذلك انتهت أنا بيكيت ، وتولاها
من بعده « منطاش » .

ظل « يلبغا » مقبيا في مجته حتى وقعت الواقعة بين الأنابكي « منطاش » وبين
السلطان « برقوق » المخلوع ، وكان من نتائجها أن زال شبح « منطاش » من مسرح السياسة
المصرية ، وعادت سلطنة « برقوق » مرة أخرى عام ٧٩٢ هـ . قرأى « برقوق » أن
يستصني « يلبغا » ويذهب ما في قلبه من وجد عليه . فرسم بالإفراج عنه ، ومنحه لقب
أمير سلاح . ولعل الذي دفع « برقوقا » إلى ذلك ، أن لها عدوا مشتركا هو « منطاش » .
وإنك ما لبث السلطان « برقوق » حتى استخدم « يلبغا » في مطاردة « منطاش » .
الذي فر وأخذ يبيع فسادا في بلاد الشام . فرحل « يلبغا » إلى دمشق وأوقع هو غيره
من الأمراء بمجنود « منطاش » والمنحازين إلى صفوفه . وصدف أن قتل نائب الشام
حينئذ ، فأرسل السلطان « برقوق » تقليدا إلى « يلبغا » وعينه نائبا على الشام ليتمكن
له من مكافئة منطاش ودفع شره . وقد أبلى « يلبغا » في هذه السبيل بعض البلاد . غير
أنه كان لا يزال يضر الشر ، ويتربص الفرص للعودة إلى السكيد لبرقوق . ولم يكن
يتمنعه من ذلك إلا وجود منطاش في أطراف بلاد الشام ، ومعاودته مناوشتهم الفنية بعد
الفنية ، فأحب « يلبغا » أن يعمل على إبعاد « منطاش » حتى يتناول له جو المكيدة . فأوعن
إلى الأمير سالم الدوكاري أمير التريكان ، أن يغري منطاش على الحرب إلى بلاد الروم .
وكان برقوق في ذلك الوقت ، قد زحف بمجنده كثيف إلى البلاد الشامية ، ليظهرها من
« منطاش » وعيشه . فأطلعه أمير التريكان المذكور ، على مراسلة « يلبغا » وانتازله ووجهته

نظره . فلم يجد السلطان برقوق ، بدا من القبض على ديلبا ، ومن لف لفة من الأمراء ، ويجهنم بقلعة حاب ثم أمر بقتلهم جميعا قتلوا . وانهت بهذا حياة ديلبا الناصرى ، وذلك في عام ٧٩٣ هـ .

« ابن لباس ج ١ ص ٢٣٣ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ إلى ، ٢٧٩ ، ٢٩١ ، إلى ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ - الور ج ٤ رقم ١٢١٩ . »

١٦- « تمرىباف الأفضلى » المعروف بمنطاش الأشرفى ٧٩٥ هـ

كان أولامن بمالك الأشرف شعبان فنسب إليه . سم فى سنة ٧٨٧ هـ اشتراه السلطان « برقوق » ، وهو أخو الأمير تمرىباف الدرماشى ولبك فى رقى برقوق مدة حتى ربابه ثم أعتق ، ونهجه بجمل وقاش وعينه جدارا . هذا هو « منطاش » الذى ابتلى به السلطان برقوق فى عداد من ابتلى بهم من الثائرين عليه والخارجين على طاعته ، والذى ألقى باله . ذمنا ليس بأقليل . وما ذلك إلا لأنه كان يضمربين جنبىبه كىة من الشرور والطمع كافية لأن تجعل حياته سلسلة من الكفاح .

كان « منطاش » شجاعا باسلا ، إلا أنه جنوح إلى الفساد ، فضربه سيده برقوق سم نفاه إلى بلاد الشام ، فظل يعيش فسادا فى أرجائها ملتصبا ساعة الانتقام من سيده . لحانت له ساعة الانتقام المرجوة حيثما ثار فى وجهه الأمير يلبغا الناصرى ، وقت أن كان نائبا على حلب وحدته نفسه بالهصيان ومزاحمة السلطان والتدربه . وتنبأت أسباب النصر . ليلبا ومن معه وفى جملتهم « منطاش » فقد زحف على مصر زحفا لم يجد معه السلطان برقوق بدا من النزول عن عرشه والاختفاء عن العيون . وبذا عادت السلطنة إلى الملك الصالح أمير حاج بن الأشرف شعبان عام ٧٩١ هـ . وصار يلبغا أتابك عسكره .

أما « منطاش » فقد أصبح قسما ليلبا فى هذا الجاه العريض الذى باغى ، بل وأصبح أحد الخاقدين عليه ، بل أصبح أول هؤلاء الخاقدين . فلماذا تكون الأابكية وجاها ليلبا وحده ؟

ظهرت هذه الروح لدى « منطاش » ، ومتى خبثت نفسا الصديقين تحفزا للشر واستمر . الخلف . ولهذا سرعان ما وقع الخلف بين « منطاش » ولبغا ، وملأت صدرهما الحقد والاطماع . فلم يجد « منطاش » بدا من مناجزة نده لجمع بمالكيه وزودهم بضروب من

السلاح ، وعاونهم عديد كبير من العوام والعبيد وكثير من محاليك الأشرف شعبان
والظاهر برقوق ومن لف لفهم من المؤنورين من بلخا . وذلك في يوم الاثنين ١٦
شعبان عام ٧٩١ هـ . وترأى الفريقان واحتالا في القتال وأسباب النصر ، حتى انهم
جمع بلخا وولى الأديار . ففرت تحت ستر الليل هو وعدد كبير من الأمراء إلى بلاد
الشام ، ولكنهم قبض عليه في بلبس وأعيد إلى يد منطاش ، فسجنه بئر الإسكندرية
وأمر منطاش ، بالإفراج عن كثير من الأمراء الذين سجنهم ببلخا ومن بينهم المقر
السيفي سودون الفخري نائب السلطنة ، كان .

هذا الانتصار وثب منطاش ، إلى مرتبة الأتابكية ، وصار مصدر الأمر في هذه
البلاد بجوار سلطانها أمير حاج .

أحب منطاش ، بعد ذلك أن يخلى الميدان من كل منافسيه . فأراد البدء بالسلطان
برقوق سيده القديم وعدوه الحالي ، والمسجون بقلعة الكرك . فاستصدر منطاش ،
من السلطان أمير حاج مرسوماً شريفاً أرسله إلى نائب الكرك يأمره بقتل الملك الظاهر
برقوق . وكان برقوق قد استصفى جماعة من رجال الكرك وحراس قلعتها . فقتلوا الرسول الذي
يحمل المرسوم ، وهموا بقتل نائب الكرك نفسه فاستجار برقوق لخوا . وأخذ نفوذ
برقوق يتسع ويزداد في الكرك حتى ملك قلعتها وأخذ يعد العدة للإغارة على الشام ثم مصر
فاضطرب منطاش ، أيما اضطراب ، وملأت نفسه الحيرة ، وأخذ يستعد للظروف .
غير أن برقوقا كان قد انضم إلى جيشه أناس كثيرون أغار بهم على بلاد الشام وملكها .
وانساق كثير من أمرائها إلى الانضواء تحت رايته . ففت ذلك في عيـن منطاش ،
وحاول أن يستعين على برقوق بفتوى دينية . فعرض على الخليفة والقضاة الأربعة
سؤالا نصه : « ما تقول السادة العلماء في رجل خلع الخليفة وبجحه وقيده من غير موجب
لذلك . وقتل رجلا شريفا في الشهر الحرام في البلد الحرام ، واستحل أخذ أموال الناس
بغير حق ، واستعان بالكفار على قتال المسلمين . » - فامتنعوا من الإجابة حتى
يجيب شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني . فأجاب بقوله : « إذا قامت عليه البينة بذلك
وجب قتاله وعاربه فهو خارجي ، . وتوالى العلماء والقضاة يكتبون من بعده ...
والمتبادر إلى الذهن أن منطاش أراد أن يكتسب الرأي العام ضد برقوق ، ويذكر
الناس ببعض أعماله السيئة التي وقعت منه في أول دولته . - غير أن ذلك كله لم يجد

نفسا ، فإن برقوقا تغلب على كل الصعاب التي اعترضته في سبيل امتلاك الشام ، وإن كان قد لقي بها ضروبا من الإرهاق والعبث . فلم يسع « منطاش » إلا أن يجهز حملة كثيفة الجند يسير في طلعها هو وسلطانها أمير حاج . وأخذت هذه الحملة في المسير نحو الشام منذ الإثنين ١٧ من ذي الحجة سنة ٧٩١ هـ . وكادت جزودها ترفض الحفروج لما نال بعضهم من أذى « منطاش » ، وسوء تصرفه . - تلاقى الفريقان في البلاد الشامية وظل النصر والهزيمة يتناوبان كل فريق ، والوقائع تترى بينهما ، حتى انكسر عسكر « منطاش » ، وولوا الأدبار . وبينما أخذ السلطان برقوق يزحف بمجنوده للاستحواذ على مصر ، إذ ظل « منطاش » شريدا في الديار الشامية . وبلغ برقوق مصر وصعد إلى مقر الحكم بالقاهرة يوم الأربعاء ١٥ صفر سنة ٧٩٢ هـ وخلع السلطان أمير حاج . ودالت دولة « منطاش » ، حتى قال فيه بعض الرجال :

من السكر كجانا الظاهر وجب معو أسد الغابة
ودولتك يا أمير منطاش ما كانت إلا كذابة

كانت هذه الحادثة التي انتهى بها أمر « منطاش » ، حافزا له إلى أن يهب نفسه للشر والعبث والفساد ، وأن يعيش عبثه الفتاك المشردين ليسكن شوكة حادة تؤلم جنب دولة السلطان برقوق . لذلك ما عتمت الأخبار أن جاءت برؤوب « منطاش » ، على مدينة دمشق ، وبموافقة عوامها له على تسليمها إليه فهبت لصدده عنها عدة من الأمراء من بينهم لم يتمش الجاسي وبلغا الناصري الأناطليان من قبله ، فأوقعوا به واقعة هائلة ثم تراجع الفريقان . وبعد قليل كر « منطاش » بعصايته على مدينة عيبتاب ، واستطاع نائها بعد جهد أن يشتت شمله ، فهرب إلى ضفاف الفرات . . . وفي سنة ٧٩٣ هـ التف حوله عدد كبير من الزكائن والعربان وبعض الأمراء ، حتى توالى الأخبار بأنه قد ملك حماة وحمص وبعليبك ، وسامه أهلها . وأخذ في حصار الشام ونجا دمشق ونهب أسواقها ومناجرها ، واصطبلاتها . فلم يجد السلطان برقوق مندوحة عن السفر للملاقاة والقضاء عليه وعلى شروعه . فخرج سنة ٧٩٣ هـ إلى الشام في جند كثيف ومعه الخليفة المتوكل والقضاة الأربعة وسائر الأمراء إلا قليلا منهم . فبلغ دمشق وأقام بها زمنا ثم يم شطر حلب ، وقبض على عدد من الأمراء الذين يضررون له السوء ومن بينهم بلغا الناصري الذي لم يتخلص في مكائفه « منطاش » ، ثم قتلهم . وأخذ في تطهير البلاد الشامية والحلبية من

فساد « منطاش » . وكان هذا لا يفتأ يحتل الفرص للسكر على مدن الشام وحلب ثم يرتد إلى ضفاف الفرات . فسكراب السلطان برقوق الأمير نعيم بن جبار بطعمه في جائزة فريدة إن هو قبض على « منطاش » . وكان السلطان قد عاد إلى الديار المصرية قبيل سنة ٧٩٤ هـ ولم يظفر بالقبض على « منطاش » . ثم إن نعيم المذكور كان قد صاهر « منطاش » ، فلما اتفق مع أبي يزيد الدوادار نيابة عن برقوق على أن يقبض على « منطاش » ، احتال عليه حتى أوقفه في أسرهم وأرسله مخفورا إلى نائب حلب ، فأرسل السلطان إليه الأمير طولو بن علي شاه ليحضره إليه . فأخذ هذا الأمير في التحقيق معه ليظفر منه بما غصبه من البلاد . إلا أن « منطاش » كان قد أصاب نفسه بمخنجر كان في حجرته فدخل في دور الزرع . فقطع الأمير طولو رأسه وطيف به في كل مدينة ، حتى بلغ القاهرة فعاقب على باب زويله ... وفرح السلطان بذلك فرحا لا مزيد عليه . وبهذا ختمت حياة هذا الأمير وكان ذلك ٧٩٥ هـ .

« ابن لباس ج ١ ص ٢٦٢ إلى ٢٩٩ — تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٤٨٧ ، ٤٩٧ .
٥٠٤ — الدرر ج ٤ رقم ٩٩٥ .

١٧ — إينال اليوسفي ٧٩٤ هـ

كان المقر السبق « إينال اليوسفي » هو الذي وقع عليه اختيار السلطان برقوق لبسند إليه منصب أتابكية عسكره عقب عودته إلى سلطنته واندحار الأتابك السابق تمرغا الأفضل المعروف بمنطاش وتم ذلك في أوائل سنة ٧٩٢ هـ .
ولقد قلب « إينال » في مناصب شتى قبل بلوغه هذه الرتبة الجليلة . فقد كان إلى سنة ٧٩١ هـ ، أتابك العساكر بدمشق في عهد ساطنة برقوق الأولى . وكان الأمير يلينا الناصري حينئذ نائبا على حاب فبدرت منه بادرة عصيان فتحققها السلطان برقوق . فخلاه من نيابته وأسندها إلى « إينال » : غير أن يلينا كانت قد اشتدت قنطته وزحف بجنود جمعها إلى مصر ، واستطاع أن يزيل ملك برقوق ويعيد الملك الصالح أمير حاج إلى عرشه . فخرم إينال نيابة حلب ، وأسندت في العهد الجديد إلى المقر السبق كشيخا الحموى وبين إينال في قلعة صفد . — فلما عاد برقوق إلى نشاطه وزحف من السكر إلى الشام ، اضطربت أمورها وتمر المتآمرون ، وانضم المنضمون إلى صفوف برقوق . وكان من

أثر ذلك أن أطبق سراح الأمير إينال اليوسنى بواسطة درادار نائب صفد المدعو يلبغا السالى . وقد كان هذا من مالىك برقوق ، فاتفق مع حاجب صفد ونائب قلعتها على الإفراج عن « إينال » . وبمجرد خروجه تزعم حركة العصيان ضد الإنابكى « منطاش » وسلطانه أمير حاج . فكان ذلك نصرا جديدا لبرقوق . واستطاع « إينال » أن يمتلك صفد وقلعتها ومخازنها ، وأن يكون قوة فعالة فى الوصول إلى النصر الذى يريهوه برقوق . وسار « إينال » بجانب برقوق حتى كتب له النصر على عدوه « منطاش » ، وعاد إلى سلطنته ، فأسند الإنابكية إليه .

ومن عجيب الأمور أن « إينال » هذا كان فى يوم ما عدوا نائرا على برقوق . وذلك فى عام ٧٨٠ هـ . فى عهد سلطنة المنصور على . فقد اتفق فى يوم الاثنين ٢٤ شعبان من ذلك العام أن سار برقوق — وهو أنابكى لمّا يُرَقَّ إلى السلطنة — نحو المطرية ، فآغتم الأمير « إينال اليوسنى » — وكان إذ ذاك أمير سلاح — هذه الفرصة ، وجمع مالىكه ولبسوا لباس الحرب وعموا جهة الرملة . وانضم إليه عدد من الأمراء والمماليك السلطانية وأحدثوا قسمة هائلة ، لخطموا باب السلسلة وأغاروا على مستودعات الأسلحة الخاصة بالإنابكى برقوق . وذلك كله حسدا لبرقوق ، ورغبة فى التخضيد من شوكرته والتقليل من جباهه . ولولا أن أسرع برقوق بالعودة ، ولولا أن عاونه فى محنة الأمير ليمش البجاشى ، فنهج مالىكه وكية هائلة من الأسلحة ، ولولا أن كان الأمير بركة الجوبانى غائبا فى مزارعه بالبحيرة ، وهو صديق حميم للأمير « إينال اليوسنى » ، أقول لولا ذلك ، لوقع لبرقوق مالا تحمد عتياه . ولكنه استطاع مع هذه الظروف أن يقضى على خصمه ، وأن يقبض عليه هو وأعدائه وأن يبعث بهم مصفدين فى الأغلال إلى سجن الإسكندرية . وقد قال الشاعر المصرى ابن العطار فى ذلك :

قد ألبس الله برقوقا مهلبته نهار الاثنين فى عز وتمكين
وراح إينال مع سودون وانكسرا وكان يوما عسيرا يوم الاثنين

ومن عجيب الأمور أيضا أن برقوقا — وهو أنابكى — كان السبب فى ترقية الأمير « إينال اليوسنى » إلى أمير سلاح بدل يلبغا الناصرى الذى قبض عليه ، وذلك فى آخريات عام ٧٧٩ هـ . فكان جزؤه منه الثورة والفتنة .

ومهما يكن من أمر ، فقد لامت الظروف بينهما وأصبح برقوق سلطانا ، وأصبح

وإبنال، أتاك عسكره . غير أنه — على ما يبدو — وقع منه ما كان سبباً في غضب السلطان عليه ، ولذلك أبعده عن منصبه ، وأقام مكانه الأمير كشيغا الخوى . وقد توفى حوالى عام ٧٩٤ هـ ، أو فى هذا العام .

و ابن إياس ج ١ ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٩١ — خطط ج ٤ ص ٢٥٢ — درج ارقم ١١٣٥ ،

١٨ — كشيغا الخوى ٨٠١ هـ

من بمالك ابن صاحب حماة ، قدمه للناصر حسن . ترقى حتى كان نائباً على حلب فى عهد الملك الصالح أمير حاج بن الأشرف شعبان . وذلك فى أول عودته إلى الملك عام ٧٩١ هـ . وكان الأتابكي حينئذ « منطش » . وكان برقوق مسجوناً بقلمة السكرك ، ثم بدأ « برقوق » يستعيد سلطانه ويزحف بعصابته من السكرك إلى الشام ، بعد أن استولى على السكرك . فضلع الأمير « كشيغا » مع « برقوق » ، وأعلن العصيان بحلب ، شأنه فى ذلك شأن كثير غيره ، من أمراء البلاد الشامية والحلبية . وقد قدم « كشيغا » إلى « برقوق » فى ذلك الوقت عدة مساعدات متنوعة إبان دخوله دمشق ، وأصاب « برقوق » فى ذلك الوقت هزيمة مؤقته ، فهرب هو والأمير « كشيغا » ، ورحل هذا إلى حلب وأقام فيها حصوناً ، استعداداً للظروف . إلا أن أهالى حلب كانوا قد أصابهم ضيق بسبب تصرفات نائبهم « كشيغا » ، فانهزروا فيه فرصة ، حينما أرسل « منطش » بعض عصابته ، بزعامة شخص يدعى « تمان تير » ، الأشرفى لامتلاك حلب باسم « منطش » ، فأنضم أهل حلب إلى هؤلاء المغيرين ، أما الأمير « كشيغا » ، فقد أقام مع جنوده فى بعض الأبراج الحصينة ، وظل الفريقان يتراميان ثلاثة أشهر ، حتى كتب النصر للأمير « كشيغا » . وانكسرت أمامه عصابة « منطش » ، ولوا الأديار . فأخذ « كشيغا » يستعيد نفوذه فى المدينة ، وعكف على إصلاح ما تهدم منها ، وزاد على مبانها ومراقبتها ما سمحت له الظروف .

وكان « برقوق » قد استعاد سلطانه فى البلاد الشامية والحلبية فى تلك الأثناء ، وزحف بجنوده على مصر ، واسترد عرشه فيها . وبذلك وحده استطاع « كشيغا » أن يسترد نفوذه فى حلب ، ويقوم بهذه الضروب من الإصلاح . — وفى عام ٧٩٣ هـ وقد الأمير « كشيغا » إلى مصر ، وحظى بمقابلة « برقوق » ، وأطلعته على ما بضمرة وظهره التريكان والهربان من العصيان والخروج عن الطاعة ، مماوة منهم « منطش » ، الذى ثر ضد السلطان

فأعد السلطان الأمر عدته . وأقام « كشيغا » من ذلك الحين في القاهرة بجوار السلطان ،
 إذ كان يرناح إلى مشورته . — ولما خرج « برقوق » بجنوده في الاثنين ٢٢ شعبان من
 عام ٧٩٣ هـ ، إلى بلاد الشام للقضاء على « منطاش » وعبيته ، أقام الأمير « كشيغا الخوى »
 نائب غيبة عنه بمصر حتى يعود ، مفضلا إياه بذلك على نائب سلطنته ، المقر السبقي
 « سودون » الفخرى . فكان ذلك مرشحا له للوصول إلى مرتبة الأتابكية . فما إن انتهت
 أنابكية « إينال اليوسنى » حتى أسند السلطان هذه المرتبة الجليلة إلى الأمير « كشيغا الخوى » .
 ظلت أمور هذا الأمير تجرى له بالسعد ، حتى كانت سنة ٨٠٠ هـ ، فحدث منه ما استاء له
 قلب السلطان « برقوق » فخلعه من منصبه ، وقبض عليه وقيدته ، وأرسله مسجونا إلى
 نهر الإسكندرية . فظل في سجنه سنتين إلا قليلا . ثم توفاه الله في أخريات عام ٨٠١ هـ ،
 وهو في السجن المذكور . وأعيدت الأتابكية من بعده إلى الأمير « إيتمش » البجاسى .
 « ابن لباس ج ١ ص ٢٧٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٧ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٠٨ ، ٣١٩ »
 — الضوء ج ٦ رقم ٧٩٣ .

١٩ — « بيرس » الركنى ٨١١ هـ

كان « بيرس » هذا دوادارا كبيرا في عام ٨٠٠ هـ في عهد السلطان « برقوق » ،
 وهو قريبه . وأبلى بلاء محمودا إلى جانبه في الثورة التي شها ضده الأمير « على باى »
 والأمير « يلغا » الأحمدى الأستاذار . وهو الذى قبض على « على باى » وهو محتفى ،
 وصعد به إلى الزلعة وألقى به بين يدي « برقوق » ، فأمر بسجنه .

ظل « بيرس » دوادارا كبيرا ، إلى أن توفى « برقوق » . وقبل وفاته جعله في
 عداد أوصيائه على أملاكه وأوقافه . وفي دولة السلطان « فرج بن برقوق » ثبت
 « بيرس » في دوادارته الكبرى كما كان . — ولما وقعت الفتنة بين الناصر « فرج »
 والأتابكي « إيتمش » البجاسى ، انحاز « بيرس » إلى جانب السلطان . فكان أحد
 الأمراء الذين دفعوا عنه وكسروا جنود « إيتمش » ، وألقى في ذلك البلاء الحسن . لما
 فر الأتابكي « إيتمش » إلى دمشق ، اختار السلطان الأمير « بيرس » الدوادار مكانه
 في الأتابكية ، وذلك في شهر ربيع الأول من سنة ٨٠٢ هـ .

من ذلك الحين أصبح الأمير « بيرس » مقربا لدى السلطان ، مرعى الكلمة لديه .
 وقد حدث أن قبض السلطان على بعض كبار الموظفين ، للتحقيق معهم في أموال

بددوها ، وكاد يبطش بهم لولا أن شفع فيهم لديه الأتابكي « بيبرس » ، فأطلق السلطان سراحهم .

ولما وقعت فتنة الأمير « تيم » نائب الشام ، وخرج السلطان « فرج » لمحاربتة ، أناب عنه في غيبته الأتابكي « بيبرس » ، وذلك في شهر رجب من عام ٨٠٢ هـ . ولما زاد خطر التتار وزعيمهم « تيمورلنك » ببلاد الشام ، واضطر السلطان « فرج » أن يسير لقتاله وأعد للأمر عدته ، كان الأتابكي « بيبرس » الركفى في مقدمة من سار بجانيه إلى هذا القتال ، وقد بدأ خروج هذه الحملة في ٣ ربيع الثانى سنة ٨٠٣ هـ . لكنهم لم يحققوا ما أعدت له تماما ، إذ استشرى من بعد عودتها خطر « تيمورلنك » على بلاد الشام وما والاها .

ويظهر أن الأيام وغيرها ، لم تدع « بيبرس » ينعم باستمرار بمنزله السامية لدى السلطان « فرج » . إذ أنه قرب إليه الأمير « نوروز » الحافظى فى ذلك العام ، وجعله « مشير الدولة ومدير المملكة » ، فظم جاهه ونفقت كلبته . ثم تزوج « نوروز » أخت الملك الناصر فرج عام ٨٠٤ هـ ، فكان ذلك بمثابة تثبيت لمنزلته . فأتى للأتابكي « بيبرس » أن يناقسه ؟ ... لذلك رأى السلامة فى أن يضافه وبصادقة . فبقى مرعى الكلمة لدى « نوروز » .

ولما هبت على السلطان فتنة الأمير « جكم » العوضى و « نوروز » الحافظى ، اشترك الأتابكى « بيبرس » فى إطفائها بنحو ألف مملوك ، وذلك فى شوال عام ٨٠٤ هـ . وخسر الأمير « نوروز » بهذه الفتنة مركزه السامى لدى السلطان فحاول الأتابكى « بيبرس » أن يصلح ذات بينهما ، فوعده السلطان خيرا ، وأسر فى نفسه غدرا . فقد وعده أنه إذا أتاه بالأمير « نوروز » ، يصفح عنه ويمنحه نيابة ما . فلما طلع به إليه منحه نيابة الشام ، ولكن « نوروز » مالبث حين سار أن قبض عليه ، وقيد وأرسل إلى بين الإسكندرية . فكان ذلك مثارا لجزع الأتابكى « بيبرس » ، وحفقه على السلطان ، لأنه لم يبر له بوعده . وبدت النفرة بينهما . ولهذا أمره فى سنة ٨٠٥ هـ أن يرحل منفيا إلى دمياط ، هو وأسرته ويقم بها . وكاد يتم رحيله ، لولا أن تدخل كل الأمراء المقدمين فى الأمر ، وشفعوا له لدى السلطان . فأبطل أمره إليه بالرحيل ، ومنحه رضا . غير أن ذلك لم يستصف قلب « بيبرس » على السلطان ، فقد أخذ يكيد له كيدا ، ويوغر صدره بالأمراء .

عليه ، حتى أصبح في كل مكان عليه قعدة بادية فلم يجد بدا من اعتزال السلطنة ، والاختفاء عنها عام ٨٠٨ هـ .

تولى السلطنة بعد « فرج » أخوه المنصور « عبد العزيز » ، فملت منزلة الأتابكي « بيبرس » عنده ، وأقره في منصبه . فأصبح صاحب الحل والعقد بالديار المصرية . إلا أن ذلك كان مثارا لغضب بعض الأمراء وحقدهم عليه ، ولا سيما الأمير « يشبك » الشيباني . فانقسمت القوى قريقتين ، وأخذت كل فرقة تكيد للآخرى ، حتى وقعت الحرب بينهما ، فكانت عتبي « بيبرس » الانكسار . وزالت دولة مملكة المنصور « عبد العزيز » ، وعاد « فرج » إلى عرشه مره أخرى . وكل ذلك قد استغرق شهرين وعشرة أيام من العام نفسه . فلما عاد السلطان « فرج » إلى عرشه ، قبض على الأتابكي « بيبرس » ، وساقه مقيدا إلى بين الإسكندرية ، وانتهى بذلك عهد أتابكيته . وقد قتل عام ٨١١ هـ . وتولى الأتابكية من بعده الأمير « تغرى بردى » .

« ابن إياس » ج ١ ص ٣٠ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٤ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ إلى ٣٥٠ — الضوء ج ٣ رقم ١٠١ .

٢٠ — تغرى بردى بن يشبك ٨١٥ هـ .

كان نائبا لحلب عام ٧٩٦ هـ ، عينه في هذه النيابة السلطان « برقوق » . فظل فيها قرابة أربع سنوات . وفي سنة ٨٠٠ هـ استقدمه ، وأنزله في منزلة الأمير « طاز » ، وخلع عليه ، وجعله أمير سلاح . وظل في مرتبته هذه ، حتى انتهى عهد « برقوق » وبدأ عهد ابنه « فرج » ، فأقره فيها : — ولما ثار الأتابكي « إيتمش » في وجه السلطان « فرج » سنة ٨٠٢ هـ انجأ « تغرى بردى » إلى جانب الأتابكي وأبل في ذلك بلاه حسنا . غير أنهما دحرا وفراهما ومن معهما إلى الشام ، فخلع « تغرى بردى » من إمرته . دلى أنه لم ينجحه هربه من وجه السلطان . فقد اتقى أثر الماريين الأمير « جكم » العوضى ، وقبض على « إيتمش » و « تغرى » وغيرهما ، وسجن « تغرى » في قلعة دمشق ، فكسك مسجوناً . ودحا من الزمن ، حتى ثارت ثورة « تيمورلنك » على أملاك السلطان ، واضطر إلى الخروج إلى الشام لمحربه في ربيع الثاني عام ٨٠٣ هـ . فخلع على الأمير « تغرى بردى » . ضد ما وصل إلى غزة ، وجعله نائبا على الشام . غير أنه مالبث غير قليل ، ثم عاد مع السلطان « فرج » إلى مصر ، في جمادى الآخرة من العام المذكور ، دون أن يقوماها

ومن معهما بعمل حاسم ضد تيمورلنك ، وبقى « تغرى بردى » فى مصر ، فعين السلطان الأمير « سودون » قريبه نائباً على الشام مكان « تغرى بردى » . غير أن « سودون » هذا ما لبث أن وقع فى أسر « تيمورلنك » . ولذلك أعاد السلطان « تغرى بردى » إلى نيابة الشام عوضاً عن « سودون » . وذلك بعد زمن يسير وفى العام نفسه . وفى أوائل عام ٨٠٤ هـ نقلت تصرفات الأمير « تغرى » على أهل دمشق ، فتربصوا به الدوائر ، ورجوه ، ونجى نفسه بالفرار من وجههم إلى نائب حلب . فلما علم السلطان « فرج » هذا الخبر خلع على المقر السيفى « أقبغا الجمالى » وقامه نيابة الشام عوضاً عن « تغرى » . فماد هذا بعد زمن إلى القاهرة . ولما فسد ما بين الأتابكى « بيبرس » والسلطان « فرج » واختفى السلطان « فرج » ، وهلك أخوه « عبد العزيز » ، ثم عاد « فرج » إلى العرش عام ٨٠٨ هـ ، قبض على الأتابكى « بيبرس » وعين مكانه فى الأتابكية الأمير « تغرى بردى » . فأخذ من ذلك الوقت يبدئ النصيحة والإرشاد للسلطان « فرج » . ولكن هذا كان مستبداً إلى حد أن نصائح أتابكيه ذهبت هباء . فقد نهى كثيراً عن بطشه بما إليك أبيه برقوق ، ولكنه لم يستمع إلى نهيهِ . وتخلص من ناعمه بأن أمر بأن يكون نائباً على الشام مرة جديدة . وذلك فى أوائل عام ٨١٢ هـ . وهكذا انتهت مهمتى هذا المنصب بعد أن سلخ فيه نحو أربع سنوات ، لم يستطع فيها أن يسط نفوذه كما يسط سواه من أنداده . وبعد « فرج » ملك الخليفة المستعين ، وكان أتابكاً المؤيد شيخاً . وسرعان ما نفى المؤيد شيخاً إلى السلطنة . فظهر فى عهده الأتابكى « قرقاس الشعبانى » . ثم « الطنبا القرشى » .

ذكر السخاوى أنه توفى سنة ٨١٥ هـ ، وهو نائب على دمشق . - وهو والد المؤرخ ابن الحاسن صاحب النجوم الزاهرة .

« ابن إياس ج ١ ص ٣٠٣ ، ٣٠٨ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٤٣١ ، ٣٥٠ ، ٣٥٣ - الضوء ج ٣ رقم ٢١٣٨ » .

٣١ - الطنبا القرشى ٨٢٤ هـ

من ماليك الظاهر برقوق . ضلع مع يشبك ثم شيخ . حتى كان أتابكياً فى عهده . ثم الملك المؤيد شيخ المتوفى عام ٨٢٤ هـ . فلما توفى ، ملك من بعده ابنه المظفر « أحمد » . وكان « الطنبا القرشى » غائباً حينئذ فى البلاد الشامية ، على رأس حملة لتأديب الدصاة

من التواب . فاستبد بالامر دونه الأمير « ططر » وكان أمير مجلس . وانهز الفرصة لصفر بن الملك ، وأصبح مدير المملكة ، واعداد بأنه سيستمر كذلك حتى يعود « الطنبغا القرشي » من الشام . غير أن « الطنبغا » لسوء حظه ، علم بتغير هذه الأحوال ، فحدثه نفسه بالعصيان . فأعلنه وهو في البلاد الشامية ، وملك دمشق وقلعتها وحصنها ، وجمع ما استطاع من العربان وغيرهم ، وانتظر اللقاء إذا أحد حدثه نفسه بالتمتال . فكانت هذه فرصة صالحة للأمير « ططر » ، إذ وثب إلى منصب الأتابكية ، ومنها وثب بعد قليل إلى رتبة السلطنة . -

استعد « ططر » لقتال « الطنبغا » وخرج من مصر ومعه جنده وأمرأه وملسكه الصغير محمولاً في عفة . فابلغوا الشام حتى ارتعبت مفاصل « الطنبغا » ، وأعلن بالطاعة للسلطان . غير أن « ططر » قبض عليه ثم أمر بختفه ، وهذا كله في عام ٨٢٤ هـ . ولم يعين أتابك غيره في عهد السلطان « ططر » حتى مات ، ثم عين في الأتابكية « جاني بك الصوفي » في عصر ابنه . « ابن إياس ج ٢ ص ١٠ ، ١١ - الجزء ٢ رقم ١٠٢٥ .

٢٢ - جاني بك الصوفي ٨٣٤ هـ (١)

بعد زوال الأتابكي « الطنبغا القرشي » ، لم يعين في الأتابكية أحد في عهد الملك « ططر » ، إذ كان عهداً قصير الأمد . فلما تولى ابن ططر ، وهو الملك الصالح « محمد » ، أقام في أتابكية عسكريه الأمير « جاني بك الصوفي » وجعله مدير مملكته ، إذ كان هو صغير السن . وذلك في أواخر عام ٨٢٤ هـ . فصار الأمير « جاني » من ذلك الوقت ، صاحب الحل والعقد في البلاد . فأثار ذلك حفيظة غيره من الأمراء . ف وقعت بينهم الفتن : وكان على رأس الحاقدين الأمير « برسبای » الدقائي - الذي صار سلطاناً بعد - فاستطاع « برسبای » أن يقبض على عدوه « جاني » وأرسله إلى السجن بالإسكندرية . وانتهت بذلك أتابكيته وكأنها لم تكن . بل انتهت أيضاً سلطنة الملك الصالح « محمد ابن ططر » . ووثب إلى السلطنة الأمير « برسبای » نفسه في ربيع الثاني من عام ٨٢٥ هـ . وظل الأمير « جاني بك » مسجوناً حتى عام ٨٣٠ هـ ، فأدخل إليه مبرد ، فقلب به على قيده ، فكسره وهرب . فاضطرب الملك « برسبای » لهذا الحادث ، وعذب كثيراً

من الناس بسببه ، دون أن يذنبوا ، اعتقاداً منه أنهم قد أخفوه لديهم . وما زال الأمر كذلك ، حتى نجي إلى السلطان أن « جاني بك الصوفي » قد فر إلى بلاد التركان فهدأت نفسه . — وفي سنة ٨٢٥ هـ . وقد إلى القاهرة بعض الزاكمة ومعهم رأس الأتابكي « جاني بك » ليحظروا لدى السلطان بهذه الفعلة الشنيعة . فأمر بأن يطاف بالرأس في القاهرة ، ثم علق باب زويلة ثلاثة أيام ، ثم في مiazza جامع الحاكم ...

« ابن لباس ج ٢ ص ١٤ ، ١٨ ، ١٩ — الضوء ج ٣ رقم ٢٣٠ . »

٢٢ — قبحي الشعباني ٨٢٩ هـ .

أصله من ماليك الظاهر « برقوق » . ترقى في عهد الناصر « فرج » ، حتى صار من الأمراء المتقدمين . وانضم « لنوروز » و « شيخ » في ثورتها بالشام . فلما ملك المؤيد شيخ مصر ، جعله حاجب الحجاب . ثم غضب عليه وحبسه بالإسكندرية ، ثم أطلقه السلطان « ططر » وحظي عنده ، فراه . وما زال حتى كانت سنة ٨٢٧ هـ ، في عهد « برسبای » فاختار أتابكا ، واستمر في الأتابكية حتى مات ٨٢٩ هـ . فزل السلطان وصلى عليه مع الصلبيين . وكان « قشجق » أميراً جليلاً معظماً ، ماهراً في ركوب الخيل وفنون الفروسية . وولى الأتابكية بعده « يشبك الأعرج » .

« الضوء ج ٦ رقم ٧٠٢ »

٢٤ — يشبك الساقى المعروف بالأعرج ٨٣١ هـ

أصله من ماليك الظاهر « برقوق » . كان خاصكياً في أيامه . واشترك مع « يشبك » الشعباني في حروبه وقاتعه . فخرج جراحاً بليغة أصيب على أثرها بالأعرج . وبلغ مرتبة الإمارة في عهد الناصر « فرج » ، وانضم بعد مدة مع « نوروز » الحافظي ، فأرسله إلى حلب ليحفظ قلعتها . ولما استتب الملك للمؤيد شيخ ، غضب عليه ونفاه إلى مسكة ، بعد أن ظل من أتباعه زمناً . ثم اتصل بالسلطان « ططر » قبل سلطنته ، ولبث في خدمته مدة ، ثم ترقى على يديه بعد أن أصبح سلطاناً . وقد عظم أمر « يشبك » في عهد الأشرف « برسبای » ، فاختاره أتابكاً لعسكره بعد « قبحي » الشعباني . فلبث حتى مات عام ٨٢٩ هـ . وما يذكر أن الملك الصالح « محمد بن ططر » ، تزوج ابنته . فلما مات عنها تزوجها

الأشرف د برسباى . . وكان د بشبك ، يحب الخير ويكثر من العبادة .

د ابن إياس ج ٢ ص ١٤ ، ٢٢ - الضوء ج ١ رقم ١٠٨٨ .

٢٥ - د بينغا المظفرى ، ٨٣٣ هـ

لعله هو أيضاً أحد الأتابكة الذين ظهروا فى عهد الملك المؤيد د شيخ ، الجمودى .
لأنه وقت أن تغلب الأمير برسباى الدقاقى على سلطنة الملك الصالح محمد بن ططر و أتابكة
جائى بك الصوفى ، كان هناك أتابك آخر على قيد الحياة وهو د بينغا المظفرى . . لذلك
اشتهر الأمراء عام ٨٢٥ هـ فى ربيع الآخر فبمن يولونه السلطنة : أبولون الأتابك
د بينغا ، أم يولون برسباى وقد كان برسباى إلى ذلك الوقت دودار كبيراً .
فتقدم د بينغا المظفرى ، وأثر بالسلطنة زميله د برسباى . . والحق أنه ما فعل إلا ما تقضى
به الحكمة . لأن د برسباى ، كان ذا قوة وشكيمة حادة حينئذ فلا يبعد - إن قبل د بينغا ،
السلطنة - أن يقفز عليه فى الغد ويتزعمها منه . فتقدمها إليه من أهون سبيل وأمن طريق ،
وحن لنفسه أن يبقى أتابك عسكرى هذه الدولة . وقد تم له ما أراد . فقد منحه برسباى
بعد سلطنته هذه المرتبة . أو بالأحرى استبقاه فيها . ويوصف د بينغا ، هذا بأنه طلق
اللسان شديد العارضة لا يعرف من العربية إلا قليلاً ، حاد الطبع سوء الخلق . لحالت هذه
أموهلات دون بلوغه مقصب السلطنة . ولم يرشحه لها الجند . وما يذكر هنا أن
د بينغا ، ظل قليل الحيلة ضيق السطوة أمام السلطان د برسباى ومن يثق فيهم من الأمراء .
إذ صار فى أول عهده صاحب الحل والعقد فى مصر المقر الزينى عبد الباسط بن القرشى
خليل ، ناظر الجيوش المنصورة . ثم صار بعده ملوك برسباى الأمير د جاني بك ، وهو
الذى اجترأ على أتابك العصر د بينغا ، المظفرى قتفاه إلى الإسكندرية دون علم
السلطان . - وذكر السخاوى فى الضوء أن د بينغا ، توفى عام ٨٣٣ هـ .

د ابن إياس ج ٣ ص ١٥ إلى ١٧ ، ٢١ ، ٢٦ ، ٢٧ - الضوء ج ٣ رقم ١٠٦ .

٢٦ - سودون الظاهرى ٨٤١ هـ

يبدو لنا أنه كان أتابكياً فى عهد د برسباى ، بعد د بينغا ، المظفرى . واسمه سودون
ابن عبد الرحمن ، وأصله من أتابك الظاهر يرقوق . وكان من خاصية . ثم ترقى فى عهد
الناصر فرج فصار من الأمراء المقدمين . ثم ولى نيابة غزة ، ثم ولى نيابة طرابلس

في عهد المؤيد شيخ . وما زال حتى اختاره الأشرف « برساي » للدوا دارية الكبرى ، ثم لنيابة الشام عام ٨٢٧ هـ عوضا عن تذك الجاسي . ثم نقل إلى مصر آتاكيا . ثم تقاعد بعد مدة وأرسل إلى دماط . فأت بها عام ٨٤١ هـ . وكان جليلا شجاعا حسن السياسة . وله مدرسة بمخاتاه سرياقوس ، أوقف عليها أوقافا .
 د الضوء ج ٣ رقم ١٠٤٨ ،

فرقاس الشعباني ٨٤٣ (١) هـ

أصله من ماليك الظاهر « برقوق » . ثم ملأه ابنه الناصر « فرج » ، فأعتقه وجعله خاصكيا . وورق دوا دارا صغيرا في عهد المؤيد شيخ . وما زال يرق ، حتى صار حاجب الحجاب . ثم نقل إلى نيابة حلب بعد قصوره . ثم اختاره السلطان الظاهر « جقمق » ، أتاكيا لمسكره في عام ٨٤٢ هـ ، ومنحه الإمرة الكبيرة . وكان « فرقاس » ، يطمع في السلطنة ، فأحب أن يحتال على سلطانه « جقمق » ، ويقبض عليه وهما يلعبان الكرة ، ثم يعلن نفسه سلطانا ، غير أنه لم يستطع ولم تجز حيلته . وقعت النفرة بين الرجلين ، ودارت رحى الحرب بين فريقيهما جهة الرملة . فانهزم « فرقاس » وهرب . ثم أرسل إلى السلطان يطلب الأمان ، فأمنه . فصعد عنده ، فقبض عليه وقيدته وأرسله إلى سجن الإسكندرية . وذلك عام ٨٤٢ هـ . ثم استطاع « جقمق » أن يثبت عليه كفرا ، وحكم عليه به قاضي قضاة المالكية « شمس الدين البساطي » ، ففرضت عنقه في السجن عام ٨٤٣ هـ .
 وقد عين في الأتابكية من بعده الأمير « أقبا » ، الترازى ، وهو الذي جمع بين الأتابكية ونيابة السلطنة . وكان آخر نوابها وقد ذكرناه في التواب : سم ظهر بعد « أقبا » ، الأمير يشبك السوردي .

د ابن لباس ج ٢ ص ٨ ، ٢٤ إلى ٢٧ — الضوء ج ٦ رقم ٧٢٩ ،

٢٨ — يشبك السوردي ٨٤٩ هـ

ظهر هذا الأمير في عهد السلطان « فرج بن برقوق » . وانحاز إلى جانب سلطانه في الفتنة التي شنها ضده الأمير « جكم » ، العوضي عام ٨٠٤ هـ . وكانت له يد في نصره السلطان عليه وقت قتاله . سم حسن اتصاله بالسلطان « ططر » . وما زال نجمة في صعود حتى

(١) يفهم من رواية السخاوي في الضوء أنه قتل عام ٨٤٢ هـ

صار في عهد الملك الظاهر جقمق ، العلائ أمير مجلس ، بعد أن لبث حاجب الحجاب زمنا . وفي سنة ٨٤٣ هـ نقل « أقبغا » التمرأى الأتابكي في عهد جقمق ، إلى نيابة الشام ، ووقع اختيار هذا السلطان على الأمير « يشبك » السودوقى ، فرقاه إلى الأتابكية عوضا عن « أقبغا » التمرأى . وكان « يشبك » قبيل العام المذكور قد عاون السلطان جقمق ضد الأتابكى « قرقاس » الشعبانى الثائر في وجهه . وما زال « يشبك » أتابكيا حتى توفي في عهد جقمق أيضا عام ٨٤٩ هـ . فتولى الأتابكية بعده إبنال العلائ ، الذى ملك البلاد بعد ذلك عام ٨٥٧ هـ ، وتلقب بالملك الأشرف . وذلك بعد خلع المنصور بن جقمق .
« ابن إياس ج ١ ص ٣٤٥ ، ج ٢ ص ٢٥ إلى ٢٩ — الضوء ج ١٠ رقم ١٠٨٩ » .

٢٩ — تانى بك البردبكي الظاهري ٨٦٢ هـ

أصله من ماليك الظاهر برقوق . وكان من الحصاصكية في عهد المؤيد شيخ ، وظل يمتد في حتى بلغ الأتابكية في عهد إبنال . وكان إبنال العلائ الأتابكى ، لما بلغ مرتبة السلطة عام ٨٥٧ هـ ، أقام في الأتابكية بدلا من نفسه ابنه المقر الشهابي أحمد — وهو الذى صار سلطانا بعد أبيه — فتذمر الأمراء من ذلك . فأسرع السلطان إبنال بخلع ابنه من الأتابكية ومنحها للأمير « تانى بك البردبكي » . الظاهري . قلبت في الأتابكية بخلال سلطنة إبنال . ولما تولى السلطنة ابنه الشهابي أحمد عام ٨٦٥ هـ ، أقام في الأتابكية الأمير خشقدم . وهو الذى صار سلطانا على مصر ، على أثر انكسار الملك المؤيد أحمد أمام النوار من المالك في العام المذكور . فلما بلغ خشقدم منصب السلطنة منح الأتابكية للقر السيني جرياش المحمدى المعروف بكركت .
هذا وكان « تانى بك » ، أو « تفيك » رجلا وقورا متدينا لينا . ومات في عام ٨٦٢ هـ بمقاربا التسعين .

« ابن إياس ج ٢ ص ٤٠ — الضوء ج ٣ رقم ١٧٣ في « تفيك » .

٣٠ — جرياش الجركسى المحمدى المعروف بكركت ٨٧٧ هـ

تنقل هذا الأمير في ثلاثة أنواع من الإمارة : اثنين في عهد سلطان واحد وهو « السلطان » إبنال ، العلائ . وهذه الإمارات هى : إمارة الآخورية الكبرى ، رقي إليها في أول عهد إبنال عام ٨٥٧ هـ . وفي أواخر عام ٨٦١ هـ . رقي إلى أمير مجلس . ثم ارتقى

في عهد الملك المؤيد أحمد بن إينال إلى أمير سلاح، عوضا عن الأمير «خشددم» الذي ارتقى إلى الأتابكية. وذلك عام ٨٦٥ هـ. ولما آلت السلطة إلى الأتابكي خشددم، خلع على الأمير «جرباش المحمدي»، ورفاه إلى الأتابكية عوضا عنه، عام ٨٦٥ هـ أيضا. غير أنه أسوء حظه أساق في أوائل عام ٨٦٦ هـ (١) إلى الإندماج في الثورة التي شنها المماليك الأشرفية - مماليك الأشرف برسبای - ضد السلطان خشددم فإن هذا السلطان قبض في مستهل العام المذكور على كثير من أمراء هؤلاء المماليك. فثاروا في وجهه وبحسوا عن متزعج يرأس حركتهم، فوقع اختيارهم على الأتابكي «جرباش المحمدي» فتمردوا عليه، وكان قد اختفى عن عيونهم في تربة الظاهر برقوق، فإلى التقيا به حتى سلاسيوفهم وأرغوه على الركوب معهم، ونشروا فوق رأسه أعلاما سلطانية ودخلوا به مدينة القاهرة من باب النصر. وكانوا يزعمون إلى سلطنته وخلع الملك خشددم، ولذلك لقبوه بالملك الناصر. فإكل من مماليك خشددم إلا أن أوقعوا بهم. ثم نلطف خشددم واستقدم إليه الأتابكي «جرباش»، بوساطة الأمير «جاف بك» المعروف بنائب جدة وهو الذي تحيل عليه حتى أصدده إلى السلطان. بالقلعة. ثم أوقعوا بالمماليك الأشرفية حتى شتوا شملهم وقبضوا على بعض متزعميهم. أما هذا الأتابكي فقد كانت الحادثة آخر عهده بالأتابكية إذ خلع منها. ثم قبض عليه ويحجن بدسياطة فلبث بها زمنا حتى آلت السلطنة إلى الأشرف قايتباي، فمضى بعض الأمراء لديه للإفراج عن هذا الأتابكي، فأفرج عنه في رمضان عام ٨٧٦ هـ (٢). وسمح له بالإقامة في القاهرة حاطلا، فبلغ القاهرة في أخريات العام المذكور، فإلى أن حضر حتى صنع إلى السلطان للتشرف بمقابله فذقيه لقاء حسنا وأكرمه. ثم عاش بعد ذلك زمنا متبطلا بالقاهرة، حتى وافته منيته في رمضان ٨٧٧ هـ مناهزا سن التسعين. وأصله من مماليك الناصر فرج بن برقوق. وقده تزوج بخوند شمراء بنت هذا السلطان، وقد ولدت له ابنة الناصري محمدًا. وقد توفي هذا الولد وأمه بعد قليل. وقد اشتهر بكثرة لكونه كثير الشعر. وولى الأتابكية بعده الأمير قائم التاجر.

١ — روى في الضوء اللامع ج ٣ رقم ١٥٢ في ترجمة «تمراز» القمسي أن هذه الثورة كانت عام ٨٦٩ هـ.

٢ — هذه رواية ابن رياح. ويظهر من النسخ أن السلطان «خشددم» هو الذي عفا عنه واستقله إلى القاهرة.

د ابن إياس ج ٢ ص ٤٠ ، ٦٠ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٨٧ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٢ ،
٢١٤ ، ٢١٥ — الضوء ج ٣ رقم ٢٧٠ .

٣١ — قائم التاجر المؤيدى ٨٧١ هـ

وهو ابن صفر خجا الجركسى المعروف بالتاجر . اشتراه المؤيد تيسخ ثم اعتقه وجعله من المماليك السلطانية ثم من الخاصكية . وظل يترقى ، حتى كان أمير مجلس فى أول عهد السلطان الظاهر خشقدم . ولما انساق الأتابكى جرباش المحدى فى ثورة المماليك الأشرفية ضد السلطان خشقدم ، كما تقدم فى ترجمته عام ٨٦٥ هـ ، ظهر نجم الأمير « قائم » ، وولى الأتابكية بعده . ثم ساد علاقته بالسلطان بعض الجفاء ، ولكن ذلك لم يدم . لأنه فى عام ٨٧٠ هـ ، أقام حفلا عظيما للسلطان خشقدم ، شهد به جمع من الأمراء والمماليك الجند ، وقام فيه اللاعبون بالعباب حتى عم السرور جميع المشاهدين . وما زال الأتابكى « قائم » فى منصبه ، حتى وافته المنية فى أوائل سنة ٨٧١ هـ ، إذ مات فجأة . وقيل إنه مات مسموما . وكان كثير المال ساعيا فى الخير معينا على قضاء الحاجج ، وقد ولى الأتابكية من بعده على التوالى « بلباى » المؤيدى ، ثم عمر بن الرومى ، ثم قايتباى المحمودى . وقد صار كل منهم سلطانا على التعاقب . فلما ولى قايتباى السلطة ، اختار لنائبته الأمير جاتى بك قفسير .

د ابن إياس ج ٢ ص ٧١ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ — الضوء ج ٦ رقم ٦٩٥ ،

٣٢ — جاتى بك قفسير الأشرفى ٨٨٣ هـ

أصله من ممالك الأشرف برسباى . وأخذ فى الترقى حتى صار حاجب الحجاب فى عهد خشقدم وأرسله هو وخمسة أمراء فى تجريدة إلى البحيرة . ثم هو وأزلك ابن طماخ إلى العقبة لتأديب عربانها أوائل سنة ٨٧٢ هـ . وقد وصل إلى مرتبة الأتابكية فى أول عهد السلطان الأشرف قايتباى المحمودى عام ٨٧٢ هـ . فلما خلعها السلطان عليه ، نزل من القلعة إلى منزله فى موكب حافل . ولما أخذ السلطان « قايتباى » فى إعداد حملة عسكرية ، يؤدب بها الشاه « سوار » بن دلفادر ملك الأبنستين ، الثائر فى وجهه ، والراحمف على بلاد السلطان ، كان الأتابكى « جاتى بك قفسير » فى مقدمة أمراء هذه الحملة ، فى يوم الاثنين ١٢ شعبان سنة ٨٧٢ هـ . ثم جاءت أخبار فى شهر ذى القعدة من هذه السنة ،

بأن عسكرها كسر كسرة شنيعة ، وأسر الأتابكي «جاني بك قلعسير» ، وقتل جماعة من الأمراء والجند كثيرة . وعادت البقية الباقية منها في حالة يرثى لها . وكانت هذه الكسرة في يوم الاثنين ٧ من ذى القعدة . ثم إن «سوارا» سجن الأتابكي «جاني بك قلعسير» في جب ، فلبث فيه أياما ثم أطلق سراحه . ولكن هذا الأسر كان سببا في زوال منصب الأتابكية منه ، إذ وهبه السلطان للأمير «أزبك بن ططخ» . فكأن الأتابكي «جاني بك قلعسير» لم يمكث في منصبه هذا سوى شهرين تقريبا .

رما أطلق سراحه رحل إلى حلب مكرما . وكان إطلاق سراحه ضربا من السياسة ، اتبعه «سوار» وأراد من ذلك ، أن يكون سفيها بينه وبين السلطان للصلح . فلبث «جاني بك» زمنا في حلب ، إلى أن تهيأ لرحيل إلى مصر . ويظهر أن السلطان كان قد شك في نواياه . ولذلك أرسل إليه يستبقيه في حلب . غير أن أمر الاستبقاء لم يصل إلى حلب ، إلا بعد أن فارقه «جاني بك» في طريقه إلى مصر . وحضر في جمادى الأولى من سنة ٨٧٤ هـ . فبعد إلى القلعة ، وتشرف بلقاء السلطان الأشرف ، فقام له ودعاه وأكرمه ، وخلع عليه وأهدى إليه . ثم بعد أيام منحه لقب أمير سلاح ؛ لأنه كان اللقب الشاغر في ذلك الحين . ولكنه أقل من مرتبته التي يستحقها . ومع ذلك فقد بقيت له حرمة . فتاب على الأتابكي «أزبك بن ططخ» في فتح السد في العام المذكور ، لغيا به عن القاهرة في ذلك الحين . وتدخل — عام ٨٧٧ هـ وفي شهر المحرم منه — بين الأتابكي «أزبك» والأمير «تغرى بردى ططر» بسبب نزاع شب بينهما . ولبت بمصر مرعى الجانب موفور الكرامة ، حتى رأى السلطان الأشرف قايتباي أن يجرّد حملة تأديبية إلى «حسن الطويل» ملك العرافين ، بسبب إغاراته على بلاد السلطان . فجهز هذه الحملة في جمادى الآخرة عام ٨٧٧ هـ . وكان الأمير «جاني بك قلعسير» على رأس الأمراء بها . فسارت إلى حلب مسرعة . ثم ألحقها بحملة أخرى . وفي خلال إقامة «جاني بك» بالشام أرسل السلطان إليه خلفة ، وأمره بأن يبقى نائباً في الشام عرضاً عن نائبها المتوفى ، وهو برقوق الناصري الظاهري . وذلك في شوال من العام المذكور . فظل «جاني بك» في هذه النيابة زمنا طويلا ، وتولاها بمجدارة وكفاءة . وفي ربيع الأول من سنة ٨٨١ هـ أرسل هدية إلى السلطان الأشرف ، كان في جملتها عشرة آلاف دينار من الذهب وأنواع شتى من المنسوجات الثمينة . وما زال «جاني بك قلعسير» في هذه النيابة ، حتى وافته منيته

في شهر ذى الحجة عام ٨٨٣ هـ . بعد أن تولى مناصب عنيًا شتى . وكان معروفًا بالشجاعة والفروسية والكفاية التامة لما يعهد إليه من الأعمال .

« ابن الأثير ج ٢ ص ٧٩ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٢ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٦٦ ، ١٨٥ — الضموج ج ٣ رقم ٢١٩ » .

٢٣ — أذربك بن ططخ ٩٠٤ هـ

أحد أجلاء الأمراء ، وذوى الأثر والاسم الباقى منهم . وكان ميدان ظهوره عصر السلطان الأشرف قايتباى . ولبت فى الأتابكية بمصر ثلاثين عاما . قام بمهامها بمهارة وقدرة . وهو منشىء الأتابكية ، وتتلخص سيرته فيما يلى :

يقال إن أصله من الممالك الكتائية ، الذين اشترام السلطان الأشرف « برسباى » ، وقد جلبه إليه الخواجا « ططخ » من بلاد جركس وكان مرافقا ، فاشتراه « برسباى » عام ٨٤١ هـ . قيل : ثم تحول ملكه إلى بيت المال . فاشتراه منه الملك الظاهر « جقمق » وأعتقه ثم رفاه ساقيا فأمره عشرة فى عام ٨٥٢ هـ بدلا من تمران البكستمرى المصارع ، ثم جعله من ردوس النواب . وزوجه ابنته من مطلقته « خوندمغل » ابنة ناصر الدين ابن البارزى . — وتزوج أختها عام ٨٧٠ هـ بعد وفاة زوجها . وفى أوائل عهد الأشرف إينال كان خازندارا كبيرا . ثم إنه كان فى عداد الأمراء الذين سخط عليهم هذا السلطان ، لأنه انتزع السلطنة من الملك عثمان بن جقمق . وكان الأمير « أذربك » منحازا — ولاشك — إليه مع المنحازين . لذلك لما تم أمر « إينال » العلائى فى السلطنة قبض على عدد من الأمراء كان من بينهم الأمير « أذربك بن ططخ » ، وذلك عام ٨٥٧ هـ . وبجئ الجميع مقيدى بسجن الاسكندرية ثم نقل إلى صفد ، ثم أطلق سراحه بعد حين عام ٨٥٨ هـ . وأرسل إلى القدس عاطلا . ثم عاد بوساطة زوجته والجرالى ناظر الجناح عام ٨٦١ هـ وتقلبت به الأحوال حتى صار رأس نوبة النوب فى عهد الظاهر « خشقدم » . ثم غضب عليه « خشقدم » قننى مع تمرينا الظاهرى — الذى ملك بعد — بسجن الإسكندرية ، حتى شفع فيها الأتابكى قانم التاجر ، فأفرج عنهم بعد ٣ أيام . ثم اختير فى عام ٨٧٢ هـ ، لى يخرج إلى القلعة هو والأمير جاني بك قلغسير بسبب فساد عربانها . فقام بهذه المهمة . ثم عاد بعد

وفاة الملك « خشمق » ، وقيام سلطنة الظاهر « بلباي » . فكان في صحبته نحو ستين من
الهربان أسرى في الأغلال فأمر « بلباي » بقتلهم فقتلوا . واتضح أن « أزيك » قد بلغ
في رحلته هذه إلى الأزم .

وما حان عصر الأشرف « قايتباي » حتى أخذ نجم الأمير « أزيك بن ططخ » في
الصعود . فمضى نائباً على الشام — وقيل عين على الشام قبل ذلك — . وفي ذلك الحين
— أعنى في عام ٨٧٢ هـ — قامت فتنة الشاه « سوار » ملك الأبلستين ضد السلطان
لمجرد له حملة عسكرية قادما أتابكيه « جاني بك فلسقية » ، وكان نصيبها الفشل وأسر قائدها .
خلال ذلك منصب الأتابكية بمصر ، فنحى السلطان قايتباي الأمير « أزيك بن ططخ »
واستبدله من الشام على وجه السرعة ليتولاه .

وما يذكر هنا أن « أزيك » كان قد اشترك في الحملة ضد « سوار » وانهمزم مع
المنهمزين ، وعاد إلى حلب جريحاً لا مال معه ولا سلاح ولا جند . فلما أسند إليه السلطان
منصب الأتابكية ووافقه الرسل بذلك في المحرم عام ٨٧٣ هـ ، زعم رحله ويم شطر مصر ،
فبلغها في صفر من هذا العام . فظل في هذا المنصب نحو ثلاثين سنة من عام ٨٧٣ هـ إلى عام
٩٠٤ هـ ، وهو مثال العمل الدائب والمجهود المستمر . ما عدا نحو عامين قضاهما في مكة .

خرج في سنة ٨٧٣ هـ إلى البحيرة ، ليطلق فتنة عرباتها ، فأقام بها ردها من الزمن .
ثم عاد في رجب ، وفي الإخلال غيبته — وكان السلطان قد أرسل حملة أولى لتأديب
« سوار » — ثم بتجهيز الحملة الثانية ، فاختار أتابكيه « أزيك » ليكون قائدها .
فلما عاد « أزيك » ، أظهر إباءه عن قيادتها . بسبب قلة ما أعطى من المال خاصة به ،
وبسبب نفوره من « مالك السلطان » . فزال « قايتباي » يتلطف به حتى أجابه إلى
السفر ، وقبل ما أعطى من المال . فخرج بمجته في شعبان من العام نفسه ، وودعه السلطان
قبيل رحيله . وقد ذكرنا أن « أزيك » كان قد تزوج بأخت الملك المنصور « عثمان »
وهي بنت الظاهر « جشمق » . لذلك كانت له مكانة ممتازة بين الأمراء .

أما الحملة التأديبية التي قادها ضد « سوار » فقد كان نصيبها الفشل والانكسار ، فأقام
بعدها بحلب مدة ، ثم عاد بمن بقي من الأمراء والعسكر ، وفي صحبته شاه « بضاع » أخو
سوار ، الذي اقترح منه سوار بلاده فقتلهم السلطان لقاء حسناً . وكانت عودة « أزيك »
في رمضان عام ٨٧٤ هـ . وفي آخريات عام ٨٧٦ هـ ، دعاه السلطان مع عدد من الأمراء .

على رأس نجريدة لتأديب عرب الشرقية ، من بني حرام وبني وائل ، الذين زاد عبثهم ، وجروا في اعتدائهم على الناس ، حتى وصلوا إلى أحياء من القاهرة نفسها ، ونهبوا كثيرا من المتاجر والأقشة . فرحل إليهم « أذربك » ومن معه من الأمراء . ثم لأنه عاد إلى القاهرة بعد عدة أيام ، ومعه بعض الأسرى فسجنوا بسجن المقرنة . أما الأمراء الآخرون فقد بقوا زمنا آخر في الشرقية ، للقضاء على فتنة هؤلاء العربان . وقد عاود الأتابكي « أذربك » الذهاب إلى الشرقية ، ثم عاد ومعه عدد آخر من الأسرى مصفين في الأغلال . وذلك في صفر سنة ٨٧٧ هـ .

وظل الأتابكي « أذربك » يقوم بهام كثيرة مما تحتاج إليه الدولة : سياسة أو إدارة أو بناء أو غير ذلك . فكان هو المقدم عند كسر السد نيابة عن السلطان وكان يصحبه كثيرا في حفلاته الرياضية . ويعمل على الصلح بينه وبين ممالিকে السلطانية ، إن بدامنهم له صهيان . أو بين بعض الأمراء والبعض الآخر أو يتوسط لدى السلطان شفيعا لبعض المذنبين . أو يقوم بهتدة فتنة يثيرها بعض الأمراء أو الجند . أو يستشير السلطان في الأمور الهامة . وهكذا . وفي هذا كله دليل على ما كان له من علو الجاه ، نافذ الكلمة ومسموع الرأي .

وفي شهر رجب من عام ٨٨٠ هـ ، رحل السلطان الأشرف قايتباي إلى القدس صحبه الأتابكي « أذربك » ، فدبرا هناك ما اقتضى التدبير ، وعادا في شعبان هما ومن معهما . وفي ذى القعدة من نفس العام ، رحل رحلة أخرى بصحبة السلطان أيضا لزيارة الفيوم ، فزارا هناك طاحونا تدور بالماء أنشأها خاير بك بن حديد أحد أمراء مصر .

إنشاء الأزبكية

وفي العام المذكور « ٨٨٠ هـ » بدأ الأتابكي « أذربك » لإنشاء الأزبكية ، وقد أورد ابن لباس وصفا شائقا لها ، نجمله فيما يأتي . قال : « كانت أرض الأزبكية خربة ممثلة بكتب من الرماد ، ينبت بها بعض أشجار السنط والأثل ، وبها أضرحة بعض الأولياء . وتزارها بعض المصلحين بضروب من الإصلاح ، فأجرى إليها الماء ، بوساطة خلجان تمتد من النيل ، وأنشأ بها المناظر والبساتين ، وما شابه ذلك . ثم عفى الزمان أثرها وعادت إلى خرابها ، وتناقص عمرانها . وما زال هذا أمرها ، حتى سكن الأتابكي « أذربك » ،

على مقربة ولم تكن أرضها ملكا له ، وإنما كانت من أملاك الدولة ما يخرج منها من ثمار يعود على الناس . ولكن ، الأتابكي « أزيك » رأى أن يجري إليها أسباب الحياة ، ويبد لها ضروب العمران ، فاستخار الله وأتفق عليها نحو من مائتي ألف دينار . فهدأ أرضها بواسطة المحاريث ، وأنشأ مناخا لجلاله ، ثم حفر بركة وجل شواطئها ، وأجرى إليها الماء بواسطة خلجان . وبني فوقها القناطر ، ونشر حولها المقاعد ، وأحاطها بالبساتين وشاد العمار والربوع والحمامات والقاعات والطواحين والأفران ، وضروبا كثيرة من مرافق الحياة . حتى غدت الأزيكية أحد منازة القاهرة . وتكسر سدود خلجانها كل دأب في حفل ، يحضره الأمراء والأعيان ، ويجتمع فيه الناس لمشاهدة اللهو والسمر . وما أنشأ فيها مسجد كبير . وقد وهب السلطان أرض هذه الأزيكية ، الأتابكي « أزيك » بعد تمام هذه الجهود في إنشائها . وقال السخاوي في الضوء : إنه أبقى بها جامعا عظيما ، قرر به صوفية ومدرسين وقرآء ، وزوده بمخازن كتب .

وفي أخريات عام ٨٨٣ هـ ، عهد إليه السلطان ببناء قناطر في ناحية الجيزة . وقد تم بناؤها في شعبان عام ٨٨٥ هـ فنحه السلطان هدايا قيمة . وفي جمادى الأولى من عام ٨٨٤ هـ سافر في صحبة السلطان الأشرف إلى الإسكندرية لتفقد شملونها . وكان سفرهما بطريق النيل ومعهما عدة من الأمراء والجنود . وشاهدوا البرج الذي أنشأه السلطان بها . وعاد الجميع في أخريات الشهر المذكور . ولما سافر السلطان الأشرف إلى الحج عام ٨٨٤ هـ ، كان الأتابكي « أزيك » هو صاحب الحل والعقد بالديار المصرية مدة غيبته . وبما رآه الأمير « يشبك » الدوادار . ولما عاد السلطان من حجه فرّق أنواعا من الهدايا على الأمراء . وابتدأ في ذلك بالأتابكي « أزيك » .

وفي عام ٨٨٥ هـ قتل الأمير « يشبك » الدوادار في معركة حامية وقعت بينه وبين دبا بندر أحد نواب يعقوب بن حسن الطويل ملك العراقيين . وكان يشبك قد خرج في جند كثيف من مصر بأمر السلطان ، في طلب الثأرين على مملكتاته ، لاسيما « سيف » أمير آل فضل قتل نائب حماة . فكان حينه في ذلك الخروج . وبأنه زامه انتشرت الفوضى في البلاد الشامية والحلبية ، حتى خاف السلطان عاقبتها . فأرسل إليها توأ ، الأتابكي « أزيك » لإعادة الأمن إليها في عدد كثيف من الأمراء والجنود . وقوض إليه أمر البلاد الشامية والحلبية ، ووكّل إليه حتى العزل والولاية في كل مناصبها كما يشاء . فبلغ

« أزيك » في ذلك الوقت ماشاء ، من عظمة وعلو جاء . ولما وصل إلى حلب ، وجد أن الفتنة قد ركبت . فأرسل رسولا إلى « يعقوب » بن حسن الطويل ملك العراقيين ، تطف منه ليطلق من عنده من أسرى المصريين ، فأطلقهم وعادوا مع رسوله إلى حلب . فكان ذلك نصرا مبيتا للأتابكي « أزيك » وظل هناك يدبر أمر الملك ويثبت قاعدته . ثم عزم على العودة إلى مصر ، قبلتها في شوال سنة ٨٨٦ هـ ، ودخل القاهرة في موكب حافل .

وفي شوال عام ٨٩٠ هـ خرج الأتابكي « أزيك » على رأس حملة عسكرية كبرى لتأديب جنود ملك الترك العثمانيين ، العائين بأطراف بلاد السلطان ، ولتأديب « على دولات » الشارض السلطان أيضاً . فأوقع « أزيك » بأعداء السلطان ، وعاد معه منهم جم غفير ، مصفدين في الأغلل . ولولا عصيان جنده له مرات عدة بسبب الإنفاق عليهم ، لكان له شأن أعظم مما وقع وكانت عودته حافلة في ذى القعدة عام ٨٩١ هـ فوهب له السلطان خلعا سنية .

وفي شهر جمادى الآخرة من سنة ٨٩٢ هـ ، تم عقد زواج الأمير « قانصوه خنسمائة » — وهو الذي كاد يكون سلطانا على مصر عام ٩٠٢ هـ — على ابنة الأتابكي « أزيك » من ابنة الظاهر جقمق ، وذلك بجامع القلعة وبحضور القضاة الأربعة وأعيان الناس . وقد أهدى السلطان إليهم . وفي شهر رجب التالى تمت ليلة زفافهما في الأزيكية . وكان لقانصوه « وكب حافل » تقدمته الأمراء بالملايس العاخرة والخاصكية بالشموع . وحمل الأتاك من الأزيكية إلى قناطر السباع حيث بيت « قانصوه » نحو أربعائة حمال . ويقال إن ثمنه نحو مائتي ألف دينار . — وهذا كله دليل على ما بلغه الأتابكي « أزيك » ، من علو جاه واتساع ثروة . — هذا وقد توفيت هذه العروس في جمادى الآخرة عام ٨٩٧ هـ وبعدها بأيام توفيت أختها بكرا . —

وفي هذه الأثناء ازدادت الترك العثمانيين بأطراف الدولة ، فجرد عليهم الأشرف قايتباي حملة عسكرية كبرى ، فافت الحملة الأولى ، بل قاقت ما سبقها من الحملات : وكان على رأسها الأتابكي « أزيك » ، ومعه طائفة كبيرة من عظماء الأمراء بينهم صهره « قانصوه خنسمائة » . وأنفقت عليها نفقات طائلة وخرجت هذه الحملة من القاهرة في جمادى الآخرة سنة ٨٩٣ هـ . وقد أبلت بلاد حسنا في مكالحة العثمانيين ، وغنمت

عنهم الغنائم وأسرت الأسرى ، وساقهم إلى مصر . وقد عاد الأتابكي « أذربك » من حربه تلك ، في صفر سنة ٨٩٤ هـ . فكان لعودته وقع عظيم في نفوس الناس . وقد خرج إلى حلب مرة أخرى لمثل الغرض السابق ، فكان خروجه بحملته الجديدة في ١٥ ربيع الثاني عام ٨٩٥ هـ . وأبلاوا بعض البلاء في محاربة العثمانيين ، ثم دبت فيهم الفتن . فعادوا إلى القاهرة . وكان رجوع الأتابكي « أذربك » من حربه تلك في مستهل المحرم سنة ٨٩٦ هـ . وهذه آخر تجاريدته إلى البلاد الحلبية .

وقد تفرغ الأتابكي « أذربك » ، بعد ذلك لأعمال البناء والتعمير سواء ما اتجهت إليه رغبة السلطان أو ما اتجهت إليه رغبته . من ذلك ما أمر به في جمادى الآخرة سنة ٨٩٩ هـ من تجديد عمارة المدرسة المنصورية التي بدهليز البهارستان ، وضرب على الفسقية التي بها قبة ، وجدد بها منبرا ، وأقام خطبة . وهذه أعمال جاريها من قبله الأتابكي « إيتشم » البجاسي في دولة الناصر فرج ، فتعذرت عليه بسبب فتوى بعض العلماء ، بدعوى مخالفتها لشروط الواقف . ولكن « أذربك » تغلب على مثل هذه الفتاوى . وما يذكر هنا أن الأتابكي « تمتاز » قد أبطل الخطبة منها بعد خلع « أذربك » من الأتابكية . فلما قتل « تمتاز » وأعيد « أذربك » إلى الأتابكية أعاد الخطبة إليها مرة ثانية ، فاستمرت بها زمنا طويلا .

ومما يذكر أنه منذ توليه منصب الأتابكية ، كان المقدم في فتح السد كل عام . ولم يفتحه سواء إلا إذا كان غائبا في تجريدة خارج مصر . ثم لأنه فتح السد في ذى القعدة سنة ٩٠٠ هـ ، وكانت هذه آخر مرة له في فتحه .

وفي يوم الخميس مستهل ذى الحجة من عام ٩٠٠ هـ ، بدأت جاذبة فتنة تزعمها « قانصوه خسمائة » ، وانحاز إليه الأتابكي « أذربك » ، لأنه صهره . وسبها أن بعض المالك نهب دار الأمير « قانصوه خسمائة » في أثناء تغيبه ليلة عيد الفطر بإقطاعه . ففهم أن الذي ساقهم عليه هو الأمير « أوبردى » الدودار ، لعداوة قديمة بينهما . فجمع حوله عددا ضخما من الأمراء والجنود ، ولبسوا آلة الحرب ، واجتمعوا بالأزبككية عند الأتابكي « أذربك » ، فا كان من السلطان الأشرف إلا أن نادى الجنود إلى الاستعداد للقتال ، ففتت في ساعد أنصار « قانصوه » و « أذربك » ، وتفرقوا واختفى منهم من اختفى . ففرد « قانصوه » واختفى . وكان ذلك انتصارا كبيرا لعدوه « أوبردى » الدودار .

وعصايتيه . أما « أزيك » فقد استقدمه السلطان إليه بالقلعة ، وأمره بالإقامة بها في قاعة البحر ، خوفا عليه من الممالك الجبلان أن يقتلوه . فلبث أسبوعا ، ثم خرج مع السلطان في صلاة الجمعة فتحضر له كثير من الممالك وهموا بالبطش به ، ولكن السلطان حماه . فرأى « أزيك » أنه لم تعد تطيب له الإقامة بمصر ، وسط هذه العاصفة الموحشة ، التي هبت ضده على حين غفلة . واستأذن السلطان في أن يقيم بمكة المكرمة ، فأذن له . فزاول القاهرة في ركب غير حافل في ٨ ذى الحجة من العام المذكور . وانتهت بذلك أتابكيتته الأولى ، بعد أن مضى فيها نحو من سبع عشرة سنة ، بلغ فيها من العز والجاه ، ما رنت إليه عيون الكثيرين من العظماء ولم يبلغوه . ثم زایل كل شيء مزيلة لجائية لأسباب نافذة . فتغلبت الأحوال ، بعد أن غادر الأتابكي « أزيك » مسرح السياسة المصرية وترك الأتابكية . فتوفي الأشرف قايتباي وملك ابنه الناصر محمد . وبلغ « قانصوه خمخانة » منصب الأتابكية ، ثم زایلها فعادت إلى « تمرز » واشتدت القتنة بين « قانصوه » و « أبردى » . وأعلن « قانصوه » بنفسه ملكا على مصر ، ثم فشل في حركته وأدت ثورته هذه إلى اختفائه . ثم ظل « تمرز » في الأتابكية حتى قتله بعض الممالك في أخريات سنة ٩٠٢ هـ . وفي عام ٩٠٣ هـ ، شعر جميع الأمراء بحاجتهم إلى أتابكي قدير ، وانفق رأيهم على استدعاء الأتابكي « أزيك » من مكة ، ليلى منصب الأتابكية بمصر للمرة الثانية . فكتب السلطان الناصر محمد بن قايتباي ، مرسوما بذلك في أوائل العام المذكور . فعاد « أزيك » إلى القاهرة في يوم الخميس ٢٢ ربيع الأول من العام نفسه ، فبفتح السلطان الناصر منصب الأتابكية ثانية . وكانت مدة غيابه بمكة نحو ستين وثلاثة أشهر . غير أنه في هذه المرة لم يعد له من الجاه أو الكلمة المسموعة أو الشفاعة المقبولة ما كان له في المرة الأولى . ومع ذلك كان له أثر لا بأس به في تهدئة الفتق وقض المؤامرات ، التي كان يقوم بها الممالك ضد السلطان الناصر محمد بن قايتباي .

ولما قتل هذا السلطان في ١٥ ربيع الأول عام ٩٠٤ هـ ، اضطرب الأمر على الأمراء وجاروا فيمن يولونه السلطنة ، واتجهت رغبة بعضهم إلى ساطنة الأتابكي « أزيك » ، وفأوضوه فعلا في ذلك . فأبى إياه شديدا ، وأقسم ألا يكون سلطانا ، ولا يذهب إلى حكمة ويمجورها فيها كما كان . ولعله خاف عاقبة السلطنة ، إذ رأى حولها كثيرًا من الخلل والاضطراب فيها والطامعة في نواها . فربما بنفسه عن مساوئها ومؤامراتها . قالت

السلطنة إلى الأمير « قانصوه بن قانصوه » خال الناصر ، وظل « أذربك » مستمرا في أنابكيتيه ، إلى أن توفي في عهد السلطان قانصوه المذكور . وكانت وفاته في يوم الأربعاء ٢٠ رمضان سنة ٨٩٠ هـ .

وبذلك انتهت حياة أحد أبطال هذا العصر . ويقال إنه كان إلى جانب نفوذه وجاهه « يشوبه كبر وبغض » . ومع ذلك فهو يعتبر أحد المصلحين المنشئين . والقائمين بالناشرين . لزاء مصر في الربوع الأخرى . وقيل إنه ترك من ورائه مالا طائلا . وقد دفن بقرية : أستاذة الملك الظاهر جقمق ، وله ابن يدعى شرف الدين يحيى أقام في حماة زمنا طويلا ثم عاد لمصر . وتولى الأنابكيتيه من بعده الأمير جان بلاط وهو الذي بلغ رتبة السلطنة فيما بعد . وفي الفترة التي هاجر فيها « أذربك » إلى فكة أسندت الأنابكيتيه إلى « تمرآز » ثم « قانصوه » خسمائه كما ذكرنا .

« ابن الخيام » ج ٢ ص ٢٥ ، ٤٠ ، ٨١ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، إلى ١٣٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، إلى ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٨٢ ، ٢٨٨ ، إلى ٢٩١ ، ٣٠٧ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٤٣ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٥ ، ج ٣ ص ٧٧ — الضوء الجامع ج ٢ رقم ٨٤٤ هـ .

٣٤ — الأمير « تمرآز الشمسي » ٨٩٠ هـ

قدم إلى مصر فجاله عام ٨٣٦ هـ ، ثم صار من ممالك الكشرف برسباي . لذا يقال له الأشرف نسبة إليه ، ويقال له أيضا العزيز نسبة للعزيزين الأشرف برسباي فهو معتقه . ثم أمانه على حياته الحرة . وغين جدارا . وفي عهد الأشرف إبنال صار خاصكيا فسايقا ثم أمير عشرة . وفي عهد الظاهر خشدقم انضم مع الأنابكي « جرباش كرت » الحمدي . عند سلطانه ، وذلك عام ٨٣٩ هـ . فاستحق التقي إلى دمياط . وفي عهد الظاهر تميزا عاد إلى القاهرة سنة ٨٧٢ هـ . وفي عهد الأشرف قايتباي عيّن له نائبا بالسلطان ، إلا أن التقي أحده أحد أقاربته سنة قبل إله ابن أخيه — . لهذا رماه إله قدم ألف . وسافر

مع الحملة ضد «سوار» ثم صار رأس نوبة كبيرا ، ثم أمير سلاح ، وولى أمر البحيرة فخدمت سيرته ، ورأس حملة ضد «على دولات» ، فبلى بلاء حسنا . ولما انحاز الأتابكي «أزيك» إلى زوج ابنته الأمير «قانسوه خمسانة» ، في قتته ضد السلطان الأشرف والأمير «أفردى» ، انحاز «تمراز» إلى السلطان . وكان من نتيجة ذلك ما ذكرنا من نفي الأتابكي «أزيك» إلى مكة ، فقام نصب الأتابكية فوجه السلطان للأمير «تمراز» وكان ذلك في يوم الاثنين مستهل صفر عام ٩٠١ هـ . وبعد ذلك بأيام عينه السلطان أيضا اطرا على الجيارستان المنصوري .

وفي شهر ذي القعدة عام ٩٠١ هـ . أيضا ، اعزى المرض السلطان الأشرف . فانهز الفرصة الأتابكي «تمراز» ، وعاطبه في أن يخلع نفسه من الملك ليتولاه ابنه محمد ، فلم يطاوعه السلطان ولم يرد عليه جوابا . فاستصحب معه ابن السلطان وم يتوليته . وأشيع حينذاك أن الأتابكي «تمراز» يرشح نفسه للسلطنة . فغضب جماعة من الأمراء من بينهم «قانسوه خمسانة» و «كرتباي الآخر» ، وحملوا عليهم ودفعهم إلى قتاله . ثم قبضوا عليه ، وقيده بفسوة ، وبعثوا به إلى بجن الإسكندرية .

توفي الملك الأشرف قايتباي ، عقب ذلك بأيام قليلة ، وتولى أريكه الملك ابنه الناصر محمد ، ففتح الأتابكية «قانسوه خمسانة» . وهو الذي دبر ثورة ضد الأشرف قايتباي من قبل . فالبث هذه المرة حتى دبر مؤامرة وثورة جديدين ، ضد سلطانه الناصر ابن قايتباي ، وأعلن بنفسه سلطانا على البلاد . ولكن هذه الحركات كانت عاقبتها الفشل التام ، فاختفى «قانسوه خمسانة» ، وخلا منه منصب الأتابكية ، وذلك في جمادى الأولى عام ٩٠٢ هـ ، فرأى السلطان الناصر بن قايتباي ، أن يفرج عن الأتابكي «تمراز» ، ويعيده إلى منصبه . فأصدر مرسومه إليه بذلك في مستهل جمادى الآخرة من العام المذكور . ومن الغريب أن «قانسوه» لما اختفى قيل إن الأمير «قانسوه» الشامي ، وهو من عصبته ، توجه مع آخرين إلى الإسكندرية ليقول «تمراز» في بجنه ، مستعينا في ذلك بنائب الإسكندرية ، لأنه أخو «قانسوه» خمسانة . ولكن غاب مسعاه ، إذ لجأ في الطريق هو ومن معه جماعة من العربان أنحنوا فيهم ، وقبضوا على «قانسوه» الشامي . وأودعوه بسجن الإسكندرية حيث كان «تمراز» ..

وفي الشهر المذكور عاد «تمراز» إلى القاهرة ، فلقبه السلطان لقاء كريما ، وأعادته

إلى الأتابكية . غير أنه مالبث غير قليل ، حتى شعر بحركة ضده ، يقوم بها بماليك « قانصوه خمساته » وغايتها قتله . فأمره السلطان بأن يقيم بالقلعة ، محافظة على حياته . فأقام في الجامع الصغير ، داخل « الحوش » السلطاني عدة أيام ، ثم ظهر « قانصوه خمساته » وحاول إضرام فتنة جديدة ، فاستطاع « تمرز » حينئذ أن يترك مكانه ، ويسير وفي ركبه جماعات عدة من المماليك الجلبان الحاققين على « قانصوه » ليقتلوه عليه ، وكان متحصنا بالأزبكية في منازل صهره أذربك ، فلما شعر « قانصوه » بذنوبهم ، لاذهو ومن معه بالفرار . وبعد ذلك سمح السلطان للأتابكية « تمرز » بأن يعود إلى داره .

ويبدو لنا من تتبع سيرة حياته هنا ، أن نفوذه صار متقلصا ، وأن هناك من أمراء عصره من أصبح له نفوذ فوق نفوذه ، وجاء فوق جماعه ، وعصية فوق عصيته . لذلك لم يكن غريبا منه أن ينضم إلى الأمير « أقبردى » الدوادار ، حينما قام بشور ضد « قانصوه » خال الملك الناصر محمد بن قايטباى في عام ٩٠٢ هـ في شهر ذى القعدة ، وقاؤه قتالا عنيفا استمر إلى أواخر ذى الحجة . فلما انكسر وهزم ، فر إلى بلاد الشام هو وعصايت . أما الأتابكي « تمرز » فقد كان قبيل ذلك مريضا ، فلم يشعر بانكسار « أقبردى » حليفه في حينه . فأرسل « أقبردى » إليه يستدعيه للهرب معه ، فأبى عليه ، فتركه ويمم إلى بلاد الشام . وبقي « تمرز » بمصر ، فقبض عليه وأقيد إلى القلعة . وبينما هو في طريقه لقيه عدد من مماليك أعدائه فجروا رأسه ومثلوا به ، والذي تقدم لقتله منهم بملوك يدعى ذرديك « الأشقر » من أرادهم . ثم دفن في تربة الأشرف قاييتباى . وكانت قتلته في ذى الحجة عام ٩٠٢ هـ . وكان أميراً دينيا مهيبا كثير البر . توفي في العقد الثامن من عصره . وكان له طمع في السلطنة حتى كان إذا سأله أحد إنجاز وعد ، أو تعلق به بأمل ، صابره ويقول « اصبر علينا حتى يمضى وقتها » وكان متوددا للعلماء برا بالفقراء . وقد تزوج عدة مرات : تزوج « ملاكباى » ابنة قرقاس فانت عام ٨٧٩ هـ . فتزوج ابنة الملك المنصور ابن الظاهر جعقم بركرا ، فولدت له بنتا لم تعش طويلا ، ثم مات زوجها هذه ، فتزوج عام ٨٨٧ هـ ابنة الأمير « دجانم » الأشرفي نائب الشام بركرا ، فولدت له .

« ابن لإياس ج ٢ ص ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، إلى ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ،

٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ . - الضوم ج ٣ رقم ١٥٢ .

٢٥ - قانصوه خمساته الأشرفى بن طراباى ٨٩٠٢ هـ

أمير من عظماء الأمراء ، ومن ذوى الأطلاع الكبرى . حدثته نفسه بانزعاج السلطنة من صاحبها ، فانزعجها ثلاثة أيام ، وتلقب بالملك الأشرف . ولكن سلطنته لم تكن إلا كرويا الحالم . ويقال إن أصله من المماليك الكتابية ، الذين ابتاعهم الملك الظاهر خشمقدم ثم آل ملهكه إلى الأشرف قايتباى فأعتقه فيمن أعتق . ومن ثم ظل يتقلب في مناصب الدولة حتى بلغ أرقاها . وقد اختير أميراً للركب الأول الحاج عام ٧٨٧ هـ . وهو أحد المومنين بإشعال نار الفتنة والاثتار ، وأحد الذين رموا بأنفسهم في محيط الحروب الأهلية ، التى جرت بين المماليك فى خلال دولتهم الثانية ، ليصل من وراء ذلك إلى ما تصبو إليه نفسه من أمل .

ويبدو أنه كان محبا للزراع والشعاب منذ نشأته ، حتى مع جيرانه الأذنين . فقد حدث فى عام ٨٨٣ هـ ، وفى شهر ربيع الأول منه ، أنه أنشأ بعض الأبنية فى جهة قناطر السباع بالقاهرة ، فاقطع فى سبيل ذلك بعض أشجار جاره ، وفتح فى ناحيته بابا بغير حق ، مما اضطر هذا الجار ، وهو المدعو الشهابى أحد بن أسنبغا الطيار ، إلى شكايته إلى السلطان الأشرف قايتباى ، فانتصف له منه ، مع أن « قانصوه » كان فى ذلك الحين من أخصاء السلطان .

وفى ربيع الأول من عام ٨٨٤ هـ ، منحه السلطان الأشرف قايتباى الدوادارية الثانية . وفى الشهر نفسه أصلح الأمير « بشبك » الدوادار الكبير بين « قانصوه خمساته » والأمير « جانم » الشربى ، إذ كانت بين الاثنين وحشة وجفاء ، وقد جمع بينهما فى وليمة حافلة . وفى شهر المحرم عام ٨٨٦ هـ قفز الأمير « قانصوه » من الدوادارية الثانية إلى الأمير آخورية الكبرى . وبين الوظيفتين مراحل شتى . وهكذا علا نجمه وسعد جده وبدأ يكون من عظماء الأمراء .

ولما خرج الأتابكى « أذربك بن ططخ » عام ٨٩٠ هـ فى شهر شوال ، لقتال « على دولات » وتحت قيادته حملة عسكرية كبرى ، كان « قانصوه خمساته » أحد كبار أمرائها . وقد نجحت هذه الحملة نجاحا نسبيا ، كما بينا فى سابق . ويقال إن كتيبة « قانصوه » كانت رائدة الملبس والسلاح والمظهر ، ويقال إنه أنفق فى إعدادها نفورا من ثمانين ألف دينار .

وبدأت سنة ٨٩٢ هـ ، بالعلاء والاضطراب ، وثوران الماليك ، ولاسيا الجلبان ، فانقسموا فرقتين : إحداهما مع قانصوه ، والثانية مع الأمير « أقبردى » الدوادار . وهو الذى ابتلى « قانصوه » بعداوته ومناقبته له . وقد حظى « قانصوه » فوق اختصاص الأشرف به ، بزواجه من بنت أتابىكى العصر الأمير « أزيك » وحفيدة الملك الظاهر « جقمق » . وتم العقد فى جمادى الآخرة عام ٨٩٢ هـ ، بجامع القلعة وبحضور القضاة الأربعة وعظماء الناس ، وأهدى لإبهم السلطان بعض الهدايا المناسبة . وبعد أيام تمت ليلة زفاف العروسين ، على أروع ما يكون زفاف فى ذلك الحين . وركب « قانصوه » فى جمهرة من الأمراء والخاصكية ، والشموع فى أيديهم . إلى آخر ما ذكرنا فى ترجمة « أزيك » . وهذه العروس قد توفيت بعد زواجها بنحو خمس سنوات ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٨٩٧ هـ .

ولما زاد عيب العثانيين بأطراف البلاد ، رأى السلطان الأشرف أن يجرده عليهم حملة أخرى . فكانت بقيادة الأتابكى « أزيك » وصحبه فيها أيضا الأمير « قانصوه » صهره . وخرجت الحملة تقصد البلاد الشامية والحلبية فى جمادى الآخرة سنة ٨٩٣ هـ . وخرج « قانصوه » فى ركب حافل كالركب السابق فى الحملة الأولى ، وأبلى الحملة بلاء حسنا فى مكافحة الأعداء ، وعادت فى صفر عام ٨٩٤ هـ .

وفى شهر ذى الحجة سنة ٨٩٦ هـ ، اختلف الأمير « قانصوه » والأمير « أقبردى » الدوادار بسبب نوقى . فكان ذلك بدءاً للزراع المستحكم والمنافسة الدموية بين هذين الأميرين ، مما كلن ذا أثر بارز فى حياتهما .

وفى ربيع الآخر سنة ٨٩٨ هـ ، عين « قانصوه » أمير حج فى ركب المحمل . فخرج ركبته فى شوال من العام نفسه باحتفال مهيب . وعاد من مكة فى المحرم عام ٨٩٩ هـ ، ولم يلهج أحد بالثناء عليه ، فقد بدرت منه — على ما قيل — بوادر آذنت للناس ، وأخذ من بعضهم جالهم ، وترك بعضهم فى « ينبع » حين عودته ، فتألموا لذلك . ولعل هذا كان بدء نفس هذا الأمير . فإنه ما لبث حين مرض السلطان الأشرف عام ٩٠٠ هـ ، أن قيل له ما يؤخذ منه إن « قانصوه » اجترأ على مقام السلطنة ، ولذلك منعه السلطان من الدخول عليه أثناء مرضه . وهذا دليل على كثرة أعدائه ، وفى ليلة عيد الفطر من العام المذكور ، رحل « قانصوه » إلى إقطاعه ، فانتهزت طائفة

عن المالك المعادية له ، هذه الفرصة ، واقتحموا داره ونهبوا ما فيها ، وأحرقوا أغلب نواحيها . فلما عاد « قانصوه » وعلم ما حل بداره إبان غيابه ، ملا قلبه الشر على عدائه ، وعزم على تأديبهم ، وأخذ في تدبير الأمر لذلك . فلما كان يوم الخميس مستهل ذى الحجة ، جمع « قانصوه » عصابته من أعراف وممالك سلطانية ، وشرعوا بأسلحتهم ، وتجمعوا بالآذنية حول بيت الأتابكي « أزيك » صهر « قانصوه » ، حيث انضم إليهم الأتابكي نفسه . فاضطر السلطان الأشرف قايتباي إلى مقابلتهم بالشدّة ، خوف استطارة هذه الفتنة . فكانت عاقبتهم الانكسار والهزيمة . وما يذكر أن الأمير « أقبردي » الدوادار كان أحد قائدي عسكر السلطان . ولذلك تعدّ هزيمة « قانصوه » هنا نصرة له . وكانت هذه أولى الهزائم التي منى بها « قانصوه » على الرغم من تديبه وسياسه وشجاعته . وبعد هذه الهزيمة اختفى ، وقبض على كثير من عصابته .

ظل الأمير « قانصوه » مختفيا نحو تسعة أشهر . ثم ظهر وصعد إلى القلعة ، فلقبه السلطان لقاء حسنا . ولكنه خشي عليه أن يفتك به الجند إذا رأوه . فاحتال السلطان على الجند ، بأن ألبس « قانصوه » ثوبد يملأ كيا - بما يكفى فيه الموتى عادة - دلالة على استسلامه . ومن المصعب أنه نزل إلى داره . يصحبه الأتابكي الجديد « تميز » الشمسي والأمير « أقبردي » الدوادار عدوه اللدودا . . .

غير أن فتنة كبيرة من الممالك الجلبان من عصابة « قانصوه » ، سرعان ما أثارت فتنة في ذى القعدة عام ١٠٩٩ هـ وشرعت سلاحيها وذهبت إلى جهة الرملة ، وحاصرت « أقبردي » الدوادار ، وأحرقوا بعض الدور . فاخفى « أقبردي » ومرض السلطان « قايتباي » بسبب هذه الفتنة ، وهم الأتابكي « تميز » بأن يعلن بنفسه سلطانا ، وأولى ملك ابن قايتباي . وهكذا كانت فتنة « قانصوه » ، سببا في اضطراب الأمور وانشغال الأهل . فلما علم « قانصوه » بما عول عليه الأتابكي « تميز » دهمه بخونه وومعه الأمير « كرتاي » الأحمر ، وقبضا عليه وقيده وأرسله إلى بين الإسكندرية . ونهت دور الأمير « أقبردي » . ومن لب لفه من عصابته . وكانت النتيجة بعد ذلك أن اشتروا الأعراف فيمن يولونه السلطنة ، وذلك لأن السلطان اشتد عليه المرض ، ودنّى في دور النزح . فانفقوا على تولية ابنه الملك الناصر محمد . وقد تمت توليته ، وتوفى

أبوه بعد قليل : وكان هذا في الشهر المذكور .
كان طبيعيا أن يكون الأمير « قانصوه » صاحب الحل والعقد في هذه الدولة
الناصرية الجديدة ، فتحه السلطان الناصر بن قايتباي منصب الأتابكية والإمارة
الكبرى ، عقب توليه مهام السلطنة .

وكم كان يكون سعيدا مجودا لو قنع بما بلغه من المناصب الممتازة ، ولم يتطلع
إلى ما فوقها من مرتبة السلطنة ... ولكن لعله قد خدعه صغرس سلطانة الجديد ، فقد
ولى الملك في الرابعة عشرة من عمره . وسرعان ما دبت الأهواء والفطرس في نفس
« قانصوه » ، وسولت له أن يتمتع غن أن يصل مع السلطان صلاة عيد النحر في العام
المذكور ، أو صلاة الجمعة ، ثم أخذ في تطهير القاهرة من عماليك الأمير « أقبردى »
الدوادر ، فشتتهم في أماكن عدة . وعاون صديقه « كرتباي » الأحمر ، فأُسندت إليه
وظائف عدة ، منها الوزارة والاستدارية ، وكشف الكشاف وغير ذلك . وطلق يبحث
عن مكان عدو « أقبردى » ، فهاجمت جنده عدة دور وجوامع وزوايا بسبب ذلك . ثم اتضح
أن « أقبردى » ، قد فر إلى غزة . وأخذ في تتبع أنصار « أقبردى » ، حتى اضطروا إلى
الاختفاء خوفا من سطوته ... فصار يصنع السلطان إزاء هذه الحالة الشاذة ، واستفحال
شأن أتابكيه « قانصوه » ؟ ... حاول أن يصلح ذات البين ، فآمن من استخفى من عصبية
« أقبردى » وصالحهم على « قانصوه » . غير أن هذا كان قد أصر في نفسه على المكيدة ،
ودبر من وراء الستار أمرا خطيرا ، فإنه استضاف بعض أتباع « أقبردى » ، وبينما هم
في مأدبته وفي داره ، إذدهمهم الجند وقبضوا عليهم ، وساقوهم إلى النيل ، وأغرقوهم -
كما قيل - .

وفي ليلة الأربعاء ٢٨ جمادى الأولى سنة ٩٠٢ هـ اجتمع « قانصوه » بأتباعه من
أمراء وجنود ، وتهيئوا لسلطنته في الغد . وفي صباح الأربعاء المذكور ، استقدموا
الخليفة والقضاة ، واجتمع عدد كبير من أمراء وعسكر ، واحتال الجميع على الخليفة ،
حتى خلع السلطان الناصر محمد بن قايتباي ، وأعلن « قانصوه » سلطانا على البلاد .
وتلقب بالملك الأشرف ... وكانت سلطنته تقع عند جميع الناس موقع القبول ،
ويضمن لها البقاء . لولا أن الملك الأشرف « قانصوه » لم يحيط للمستقبل ، واشتط
في معاملة أعدائه ، وأمر بالقبض على الملك الناصر ، فاهتاج لذلك عدد كبير من عماليكه

أيّنه ، يتزعهم الأمير قانصوه ، خال الملك الناصر ، و قانصوه خمسة مائة ، مقاومة كبيرة . فتبادل الزريقان القتال حتى أريقَت دماء كثيرة . وآلت العاقبة بالهزيمة على قانصوه خمسة مائة . فأثر الحرب والاختفاء في مستهل جمادى الآخرة ، ولم يمس على سلطته سوى ثلاثة أيام وأعدت السلطنة بذلك إلى صاحبها الملك الناصر بن قابى .

كانت القاهرة في خلال هذه الفتنة التي قام بها قانصوه ، مسرحا للفوضى والنهب والسلب ، نحو أسبوعين . وباختفائه انتهت أنا بكيته . فأسندها السلطان الناصر إلى الأمير تمرّاز الشمسى للمرة الثانية ، واستقدمه من سجته بالإسكندرية .

وفي ١٨ جمادى الآخرة من العام نفسه أى ٩٠٢ هـ ، ظهر قانصوه ، بعد اختفائه ، فتسامعت به عصابته ، فیمت شطره ، والتفت حوله في درب المرسية عند قنابر السباع . فسار بهم إلى الأربكية ، ليبيت ليلة ثم يستأنف هجومه في الصباح . ولكن هذه الليلة بددت أحلامه ، فقد انفص من حوله جمعه شيئا فشيئا في الصباح ولم يبقوا معه . فلما وقع ذلك رأى قانصوه ، شبح الهزيمة ما تلا أمام عينيه هو ومن معه ، وتسامعوا بقدم الممالك الجلبان لقتالهم ، فأثروا الفرار من وجههم وتوجهوا نحو غزة ، فاقوا في طريقهم الأمير أقبردى ، — وكان محتفيا فارا من وجه قانصوه ، فأوقعوا به وبين معه ، وكادوا يفتكون بهم ، لولا أن جاءتهم نجدة من غزة على حين غفلة ، فانكسروا أمامها شركرة . وهذه رابعة هزيمة تصيب أميرنا قانصوه خمسة مائة . ويقال إن قانصوه ، قبض عليه إذ ذك وقتل وأرسل رأسه إلى القاهرة مع غيره من الرءوس . ولبت الناس في شك من أمر قتله . ومع ذلك كله فقد كانت واقعة مع أقبردى ، آخر العهد به .

وكان قانصوه ، أميرا جليل الشأن كبير الإطاع ، شجاعا وافر العقل محبا للبناء ، شيد بعض الدور والأبراج بالأربكية وبمناظر السباع .

وقد تولى الأنا بكية من بعده تمرّاز الشمسى . ثم عاد إليها أزيك ، بن ططنخ صهر قانصوه . ثم دجان بلاط ، الذى ولى السلطنة بعد زمن . وكان أنا بكيا في عهد الظاهر قانصوه . ثم اعتلى السلطنة بعده ، فأسند الأنا بكية إلى الأمير قوصروه . فأقرب الندام حينذاك . ولكن قوصروه ، أعلن بالعصيان ولم يلب الأمر . فظلت

الأتاكية شاعرة مدة يسيرة . ثم أسندما السلطان «جان بلاط» إلى الأمير «تاني بك الجمالي» .
 «ابن إياس ج ٢ ص ١٤٧ ، ١٨٢ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ٢٠٣ ، ٢٣١ ، ٢٤٠ ،
 ٢٤٦ ، ٢٤٤ ، ٢٥١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ إلى
 ٢٩٧ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٢ إلى ٣١٧ - الصنوء ج ٦ رقم ٦٨٣ .
 ٣٦ - تاني بك الجمالي «الظاهرى ٩٠٨ هـ

أصل هذا الأمير من «مالك الظاهر» حقيقى ، وقد برز فى عهد الناصر «محمد بن
 قايتباى» ، فكان نظام الملك وأمير سلاح . وكان فى جملة من انضم إلى الأمير «قانسوة
 خسمائة» فى ثوراته المتعددة ، وقاتل معه عند الأمير «أقردى الدودار» . واختفى
 أكثر من مرة ، على أثر الهزائم المتوالية التى منوا بها . وظهر أخيرا فى عهد الناصر
 «ابن قايتباى» ، أيضا ، واختير أميراً لركب المحمل عام ٩٠٣ هـ . ولما ولى «سلطنة مصر
 الأشرف» «جان بلاط» ، عام ٩٠٥ هـ ، حفظ منصب الأتابكية لثائب الشام وقصروه ، «غير
 أن «قصروه» امتنع بالشام وأعان السلطان بالعصيان - كما توهمنا - فأُسند أتابكية عسكره
 إلى الأمير «تاني بك الجمالي» ، وذلك فى المحرم عام ٩٠٦ هـ .

وما يحدو ذكره هنا ، أن الأمير «طومان باى» بن قانسوة ، كان فى ذلك الحين
 أمير سلاح ودوداراً كبيراً ووزيراً وأستاداراً وكاشف كشاف ، جمع بذلك بين
 وظائف عدة من أهم وظائف الدولة . فعوى أمره ، واشتد ناصره ، وأصبح صاحب
 الحبل والعقد فى البلاد . وغض من شأن الأتابكى «تاني بك الجمالي» . و«طومان باى»
 هذا ، هو الذى ملك البلاد فيما بعد ، وتلقب بالعدل بعد قتال طاحن مع السلطان
 «جان بلاط» ، فإن «جان بلاط» أرسله على رأس حملة إلى بلاد الشام ، لإخضاع نائبها
 العاصى «قصروه» . فاتحد مع «قصروه» ، وأعلن نفسه سلطاناً ، وزحف بجنوده
 من الشام على مصر ، لحاربه سلطانها «جان بلاط» . وكان فى جملة الأمراء الذى
 انحازوا إلى السلطان الأتابكى «تاني بك الجمالي» . غير أنهم انهزموا وفر منهم كثيرون ،
 وفى عدادهم «تاني بك» ، واختفى ولم يبرئه على أثر . وكان ذلك فى عام ٩٠٦ هـ فى جردى الآخرة .
 ولما ثارت ثائرة الجند والأمراء ضد العادل «طومان باى» ، وانتهت بهزيمته
 واختفائه ، ظهر «تاني بك» ، وانضم إلى الأمراء النائرين ، ومنهم «قيت الرجبي» ،
 و«مصر باى» ، و«طرا باى» وغيرهم ، فى منزل «قانسوة خسمائة» بمناظر السباع .

وكان « قانصوه » ما زال مخفيا — فتم الاتفاق على سلطنة الأتابكي « تاني بك » .
وكانت تم سلطته وبيع ، لولا أن الجند لم يتصوه . فعدل عنه إلى الأمير « قانصوه
الغوري » ، فولى السلطنة . فقبض على « تاني بك » ونفاه إلى مكة . فاسفر صحبة الحاج
في شوال عام ٩٠٦ هـ . وظل هناك زمنا . وقيل إن « الجازاني » العربي الناصر بمكة ،
عبث « بتاني بك » عام ٩٠٨ هـ ، وطلب منه مالا ، فاعتذر . فعاقيه عتارا فاحشا حتى
مات وأخذ ماله .

« ابن إياس » ج ٢ ص ٣٠٣ ، ٣٠٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٦ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ،
٣٥١ ، ٣٧٤ ، ٣٨٣ ، ٣٨٧ — ج ٤ ص ٦ ، ٧ ، ٤٨ — والاضوء ج ٣ رقم ١٧٥ .

٣٧ — قصروه نائب الشام ٩٠٦ هـ

اشترى الملك الأشرف « تايقاي » وظل حتى أعتق . وأخذ طريقه إلى عليا المناصب ،
حتى تولى نيابة حلب في عهد الملك الظاهر « قانصوه بن قانصوه » سنة ٩٠٤ هـ . ويظهر
أنه كان أحد المغربين بالعصيان ، فإنه ما لبث حين دخل الشام في طريقه إلى حلب ، أن
استولى قوة واقتدارا على أموال الأمير « كرتاي » الأحمر ، وكانت نحو ٦٧ ألف
دينار ، بدون أن يستأذن السلطان — جاء هذا الخبر إلى القاهرة في شهر جمادى الأولى
من العام المذكور ، وعلم به السلطان « قانصوه » فغضب ، وأوفد إلى قصروه من يأمره
بإدخال ، فلم يأبه لهذا الأمر ، واعتذر بأعذار واهية . — وظل « قانصوه » في نيابة
حلب ، حتى انتقل الأمير « جان بلاط » — السلطان فيها بعد — من نيابة الشام إلى
الأنابكية بمصر — فانتقل الأمير « قانصوه » إلى نيابة الشام عوضا عنه ، في ذي الحجة
عام ٩٠٤ هـ . غير أنه ما لبث أن عاد إلى عصيانه ، فأعلمه في رمضان عام ٩٠٥ هـ . وقد
كان هذا العمل من جانب « قانصوه » من أهم الأسباب التي أودت بملك السلطان « قانصوه » .
فإنه أخذ في إخضاعه ، فبعث إليه رسولا وهو « أقباي الطويل » يطلب إليه أن يكف
عصيانه ، وأن يترك قعة الشام لنائبها — وكان قد استولى عليها — وفي نظير ذلك
لا يؤاخذ السلطان بما قدمت يداه . ولكنه أنهصر وأدى في العصيان . فأعد السلطان
له حملة تؤديه ، وهم بالمسير بنفسه إليه . ولكن كانت القلوب قد تغيرت عليه ، والنفوس
تحفزت للوثوب ضده — وكان هناك الأمير « طومان باي » — الذي ملك فيها بعد —
ويژه وبن « قانصوه » علاقة وطيدة . فقاد طومان باي الثورة ضد السلطان « قانصوه » ، وما زال

به حتى أزال دولته ، وملك من بعده الأتابكي « جان بلاط » . فلما استولى هذا على عرشه ، طلب إلى الأمير « قصرود » نائب الشام أن يتولى منصب الأتابكية بمصر ، وذلك في ذى الحجة عام ٩٠٥ هـ . ولكن « قصرود » ظل على عصيانه القديم وامتنع عن قبول هذا المنصب الساحي — ولعله كان متواطئاً في الخفاء مع الأمير « طومان باي » نفسه . فاعتزم « طومان باي » حين بلغ الشام أن أعلن بنفسه سلطاناً ، ودخل في طاعته الأمير « قصرود » ، وعاونته أكبر معاونته . وزحفاً معاً بجنودهما من الشام على البلاد المصرية ، فأدخلوا العرب والمطلع في قلب سلطانها « جان بلاط » ، ووقعت بين الفريقين مواقع بطول شرهما ، كان « قصرود » من أكبر الأيدي العاملة فيها ، الساعين إلى إنجاحها . قيل إنه كان هو ، واليهك يشتغلون في حفر الخنادق ، التي استندعتها خطتهم الحربية ، ويعملون ويعمل معهم بيده ، ويحمل الأثربة بنفسه .

فلما تم النصر « طومان باي » وأصبح ملكاً على الديار المصرية ، وقبض على « جان بلاط » ، واختفى أتابكيه « تاني بك الجمالي » ، وذلك في جمادى الآخرة عام ٩٠٦ هـ ، أسند منصب الأتابكية بمصر ، إلى عضده الأكبر ومعينه الأمين الأمير « قصرود » . ومنحه جملة من الثياب الفخمة النفيسة ، وقدم إليه ألواناً من الشكر والاحتفال ، جزاء له على ما قام به من معاونته ، في سبيل الوصول إلى السلطنة .

ويظهر أن الزمن أراد أن يتقم من الأمير « قصرود » لدساتسه السابقة ، ومؤامراته على سلاطينه ، وعصيانه لهم عصياناً متكرراً ، كان له أثر كبير في انتقال السلطنة من رجل إلى آخر . وكان هذا الانتقام — وما أشده وأفساه — على يد صديقه وصفيه وسلطانه الجديد « طومان باي » . فإنه لم يمض على تنصيبه في الأتابكية ، وسكناه في دار « آذربك » بالآذربكية ، وإفاضة أسباب الجاه عليه ، غير أيام ، حتى بطش به « طومان باي » ، بطشة قاسية . وكان « قصرود » قد اعتاد أن يبيت بالقلعة ، ليلة الاثنين والخميس . وفي ليلة الخميس مقبل رجب من العام نفسه ٩٠٦ هـ — تنازل طعام العشاء مع السلطان بالقلعة ، وجلسا يتجاذبان أطراف الحديث . وبينما كان « قصرود » آمناً مطمئناً إلى محدته إذ كان هذا المحدث قد أعد للأمر عدته ، ودبر مكيدته ، ثم فجأه بتو له : « إن قلبه خائف منه » . ثم أمر بعض جنوده بالقبض عليه ، فزعه من مجلسه نزعا ، وألقى به في غيابة السجون بجوار الدهيشة ، ثم شقق بعد عدة أيام ثم دفن في تربة الصاحب « خشقدم » الزمام قرياً من حوش العرب . وهكذا انتهت حماة

أحد أبطال الأمراء المناضلين المغامرين في سبيل النفوذ والجاه والسلطان . وكانت قتلة «قصوره» وغدر «طومان باي» به ، من أهم الأسباب التي نفرت قلوب الناس من هذا السلطان ، فتداعى ملكه بعد قليل وانهار صرحه .

ويوصف «قصوره» بالكرم والشجاعة والعفة ، ومات في نحو الخمسين من عمره ، وقد لاحظ فيه علامات الشيب .

ولما توفي «قصوره» لم يعين مكانه في الأتابكية أمير آخر . وأشيع أن السلطان طومان باي يرغب في إسنادها إلى أحد خواصه المسمى الأمير فان بردى الدوادار الثاني . غير أنه اختار الأمير طراباي الشربيني رأس ثورة الذرب لموالاته الأتابكية مؤقتا . وبثا يعين فيها أمير بصفة نهائية . ولكن زالت دولة «طومان باي» ، وبدأت دولة «غوري» فأُسندت الأتابكية إلى الأمير قيت أرجمي .

«ابن إلياس ج ٢ ص ٣٥٣ ، ٣٦٠ ، ٣٦٦ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ إلى ٣٧٥ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٧ إلى ٣٩٠» .

٣٨ - قيت أرجمي (١)

ظلت الأتابكية شاغرة منذ وفاة الأمير «قصوره» ووُكل أمرها مؤقتا إلى الأمير «طراباي» الشربيني رأس ثورة الذوب . ثم انتهت على ذلك دولة السلطان «طومان باي» ، ابن قانصوه . وترجع السلطان «غوري» على عرش هذه البلاد ، فاختار لأتابكيته الأمير «قيت أرجمي» ، وذلك في عام ٨٩٠ هـ .

وقد كان الأمير «قيت» أحد الخاضعين في عهد السلطان الأشرف «قايتباي» . ففتح هذا السلطان إمارة عشرة في المحرم سنة ٨٩٦ هـ ، ومن ذلك الحين أخذ يدرج في مدارج الرقي ، حتى صار واليا على القاهرة في شهر رجب عام ٨٩٧ هـ . وفي عهد قايتباي . وذلك عقب وفاة واليه «قيت الساق» .

ولما ثار الأمير قانصوه بمحاربة ثورته الجماعة ضد السلطان قايتباي والأمير أقردى الدوادار سنة ٩٠٠ هـ ، انحاز إليه الأمير «قيت» فيمنح انحاز من الأمراء . فلما انهزم قانصوه قبيض على كثير من عساكره ، ومن بينهم الأمير «قيت» . وولى الحكم ابنه

الاصرام ٩٠١ هـ. فأطلق سراح « قيت » هو وغيره من مصابة « قانصوه خصالته » ، وأنعم عليه ورثاء أميراً مقدماً — وكان « قانصوه خصالته » في ذلك الوقت قد صار أنابكي عصره فلا غرابة أن كان « قيت » أحد رجاله المقربين ، حتى وصل إلى هذه المرتبة . وقد انضم إليه في ثورته ضد السلطان الناصر محمد بن قايقباي ، غير أن قابضتهم في هذه المرة أيضاً كانت المزمعة . فاقتفى « قيت » ، بين من اختفى ، وظل حتى عاد إلى الظهور بعد عيد النحر بقليل دام ٩٠٢ هـ ، وذلك على أثر انضمام الأمير أقبردى الادرار في ثورته ضد السلطان محمد بن قايقباي وعاله الأمير قانصوه . وقد عاون « قيت » في إنعام مزبنة أقبردى ونصرة السلطان ، لذلك منحه منصب حاجب الحجاب في المحرم سنة ٩٠٣ هـ . وفي ربيع الأول من تلك السنة بعث السلطان مع قانصوه البرجي وقانصوه الغوري من الأمراء على رأس تجريدة إلى بلاد الشام ، لتأديب أقبردى والقبض عليه . وذلك لأنه على أثر مزبنته فر إلى الشام ، وطلق يده عن هناك فساداً . فزالوا بأقبردى حتى أجدلوه إلى حلب ، فطارده أهلها حتى فر إلى بلاد التركان ، وعاد « قيت الرجي » إلى مصر وقد انعقدت بينه وبين قانصوه الغوري أواصر الصداقة والمودة .

ولما تواترت الأخبار بما يقوم به عرب غزالة بالبحيرة ، من ضروب العبث والفساد ، جردت عليهم حملة كان « قيت » أحد أمرائها . وقد خفت لإيهم يوم عيد الفطر عام ٩٠٤ هـ ، في عهد السلطان قانصوه بن قانصوه ، ولكن هذه الحملة كان نصيبها الفشل والخذلان .

وفي ذي القعدة سنة ٩٠٥ هـ ، خلع السلطان الظاهر قانصوه على الأمير « قيت » نيابة طرابلس عوضاً عن « بلباي » المؤيدى . غير أن نيابته هذه لم تتم ، وذلك لأن دولة الظاهر قانصوه كانت قد آلت إلى الزوال ، وثارت عليه ثائرة « طومان باي » ، و « جان بلاط » ، فاقتفى . وآلت السلطنة إلى الأنابكي جان بلاط فأعيد « قيت » ، إلى منصب حاجب الحجاب بالقاهرة ، ولم يسافر إلى طرابلس .

وفي ربيع الأول عام ٩٠٦ هـ . رأى السلطان جان بلاط أن يبعث إلى بلاد الشام حملة عسكرية لتأديب الأمير قنصوه نائبها الخارج عن الطاعة . وكانت الحملة بقيادة طومان باي الدوار ، وكان « قيت » من أمرائها . وقد خرجت الحملة من مصر في ربيع الثاني من العام نفسه ، وهي التي آل أمرها إلى أن أعلن طومان باي بنفسه ملكاً ،

وزحف مجنوده أولئك على مصر ، واتزع ساطنتها من ملكها جان بلاط . فلما تم أمر طومان باي^١ بإشام فرق المناصب والألقاب مقدما على من علونه من الأمراء ، ووعده كلا منهم بمنصب أولقب^٢ ، فكان نصيب « قيت » أن عين أمير سلاح عوضاً عن طومان باي نفسه . وزحف بالجميع على مصر ، فما زال « قيت » يعاونه هو وغيره ، حتى تمت السلطنة بمصر لطومان باي . فبحيثئذ بوعدته ونال الأمير « قيت الرجب » إمارة سلاح . ثم إن السلطان طومان باي أخذ في معاملة أمرائه بتسوية وشدة وظلم . فقتل أنابكيه قصره ، ثم عول على القبض على قانصوه الغوري وزميله « قيت الرجب » . فأرسل في طلبهما في إحدى ليالي شهر رمضان عام ٩٠٦ هـ ، لحضور حفلة اختتام البخاري بالقلة ، وكانا قد أحسبا ترعب غدر السلطان بهما ؛ فلم يحضرا . فكان ذلك مثلاً لنزاع شديد بين السلطان المذكور وأمرائه ، أدى في النهاية إلى اختفائه وأبولته السلطنة إلى « قانصوه الغوري » . وعلى إثر سلطته أسند منصب الأنابكية إلى زميله وصديقه « قيت الرجب » . وكان هذا أمراً طبيعياً . فلقد كان الأمير « قيت » في مقدمة الأمراء الذي تصبوا لقانصوه الغوري ودعوه إلى أن يلى منصب السلطنة الرابع هذه البلاد . ولما تم أمر « قيت » في الأنابكية ، أصبح صاحب الحل والعقد في مصر وصاحب الكلمة والمشورة . وكان هناك الأمير « مصر باي » ، الدوادار الكبير ، وكان ذا مكانة ممتازة لدى الأشرف الغوري . فكان بذلك منافساً خطراً للأمير « قيت » . غير أن الأيام سرعان ما أفسدت علاقة الأمير « مصر باي » بالسلطان الغوري . فأدى ذلك إلى القبض عليه ثم بجنه ، ثم هربه ثم قتله بعد ذلك . وبموته خلا الميدان للأمير « قيت » . وواتته الظروف واستبدت بكلمته ورأيه ، وطلق يده بين الناس بمظهر الأبهة والعظمة ، ولاسيما في حفلات فتح السد . فبدأ الناس ينفرون منه ، وخاصة حينما فرض عليهم بعض الضرائب الباعثة ، وجباها منهم بلا رحمة ولا إشفاق . حتى أقدم بعضهم على الوقوف له في الطرقات ورجعه . ومع ذلك لم يتزعزع مركزه لدى السلطان .

وفي عام ٩٠٨ هـ أسند إليه « الغوري » إمارة ركب المحمل وعيظه بعدد من الجنود وأوصاه بالقضاء على قننة « الجازاني » وأخيه الشريف « بركت » أمير مكة إذ عثا في العام المنصرم بركب الحجاج . وقد ألبى « قيت » بلاه حسناً في هذه الناحية ، ففر « الجازاني » من وجهه بعد أن غلب على أمره . ووقع أخوه « بركت » الأسير في يده .

فساقه أمامه إلى القاهرة ، ودفعه بين يدي السلطان ، ففرح بذلك ، وفرض عليه أتاوة باهظة . واستبقاه سجيناً في بيت « دقيت » نفسه .

ثم إن هذا السجين مالبث أن قر من سجنه ، فكان قراره مثار شغناء طويلة بين الأمير « دقيت » والرحي ، وبين أحد الأمراء الكبار وهو « قرقاس بن ولي الدين » وكان حينذاك أمير سلاح . وقد اتهمه « قرقاس » بأنه هو الذي تواطأ على هربه وتسبب فيه . وقد تدخل السلطان بينهما وأصلح ما فسد من أمرهما ، ولكن من ذلك الحين تغير قلب السلطان على الأتابكي « دقيت » ، وساورته نفسه بالبطش به ، حتى كان شهر رجب سنة ٩١٠ هـ ، فأمر بالقبض عليه . وكان قد اتضح له أن « دقيت » تحبسه نفسه بالسلطنة ، ويهيئ الظروف لبلوغها والوثوب على سلطانه ، وأنه كاتب في هذا الشأن بعض الأمراء عملاً . — فلما سبق إلى السلطان أعلنه بما قدمت يداه ، ووجه توبيخاً جارحاً ثم دفعه في السجن وصادر أمواله وجميع ما يمتلك . ووجد أنه يمتلك كثيراً من المال وضروباً عدة من الأسلحة ، ثم أخرج إلى الإسكندرية ليوضع في سجنها . فأرسل مخفوراً في مركب وفي معيته أميران وخمسون مملوكاً سلطانياً — ويظهر أنه لقي جزاءه عادلاً . فقد كان — كما قال ابن إياس — ظالماً غشوماً كثير الصلف والأذى قليل الخير . فلبث في السجن زمناً بالإسكندرية . ثم قيل إنه نقل بأمر من السلطان « الغوري » إلى سجن دمياط في ذى القعدة عام ٩١٢ هـ — وتولى الأتابكية بعده الأمير قرقاس بن ولي الدين .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٦٧ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٢٩٠ ، ٣٠٧ ، ٣٢٦ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧١ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٣٩٥ — وج ٤ حوادث السنين المذكورة — وج ٣ ص ٨٥ . »

٣٩ — قرقاس بن ولي الدين ٩١٦ هـ

أصل هذا الأمير من ماليك الأشرف قايتباي ، وأعتقه وتولى مناصب هامة في الدولة وتيارات عدة ، بعضها في زمن قايتباي نفسه . من ذلك أنه في شهر ربيع الآخر عام ٨٩٦ هـ أرسله السلطان المذكور إلى دمشق وكل إليه جباية بعض الأموال وهي ضرائب الأملاك عن خمسة أشهر ، وذلك بعد أن كان قد بلغ مرتبة أمير أخوثران . وقد بدت من « قرقاس » في دمشق مساوئ عدة وألحق بالناس ضروباً من الظلم والأذى والفسوة حتى جئ منهم هذه الأموال .

وفي ذي الحجة سنة ٨٩٠ هـ ، أنعم السلطان الناصر محمد بن قايقباي عليه بتقدمة ألف ،
وفي سنة ٨٩٠ هـ عين أميراً للحج . ولما قامت فتنة الأمير أقبردى الدوادار ضد السلطان
الناصر وغاله الأمير قانصوه وزحف بمجموعه على القاهرة وامتد القتال بين الطرفين ،
انحاز « قرقاس » إلى جانب أمراء السلطان وظهر بعد اختفائه ، إذ كان من قبل قد انحاز
إلى جانب الأمير قانصوه خصمائه الذي وقعت العداوة بينه وبين أقبردى وتصدى كل
منهما للآخر . وكان « قرقاس » في نفسه حقد منذ زمن بعيد على الأمير أقبردى ، لذلك
انضم إلى جانب عدوه قانصوه خصمائه . ولكن أقبردى تغلب على قانصوه خصمائه وهزم
بجوعه فانسكس واختفى . فاحتفى إلى أثر ذلك الأمير « قرقاس » أيضاً ، فلما تقلبت الأحوال
وظهرت عداوة أقبردى لخال السلطان الناصر وهو الأمير قانصوه ، وكان صاحب الجمل
والربط في البلاد في ذلك الحين ، ظهر « قرقاس » هو وكثير من اختفى من عصابة قانصوه
خصمائه وانحازوا إلى جانب قانصوه ، ومنهم تاتي بك الجملى وقيت الرحي وقانصوه
المحمودى وجان بلاط بن يشيك - الذى ملك فيما بعد - . وكان ظهور هذه الطائفة وانضمامها
إلى قانصوه خال الناصر سبباً في غلبته لأقبردى وانتصارهم جميعاً عليه .

وفي شوال من سنة ٨٩٣ هـ خلع السلطان الناصر على الأمير « قرقاس » ومنحه
لقب رأس نوبة كبير عوضاً عن جان بلاط الغورى لوفاته . وظل في هذه المرتبة حتى
انقضت دولة الناصر وملك غاله الظاهر قانصوه أبو سعيد .

وفي شوال في يوم عيد الفطر من عام ٨٩٤ هـ ، تواترت الأخبار بشوران^١ عرب
عزالة على كاشف البحيرة ، فرأى السلطان الظاهر قانصوه أن يعززه بتجريدة من أمرائه
وجنوده . فبعث على رأسها « قرقاس » وقيت الرحي وغيرهما ، وكان العرب المذكورون
قد نزلوا بجهة الميصرة بناحية طرا ، فأرسل من البحيرة « قرقاس » والأمراء والجنود
هناك ، ولكن العرب تغلبوا عليهم وأوقعوا بهم إيقاعاً قاسياً وقتلوا عدداً كبيراً من
جنودهم وغلبانهم ، وكان نصيب للأمير « قرقاس » أن أصيب بجرح في وجهه . وقد
حفزت السلطان هذه الكسرة على أن يرسل إليهم عداً يضربها من الجنود أو تقتلهم
ويشتت شملهم وردتهم على ألقابهم .

وفي العام السالف المذكور عين « قرقاس » أميراً لركب الحمل . فخرج على رأس
طريقه في شوال وعاد في الحيرم عام ٨٩٥ هـ . وقد كان للأمير « قرقاس » يد محمودة في

معاونة الركب الغزائى فى التخلص من العربان الذين اعتدوا عليه بالقرب من الشرفة . ولولاه لفتسكوا بهذا الركب فتكا ذريعا ، وبالركب الاول المصرى ايضا ، وكان أميره الناصرى محمد بن خاص بك .

وبعد قليل فى خلال هذا العام عين الظاهر قانصوه الأمير « قرقاس » نائبا على حلب ، فظان فى هذا المنصب حتى دالت دولة الظاهر وتملك الأشرف جان بلاط . وكان إلى هذا الحين لم يسافر إلى حلب لتسلم مهام وظيفته . حتى كان مستهل ربيع الأخيرة من عام ٥٩٠٦ هـ ، فخرج من القاهرة إلى حلب لولاية أمرها . فلبث بها مدة حتى تمت مؤامرة الوداد طومان باى مع نائب الشام حينئذ ، وهو الأمير قسروه ، على انتزاع السلطنة من جان بلاط . وكان طومان باى قد أرسله جان بلاط سلطان مصر إلى الشام على رأس تجريدة كبرى لقمع عصيان قسروه . فتم تواطؤهما هناك وأعلن طومان باى بنفسه سلطانا على الشام ، وزحف على مصر . هنا كان « قرقاس » نائب حلب فى جانب السلطان جان بلاط ومن عصابته ، فقبض عليه طومان باى وبجته مع كثير من الأمراء فى قلعة دمشق . هنا افترق الضديقان وأعى بهما « قرقاس » . وقت الرجى ، فقد أصبح قيت من عصابة طومان باى . وربما كان لهذا التفرق أثر فنيلى حدث بينهما فيما بعد .

ظل « قرقاس » فى السجن حتى دالت دولة طومان باى . ورفى إلى عرش البلاد الأشرف الغورى . فأطلق سراحه وعاد إلى مصر ، وحظى عند هذا السلطان . وصار أمير سلاح يركن إليه السلطان فى مهام كثيرة . حتى تغير قلب الغورى على أتابكية قيت الرجى وقبض عليه عام ٥٩١٠ هـ وكان قد وقعت شحنة بين قيت و « قرقاس » بسبب غوار السجنين من كرات . أخى الجازائى من أمراء مكة ، وكان مسجوناً فى دار قيت . فلما تم كل ذلك خلا الجو للأمير « قرقاس » ، وأُسند إليه السلطان منصب الأتابكية بعد سجن قيت . فأصبح صاحب الجبل والعقبة فى البلاد المصرية . وشارك السلطان فى تدبير أمون الدولة ، وناب عنه فى فتح الخليج .

وقيل إنه فى ربيع الاول سنة ٥٩٢٢ هـ ، طلع من القاهرة التى عقد المقياس بمبدأ حفلة وفاء النيل فيشتر غازنهاده على رأسه خفافى الذهب والفضة ، فتكافز الناس عليه ليلتقطوا ما فى الجمل . فى هذه الأثناء ، فقه فى البحر فاعطاه الزوتية وأخذوه من الشرق ، وخرج

إلى الشاطئ. مبلل الثياب . وقيل إن فرسه قد غرق . أما هو فأصيب في رجله .
وكان يتفقد شئون الدولة ، فسافر مراراً إلى نواحي الشرقية والغربية والصيد ،
ومرة إلى الإسكندرية نيابة عن السلطان الذورى لمشاهدة التحصينات الجديدة بها . وظل
هذا شأن « قرقاس » ، حتى وافته أجله المحتوم في يوم ٢٣ رمضان سنة ٩١٦ هـ . فرجت
الفاخرة لموته . وكانت جنازته حافلة : سار فيها التضاد الأربعة وسائر الأمراء والمباشرون
والأعيان . وبين يديه الكفارة من الخبز والقر والغنم . وحُلب عليه في جامع السلطان
حسن . وقبّل السلطان نعشه وهو في المصلّى وبكاء بكاء كثيراً ، وحمل بنفسه نعشه
ومشى به خطوات تكريماً له ، ثم تلقفه منه الأمراء ، ودفن في تربته بالصحرَاء بمحوار
تربة الأشرف إينال . قيل : وكان لئن الجانب كثير التواضع . أمضى في الأتابكية ست
سنين وشهرين لإلا سبعة أيام . وترك أربعة أبناء ، ونحوها من سبعين ألف دينار
سوى الحلى والعبيد . وظلت الأتابكية شاغرة من بعده نحواً من أربعة شهور ، ثم صين
فيها الأمير دولات باى .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٦٩ ، ٢٩٣ ، ٣٠٤ ، ٣٢٦ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ،
٣٧٤ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩ - وج ٤ في التواريخ المذكورة بالترجمة .

٤٠ - دولات باى بن أركاس الساقى ٩١٧ هـ

هو ثالث الأتابكية في عهد الغورى ، وقد عين في هذا المنصب بعد وفاة الأتابكى
قرقاس بن دوى الدين بنحو أربعة شهور ، ظلت فيها الأتابكية عالية من شأغلها . وكان
تعيينه في أوائل عام ٩١٧ هـ لسكنه لم يعش بعد ذلك سوى خمسة عشر يوماً ، ثم توفى
في ٢٥ صفر من العام المذكور .

ويتلخص تاريخ حياته في أنه كان من عماليك الأشرف قايتباى ، ثم أعتق وطلق
يتقلب في الوظائف حتى كانت ٩٠٢ هـ في أوائل عهد الناصر محمد بن قايتباى . فحين في
شهر المحرم نائباً على ألبيرة ، فخرج إليها بعد زمن يسير . ثم نقل منها إلى نيابة حلب .
وفي عهد الأشرف جان بلاط ، أظهر قصره نائب الشام عصياناً ، فشرع السلطان المذكور
الأمير « دولات باى » نائب حلب ليتولى نيابة الشام بدلاً من قصره .
ولكن قصره كان قد انضم إليه أو أنه انضم إلى طومان باى الدوادار الذى أرسله
السلطان جان بلاط لتأديبه بالشام ، فأعلن بنفسه سلطاناً على البلاد الشامية وانحاز إليه

قاصروه وكذلك الأمير «دولات باى» نائب ، حلب ، وزحف معهم إلى مصر ، ونزل في جامع شيخو . ولما اعتلى طومان باى عرش البلاد واستتب له الأمر أسند إلى «دولات باى» نيابة الشام وذلك سنة ٩٠٥ هـ في شهر رجب .

ولما صارت السلطنة إلى الأشرف الغورى عاد «دولات باى» إلى مصر ومنح لقب أمير سلاح . وثار المماليك الجليان مرة وهموا بأن يعلنوا به سلطانا على البلاد بدلا من الغورى ، ولكنه تمحيل في التخلص منهم وفر بنفسه إلى السلطان . ثم عين في الأناطكية بعد وفاة قرقاس كما ذكرنا ، في ١٠ صفر سنة ٩١٧ هـ ، فلبث فيها خمسة عشر يوم ، ثم توفي ، فكانت جنازته حافلة وصلى السلطان عليه ، ودفن في تربة العادل طومان باى . قيل : وكان أميراً جليلاً جميل الصورة أبيض اللون مستدير اللحية أسود الشعر . مات وله من العمر أربعون عاماً ، فكثرت حزن الناس عليه ، وكان لين الجانب قليل الأذى . — وتولى الأناطكية من بعده الأمير سودون العجمي .

« ابن إياس ج ٢ ص ٣٠٦ ، ٣٧١ ، ٣٧٥ ، إلى ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٩٢ — و » في ترجمة الغورى وفي التواريخ الميمنية في الترجمة . »

٤١ — سودون العجمي ٩٢٢ هـ

من الأجلال الذين ولوا هذا المنصب الجليل في الديار المصرية ، واثق خاتمه وزالت حياته بزوال السولة : أحق دولة المماليك .

ويعرف هذا الأمير بسودون بن جاني بك ويشتهر بالعجمي . وأصله من مماليك الأشرف قايتباى ، ثم اعتق وقلب في مناصب عدة حتى بلغ من مناصب الدولة أعلاها ، واشترك في أهم الحوادث العامة المصرية التي تتعلق بسياسة الدولة . ونشير هنا إلى بعض ما ذكرنا ، فنقول :

إن قايتباى عينه في استنابية الصعبة في ربيع الثاني سنة ٩٠١ هـ .

ولما ثارت ثائرة الأمير أقبردى النوادر في عهد السلطان الناصر محمد بن قايتباى ، عام ٩٠٢ هـ ضد خاله قاصره . انضم الأمير «سودون العجمي» إلى فريق السلطان وأبلى بلاء حسنًا في الدفاع عن القلعة هو وجماعة من الأمراء ، حتى ارتد عنها أقبردى وأصابته الهزيمة . وفي عام ٩٠٤ هـ أرسل في عداوة حملة تأديبية للقضاء على أقبردى أيضا ، الذي ثار ببلاد الشام وعين بها ، وكان على رأس الحملة تاتى بك الجمال .

ولما كان ٩٠٥ هـ وكان شهر ربيع الأول ، عينه السلطان جلن بلاط أمير الحج بركب المحمل في ذلك العام . ولما عاد كان من حزب جان بلاط ضد طومان باي الذي ملك بلاد الشام . لذلك منحه السلطان جارت بلاط منصب رأس نوبة كبرى دوحا عن قاصوه الغورى الذى أعلن عصيانه وانضم إلى طومان باي . غير أن دولة جان بلاط هرعان مارت ، وأعقبتها دولة طومان باي ، فلم يكن للأمير « سودون » فيها من الأمر شيء . وأغلب الظن أنه سيم في ذلك العهد . وقد أعطيت إمارته ، وهو رأس نوبة كبرى للأمير طراباى الشريقى الذى وكل إليه التكلم في أمور الأناطية ، وقتا حينما قتل السلطان طومان باي أتابكيه قصره عام ٩٠٥ هـ . وفي دولة الغورى كان الأمير « سودون » أحد الأمراء العظام الذين يستند إليهم السلطان في تدبير شئون الدولة . وظل كذلك حتى توفي الأتابكي في صفر عام ٩١٧ هـ . فرأى السلطان الغورى أن يسند هذا المنصب إلى الأمير « سودون العجمي » ، فم في ذلك في ٢٧ ربيع الأول عام ٩١٧ هـ . وصار يد السلطان في كل شيء . واتباعه في أمور كثيرة ، ومصاحباه في ثقلاته وأعماله . ومن ذلك توجهه معه إلى الجزيرة ومنها إلى الفيوم في شهر صفر عام ٩٢٢ هـ تفقد أحوالها . وسائر في صحبته أيضا إلى البلاد الشامية والحلبية في يوم السبت منتصف ربيع الثاني من نفس العام . وقد خرجا معا وعسكرا في الريمانية في جيش كثيف جدا للقاء العثمانيين الراحقين على بلاد الساطان ومملكات مصر . وهو اللقاء الذى كان فيه الطامة عليهما معا ، وعلى البلاد جميعا وانتهى بدخول العثمانيين هذه البلاد . وكان خروج الأمير « سودون » هو واتباعه من الريمانية في يوم الجمعة ٢١ من ربيع الثاني المذكور .

ولما التقى الجمعان في « مرج دابق » في شهر رجب من العام نفسه ، قيل إن الأمير « سودون العجمي » الأتابكي كان أول من برز للقتال ، وعاونه نائب الشام الأمير سيباى ومعهم المماليك القراصة ، فزمواجود العثمانيين هزيمة منكرة ، وأسروا منهم كثيرا من الأسرى وغنموا منهم غنائم لا تحصى . ولولا ديب الخلاف بين فرق هذا الجيش العظيم وظهور الحيانة في بعض أمرائه ، لانتصر الغورى وجنوده وأمرؤه ، ولكن لمصر شأن غير هذا الشأن . وقد كانت النتيجة الأولى لهذا التخاذل الشنيع والفرقة التي وقعت بين المماليك القراصة والمماليك الجلبان أن قتل الأتابكي الشجاع الأمير « سودون العجمي » ، عند أول كرة جديدة للعثمانيين على عسكر مصر . وكذلك قتل سيباى ، فكان

قتلها نذير سوء الجيش المصرى ، إذ توالت عليه الهزائم حتى سحق وقتل سلطانه .
 فى ميدان الدفاع عن مصر وعن حريتها وتملكاتها قتل الأمير « سودون » بجانب
 سلطانه . ولما بلغ خبره مصر ، حزن عليه الناس واشتد عليه عويل ذويه . وهـ . كذا
 قضى عليه بعد أن شغل مناصب عدة ومنح ألقاباً مختلفة . منها : أمير مجلس وأمير سلاح .
 وقام بالأتابكية نحو خمس سنوات ، وأظهر ضروباً من القدرة والسياسة والشجاعة .
 قيل : وكان أميراً ديناً خيراً ابن الجانب .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٩٣ ، ٣٢٥ ، ٣٥٢ ، ٣٧٦ ، ٣٨٠ ، ٣٩٠ — وفى ج ٤
 فى سياق ترجمة الغورى وفى التواريخ التى أوردناها — وفى ج ٣ ص ٢ ، ١٣ ، ٢٥ ،
 ٢٦ ، ٣٠ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٢ . »

٤٢ — سودون الشهابى الدوادار ٩٢٣ هـ

عينه السلطان طومان باى الأشرف أتابكياً على الديار المصرية بعد مقتل سودون
 العجمى فى مرج دابق . وذلك عام ٩٢٢ هـ فى يوم الخميس ٢٠ رمضان بعد سلطنته مباشرة .
 وكان « سودون » هذا أميراً ومقهما ، ورأس نوبة النوب فى عهد الغورى . وقد خرج
 معه فى عداد أمرائه إلى قتال العثمانيين بحلب ، فلما تمت الهزيمة فى مرج دابق ، عاد
 « سودون » فى جملة العائدين من الأمراء ، وكان قد طمع فى أن يكون سلطاناً . ولكنه
 لما وصل إلى القاهرة وجد أن طومان باى قد اعتلى السلطنة ، قتالاً لذلك ، ولكنه ما
 عثم أن ولى له الأتابكية . وقاتل معه العثمانيين وسلطانهم « سليما » بالريانية ، وجرى
 إذ ذاك جرحاً بالفا ، وقيل انكسر عظمه ، فاخفى فى بعض الحفول . وقد قبض عليه
 بعض العربان — إثر الهزيمة — وأتى به بين يدى السلطان سليم فوجده قد جرح وكسر
 عظمه وكاد يموت ، فوبخه ، وأمر فطيف به على ظهر حمار فأتى على ظهره ، وذلك فى
 أول المحرم عام ٩٢٣ هـ . وهو آخر أتابكية مصر .

« ابن إياس ج ٥ ص ٣٦ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٣٥ ، ١٤٣ ، ١٤٥ . »

أفئذ من رجال العصر (١٠)

تحدثنا فيما سلف عن النيابة والأتابكية ، وهما أهم مناصب الدولة التي يلينا رجالها «السيف» — عدا السلطنة — وترجمنا لعدد من رجالها . وكنا نود أن نتبع كل منصب سواهما ونذكر تقلبات الحوادث به ، وترجم لعدد من رجاله — عن لم يبلغوا النيابة ولا الأتابكية — ولكن هذا ضرب من البحث عسير ، وبخاصة لتقلب الرجال في شتى المناصب ، وعدم قصر الرجل على منصب واحد . لذلك آثرنا أن نترجم لعدد من هؤلاء الرجال ، تحت العنوان المتقدم ، مرتين حسب تصور ظهورهم ووقائهم ، جهدا لطلاقة . وننبههم بحديث عن الوزارة وتراجم الوزراء .

١ — سيف الدين طغجي الأشرفي ٦٩٨ هـ

كان من ماليك الأشراف خليل ، وارتقى في سلم الإمارة ، حتى أصبح في عداد البارزين . فلما قتل أستاذه الأشراف ، قاد «طغجي» بمالكة الأشرفية واتقم له ، وقتل قائده يدورا . وظل «طغجي» حتى كان عهد السلطان لاجين : فخرج عام ٦٩٧ هـ ، وكان نائب السلطنة حينذاك الأمير منكوتر ، لا يستريح إلى تصرفاته ، فأخرجه إلى طرابلس نائبا ، فسخط «طغجي» واستعفى من هذا المنصب ، ولم يسافر ، فأبى منكوتر . وكان يضمر في نفسه القبض على «كرجي» ، أخى «طغجي» ، فدب الشر بين الفريقين . ودبر «طغجي» وأخوه ، مؤامرة لاغتيال السلطان لاجين . فقتل . وقتل بعده منكوتر . وأمل «طغجي» في أن يقفز إلى السلطنة ، ويسر لجأه في نياتها . وكاد يتم ذلك ، لولا أن الأمير بكشاش الفخري أمير سلاح ، كان قد خرج في غزاة ، فترشوا حتى يحضر ، فلما حضر تقيهم «طغجي» بعد لآي . وأسفر اللقاء عن قتل «طغجي» ، وذلك عام ٦٩٨ هـ ، بعد أيام من مقتل لاجين .

«خطط ج ٤ ص ٢٤٦ — سلوك ج ١»

١ — في الدرر لابن حجر ، والنسوة للسخاوي ، وغيرهما من كتب التراجم ، وفي ثانيا بدائع ابن بابلس ، وسلوك المقرئ وخطله ، كثيرون من هؤلاء الأفئذ ، فليرجع إليها من شاء التوسع . ويلاحظ أن بعضهم لم يكن في أصل منشئه من المباليك .

٢ — علاء الدين طبرس الخازندارى ٧١٩ هـ

هو ابن عبد الله الوزرى. كان مملوكا للأمير بدر الدين بيلىك الخازندار نائب السلطنة. ثم ملكه بيلىك. ثم أعتق بعد مدة ، وترقى . وحظى عند السلطان لاجين قبل سلطنته . فلما تقلدها . ولّى « طبرس » نقابة الجيوش بمصر عام ٦٩٧ هـ ، لحسن سيرته فيها ، وحمدا لإدارته . وبني جامعا وخانقاه ومدرسة بجوار الأزهر ، ورتب فيها درسا للشافعية . وتمت عمارتها فى سنة ٧٠٩ هـ . وأوقف عليها . ومات فى عام ٧١٩ هـ ، ودفن بمدرسته بجوار الأزهر .

« خطط ج ٤ ص ٢٢٤ — الدرج ٢ رقم ٢٠٥٤ » .

٢ — آقوش ألافم الجركسى ٧٢٠ هـ

أصله من ماليك قلاوون ، ثم كان نائبا للشم فى عصر محمد بن قلاوون . وثبت فى منصبه فى عهد المظفر بيبرس عام ٧٠٩ هـ . ثم خلع لما عاد الناصر ، وأصاب مكانه الأمير كراى المنصورى . فلما استبد كراى ، عزله وأعاد « آقوش » . ولم يأت أن خلعه ثانية عام ٧١٢ هـ ، وأحل محله الأمير تنكز الحسامى ، وحاول الناصر محمد أن يقبض عليه ، ففر إلى خرنبدا ملك التتار وأقام بهمدان حتى مات عام ٧٢٠ هـ ، وكان فارسا بطلا عاقلا جوادا خيرا محبا للعلماء .

« ابن لياس ج ١ ص ١٥٢ ، ١٥٧ — الدرج ١ رقم ١٠٢٤ » .

٤ — عز الدين إيدمر الخطيرى (١) ٧٣٧ هـ

كان مملوكا للأمير شرف الدين أوحى بن الخطيرى . ثم انتقل ملكه إلى الناصر ابن قلاوون . فرقه حتى أصبح من أمراء الألاف — مقدم ألف — وعظم أمره . وقربه الناصر إليه ، حتى كان يبيت معه بالقلعة . وكان كثير الفخر من زواجا كريما . مات فى مستهل رجب عام ٧٣٧ هـ ، ودفن بقرية خارج باب النصر . ومن آثاره جامع بيولاقي . الذى بناه عام ٧٣٧ هـ كذلك ، وحمله ورتب به درسا للشافعية ، وزوده بخزانة كتب جليلة . ووقف عليه أوقافا .

« خطط ج ٤ ص ١١١ — الدرج ١ رقم ١١٢٦ » .

(١) ذكر الخطيرى ، فى الخطط بلخاء والطاء . وفى الدرر بلخاء والطاء .

٥ — بدر الدين التركاني ٧٣٨ هـ

وهو الأمير محمد بن نصر الدين حيسى التركاني . ولاد الناصر بن قلاوون شادا للدواوين . وكانت الدولة حينذاك بغير وزير ، فاستقل بتدبيرها أعواما . ثم نفر منه ناظر الدولة كريم الدين الصغير ، فقدر الأمر لدى الناصر ، حتى أخرجه إلى طرابلس شادا للدواوين أيضا . ثم عاد إلى القاهرة بعد سنتين . فولى كشف الوجه البحرى ، ثم منح أمير طبلخاناه . ومازال حتى مات عام ٧٣٨ هـ . وله جامع في القدس .
و خطط ج ٤ ص ١١٣ - الدرج ٤ رقم ٣٤٦ هـ .

٦ — سيف الدين تنكز الحسامى ٧٤٠ هـ

نجله إلى مصر الخواجا علاء الدين السيواسى ، فاشترى الأمير حسام الدين لاجين . ثم صار من خاصكية الناصر بن قلاوون . وظهر نجمه في سلطنته الثالثة . وقد أسند إليه هذا السلطان نيابة الشام عام ٧١٢ هـ عوضا عن الأمير آقوش الأفرم . وقيل إن السلطان حينئذ جعل نيابة الشام أرقى وأسمى من نيابة حلب . وقد كان العكس قبل ذلك . وظل « تنكز » زمنا طويلا في هذه النيابة .

وفي سنة ٧١٥ هـ وردت إلى مصر أخبار حملة أعداء « تنكز » ، وسار بها إلى ملطية فحاصر أهلها ومن بها من الأرم من حتى طلبوا منه الأمان ، وسلبت إليه في ٢٢ محرم من تلك السنة .

وفي سنة ٧٣٤ هـ وفد الأمير « تنكز » من بلاد الشام على مصر ، وزار السلطان . كعادته في كل عام ، إذ كان يزوره في كل عام مرة ومعه نفائس الهدايا ، فلما جاء في العام المذكور ، أزاله السلطان في الميدان الكبير عند البركة الناصرية إذ ذاك ، وبالحق في إكرامه وتنظيمه . وكان هذا آخر لقاء بينهما . وبعد أن أقام مكرما عدة أيام بارح القاهرة إلى الشام مزودا بالخلع القيمة من السلطان الناصر محمد ، ونزل من النفقة في موكب حافل . وبلغ بذلك أوج عزه .

وكان سبب عزه هذا رضا السلطان الناصر محمد عنه ، إذ كان « تنكز » من مالكيه - كما ذكرنا - فجعله خاصكيا ثم أمير عشرة ثم أمير طبلخاناه ثم مقدم ألف ، وهكذا راقه حتى عينه في نيابة الشام ، فظل فيها نحو ٢٨ سنة ، حتى عظمت مهابته وزاد ثراؤه .

وزارل منصبه بمنحه وقدره وعدالة . وربما كان هذا هو السبب الذى أثار حقد الأمراء عليه . فسعى بعضهم بالقيمة بينه وبين السلطان الناصر ، فتغير عليه قلبه ، فأمر باستقدامه سنة ٧٤٠ هـ . وبعث إليه الرسل تلو الرسل ، فكان من سوء خطه أن عصا الأوامر . ورفض المجيء ، وأبطأ ، حتى اضطر السلطان إلى أن يسوق عليه تجريدة ، ويسيرها إلى بلاد الشام . فقبضت عليه ، وقيد . وذلك فى ذى الحجة من السنة المذكورة . وحملت غنائمه وأمواله ، وكانت كثيرة بينها الذهب والفضة والياقوت والألؤلؤ والحلى الثمينة ، حملت هذه كلها إلى خزائن السلطان . وصادر السلطان بتملكاته ، وقيل : إنه كان يمتلك من الضياع بمصر والشام ما دخله مائة ألف دينار كل عام . ثم يحج بشر الإسكندرية ، فظل به مقيداً أربعين يوماً . ثم أمر السلطان بخنقه . ثم نقل إلى دهشق ودفن فى مدرسته التى أنشأها بها ، وتم نقله فى أواخر سنة ٧٤٠ هـ . وقيل فى قوات الوفيات إنه نقل عام ٧٤٤ هـ — وفى ذلك يقول صلاح الدين الصفدى :

فى نقل تنكسر
أتى به نحو أرض
أراد الله ربه
يحبها وتحبه

ما يذكر أنه جد الملك الصالح - صلاح الدين حفيد قلاوون - لأمه خوند قتلوملك .
وابن إياس ج ١ ص ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٩٤ - الدرر ج ١
وقم ١٤٢٤ - قوات الوفيات ج ١ ص ١١٧ .

٧ - علاء الدين أقبحا الناصرى ٧٤٤ هـ

يعرف « بأقبحا (١) عبد الواحد » ، كان استادار للناصر محمد بن قلاوون . وهو من مشترى يانه ، رماه شادا للعاثر ، ثم استدارا فى عام ٧٣٢ هـ ، فعظم جاهه واتسعت دائرة نفوذه ، وكان مثالا للنشاط . فلجأت الناصر ، قبض عليه ابنه المنصور عام ٧٤٣ هـ وصادر أمواله وبتملكاته . وكانت له ثروة ضخمة . وادعى بعضهم عليه بمال لدى السلطان ، فهدد إن لم يفهم حقه ، فوفى لهم . وكان الملك المنصور يحقد على « أقبحا » ، قبل سلطنته لأنه رد شعاعه مرة ، إلا أن مدبر دولته الأمير قوصون كانت له عناية « بأقبحا » . خفف عنه بعض ما أراد له السلطان من تعذيب . فلما زالت دولة المنصور وقام فى الملك

أخوه الأشرف بك، وكان قوصون صاحب الأمر في دولته، أطلق سراح دأقبعاء، وجعله في عداد أمراء الشام. فاتهم بعد حين بانضمامه إلى الملك الناصر أحمد بن الناصر محمد، لما قام بفتنته بالكرك — وهو منقى بها — ضد أخيه السلطان علاء الدين إسماعيل بن الناصر محمد. فقبض على دأقبعاء وحمل من دمشق إلى الإسكندرية وقتل بها عام ٧٤٤هـ. وكان به ظلم وطمع وكبر. وأنشأ مدرسته الأقباعوية بجوار الأزهر.

«خطط ج ٤ ص ٢٢٥ الدرج ١ رقم ١٠٠١».

٨ — علم الدين سنجر الجاولي ٧٤٥هـ

هو سنجر بن عبد الله، كان مملوكاً للأمير جاولي (١)، أيام الظاهر بيبرس. وانتقل ملكه إلى بيت قلاوون، وأخذ طريقه إلى التقدم، حتى حسن اتصاله بالناصر بن قلاوون، فجعله نائباً لغزة عام ٧١١هـ، ووسع اختصاصه. ثم وقع بينه وبين الأمير تنكز. نائب الشام نزاع بسبب دار، فشكاه إلى الناصر، فقبض عليه عام ٧٢٠هـ. وظل معتقلاً نحو ثمان سنوات، ثم أفرج عنه. ثم أرسله السلطان الصالح إسماعيل بن الناصر محمد، نائباً على حمّة، ثم نقل إلى غزة بعد قليل، ثم عاد القاهرة وولى نظراً لمارستان، ثم خرج نائباً على طرابلس، وكان في جملة المبعوثين لإطفاء فتنة السلطان أحمد بن الناصر المنقى بالكرك. ومات بمصر في ٩ رمضان سنة ٧٤٥هـ، ودفن بمدرسته التي أنشأها بجوار الككبش عام ٧٢٣هـ. وكان على معرفة بمذهب الشافعي، وروى وصنف وأفتى أخيراً وشرح مسند الشافعي. وكان ذا خبرة بأمور السياسة والملك.

«خطط ج ٤ ص ٢٤٧ — الدرج ٢ رقم ١٨٧٧».

٩ — علاء الدين بن زنبور (٢) ٧٥٤هـ

هو صاحب علاء الدين، واسمه عبد الله بن تاج الدين أحمد بن إبراهيم. ويشتهر بابن زنبور. وهو من تقلبوا في مناصب الدولة. وكان قد عظم أمره، ونمت أمواله نمواً عظيماً، وزادت مقتنياته زيادة واسعة، واجتمع له من الوظائف ما لم يجتمع لغيره، فكان وزيراً وناظر الجيوش. وناظر الخواص. فقوي بأسه، وزها بنفسه على الناس. وقد غضب عليه السلطان الصالح صلاح الدين عام ٧٥٣هـ، بعد ما بلغ منزلة وجاها

١ — قال في الدرر: اسم جاول — بلاء ياء

٢ — ذكر في الخطط وفي الدرر أنه: علم الدين

دالين . ويطاش به بطشمة كبرى . وصادر بملكاته ، ونفاه إلى قوص . فلبث بها حتى مات ، وبها دفن ، في ١٧ من ذى القعدة عام ٧٥٤ هـ . وقيل في الدرر عام ٧٥٥ هـ . وقد أحصيت أمواله ومقتنياته ، ففاقات العد والحصر . وكان لديه من كل غال ونفيس ، حتى قيل : لانة أربى على ما كان عند الخلفاء من ذلك . نذكر على سبيل المثال : آلافا من قطع الأقمشة الصوفية والحريرية ، وستين قطارا من الأواني الذهبية والفضية ، وقنطارين من صناديق الياقوت والماس وحبات اللؤلؤ ، وستائة ألف دينار من الذهب ، وثلاثين أردبا من الفضة ، وآلافا من الخيول والبغال والجمال ، ومئات مربى العبيد والمماليك جواري وغللانا . وبضائع خزونة تقدر بأربعمائة ألف دينار . وستائة مركب ، ومائتي بستان وحقل ، وألفا وأربعمائة ساقية ، وآلافا من زروع الصنّ والأبقار . وأربع نسوة ، ومائتي سريّة . وكان له لدى الناس شيء كثير .

تقول : إن كان يبدو شيء من المبالغة فيما ذكر ، فهو يدل — على كل حال — على ما كان لدى هذا الرجل من ضروب المال . ويشعرنا بأن طرق جمعها والاستحواذ عليها لم تكن طرقا طبيعية .

وابن أبياس ج ١ ص ١٩٧ ، ١٩٨ - قوات الوفيات ج ٢ خطاط ج ٣ - الدرر ج ٢ رقم ٢١٠٢ .

١٠ - سيف الدين صرغتمش الناصري ٧٦١ هـ

جلب هذا الأمير رفيقا إلى مصر سنة ٧٣٧ هـ ، فاشتره الناصر بن فلاوون . وقد برز في عهد الصالح صلاح الدين ، ثم في عهد أخيه الناصر حسن . وقد سافر في عداد الأمراء الذين صحبوا الصالح المذكور إلى البلاد الشامية لقتال الأمير بيغنا أروس ، سنة ٧٥٣ هـ . فتعلبوا عليه وعادوا لمصر .

وفي عام ٧٥٤ هـ ثارت قبائل عربية كثيرة ببلاد الصعيد ، والتفوا حول شيخ قبيلة عرك ، واسمه الاحدب ، وأحقوا بملك البلاد خسائر كثيرة . فخرج الصالح ليقا تلهم بنفسه ومعه جمع من أمرائه وجنده ، كان في مقدمتهم الأمير «صرغتمش» فأوقعوا بهم ، وأخذوا فيهم .

ولما دالت دولة الصالح ، وعاد الناصر حسن إلى عرشه سنة ٧٥٥ هـ ، ظل «صرغتمش» -

صاحب الحل والعقد في البلاد ، مع الأتابكي شيخو ، وإن كانت رتبته رأس توبة النوب . غير أن ذلك لم يطل ، فقد قتل شيخو سنة ٧٥٨ هـ ، وانقرض صرغتمش ، بالأمراء ، وأصبح مرجع السلطان في كل شيء ، وكانت بينه وبين الأمير « طاز » — نائب حلب — إذ ذاك — عداوة . فأنهز الفرصة وأمر بالقبض عليه دون علم السلطان ، وبجذبه بالإسكندرية . وأخذ يستبد بشئون الدولة ، ويولي ويهزل من يشاء ، فثقل أمره على السلطان سنة ٧٦١ هـ وخشى منه . وأشار عليه بعض الأمراء بأن يبادر بالقبض عليه قبل أن يدبر السلطان أمراً . فقبض عليه في رمضان من العام المذكور ، وهو في موكبه بالإيوآن . فاهتاج عماليكه — وكانوا نحو ثمانمائة — فتقلدوا أسلحتهم واستعدوا للقتال في الرملة . فوثبت عليهم الجنود السلطانية ، فكسروا شوكتهم ، ففرقوا ولم تبق قائمة . وانهز كثير من العامة هذه الفرصة ، وهجموا على بيوت « صرغتمش » ومنازل أتباعه ، فنهبوا ما فيها .

وقيد « صرغتمش » وأرسل إلى بين الإسكندرية ، فأقام نحو من ثلاثة شهور ثم خنق . وقد كان مليح الصورة يقرأ القرآن ، ويشارك في الفقه . غير أنه كانت به شراسة ، وقد اقتنى مالا كثيراً . وقيل كان موته سنة ٧٥٩ هـ . وما يذكر أنه جد المظفر أحمد بن المؤيد شيخ ، لأمه خوند سعادات .

« ابن لباس ج ١ من ص ١٩٦ إلى ٢٠٨ — وج ٢ ص ١٠ — خطط ج ٤ ص ٢٥٧ — الدورج ٢ رقم ١٩٧٨ ،

١١ — طاز الهوادار ٧٦٣ هـ

أحد الأمراء البارزين . وكان أحد الستة الذين كان يديم أمر الدولة في عهد المظفر حاجي . ثم اتسع جاهه وعلا نجمه في عهد السلطنة الأولى للناصر حسن . ومن آثارها الفتنة عليه سنة ٧٥٢ هـ ، وتزعج المؤامرة ضده لحله . فجمع عدداً من الأمراء والجنود في ١٧ جمادى الآخرة في السنة المذكورة ، وقبضوا على السلطان حسن وبجذوه بالقلعة ، وأقاموا أخاه الملك الصالح سلطاناً على البلاد . بذلك أصبح الأمير « طاز » ، صاحب الحل والعقد ، يدبر شئون البلاد كما يشاء ، يأمر الملك فيطيع . فكان ذلك من العوامل التي أحقدت نفوس الأمراء عليه ، وغيّرت قلوبهم . فوقمت المشاحنات واحتمت القتال بين الفريقين : فاستطاع الأمير « طاز » والسلطان الصالح أن يشتتا شمل أعدائهما

وأن يقبضاً على زعمائهم ويدعاهم السجن . غير أن الأمير « طاز » لم يبلغ مرتبة الأتابكية ولا نيابة السلطنة على الرغم من تضخم نفوذه . ثم جدله أمر جديد ، وهو تضخم نفوذ أميرين من كبار الأمراء هما : شيخوا العمرى وصرغتمش الناصرى . فكان ذلك مشاراً لحوقه ؛ بل لمحتة فيما بعد ، على يد صرغتمش . وكان الأمير شيخو يعرف ما فى نفس صرغتمش ضد الأمير « طاز » ، ويعرف أنه يحاول البش به ، فكان يقعه ويرجمه عن بلوغ غايته . — وقد انتهز هذان الأميران الفرصة حينما توجه الأمير « طاز » إلى بلاد البحيرة للصيد ، وقبضاً هما وأتباعهما على السلطان الصالح ، وأودعا السجن وخلصاه ، وقررا عودة السلطان الناصر حسن المخلوع ، وذلك عام ٧٥٥ هـ . ولما تم لهم ما أرادوا ، وعاد الأمير « طاز » من رياضته ، قبضوا عليه وقيده وأرسلوه إلى السجن . فأقام فيه أياماً حتى شفع فيه بعض الأمراء ، فأطلق سبيله . وعينه السلطان حسن نائباً لحلب . فظل في هذا المنصب حتى توفى الأتابكى شيخو . وخلا جو البلاد للأمير صرغتمش . فأنهز الفرصة وأمر بالقبض على الأمير « طاز » نائب حلب من غير علم السلطان ، وذلك عام ٧٥٩ هـ . فأرسل إلى مصر ويحى بشعر الإسكندرية . فلبث زمناً ثم أطلق سراحه . ومات بدمشق عام ٧٦٣ هـ ، وهو منى . وكان شجاعاً محباً للعلماء .

وابن إياس ج١ ص ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٠١ إلى ٢٠٣ ، ٢٠٥ . الدرر ج٢ رقم ١٩٩٨ —
خط ج٣ ،

١٢ — أزدمر العمرى ٧٧١ هـ

هو الأمير أزدمر العمرى الناصرى الشهير بالخازندار وأبى ذقن ، جد والد المؤرخ ابن إياس المصرى صاحب بدائع الزهور . كان أمير سلاح فى بدء عهد سلطنة الأشرف زين الدين شعبان حفيد الناصر محمد . ثم إن هذا السلطان نقله نائباً لطارابلس فى أول حكمه سنة ٧٦٤ هـ . وفى عام ٧٧٠ هـ كان مقبلاً بمصر . وكان بينه وبين مالك بليغا عدا ، فأرغمو الأتابكى استدمر على القبض عليه ، فسجنه حتى رسم بالإفراج عنه فى أوائل عام ٧٧١ هـ . وولاه السلطان نيابة الشبام عوضاً عن الأمير على الماردىنى ، فلما وصل فى سفره نحو الشبام إلى العريش ، مرض هناك وعاد إلى القاهرة . فلبث مدة مريضاً ثم توفى . ودفن بانراقة العفرى بالقرب من زاوية الشيخ أبى العباس البصرى رضى الله عنه . وكانت الأمير أزدمر جليلاً ديناً خيراً له بر معروف وآثار . أنشأ سيديلاً بطرابلس

وخانا بجلب وأوقف على الحرمين . وتولى أربع نيابات هي : حلب ودارا بلس والشام وصغد .

« ابن لباس ج ١ ص ٢١٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ »

١٣ - بيدمر الخوارزمي

وهو نائب الشام في عهد السلطان المنصور على بن الأشرف شعبان وأتابكيه برقوق . وفي سنة ٧٨١ هـ شق عضاً الطاعة بدمشق ، وخرج على السلطان فقبض عليه جنداً ، وسير إلى القاهرة . فسجن في دمياط . فظل بها ، حتى ملك السلطان الصالح أمير حاج ، فوسم بالإفراج عنه عام ٧٨٣ هـ ، وأعاد إلى نيابة الشام . فظل بها مرهى الجانب حتى كانت سنة ٧٨٦ هـ ، وكانت الساطنة قد آلت إلى برقوق . لحضر الأمير والمقرر السيفي « بيدمر » الخوارزمي ليزور السلطان برقوق وقدم إليه هدايا نفيسة ، فأكرمه السلطان . وأعلى مكاته وقدمه على نائب سلطنته سودون الفخري . وأقام زمناً في القاهرة ثم عاد إلى الشام .

« ابن لباس ج ١ ص ٢٤٨ ، ٢٥٥ ، ٢٦١ - الدرر ج ١ رقم ١٣٩٣ »

١٤ - جمال الدين محمود الأستاذار

أحد عظماء الأمراء المصريين الذين شهدوا ضروباً من نعيم الحياة وترفها . واقتنوا النفيس من متاعها ، وأحاطوا بأنفسهم بعنوق من الملاذ . قيل : كانت عادة رؤساء مصر اقتناء الجوارى المغنيات ، يفتن لهم ليلاً في وقت مرح وسرور . وآخر من فعل ذلك منهم الأمير جمال الدين محمود الأستاذار :

ويعرف هذا الأمير بابن علي الظاهري . وقد عينه في الأستاذارية السلطان برقوق . العثماني في يوم الأربعاء ١٦ ربيع الأول عام ٧٩٢ هـ . وقد جعله أستاذار عالية ، وناظر الخواص الشريفة ومشيراً للدولة ، فزادت عظمته ونفدت كلمته ، وهبت سطوته . وكان له ولد هو الناصري محمد ، وقد عينه السلطان برقوق نائباً لثغر الإسكندرية في عام ٧٩٤ هـ .

ويظهر أن هذه المكاة التي نالها الأمير جمال الدين أحققت بعض الممالك عليه . ولعله أيضاً كان يسير في عمله على غير رغبتهم ، ولا سيما على ألبان الطليقة بالقلعة . ولهذا

انتزوا فرصة نزوله من القلعة في يوم الاثنين ١١ جمادى الأولى عام ٧٩٤ هـ بسد تأدية خدمته السلطان ، ورجوه ، فهرب منهم فسحبوه إلى الزميلة ، وأذوه هناك إيذاء شديدا هو وبعض الموظفين ، فتدخل في الأمر الأمير الأمير ليمش البجاسى بماليك واستنقذهم منهم . وبعد مدة اصطلح الطرفان .

وما زال الأمير محمود في عز وترف وثرء ، حتى غضب عليه السلطان برقوق لبعض هفواته . ولعله رغب من وراء ذلك أن يستولى على مقتنياته من مال وجواهر وجوار . وكان هذا الغضب سنة ٧٩٨ هـ . وفي يوم السبت ٦ صفر من هذا العام أرسل إليه طواشيا يدعى شاهين الحسنى الجدار ، لجمع ابنه عمدا ونساءه وسرايه وبهائمهم . وهم بالتقبض على الأمير جمال الدين محمود نفسه ، ولكنه اختفى . فكان ذلك آخر عهده بالاستاذارية ، إذ عين السلطان فيها الأمير قطلوبك العلاق . وبعد زمن وجيز أخذ السلطان في تفتيش ما يملك الأمير جمال الدين ، والبحث عما يفتنى ، ويجمع كل ما يثر عليه من نفائسه . لجمع من ذلك كله صنوفا تحمل عن الحصر . منها على ما روى : سبعة أزيار كبار وزلعتان مملوءة فضة ودرهم . وجرتان من الذهب ٣٦ ألف من دينار في مكان ، ٢٠٠ ألف دينار في مكان آخر ، ٣٠ ألف دينار في غيرهما . ووجد له خمسند آخرين من الناس وبعض ماليك ما مجموعه نحو خمسمائة ألف دينار . هذا عدا الجواهر والحلى والأقشة والحيول والماليك والجوارى والضياع والمراكب والطواشية والغلال . قال ابن إياس : وهذا الموجود يقارب موجود صاحب علاء الدين بن زنجور . وقد ذكرناه في هذا الباب في رقم ٩ .

وقد صادر السلطان برقوق كل هذه الممتلكات واحتازها لنفسه . ثم قبض على الأمير جمال الدين محمود في كوم الجارج ، فسجن هو وابنه في خزانة شمائل . مكان جامع المؤيد الآن . قلبتا زمنا في سجنهما حتى كانت سنة ٧٩٩ هـ ، فتوفي هذا الأمير وهو في سجنه . ثم دفن في مدرسته التي أنشأها خارج باب زويلة .

ابن إياس ج ١ ص ٢١٢ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ إلى ٣٠٧ - تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٤٩٧ - خطط ج ٤ ص ٢٥٢ ، ٢٤٢ ، ٢٥٢ .

١٥ - تم الحسنى ٨٠٢ هـ .

هو نائب الشام في العهد الثاني لسلطنة الملك برقوق . وقد حضر إلى مصر سنة ٧٩٩ هـ .

الزيارة السلطان برقوق . فلما بلغ السلطان قدمه إلى الريدانية نزل من القلعة ولما أتاه ،
وخلع عليه وأنزله بالميدان الكبير عند الناصرية . فقدم « تم » إلى السلطان هدايا ضخمة
نفيسة جدا ، ما بين عماليك وجوار ودنانير وأسلحة ، ومصحف ذهبي ، وجواهر
مينة ، وأقشة فاخرة ، وفاكهة متنوعة ، وسكر وحلوى شامية . وقد أقام له السلطان
وليمة حافلة في بر الجزيرة ، وأقام أياما ثم عاد إلى الشام . ظل تم الحسنى في منصبه حتى
آلت السلطنة إلى الملك فرج بن برقوق ، فشق عليه عصا الطاعة في سنة ٨٠٢ هـ . وأطلق
من في سجون قلعة دمشق من الأمراء . وفي الوقت نفسه كان الأتابكي إيتمش الجاسي
قد ثار في القاهرة ضد سلطانة فرج ، وكانت بين الفريقين وقائع ودماء ، فر على إثرها
إيتمش إلى الشام هو وعصيته من الأمراء . فلقبهم « تم » الحسنى نائبها خير لقاء ، وقدم
لهم كل معونة من مال وسلاح وخيل وزاد . وانضم إليهم في عصيانهم نائب حلب
وحامه وصند وطراباس ، وعدد ضخم من الجند والعربان . وأصبح الأمير « تم » شبيها
بالمملك في بلاد الشام ، يركب بكر كوجهم وينزل كيزو لهم . وتحرك « تم » لقتال السلطان
فرج ؛ فخلف إليه فرج في جند عظيم وتلاقوا على مقربة من غزة . ولكن بعض أنصار
« تم » انضم إلى جانب السلطان فرج . ففت بذلك في عضده وعول على الفرار . ففر
هو والأتابكي إيتمش الجاسي وعدد من عصيتهم إلى الرملة بعصر ، وتركوا السلطان
بغزة . ثم إن السلطان فرجا أرسل إليهم قاضي القضاة صدر الدين المناوي الشافعي والأمير
ناصر الدين بن الرماح ليصالحهم ، فأبوا وعولوا على القتال . فعاد إليهم السلطان ووقعت
بين الفريقين معركة حامية في مكان يقال له « الحبطين » في يوم السبت ١٢ رجب عام
٨٠٣ هـ ، فانكسر « تم » وهرب إيتمش إلى الشام ، ولكن السلطان تمكن من القبض
عليهما وبجניהما . وقد قبض على « تم » وصودرت أملاكه . وعاد السلطان إلى دمشق
وأقامه « تم » نائبا وهو مقيد راكب على كدش . وظل « تم » في سجنه حتى خنق
بأمر السلطان فرج بعد أيام في نفس السنة .

دا بن إياس ج ١ ص ٣٠٦ ، ٣١٩ ، إلى ٣٢٤ - الضيوة ج ٢ رقم ١٨٣

١٦ - نوروز الحافظي ٨١٧ هـ

أحد الأمراء العظام ، وقد أخذ يترقى حتى كان رأس نوبة النوب في عهد السلطان
فرج بن برقوق . وكان من قبل مسجونا بشعر الإسكندرية لاشترائه في عدة مؤامرات

فأطلق السلطان فرج سراحه وخلع عليه هذا اللقب في سنة ٨٠٣ هـ . وقد أقام نوروز قبة على فدية الخانقاه الشيخونية حيث لم يكن لها قبة . وقد سحب سلطانه فرجا في قالة ملك التتار تيمورلنك عام ٨٠٣ هـ . فكان أحد الأمراء الستة المتقدمين في الطليعة ، وهم : الأتابكي بيبرس الركبي ويكتمر ونوروز وأقباي الطرغطاي الخاتجب وإينال باي بن قجاس وبلغا الناصري . وقد كانت ماقبتهم الانكدار . ثم إن نوروز عك مكانته لدى السلطان فرج ، حتى أصبح في عداد من يثق بهم ويكل إليهم مهام دولته . وقد عينه مشيراً للدولة ومديراً للمملكة ، وقد دعت مكانته لديه بأن تزوج من أخته وذلك سنة ٨٠٤ هـ . وهي بنت السلطان برقوق ، ودخل بها « نوروز » في ٢٠ محرم من تلك السنة . وكان لها حفل عظيم . وفي تلك السنة ثارت فتنة « نوروز » الحافظي والأميرجكم العوضي وغيرهما من الأمراء ضد السلطان . ومن التف حوله من الأمراء . وأدى ذلك إلى شوب ثورة أهلية بين جنود الفريقين . ثم عمل السلطان والقضاة على إطفاء الفتنة ومصالحة الأمراء . فوفد الأمراء المتعادون إلى حضرة السلطان ، وقبلوا له الأرض وتسلخوا أمامه . ولكن هذا التراضي كان على حقد ودخل . فإتهم ما عتدوا أن آثارها فتنة جديدة وحرابا شعواء . فاضطر السلطان ومن معه من الأمراء إلى تتبع الثأرين وقتالهم ، فانتصر عليهم في جهة بركة الحبش وأسرجاعة منهم وفر الباقون . ومن بين الفارين الأميران جكم العوضي و « نوروز » الحافظي . وفروا إلى البرجيزة حيث مكثوا ثلاثة أيام . ثم فارقه « نوروز » إلى القاهرة وطرق باب الأتابكي بيبرس الركبي ، ورجاه أن يشفع له عند السلطان فشفع . وقدم إليه فرضى عنه السلطان فرج لأنه صهره ، وخلع عليه نيابة الشام . فأخذ في الرحيل إليها ، فلما بلغ غيمة الريدانية ، بعث السلطان في إثره من قيده وبعث به إلى سجن الإسكندرية . فظل « نوروز » في سجنه حتى عام ٨١٠ هـ . فأفرج عنه السلطان فرج . وكان قد خلع ثم عاد إلى سلطنته . ولما أطلق سراح « نوروز » عينه نائباً للشام في ذلك العام . وكذلك أفرج عن الأميرجكم العوضي ، وكان مسجوناً . وعينه نائباً لحلب . و بهر دوصول كل منهما إلى مقر عمله أعان بالعصيان وأعلن . جكم بنفسه سلطاناً على حلب ، وتلقب بالملك العادل . ولكنه سرعان ما اعتدى عليه معتد فقتله فكنى السلطان شره . وبقي أمامه « نوروز » . وكان « نوروز » قد جمع حوله عدداً من الأمراء والجنود منهم الأمير شيخن الحمودي . وهو الذي صار سلطاناً على مصر فيما بعد وتلقب بالمؤيد . وكان إذ ذاك

نائب طرابلس . ولما قوى أمرهما في الشام سار الملك فرج لقتالهما في عام ٨١١ هـ فقتلوا بجبهة تعرف بالسعيدية . فانسكر السلطان ونجبه الأمير « نوروز » وشيخ في قراره إلى القاهرة ، ولكن السلطان استطاع بها لقاءهما فسكرهما فهربا إلى الشام ثانية مهزومين . ثم راسلها الملك ومنع نيابة الشام الأمير شيخ . وأمر « نوروز » بالإقامة في القدس عاطلا . ولكن على الرغم من هذا كله فقد بقي لـهذين الأميرين نفوذ عظيم في بلاد الشام حتى استطاعا قطع اسم الملك الناصر فرج من الخطبة بدمشق وتوابعها ، واجتمع حولهما عدد ضخم من الأمراء والجنود . وذلك عام ٨١٣ هـ ، ٨١٤ هـ . فعول السلطان على قتالهما ثانية . فدخل بلاد الشام بعسكر كثيف عام ٨١٥ هـ ، ولكنه انهك كسرة شنيعة بجبهة تعرف باللجون ، وقبض عليه وقتل . وكان هذا النصر سببا لرفعة الأمير « نوروز » المحافظ وشيخ المحمودى . وانفقا معا على تولية السلطان أبى الفضل العباس محمد المتوكل العباسى ، وهو الخليفة القائم في ذلك الحين والمكتب بالمستعين بالله . انفقا على ذلك فناديا للخلاف بينهما . وكذلك انفقا على أن يكون شيخ المحمودى هو الأناك . وأن يكون « نوروز » نائباً على بلاد الشام . فظل هذا الوضع أشهرا ثم قلب الطمع على شيخ المحمودى ونزع السلطنة من المستعين بالله ، وتسم ذروتها عام ٨١٥ هـ . فكان ذلك سببا لغضب نوروز فامتنع عن طاعته ببلاد الشام . ولكن السلطان المؤيد شيخا أعد لإخضاعه عدته . فلما استتب له الملك - رجع إلى الشام في عام ٨١٧ هـ . فحاصر « نوروز » بدمشق حصارا قويا حتى سلم له « نوروز » فقطع رأسه بقلعة دمشق وأرسله إلى القاهرة فعلق على باب زويلة ثلاثة أيام . ثم دفن وانتهت بذلك حياته وجهاده الطويل .

« ابن إياس ج ١ ص ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٢٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ - ج ٢ ص ٤٣ ، الضوء ج ١٠ رقم ٨٧١ » .

١٧ - حكم العوضى ٨١٠ هـ

أصله من مماليك برفوق ، ومن الأمراء الذين برزوا أيضا في عصر السلطان فرج ابنه . وكان وجودهم من أسباب توجيه الحوادث إلى نواح معينة . وقد اشترك « حكم » في الثورة الأهلية التي وقعت عام ٨٠٤ هـ . فترغم هو وعدد من الأمراء المماليك السلطانية ضد الأمير « يشبك » الشعباني الدوادار . وما زالوا به حتى هزموه وفر من وجههم كما سنبين في ترجمته الآتية . فلما هدأت الفتنة خلع السلطان على الأمير « حكم »

العوضى ، وجعله دوا دارا كبيرا عوضا عن شبك الشعباني . فعظمت مكانته وهيبته منزلة وأصبح مصدر خوف يخشاه بعض الأمراء ، حتى السلطان نفسه . ويظهر أنه كان يبدى الفطرية والكبر ويضمهر الشر ، وعرفوا هم عنه هذا ، فخافوه وترهبوا به الدوائر . — وما لبث « جكم » العوضى أن انضم إلى نوروز الحافظي وغيره في فتنة ضد السلطان فرج عام ٨٠٤ هـ . ثم صالحهم السلطان . وعقيب ذلك أرسل خلعة إلى أخى « جكم » وهو المسمى قانيباى العلائى ، ورسم له بالتوجه إلى حلب نائبا عن السلطان فيها . وكان ذلك على غير رغبة من « جكم » ، فعظم عليه الأمر وعاود الفتنة مرة أخرى ، وانحاز إلى جانبه عدد ضخم من الأمراء والماليك . ولكن السلطان فرجا استطاع أن يقضى على مجموعهم ، فهرب زعمائهم ومن بينهم الأمير « جكم » العوضى والأمير نوروز الحافظي ، فساروا نحو الميمون ثم الجزيرة . أما نوروز فبعد ثلاثة أيام وفد على السلطان كما بنا ثم كُن نصيبه السجن . وأما « جكم » العوضى فإنه أرسل إلى السلطان يطلب إليه الإذن له بالمسير إلى ديباط ، والإقامة بها دون سجن ، فسمح له بذلك ، واستقدمه أولا إلى القاهرة . فلما قدم قيد هو ومن معه وأرسلوا إلى سجن الإسكندرية . فظل « جكم » مسجوناً . ودالت السلطنة الأولى لفرج وأعقبه أخوه ، ثم عاد فرج إلى عرشه في عام ٨٠٨ هـ . ولما كانت سنة ٨١٠ هـ صدر أمره بالإفراج عن « جكم » ونوروز . وأُنبأ نوروزاً في الشام وأُنبأ « جكم » في حلب . فالتبا بعد توجههما أن تارا وأظهرا العصيان . أما « جكم » فإنه أعلن بنفسه سلطانا على حلب وتلقب بالملك العادل . وأصبح صاحب الحل والربط في البلاد الحلبية ، وجزء كبير من البلاد الشامية . فضاقت الأرض على رحبها أمام الملك الناصر فرج ، وعول على الانتقام من هذا الخارج عليه . ولكنه ما عثم أن كفى مئوته ، فقد خرج على حكم « جكم » أحد أولاد قرا يوسف التركمانى ، فهب « جكم » للقائه ، والتقى عسكرهما ، فقتل « جكم » وقت المعركة ولم يثر له على أثر وذلك سنة ٨١٠ هـ . وقيل سنة ٨٠٩ هـ . وكان مهيبا يحب العلماء ويسمع الشعر .

« ابن إياس ج ١ ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، الضوء
ج ٣ رقم ٢٩٢ » .

١٨ — يشبك الشعبانى الدوادار (١) ٨١٦ هـ

من علائجهم في عهد السلطان فرج بن برقوق ، ومن اعتمد عليهم هذا السلطان في تدبير أمور دولته . وقد منحه في سنة ٨٠٣ هـ لقب دوادار كبير ومشير المملكة ، وشارك نوروز الخافض في القيام بالأعمال . غير أنه ما لبث إلا ريثما انغمس في قتلة ضد بعض المماليك السلطانية وكبار الأمراء واشترك معه فيها الأميران قطلوبغا السركى ، وأقبای الخازندار . وقعت بين الفريقين معارك عدة وتدخل بينهما السلطان . غير أن العاقبة كانت انضمام « يشبك » وطائفته ، وفراره واختفاؤه في تربة خوند سمرا تجاه باب جامع قوصون خارج باب القرافة إذ ذاك . وقد نهب العوام بيته وبيوت نابعيه . ثم عرف مكانه فقبض عليه . وأرسل إلى بيجن الإسكندرية ، فظل حتى عام ٨٠٤ هـ ، ثم أمر السلطان فرج بالإفراج عنه ثم خلع عليه وأعاده دوادارا كبيرا كما كان . ومع ذلك هم بعض المماليك بالبعث به فاستطاع الهرب منهم ، وقد عاقبهم السلطان بضربهم بالمفراع ، وأشهرهم في القاهرة ، غنمت قتلهم بعض الخوذة . وهكذا ظل الأمير « يشبك » يعيش تحت حماية السلطان فرج ، حتى دالت سلطنته الأولى وخلفه في السلطنة أخوه المنصور عبد العزيز بن برقوق . وكان متزعم حركة هذا الانقلاب الأتابكى ببيرس الركنى ، فأصبح صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ففض هذا من منزلة الأمير « يشبك » الشعبانى الدوادار . وود لو عاد فرج إلى سلطنته ، وكان قد اختبأ لدى المقر السعدى إبراهيم بن غراب . فلما شعر ابن غراب بهذه الرغبة تمجيش في نفس « يشبك » ، أخبره بمكان فرج ، ودبروا حركة لظهوره . ثم أعلنوا به ، فانحاز إلى جانبهم عدد من الجند والأمراء ، فوقع القتال بين هؤلاء وبين من التف حول السلطان المنصور ، فانتصر فريق « يشبك » وعادت السلطنة إلى فرج سنة ٨٠٨ هـ ، وعادت سطوة الأمير « يشبك » إلى سابق عهدها . وبعد حين نفر منه السلطان ، فقبض عليه هو والأمير شيخ وبجتها في قلعة دمشق ، ففرا ، فتبعهما نوروز وقتل « يشبك » سنة ٨١٦ هـ ، وأرسل رأسه إلى الناصر . فطيف به ، وعلق أيا ما . وكان « يشبك » . أميراً جليلاً كريماً وقوراً .

« ابن لباس ج ١ ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ — الضوء ج ١ رقم ١٠٩٠ . »

١٩ - جاني بك مملوك الأشرف برسباي ٨٣١ هـ .

قال عنه ابن إياس ما ملخصه : لما دخلت سنة ٨٢٧ هـ . فيها تزايدت عظمة الأمير « جاني بك » مملوك الملك الأشرف برسباي وصار أمير طبلخاناه ودوادارا ثانيا . واجتمعت فيه الكلمة وصار صاحب الحل والعقد في دولة أستاذه . وهو صاحب المدرسة التي بالقرب من المنجكية . وما يحكى عنه أنه نفي الأتابكي يديغا المظفرى إلى ثغر الإسكندرية من غير علم السلطان . فلما علم السلطان بذلك لم يقل له : لاى شئ فعلت ذلك . وتناهت عظمته حتى التف عليه جميع العسكر . وكان الأمراء المقدمون يزولون معه من القلعة إلى بيته الذى بالقرب من سوق الجوارى . ولم يزل جاني بك على ذلك حتى خشي منه الملك الأشرف أن يثب عليه ، فأشيع أنه دس له السم ، فاستمر عايلا ملازما الفراش حتى مات في أثناء دولة أستاذه . ولو عاش لوثب على أستاذه وتسلطن . - ومات في نحو الخامسة والعشرين .

١ ابن إياس ج ٢ ص ١٧ - الضوء ج ٣ رقم ٢١٦ .

٢٠ - عبد الباسط بن القرشى خليل ٨٥٣ هـ

هو زين الدين . اشتهر هذا القاضى في عصر السلطان الأشرف برسباي . وقد كان من أتباع الملك المؤيد شيخ المحمودى ؛ فقربه برسباي فيمن قرب من أنباج شيخ . وجعله فى عام ٨٢٥ هـ ناظر الجيوش المنصورة . واتسع جاهه وبسط نفوذه ، حتى قيل إنه أصبح صاحب الحل والعقد فى عصر برسباي ، لا يبرم أمرا ولا ينقضه إلا بعد مشورته . وقد أطلق عليه لقب « عظيم الدولة » . - ويظهر أنه لم يزدحمة فى نفوذه هذا سوى مملوك برسباي ، وهو الأمير جاني بك ؛ إذ فاق نفوذه نفوذ كل امير سواه . - وما زال الزينى عبد الباسط فى نعمة من الجاه وبسطة من النفوذ ، حتى تقلبت الايام وآلت السلطنة إلى ابن برسباي ثم إلى الظاهر جقمق العلأى ، ففضب على الزينى عبد الباسط عام ٨٤٤ هـ ، وصادر أملاكه وصنى موارده وأمواله وأخذ منه نحو مائتى ألف دينار ونفاه إلى مكه ثم نقله إلى الشام . ولما كانت سنة ٨٤٨ هـ أعاده إلى مصر وأكرمه وأقام بلا عمل ، حسن الصلة بالناس وبالسلطان حتى توفى فى ٦ شوال من تلك السنة . وكان كثير الخير والبر ، أنشأ عدة مدارس فى مصر ، وبيت ، المقدس والمدينة ، ومكة ، وكان يرسل الإعطيات لفقراء

الحجاج في كل موسم . وقد تزوج الملك الظاهر جقمق ابنة هذا القاضي بعد وفاته .
يؤذكر في الضوء وفاته سنة ٨٨٥ هـ .

د ابن إلياس ج ٢ ص ١٦ ، ١٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ — الضوء ج ٤ رقم ٨١١ .

٢١ — جاني بك الظاهري الجركسي الدوادار ٨٦٧ هـ

أصله بمملوك لجوياش المحمدي الناصري الأتابك . وانتقل ماله إلى الظاهر جقمق قبل سلطته ، فأعتقه . فلما بولى السلطنة جعله خاصكيا . وولاه نظرا الكنائس «وشادية جدة» في عام ٨٤٩ هـ . فنهض بما وكل إليه نهوضا محمودا . ونظرت كفايته لسلطانه ، فعظم عهده ، ومن ثم عظم جاهه ، وقوى نفوذه — وصار يقال له « نائب جده » . ورفي أستاذار ابن عهده جقمق ، وأعني من الأستاذارية في عهد إينال ، ليتفرغ لأعمال جده . وزيد في إقطاعه ، فأثرى ، وابتنى تربته الجميلة خارج باب القرافة ، وبها مدرسة وكتاب الأيتام ، وجوض وبستان عظيم وبركة ، وغير ذلك . وأصبح جميعا ، وكانه المليك ، وأهدى إليه . وأسندت إليه الدوادارية في عهد خشقدم ، فصار مدير الدولة وبلغ أوجهه — وكان حسن السياسة كياسا حسنا — ثم قتله المالك الجليان في بعض أسفاره عام ٨٦٧ هـ ، ودفن بترته .

د الضوء ج ٢ رقم ٢٣٥ .

٢٢ — يرد بك الأشرفي ٨٦٨ هـ

كان مملوكا للأشرف إينال . قرناه وأعتقه وزوجه ابنته الكبرى . رفاه دوادار ٢ ثامنا . وما زال به يرفقه حتى صار دوادارا كبيرا ، فزادت عظيمته ونفذت كلمته ، وأطيع أمره . فلما ملك خشقدم صادره وأحاط بماله ، ونفاه إلى مكة . ثم أمره بالعودة بعد حين ففاد ، ولكنه قتل في الطريق بيد بعض القاطع من الأعراب ، علم ٨٦٨ هـ . فدفن بخليص . ثم نقل إلى مكة

د الضوء جزء ٣ رقم ٢٠ .

٢٣ — العلاقي علي بن محمد الأهناسي الأستاذار ٨٧٠ هـ

كان في أول أمره يشغل « يرددارا » لدى الأستاذار زين الدين الحلبي . ثم انتقل إلى الأستاذارية عند المقر الشهابي أحمد بن الملك الأشرف إينال . فلما اختفى زين الدين

الحلى عام ٨٥٧ هـ . وسعى ابن الأهناسي ، الذي إنال في تولى الاستاذارية الكبرى ، فتم له ذلك في العام المذكور . فأخذ جاهه في الازدياد . ثم ظهر زين الدين الحلي في أوائل المحرم عام ٨٥٨ هـ . وشفع فيه لدى السلطان ، فرضى عنه ، وأعادته إلى منصبه وشملح منه « ابن الأهناسي » . وفي عام ٨٦٠ هـ عين في الوزارة عوضا عن سعد الدين فرج ، بن النحال . فعظم أمره ثانية . ثم خلع منها في عهد خضقدم عام ٨٦٦ هـ ، ثم أعيد في عام ٨٦٨ هـ إليها ومعها نظارة الخايس . ثم جدد له من العوامل ما دفعه على الاختفاء . ولكن قبض عليه وبجس وبصونير ، ونفى إلى مكة ، فأت بها سنة ٨٧٠ هـ .

« ابن إياس » ٢٢٠ ٤٤٠ ٤٥٠ ٥٥٠ ٧٢٠ ٧٩٠ ٨٢٠ ٨٣٠ ٩٠٩ ٩٥٠

٢٤ — الأستاذار زين الدين الحلي ٨٧٤ هـ

أصله من الأرمن . واسمه يحيى بن عبد الرزاق الأرمني . وكان يعرف بالأشقر ابن كاتب علوان . وقد ارتقي إلى الاستاذارية في عهد السلطان الظاهر جقمق العلاءي . وكان هذا السلطان يعتمد عليه في كثير من مهامه ، فتقلدت كلبته وعلت سطوته . قيل : ولم يحيى من بعده من يضاهيه في منصبه نفوذاً وسلطاناً وعاروا . وذلك منذ عام ٨٤٩ هـ . قلبه زالت دولة جقمق وابنه ابتدأ عهد نفسه وأقول نجمة . وكان قد فارق هذا المنصب فأعادته إليه الأشرف إنال على كره منه . غير أنه ضاق بأعبائه فاخترق عام ٨٥٧ هـ . فعين السلطان مكانه في الاستاذارية العلاءي بن الأهناسي . ثم رسم السلطان بنفيه إلى القدس . وذلك في صفر عام ٨٥٨ هـ . فبمجرد أن خرج متوجها إلى القدس . بعث إليه السلطان من قبض عليه عند سيلاب ابن قايمار ، وقتشه رجاء أن يجد معه مالا ، فلم يجد إلا ثلثة دينار . وثارا من الغصة . وكان قد وشى به إلى السلطان أن معه ما لا جمعه . ثم أمر السلطان بإعادته إلى القاهرة . ثم أدخلوه إلى القلعة ومنها إلى البحرة وجين . وفي يومه هذا أحضر إليه السلطان المعاصير وعصره وآذاه لكي يعترف بما يدخره من المال ، فلم يعترف وطلب إلى السلطان أن يبيع أوقافه ويأخذ منها ما يريد من المال . فحمل هذا الطلب عنه ناظر الخاص ، فأمر بإحضاره بين يدي السلطان ، فضربه تحوا من خمسمائة عصا . ثم شفع فيه الأمير تراز الوادار الثاني ، فقبل السلطان شفاعته وخلع عليه وأعادته إلى الاستاذارية وصرف عنها العلاءي على بن الأهناسي . ثم ضم إليه منصب كشف الكشاف بالوجهين القبلي

والبحرى . فانتعش حاله بعض الانتعاش . حدث هذا كله في شهر صفر من عام ٨٥٨ هـ . وفي ذى القعدة من السنة نفسها غضب عليه السلطان مرة أخرى وضربه ضرباً مبرحاً ، وتسلبه منه الجمالى يوسف ناظر الخصاص ، فسجنه لديه حتى يورد ما فرض عليه السلطان من غُرم مالى . ويتبادر للذهن أن سبب كل ذلك كره السلطان له من زمان بعيد ، كرها أوجد السبيل إلى الوشاة ، فزينوا للسلطان أن هذا الرجل يريخ من وظيفته الكثير من المال فعليه أن يؤدى جانباً منه للسلطان . فلما سجن ظل زمناً ، ثم نقاه السلطان إلى القدس فلبث هناك حتى رجب عام ٨٥٩ هـ . فعاد بصحبة الأمير بردك صهر السلطان ، فرضى عنه ورد إليه منصبه . فلبث فيه حتى شهر جمادى الآخرة عام ٨٦٠ هـ ، فغضب عليه مرة أخرى بحجة أنه تأخر في تهيئة الطعام اللازم للقصر وجنوده . وضرب ضرباً مبرحاً . وكبل بالحديد وسجن . وولى مكانه الوزير سعد الدين فرج بن النحال . وبعد زمن استخلص منه عشرة آلاف دينار ، ونقاه في شهر شعبان من السنة نفسها إلى المدينة المشرفة . فسار إليها بطريق البحر . فلبث زمناً بها . ثم أمر فعاد إلى القاهرة بلا عمل . وظل أمره لدى السلطان ما بين غضب ورضا ، حتى كان عام ٨٧٤ هـ وكان شهر ربيع الأول فثارت نائرة السلطان ضده مرة أخيرة . فقبض عليه وأحضر بين يديه ، فأسمعه من الكلام قارصه ، وأذاقه من الضرب أقساه وأمره . ولبت يعذبه هكذا يوماً بعد يوم ، مسجوناً بالبرج بالقلعة حتى مات في يوم وهو بالبرج . فأخبر السلطان بذلك ، فلم يصدق الخبر حتى جرى به إليه ميتاً ، فكشف عن وجهه ورفه برجله . ثم أمر بحمله . ففسل وكفن ودفن . وهكذا انتهت حياته المريعة . وقد أنشأ بالقاهرة وغيرها عدة جوامع ومدارس ، وكان مولده قبيل عام ٨٠٠ هـ .

١ ابن إياس ٢ ص ٢٩ ، ٤٤ إلى ٤٧ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ١١٣ ، ١١٤ - الضوء ج ١

رقم ٩٨٣ .

٢٥ — بردك البجمقدار ٨٧٥ هـ

كان نائباً للشام . وكان يعرف بردك الفارسى الظاهرى . ويعرف أيضاً بالأفرع ، وكان من أعيان الناس وجماعة الظاهرية . وكان أمير عشرة في دولة أسناده الظاهر جقمق ، ثم رقى أمير طبلخاناه ، ثم رأس نوبة ثانياً في دولة الأشرف إبنال . ثم صار مقدم ألف . وحج أمير محمل غير مأمرة . ثم ولى حاجب الحجاب . ثم صار نائب حلب .

في دولة الظاهر خشقدم . ثم قبض عليه وحمل إلى القدس عاكلاً . ثم أعيد إلى نيابة حلب . ثم تقل نائباً للشام فوالها مرتين ومات بها . وكان أسيراً عند سوار ، وهو نائب حلب وأطلق بعد موت الظاهر خشقدم . وقاسى شتاتاً وعناء . ومات في عام ٨٧٥ هـ هذا ؛ وقد قيل إن أبابكر بن علي دوادار هو الذي دس السم لأستاذه برد بك . ومع ذلك فقد توفي قبله بأيام !

د ابن إياس ج ٢ ص ١٢٢ - الضوء ج ٣ رقم ٢٤ .

٢٦ - برقوق الناصري ٨٧٧ هـ

قال عنه ابن إياس ما يلي : « وفي شوال - أي عام ٨٧٧ هـ - جاءت الأخبار بوفاة برقوق الناصري نائب الشام . وكان أصله من عماليك الظاهر حقيق ، وكان شجاعاً بطلاً مقداماً في الحرب ، عارفاً بأنواع الفروسية في فنون لعب الرمح والرماية بالمشاب . وولى عدة وظائف سنوية ، منها شادية الشرايخا ، ثم مقدمة ألف ، ثم نيابة الشام . ومات بها . وكان قد جاوز السنتين سنة من العمر . أقلباً حضر سيفه ، أظهر السلطان الحزن والبكاء وتأسف عليه . وكان عنده بمنزلة الأخ ، ثم أمر بإحضار أولاده وعياله إلى القاهرة . ثم رسم بنقل جثته إلى القاهرة ليُدفن في رُبته التي بباب القرافة . وكان لبرقوق برو معروف . وهو الذي أنشأ القبة على ضريح العارف بالله الشيخ عمر بن الفارض رحمه الله تعالى ورضي عنه . هذا وقد عينه قايتباي في نيابة الشام بعد وفاة نائبها برد بك الجمقدار في صفر عام ٨٧٥ هـ ، وارتقى إليها في مدة وجيزة . هذا . وما يذكر أن الأمير برقوقاً حينما كان نائباً لبلاد الشام انضم سنة ٨٧٥ هـ هو وعسكره إلى الحملة المصرية المرسلة لتأديب إيل شاه سوار بقيادة الأمير بشبك الدوادار : فلما قبض بشبك على سوار . كان قد وعده بالأمان . فلما دخل عليه سوار رحب به . ثم لما هم بالانصراف أمره بالمرور على نائب الشام « برقوق » ، وكانا قد اتفقا على القبض عليه . فلما دخل على « برقوق » سأله مراراً بتهكم : من أنت ؟ . . . وهو يجيبه : أنا سوار . ثم أمر جنوده فوضعوا في يديه الحديد وفي عنقه .

د ابن إياس ج ٢ ص ١٢٢ ، ١٣٦ ، ١٤٢ - الضوء ج ٢ رقم ٤٩ .

٢٧ - إينال الأشقر البجاوي ٨٧٩ هـ

قال فيه ابن إياس ما يلي : « وفيه - أي في شعبان عام ٨٧٩ هـ - توفي إينال الأشقر

الجبجوى الظاهرى أمير سلاح ، وكان أميراً جليلاً شجاعاً بطلاً . وكان ظالماً غشوماً عسوفاً كثير الإسراف على نفسه . وكان عنده كرم زائد مع اتضاع . وأصله من ممالك الظاهر جقمق . وولى عدة وظائف سنية ، منها ولاية القاهرة ونيابة ملطية ونيابة حلب ، ورأس نوبة كبير ، وإميرية سلاح . وغير ذلك من الوظائف . وكان فى آخر عمره ظهر به جذام وبرص فاحش جداً - وقد توفى فى عهد الأشرف قايتباى .
ابن إياس جزء ٢ ص ١٥٥ .

٢٨ جاني بك الأشقر الدوادار ٨٨٠ هـ

قال عنه ابن إياس « وفية - أى فى شعبان سنة ٨٨٠ - توفى جاني بك الأشقر الدوادار أحد خواص السلطان - أى قايتباى - وكان رئيساً حشماً عارفاً سيوساً - أى حسن السياسة - توجه إلى الحجاز أمير حاج غير ماهرة . وكان مقرباً عند السلطان وكان أصله من ممالك قاني باى فرفور ، واتصل بخدمة جماعة من الأمراء ثم خدم الأشرف قايتباى من حين كان أمير طبلخانة إلى أن بقى سلطاناً ، فأزعم عليه السلطان بأمرية عشرة . وكان فى سعة من المال » .

د ابن إياس جزء ٢ ص ١٦٢ - الضوء ج ٣ رقم ٢١٧ .

٣٩ - القاضى علم الدين شاكر بن الجمعان ٨٨٢ هـ

قال فيه ابن إياس ما ملخصه : « وفية - أى فى ربيع الآخر عام ٨٨٢ هـ - كانت وفاة القاضى علم الدين شاكر بن الجمعان بن عبد الغنى بن شاكر بن ماجد بن عبد الوهاب بن يعقوب الدمياطى الأصل القبطى المصرى متولى ديوان الجيش . وكان رئيساً حشماً وجبهاً عند الملوك والسلاطين . وكان ذا تواضع للناس قاطبة . مشتغلاً بالعلم . ومولده فى سنة سبعين وسبعمائة . وهو الذى أنشأ الجامع الذى بالقرب من بركة الرطلى . وكان وكان نادرة فى بنى الجمعان » . - وقال فيه السخاوى إنه أكبر أشقائه خمسة . ولد بالقاهرة ونشأ بها وتدرّب بأبيه وجده وغيرهما فى الخدمة بالمباشرة وغيرها إلى أن مهر . ثم استقر بعد أبيه فى كتابة الجيش ثم فى الخزانة . وكان براً بالفقراء والصالح - وكان هو وإخوته أصحاب الحل والعقد فى الدولة فى حقيقة الأمر - توفى بمنزلة بركة الرطلى .

د ابن إياس جزء ٢ ص ١٧٤ - الضوء ج ٣ رقم ١١١٧ .

٣٠ - الأمير جاثم الشريف ٨٨٤ هـ

من أقرباء السلطان الأشرف قايتباي ، وقد رقى إلى رتبة الإمارة بسرعة حتى بلغها وهو دون العشرين . وقد كان من قبل ملوكاً في الطباقي بالقلعة ثم خاصكياً ، فأمر عشرة . ثم ناظر الجوالى ثم شاد الثرابخاناه . ثم عين مقدم ألف . وتزوج بأخت زوجة سلطانه قايتباي فعظمت حرمة . وكان زفانه من الحفلات الممتازة التي شهدتها القاهرة ، وبنت له الشوارح وعلقت له القناديل وأوقدت له الشموع ومشى في ركابه الأمراء الكبار ، وأمسك الأمير يشبك الدودار والأمير أزدمر الطويل حاجب الحجاب بعنان فرسه على عظمتهم .

ولكنه سرعان ما توفي في ربيع الثاني عام ٨٨٤ هـ ، ومرض قبيل وفاته وتورمت قدماه . ولما مات دفن في جنازة رائعة بسبيل المؤمنين . وحزن عليه قايتباي حزناً شديداً حتى أقام عزاءه ثلاثة أيام بالقلعة . وقيل إنه أمر النوادب بالدق والطم عليه وهو ينظر إلىهن . هذا وقد سرت إذ ذاك إشاعة مؤداها أن الأمير يشبك الدودار هو الذي دس له السم في الطعام فقتله . وقد تفاقمت هذه الإشاعة حتى غاف مغبتها ونيا به المقام في القاهرة فرضى أخيراً أن يسافر على رأس الحملة المصرية لقتال سيف أمير آل فضل فكان فيما حقه ،

هذا وقد كان الأمير جاثم الشريف جليل القدر وافر العقل جميل الصورة محبوباً من الناس . - وقد تزوجت زوجته من بعده بالأمير أفردي الدودار سنة ٨٨٧ هـ .
« ابن إلياس جزء ٢ ص ١٨٧ ، ٢١٢ الضوء اللامع ج ٣ رقم ٢٥٦ » .

٣١ - يشبك بن مهدي الدودار ٨٨٥ هـ

يعرف بالصغير . أصله ملوك للسلطان الظاهر جقمق ومن مشرباته . وقد رقى حتى صار دوداراً في عهد السلطان قايتباي . وكان أبيض اللون مستدير الوجه أشبه العينين أشقر اللحية طويل القامة مليء الجسم . شجاعاً هماماً مكافئاً كثير الإطعام . ولما بلغ الدودارية السكبرى زاد جاهه وعظمت مهابته ، وأصبح نافذ الكلمة في البلاد ومكان ثقة السلطان ، يستخدمه في مهام أموره . وفي ربيع الأول من سنة ٨٧٣ هـ خلع عليه السلطان خلعة كخلعة الأتابكي ، وأسند إليه منصب الوزارة مضافاً للدودارية . فقسا يشبك على طائفة من الفقهاء والمعلمين بإذن السلطان وقطع عنهم مرتباتهم من الأطنمة ، وحاول

استرداد بعض ما أخذه فيما مضى . ولقى عدد من هؤلاء عنتا شديداً وجوراً وقسوة . ثم إنه سافر إلى الوجه القبلى ليطفيئ ثورة للبربان هناك ، فذهب بلادهم وأمر عدداً من نسايمهم . فسكان ذلك سبياً في ثورتهم مرة أخرى بعد عودته . وكان يشبك إذا ما تولى أمر لإنسان عليه غرم ألخ في عذابه حتى يستخلص منه المال . ولعل هذا هو السبب الذى من أجله أعجب به السلطان ؛ إذ ملا خزائنه بالأموال . ولهذا ما جاء شهر شعبان سنة ٨٧٣ هـ حتى ضم إليه السلطان منصب الاستادارية فضلاً عن الدوادارية والوزارة وكشوفية الكشاف . وكان قد ضمها إليه منذ قليل . وبهذا كله أصبح ذا جاه عريض ، وعظم اسمه وعلاصيته وهيبته كمنته . وهو من القلائل الذين اجتمعت لهم أمثال هذه المناصب الرئيسية الكبرى . وهو مع ما اشتهر به من الظلم والضغط على ذرى الغرامات المالية ، كان يقدم بعض ضروب الإحسان . فن ذلك المغسل الذى أذنأه بالقرب من مدرسة السلطان حسن فى العام المذكور بمناسبة ما نفثى فى القاهرة من الطواعين ، فصارت الموق تحمل إليه ، وهناك يكفنون ويخرجون ، ويدفنون على نفقته

وفى سنة ٨٧٤ هـ خرج الأمير يشبك فى شهر المحرم إلى الوجه القبلى ليجمع غلة العام ، ثم عاد بعد قليل . ثم توجه إلى البحيرة لإخضاع بعض عرباتها الثائرين ، وهم عربان لبيد ، وبعد قليل بعث إلى السلطان يطلب نجدة ، فبعث إليه بعدد من الأمراء والجند وعلى رأسهم الأتابكى أربك . ثم عادوا بعد قليل .

وفى هذا العام ، عام ٨٧٧ هـ عاد الحجاج مجهودين مكشودين لقلة الماء وموت الإبل ، فبعث إليهم الأمير يشبك بآراد وماء معونة لهم .

وفى شهر ربيع الآخر من سنة ٨٧٥ هـ ، أعد السلطان تجريدة كشيغة الجند ليرسلها إلى سوار الخارج على الدولة ، والذى أثار على أملاكها الشامية والخلبية ، وهو التركانى حلك الأبلستين . وقد أسند قيادتها إلى الأمير يشبك الدوادار ويعارنه عدد من كبار الأمراء . وقد خرجت هذه التجريدة فى شوال من العام المذكور ، وقد فرض السلطان على يشبك أمر البلاد الخلبية والشامية . وجعل له حق التولية والعزل فى مناصبها كما يرى . وزوده بخمسةائة علامة بيضاء موقعة بإمضاء السلطان ليكتب فيها ما يشاء من الأوامر والتعليمات ، فخرج ركبته حينذاك على خير ما يخرج عليه ركب أمير وقائد . وتجهل جنده وزودوا بالخيول والسلاح والثياب . وقد زاره السلطان فى وطاقة مرتين

حتى عيب عليه ذلك ! ..

وكان الأمير « يشبك » متزوجا من خوند ابنة الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إبنال ، فولدت له في ذي القعدة - بعد خروجه بقليل في حملته هذه - ولد اسمه منصورا . وقد توفيت هذه الزوجة في أخريات سنة ٨٨٣ هـ ثم تزوج بعد زواجه منها بزمن ، بأخت الأمير قانصوره خمسمائة .

وقد التقى الأمير « يشبك » بعدئذ بعدوه سوار على نهر جيحون وكسره شيركسرة . ففر سوار من أمامه إلى قلعة زمنطور وتحصن بها . فقبضه « يشبك » وحاصره أشد المحاصرة ، واستخدم المدافع في رمي هذه القلعة . — وظل السلطان يمدد بالأموال والنفقة لئيم له النصر . فلما رأى سوار عين القلب أرسل إلى « يشبك » يفاضه في الصالح وعرض عليه أن يكون نائباً عن السلطان في قلعة درندة ، وأن يبعث بولده إلى السلطان ويبدد مفااتيح القلعة دلالة على خضوعه . فأرسل « يشبك » إلى السلطان يستشير في الأمر . فأبى السلطان إلا أن يحضر سوار بنفسه إلى القاهرة . فلما بلغ هذا الخبر سمع سوار ، خاف وعرض على الأمير « يشبك » أن يؤمنه على نفسه وأولاده ، وأن يقيم بهم بقاعة زمنطور . فبعث الأمير « يشبك » يستشير السلطان في ذلك ثانيا . ويظهر أن السلطان أبى أيضا في هذه المرة . بدليل أن الأمير « يشبك » ضيق الحناق على سوار حتى استسلم فقبض عليه . وروى خبر ذلك إلى القاهرة في المحرم سنة ٨٧٧ هـ . — وقد أمّر الأمير « يشبك » أخا سوار المسمى « شاه بضاع » مكان أخيه على إمارة الإبلستين مع خضوعه للسلطان . ثم لما استتب له الأمر وطهر البلاد من الخارجين على السلطان ، عاد إلى مصر مارا بالاشام وغزة ومعه الشاه سوار مأسورا مقيدا في الحديد . وبلغ القاهرة مجنّده وأسراه في الاثنين ١٨ ربيع الأول سنة ٨٧٧ هـ . وقد السلطان والأمراء والناس خير لقاء ، وزينت نواحي عدة من القاهرة . أما سوار فقد أعدم . — وهذه أول حملة خرج فيها الأمير « يشبك » .

لم يلبث الأمير « يشبك » الدواور في القاهرة إلا نحو شهرين . فلما كان شهر جمادى الآخرة من نفس السنة . بلغ السلطان أخبار عن حسن الطويل المغير على أملاك الدولة وتهديده لشاه بضاع أمير الإبلستين الخاضع للسلطان . فلم يجحد بدا من أن يجرد عليه حملة قوية تقدمها طليعة سبقها بالسر . أما الحملة نفسها فكان قد ندها الأمير « يشبك » .

خرج بمحملة في الشهر نفسه وكانت أكثر من ألفي جندى . فبلغ بهم حلب . وكان به الشاه حسن الطويل صاحب العراقين ليطلق من بها من الأسرى نظير أن يطلق هو مالمديه من الأسرى . فأبى الأمير « يشبك » وعول على منازلته . وبدأ مفاوضته فاستعان حسن الطويل بأمراء البرنجة وكاتبهم لذلك . فلم يأبه لهذا الأمير « يشبك » وزحف على البيرة ، وأجلى عنها جنود حسن الطويل بعد معركة عنيفة . فسلبت البلاد الخلبية من شرم . ثم عاد الأمير « يشبك » بتجريدته إلى مصر . وكان وصوله إلى القاهرة في يوم من أيام ومضان سنة ٨٧٨ هـ . — وهذه ثانی حملة خرج فيها الأمير « يشبك » .

بلغ الأمير « يشبك » بعد ذلك منزلة عالية ، كان من أثرها ومن أثر تصرفاته السيئة مع بعض الناس ، أن أوغرت صدور كثيرين عايه . فلما وجد أن الظروف قد نبت به حول على الاستقالة من عمله . فعرض الأمر على السلطان في شوال من السنة نفسها ، فقبل منه السلطان استعفاه من الاستادارية والوزارة . ولكنه استعمله زمنا ثم قبله بعدُ . — وبقيت في يده الدردارية . وقد طمع فيه بعض المماليك الجلبان فتهجوا بيته وغارته ، وطعموا في قلبه ففر منهم إلى الجيزة . أما السلطان فإنه غضب على هؤلاء المماليك وعاقب بعضهم عاقبا قاسيا . ثم هدأت هذه الفتنة بعد زمن يسير فعاد « يشبك » من عينته إلى القاهرة . — غير أن هؤلاء المماليك أضربوا الشر « يشبك » ، فما دخلت سنة ٨٧٩ هـ ، وما حان شهر ربيع الأول ، وما حانت ليلة الخميس ١٠ منه حتى ثارت ثائرة المماليك الجلبان المذكورين . وأصدوا قتل هذا الأمير وهو في داره . فعلم السلطان هذا النبأ فحاول قمعهم بالقوة ، ثم لاينهم ، وبعث بعضهم إلى الأمير « يشبك » لمصالحته فقبلوا يده واعتذروا له ، فرضى عنهم وزال ما في نفسه . — غير أنهم لم يكونوا مخفيين في اعتذارهم ، وحاولوا الكيد له مرة أخرى . ثم إنه كثر مناقسوه والحادون عليه ، حتى إنه اشتد الجفاء بينه وبين خشمهم الأحمدى الطواشي الوزير . فأعلن « يشبك » حول نفسه من الدردارية أيضا وأطلق يابه . وذلك في شهر رجب عام ٨٧٩ هـ . فقلطف به عدد من الأمراء من بينهم الأمير الكبير أربك بن ططخ الأنابكي ، حتى صعد معهم إلى القلعة الملاقة السلطان ، فطمأن خاطره وأصلح ما بينه وبين الوزير ، وقبل خشمهم يده . ثم وقع في شعبان من العام المذكور عدا و جفاء بين الأمير « يشبك » و كاتب من السلطان ، فشكا « يشبك » إليه فانتصف له منه بعض الاتصاف .

وفي شوال عام ٨٧٩ هـ أيضا اضطربت أحوال الشرقية بسبب عهث العربان من بني حرام وبني وائل بها . فأرسل لهم السلطان الأمير « يشبك » الدوادر ، فخرج لتأديبهم . وعاد من مهمته بعد قليل . - وكاد يخرج في حملة أعدها السلطان قابلباي لتأديب حسن الطويل ملك العراقيين لبغيه على جند حذب ، وذلك في ربيع الآخر عام ٨٨٠ هـ . لولا أنها أوقفت ، بسبب عودة هذا المعتدى إلى بلاده . - وفي جمادى الآخرة من العام نفسه ، سافر السلطان سفرته الثانية إلى دمياط فكان في مقدمة من صحبه الأمير « يشبك » الدوادر . - وفي رجب من العام نفسه خرج السلطان على غرة إلى زيارة بيت المقدس فكان « يشبك » من مصاحبيه أيضا في خروجه ، ثم عاد معه في شعبان . - وفي ذى القعدة من العام نفسه سافر السلطان إلى الفيوم سفره الثاني فصحبه « يشبك » مع عدد من الأمراء والجنود ، لمشاهدة الطاحون المائية والبستان اللذين أنشأهما هناك خاير بك بن حديد . وفي صفر عام ٨٨١ هـ خرج الأمير « يشبك » إلى الوجه القبلي لتأديب بعض الثائرين .

وفي شهر رجب من العام نفسه وقع شجار بينه وبين الأمير خاير بك ابن حديد خرجت عن طور الكلام إلى الملاكمة وقد لكمة « يشبك » فأطار غطاء رأسه . وكاد يقع مالا محمد عقباه ، لولا تدخل بعض الأمراء لفض شجارهما . ومع ذلك فقد عمرت قلوبهما هما وأتباعهما بالعداوة والبغضاء وكان لذلك أسوأ الأثر من بعد .

وفي صفر عام ٨٨٢ هـ أخذ الأمير « يشبك » في توسيع وتجميل بعض الطرقات والأسواق ، فوضع مشروعا استغرق تنفيذه زمنا طويلا . ونزعت بسببه ملكية بعض المنازل والربويع ، قتال أهلها لما لحقهم من ظلم بسبب ذلك . ومع هذا فإن الأمير « يشبك » يشكر لقيامه بهذا العمل الجليل ، إذ فيه ما فيه من نظام وراحة وصحة .

وفي الشهر نفسه وكل إلى « يشبك » تعذيب برهان الدين التالبسى وكيل بيت المال لكثرة جورهِ وما سابه من المال . وقد عذبه تعذيبا شديدا ، قيل ضربه نحو ألفين وستائة عصا ، وخلع أضراره ودقها في رأسه . وكانت النتيجة أنه مات بسبب هذه العقوبة .

وفي ربيع الأول من هذا العام ، سافر السلطان مرة أخرى إلى الإسكندرية ، واستصحب معه عددا من الأمراء كان منهم الأمير « يشبك » .

وفي رمضان أشيع أن السلطان - وكان إذ ذاك في حلب زائرا - مات هناك فاضطربت

القاهرة . وعلم الأمير « يشبك » أن يردك جيش - أحد الأمراء - يدبر ثورة لمصلحة جانبك الفقيه أمير سلاح ليجمعه سلطانا . فاستقدمه « يشبك » وحقق معه فأنكره ، ثم قامت عليه البينة فعذبه الأمير « يشبك » تعذيبا شديدا حتى أشرف على الهلاك ، ثم نفاه إلى الواح ، ثم نفاه السلطان بعد زمن إلى القدس ، فتوفى بعد قليل سنة ٨٨٣ هـ .

وفي أخريات عام ٨٨٢ هـ خرج الأمير « يشبك » لتأديب بعض العربان الثائرين في بلاد الصعيد ، ولإزالة الفتن الواقعة بينهم . ثم عاد في جمادى الأولى سنة ٨٨٣ هـ ، ومعه روس الفتنة مصنفين في الأغلال . فأثم عليه السلطان بهدايا قيمة ، وحكم على أسراه بالإعدام ، ومن بينهم أحمد بن عمر الهوارى أحد رؤساء العربان .

وفي رجب سنة ٨٨٣ هـ أعيد الأمير « يشبك » إلى منصب الاستدارية وعزل منه تاج الدين بن المقسى . - وكان الأمير « يشبك » ، كما رأينا ، قد عادت له منزلته ونسطته وأصبح مهيب الجانب نافذ الكلمة . وفي شوال سنة ٨٨٣ هـ في أول يوم مشه خلع السلطان عليه مناصب مختلفة فصار أستاذارا ودوادارا وكشافا وهدبرا للملكة وغير ذلك مما لم يجتمع لغيره . وصار أيضاً متحدثا على نهر دمياط . ولذلك زحل في أوائل سنة ٨٨٤ هـ إليها وقام بضروب من الإصلاح في ميناها . وبعد سلسلة من خديراتها ٢٥٠ قطاراً ، كانت موجودة في الزمن الماضي ، لجدهما « يشبك » فأفادت في تحطين النهر بمن يعشرون به من الفريجة .

وفي ربيع الآخر سنة ٨٨٤ هـ توفى الأمير جانم الشريف جهر السلطان ، زوج أخته . فاتهم النسب الأمير « يشبك » بأنه دس له السم في الطعام . وتحفرت الممالك الجلبان للوثوب عليه وإذائه وقتله ، فأسكتهم عنه السلطان ، فسكنوا إلى حين . أما « يشبك » ، فقبضه فقد أوجس خيفة ، وامتنع زمنا عن الطلوع إلى القلعة ، وقد زادت حملة الناس عليه .

ما زال الأمير « يشبك » مرموق المسكنة يصحب السلطان في سفره آنأ ، ويلقاه من سفره أنا آخر ، ويمدله الموائد الحافلة احتفاء به مرة ، وبعاهه مرة أخرى . ويصلح بين هذا الأمير وذلك ، ويشدد ويقسو في تعذيب بعض المتهمين الموكول أمرهم إليه . ويقم بعض البائس ، ويقوم بضروب من الإصلاح ، ويتعرض مرة لنصب الجلبان ونسوء فعلهم .

ما زال كذلك حتى كان شهر ربيع الأول عام ٨٨٥ هـ فعينه السلطان للخروج على رأس قربة عظمية إلى حملة بسببه اعتداء سيف أمير آل فضلي على الأمير أزدى

تائب السلطان في حماة قتله . فكانت بخرجه تلك آخر عهد القاهرة به : — وقد رغب الأمير وبشكة إلى السلطان أن يكون على رأس هذه الحملة ليفر من اللسنة الحادة التي كانت تلوك سوطه ، وتنسب إليه قتل جاثم الشريفي ، وليفر من بطش الجليان المتحفرين إليه والمهتدين له . وقد خرج ورحل من القاهرة في ربيع الثاني ، فبلغ حلب بعد الشام ، وجمع منها جهودا عدة ، وما زال حتى اجتمع له نحو عشرة آلاف مقاتل . فعبر بهم نهر الفرات حتى بلغ مدينة الرها ، متعبا أثر سيف أمير آل فضل . وكان حاكمها يابندر ثائبا عن يعقوب بك بن حسن الطويل . فشدد الأمير وبشكة عليها الحصار . وحاول حاكمها يابندر أن يهدي من هذا الحصار وتعهد بإمساك الأمير سيف وتسليمه ، فرفض وبشكة . ويظهر أنه كانت له نية في احتلال العراق . فإكان من يابندر إلا أن برز له بمسكره . فدارت النار على الأمير وبشكة ، ومن معه من الجنود ، وأسرهم ووعدهم من الأمراء المصاحبين له ، وقتل عدد كثير من جنوده . فأقام في الأسر نحو ثلاثة أيام ثم جز رأسه في اليوم الرابع ، وبعث به إلى الملك يعقوب بن حسن الطويل ملك العراقيين . وكان قتله في أواخر رمضان عام ٨٨٥ هـ بمدينة الرها ، وفي سن السادسة والخمسين . وقد وصلت جثته إلى القاهرة في ذي القعدة عام ٨٨٥ هـ ، ودفنت في تربته عند زاربة كهنجوش .

هكذا انتهت حياة أحد أبطال هذا العصر وأصحاب المطامع الناجحة فيه ، وذوي النفوذ في الأثر في سيره . وقد رأينا في سيرته بعض سيئاته وحسناته . وهو من الأمراء الذين أغرموا بالبناء والتشييد فكانت له عدة قصور وقباب منها قبة بالمطرية ، وأخرى بالحسينية . وله مبرات عدة ، ومما وثقت به الحجاج وغير الحجاج . ومما روي عنه حكاية ملخصها : أنه وجد يوما شيخا يتزيا بزي فلاح ، ومعه قفة على كتفه يسير في الصباح الباكر . فتبعه معه الأمير وبشكة وسأله عما يعمل . فقال له : يبيض ، جئت لأبيعه وأشتري بشنه خبز الأولاد لأن معي ثلاث بنات . فرق له قلب وبشكة ، وسأله كم يبيضه ؟ فقال : عشرون . فأخفها منه وأعطاه عشرين دينارا .

هذا وقد كان السلطان الأشرف جان بلاط الذي ملك في عام ٩٠٥ هـ البلاد المصرية ، أحد عماليك الأمير وبشكة اشتراه ، عليه وأهداه إلى السلطان قايتباي .

ابن أبي اسحاق ٢ من ص ٩٤ إلى ٢٠٢ — نوص ٣٧٠ . الضوء ج ١٠ رقم ٧٧ ، ١٠١

أحد أقطاب ساسة عصره ومن لم في شئون الدولة يد فعالة مدبرة موجهة . وناقص
بعض ذوى الرياسة من الأمراء ، فكان الصراع بينه وبينهم غنياً وبجلاً .
ومن المناصب التي تولاها : إمرة سلاح ، والدوايرية الكبيرة ، والاستادارية
والوزارة ، وكاشف الكشاف ، ومدير الماسكة . وقد تزوج بأخت زوجة السلطان
قايقباى ، وهي التي كانت زوجة من قبل الأمير جانم الشربنى المتوفى عنها عام ٨٨٤ هـ .
فتزوجها أقبردى عام ٨٨٧ هـ .

وقد رقى إلى الدوايرية الكبرى في عهد السلطان الأشرف قايقباى عقب وفاة يشبك
ابن مهدي الدواير عام ٨٨٥ هـ . ومنذ ذلك الحين والمناسبة بينه وبين قرنائه لا تنقضى ،
والفتح لا ينتهى . وقبل ذلك وقعت فتنة في ربيع الآخر سنة ٨٨٢ هـ بين عماليك وعماليك
أزدمر نائب حلب وقفانلوا بالرميلة زمناً ، وانضم إلى عماليك أقبردى بعض المماليك
السلطانية . ثم سكنت الفتنة وهذا القتال .

وفي شهر ذي القعدة من العام المذكور أضاف إليه السلطان منصب الوزارة وثبته
فيه ، وكان من قبل متدياً للعمل فيه فقط . وبعد قليل كاد المماليك الجلبان يسيثون إليه
بسبب تأخر نفقهم ، فاضطر إلى الامتناع عن الذهاب إلى مقر عمله بالقلعة عدة أيام .
ثم قصدت جماعة منهم إلى منزله وتلفوا معه وسألوه الوساطة لدى السلطان ليقدم إليهم
نفقهم المقررة . وكان قد امتنع عن تقديمها لقلته ما لديه من المال . فقبل « أقبردى »
هذه الوساطة ، واكتسب بذلك جانباً منهم ، ولكن السلطان لم يستجب له ، فكان ذلك
سبباً لا تسامح فتنة المماليك الجلبان . ثم خفت وطأتها قليلاً ، إذ قدم السلطان لهم بعض
التفقة . ولكنها سرعان ما نشطت ودخلتها عوازل جديدة في أوائل عام ٨٩٢ هـ .
وانقسم الجلبان فرقتين فرقة مع الأمير قانصوه ختمانة ، وأخرى مع الأمير « أقبردى »
الدواير . وكان قانصوه ختمانة من منلقى « أقبردى » من الحاقدين عليه . وقد أوردنا
في ترجمة قانصوه ختمانة ضروباً من النزاع بينهما .

وفي نفس العام ٨٩٢ هـ سار أقبردى إلى الوجه القبلى مرة أخرى بسبب ثورة الدرب
الأحادية ، فقتل منهم ما لا يحصى ، وأسرعدا من النساء والأولاد وساقهم إلى مصر
حيث باعهم أرقاء ، وعذب جماعة منهم . وقد عاد بعد أن طهر منهم بلاد الصعيد .
وكانت عودته في شهر رمضان من العام المذكور . وكان قد سافر قبل جمادى الأولى .

ولما وفي النيل في عام ٨٩٣ هـ أنيب الأمير « أقبردى » لفتح « السد » من « السلطان » وقد كان أنابكيه « أدبك » غائبا عن البلاد في الحرب بالبلاد الحلبية - وهذه هي السنة الوحيدة التي تاب فيها « أقبردى » في فتح « السد ».

وفي عام ٨٩٥ هـ نذب لتأديب عرب البحيرة ، فادى مهمته وعاد في شهر جمادى الآخرة من العام المذكور . ثم عاد إليهم بعد قليل لنفس الغرض ، لما لبث حتى سار في شهر ذى القعدة إلى جهة نابلس لأداء بعض المنام ، ثم عاد بعد قليل . وكان قد ذهب إليها مرة أخرى قبل هذه ومعه كاتب السر لجمع بعض الضرائب المقررة . ثم ذهب مرة ثالثة في أوائل عام ٨٩٨ هـ .

وفي ذى الحجة عام ٨٩٩ هـ ابتدأت الفتنة بين « أقبردى » و « قانصوه » خمسة بقية بسبب نوتى ، واستمرت بينهما زمنا طويلا . وفي تلك السنة حجت زوجته وهي أخت زوجة قايتباى . وفي ذى القعدة عام ٨٩٧ هـ ، خلح عليه السلطان وعينه في منصب الاستاذارية فضلا عن الدوادارية والوزارة .

وفي يوم العيد الأصغر عام ٩٠٠ هـ ثارت عصاية « أقبردى » من المماليك الجلبان ، وجمخوا على دار « قانصوه » خمسمائة ونهوا ما فيها وغربوها وأحرقوا جوانبها . فكان ذلك سببا مباشرا لاشتباك الطرفين في قتال مستمر ، وكان « قانصوه » إذ ذاك غائبا في إقطاعه عن القاهرة . فلما عاد علم بما وقع ، فزاد حنقه وخطه وحقده ، وأخبره وشيعته في نفوسهم الكيد لأقبردى وشيعته ، فلما كان يوم الخميس أول ذى الحجة عام ٩٠٠ هـ ، ركب « قانصوه » وجماعته أفراسهم وقتلوا سلاحهم واجتمعت جموعهم في الأزبكية ، وخيف أن تكون ثورتهم ضد السلطان . وحينئذ نشط السلطان ومعه الأمير « أقبردى » وجمعا جموعا من الأمراء والمماليك السلطانية ، فانقض كثير من المماليك السلطانية المتلفة حول « قانصوه » فتعاذل واختفى . وكانت هذه نصرة باهرة لأقبردى .

وما كان شهر ربيع الأول عام ٩٠١ هـ حتى ظهر « لأقبردى » عدو جديد ، وهو الأمير قرقاس بن ولى الدين أمير أخور « لك » ، وأخذت عداوتها في الزيادة من ذلك الحين . وفي شوال من نفس العام وقعت الوحشة بين أقبردى وبين صديقه جان بلاط بسبب منصب الآخورية الكبرى ، إذ رشح جان بلاط نفسه له ، فوقف في سبيله « أقبردى » ، وانزعه من السلطان لصديقه شاذبك الخوخ . ثم ظهر « قانصوه » خمسمائة بعد

اختيائه . وكان السلطان يرغب في ظهوره في قاسترضى مقدما كثيرا من المالك بالمال حتى لا يغالوا قانصوه بالسوء إذا ظهر . فكان عمله هذا نذيرا للأمر . وأقبردى فآخذ حذره من الحوادث منذ ذلك الحين . ولما ظهر قانصوه إليه السلطان خير لقباله . فرجعت بذلك كفته على كفة . وأقبردى واجتمع عديد من المالك الجليان ومن أتباع قانصوه وحاصروا . وأقبردى . وعانوا في الأرض فسادا . ولكن . وأقبردى . كان قد أعد العدة للاختفاء من دارة فائقهما . أعياقه ونهبوا ما فيها . وقد قوى أمر قانصوه وأتباعه . وحشم السلطان ومرض فلم يستطع كبح جماح الثائرين . ودخل في دور الزرع . غلظه قانصوه وولى ابنه الناصر في ذي القعدة عام ١٠٩٠ هـ . بعد أن جعل الأمراء والقضاة والخليفة على ذلك . فأصبح في الدولة الجديدة صاحب الجول والطول . كما ينسأ فيما سبق .

لم يبعد . وأقبردى . بدا من الزخيل عن مصر . وقد نيا به المقام فيها . وآلت الدولة فيها إلى عدوه قانصوه . فخرج إلى غزة محتفيا . ومن غزة إلى البلاد الشامية . وبلغت أخباره أسماع الأمراء في مصر . وكان قد أهمهم أمره . فكتبوا إليه أمانا يحددونه به حتى يشرب إلى البلاد فيقبضوا عليه . فأرسلوا إليه أمانهم هذا بإمضاء السلطان الجديد في ربيع الثاني عام ٩٠٢ هـ . وصنعوا خدعة أخرى في القاهرة للقبض على أتباعه المحتفين . ومنهم شاد بك الخوخ أمير أخور كبير . فأمرهم حتى ظهروا فغادعهم قانصوه . وكان قد صار أتابكيا . وأصنافهم في منزله فاحتدعوا وذهبوا إليه وهناك قبض عليهم وسيقوا إلى النيل وأغرقوا فيه .

كلت تكون سلطة قانصوه قد استتبقت بعد أن استراح من عدوه . وأقبردى . وأتباعه . ولكنه طمع في الملك فحرك نفسه أعداء . فجدد كلفه متكلفة شديدة حتى هزموه . فقد حمل القضاة والخليفة على خلع الناصر والمتأداة به هو سلطانا . فظل في مأساة ثلاثة أيام . ثم هب له حال الناصر . وهو قانصوه بن قانصوه . وهزمه هزيمة منكرة . اختفى على أربابها . وفرق عنه أتباعه .

أما . وأقبردى . فإن السلطان الناصر كتب إليه يطلب منه الحضور إلى القاهرة . وتم ذلك في جمادى الآخرة عام ٩٠٢ هـ . وتوجه إليه برسوم السلطان رسول خاص هو : جاني باني . وكان . وأقبردى . مقبلا لتي أقباه نائب غزة . وقيل إن قانصوه خشيانه لما

اختفى في غزة ليقتال هناك «أقردى» بجبة خان يونس قريبا ، وكان «أقردى» قد خرج من غزة متجها نحو الديار المصرية ، وعده قانصوه خيماته بعصابته في الطريق ، وكاد يقتلك به ، لولا أن أقباي غزة سمع الخبر وعجل بنجدة وهو مزمع اللحاق به للسفر إلى مصر معه ، ومعها عديد من الأمراء والجنود . فوقع بين الطرفين معركة حامية انهزم على أثرها قانصوه ، ولم يعلم له خبر من بعدها ، وقيل إنه قُتل أثناءها . أما «أقردى» فقد فرح بهذا النصر والقضاء المبرم على عدوه ، وقبض على كثير من أنبائه وشكل بهم . وقد فرح أيضا السلطان الناصر بن أقباي لهزيمة النصر المفاجيء .

بلغ «أقردى» القاهرة في يوم الأحد ١٤ رجب ٩٠٢ هـ بعد فراره منها في آخريات العام السابق ٩٠١ هـ . فلقية القاهرة خير لقاء . ومعها عديد من الأمراء وروس القتل . ولم يئتمن شهر رجب المذكور حتى خلع السلطان الناصر عليه لقبين كبيرين هما أمير سلاح ودوادار كبير . وأصبح في يده الديار الإدارية الكبرى والاستاذارية والوزارة وكشف السكاف وإمرة سلاح . فبلغ بذلك كله حد التخمرة في المناصب والرتب فلم يعد لجديد منها مكان لديه ... وأصبح شليبا بالأمير يشبك المهدي الدوادار — انظر رقم ٣١ — ووصل بذلك إلى أوج عزه ومجده .

كاد يكون «أقردى» هادئ البال ناعم القلب بما جاده الزمان . غير أن بقايا عصابة قانصوه خيماته من عماليك وأمرأه ، ادخرت له في نفسها البغض والحقد ، وعولت على الانتقام منه في أية صورة . فلم تر بأسا من أن تنضم إلى قانصوه بن قانصوه خال الملك الناصر ، وتكون حوله عصابة قوية ، ثم توغر صدره على الأمير «أقردى» وتظهره في ثوب المذاخن الذي يجب القضاء عليه . وقد نجحت فكرتهم وحيلتهم ، وشعر بذلك الأمير «أقردى» فأنكشف نفسه وضائق صدره ، ورأى كلمته وهي تزول رويدا رويدا بل أصبح يتوجس خيفة في كل آن حذر الغدر والبطلش به . وهكذا انقلبت الحال ، وأصبح «أقردى» بموقفه هذا قريب الشبه بموقف قانصوه خيماته من الملك الناصر وخاله قانصوه بن قانصوه — فآخذ بعد العدة ويجمع إليه الانتصار . ثم وقعت بين الطرفين موقعة قاسية في يوم السبت ٤ رمضان عام ٩٠٢ هـ انهزم فيها «أقردى» وعصابته ، فهرب في جنح الليل إلى بلاد الصعيد وهرب معه الأمير «أقباي» نائب غزة

صديقه - وبعد قليل بعث إليه السلطان الناصر يسترضيه ، فعاد إلى القاهرة في آخريات شهر ذى القعدة سنة ٩٠٢ هـ . وقد قابله عديد الأمراء والجند بالجيزة مقابلة حافلة ، وكانما تتأسوا ما كان من الجميع ، وصفا له الزمان لمح من لمحاته . ثم هم قانصوه خال السلطان بالذهاب للقائه أنشاء قدومه ، فزين له قرناء السوء عاقبة هذا اللقاء وأن د أقبرى ، ربما قبض عليه بالجيزة . لذلك امتنع من الذهاب . فانقسم حينئذ الجنود والأمراء فرقا ثلاثا : واحدة مع أقبرى . وواحدة مع قانصوه بن قانصوه ، وهم عصابة قانصوه خصمائه وأعداء أقبرى . وفرقة مع السلطان الناصر . وكان من انضم إلى أعداء أقبرى ، الأمير كرتباى الآخر ، وقبل دخوله القاهرة اعتدت طائفة من الممالك على منزله ونهبوا بعض نفائسه . ثم دخل القاهرة في جمع كثير من الأمراء والجند ، وكأنه يزحف عليها لاقتسامها . - قال ابن إياس هنا ماملخصه :

« إن أقبرى لو أراد امتلاك القلعة في ذلك اليوم منزها هذه الفرصة لامتلكها ولتغير له وجه الزمن الميوس » .

ولكن بعض أصدقائه أشار عليه بالزول إلى داره أولا ، ليرى ما حدث بها ثم بعد العدة لما يبدو له عمله . فكانت فزة نزوله بمثابة ركود في حركته فرقت عنه بعض الأتباع ، وفرت من حماسة آخرين .

أصبحت القاهرة منذ دخول أقبرى إليها مسرحا للقليل والقال والمناوشة بين أتباع الطرفين ، ووقع بسبب ذلك ضروب من الفوضى ، غير أن كل طرف أخذ يعددته لموقعة فاصلة يقضى فيها على خصمه . وأنفق الأمير أقبرى ، على أتباعه نحو مائة ألف دينار من ماله . وجمع السلاح وأجده منه الكثير . ثم وقعت الواقعة في يوم عيد النحر ، واستمر القتال واستمر أياما . ثم إن فريقا من جند أقبرى ، غانه وانفصل عنه ، فقتب ذلك في عضده ، وانكسر في آخريات ذى الحجة من هذا العام ٩٠٢ هـ ، فترك القاهرة هو وجماعة من أتباعه ويغم شطر بلاد الشام ، عاثا بما يمر به من البلدان . وكانت هذه آخر مرة يفاوذبها القاهرة ، فلم يعد إليها بعد . - ولما بلغ مدينة غزة استولى عليها ، فرأى الأمراء في مصر أن يعيشوا في إثره تجريدة تكلف أذاه عن ممتلكات الدولة . إذ أنه جازل اقزاع بلاد الشام وحاصرها نحو شهرين ، فدافع عنها أمراؤها وجندها ، ففر إلى جلب فلم يستطع الاستيلاء عليها ، على الرغم من الضياع نائبا إليه ،

فمن ولایاه وجماعته ما إلى «على دولات» ببلاد التركان . وقد أرسلت التجريدية إثر ذلك ، وقدمها الأمير كرتبای الأحمر قائما على بلاد الشام . وقد تقيمت هذه التجريدة إلى «أقردی» حتى قابله هو وعصايته في جهة «عيتاب» وهزمت هزيمة منكرة . ففر «أقردی» مغلوبا . ومن ثم عادت التجريدة إلى مصر فعاد هو إلى عهته بالبلاد الحلبية . كل هذا وقع من «أقردی» ، وظل الملك الناصر يمتحن بأمره ويود لو أنه عاد ليضرب به المستبدین المتغلبين عليه مثل قانصوه بن جلاله وكرتبای الأحمر نائب الشام وغيرهما ، لذلك هم بالسفر إلى الشام وحلب في تجريدة يدعوى قتال «أقردی» ، ومن ثم يضمه إلى جانبهم ويعود به إلى مصر . فكانت هذه الفكرة سببا في فتنة سرت بلبسها بين الأمراء ثم سكنت قليلا . ودُبريت مؤامرة لاغتيال السلطان فنجحت ، وتبع عنها أن آلت السلطنة إلى خاله قانصوه بن قانصوه . وبذلك فقد «أقردی» كل أمل في الرجوع إلى مصر . غير أن «أقردی» لم تخف وطأته على بلاد حلب والشام . فرأى الأمراء أن يعيّن نائبا للسلطان في طرابلس ، ورسم السلطان هذا في رمضان عام ٩٠٤ هـ . وقد بلغ هذا التقليد إلى «أقردی» وصولح في حلب . وأخذ يعد العدة للسير إلى مقر نيابته طرابلس في شوال من العام المذكور . غير أنه مال إلى غير قليل . ثم توفي في ذي القعدة من العام نفسه وهو في حلب ، بسد هذه الحياة الطويلة المليئة بضروب الكفاح والنزاع وقيل اعترته وهو في حلب آفة جلدية قضت عليه . فدفن في ضريح سعد الأنصاري ، ثم نقلت جثته إلى القاهرة في أواخر صفر سنة ٩٠٥ هـ ، ودفن بقرية التي أنشأها بالبحراء . وله من العمر أقل من ٥٠ سنة . وبما يذكر أن ابنة الأمير «أقردی» تزوجها الأمير طومان باي الدوادار الذي ملك البلاد بعد النوري .

«ابن إياس» ج ٢ من ص ٢١٢ إلى ٣٦٢ — ج ٣ من ١٠٥ — الضوء ج ٢ رقم ١٠٠٢ .

٣٥ — كرتبای الأحمر بن مصطفى ٩٠٤ هـ

من أمراء عهد قايتبای ، وكان أول بروزه في المسرح السياسي والميدان العملي في عام ٨٩٠ هـ . إذ أسند إليه السلطان المنصور عية من الوظائف منها جمهورية الحجاب بطرابلس ونظر جيشها . ثم انتقل إلى نيابة صغد . ثم تنقل إلى أيام حتى سنة ٩٠١ هـ فاندس في الفتنة المشجولة بين قانصوه بن جلاله وأقردی الدوادار . وكان من أنصار

فانصوه في حوادث المنصورة المذكورة وعاونوه على خلع السلطان الأشرف قايتباي
وعولية ابنه الناصر محمد . ومن هنا أصبح كل منهما ذا حظ كبير وسلطة هائلة . وصار
يديرهما جميع أمور السلطنة . أما قانصوه فأصبح أمينا . وأما ذكرتباي ، فقد صار
وزيراً وأستاداً ، وكشف كشافه ومقدم ألف . وقد أجرى في هذه الآونة ضرباً
من العدل بين الناس والرافة بهم . فأبطل نظارة الأرقاف لأنها كانت مصدر إهوان
وجور . وأبطل ضرباً من المكوس . وحجر على الرسل والنقباء . يئس في القضاء .
ألا يأخذوا من الأخصام أكثر من نصف قضية . وهكذا وكان تعيينه في الوزارة
في شهر رجب الحجة سنة ٩٠١ هـ .

وقد اشتد ذكرتباي ، في تتبع أنصار أقردي والتسكيل بهم ، فشدت شملهم في
أرجاء البلاد وفرق جموعهم . وقشن رخل أقباي الطويل نائب غزة إذ ذاك وهو
متوجه إلى مقر عمله خشية أن يكون قد أخفى أقردي معه . وقد قام بالتفتيش بأمره
وأمر قانصوه ، والى الشرطة . فلم يجده ، مع أنه كان عتقياً عنه . وعذب نفس الدين
الفرقي إمام أقردي . وهكذا

ثم إنه اشتد أيضاً في معاملة الملك الناصر بن قايتباي لصغر سنه وكثرة هواه وجنوحه
إلى اللعب . حجر عليه وكره به أربة من الخاصكية يمتونه الاختلاط بسواه من
الصنية ، ومن التصرف في الأمور . فكان ذلك سبباً في حق الملك عليه وكرهه إياه .
وأدى ذلك إلى اضطراب الأمور . حدث قانصوه تحسناً بالسلطنة . وعاونوه
وتحت بيعته وخلق الملك الناصر . غير أن ذلك لم يدم إلا نحو ثلاثة أيام ، ثم قاومهم
الناصر همه غاله قانصوه بن قانصوه ، فتحاذلوا واشتق قانصوه تحسناً بعد عراك كبير .
أما ذكرتباي ، فإنه رخل إلى المطرية للأسيلا على ما فيها من الخيول . ثم فر قانصوه
إلى الشام ، ووقعت بينه وبين أقردي مناورات أدت إلى هزيمة قانصوه وعدم العثور
عليه ، فكان هذا آخر العهد به . كما بينت أما ذكرتباي ، فإنه اشتق منذ ذلك الحين
ويطعم من مناصبه وأسندت إلى سواه . وما زاد الطين بلة أن الأمين أقردي كان قد عاد
إلى القاهرة وعاد إلى مناصبه ، فلم يعد تمت عيش ولا مقام في مصر للأمين ذكرتباي .
غير أن الظروف دارت بغيرها والتأتمت عصابة قانصوه تحسناً حول حال الناصر قانصوه
ابن قانصوه المباري . لأقردي ، وعصايقه . ولابد أن القتال بين الفريقين ظهر ذكرتباي

الأمير وانضم إلى شيعة قانصوه بن قانصوه ، فرادوا به قوة وتماسكاً ، واهزموا أقبردى ،
 فصر إلى بلاد الشام . وبذلك صفا الجو مرة أخرى للكرتباى . فأخذ في تتبع أنصار
 أقبردى بمرة أخرى قتلًا وتشيتاً . ثم كل هذا في عام ٩٠٢ هـ .
 وفي الحرم عام ٩٠٣ هـ وفي دكرتباى ، إلى أمير سلاح . ولكن يظهر أنه
 أجس بكراهة الملك الناصر له . ولم يعد هو يستطيع ردًا لهذه الكراهية . ولا بدله
 من الأعضام المرير عليها . فاستقال من مناصبه . فرأى الملك أن يعينه في منصب بعيد
 عن مصر ، فاختار له نيابة الشام ، لكي يعد هناك العدة ويجهز للتجريدة المرسلة للقضاء
 على أقبردى . فسافر بعد قليل إلى بلاد الشام . فأبلى هناك في حرب أقبردى بلاء حسناً ،
 وطارده هو ومن معه . ثم عاد إلى الشام فاستولى على قلعتها وطردها . ونصب نفسه
 نائباً لها أيضاً دون إذن من السلطان . فبعث إليه السلطان خطاباً رسمياً مع أحد رسله .
 فعاد من لدنه دون طائل . فيكأن هذا بمثابة المزجج عن طاعة السلطان . ثم دبرت لهذا
 السلطان مؤامرة عاجله الموت فيها . فلم يستطع القصاص من هذا الخارج . وألجأ السلطنة
 إلى نجاله قانصوه بن قانصوه . وبينما الأمور آخذة في الاستتباب لهذا السلطان الجديد
 إذ وافقت الأخبار بموت دكرتباى ، الآخر ، وقيل حينئذ إن الملك الناصر كان قيد
 دس عليه من وضع له السم فقتل عليه . وكان موته في ربيع الأول عام ٩٠٤ هـ .

« ابن أبي عمير ج ٢ ص ٢٧١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٣ ،
 ٣٢٤ إلى ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٢٢ ، ٣٣٤ إلى ٣٣٦ ، ٣٤٠ إلى ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٥١ » .

٣٦ - أربك اليوسنى ٩٠٤ هـ

أحد رجال عصر قايتباى . وكان أولاً من مائليك الظاهر جقق ثم اعتق . وعرف
 بأربك الخانندار ، لأنه تولى منصب الخانندارية الكبرى أول حياته العملية الرسمية .
 ثم أخذ يتولى صعداً في سلم الرق حتى صار أميراً مقدماً ، واختير لإمارة زكبت المحمل
 عام ٨٨٧ هـ . ولم يحمّد سيرته . ثم عينه قايتباى رأس توبة كبير عوضاً عن تفرى بردى
 طغر المتوفى . وكان تعيينه في شهر ربيع الثاني عام ٨٩٤ هـ . وفي شهر صفر عام ٨٩٨ هـ
 ندب لتأديب الثائرين في بلاد البصرة . فكان على رأس تجريدة تضم عدداً من أمراء
 العشرات والجنود . فأدى مهمة وعاد بعد قليل .

وفي ربيع الأول عام ٨٩٩ هـ توفيت زوجته . وهي إحدى قريبات الملك الظاهر جقمق ، وكانت من قبله متزوجة بالأمير تيم الميمني نائب الشام .

وفي شهر صفر في يوم الاثنين أول عام ٩٠١ هـ ، رقى الأمير أربك اليوسفي إلى أمير سلاح عوضاً عن ثاني بك الجلال . وفي ذى الحجة من العام نفسه ، بعد أن آلت السلطنة إلى الناصر محمد بن قايماي ، ظفر الأمير « أربك » منه بتقدمة ألف . غير أنه في رجب عام ٩٠٢ هـ ، سادت علاقته بالسلطان المذكور فرسماً بنفيه . ويظهر أنه انضم حينئذ إلى حزب قانصوه خسمائة ، فلما انهمز واختفى اختفى أنصاره ومنهم أربك اليوسفي . ثم ظهر من اختفائه في ذى الحجة عام ٩٠٢ هـ ، حينما اشتد النزاع بين أقبردي وقانصوه ابن قانصوه ، فانضم إلى هذا الأخير في جملة من انضم من عصابة قانصوه خسمائة . فلما تغلبوا على أقبردي واستتب لهم الأمر ، كان من نصيب الأمير « أربك » أن يرقى إلى مقدم ألف وأعطى لقب مشير المملكة في المحرم عام ٩٠٣ هـ . غير أنه كل قد شاخ وهرم وكبرت سنه حتى أصبح لا يقوى على العمل . حتى إن السلطان الظاهر قانصوه ابن قانصوه لم يجد بداً من أن يزرع منه تقدمته وينهبها لغيره ، فأنضم بها على الأمير أزدمر ابن علي باي في جمادى الأولى عام ٩٠٤ هـ ، فأصبح عاهلاً دون عمل ، فما لبث بعد هذا إلا رمضان من نفس العام ثم توفي . فعلى عليه السلطان قانصوه ودفن بمدرسته التي أنشأها . وكان لين الجانب دمع الأخلاق ومات وقد نيف على الثمانين .

د ابن إياس ج ٢ ص ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢٥٩ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٣٠٤ ، ٣١٦ ، ٣٢٦ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦ - الضو. ج ٢ رقم ٨٤٧ .

٣٧ - أقبای الطویل ٩٠٥ هـ

قال عنه ابن إياس : « وفيه - أي في جمادى الآخرة سنة ٩٠٥ هـ - جاءت الأخبار من القدس ب وفاة « أقبای الطویل » الذي كان نائب غزة . ثم بق رأس توبة كبير ، وفر مع أقبردي الدوادار لما انكسر وخرج من مصر وآل أمره إلى أن أقام بالقدس بطلا حتى مات . وكان أصله من « ألبك الأشرف قايماي » وقيل لأنه مات مسدوما . وكان شجاعاً بطلاً ، وجرت عليه شذائد وعن وقاسي ما لا خير فيه بسبب محبته لأقبردي الدوادار . وهو الذي كان سبياً في نصرته على قانصوه خسمائة في الواقعة بمخان بونس

الذى بقرب غزة . وهو غير أقبای الطويل الذى ظهر فى عهد الأشرف الغورى . ملحوظة : اقرأ ترجمة أقبردى الدوادار فيها ذكر لأقبای الطويل .

• ابن إياس ج ٢ ص ٣٦٣ - الضوء ج ٢ رقم ٩٩٤ .

٣٨ - الأمير تانى بك قرا ٩٠٥ هـ

قال عنه ابن إياس : وفى شعبان فى يوم السبت سادسه - عام ٩٠٥ هـ - جاءت الأخبار من القدس بقتل « الأمير تانى بك قرا » . وكان مقبلاً بالقدس . وكان من عصابة أقبردى وفر معه . فلما استقر بالقدس توجهت المراسيم بخفقه ، غلق وهو بين أولاده وعياله . وكانوا توجهوا إليه . وكان له فى يوم الأحد ثانى عشر من رجب ، ودفن بالقدس . فلما جاءت الأخبار بوفاة أسف عليه الكثير من الناس . وكان أميراً جليلاً رئيساً حشماً ابن الجانب قليل الأذى كثير الخير . ومن آثاره السيل والصهرج الذى أنشأهما برأس سويقة ابن عبد المنعم تجاه الزميلة ، وصرف على ذلك من ماله مالا له صورة ، فلما كمل بناء ذلك قدم هذا السيل والصهرج للسلطان قايتباى ، فصار ذلك يعرف بسيل السلطان . ومن آثاره المبدع الطيف الذى أنشأه ببحار بيته عند خوخة القردى . وكان أصله من ماليك الأشرف إبنال ورقى فى دولة الأشرف قايتباى . وتولى عدة وظائف منها : تاجر الماليك والدوادية الثانية ، ثم بقى مقدم ألف ثم بقى حاجب الحجاب ، ثم بقى رأس نوبة كبير ، ثم بقى أمير مجلس . ووقع له من الشدائد والحن ما يطول شرحه . وفاته القتل عدة مرار . وفر مع أقبردى إلى البيرة وعدى الفرات . وكان موصوفاً بالفروسية والشجاعة . ومات وله من العمر زيادة عن ستين سنة . . .

• ابن إياس ج ٢ ص ٣٦٤ ، ٣٦٥ .

٣٩ - مصر باى الدوادار ٩٠٧ هـ

أصله من ماليك الأشرف قايتباى ، ثم أعتقه . ودفعت به الإنداز حتى عين فى عهد السلطان جان بلاط درادار كبيراً فى جمادى الأولى سنة ٩٠٦ هـ . ولما ناز طومان باى ضد الأشرف جان بلاط وأعلن بنفسه سلطاناً على الشام وأخذ فى الزحف على مصر ، كان « مصر باى » الدوادار من حزب جان بلاط ، وانضم إليه وحارب فى صفوفه .

وكان نصيبه أن أزيل من فوق فرسه ، ففروغنا بنفسه واختفى ، وتم الملك للعاذل طومان باي . ثم دبر مصر باي : مؤامرة لاغتيال العادل وإزالته من كرسيه ، وانضم إليه الأمير قيت الرجي والأمراء خشكاوي البيسقي وجان بردى الغزالي وغيرهم من أعداء العادل . وكانت النتيجة خلعهم من عرشه واختيار الغوري للجلوس عليه ، فساد بذلك « مصر باي » إلى دواوينه الكبرى . غير أنه ما لبث أن غضب عليه السلطان الغوري فقبض عليه في يوم الثلاثاء ١٢ محرم عام ٩٠٧ هـ . بعد مشورة الأمراء ، وقيل كان هذا القبض بدون سبب . . . وبذلك خلع من منصبه وعين فيه سواه . ثم بعن بشر الإسكندرية . ولكنه سرعان ما احتال حتى فر من بيته . وقيل دس له بعض أتباعه مبردا كسره قيده وفر ودخل القاهرة . ولعل الأمراء اشتبوا منه رائحة أطماع وأهواء ، غافوا على أنفسهم مغبتها . فتصغروا للسلطان بالقبض عليه فأطاعهم . وكان ما كان من بيته ثم فراره . فلما بلغت أخبار هذا الفرار أسماع الأمراء اضطربوا ، وأخذوا إلى القاهرة ينجأ المنازل والمجان باحثاً عنه فلم يثر عليه . أما « مصر باي » فإنه جمع بعض أتباعه من المالك ، وأراد أن ينجأ بهم عدداً من أعدائه من الأمراء ليقتلهم ، والنفس لتلك فرصة تزولهم بعد تناول الفطور مع السلطان بالقلعة ليلة الإثنين ١٢ رمضان سنة ٩٠٧ هـ . وقد انجلت حركته هذه عن ثقلت أتباعه ، وعن قتله هو في صباح الليلة المذكورة : أعني يوم الاثنين .

« ابن أبي شام » ج ٢ ص ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٣٩٥ - « راجع ٤ ص ١٧ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٦ ، إلى ٢٨ » .

٤ - المقر الشهابي أحمد بن الميني ٩٠٩ هـ .

ظهر في عهد السلطان الظاهر خشقدم . وهو من كبار الأعيان وزو ساء الأمراء . وهو حفيد السلطان خشقيم . أمه ربيعة هـ هذا السلطان ، وأبوه عبد الرحيم بن قاضي القضاة بدر الدين محمود العميق الخنق . توفيت أمه في أوائل سنة ٨٦٧ هـ . وكانت لها جنازة حافلة . وفي عام ٨٦٩ هـ . عينه السلطان أميراً للحج ، وأنعم عليه بتقدمة ألف . فسافر في آخر يات العام أميراً للحمل ، ومعه الأمير بشيك الفقيه أميراً للركب الأول . ورجعت معه خويوند الأجدية زوجة السلطان خشقدم . وقد كان « المقر الشهابي أحمد بن

العيني، في هذه الحجة مثالا لأبناء الملوك وعظماء الرجال . فقد كانت له مهابة وجلال ،
 وخرج يركبه في أجل زينة . وكان رحله على أنواع الجواهر واليوافيت والذهب ،
 ونحوه عدد من الأمراء والمباشرين . ثم عاد من مكة في أوائل عام ٨٧٠ هـ ، وفي عام
 ٨٧٣ هـ ، خلع عليه السلطان وجعله أميراً آخر كبيراً عوضاً عن بلجاش التتويدي .
 ووثق به ووكّل إليه كثيراً من شؤنه ، حتى صار صاحب الحل والعقد في الديار المصرية .
 وأنشأ حينذاك قصره العظيم المطل على البحر بمنشية المهراني — جهة الفسطاط — فلما
 كملت عمارته شرفه السلطان بالزيارة في حفل عظيم — ولما دلت دولة خشدقدم وخلفه
 في الملك السلطان الظاهر بلباي المنيدي خلع على الأمير « أحمد بن العيني » لقب أمير
 مجلس عرضاً عن تمريرها الذي صدار أنا بكيها ، وذلك في أول واکبه عام ٨٧٢ هـ حتى
 شهر ربيع الأول . فلما ارتقى « ابن العيني » إلى هذه المرتبة تحول من منزله إلى بيت
 بجاني بك . — نائب جده — المطل على الخليج وسكن به . وسرعان ما آلت السلطنة إلى
 تمريرها نفسه ، وهو الملك الظاهر أبو سعيد الظاهري عام ٨٧٢ هـ . في شهر جمادى الأولى .
 وهنا وقعت فتنة كثيرة وتولى السلطنة في الواقع ثلاثة من السلاطين هم : تمريرها وخير بك
 والأنا بكي قايتباي . ثم كانت الغلبة والنصرة لقايتباي . فسكان لا بد له من أن يفجأ
 أعداءه بالتبعض عليهم . وكان من بينهم « المقر الشهابي أحمد بن العيني » ، فسجن بالقلعة
 عقيداً ومعه خير بك الذي سُلطن نفسه . ثم نقل بعد قليل إلى مكان بالقرب من القصر
 الكبير بالقلعة . ثم فرض على كل منهما غنم مالى كبير . وكان نصيب « ابن العيني » .
 أن فرض عليه نحو مائتي ألف دينار ، خلا ما يدخره من النقائس والسلاح . — وقد
 بدأ بذلك نجم « ابن العيني » في الأقوال . فإنه لم يستطع أن يفي بما فُرض عليه فاستحضره
 السلطان قايتباي في أحد أيام شعبان عام ٨٧٢ هـ . بين يديه في الدهشية . وأسمعه من
 الكلام قاربه وبطحه على الأرض وضربه بيده عشرين عصاً تقريباً حتى أدامها فأغشى
 عليه . وشفع فيه بعض الأمراء فتركة . وأعيد إلى طبقة الزمام ، فأقام بها أياماً ، ثم تسبّله
 الدوادار الكبير شبك بن مهدي فأعقله في داره ، حتى يؤدي ما فرض عليه من الغرم
 إلى . وقد اتهم بعض الرجاج فرصة يؤسه ونحوه ونهبوا داره وما فيه من نقائس
 تقدر بنحو خمسين ألف دينار ، مع أنه رشح مرة السلطنة . وكان في جام عريض وكنية
 نافذة ، حتى كان يطلق عليه « وزير مصر » . — ثم إنه أدى بعض ما فرض عليه من

المال وأطلق سراحه ، وقد توسط له الأمير يشبك الدوادار والتزم « ابن العيني » أن يورد كل شهر عشرين ألف دينار . ولكن نزعان ما قبض عليه ثانياً حتى يؤدي ما تبقى . فأداه . وحينئذ رضى عنه السلطان فخلع عليه وأطلق سراحه ، فلبث من ذلك الحين بلا عمل . ولكنه حسن الصلة بالسلطان مختاراً السلامة والمأوى عن الكفاح والجلاد . فلان له السلطان ونصب له في بعض قضاياء التي لم ينفذ الحكم فيها بعض قضاء الشرع فوجهم وعزلهم .

واتهم « ابن العيني » فرصة ختان ابن السلطان في شهر رجب سنة ٨٩٥ هـ ، وأهدى إليه تحفة ثمينة وهي طست وإبريق من الذهب زنتها مائة مثقال وبعيها هدايا . أخرى ، فكانت هدية من خير ما أهدى إلى السلطان . ثم تقدم « ابن العيني » في طلبه الأمراء الذين احتفلوا بركب ابن السلطان فكان مسكاً بزام جواده . وله ابن يقال « محمد بن العيني » كان ذا عظمة وجاءه كآبيه ، ولكنه توفي في حياة أبيه ، فأدركه القنوط واختار مكة للإقامة فيها ، فسلخ فيها نحو ست سنين حتى نت سلطنة الغوري ، وحدثت ببلاد الحجاز فتنة الجازاني وذهب الأتابكي قيت الرجنى لإطفائها ، فأمره الغوري أن يستعصب في غودته والشهاب بن أحمد العيني ، مكبلاً في الحديد ، فوجده قد مات بالمدينة بعد أن قرمن وجهه الجازاني . وقد ذفن بالقيع وذلك عام ٩٠٩ هـ .

« ابن لإباس ج ٢ ص ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٩ إلى ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ٩١ إلى ٩٤ ، ١٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣٧٢ ، ٣٥٢ - ج ٤ ص ٥٧ حوادث ربيع الأول سنة ٩٠٩ هـ .

٤١ - علاء الدين علي بن أبي الجود ٩٠٩ هـ

من رجال عصر الغوري . قيل إن أصله سوقي من الصليبية . وإن أباه كان نجاراً يقال له « المعلم حسن » . ثم تشق صناعة الحلويات وسمى نفسه « أبا الجود » . وأقام زماناً طويلاً يبيع الحلوى بباب حمام شيخو . فلما مات خلفه ابنه علي في حناعته . قيل « وكان يفتي المشبك وينه في رمضان » . ثم اتصل بالأستاذ نوري بردى . فاتخذته برداراً - حافظ الثياب - ثم اتصل بالعدل طومان باي قبل سلطنته فاتخذته أيضاً برداراً . ثم اتصل بالأشرف الغوري قبل سلطنته فاتخذته برداراً أيضاً . فلما آلت إليه السلطنة استبقاه برداراً كذلك ، وحظي عنده فواد جاءه ونفذ كلمته . ثم وكل إليه هذا السلطان النظر في الأوقاف مندوباً ثم نبته

نتهايا فيه في جمادى الأولى سنة ٩٠٨ هـ ، فرادت عظمته وتشبه بالأمراء وليس الطوق وركب الخيل واحتذى بالأخفاف والمهايز ، حتى عد من بين رؤساء مصر . وضمت إليه وظائف أخرى منها وكالة بيت المال ثم الوزارة ، والأستادارية ، وديوان الخاص وغير ذلك . قال ابن إياس : « فاجتمعت فيه السكعة وتصرف في أمر المملكة بما يختار » .

وقد قرر عليه السلطان الغورى مبالغ اثني عشر ألف دينار ينفقها شهريا على الجوامك ، ويجمعها من أبواب المظالم التي ينظر فيها . فاضطر إلى أن يعتسف الناس ويحور عليهم . ويصادر منهم ليجمع ما طلب منه من المال ، واشتط في عسفه وجوره وسوء حكمه بين المتخاصمين ، حتى ساءت سمعته وكرهه الناس بعد أن كانوا يعظمونه ، ولا أدل على تعظيمهم إياه من أن القاهرة ازدانت له في ليلة ختان ابنه في ذى القعدة سنة ٩٠٧ هـ .

فلما زاد ظلمه وكثرت الشكاية منه غضب عليه السلطان وقبض عليه وصادر ماله . واحتجز نسائه وحاشيته . وسلبه إلى بردار بهركت بن موسى ، ليعاقبه ويستخلص منه . ما لا قرر عليه ، فضرب ضرباً مبرحا وعذب . ثم قتل إلى بيت الوالي ، فقيده حتى أدى حيا عليه من المال المقرر . غير أن السلطان رسم بشنقه يوم الاثنين ٢٣ المحرم سنة ٩٠٩ هـ ، فشنق على باب زويلة . واستمر معلقاً هناك ثلاثة أيام ثم دفن . واحتاز السلطان ما وجد له من المال .

ترجمته في ابن إيليس ج ٢٠ ص ٣٨٧ - ج ٤ ص ٢٩ ، ٣٥ ، ٤٤ إلى ٤٧ ، ٥٥ ، ٥٦ .

٤٢ - الأمير طراباى الشريف ٩١٧ هـ

ترجم له ابن إياس فقال ما ملخصه : في يوم الجمعة ٦ المحرم سنة ٩١٧ هـ كانت وفاة الأمير طراباى الشريف . رأس توبة النوب ، وكان أصله من ماليك الأشرف قايتباى ، فهو من معانيقه . وولى من الوظائف السنية الدوادارية الثانية . ثم بقى رأس توبة النوب في دولة الأشرف جان بلاط عروضا عن قرقاس بن ولى الدين الذى ولى الأتابكية فيما بعد . وكانت وفاة الأمير طراباى في ليلة الجمعة ودفن صبيحة يوم الجمعة . وكانت جنازته مشهودة . ووزل السلطان وصلى عليه في سبيل المؤمنين . وأخرجت قدماه كفارة . ونهبت على باب . وذقت عليه زوجته بالطارات في الهراء . وكانت مدة اقتطاعه بهذا الغارض نحو شهر . وكان له بحصر حريمة وافرة وكلمة نافذة وسطوة زائدة ، لم تقع لأحد

من الأمراء في عصرنا غيره . وقد اعتراه ورم في رجله وركبته . فرجت لموته القاهرة ، وفرح بذلك غالب الناس . فإنه كان صارما عسوقا شديد اللئاس زائد القسوة ، وقع منه أشياء كثيرة من أنواع المظالم بالديار المصرية ، لم تقع من غيره من الأمراء فيما تقدم ، وحصل منه الضرر الشامل لجماعة كثيرة من الناس من مصادرات وأخذ بيوت ورزق وحل أوقاف وغير ذلك من مفاسده .

وكان من أول أمره في عز وذا شهامة لم يتكبر مرة ولم ينف مرة . ومات في نحو السبعين . واتضح أن له أموالا طائلة وخيلا وجمالا وسلاحا ، فاستولى السلطان القورى على ذلك كله . وكان بينه وبين الأتابكي قر قاس بن ولى الدين في الموت ثلاثة أشهر واثنا عشر يوما .

وقد نال الأمير « طراباى الشرىنى » لقب أمير أخور رابع ، في شهر ذى الحجة سنة ٩٠٩ هـ ، في عهد الناصر محمد بن قايماى . ثم ارتقى إلى الأمير أخورية الثانية وذلك في أوائل سنة ٩٠٣ هـ . ثم إلى الدوادرية الثانية في ربيع الأول سنة ٩٠٤ هـ ، وفي شوال من العام المذكور ثار العرب في البحيرة وزاد عبثهم وفروا إلى الميصرة ، فأرسل إليهم السلطان قانصوه تجريدة لتأديبهم كان من بين أمرائها الأمير « طراباى الشرىنى » فأصيب بجرح خطير شفى منه بعد حين . ثم كان رسولا لهذا السلطان بعثه إلى الأمير طومان باى الدوادان ، وكان قد أعلن عصيانه بالجيزة في ذى القعدة من نفس العام ، فلم يلح في وفادته . وكان عسيان طومان باى سببا في ضياع ملك قانصوه وأيلولة الملك إلى الأشرف « جان بلاط » . فعاد طومان باى عصيلته وأعلن بنفسه ملكا على بلاد الشام وتلقب بالعاذل . ويظهر أن « طراباى » انضم إلى شيعته في الخفاء بدليل أن « جان بلاط » لم يلقبض على طراباى . بكرة ومنعه نحو ساعة من الخروج من القلعة ثم أطلقه .

ومع ذلك ثبت معه « الأمير طراباى » الشرىنى أثناء زحف العادل طومان باى على القاهرة . إلا أنه لم يلبث إلا ريثما شعر « جان بلاط » بالهزيمة ودخل إلى دور الحریم بالقاهرة فأبطأ زمنا اتهمه الأمير « طراباى » وحل النجاة والترس السلطانيين وهما علامة السلطنة وفرهما إلى العادل . طومان باى ، وأشاع أن الأشرف « جان بلاط » غر من القلعة . فكان هذا العمل من أهم الأسباب التي أدت إلى هزيمة « جان بلاط » . بنصرة « طومان باى » . فألت إليه الساطنة فلما استتب للملك خلع على الأمير « طراباى » .

وعينه رأس نوبة كبير في وجب عام ٩٠٦ هـ وبعد أيام رسم هذا السلطان الأمير
وطرا باى ، بأن يحمل أعباء الأناطكية مندوباً ريثما يعين فيها أميراً آخر . فقام بهذه
المهمة . ثم عاونته بعض المعاونة في الثورة التي شبت ضده وأفلحت في خله فألت السلطنة
حينئذ إلى الأشرف الغورى .

وفي ذى القعدة عام ٩٠٨ هـ سار على رأس جماعة من الممالك السلطانية لإطفاء ثوران
عرب الشرقية والغربية . وظل يقوم بمثل هذه الأعمال حتى وافاه أجله ، وينسب إليه
بعض الظلم والجور كما بينا .

« ابن إياس ج ٢ ص ٣٠٥ ، ٣٣٢ ، ٣٤٦ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، إلى ، ٣٥٧ ، ٣٦٨ ،
٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٥ - ج ٤ ص ١٧ ، ٢٠ ،
٣٠ ، ٥١ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١٥٩ ، ٢٠٨ . »

٤٣ - خاير بك الخازندار ٩٢٠ هـ

قال عنه ابن إياس ما مؤاده : « في يوم الجمعة تاسع شهر رمضان كانت وفاة الأمير
« خاير بيك الخازندار ، الكبير أحد الأمراء المقدمين وصهر السلطان ، زوج أخته
قديما . فأخرجت جنازته من بيته الذى عند الجامع الأزهر ، وتوجهوا بنعشه إلى سنبل
المؤمنين ، فزل السلطان له وحضر الخليفة وصلى عليه . وكانت جنازته حافلة ومشيت فيها
القضاة والأمراء المقدمون وأعيان المباشرين وغير ذلك من الأعيان . ودفن في تربته
التي أنشأها بالصحراء . وكان أصله من ممالك الظاهر خضعة دم . وكان متزوجاً بأخت
السلطان قانصوه الغورى من حين كان جنداراً . فلما ملك الغورى أنعم عليه بإمرة
عشرة . ثم عين خازنداراً كبيراً ثم أميناً للسلطان على خزائن الأموال وغيرها ،
وأصبح ذا مشورة مزعية لدى السلطان ، وذا أثر في تدبير أمور المملكة . ثم أنعم
عليه بتقدمة ألف قاتسع جامه . وأصبح من أقرب المقربين لدى السلطان . ومات وله
من العمر نحو ثمانين سنة ، وله من المال والجمال والحيل والبغال والتماش والسلاح شيء كثير . »
« ابن إياس ج ٤ ص ٣٦٤ ، ٣٩٧ ، إلى ، ٣٩٩ . »

٤٤ - قانى باى قرا ٩٢١ هـ

قال عنه ابن إياس ما مؤاده : « في يوم الجمعة سادس وعشرين من هذا الشهر - ربيع
الأول عام ٩٢١ هـ - كانت وفاة الأمير قانى باى قرا ، أمير آخور كبير الذى كان

باش العسكر المتوجه إلى حلب . وكان موته بقتة ، ومرض خمسة أيام فقط ؛ حتى قيل إنه مات مسموما من بعض أخصائه . وأصله من ممالك الأشرف قايتباى ثم اعتقه وأعطاه خيلا وقاشا . ثم صار جامدارا فسلحدارا . ثم أمير عشرة في سنة ٨٩٨ هـ . ثم عينه نائبا في صهيون وقيل إنه سعى لهذه النيابة بمال ، وتوسط له فيها الأمير دأزيك الخازندار . ثم نقل إلى حلب فظل بها زمنا يسيرا ثم نقل إلى مصر وأنعم عليه بمقدم ألف في دولة الناصر د محمد بن قايتباى . ثم ارتقى إلى الأمير أخورية الكبرى في عهد الناصر في المحرم عام ٩٠٣ هـ بعد قتل كرتباى الأحمر ، فظل في منصبه هذا حتى توفي .

أى مكث به نحو من ثمانى عشرة سنة وثلاثة أشهر . وكان أميرا جليلا في سعة من المال . ووجد له بعد موته شيء من المال كثير . ومن آثاره : جامع تجاه سوق الخيل . وجامع قريب من المهارة بجوار البركة الناصرية . وكان أسمر اللون طويل القامة وكزه المشيب . ومات وله نحو لستين سنة . واشتهر بالفروسية والشجاعة ولعب الرمح حتى كان يلقب بقاى باى الرماح . واسكنه كثيرا ما أساء إلى الناس في معاملتهم ، ولقي منه أهل الشام وحلب ظلما كثيرا حينما كان قائدا للجزيرة المرسلة إليهما . وكذلك كثيرا ما بطش بالفلاحين والعربان حينما كان يوجه إلى تأديبهم .

وأقامت له زوجته جنازة حافلة ومعزى حارا دام ثلاثة أيام بالتندب والدف . وزوجته تلك بنت الأمير د يشبك بن مهدى الدوادار . وبما يذكر أيضا أن ابنة قانى باى تزوجت عام ٩٢٢ هـ الأمير الماس وكان أمير عشرة يوم دخوله بها . واحتفل بعرسه أمراء المملوك .

د ابن إياس ج ٢ ص ٣٨٣ — ج ٤ من ص ٤٥٠ إلى ٤٥٣ — ج ٣ ص ١٠٠ ...

٤٥ — جان بردى الغزالى ٩٢٧ هـ

أحد كبار الأمراء الذين أثروا بسياساتهم وأعمالهم في مجرى التاريخ المصرى ، ووجهوه إلى نواحى خاصة ، وبعدم أبطال حصر الأشرف القورى . ويلخص تاريخ حياته فيما يلى : كان من ممالك الأشرف قايتباى ثم اعتق . وعين شادا في ضيعة الاستادار تغرى بردى في الشرقية ، وهى المسماة د منية غزال ، فنسب إليها . ثم رقى جدارا ،

ثم كان كشفًا للشرقية منذ عصر الملك الأشرف قايتباي إلى عصر قانصوه بن قانصوه .
وفي شعبان عام ٩٠٤ هـ غضب عليه السلطان المذكور لبعض هفواته ، وأمر بإعدامه
لولا شفاعته بعض الناس فيه . وفي عهد الأشرف جان بلاط أنعم عليه برأس نوبة ثان
في شهر جمادى الأولى عام ٩٠٦ هـ ، وانضم « جان بردى الغزالي » إلى جانب هذا
السلطان ضد مناوئته طومان باي المتملك ببلاد الشام ، والزاحف بمجنوده على مصر .
غير أنه ما لبث حين رأى جنود العادل طومان باي يتصرفون شيئًا فشيئًا أن زایل
سلطانه بالقلمة ، وانضم إلى خصمه العادل هو وآخرون ، منهم خاير بك السكشفي ،
وذلك يوم السبت ١٨ من شهر جمادى الآخرة عام ٩٠٦ هـ . وقد انتصر العادل طومان
باي في النهاية ، وأصبح سلطانًا على البلاد المصرية . فلما تم أمره أخذ يطهر البلاد
من بشعريتهم بالمنافسة ، وكان في مقدمتهم الأمير قصروه نائب الشام الذي عاونه أكبر
معاونة في الاستيلاء على مصر ، فقبض عليه وخنقه ثم قبض على أنصاره ، وكان منهم
« جان بردى الغزالي » كاشف الشرقية ورأس نوبة ثان . فسجن ، ثم نفي بعد قليل إلى
قوص . غير أنه اختفى بعد قليل ، حتى قامت قيامة بعض الأمراء على السلطان العادل
بزعامه قيمت الرجب ومصر باي ، في شهر رمضان عام ٩٠٦ هـ ، فظهر « جان بردى » ،
وانضم إلى صفوف الثوار ضد العادل في تلك الثورة التي أودت به ، وكانت عاقبتها أيلولته
الملك إلى الأشرف الغوري . فعين « جان بردى » في الحسبة ، يوم السبت ٦ شوال سنة
٩٠٦ هـ عوضًا عن قرقاس المقرئ ، ثم اختفى « جان بردى » لبعض الأسباب ، ثم ظهر ،
ثم عين بعد زمن في شهر جمادى الأولى عام ٩٠٧ هـ . في حجوبة الحجاب بحلب ، فخرج
إليه بعد زمن يسير ، ثم انتقل بعد مدة إلى نيابة صفد عام ٩١٧ هـ . وكان قد وقد على
مصر . بناء على دعوة من السلطان الغوري في ربيع الآخر عام ٩١٦ هـ . فأقام بمصر
أيامًا . وفي عام ٩١٧ هـ وقع بينه وبين الأمير سيباي نائب الشام شجار وجفاء ، فأرسل
السلطان الغوري في يوم الاثنين ١٦ المحرم في ذلك العام رسولًا من قبله ، من الخاصكية
اسمه طومان باي ليسافر إلى الشام ، ويقوم بمهمة الصلح بين الأميرين . وبعد مدة انتقل
« جان بردى الغزالي » إلى نيابة حماة عام ٩١٨ هـ ، فظل بها زمانًا طويلا إلى آخر العصر .
وفي عام ٩٢٢ هـ رحل السلطان الغوري في جيشه الكشيف إلى البلاد الشامية والحلبية
لملاقاة العثمانيين ، فمر على حماة فلقاه بها نائبها « جان بردى الغزالي » خير لقاء وأولم

له الولايات الحافظة . ثم زحف السلطان وتلاقى بالعثمانيين ، ولم يكن « جان بردى الغزالي » أحد الأمراء ازاحفين معه ، وظل في نيابته ، وقيل إنه أظهر الهزيمة فقت ذلك في عيinde السلطان . وكانت النتيجة هزيمة السلطان وضياعه في مرج دابق . وانضمت خيانة خاير بك نائب حلب ؛ إذ فر منهزما من تلقاء نفسه أمام العثمانيين ، فقتت فحشد الجيش المصري . أما « جان بردى » فإنه عمل على تمويه الجنود المصريين عن عودتهم إلى مصر . ثم إنه عاد إلى مصر مع بعض العائدين بمد الهزيمة في يوم الخميس ١٣ رمضان عام ٩٢٢ هـ ، فرشحه السلطان الجديد طومان باي لنيابة الشام . ووقع بين الأمراء خلاف وشجار بشأن الوظائف . ومن ذلك ما وقع بين « جان بردى الغزالي » وبين الأمير علان الدوادار الثاني . ولا شك أن هذا الطمع وعدم القدرة على حسيبه من أهم أسباب الهزيمة إذ به تفرقت القلوب .

وأخذ السلطان طومان باي في جمع جيش جديد لمكافحة العثمانيين بالشام ، واختار لقيادته الأمير « جان بردى الغزالي » . ثم تم تعيينه لنيابة الشام ، في يوم الخميس ٢٠ رمضان عام ٩٢٢ هـ ، وأطلق عليه منذ ذلك الحين لقب « ملك الأمراء » وهو لقب كثير إطلاقه في آخريات العصر . وفي أوائل شوال أخذ في أسباب الخروج بتجريدته إلى بلاد الشام ، وبعد لآى استطاع الأمير « جان بردى الغزالي » أن يخرج ببذنه التجريدة المفسكة . ثم أخذت بقاياها تلحق به شيئا فشيئا ، وأخذ في مضايقة العثمانيين جنواحي غزة ، ولكن تم انكسارهم أمام عيودهم في الأحد ٢ ذى القعدة ، وذلك بسبب تفرق قلوب الأمراء والجنود ، وتداعيمهم ونكاسلهم عن إلحاق بأمرهم حتى اضطر إلى أن يجمع عدا من الدربان هناك يستعين بهم في قتاله ، ولكنه لقي العثمانيين في فئة قليلة ، فانهزموا هزيمة منكرة بالقرب من « بيسان » وقتل عديد من أمراءهم وجنودهم . وقيل إن « جان بردى » نفسه جرح . ونهب ما معهم . وقد سلم من الموت من مجل بالحرب والفرار و لمل هذه الهزيمة كانت جزءا من برنامج الغزالي المتفق عليه مع العثمانيين - وعاد « جان بردى الغزالي » من هذه الهزيمة النكراء ، هروقلول جيشه ، فبجمل القاهرة في يوم الاثنين ٥ من ذى الحجة عام ٩٢٢ هـ بوجه قليل المتفكر مرة أخرى في بستان العثمانيين مع سلطانه طومان باي حيث عسكروا في الريدانية ، فلما تمت الهزيمة أيضا على الجيوش المصرية ، هرب « جان بردى الغزالي » ومعه عدد من المالك ، قيل أنهم

حجزوا إلى مكة ، وقيل إلى غزة . ثم تبين فيما بعد أنه إنما انهمز وقتما لحقت موضوعه .
رسمها مع السلطان سليم شاه العثماني . فكانت خطته هذه ، أو خيالاته تلك سببا لهزيمة
جيش مصر ، ولذلك سرعان ما غادر واتصل بالسلطان سليم ودخل إلى القاهرة في يوم الثلاثاء
١٨ المحرم عام ٩٢٣ هـ ، يحمل منشورا من سلطانهم يأمره له ، ثم قابله في وطاعة ، ومنذ
ذلك الحين انضى في وضع النهار إلى أمراء البلاد ومحتلها ، وأصبح شواظ نار على أهلها
وسكانها .

فقد حدث أنه في يوم الإثنين ١٦ صفر عام ٩٢٣ هـ ، دار عربان الشرقية ووقفوا
في طريق العثمانيين الزاحفين يتسقطون ما معهم من جمال وخيول وسلاح ويهبونهم
ويقتلون منهم ، بقادرسل إليهم السلطان سليم نحو ألف وخمسة مئتي عثماني بقيادة
الأمير « جان بردى الغزالي » فعاث بهم فسادا في بلاد الشرقية ، وقتل من عربانها
وأمر وسي ونهب ، وباع بعد ذلك ما تهيء وما سباه من نساء وبنات حتى بيعت البنت
بأربع أشرفيات . — وهكذا أصبح « جان بردى الغزالي » والأمير غازي بك الحاتتان
دخلا على السلطان سليم اللذين ساعدها على احتلال مصر بجيحاتهما . ولما استتب الأمر
العثمانيين بمصر عينه السلطان سليم ، نائباً عنه ببلاد الشام ، وجعل له حق التصرف في
حماة وحمص وصيدا وبيروت وبيت المقدس والرملة والكرك ، فأصبحت في يده البلاد
الشامية والطرز ابلسية . فخرج إليها حينئذ خرج السلطان سليم من مصر إلى بلاده في يوم
الخميس ٢٣ شعبان عام ٩٢٣ هـ . وبقى غازي بك « ملك الأمراء » نائباً عنه في مصر . —
وأصبح كل منهما يلقب بملك الأمراء .

واستقر « جان بردى الغزالي » نائباً عن السلطان سليم ببلاد الشام وأصبح له حق
التصرف في شئونها . وقد ظهرها من بعض العربان الثائرين بها . وخصوصا ناصر الدين
ابن الخش شيخ الأعراب والبقاع وغيرها بنواحي دمشق . وهو أحد المتعصبين
بربوعها . وفي شهر صفر عام ٩٢٥ هـ ، بلغه أن الأعراب استولوا في الطريق على
أموال ركب الحج الشامي في أثناء عودته من بلاد الحجاز ، ومنعوم من المسهر ، فذهب
« جان بردى » تواراً وقسح بهم وأعاد إلى الركب غنائمه وأمواله بعد أن غنم من
الأعراب الشيء الكثير . — واشتد « جان بردى » بعد ذلك في معاملة عربان
ببلاد الشام فجز في هذا الشهر دوس أربعة من كبار مشايخهم ، فكان ذلك سببا

في اضطراب جبل الأمن وهبوب الثورة عليه في جبل نابلس حيناً من الدهر . - وقد
أبلى « جان بردى الغزالي » بلاد حسنا في دفع الفرقة العابدين بسواحل الشام في عام
٩٢٦ هـ ، إذ قهرهم بعد أن أئخز قهيم وأسر وغنم . وأخذ في تثبيت مركزه في بلاد الشام
حتى أصبح بمثابة ملك عليها . فلما آل ملك بني عثمان إلى سليمان القانوني بن سليم في
عام ٩٢٦ هـ ، حدثته نفسه بالسلطنة على بلاد الشام والزحف منها على البلاد المصرية .
وتوترت أخباره بمصر ، فقبل أطاعه الجند ونادوا به سلطانا على بلاد الشام وأقبلوه
بالأشرف وخطب باسمه على منابرها ، وضربت السكة باسمه أيضا ، وأرسل هو لخاير بك
ليكون ملكا على مصر ويبقى هو ملكا على الشام إلى الفرات ، ليطرد العثمانيين . وأخذ
خاير بك ملك الأمراء ونائب العثمانيين بمصر يحصنها ويعد عدته ، وأرسل فأعلم السلطان
سليمان بما كان من أمر « جان بردى الغزالي » ، بذلك اعتبر خارجا وعاصيا للسلطان .
العثماني ، وذلك في ذي القعدة عام ٩٢٦ هـ . وقيل إنه حاصر حلب محاصرة شديدة ، ولم
يستطع الاستيلاء عليها . ولما زاد عيئه ببلاد حلب وسواها وترتب على ذلك قطع الصلة
بين الشام ومصر نحو ثلاثة شهور ، جرد عليه السلطان سليمان القانوني جيشا لإخضاعه .
فقسمت عليه الخزينة في ربيع الأول عام ٩٢٧ هـ . وقبض عليه وجز رأسه وأرسل إلى
إستانبول . وكانت هذه هي نهاية هذا الأمير .

« ابن لباس ج ٢ ص ٣٥٤ ، ٣٨٠ ، ٣٨٤ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٥ - ج ٤ ص ٦ -
١٨ ، ٢٣ ، ٢١٠ ، ٢٦٧ - ج ٣ ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦١ ، ٧٠ ، ٧٢ -
٧٨ إلى ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٤ -
١٥٧ ، ١٦٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٠٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٣٠ ،
٢٣٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، إلى ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ - السكواكب السائرة .
١ ص ١٩٨ » .

٤٦ - - خاير بك بن بلباي ٩٢٨ هـ

هو المعروف بملك الأمراء والذي ، اشتهر بأخى قانصوه البرجي . وهو أحد عظمى
الأمراء الجراكسة ، وقد بلغ من الجاه والمجد والسيادة حدا يفبط عليه ، وتقلب
به ظروف حياة جادة حتى بلغ بحيلته علفها ما لم يبلغه سواه ، وحتى أقى عليه حين من
الدهر كان نائبا على مصر ، شديها بالسلطان منه بالأمير ، ولكنه مع الأسف لم يسلك إلى مجده .

سبيلا مشرقا ، بل استخدم أخس ضروب الخيلة ، وسلك أربا المسالك وأحط السبل . حتى ليصبح اعتباره وصحة عار في تاريخ الجراكسة ، ونفرة ألم في تاريخ مصر . ولا بدح في هذا الوصف ، وما بالك بمن خان عهده وسططانه وأمثه وغدر بهم جميعا غدرا لم يسكنوا . يتوقعونه منه ، فإنه كان إحدى نواحيهم المأمونة فأتوا منها . وصعد على أ كف هذه الحيانة والغدر في سلم الرقي والجاه والمجد الزائف حتى أشرف منه على الغاية ...

وهو جركسي الجنس . وأبوه اسمه بلباي الجركسي ، وله ثلاثة إخوة طاشوا في كنف مصر ونعيمها زمنا طويلا ، منهم خضر بك . ومنهم جان بلاط وكان مقدما ألف . ومات مطلعونا في عهد الناصر بن قايتباي ، ومنهم قانصوه البرجي المعروف بالمحمدي ، ارتقى حتى بلغ نيابة الشام في عهد الغوري .

أما « خاير بك » الذي نحن بصدده . وهو أخوهم . فإنه كان من ممالك الأشراف . قايتباي ، وعاش في الطباق زمنا . وكان من الممالك السلطانية ، ثم أعتقه سيده ، وعينه جدارا ، غصاكيا ، ثم صاب أمير عشرة في دولة الناصر بن قايتباي عام ٨٩١ هـ ، ثم أمير طبائخانة ، ثم بعثه هذا السلطان رسولا من قبله إلى ملك العثمانيين في رجب سنة ٩٠٣ هـ . فرحب به وأكرمه ، ثم قتل الناصر ، ولا يزال « خاير بك » لدى ملك العثمانيين . وبلغها الخبر فاقبل ملك العثمانيين على « خاير بك » وقسا عليه وأسمعه قرص السكلام . فعاد من لدته في ١١ شعبان عام ٩٠٤ هـ ، في عهد الظاهر قانصوه بن قانصوه . ولما آل الملك إلى الأشراف جان بلاط أنعم عليه بتقدمة ألف ، ثم عينه مع نهريدة تسافر إلى بلاد الشام بسبب عسيان الأمير قسروه وانضمام طومان باي إليه ، فخرج في ربيع الأول عام ٩٠٦ هـ . فكان نصيبه القبض عليه وهناك وبجحه بقلعة دمشق مع كثير من الأمراء ، فلما تم الملك للمصادل طومان باي بعث مرسوما إلى الشام بالإفراج عن « خاير بك » . فبلغ القاهرة في آخريات شهر رجب عام ٩٠٦ هـ ، فأنعم عليه بتقدمة ألف كما كان في عهد جان بلاط ، ولعلها ترضية له لكسب جانبه ، ومع ذلك ثارت ثورة الأمراء على العادل وكان « خاير بك » من الثائرين معهم ، وفر جان ما آلت السلطنة إلى الأشراف الغوري بواسطة هؤلاء الأمراء ، ومنذ ذلك الحين أخذ نجم « خاير بك » في الصعود . ففي يوم الخميس ١٤ المحرم عام ٩٠٧ هـ ، أنعم عليه السلطان الغوري وعينه حاجب الحجاب ، وفي ذى القعدة سنة ٩٠٨ هـ ، سافر إلى الصعيد لتهنئة ثوران العربان هناك .

وظل يقوم بمثل هذه المهام حتى توفي أخوه قانصوه البرجى الشهير بالمحمدى نائب الشام .
فقرئ على موته عدة تغلات ، ومنها انتقال الأمير « خاير بك » نائباً على حلب ، فخرج
إليها في حفل حاشد في شهر جمادى الآخرة سنة ٩١٠ هـ ، فظل في هذه النيابة أمداً طويلاً ،
حتى حدث النزاع بين سلطان مصر الأشرف النورى وبين سلطان العثمانيين الملك سليم
الأول ، وخرج النورى سنة ٩٢٢ هـ ، للقاء خصمه في الديار الشامية والحلبية ، فكان
الأمير « خاير بك بن بلباي » نائب حلب قائد ميسرة الجيش المصرى ، وقد لاقى سلطانه
خيراً لقاء ساعة دخوله مدينة حلب وحمل بنفسه على رأس السلطان القبة والجلالة ...

ولما التقى الجيشان في « مرج دابق » ، وكادت الهزيمة تم على العثمانيين ويكتب
النصر لجيش مصر ، انسёл الأمير « خاير بك » نائب حلب مظهراً الهزيمة وتبرك ميسرة
الجيش ، فوقع الاضطراب في الحملة كلها وأقدم العثمانيون فرقوا هاشنو مندر ، ومناع النورى ،
وتهد السيليل بذلك لغزو مصر نفسها واحتلالها ، كل ذلك بسبب ما أظهره « خاير بك »
حين هزيمة هجره من برنامج منظم متفق عليه بينه وبين العثمانيين لحيانة سلطانه وبلاده .

ولما ولى من زمرا يم شطر حماد ومهد السيليل بها وبحلب العثمانيين . فلما ملك السلطان
سليم مدينة حلب وفد عليه نائبنا الجليل « خاير بك » لجسسه أحد أمرائه وخلع زى
الجرأ كسة ولبس زى التراكنة . وما أجل ما شبه به ابن لياس المؤرخ إذ قال : وهذه الواقعة
تغرب من واقعة ابن العلقمى وزير بغداد لما والس على الخليفة المستعصم بالله ، وملك
هو لأكو ، ثم اقلب عليه وقتله ، وقال : أنت ما فيك خير لاستاذك ، فما يكون فيك
الخير لى - وربما يقع ولخاير بك ، مثل ذلك .

ولكن - مع الأسف - كان السلطان سليم أكيس وأبعد نظراً من هو لأكو . لأنه
اصطنع هذا الخائن إلى أقصى حد ، وأسبغ عليه رضاه ليحكم بوساطته بلاده ، ويكشف
بقامها في يده . وقد كان .

وقد دخل « خاير بك » هذا مع العثمانيين وقت زحفهم على مصر . فلما تم لهم الأمر ،
عينه سلطانهم سليم نائباً عنه بمصر ، وقد تم تعيينه في يوم الثلاثاء ١٣ شعبان سنة ٩٢٣ هـ .
ودفع إليه خانم الملك ، وفضله على يونس باشا أحد أتباعه . فظل يحكم هذه البلاد باسم
العثمانيين حتى توفي . وقد وطد دعائم الحكم العثمانى فشنق ونفى وشرذ وصادر وأخلص
العثمانيين أكثر من إخلاصه لمصر ، ولقب بملك الأمراء . وشهد عصر سليمان القانونى .

حوظل يقوم في خلال نيابته برسوم الملك وما تقتضيه ظروف الحكم من احتفال بكسوة،
وفتح لشد ورعاية لجفل، وإطعام ثورة، وتصريف لأمور، ومنح رتب وتولية
حوظلين، وغير ذلك - وقد أخذ السلطان سليم معه في عرذته إلى عاصمته ابن الأمير
«خاير بك» رهينة في يده حتى لا يهرب من بعده بشيء . وقد توفي بعد زمن .

وعايد ذكر أن «خاير بك» عرض في يوم الأحد ١٦ الحوال سنة ٩٢٣ هـ ، بذاجية منشية
المهراني بالفسطاط سبقتا محلة قبحا وشعيراتها نحو ثلاثين ألف أردب رسالة من مصر إلى
السلطان سليم . وعما يذكر أيضا أن جان بردي الغزالي الحائن الثاني وشريك «خاير بك» ،
والمعين نائباً على بلاد الشام من قبل العثمانيين ، حدثه نفسه بعد زمن بالمصيان وأرسل
إلى «خاير بك» نائب مصر ، وأخبره الخبر طالباً إليه أن يتعاوننا معا في التغلب على
«العثمانيين» وفي أن يكون هو ملكاً على الشام ، ويبقى «خاير بك» ملكاً على مصر . فما كان
من «خاير بك» إلا أن بعث إلى الملك سليماني القانوني ، فأعد له العدة وجرده عليه جيشاً
أباده سنة ٩٢٧ هـ ، كما أشرنا ...

وفي شهر ذي القعدة سنة ٩٢٨ هـ . أصيب الأمير «خاير بك» ملك الأمراء بمرض
شديد زادت شدته يوماً بعد يوم حتى فلق برجيس بوله وغائطه لما أصابه من يرم . فلما
شعر بمشكلة مرضه وأحسب بأنه مريض الموت أعقب جميع غلبانه وجواريه وأخرج عشرة
آلاف أردب من القمح تفريقاً على مجاوري الأيهر وغيره من المزارات وغيرهم من
الفقراء . وأطلق عدداً من المساجين ، وقدم ضروباً كثيرة من الإحسان تكفيهم عما
جنت يده ، فكان كقالي عنه ابن إياس المؤرخ : «لم يعرف الله إلا وهو نحت الحجر» . وقد وافاه
أجله المحتوم في يوم الأحد ١٤ من ذي «قعدة سنة ٩٢٨ هـ» بعد أن ناب في مصر عن العثمانيين
خمس سنوات وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً .

وينسب إليه ابن إياس أنه كان جباراً عنيداً سفاكاً للدماء مناعاً للخير مسرعاً إلى
الشرب ، كثير الجيلة والمسكر ، واستخدم الأقباط وأذل لهم المسلمين وكره العلماء وطلبة
العلم . ومهما يكن من شيء فحسبه خيانة بلاده عاراً ومذمة ، وهو آخر الجراكسة الذين
حكموا مصر .

وقد وجد له بعد موته مال كثير وجمال وخبول وأقشة وأواني ، وقد بيعت ممتلكاته
حين بعده على يد الحكام الذين تولوا بعده موته .

ملحوظة : خاير بك هذا ، غير خاير بك بن إينال الذى اشتغل كاشفا للغريبة .
 زمنا ، وغير خاير بك سلطان ليلة ، « أى الذى ملك ليلة واحدة قبل الأشرف قايتباى »
 وغير خاير بك الحانندار الذى ترجم له رقم ٤٣ فى هذا الباب . وغير خاير بك الممار .
 ابن إياس ج ٢ ص ٣٢٢ ، ٣٣٩ ، ٣٥٤ ، ٣٧٦ ، ٣٧٩ ، ٣٩١ - وج ٤ ص ٣ ،
 ١٨ ، ٣٠ ، ٥٢ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ١٢٣ ، ٢٠٦ ، ٢٨٥ - وج ٣ ص ٣ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٦ ،
 ٥١ ، ٦٢ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١٠٧ ، ١٢٢ ، ومن ص ١٣١ إلى ٣٢٢ - الكواكب
 السائرة ج ١

٤٧ - الزينى بركات بن موسى المحتسب

هو القاضى دزين الدين بركات بن موسى ، الذى ظل محتسبا للقاهرة زمنا طويلا فى عهد السلطان الغورى وبعده فى عهد الاحتلال العثمانى ، وأصل أبيه من العرب وتسمى أمه عتقا ، وأول ظهوره أن كان ركابا للملك اتويد أحمد بن الأشرف إينال ، ثم عين برددار لدى السلطان الغورى بعد ابن أبى الجود ، ومن ثم أخذ اسمه فى الذبوع . وقد وكل إليه السلطان الغورى عقاب ابن أبى الجود واستخلاص ما قرر عليه من المال . ثم عينه فى شعبان سنة ٩١٠ هـ ، فى حصة القاهرة فدخل فى زمرة الأعيان والرؤساء ، وأخذ ينجور ويشطط فى معاملته الناس وأكل أموالهم بالباطل ، وظل سادرا فى جوره هذا حتى غضب عليه السلطان وعزله من الحسبة والبرددارية وعن جميع الوظائف التى تولى أمرها ، وقيل لأنها كانت ست عشرة جهة ، منها نظارة خاقاه مرياقوس ، وولاية جهات البرلس . وكان عزله فى رمضان سنة ٩١٤ هـ ، ثم رضى عنه السلطان . بعد حين وأعادته إلى حسبة القاهرة فى ذى القعدة من نفسه العام . وعلا نفوذه مرة ثانية ، ثم نذبه السلطان ليقوم مقام الأتابكى ريثما يدين أتابكى جديد ، وذلك بعد وفاة الأتابكى قرقاس سنة ٩١٦ هـ . فظل مندوبا حتى عين دولاباى فى الأتابكية .

ظل « الزينى بركات » متمما برضا السلطان وبالجاه العريض حتى وقع شجار بينه وبين الوزير الجمال يوسف البدرى بحضرة السلطان ، ولم يرج للسلطان حرمة ، وأخش فى الإساءة إلى الجمال على مسمع من السلطان ، فحق عليه وقبض عليه وأسله إلى أماسن الدوادار لمعاقبته وعحاسبته ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٩١٨ هـ ، فاستمر فى السجن ثمانية أيام ، ثم أفرج عنه ورضى عنه السلطان وأعادته إلى وظيفته ، فزال من لدنه بالقلعة .

حتى موكب حائل وازدانت له القاهرة وأوقدت له في نواحيها الشموع والقناديل ولقيه الناس بالعليل والزغاريد !

وبعد زمن أشرك السلطان معه في بعض وظائف غير الحسبة ، رجلا آخر يسمى أحمد بن الصائغ ، كان موظفا لديه ، فلم يلبث أن وقعت بينهما منازعة في ربيع الثاني سنة ٩٢٠ هـ ، وراود ابن الصائغ المذكور السلطان بثلاثين ألف دينار ليحله محل « الزيني بركات » ، فنهزه السلطان ولم يوافق .

وفي جمادى الأولى سنة ٩٢٠ هـ ؛ ضم إليه السلطان استدارية الذخيرة . وفي صفر سنة ٩٢١ هـ ، استخلص منه السلطان ١٥ ألف دينار ، وقد عظم جاهه وظل كذلك حتى سنة ٩٢٢ هـ ، وحينئذ كثرت شكايه المالك والناس منه بسبب ما جمعه منهم من الأموال المقررة واشتراطه في الجمع حتى ألحق بهم البوار ، ولا سيما أنهم كانوا في زمن ارتفعت فيه الأسعار ارتفاعا كان صسفه أحد أسبابه .. وطلبوا إلى السلطان عزله وتسليمه لم يلقته . فرفض أولا ، ثم رفض ، فزاد حقهم . وهدده جماعة من المالك بالقتل نفثي السلطان عليه وعزله من الحسبة وأسند إليه نظارة الذخيرة الشريفة في يوم الخميس ٩ صفر سنة ٩٢٢ هـ ، وظلت وظيفة الحسبة من بعده شاغرة إلى أواسط ربيع الأول ، ثم عين فيها ما مای الصغير ، مملوك الغوري . وهكذا خرج « الزيني بركات » من حسبة القاهرة بعد أن ولها هذه المرة نحو إحدى عشرة سنة .

غير أن الغوري حينما زحف بمعلمته على البلاد الشامية والحلبية للملاقاة العبايين ، وخلف على البلاد الأمير طومان باي نائب غيبة ، أضاف الحسبة من جديد إلى بركات ابن موسى ، عوضا عن دامای ، المسافر معه في الحملة ، حتى يعود . ولم يكتب بذلك ، بل أضاف إليه وظائف عدة حتى صار مختصا بكثير من أمور السلطنة حتى يعود . فصار من ذلك الحين صاحب الحل والعقد في البلاد جميعها ، وأصبح طومان باي لا يرم أمرا إلا بعد مشورته واعاونه معاونة جديده في أمور المملكة وضبط الأسعار منعا للفلو الفاحش ، وما زال حتى زالت دولة الغوري وآلت السلطنة إلى الأشرف طومان باي آخر ملوك الجراكسة . فبقي « زين الدين بركات » في وظيفته ، إلى أن وقعت بينه وبين الشيخ أبي السعود الجارحي حادثة عجيبة تلخص في أن القاضي « زين الدين بركات » ظلم رجلا يبيع الجلود ، فشكاها إلى الشيخ أبي السعود ، فبعث الشيخ أبو السعود إلى القاضي

« زين الدين ، رسالة خاصة بهذا الرجل وأساء فيها الكلام عنه وسفهه . فلم يعرفها القاضي »
 « زين الدين ، التفاته ، فما كان من الشيخ أبي السعود إلا أن استقدمه إليه . وكان من
 غفلة ابن موسى أن قدم إليه في وكرة بكوم الجارح وحوله أوائه وأتباعه . فلما بلغه
 واجهه بمجارج القول وقارص التسباب . فحق منه القاضي وزايل مجلسه ؛ فما كان من
 الشيخ المذكور إلا أن أمر أتباعه بصفع القاضي على رأسه بالنعال ؛ فصفعوه حتى كاد
 يهلك ، وقبضوا عليه فسلبه الشيخ إلى والى القاهرة الأمير علان ، وقال له : ضعه في الحديد
 وشاور في أمره وأخبره الخبر . السلطان فعمل الأمير علان ذلك ؛ فرد عليه السلطان بأن
 يخبر الشيخ أن يحكم فيه حكمه ؛ فكان جواب الشيخ أن يشهر الناضى ثم يشفق على باب
 ذويلة ؛ ففعلوا . . . ؛ ولكن لما هموا بشقه عاودوا الشيخ في أمره وقالوا إن عليه مالا
 للسلطان ، فإذا شق ضاح هذا المال . وهنا عفا عنه الشيخ لئني بماعليه من المال للسلطان .
 أقول إن هذا تدخل سيء من هذا الشيخ في أمر القاضي ، وإساءة تصرف من
 السلطان ، بأن يجعل لمثل هذا الشيخ أمرا في الملك وشأنا بين الموظفين وحكما على الجناة .
 ولكن الحق أن القوضى إذ ذاك كانت ضاربة وهذه الحادثة إحدى مظاهرها . — ولعل
 عجبا يزول حينئذ نقول إن هذا السلطان نفسه وهو طومان باي لم يتول السلطنة إلا بعد
 استشارة الشيخ الجارحي واجتماع الأمراء لديه كما بينا في الباب الخاص بوراثنة السلطنة
 ونظام الحكم . — ومع ذلك فقد ذكر ابن إياس أن الناس أنكروا تدخل الشيخ في
 مثل هذه الأمور .

ظل القاضي « بركات » بعد عفو الشيخ عنه مسجوناً لدى والى القاهرة . فانتن
 « شهاب الدين أحمد بن الصائغ » — وكان حاقداً على القاضي « بركات » منذ خصامته
 معه في عهد « الغورى » — هذه الفرصة وقدم نفسه لرافقته مبيداً أنه يستطيع أن
 يثبت عليه مائة ألف دينار إذا حسابه . فما كان من القاضي « بركات » إلا أن ادعى هو
 أيضا أنه يستطيع أن يثبت على ابن الصائغ مائتي ألف دينار إذا حسابه . فقبض على
 على ابن الصائغ أيضا حتى يحاسب كل منهما الآخر ؛ ثم — أسبهما والى — وما ضرب
 القاضي عشرين عصا حتى وعد بأن يقي بما قرر عليه من المال وقدره عشرون ألف دينار .
 وضرب ابن الصائغ أكثر من أربع مائة عصا حتى أشرف على الهلاك وأشيع بين الناس
 أنه مات . .

أطلق سراح القاضي « بركات » بعد قليل . ورجا السلطان أن يعيد إليه وظائفه . فلم يجب له رجاءه ، وذلك في يوم السبت ٢٠ شوال عام ٩٢٢ هـ . وهم السلطان بإعادته إلى وظائفه من بعد ، لولا أنه لم يف بكل ما فرض عليه من المال ، وأزمت السلطان حاجته إلى مال ، فعاد إلى الضغط على ابن موسى وأمثاله من فرضت عليهم غرامات ، ثم هدأت هذه القضية وأعاد إلى الحسبة في أوائل عام ٩٢٣ هـ . ثم وكل إليه جهات المحلة . ثم زحف العثمانيون على مصر واحتلوها وقتلوا طومان باي سلطانها . فاذا كان موقف « الزين » ، « بركات » هنا ؟ ...

بقى القاضي « زين الدين » محتسبا للقاهرة كما كان في عهد الجراكسة . وقد خلع عليه مملك الأمراء « خاير بك » نائب العثمانيين في مصر ، في شهر شعبان عام ٩٢٣ هـ وجعله مدير المملكة ، وناظر الحسبة الشريفة ، وناظر المارستان المنصوري وناظر الذخيرة الشريفة ، وغير ذلك من الوظائف حتى قيل إنه صار حاكم البلد الحقيقي . وكان هو الذي يركب في موكب الاحتفال برؤيا رمضان كل عام وحوله المصايب وحمة المشاعل في أمة وعظمة ...

وفي يوم السبت ١٥ ربيع الأول عام ٩٢٤ هـ عين القاضي « زين الدين » أميراً لركب المحمل الشريف ، وكان من قبله لا يليه ولا يؤمر عليه إلا أمير من المقدمين . وبهذه المناسبة خلع عليه ملك الأمراء « خاير بك » خلعة ونزل من لدنه من القلعة في موكب حافل جدا . ثم احتفل بركبه في يوم الخميس ليلة الجمعة ١٩ رمضان من العام المذكور وكان ركبا شاقا .

وقد ضمت إليه الاستدارية في شوال من هذا العام أيضا . وفي يوم السبت ١٨ شوال عام ٩٢٤ هـ ، خرج ركب المحمل ومعه أميره القاضي « زين الدين بركات » ابن موسى قاصدا إلى بلاد الحجاز . وقد أصيب الحجاج في إمرته هذه بضروب من الأذى ما بين غلاء وموت « جمال » وعيث عربان قطعوا عليهم الطريق في العودة . وقد عاونهم « خاير بك » نائب مصر بمجمل من الجند بعث بهم إليهم في الطريق . وكان وصوله بركبه إلى بركة الحاج عائدا ، في يوم الأحد ٢٨ المحرم عام ٩٢٥ هـ . ولم يضبب الركب المصري بثمل ما أصيب به الركب الشامي . وذلك بهمة القاضي « بركات » . ولذلك شكره « خاير بك » .

وفي شهر جمادى الأولى عام ٩٢٥ هـ خرج القاضى « بركات » إلى ناحية الصعيد لجمع بعض الضرائب وعاد بعد خمسة أشهر . ولكن حدثت في غيابه ثورة على من قام بمقامه ، إذ عبت بالأعمال عبثاً أدى إلى غلوا الأسعار ، فهاج الناس وماجوا ورغبوا إلى ملك الأمراء أن يعين في الحسبة رجلاً خبيراً بأحوالها ريثما يعود « الزينى بركات » من الصعيد . فاضطر إلى تعيين القاضى « عبد العظيم » . من هذا يمكن الاستنباط أنه كان قواماً للسوق ونظاماً للأسعار . وكثيراً ما تدخل في مسألة النقد وتعديله حسب مقتضيات الأحوال .

ظل القاضى « بركات » يقوم بما تحتّمه عليه وظائفه ، ويصحب النائب في ترحله أحياناً ، ويستقبل القاصدين أحياناً أخرى ، ويقوم برسوم مختلفة تقتضيها ظروفه وموقعه ، كما ترسم على بعض المحكوم عليهم ، أو ضمان من لا شبهة فيه عنده وهكذا . وتراامت عليه الوظائف والمراكر ، ومن ذلك أن قرر في التحدث على جهات الشرقية كلها من المطرية إلى دمياط ملزماً بأن يدفع على ثلاثة أقساط مبلغ أربعمائة ألف دينار في كل عام ، فأصبح من ذلك الحين تدفع إلى بابه طلّامات تلك الناحية ، وذلك في يوم الخميس ١٦ شعبان عام ٩٢٨ هـ . فزاد دخله ونما ماله وعظم جاهه .

ثم مات « خاير بك » نائب مصر وتولى النيابة بعده سنان باشا التركى ، فثبت القاضى « زين الدين » في مناصبه بعد قلق واضطراب عليها ، ولعله مات بعد قليل .

إن إيفاس ج ٤ في التواريخ المذكورة ، ج ٣

الوزارة

الوزارة بمعنى المعاونة وشد الأزر ، عرفتها الدول الإسلامية ، منذ مطلع حياتها
وكان للخلفاء وزراء يعاونونهم في تنظيم الأمور وتدير المال وترتيب الجيوش ،
ونحو ذلك من الشؤون . ولكن لم يطلق على أحدهم كلمة « وزير » إطلاقا محبذا بها
باختصاصاته وديوانه . ولم تصير « الوزارة » منصبا بارزا معروفا بين مناصب الدولة
إلا منذ أوائل العصر العباسي .

وأول من أطلق عليه لقب « وزير » هو : « أبو سلة حفص بن سليمان الخلال » ، وزير
الخليفة السفاح ، أول خلفاء الدولة العباسية . وكان يقال لأبي سلة : وزير آل محمد .
وكان الوزير حينذاك يوكل إليه - غالبا - كل شئون الدولة ، بصرفها كيف شاء ،
قبول ويعزل ، ويرم ويتنقض . فكانت منزلته لهذا ، من المهابة بمكان عظيم . وكان
يختار من التاهين في الرأي والبيان والعلم .

وقد نهج هذا النهج ملوك الفاطميين في مصر ، منذ خلافة العزيز بالله ، إذ اتخذ
« أبا البرج يعقوب بن كلس » وزيرا له . وكان يعقوب يهوديا وأسلم . وقوض إليه العزيز
جميع أمور مملكته . ورج الفواطم على هذه السنة - إلا قليلا - واتسع نفوذ وزراءهم ،
وطغوا في أخريات دولتهم ، حتى تلقبوا بألقاب الملوك .

واتخذ الفاطميون أحيانا ، وزراء من غير المسلمين ؛ ومن مسألة القبط ،
والبربر . ومن الراضية . فأجطل ذلك في الدولة الأيوبية ، إذ اتخذ الوزراء من العلماء
والمثنيين . وفي مقدمة وزراء الأيوبيين منى مصر الكبير ، القاضي الفاضل علي الدين
عبد الرحيم البيهقي .

ليست الوزارة إذن جديدة طارئة في العصر المملوكي . ولقد درجت هذه العجلة على
اصطناع منذ أول نشوئها . وجعلوا الوزارة منصبا بارزا بين مناصبها العليا ، غير

(١) راجع حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ تحت عنوان « ذكر وزراء مصر » ، ومو فصل
متبع في هذا الموضوع ، عده فيه وزراء الدولة الإسلامية ووزراء مصر المملوكي حتى أيامه .
وراجع كذلك صبح الأعشى ج ١ ص ٢٨ ويخطط القهري ج ٢ تحت عنوان « ذكر دار الوزارة
الكبرى » .

أول اختصاصها قد ضاق ، ومقامها قد اضمحل بالقياس إلى غابر أيامها . وذلك لإنشاء نيابة السلطنة والآنابكية وغيرهما من المناصب الرئيسية الكبرى ، ففشت هذه المناصب من مكانة الوزارة وتوزعت فيما بينها الكثير من اختصاصاتها . وأصبح أمر الوزارة مقصورا - غالبا - على الشؤون المالية وضبط إيرادات وإتقافا ، وفرض الضرائب التي يراها الوزير ضرورية وجبايتها ، والنظر في أمور الجيش . وللوزير معاونون أشرنا إليهم في مناصب الدولة .

وقد ينصب في الوزارة رجل بارز الشخصية ذو خطوة لدى السلطان ، فيستمد من ذلك نفوذا يوسع به اختصاصاته حتى يغطي على سواء . ومن الأمثلة على ذلك الوزير شمس الدين بن السلوس ، وزير الأشرف خليل بن قلاوون . فائق سلطانه أطلق يده في شئون دولته ، حتى أصبح فيما كل شيء ، وكأنه السلطان أو نائبه . وأصبح القضاء والأمراء يقفون على أعتابه ، ويمشون في ركابه .

كأنه قد يوكل إلى الوزير أحيانا - وبخاصة إذا كان من أرباب السيوف - أن يغطي ثورة ما ، أو يقضى على فتنة . ومن الأمثلة على ذلك ، الوزير الأمير سنقر الأعصر ، فإنه في عهد الناصر محمد بن قلاوون ، خرج في عام ٧٠٠هـ ، في عدد كبير من المماليك السلطانية لإطفاء ثورة المربان بالوجه القبلي ، بمن منعهوا الخراج ، فأوقع بهم ، وأرغمهم على دفعه . واختير الوزير في أول دولة المماليك ، من أصحاب العلم والعلم . كما كان الشأن في عهد الأيوبيين ، ثم اختيروا من رجال السيف الأمر .

ونما يذكر أن الناصر محمد بن قلاوون ، ألغى الوزارة في عام (٧٢٩ هـ) ، ووضع اختصاصها بين ثلاثة مناصب هي : ناظر المال ومعه شاد الذواوين لتسهيل المال وصرف النفقات . وناظر الخاص - وقد استحدث حينذاك - لتدبير الأمور العامة . وتعيين المباشرين . وكاتب السر . للتوقيع في دار العدل فيما كان يوقع فيه . والوزير سواء من تلقاء نفسه أم بعد مشاوره السلطان .

وكان سبب إلغائها أن الأمير مغلطاي الجاني - وكان وزيرا وأستاذًا حينذاك - لم يحسن التصرف في شئونها . وكان له أيضا أعداء يسيكونون له عند السلطان الناصر .

٥ - ذكر المغرزي في المخطط في سياق ترجمة مغلطاي الجاني أن الوزارة ألغيت عام ٧٢٨ هـ .

ويزمونه بضعفه في التحصيل ، ويرمون أحد معاونيه ، وهو أحمد الدين بن لفيتة (١) بالاستيلاء على بعض الأموال غيلة . فألفاء ، وقصر الأمير مغلطاي على الاستدارية ، ثم بعد وفاة الناصر عادت الوزارة إلى الظهور مرة أخرى . قال القلقشندي :

«واقصرت على ما كانت عليه من التوقيع على القصص بدار العدل وغيرها .»

ومرت على الوزارة ظروف خات فيما من شاغلها ، ومن الأمثلة لذلك ، الفترة التي تلت وفاة الوزير موفق الدين هبة الله بن سعد الدولة القبلي في عام ٧٥٥ هـ ، فظلت عاطلة حتى عام ٧٥٨ هـ ، فوليها الأمير قشتمر .

هذا ، وكنا نود أن توسع المقام لاستيعاب تراجم الوزراء في هذا العصر . لكنه يقتصر على من نورددهم ، عن اشترى أمرهم في الوزارة ، ذاكرين أن من بين الوزراء — والأمراء منهم بخاصة — من أوردنا ترجمته في الباب السابق ، لتقلبه — في وظائف شتى غير الوزارة . ومنهم من سيرد في باب القضاة .

ومن نورددهم هنا مرتبون حسب عصور ظهورهم ووفياتهم ، غالباً .

ونشير في هذا المقام إلى الفصل الممتع الذي عقده السيوطي في حسن المحاضرة ج ٢ تحت عنوان « ذكر وزراء مصر » ، فقد أورد فيه ثبثاً قنياً بأسماء وزراء الدول الإسلامية ، ووزراء العصر المملوكي ، مع بيان سنوات توليتهم وعزلهم .

الوزراء

١ — هبة الله بن صاعد الفائزي ٦٥٥ هـ

هو شرف الدين أبو سعيد ، هبة الله بن صاعد الفائزي ، وينعت بالأسعد . كان وزيراً للملك المعز أيك ، فهو أول وزراء العصر المملوكي . وأصله من الأقباط ثم أسلم . ولما تولى الوزارة أحدث ضرائب وعظام كثيرة كان صلاح الدين الأيوبي قد أبطلها ، فنقم عليه الناس . ولما قتل المعز ، ظل « الأسعد » وزيراً لابنه المنصور وكان صغيراً ، ولكن نقل عنه أنه قال عن سلطانه هذا ما يشعر بعدم رضاه عنه لصغر سنه ، وأنه يود أن يملك غيره ، فقبض عليه ثم قتل ، وذلك عام ٦٥٥ هـ .

ذكر المقريزي في السلوك قال :

١ — ذكر المقريزي في خطبته في ترجمة مغلطاي الجلال وقال أن اسمه المهدي بن لفيتة .

« وفيها - أي سنة ٦٥٥ هـ - دخل الصارم أحر عينه الصالحى بجماعة ، فقتلوا الوزير الفاتزى فى جمادى الأولى . . . قال ابن واصل حكى القاضى برهان الدين أخو الصاحب بهاء الدين بن حنا ، قال :

« دخلت على شرف الدين الفاتزى وهو معتقل ، فسألنى أن أتحدث فى إطلاقه ، بحكم أن يحمل فى كل يوم ألف دينار عينا . فقلت له : وكيف تقدر على ذلك ؟ فقال : أقدر عليه لى تمام السنة ، وللى أن تمنى سنة يفرج الله تعالى . فلم يلتفت بمالىك المعز لى ذلك ، وجعلوا يهلكه وخفقوه . وحل لى القرافة ودفن بها . . .

وقد ولى الوزارة بعده القاضى بدر الدين السنجارى ثم القاضى تاج الدين بن بنت الأعر ، ونذكرهما فى باب القضاة . ثم الصاحب يعقوب بن الزبير الآبى .

« ابن لياس ج ١ ص ٩٣ - السلوك ج ١ ص ٣٧٠ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ - حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر وزراء مصر . . .

٢ - زين الدين يعقوب بن الزبير ٦٦٨ هـ

هو الصاحب يعقوب بن عبد الرقيق بن يزيد بن الزبير . ولى الوزارة فى ذى القعدة عام ٦٥٧ هـ فى أول عهد الملك المنصور قطز ، بعد عزل القاضى تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعر . وقد ظل « زين الدين » فى الوزارة حتى عزله الظاهر بيبرس فى ربيع الآخر سنة ٦٥٩ هـ ، وقبض عليه . وولى الوزارة بعده بهاء الدين بن حنا . وذكر ابن لياس أن ابن الزبير ولى الوزارة بعد الفاتزى مباشرة .

وكانت بين الوزير « زين الدين يعقوب » وبين بنى حنا عداوة . وعنه سلخوا الوزارة . قال المقرئى فى خطه ما نصه : « ومن غريب ما يتعظ به الأريب أن الوزير زين الدين يعقوب بن عبد الرقيق بن الزبير ، الذى كان بنو حنا يعاذونه وعنه أخذوا الوزارة ، مات فى ثالث عشر ربيع الآخر سنة ثمان وستين وستائة ، بالسجن ، فأخرج كما تخرج الأموات الطرحاء على الطرقات من الغرياء ، ولم يشيع جنازته أحد من الناس ، مراعاة للصاحب ابن حنا . وكان نحر الدين هذا - أى ابن حنا المذكور - يتزه فى أيام الربيع بحمية القائد ، وقد نصبت له الخيام ، وأقيمت المظايح ، وبين يديه المطربون فدخل عليه الشير بموت الوزير يعقوب بن الزبير ، وأنه أخرج لى المقابر ، من غير أن يشيع جنازته أحد من الناس . فسر بذلك ولم يتالك نفسه ، وأمر المطربين

فقتوه ، ثم قام على رجله وارتص هو وسائر من حضر ، وأظهر من الفرح والخلاعة ما خرج به عن الحد . فخلع على البشير ، وت المذكور خلعا سنية . . . فلم يص على ذلك سوى أقل من أربعة أشهر ، ومات في إحدى عشر شعبان من السنة المذكورة . فجمع به أبوه (١) .

«خطط ج ٤ ص ٩٠ تحت د جامع دير الطين» - سلوك ج ١ ص ١١٧ ، ٤٣٨ ، ٤٤٧ - ابن إمام ج ١ ص ٩٣ .

٣ - بهاء الدين بن حنا المصري ٦٧٧ هـ

هو «صاحب بهاء الدين» أبو الحسن ، واسمه على بن شديد الدين محمد بن سليم . وهو أحد رجال الدهر حزمًا وعزما ، ورأيا ودعما ، وخبرة وتصرفا . وقد ثقل في كتابة الدواوين زمنًا ، حتى بلغ منصب الوزارة . وذلك في عهد الظاهر بيبرس يوم ٨ ربيع الأول عام ٦٥٩ هـ ، بعد القبض على «صاحب زين الدين يعقوب بن الزين» . وقد وُزر من بعده لابنه الملك السعيد كذلك .

ولما وُزر لبيبرس ، فوض إليه تدبير المملكة ، فقام بأعبائها بمهارة وحسنة وعدالة مع سعة صدر وعفة وذكا . وكان بيبرس يثق فيه ثقة مطلقة ويعظمه . وقد حاول بعض الأمراء أن يقع بينهما ليقضيه عن الوزارة فلم يفلح . وقد جهد في جمع الأموال للظاهر ، واستحدث الضرائب ، واشتط في معاقبة المتأخرين في دفعها . حتى مات بعضهم من العقوبة .

و «بهاء الدين» رأس أسرة مجيدة ، خدم كثير من أفرادها الدولة ردحا من الزمان . وكانوا أهل ثروة وجاه وكرم ، وأدب وعلم ودين . وكان له ولدان هما «صاحب نغر الدين» ، و«صاحب زين الدين» ، فرزى بهما ، فموضه الله خيرًا في أبنائهما . وما هنهم إلا عالم فاضل ورئيس كامل .

وكان «بهاء الدين» حريصا على أصدقائه ، معوانا لهم ، كرما سمح اليدين بقصده الشعراء بالمدح أحياها ، فينالون من عطائه الجزيل ، ومن مدحه الرشيد الفارقي قال :

١ - «صاحب نغر الدين بن حنا هذا : هو والد «صاحب ناج الدين» الآتي ذكره في الوزراء كذلك ، وقد روى أن نغر الدين تابع عن والده في الوزارة زمنًا . وترجمته في المخطوط ج ٤ ص ٩٠ تحت جامع دير الطين .

عقائل قال لي نبيه لنا عمرا فقلت : إن عليا قد نهب لي مالي إذا كنت محتاجا إلى عمر من حاجة فليت حسب ابتلاء علي ومودحه سعد الدين بن مروان الفاروق فقال :

يم عليا فهو بحر الندى وزاده في المضلع المفضل
فرفده بحر علي مجذب ووقده مفض إلى مفضل
يسرع إن سيل نداء وهل أسرع من سيل أتى من عل
وكان يستعين على ثمير ماله وتكثيره بالتجارة فيستعين بذلك على جزالة العطاء .
وقد قام بإصلاحات وإنشاءات عدة . فسر على بناء جامع الظاهر بالحسينية ، وهو الذي أتم بناؤه عام ٦٦٧ هـ . وأنشأ مدرسة لنفسه عام ٦٥٤ هـ ، بزقاق القناديل بمصر - مصر القديمة - .

وقد ولد بمصر أيساء عام ٦٠٣ هـ ، وتوفي في ليلة الجمعة مستهل ذي الحجة عام ٦٧٧ هـ . وقيل في ذي القعدة - ودفن بقرية مصر .

وقد ولي الوزارة بعده القاضي برهان الدين الحضر السنجاري ، ونذكره في باب القضاء . ثم ولها بعده غفر الدين بن لثمان المنشي ، ثم نجم الدين الأصفوني . ثم الأمير علم الدين الشجاعى ، وهو الآتى .

د خط ج ٤ ص ٩٢ ، ٢٠٣ - قوات الوفيات ج ٢ ص ٩٥ - سلوك ج ١ ص ٤٤٧ ، ٦٥١ .

٤ - علم الدين منجر الشجاعى ٦٩٣ هـ

أصله من ماليك المنصور فلاوون ، ثم أعق . ولما آلت السلطنة إلى المنصور أنعم على طائفة من ماليكه بإمرات وقائد ، ومنهم « منجر الشجاعى » ، فأصبح مقدم ألف ، عام ٦٧٨ هـ .

ولما خرج المنصور إلى حلب لرد التتار والفرنجية ، استخلف على البلاد ابنه الملك الصالح ، وأقام معه الأمير « منجر الشجاعى » لاستخراج الأموال وتدير شئون المملكة ، وذلك عام ٦٧٩ هـ فكان بمثابة وزير له ، وبعد هذا العام استخدمه السلطان في أمور شتى ، وظل مديرا للملكة ، حتى كانت سنة ٦٨٢ هـ ، فابتلى السلطان مستشفاه المشهور ، وبجانبه قبة ومدرسته بجهة بين القصرين بالقاهرة . وقد عهد بجارة البناء إلى الأمير

« منجر الشجاعى » ، فقام بما عهد إليه خير قيام .

فلما كانت سنة ٦٨٥ هـ غضب السلطان على مملوكه « منجر » وقبض عليه وبصادر ماله وعذبه وخلعه من الوزارة ، وولى فيها مكانه مملوكا يدعى . ويبدو لنا أنه عاد فرضى عنه ، إذ روى المقرئى فى سلوكه ، ما يفهم منه أن السلطان المنصور استخدمه عام ٦٨٦ هـ لبعض شئون مملكته وأطلق عليه لقب « مدبر الدولة » .

وقد أثبت المقرئى فى سلوكه سبب غضب السلطان على الأمير « منجر » ، وذلك أنه باع للفرنجية من سلاح السلطان ورماحه وذخائره شيئا كثيرا . فغضب بعض المطلعين على جلية الأمر إلى السلطان فأخبره فغضب . وقد احتج « الشجاعى » بأنه باع العتيق من السلاح مما لا يصلح ، وبأنه إنما باعه إشعارا للفرنجية أن لدى السلطان من السلاح شيئا كثيرا ، حتى إنه يستطيع الاستغناء عن بعضه ... ! ولكن قيل له : إن الفرنجية ربما فسرت هذا بحاجة السلطان إلى المال ... !

ومهما يكن من شيء فقد عزل « الشجاعى » من الوزارة فى يوم الخميس ٢ ربيع الأول عام ٦٨٨ هـ ، ولعل هذه الدولة والغضبة مداهما اللتان أنشأ لهما ابن لباس فيما سبق ، وأنهما كانتا عام ٦٨٥ هـ .

يحيى « الشجاعى » حتى ٩ ربيع الآخر عام ٦٨٧ هـ ، ثم أطلق بعد أن أخذ منه خمسة وستون ألف دينار ، سوى ما صودر من ممتلكاته . ثم عين متحدثا فى الأموال بدمشق . لجار على الناس ، حتى فر منه بعضهم .

ولما آلت السلطنة إلى الأشرف خليل ، أعاد الشجاعى إلى الوزارة فى أول سلطنته ، فبدأ عمله بأن قام بمصادرة أموال الأمير طرطاي نائب السلطنة ، الذى قتل بأمر الأشرف خليل ، وقبض على نسائه وجواريه وحاشيته وعذبتهم ، واستخلص منهم أموالا طائلة . فغضب شأن « الشجاعى » ، حتى نذبه السلطان لأعمال نيابة السلطنة ريثما يختار لها أميرا . ولم يكتب له تقليد بالوزارة أو النيابة ، فظل حتى عين الأمير « بيدرا » نائبا ، وواقصر أمره هو على الوزارة .

ثم استقدم الأشرف خليل صديقه ، وصفيه شمس الدين بن السمارس من مكة ، فقدم فى أوائل عام ٦٩٠ هـ . فأسند إليه الوزارة ، وعزل منها « الشجاعى » . ومع ذلك أخذ « الشجاعى » ، بعد قليل ، يعود إلى الاشتراك فى شئون الدولة .

فاشترك مع السلطان في حصار عكا ، ثم ولى نائباً على دمشق ، وزيد في راتبه وإقطاعه واختصاصه ، وقام هناك بحملة أعمال خيرية بأمره ثم عزل من نيابة دمشق في ٦ شوال عام ٦٩١ هـ قتالاً لذلك .

قتل الأشرف بعد حين ، وولى السلطنة أخوه الناصر محمد ، وكان صغير السن ، فاختر لوزارته الأمير « علم الدين سنجر الشجاعى » مرة جديدة ، في المحرم سنة ٦٩٣ هـ ، ولكنه أخذ يستبد ، خذوا بصغر من السلطان ، وعاقب ابن السعولس وزير الأشرف خليل ، وأخذ في تدمير مؤامرة لخلع السلطان والكيده لكبار الأمراء ومنهم الأمير كتيبغا المنصورى . وجمع بعض أتباعه ليقبضوا بهم أعداءه ، فلم تفلح مؤامراته ، وهزم وفر . ثم طلب الأمان فلم يؤمنوه . فدخل على السلطان الناصر في دور الحرم ، وأغلظ له في القول . فمرض عليه السلطان أن ييكون نائباً في حلب . وقيل في قلعة الشام . فرفض ، وأحس غلبان السلطان منه الشر ، فأمسكوه وقيدوه ، وأرسلوه إلى البرج بالقلعة . ليسجن . فلقى به بعض أعدائه من المماليك البرجية ، فقتلوه وجزوا رأسه ، وبعثوا به إلى الأمير كتيبغا .

بذلك انطفاقت فتته ، ونشبت أنصاره ، وختمت حياته . وطيء برأسه بالقاهرة ومثل به شرميل ، وكانت قتلته في صفر عام ٦٩٣ هـ .

ونشير هنا إلى أن « الشجاعى » لما عزل من الوزارة في عهد علاء الدين ، ولها الأمير بيدرا . ثم صار بيدرا نائب سلطنة ، وقد مرت ترجمته في نوابها .

• ابن إياس ج ١ ص ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، إلى ١٣٢ - ١٧٤ - السلوك ج ١ ،

٥ - شمس الدين بن السعولس (١) التنوخى ٦٩٣ هـ

هو القاضي والباحث ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عثمان بن أبي الزجاء ابنه السعولس التنوخى . قيل : لأنه كان تاجراً في دمشق ، وولى الحسبة بها زمناً ، من سنة رمضان عام ٦٨٧ هـ . ثم وفد على مصر في بعض السنين . وكان يكتب خطاً جيداً ، فاستطاع الاتصال بالأشرف خليل ، وهو أمير في عهد سلطنة أبيه المنصور قلاوون ، فاتخذة ناظراً لديوانه . وكان يقوم له ببعض الأعمال التجارية في البلاد الشامية ، فيرجع من

١ - هكذا في ابن إياس وضبط في السلوك « السعولس » بتقديم اللام على الميم وفتح السين .

وراثتها الكثير من المال . لذلك ازداد قربا من الأشرف وأصبح محبوبا عنده ، وعلت منزلته لديه ، حتى صار كاستشار خاص له في جميع أعماله وتصرفاته . تخاف منه المنصور على ولده ، وخشى أن يكون ذا أثر سيء فيه ، ووشى به إليه الأمير طرطاي ، فغضب المنصور ونفاه إلى مكة ، فأقام بها حتى توفي المنصور .

آلت السلطنة حينذاك إلى الأشرف خليل ، فرسم توا « لابن السعلوس » بالعودة إلى مصر . وكتب إليه بخطه على مرسومه يقول : « يا شقيق ، جد السير جاء الخير » (١) . عاد القاضي شمس الدين بن السعلوس إلى مصر في ١٣ المحرم عام ٦٩٠ هـ . وقيل في في التتوك : في عاشوراء . فأُسندت إليه الوزارة ، وفوضت إليه شئون المملكة ، فعملت مهابته وهيبته سطوته وفذذت كلمته . وأصبح يسير في ركابه الأمراء والموظفون والمالكة ، بل والقضاة الشرعيون . فإذا اجتمعوا يبابه يدخل عليه حاجبه ويقول : « عز الله مولانا صاحب قدامك كتمل الموكب ، فيخرج للركوب من داره أو إليها . »
والتفت أعمال الوزارة في عهده ، حتى طغت على نيابة السلطنة نفسها ، وحتى كانت الظلامات المرفوعة إلى السلطان تقرأ على الوزير ويمضي فيها أمره بغير مشورة السلطان . غير أن « ابن السعلوس » كان سريرا إلى سوء والدس ، فأفسد ما بين نفسه وبين كثيرين من رجال المملكة ، كالأمير بيدرا والقاضي تقي الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز (٢) . ونسب إلى هذا القاضي الكفر ، فدفع إلى السجن بسبب ذلك ، ولبث يكيد له حتى اتضحت برأته فأطلق .

وقد أساء ابن السعلوس — بلاربيب — إلى نفسه وإلى مملكته بهذه التصرفات الخرقاء ، حتى جلب للملكة الأذى . وذلك أن السلطان الأشرف خليلا ، أراد في عام ٦٩٣ هـ الرحيل إلى الإسكندرية . فسبقه إليها وزيره هذا ليهذلا استقباله بها . فاختلفه هناك مع غلبان نائب السلطنة حينذاك وهو الأمير بيدرا — وكان بينهما حقد خفي — وبعت بتفاصيل الخلاف إلى سلطانته فأضمر هذا الشر الأمير بيدرا واستقدمه بين يديه وبوجه وهم بالقبض عليه ، فترفق به بيدرا ، ورق أمامه حتى أطلقته ، ثم أخذه بعد إطلاقه يدبر مؤامرة لاعتقال هذا السلطان ، وقد نجحت مؤامره ، وقتل الأشرف .

١ — وفي السلوك أنه كتب « يا شقيق ، بأوجه الخير ، مجل السير ، فقد ملكنا »
٢ — فلنا ما وقع بين السعلوس وبين القاضي تقي الدين في ترجمته في باب القضاة .

وزالت دولته في العام المذكور .

ومن غريب ما روى عن « ابن السلوس » أن غير مقتبل سلطانه وافاه وهو بالإسكندرية ، فعاد إلى القاهرة ، واستأنف نشاطه السابق وركب من داره إلى ديوانه بالقلعة ، وهو على عادته من الزهو والكبر ، غير عاني بما جرى ولا متخذ لنفسه الحيلة . فغضب الناس منه وقال له أحد خاصته : « أراى أن تختفى حتى تسكن الفتنة » . فقال : « هذا لا نفعله ولا نرضاه إمام من عمالنا ؛ فكيف نختاره لأنفسنا ؟ »

ثم آلت السلطة إلى أخى المتوفى ، وهو الناصر محمد ، فاختار لوزارته الأمير سنجر الشجاعى . فصرعان ماجهد في القبض على « ابن السلوس » وأسله إلى أحد الخاقدين عليه ، وهو الأمير بهاء الدين قراقوش الظاهرى شاد الصحة . فطالبه بأموال وضربه في مرة ألف عصا ومائة ، وعاقبه وعذبه . ثم تناوله رجل آخر فعذبه كذلك واستحاض منه مالا كثيرا . وما زال حتى مات . وكان موته في يوم الأحد ١٥ صفر عام ٦٩٣ هـ . قيل : « ضرب بعد موته ثلاث عشرة مفرقة . » ودفن بالقرافة واستحوذ الشجاعى على ماله . ووأدى أولاده ونسائه وحاشيته . وزال بذلك كله عزه وجاهه ، بعد ما بقي ضروبا من من الهوان والنلة .

وبما يذكر أن الأمير سنقر الأعصر — الذى ولى الوزارة بعد حين — تزوج بنت الوزير ابن السلوس في جمادى الأولى عام ٦٩١ هـ .

« ابن إياس ج ١ ص ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، إلى ١٣٠ — السلوك ج ١ . »

٦ — تاج الدين بن حنّا ٧٠٧ هـ

هو صاحب تاج الدين بن صاحب نهر الدين بن صاحب بهاء الدين بن حنا واسمه محمد بن محمد بن على محمد بن سليم . وقد مر ذكر جده بهاء الدين . ونوهنا بأبيه في ترجمة « صاحب يعقوب » .

وهو فرج من تلك الأسرة المصرية المجيدة — أسرة ابن حنا — قال المقرئ عنه في الخطط : « وانتهت إليه رياسته عصره ، وكان صاحب حياة وسؤدد ومكارم وشاكلة حسنة وبزة فاخرة إلى الغاية . وكان يتناهى في المطاعم والملابس والمناكب . ويجسود بها الصدقات الكثيرة مع التواضع ومحبة الفقراء وأهل الصلاح والمبالغة في اعتقادهم . » وقال في الدنيا من العز والجاه ما لم يره جده صاحب الكبير بهاء الدين .

وكان « تاج الدين » حسن الترتيب في منزله منظماً بحيث تقتضى له مآربه ومآرب حنيفة دون أن يتكلف لإشارة ما ، وكان كرمًا يقتصده الشعراء فيجزل لهم العطاء .
حدده الشهاب محمود والسراج الوراق وابن دانيال .

وقد تقلد « تاج الدين » الوزارة بعد مقتل الوزير سنجار الشجاعى ، وذلك في صفر
عام ٦٩٣ هـ . فلبث بها أكثر من عام إلى جمادى الأولى عام ٦٩٤ هـ ، ولم يوفق في أعمالها ،
فخسف عنها . وولياها من بعده نغر الدين عثمان بن الخليلي ، قال المقرئ في الخطط :
« لما تقلد الوزير صاحب نغر الدين بن الخليلي الوزارة سار من قلعة الجبل وعليه
تشریف الوزارة إلى بيت صاحب تاج الدين ، وقبل يده وجلس بين يديه ، ثم انصرف
إلى داره » .

وقد دعى لتقلد الوزارة مرة أخرى بعد زمن ، ولكنه لم يفلح كذلك فمزل .
وقد سلم مرة للشجاعى ليعاقبه فهايه ولم يضربه غير مقرعة واحدة على قيصره .
وقد ولد « تاج الدين » في ٧ شعبان عام ٦٤٠ هـ ومات في ٤ جمادى الآخرة عام
٧٠٧ هـ ودفن في مدافن أسرته بالقرافة . وكان على شيء من العلم والأدب وينظم
الشعر . ومن آثاره رباط الآثار بالقرب من بركة الحبش ، عمره ولكنه لم يسكن في
حياته . وجامع دير الطين . وقد اشترى بعض الآثار النبوية بستين ألف درهم فضة .
« خطط ج ٤ تحت عنوان « رباط الآثار » ، سلوك ج ١ ص ٨٠٢ - الدرر ج ٤ رقم ٥٤٨ ،

٧ - شمس الدين سنقر الأصغر ٧٠٩ هـ

أصله ملكوك الأمير عز الدين إيدمر الظاهري نائب الشام . ترقى في عهد قلاوون
حتى كان أستاذداراً في دمشق ، ثم أضيفت إليه وظيفة شد الدواوين بدمشق أيضاً في
جمادى الثانية عام ٦٨٣ هـ فأخذ طريقه إلى الرفعة من ذلك الحين . وكان يقوم للسلطان
المنصور بخدمات جليلة . لذلك استقدمه إلى مصر في ربيع الأول عام ٦٨٩ هـ وأبقى إليه
تعليماته الخاصة بحجي الأموال . وقلده أمور الحصون بكل البلاد الشامية والسواحل
وكان ذلك ديوان الجيش ، فأتسع نطاق عمله وقوى نفوذه .

ثم آلت السلطنة إلى الأشرف خليل ، وكان حادثاً على هذا الأمير ، فاستقدمه إلى
مصر عام ٦٨٩ هـ ، وأمر بضربه ومصادرة أمواله وعزله من وظائفه . وبعد حين ، وفي
عام ٦٩٠ هـ أعيد إلى شد الدواوين بدمشق ثانياً .

وفي عام ٦٩١ هـ وفي منتصف إجمادى الأولى منه تزوج هذا الأمير بنت الوزير الخطير صديق الأشرف خليل ، وأعطى به الصاحب شمس الدين بن السلوس ، على صداق جملة ألف وخمسة دنانير ، معجلة خمسمائة . وكانت هذه الزيجة - بلا ريب - من أسباب تقدم الأمير « سنقر الأعسر » لدى الأشرف .

ثم قتل الأشرف ، وولى السلطنة أخوه محمد ثم العادل كتبغا . فظل الأمير « سنقر » شادا للدواوين بدمشق . ولكنه ما لبث أن قبض عليه لهاسبته ، وذلك في شوال عام ٦٩٥ هـ ، وأسلم للوزير غفر الدين بن الخليل ، فاستخلص منه مالا ، و عزل من منصبه . ولما آلت السلطنة إلى المنصور لاجين المنصورى ، استخذه لبعض شؤنه . وكانت صلته به حسنة . وقد بعثه في أول سلطنته رسولا إلى دمشق وأمراتها ليجمع الناس حول سلطنته . وقد كان السلطان السابق كتبغا المنصورى مقيما هناك . فاستطاع « سنقر » أن يجمع له الأمر ، حتى دانت له بلاد الشام وأعلن في دمشق . وقد دخلها « سنقر » في صفر عام ٦٩٦ هـ وتلقاه أهلها بالترحاب - أن من له مظلة - ، فعليه يباب الأمير « سنقر الأعسر » .

ظل « سنقر » في دمشق نحو أربعة شهور ، ثم استقدمه المنصور لاجين في رجب . وقد عظمت مهابته وعلت كلبته وأصبح أحدا الرؤساء المخوفين . وقلده لاجين منصب الوزارة ، وأفاض عليه رشا كثيرا .

ولعل ما بلغه « سنقر الأعسر » من عظمة ونفوذ أغراه بشئ خفى أضمره في نفسه . كان وبالاعليه ، فإنه حدث أن أصيب السلطان لاجين بكسر في يده من جراء وقوعه من فوق جواده وهو يلعب الكرة . وأراد المجربون كسر بعض عظامه للتوفيق بين سائر العظام . تخاف السلطان وأظهر رهبة وجزعا ، وذلك بحضور وزيره « الأعسر » ، فبا كان منه إلا أنه ادعى أنه وقع له مثل هذا الحادث ، وأنه كسرت عظامه بآلة حديدية ، لما طلب إليه ذلك . وشعر الملك باستخفاف وزيره به ، فأضمر له الشر في نفسه . ثم سرعان ما قبض عليه في ذى الحجة عام ٦٩٦ هـ ، فلم ينعم طويلا . ولم يول السلطان أحدا بعده حتى ربيع الآخر عام ٦٩٧ هـ فأُسند الوزارة إلى عدو « الأعسر » وهو الوزير الصاحب غفر الدين بن الخليل . فضيق الحصار على « الأعسر » ، وصادر ممتلكاته ، وكاد لانبأه وأرغى « الأعسر » في جب القلعة مسجونا .

قتل لاجين وآلت السلطنة إلى الناصر محمد ثانية ، فأفرج عن « الأصغر » في جمادى الأولى عام ٦٩٨ هـ . وبمسد قليل أعاده إلى الوزارة فعاد إلى سابق عظمته وكبره ، ونشاطه .

وأخذ يقوم ببعض المهام ، ومن ذلك خروجه عام ٧٠٠ هـ في مئآت من المماليك السلطانية إلى الوجه القبلي لإطفاء ثورة العربان العائنين به والمائعين الخراج ، لما وجدوا الدولة مشغولة بحركات غازان ملك التتار ، فأوقع بهم الأمير « سنقر » وقتل منهم عددا كبيرا ، وصادد كثيرا من خيولهم وجملهم وسلاحهم وأذلهم وأرغمهم على دفع الخراج . ظل الأمير « شمس الدين سنقر الأصغر » سادرا في غلواته ، قاسيا في معاملة غيره ، مشغطا في عقوباته ، لابسا نوب كبره وتبته ، حتى تقسل على نفوس الأمراء . وهو ما أخرجاه من الوزارة — وكان السلطان صغير السن استبد بملكه الأميران بيبرس وسلا — ثم رأوا إرسال « سنقر » إلى القلاع الشامية ليتفقد أحوالها ويصلح شأنها ويفتش ما فيها من رجال وعتاد ومال . فسافر إليها نوا في أخريات عام ٧٠٠ هـ وعين مكانه في الوزارة الأمير عز الدين أيلك البغدادي في المحرم عام ٧٠١ هـ .

عاد « سنقر » إلى مصر بعد قليل ، فظل بعيدا عن الوزارة ، مستعانا في بعض المهام . وقد عاون النائب سلا في ترميم الجامع الأزهر عام ٧٠٢ هـ ، وحج معه عام ٧٠٣ هـ ، وأسدى ألوانا من الإحسان . وة . توفي عام ٧٠٩ هـ .

داين إياس ج ١ ص ١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٧٤ — السلوك ج ١ — الدرج ٢ رقم ١٩٠٥ .

٨ — بكتمر الحاجب المنصوري ٧٢٨ هـ .

هو الأمير سيف الدين « بكتمر » ظهر بدمشق في نيابة الأفرم . فكان أمير أخور ، ثم مولى شد الدواوين ، ثم الحجوبية . وكان واسع الجاه نافذ الكلمة ، فلما زحف الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك إلى دمشق ، حظى عنده « بكتمر » وعاد معه إلى مصر بغيره نائبا لغزة عام ٧١٠ هـ .

لم يلبث « بكتمر » هذا في غزة إلا قليلا ، ثم استدعاه الناصر ، وقلده الوزارة في العام نفسه عوضا عن الصباح بن الدين بن الخليل . فلبث بها حتى سنة ٧١٥ هـ ، إذ قبض عليه الناصر ، واعتقله نحو ستة ونصف ، وأخذ من ماله شيئا كثيرا . ثم أفرج

صنه ، ومنحه نيابة صفد سنة ٧١٦ هـ ، فلبث بها شهورا ، ثم عاد لمصر ، وقد قوى أمره ، وأصبح من المقدمين لدى الناصر ، يستشير في مهامه لما لديه من خبرة ودراية وحسن سياسة ، وصبر على عمله .

وتزوج « بكتمر » بنت الأمير جمال الدين أقوش المعروف بنائب الكرك ، واقتنى مالا كثيرا ثم زوج ابنته لخازن داره واسمه سيف الدين بخشي .

وحدث أن سرق من خزائنه مال ، وأنهى خبر السرقة إلى الناصر ، فعاقب كثيرا من الناس بسبب ذلك . غير أن « بكتمر » كان له أعداء يحقدون عليه ويكيدون له ، ومنهم الوزير مغطاي الجمال والأمير بكتمر الساق ، والقاضي غفر الدين ناظر الجيش . فدمروا إلى والي القاهرة أن يتآون في ضبط هذه السرقة نكاية في « بكتمر » ، ثم ادعوا لدى الناصر أن خازن داره سيف الدين بخشي ، يقول عن اللصوص إنه متفق معهم ، فعاقب خازن داره . لذلك اغتم « بكتمر » وملسكه الحزب ، فات ليومه سنة ٧٢٨ هـ .

« الخطط ج ٣ ص ١٠٣ تحت عنوان « دار الحاجب » — الدرج ١ رقم ١٣٠٦ » .

٩ — مغطاي الجمال ٧٢٢ هـ

هو الأمير علاء الدين « مغطاي » بن عبد الله الجمال . من « إليك الناصر محمد ابن قلاوون . رقاہ امیرا » ، وهو شاب . وحظي عنده وتقدم . ونذبه الناصر في كثير من خصوصياته . وجعله أمير الركب المحفل عام ٧١٨ هـ . ثم رقاہ أستاذارا .

وفي يوم الخميس ٨ رمضان عام ٧٢٤ هـ ، قلده الوزارة عوضا عن صاحب أمين الملك ابن الغنام . ولكنه اتهم بأنه أضاع أوضاع المملكة وفرط في أموال المسلمين وفي الجيش . وأنه يجمل الأحكام . فشدد السلطان عليه التكثير ، ونذبه لمعونه ناظر الدولة وناظر الخواص — وهي وظيفة جدت حينذاك — ثم انتهى الأمر بإلغاء الوزارة جملة ، وتوزيع اختصاصاتها ، وذلك عام ٧٢٩ هـ . وقيل عام ٧٢٨ هـ .

واقصر « مغطاي » على الاستاذية . وكان له أعداء يدسون له ويحملون عليه لدى السلطان . وبخاصة لأنه قدم صديقه مجد الدين محمد بن لمية (١) ، وكان ناظر الدولة والصحة والبيوت . وترك جبال الأمور في يديه ، فسار وفق هواه . — وهم السلطان بمصادرة أموال « مغطاي » . فتوسط له الأمير بكتمر السابق ، فمفاهه .

وذهب «مغلطاي» إلى الحجاز حاجا ، ثم عاد فتوفي بمقبة أيلة في الأحد ١٧ المحرم .
عام ٧٣٢ هـ (١) ، وحمل إلى القاهرة ودفن بالحقائقاء التي أنشأها بجوار درب راشد -
بالقاهرة عام ٧٣٠ هـ ، والتي جعلها مدرسة للحنفية .
«الخطط ج ٤ ص ٢٣٨ تحت عنوان «المدرسة الجمالية» - والدروج ٤ رقم ،
٩٦٤ - والسلوك ج ١» .

١٠ - الجناب الناصرى محمد بن الحسام الصعترى (٢) ٧٩٤ هـ

من وزراء برقوق . ولى الوزارة خلفا للقاضى سعد الدين البقرى عام ٧٩٢ هـ .
ثم توفي عام ٧٩٤ هـ .
«ابن إياس ج ١ ص ٢٩٣ ، ٢٩٦ .

١١ - موفق الدين أبو الفرج ناظر الجيوش ٧٩٦ هـ

من وزراء عهد برقوق . اشتهر بناظر الجيوش ، إذ أنه تردد على هذه الوظيفة .
مرا . وقد عينه فيها برقوق سنة ٧٨٦ هـ بعد القاضى تقي الدين بن عب التيمى .
غضب عليه عام ٧٨٨ هـ ، وضربه مائة وخمسين عصا . وفصله من وظيفته ، وعين مكانه -
القاضى كزيم الدين بن مكانس .

ثم خلع برقوق ، وولى السلطنة «أمير حاج» ثم عاد برقوق بعد قليل ، ويبدو لنا أن -
القاضى «موفق الدين» استندت إليه نظارة الجيوش حينذاك . وأضيفت معها الوزارة .
إذ قال عنه ابن إياس : «إن السلطان برقوقا استقر به ناظر الجيوش ، ووزيرا بالديار -
المصرية على عادته . وذلك لما عاد إلى سلطنته سنة ٧٩٢ هـ .

ثم فصل «موفق الدين» من الوزارة ، وعين فيها القاضى سعد الدين البقرى .
ونصب «موفق الدين» مستوفيا للدولة بعد فصله . ثم مستوفيا على جميع أرباب الوظائف -
بالديوان المقدس - غير الأمراء - وسعى وزير الوزراء . فلبث مدة يسيرة كذلك ، ثم -
تولى عام ٧٩٦ هـ .

«ابن إياس ج ١ ص ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٣ ، ٣٠٣ ، ٣١٦ .

١ - في الدرر : أنه توفي سنة ٧٣٠ هـ .

٢ - ذكره في الخطط في سياق الحديث عن «دار ابن البقرى» ج ٣ ، فقال اسمه : الأمير ناصر الدين محمد بن الحسام الصعدى .

١٢ — محمد بن رجب بن كليك ٧٩٨ هـ .

هو الجناب الناصري محمد بن رجب بن كليك - وقال المقرئ : « ابن كلفت » .
نشأ بالقاهرة بمحمد السيرة وشغل جملة من الوظائف السنية . إلى أن اختاره الظاهر
برقوق وزيرا في ١٤ ربيع الآخر عام ٧٩٦ هـ عوضا عن سعد الدين البقري . وقال
المقرئ : « عوضا عن موفق الدين أبي الفرج » . فباشر الوزارة بمهابة ، ودبر المجلس
بحنكة ودراية ، واستعان في عمله بعدد من المباشرين الذين كانوا وزراء . وأنعم عليه
بإمرة عشرين فارسا في ٦ ربيع الثاني عام ٧٩٧ هـ . قلب حتى مات بعد مرض طويل في
صفر عام ٧٩٨ هـ وهو وزير . وكانت جنازته حافلة .

والخط ج ٣ تحت عنوان « دار ابن رجب » - وابن أبياس ج ١ ص ٣٠٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

١٣ — سعد الدين البقري ٧٩٩ هـ

هو الوزير صاحب سعد الله بن البقري ، ابن أخت القاضي شمس الدين شاكر
ابن غزير البقري . كان نصرانيا فأسلم . وقيل لأنه كان يظهر الإسلام . ويطن
النصرانية .

كان من كتاب الدواوين ؛ بارعا في رسوم الكتابة الديوانية . وقد تقلب في
وظائفها ، حتى اختاره الظاهر برقوق لنظر الديوان المفرد ونظر الخاص ، عوضا
عن صاحب كرم الدين عبد الكريم بن مكافس في رمضان عام ٧٨٣ هـ . ثم عزل وأحيط
بماله ، وأخذ يفي داره من الاواني والثياب والمال والجل والجواري وغير ذلك ،
وحمل إلى القلعة ، وضرب وأهين .

ثم لما عاد برقوق إلى عرشه ، قلده الوزارة في ١٧ ربيع الآخر عام ٧٩٢ هـ ، عوضا
عن موفق الدين أبي الفرج . ثم عزل في رمضان . وأحيط بداره مرة أخرى .
ثم ولي الوزارة الأمير ناصر الدين محمد بن الحسام الصقري - أو الصفدي - في ذي
الحجة ، فاستخدم عددا من الوزراء المفصولين عن الوزارة ، في وظائف الوزارة الفرعية ؛
كنظر الدولة ، ونظر البيوت ، واستيفاء الدولة ، فكان نصيب « ابن البقري » ، نظر
البيوت . فكان ينفق وين يدي ابن الحسام ، مع أن ابن الحسام كان دوايره فيما سبق .
وبعد قليل قبض ابن الحسام عليه وألزمه غراما ماليا كبيرا . ثم بعد قليل عاد
« ابن البقري » إلى الوزارة . وما زال هذا شأنه . إلى الوزارة ثم يفصل عنها . ثم

يختار لغيرها أو يعود إليها . ويؤذى في سبيلها . إلى أن كان يوم ٤ رجب سنة ٧٩٨ هـ ، فأعيد إلى الوزارة ، وكانت هذه آخر عرذاته إليها . إذ صرف عنها وقبض عليه ، في ٤ ربيع الأول عام ٧٩٩ هـ وصور جميع ما يملك ، وسبق مهينا على ملائمة الناس ، إلى دار ابن الطبرلى ، حيث سجن ، ثم خنق ليلة ٤ جمادى الآخرة عام ٧٩٩ هـ .
وعما يذكر أن له ابنا يدعى تاج الدين عبدالله ، ولى الوزارة من بعد ، ونظر الخاص ، وعوقب ومات تحت العقوبة .

د الخطل ج ٣ تحت عنوان دار ابن البقرى — ابن إياس ج ١ ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٦ .

١٤ — مبارك شاه الظاهري ٨٠٢ هـ

من وزراء برقوق . وقد عين هذا الأمير في الوزارة عام ٧٩٨ هـ ، بعد التاجري محمد بن رجب بن كلبك . ثم خلع في العام نفسه ، وخلفه سعد الدين بن البقرى . ثم آلت الساطنة إلى فرج بن برقوق عام ٨٠١ هـ ، فأقام الأمير مبارك شاه ، استأذارا . لم يكن أقل من شهر ، واستغنى ثم إن السلطان فرجا غضب على جماعة من أمرائه ، ففجهم في بلاد الشام عام ٨٠٢ هـ ، وكان من عداوم الأمير مبارك شاه ، (١) .

د ابن إياس ج ١ ص ٣٠٤ إلى ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٤ — الضوء ج ٦ رقم ٨٢٢ .

— ١٥ — الجناب الركني عمر بن قايماز ٨٠٩ هـ

من وزراء برقوق أيضا . عين في الوزارة خلفا للتاجري محمد بن الحسام البقري بعد وفاته عام ٧٩٤ هـ . وعزل في العام نفسه . وخلفه القاضي تاج الدين بن أبي شاكر ومات د ابن قايماز ، في رجب عام ٨٠٩ هـ . ذكره الضوء في د عمر قايماز . وترجمه بإيجاز ، ولم يذكر الوزارة فيما ولى . فامله هو .

د ابن إياس ج ١ ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣١٦ — الضوء ج ٦ رقم ٣٥٩ .

١٦ — سعد الدين القبلى ٨١٨ هـ

هو إبراهيم بن ركة ، سعد الدين القبلى المصرى الوزير . ويعرف بالهجرى . لما شيع خدم في بيت ناظر الدولة التتقى بن المحب . ثم تنقل في خدم الأمراء ، حتى ولى الوزارة .

ثم قبض عليه في الدولة المؤبدية عام ٨١٦ هـ . ثم لزم منزله حتى مات سنة ٨١٨ هـ في صفر
وكان رئيسا ذا مهابة حسن الإسلام .
والضوء ج ١ ص ٣٣٠ .

١٧ - تاج الدين بن أبي شاكر ٨١٩ هـ

هو عبد الوهاب بن عبد الله ، عين في الوزارة خلفا لعمر بن قايماز بعد عزله
سنة ٧٩٤ هـ في عهد برقوق . ولما آلت السلطنة إلى الناصر فرج بن برقوق ، اختاره وزيرا
له في أول سلطنته سنة ٨٠١ هـ . وبعد زمن يسير أضيفت إليه الاستاذارية ، بعد أن
استغنى عنها مبارك شاه . وفي العام نفسه عزل من منصبه . وعين مكانه في الوزارة
الأمير شهاب الدين أحمد بن عمر الحسني بن قطينة ، وفي الاستاذارية الأمير يلغا
السالمى .

وقد عاد تاج الدين ، إلى الوزارة مرة أخرى في المحرم سنة ٨١٩ هـ ، ثم مات في
ذي القعدة من السنة نفسها وهو من مسألة القبط .
داين إيساج : ص ٢٩٧ ، ٣١٦ ، ٣١٨ - حسن المحاضرة ج ٢ باب ٢ ذكر
وزراء مصر - والضوء ج ٥ رقم ٣٨٤ .

١٨ - أمين الدين بن الميهم ٨٥٩ هـ

من وزراء عصر برسباي وابنه ، ووُزِد كذلك لجمقم . واسمه إبراهيم بن عبد الغنى
ابن إبراهيم القبطي . وقيل كان ينسب إلى المقوقس صاحب مصر .
كان نازح الدولة من سنة ٨٢٨ هـ . ثم عينه برسباي في الوزارة سنة ٨٣٨ هـ (١) ،
هو ضاعى كريم الدين بن كاتب المناخات ثم عزل ثم عاد بعد مدة . وفي سنة ٨٥٣ هـ . في عهد
الملك جمقم ، أصيبت البلاد بفلاء شديد وقطع بالغ ، ولم يستطع الوزير د أمين الدين
ابن الميهم ، أو سواه من المستوفين والمباشرين ، أن يخففوا عن الشعب ما يعانيه من
آلام القحط ومشاق الفلاء . ولا أن يقدموا إلى المالك حاجياتهم المرعية . لذلك قامى
الشعب حينذاك من أذى المالك شيئا كثيرا .
وفي عام ٨٥٧ هـ ، في عهد الأشرف إينال . اختفى الوزير د ابن الميهم ، وتخلعت

١ - ذكر في الضوء : أنه ول الوزارة عام ٨٣٧ هـ ، وبه شيء من الخلاف في التواريخ الأخرى .

الوزارة على سعد الدين فرج بن النحال كاتب الماليك . وبعد زمن ظهر « ابن الهيصم » فأعيد إلى الوزارة ، وذلك في جمادى الأولى سنة ٨٥٨ هـ . ثم اختفى ثانيا ، فعاد ابن النحال إلى الوزارة . وذلك في رمضان من العام نفسه . وما كان مستهل ربيع الآخر عام ٨٥٩ هـ (١) ، حتى أعلنت وفاة « ابن الهيصم » . وكان حنفى المذهب محبا للعلم والعلماء . « ابن إياس ج ٢ ص ٢٠ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٤ إلى ٤٦ ؛ ٤٨ إلى ٤٨ — طبقات الشافعية — الجزء ج ١ ص ٦٨ » .

١٩ — سعد الدين فرج بن ماجد النحال ٨٦٥ هـ

أصل هذا الرجل من أقباط مصر . ورقى ، حتى عهد في جملة رؤسائها . وكان كاتباً للماليك في عهد الأشرف إينال ، فلما اختفى الوزير أمين الدين بن الهيصم ، عين مكانه في الوزارة عام ٨٥٧ هـ ثم عزل في جمادى الأولى عام ٨٥٨ هـ ، وأعيد ابن الهيصم ثم أعيد « سعد الدين فرج » مرة أخرى ، لاختفاء ابن الهيصم في العام نفسه ، وظل حتى عام ٨٦٠ هـ . وفي صفر منه ، تار عليه على بعض المباشرين ، طائفة من الماليك الجلبان ، ونهبوا داره ، فاخفى ، وتوارى عن أنظارهم . وذلك لأنه لم يؤد ما فرض لهم من الطعام تمام الأداء . وظل متواريا حتى هدأت الحالة ، فظهر في ربيع الأول وظل متقلدا الوزارة . وفي جمادى الآخرة من السنة نفسها نقل من الوزارة إلى الاستدارية . ثم توفي في جمادى الآخرة سنة ٨٦٥ هـ .

« ابن إياس ج ٢ ص ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٧ — الجزء ج ٦ رقم ٥٧٠ » .

٢٠ — الشمس محمد البيهاري ٨٧٠ هـ

كان ناظر دولة . وفي سنة ٨٦٩ هـ ، انتقل الوزير محمد الدين بن البقرى إلى الاستدارية . فشغرت الوزارة حينئذ ، إلى أن اختار لها السلطان خشقدم ، صاحب « شمس الدين محمد البيهاري » . قيل : كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وقيل : إنه كان طباعا وكان من متهمى تزويد اللحم . ويبدو أنه أحسن اتصاله بالسلطان المذكور ، حتى أسند إليه هذا المنصب الجليل . وقيل : فاشتمز الناس من هذا التعمين ، وانحطت

الوزارة في ظلمهم ، وإن كان قد قام بأعماله خير قيام . وقيل : كان قبيل الظل ثقيل
التعلق . ولكن زادته ثقة السلطان به مهابة لدى الناس وإجلالا ، وسكن بين العلماء
ببركة الوطلى .

وفي يوم الأربعاء ٢٨٠ من ذى الحجسة ٨٧٠ هـ ، نزل في مركب ، وتوجه ناحية قناطر
بنى منجا ، ثم رجع ، فسا بلغ فم خليج الزربية ، حتى انقلب به المركب ، ففرق ولم
تظهر جسده .

ابن اياس ج ٢ ص ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٦ هـ .

٢١ — شرف الدين يحيى بن صنيعة ٨٨٢ هـ

أصله من أقباط مصر . ولده الظاهر خشدتم الوزارة سنة ٨٦٦ هـ ، لما عزل وزيره
الأهناسى . ثم عاد ابن الأهناسى إلى الوزارة ، وعزل ابن صنيعة ، سنة ٨٦٨ هـ .
وعاد لثقلها سنة ٨٧٠ هـ بعد أن غرق الوزير ابن البهاوى . ثم عزل ، وعين مكانه
الزبيرى قاسم شغيته . وعاش ابن صنيعة ، إلى المحرم سنة ٨٨٢ هـ ، وتوفي في الشهر
المذكور ، بعد أن ولي الوزارة مرات عدة .

ابن اياس ج ٢ ص ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٩٧١ — الضوء ج ٢٠ رقم ١٠٦١ هـ .

٢٢ — مجد الدين بن البقرى ٨٩٣ هـ

هو صاحب مجد الدين شاعر بن علم الدين بن البقرى ، وأصله من الأقباط . عين في
الاستادارية في جمادى الآخرة سنة ٨٦٥ هـ ، في عهد أحمد بن إينال ، وذلك عوضا عن
منصور بن الصفى . وهذه أول مرة يلى فيها صاحب « مجد الدين » وظيفة من وظائف
الدولة السامية . فلبث فيها مدة ثم عزل . وفي عهد خشدتم عاد إلى الاستادارية سنة ٨٦٦ هـ ،
عوضا عن الأمير زين الدين يحيى الاستادار .

وفي سنة ٨٦٨ هـ عين في الوزارة ، خلفا لعلاء الدين بن الأهناسى الذى اختفى ، ثم
ما لبث أن قبض على هذا المحتفى ، وبجته ، وصادر أمواله ، واستخلص منه مائة ألف
دينار ، ونفاه إلى مكة .

وفي سنة ٨٦٩ هـ اختفى زين الدين الاستادار ، فقتل « مجد الدين البقرى » ، من
الوزارة إلى الاستادارية مرة أخرى ، وظلت الوزارة شاغرة من بعده زمنا ، حتى

عين فيها الشمس محمد البياوى ناظر الدولة .

وظل « ابن البقرى » حتى عهد قايتباى ، فألت الوزارة والاستادارية معا وغيرهما ، إلى الأمير يشبك الدوادار سنة ٨٧٣ هـ فى شهر شعبان . فقبض عل « ابن البقرى » ، واستخلص منه خمسة آلاف دينار .

ولما خرج الأمير يشبك الدوادار للقتال فى بلاد حلب ، وهو القتال الذى مات فيه ، عين « مجد الدين البقرى » فى الاستادارية . ولكن ما لبث أن قبض عليه فى ذى الحجة سنة ٨٨٥ هـ ، ليؤدى حسابا عما كان يئده من الأعمال والأموال . وعزل من منصبه ، وعين مكانه نفرى برضى بن بلباى الظاهرى ، غازىدار الأمير يشبك الدوادار . وقد حاسبه السلطان بحاسبة عسيرة ، وآذاه وقسا عليه ، إذ كرهه لشتماته بالأمير . يشبك بمناسبة ما جرى له من المحن فى قتاله . وسجن « ابن البقرى » بالمقشرة ، فلبث نحو ست سنوات ؛ حتى أذى أهله وأولاده ؛ وكانت غائمة مطافه أن حكم عليه السلطان بالإعدام فى ربيع الأول سنة ٨٩٣ هـ ، فانتهم بذلك حياته . ودفن فى تربة ابن عمه يحيى .

« ابن لباس ج ٢ ص ٦٧ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ١٠٧ ، ٢٠٢ ، ٢٤٩ » .

٢٣ - زين الدين قاسم المعروف بشفيته ٩٠٠ هـ

هو الصاحب زين الدين قاسم بن أحمد القرافى القاهرى ، ويعرف بشفيته . ويقال إن هذا الصاحب كان خبازا ، ثم اشتغل صيرفا للحم . ومن هنا اتصل بالصاحب الشمس بن البياوى . واتصل بوظائف الدولة . فلما غرق ابن البياوى سنة ٨٧٠ هـ - وكان وزيرا - عين مكانه الصاحب « الزينى قاسم شفيته » . واشترك معه فى أعمالها شخص آخر يقال له عبد القادر الطويل ، وكان ناظر الدولة ثم انفرد بأعمالها « الزينى قاسم » . فقام بها خير قيام ، وأصبح فى عداد رؤساء البلاد .

وفى شعبان سنة ٨٧٢ هـ ، اختفى « الزينى قاسم » - ويبدو أن قايتباى - السلطان حينذاك - كان يضغط على مباشريه إذ ذاك ، ففر هذا الوزير من وجهه فندب للوزارة عهد القادر الطويل ناظر الدولة . وبعد قليل أسندت إلى الصاحب شمس الدين محمد

والد علاء الدين بن الأهناسي .

ظهر « زين الدين قاسم » ، بعد قليل ، ورضى عنه السلطان . ولكن أسند إليه نظر الدولة في ربيع الأول سنة ٨٧٢ هـ . فعاون إذ ذاك الأمير بشيك الدوادار الذي كان ذا وظائف عدة .

ظل « الزيني قاسم » في نظر الدولة حتى شعبان سنة ٨٧٥ هـ ، فعزل وفرض عليه غرم مالي . ثم عاد إلى تولد هذا المنصب في جمادى الأولى عام ٨٧٩ هـ ، مضافاً إليه الحسبة في ربيع الأول عام ٨٨٥ هـ . ثم أسندت إليه الوزارة .

ثم حدث ما دفعه على الاختفاء ، فلبث مختفياً حتى شوال سنة ٨٨٧ هـ . فظهر ، وأنعم عليه السلطان وعينه ناظر الدولة عوضاً عن موقف الدين بن الحصى الأسلي . ثم أضيفت إليه الوزارة مرة أخرى في جمادى الآخرة سنة ٨٨٩ هـ . وفي ذى القعدة سنة ٨٩١ هـ عزل من وظيفته ، وقبض عليه وبهين ، وحوسب حساباً عسيراً عن أمواله ووظائفه ، وأزال بين ولاية وعزل ومصادرة حتى مات في بجنه في جمادى الآخرة سنة ٩٠٠ هـ . وكان كفئاً في عمله ، سديداً في رأيه .

« ابن لباس ج ٢ ص ٨٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٢٥ ، ١٥٢ ، ١٩٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٢ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٧٧ ، ٢٨٦ - الضوء ج ٦ رقم ٦٠٩ »

٣٤ - خشقدم الأحمدى ٨٩٤ هـ

هو الأمير صاحب خشقدم الأحمدى ، الطواشي الزمام أصله من بمالك جعق . ثم عد من رجال عصر قايتباي . وقد أنعم عليه هذا السلطان برتبة رأس نوبة السقاة عوضاً عن شاهين غزالي في شوال سنة ٨٧٣ هـ . ولما استقال الأمير بشيك الدوادار من الوزارة في جمادى الأولى عام ٨٧٩ هـ ، أسندت إلى الأمير « خشقدم » . وحاول الامتناع عن قبولها خوفاً من أذاها ، وبكى ، فلم يأبه السلطان لبكائه ، فقبلها مرغماً . ثم أضيفت إليه في ربيع الأول عام ٨٨٢ هـ ، الحازندارية الكبرى : والزامية ، عوضاً عن جوهر النوروزي ، فعظم أمره واتسع جاهه .

وفي عام ٨٨٤ هـ اختير أميراً لركب المحمل ، فخرج من القاهرة في حفل حاشد وقد حج معه السلطان هذا العام ، وساس أمور الحج خير سياسة ، فنهج الناس بالثناء عليه ، والدعاء له .

وفي رمضان عام ٨٨٧ هـ سافر إلى الوجه النيلي بسبب الحصاد ، فلما عاد ، كان السلطان قد تغير قلبه عليه ، فاعتقه ليؤدى حسابا عما لديه من الأموال . ثم صرف عن الوزارة ، وعين مكانه فيها الجمالى يوسف بن الزرايزى كلشف البهنا ، وذلك في ربيع الآخر عام ٨٨٩ هـ .

وعادت إليه الوزارة والحازندارية بعد زمن ، ثم ما لبث أن غضب عليه السلطان قايتباى مرة أخرى عام ٨٩٤ هـ في شهر المحرم ، وقبض عليه وهم بضربه . ثم إنه رحل بعد حين إلى سواكن ؛ وهناك توفى سنة ٨٩٤ هـ وكان معروفا بالقسوة وحب الشر .

« ابن لياس ج ٢ ص ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٥٢ ، ١٧٢ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣٨ ، ٢٥٦ ، ٢٦١ - الضوء ج ٣ رقم ٦٨٢ » .

٢٥ - الجمالى يوسف البدرى ٩٢٥ هـ .

من وزراء عصر الأشرف الغورى . وكانت له عنده منزلة سنية . يشهد لذلك أنه في سنة ٩١٨ هـ ، وقعت مشادة بينه وبين الزينى بركت بن موسى المحتسب ، على مسمع من السلطان المذكور ، وأساء إليه الزينى بحضرة السلطان . فغضب السلطان على الزينى وأساء إليه ، ثم سجنه أياما . وحاسبه حسابا سيرا .

وأصله من ماليك الأمير يشبك بن مهدى الدوادار ، قدمه الأشرف قايتباى . ثم سلك طريقه إلى الرقى وعليها المناصب ، حتى صار محتسبا للقاهرة . عينه الغورى في هذه الوظيفة في ١٧ رمضان سنة ٩١٤ هـ ، عوضا عن الزينى بركت بن موسى . ثم عزله في ذى القعدة من العام نفسه ، وعاد الزينى بركت إلى منصبه .

وفي يوم الاثنين ٥ صفر سنة ٩١٦ هـ ، أسند إليه الغورى منصب الوزارة ، خلفا لتغرى برمش ، لانقصائه عنها . فظل في هذا المنصب زمنا طويلا . وذاول أعماله فيه بهمة ونشاط وكفاءة وسداد .

وفي جمادى الأولى سنة ٩١٧ هـ ، ثارت ضده طائفة المالك الجلبان ، لتراخيها في تقديم اللحم المخصص لهم ، وهموا بقتله ، فاقتبأ منهم ريشا هذأت قتلتهم .

غير أن السلطان الغورى غضب عليه بعد مدة ، فقبض عليه ، حتى يؤدى عن عمله حسابا . ثم أعاده إلى منصبه في يوم الخميس ١٣ رجب سنة ٩٢١ هـ . بعد أن كتب صكا

على نفسه للسلطان بمبلغ خمسة وستين ألف دينار ، التزم بسدادها هو وناظر الدولة القاضي شرف الدين الصغير .

وثار المالك ثورة عصفية في شوال سنة ٩٢١ هـ ؛ ولم يطيعوا سلطانهم ، بل آذوه بسبب أجورهم المتأخرة ، وروايتهم من اللحم ، التي لم تفرق في مواعيدها . وطلبوا إليه عزل جماعة من مباشريه ، ومن بينهم « الجمالي يوسف البدرى » وزيره . ثم سويت أمور هذه الفتنة ، بشروط منها : عزل « البدرى » .

حانت سنة ٩٢٢ هـ ، والوزارة شاغرة ، إذ لم يعين فيها أحد . و « البدرى » كان قد اختفى إبان الفتنة . فنودى عليه ، وطلب منه الظهور ، ووعد بالأمان . فظهر في يوم الثلاثاء ٩ المحرم ، فأعيد إلى الوزارة ، ولكن في شعبان من السنة المذكورة . ثم آلت السلطنة إلى الأشرف طومان باى ، بعد مقتل القورى ، في مرج دابق سنة ٩٢٢ هـ . فظل « البدرى » في الوزارة ، ويبدو أنه أضيف إليه ككشف البحيرة ، لأنه نزع منه بعد ، وضم إلى حاجب الحجاب الأمير طقطباى في شوال سنة ٩٢٢ هـ .

ويبدو لنا أنه خلع من الوزارة بعد قليل ، إذ قال ابن إياس ما نصه :
« في يوم الخميس ١٠ من ذى القعدة سنة ٩٢٢ هـ - خلع السلطان على الأمير يوسف البدرى ، الذى كان وزيراً ، وقرره ناظر الذخيرة الشريفة ووكيل بيت المال عوضاً عن بركات ابن موسى » .

ولما زحف السلطان سليم على مصر ، وامتلكها وقد عليه الأمير « يوسف البدرى » ، في أوائل سنة ٩٢٣ هـ ، فأمنه ، وعينه متحدثاً على جهات الغربية .
وفي يوم الخميس ٥ ذى القعدة من العام المذكور « أعاده ملك الأمراء خاير بك نائب العثمانيين في مصر ، إلى الوزارة مرة أخرى ، وخلع عليه خلعا بهذه المناسبة . وظل متمتعاً بثقة ملك الأمراء ، حتى صدر منه ما أحقده عليه فقبض عليه في شعبان سنة ٩٢٤ هـ . وجمعه ، واعتقل زوجته وأولاده وغلمانه وحاشيته ، وفرض عليه غرامة ماليا ضخمة ذهب في سداده جميع ما يمتلكه من مال وجوهر وأثاث .

ظل « البدرى » في معتقله نحو شهرين ، ثم أمر بالرحيل إلى الآستانة منفياً ، فرحل في شوال سنة ٩٢٤ هـ . هـو وطائفة من المباشرين . فقام ملك الأمراء خاير بك . فكثرت الحزن عليهم وعم الألم وعلا العويل بين أولادهم وأهلهم .

وبينا كانت السفن تمخر بهم عباب اليم إذ لقيهم طائفة من العريضة فاحتربوا مع
حراسهم من جنود البنادين ، ففرقت سفينة « البدرى » خلال الاحتراب ، قرب
جزيرة اقرطاش « كريد » . وبلغت أخبارهم القاهرة في صفر سنة ٩٢٥ هـ . وبهذه
المأساة ختمت حياة أحد أبطال هذا العصر . وهو آخر وزرائه .

« ابن عباس ج ٤ ص ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٨١ ، ٢٣٥ ، ٤٣٥ ، ٤٦٧ ، ٣٨٣ ،
و ج ٣ ص ٤ ، ٥ ، ٩٦ ، ٣٣ ، ٦١ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٩٩ ، ١٣٢ ، ١٤٢ ، ١٧٣ ،
١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٩ » .

تم بحمد الله

تم قسم الأول من الجزء الأول من كتاب :
« عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى » ،
وبله القسم الثانى من الجزء الأول . وأوله باب الخلافة « عباسية الثانية »

كشف باعلام المجلد الأول

(١)

أبو البقاء بن الجيعان و محمد بن يحيى
ابن شاكر : ٢١١
أبو بكر بن علي الدوادار : ٢٠٢
أبو بكر محمد بن قلاوون وسيف الدين
الملك المنصور : ٣٤ ، ٣٥ ، ٦٨ ،
٩٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٨٦
أبو بكر والمعتضد الخليفة العباسي :
٣٧ ، ٦
أبو السعود الجارحي «الشيخ» : ٧٣
٢٣٨ ، ٢٣٧
أبو سلة حفص بن سليمان الخلال :
أبو العباس البصير : ١٩٠
أبو الصاكر : ٦
أبو الفداء إسماعيل و المؤيد صاحب
حياة : ٣٤ ، ١٠٣ ، ١٤٢
أبو الفداء إسماعيل و الصالح بن الناصر
محمد : ٣٥ ، ٣٦ ، ١٠٦ ، ١٠٧
١٠٨ ، ١١٠ ، ١٨٧
أبو الفرج يعقوب بن كلس : ٢٤٠
أبو القاسم أونوجور : ٦ ، ٧
أبو المسك كافر الأخشيدي : ٦
أبو المعالي محمد و الملك السعيد : ٢٨
أبو موسى : ٦
أبو النصر شيخ المحمودي و الملك المؤيد
انظر شيدا .

آق سنقر السلاري و شمس الدين :
٩٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧
آق سنقر الفارابي و شمس الدين : ٩٦
آقوش الأفرم المجركي : ١٨٤ ، ١٨٥
آل ملك الجوكندار و الحاج سيف
الدين : ١٠٧
إبراهيم بن بركة و سعد الدين
القبلي : ٢٥٧
إبراهيم بن عبد الغني و أمين الدين
ابن الهيصم : ٢٥٨
إبراهيم بن غراب : ١٩٧
أبسانيك الأول : ٣
أبسانيك الثالث : ٣
ابن الأحب : ١٢٠ ، ١٨٨
ابن الأهناسي : انظر و العلائي
ابن دانيال و شمس الدين
ابن زنبور و علاء الدين عبد الله :
١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٢
ابن السعلوس و شمس الدين : ٣٠ ،
٩١ ، ٩٨
ابن مالك النحوي و جمال الدين : ٢٧
ابن مطروح : ٢٠

١٥٤، ١١٧، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٤

١٥٥ إلى ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦

١٦٧، ١٦٩، ٢٠٥، ٢٠٧

أزبك خان وملك التتار: ٦٠

أزبك لقان وصاحب الموصل: ١٠٤

أزك اليوسفي الخازندار: ٢١٩، ٢٢٠

أزدر بن علي باي: ٢٢٠

أزدر الطويل: ٢٠٤

أزدر العامري القصري الخازندار:

١٢٦

أزدر العمري: ١١٢، ١٩٠

أزدر «نائب حلب»: ٢١٠

استدر الناصري: ١٢٣، ١٢٤، ١٢٦

١٩٠

أسد الدين شيركوه: ٨

الأسعد وشرف الدين هبة الله بن صاعد

القائزي: ٢٤٣، ٢٤٤

الإسكندر المقدوني: ٤

إسماعيل بن محمد «الملك الصالح بن

الناصر» انظر أبا الفداء.

إسماعيل الصفوي «الشاه»: ٦٠

الأشرف إبنال العلائي «الملك»: ٥٠

١١٧، ١٥١، ١٥٥، ١٦٢، ١٦٣

١١٧، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٢٢

الأشرف برسبي «الملك»: ١٥، ٤٨

١١٧، ٨٢، ٦٦، ٥٢، ١٤٧، ١٤٩

١٥٠، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٥، ١٦٢

١٨٩، ١٩٨

أبو يزيد الدوادار: ١٤٠

الأحلب وشيخ قبيلة عرك: ١٨٨

أحمد بن أسبغا: ١٦٥

أحمد بن إبنال «الملك المؤيد»: ٥٠

٥١، ٧١، ١٥١، ١٥٢، ١٩٩

٢٠٦، ٢١٧

أحمد بن شيخ «الملك المظفر»: ١٤٦

١٨٩

أحمد بن الصائغ: ٢٢٧، ٢٣٨

أحمد بن طولون: ٦، ١٣، ٣٢، ٦٧

أحمد بن عمر الحسني بن قطيعة وشهاب

الدين: ٢٥٨

أحمد بن عمر الهواري: ٢٠٩

أحمد بن العيني «الشهابي»: ٢٢٢، ٢٢٣

٢٢٤

أحمد بن محمد بن قلاوون الناصر

ابن الناصر: ٣٥، ١٠٦، ١١٠

١٨٧

أحمس: ٢، ٣

أرغون الدوادار الناصري «نائب

السلطنة»: ١٠٣

أرغون شاه الأشرقي «نائب دمشق»:

٣٧، ١٢٧، ١٢٨

أرغون شاه تتر: ١٢٤

أرغون الكامل: ١٠٧، ١٠٩

أرقطاي القفجقي: ١٠٧، ١٠٨

أزبك بن خلطغ والأتابكي: ١٦، ٥٣

١٨٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،

٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٣ ،

٢١٧ ، إلى ٢٢٣

الأشرف بك بك بن الناصر محمد ، الملك ،

٣٥ ، ٧٠ ، ٩٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،

١٨٦ .

الأشرف يوسف الأيوبي ، الملك

مظفر الدين ، : ٢٤

أقبای الخازندار : ١٩٧

أقبای الطرنتای الحاجب : ١٩٤

أقبای الطويل ، نائب غزة : ، ١٧١ ،

٢١٨ ، ٢٢٠ .

أقيردى الدوادار : ٥٦ ، ١١٧ ، ١٦٠ ،

١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ،

١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،

١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ،

٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، إلى ٢٢١

أقبای الخرازی : ٩٢ ، ١١٤ ، ١١٦ ،

١٥٠ ، ١٥١ .

أقبای الجالی : ١٤٦

أقبای الناصري ، علاء الدين : ، ١٨٦ ،

١٨٧

أقمر بن عبد الغنى : ١١٢ ، ١١٣ ،

أقمر الصاحبى الصغير بالحنبل : ٩٢ ،

١١٣ ، ١٢٨ ،

أقطای ، فارس الدين ، المستعرب :

٢٢ ، ١١٨ ، ١١٩

الأشرف جان بلاط ، الملك ، : ٥٧ ،

١٧٤ ، ١٧٢ ، ١٧٠ ، ١١١ ، ١٧١ .

١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ،

٢٢١ ، ٢١٣ ، ٢١٥ .

الأشرف خليل بن قلاوون ، الملك ، :

٣٠ ، ٣١ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٩١ ،

٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، ١١٦ ، ١٨٣ ،

الأشرف شعبان بن حسين ، الملك ، :

٣٩ ، ٤٠ ، ٨١ ، ٩٢ ، ١٠٩ ، ١١٠ ،

١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ،

١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ،

١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٩٠ ،

الأشرف طومان باى ، الملك ، : ٦٢ ،

٦٣ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٨٢ ، ١٨٢ ،

٢١٧

الأشرف قانصوه الغورى ، الملك ، :

٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٧٢ ، ٨٠ ،

٨٢ ، ٨٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٧٣ ،

١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ،

١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ٢١٧ ، ٢٢١ ،

٢٢٢ ، ٢٢٤

الأشرف قايتباى ، الملك ، : ١٥ ،

١٦ ، ١٧ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ،

٥٥ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٨٢ ، ٨٣ ،

١١٤ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ،

١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،

١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،

١٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ،

أيدغمش : ١٠٥
 أيدك البندقدار « سلام الدين » :
 ١٤ ، ٢٦ ، ٧٥ ، ٩١ ، ٩٣ ،
 ٩٤ ، ٩٥ ،
 أيدمر الحلي : انظر عز الدين :
 أيدمر الخطيرى « عز الدين » : ١٨٤
 أيدمر الدوادار : ١١٠ ،
 أيدمر الظاهرى « عز الدين » :
 أيدمر « المقر السيفى » : ١٢٧
 إينال الأشقر البجوى : ٢٠٢ ،
 ٢٠٣ ،
 إينال باى بن قجماس : ١٩٤
 إينال الجسكى : ١١٤ ،
 إينال الملاى « الملك » . . . انظر
 الأشرف .
 إينال اليوسفى : ١٣١ ، ١٤٠ ، ١٤١ ،
 ١٤٢ ،
 أيتيك البدرى : ٩٢ ، ٩٣ ، ١١٣ ،
 ١٢٨ ، ١٢٩ .

ب

بابندر : ١٥٨ ، ٢١٠ ،
 بايزيد « ملك العثمانيين » : ٤٤
 بدر الدين بن سلام : ١٣١ ،
 بدر الدين بيدرا « نائب السلطنة » :
 ٣٠ ، ٣١ ، ٩١ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٨٣ ،
 ١٨٤ ،
 بدر الدين بيليك الخازندار « نائب

أقوش نائب الكرك « جمال الدين » :
 أكل الدين الخنى : ١٣٠ ،
 أمير حاج بن شعبان « الملك الصالح » :
 ٤٠ ، ٤٣ ، ٦٩ ، ١١٤ ، ١١٧ ،
 ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ،
 ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٩١ ،
 ٢٠٢ ،
 أمينحسب الثالث : ٢
 أمين الدين بن الهيصم : انظر إبراهيم
 ابن عبد الفتى :
 أمين الدين الخلوئى : ١٣٠
 أمينحسب : ٢
 أنوك بن حسين : ٣٩ ، ١٢٣
 أوحى بن الخطيرى « شرف الدين » :
 ١٨٤ ،
 أوكتافوس : ٤
 أيتك الأفرم الصالحى « عز الدين » :
 ٩٧ ،
 أيتك البغدادى « عز الدين » :
 أيتك الجاشنكير « عز الدين الملك
 المزمع » : ١٩ ، ١٠ ، ٢١ ، ٢٢ ،
 ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٧٧ ،
 ٧٨ ، ٩١ ، ٩٤ ،
 إيتمش البجاسى الجركسى : ٤٤ ، ٤٥ ،
 ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ،
 ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤١ ،
 ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٦٠ ، ١٩٢ ،
 ١٩٣ ،

برهان الدين الحضر السنجارى : ٢٤٤
 برهان الدين التابلى : ٢٠٨
 بضاع شاه أخو سوار : ١٥٦ ، ٥٠٦
 بطليموس الأول : ٤
 بختى : ٣
 بكباك « بقبى » : ٦
 بكتاش الفخرى : ١٨٢
 بكتمر الحاجب المنصورى « سيف
 الدين » : ١٥
 بكتمر الجو كندار المنصورى
 الساقى : ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤
 ، ١٠٥ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٩٤
 بلباى 'لرشيدى' : ٧٧
 بلباى المؤيدى « الملك الظاهر » : ٥٢
 ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٧٤ ، ٢٢٣
 بلباى المؤيدى « غير الملك الظاهرى » :
 ، ١٧٤ ، ٢٢٣
 بهاء الدين بن حنا « على بن سديد
 الدين عجم » : ٢٤٤ إلى ٢٥٠ ، ٢٥١
 بهاء الدين قراقوش الظاهرى : ٢٥٠
 بهادر آص : ١٠٣
 بهادر المنجى : ١٣٤
 بيرس « بندقدارى » « ركن الدين الملك
 الظاهر » : ٩ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٩
 ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٦٧ ، ٦٨
 ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧
 ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٨٧

السلطنة : ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ،
 ، ١٨٤
 بدر الدين التركمانى : ١٨٥
 بدر الدين « سنجارى » :
 برد بك الأشرقى : ١٩٩ ، ٢٠٠
 برد بك الأشرقى : ١٦٤
 برد بك « الجمعدار » : ٢٠١ ، ٢٠٢
 برد بك جيش : ٢٠٩
 برسباى « الدقاقى » « الملك » انظر
 الأشراف
 برقوق « الملك الظاهر » : ١٥ ، ٤٠ ،
 — ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ،
 ، ٤٨ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٨١
 ، ٩٢ ، ١١٤ ، ١١٧ ، ١٢٦ ، ١٣٠
 ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥
 ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩
 ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٥
 ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩
 ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٩١ ، ١٩٢
 ، ١٩٣ ، ١٩٤ :
 برقوق « الناصرى الظاهرى » : ١٦ ،
 ، ٢٠٢
 بركات بن موسى « الزينى » :
 بركات الشريف العربى : ١٧٥
 بركة الجوبانى « الزينى » : ١٣٠ ،
 ، ١٤١
 برهان الدين بن حنا : ٢٤٤

تحتس الأول : ٢
تحتس الثالث : ٢
تقرى بردى الأستاذار : ١٤٥ ،
٢٢٤ ،
تقرى بردى بن بلبان الظاهري :
تقرى بردى بن يشبغا : ١٤٥ ،
١٤٦ ،
تقرى بردى ططر : ١٥٤ ، ٢١٩ ،
تقى الدين بن محب التيمى :
تقى الدين عبد الرحمن بن بنت الأعز :
٩٨ ،
تلسكتمر : ١٣٥ ،
تمان نمر الأشرى : ١٤٢ ،
تمراز اليكتمرى المصارح : ١٥٥ ،
تمراز الدوادار : ١١٤ ،
تمراز القصى « الأتابكى » : ١١٧ ،
١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ،
١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ،
تمراز « نائب السلطنة » : ٦٧ ، ٩٣ ،
تمراز الناصرى : ١٣٢ ،
تمرباى الدمرداشى : ١٣٧ ،
تمربغا الأفضلى « منطاش الأشرى » :
٤٣ ، ٤٤ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ،
١٤٢ ،
تمربغا الروى « الملك الظاهر » :
١٥ ، ١٧ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ١٥٣ ،

بيرس الجاشنكير « ركن الدين الملك :
المظفر » : ٣٢ ، ٣٣ ، ١٠١ ،
١٠٢ ، ١٠٣ ، ١١٦ ، ١١٩ ،
١٨٤ ،
بيرس الدوادار المنصورى : ٤٥ ،
١٠٣ ،
بيرس الركنى : ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ،
١٤٦ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ،
بيبغا أروس « نائب حلب » : ٣٧ ،
١٠٨ ، ١١١ ، ١٨٨ ،
بيبغا المظفرى : ١٤٩ ، ١٨٩ ،
بيسدا نائب السلطنة « انظر بدر
الدين » ،
بيليك الخازندار « نائب السلطنة » ،
انظر بدر الدين
بيسدر الخوارزمى « نائب الشام » :
٩٢ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٩١ ،

ت

تاج الدين بن أبى شاكر : ٢٥٨
تاج الدين بن حنا ومحمد بن محمد : ٢٥٠
تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز : ٢٤٤
تاج الدين المقسى : ٢٠٩
تاتى بك البردبكي الظاهري : ١٥١ ،
تاتى بك الجمالى الظاهري : ٧١ ،
١١٧ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ،
١٧٧ ، ١٨٠ ، ٢٢٠ ،
تاتى بك قرا : ٢٢١ ،

١٤٨ ، ١٤٩ ،
جاني بك الظهري و نائب جدية :
١٥٢ ، ١٩٩ ،
جاني بك الفقيه : ٢٠٩ ،
جاني بك القنصير الأشرف : ١٥٣ ،
١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،
جاني بك ملوك برسباي : ١٩٨ ،
جاولي و الأمير : ١٨٧ ،
الجامي اليوسفي و سيف الدين :
١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ،
جبار آل فضل : ١٠٩ ،
جبغا « نائب طرابلس » : ٣٧ ،
جرباش المحمدي المعروف بكرت :
١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٦٢ ،
١٩٩ ، ١٢٦ ،
جرباش ملوك الجامي اليوسفي :
جركس ملوك شيمان : ١٢٧ ،
جعفر الصادق : ٧ ،
جتمق العلاق و الملك الظاهر : ٤٩ ،
٥٠ ، ٥٢ ، ٦٦ ، ٩٣ ، ١١٤ ،
١١٧ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٥ ،
١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ،
١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،
٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٣٠٤ ، ٢١١ ،
جكم العوضي : ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٠ ،
١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،
جمال الدين أقوش و نائب السكر :
جمال الدين محمود الأستاذار : ١٣٢ ،

١٦٢ ، ٢٢٣ ،
تمربغا الظاهري : ١٥٥ ،
تمربغا المنجكي : ١٣٢ ،
نفيك البجاسي : ١٥٠ ،
تسكرها المارديني : ١٢١ ،
تسكرك الحسامي و سيف الدين :
١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،
تم الحسي و نائب الشام : ١٣٣ ،
١٤٤ ، ١٩٢ ،
تم المؤيدى و نائب الشام : ٤٤ ،
٤٥ ، ٢٢٠ ،
توران شاه و الملك المعظم : ٩ ،
١٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ،
تيمورلنك : ٤٤ ، ٤٥ ، ١٤٤ ،
١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٩٤ ،

ج

الجازاني : ١٧١ ، ١٧٥ ،
جان بلاط الغوري : ١٧٧ ،
جان بلاط و الملك ، انظر الأشرف .
جان بردى الزالي : ٦٢ ، ٢٢٢ ،
جانم الأشرفي و نائب الشام : ١٦٤ ،
جانم الشربيني : ١٦٥ ، ٢٠٤ ، ٢٠٩ ،
٢١٠ ،
جانم « نائب الشام » : ٥١ ، ٧١ ،
جاني باي : ٢١٤ ،
جاني بك الأشقر الدوادار : ٢٠٣ ،
جاني بك الصوفي : ٤٨ ، ١٤٧ ،

حسن الطويل د ملك العراقين :
٢٠٨ ٢٠٧ ، ٢٠٦ ، ١٥٤ ، ٥٣
حسين الكردى : ٦٠ ، ٥٩ ،
حسن "الدين" ثعلب د الشريف :
٢٤ ،
حمزة بن المتوكل على الله د الخليفة
القائم بأمر الله : ٥٠ ،

ح

حاجى بك بن بلباي د ملك الأمراء :
٦٢ .

حاجى بك بن حديد : ٢٠٨ ، ١٥٧ ،
حاجى بك الخزندار : ٢٢٧ ،
حاجى بك السكاف : ٢٢٩ ،
خزينا ملك التار : ١٨٤ ، ١٠٠ ،
خشقدم الاحمد الطواشى الوزير :
٢٠٧ ،

خشقدم الزم : ١٧١ ،
خشقدم الملك الظاهر : ٥١ ، ٥٠ ،
١٥٣ ، ١٥٢ ، ١٥١ ، ٨٣ ، ٥٢ ،
١٦٥ ، ١٦٢ ، ١٥٦ ، ١٥٥ ،
١٧٢ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ،

خشقدم البيسى : ٧١ ،
خشكلى البيسى : ٢٢٢ ،
خليل بن قلاوون د الملك ، انظر
الاشرف .
خليل بن قوصون : ١٢٤ ،

١٣٤ ، ١٩١ ، ١٩٢ ،
الجنالى يوسف البدرى : ٢٦٥ ، ٢٦٣ ،
الجنالى يوسف ناظر الخاص : ١١٧ ،
٢٠١ ، ١٥٥ ،
جوهر التركانى البشكى : ١٧ ،
جوهر الصقل : ٧ ،

ح

حاجى بن الناصر محمد د الملك المظفر :
٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،
١٢٠ ، ١٨٩ ،
الحاكم بأمر الله "قماطى" : ٨ ،

حردور : ٣ ،
حسام الدين طرطط اى د نائب
السلطنة : ٢٩ ، ٣٠ ، ٩١ ،
٩٨ ، ٩٧ ،
حسام الدين الكنجى : ١٣٥ ،
حسام الدين لاجين د الملك المنصور :
١٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٦٧ ، ٦٨ ،
٩٣ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٨٣ ،
١٨٤ ، ١٨٥ ،

حسن بن محمد د الملك الناصر بن
الناصر : ١٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ،
١٠٧ ، ١٠٨ ، ٩٢ ، ١٠٩ ،
١١١ ، ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،
١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ،
١٤٢ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ،
٢٠٥ ،

١٩٩ ، ٢٠٠ ،
زين الدين يعقوب بن الزبير « صاحب »
١١٨ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥
الزبي بركت بن موسى المحاسب « انظر
بركت » :
الزبي عبد الباسط بن القرشي خليل :
١١٧ ، ١٤٩ ، ١٩٨
زين الدين قاسم المعروف بشيخنة :
٢٦١ ٢٦٢

س

سالم الدوكلي أمير التركان : ١٣٦ ،
سراج الدين البلقيني : ١٣٨ ،
سراج الدين الوراق : ٢٥١
سعد الدين البقري : ٢٥٥ ، ٢٥٦
سعد الدين بن مروان الفارقي : ٢٤٦
سعد الدين « فرج بن النحال » : ٢٠٠ ،
٢٠١ ،
سعد الدين القبطي : « انظر إبراهيم
ابن بركة .

السعيد محمد بركة بن بيبرس « الملك » :
٢٨ ، ٨٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦
« سلاور » سيف الدين « نائب السلطنة » :
١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١١٦ ،
سلامش « سيف الدين الملك العادل
ابن بيبرس » : ٢٩ ، ٣٢ ، ٩٧ ،
١١٧ ،

سليمان القانوني « ملك العثمانيين » : ٢٣٢
سلم الأول « ملك العثمانيين » : ٦٠ ،

نخارويه : ٦
خوند الاحدية « زوجة السلطان
خشقدم » : ٢٢٢
خوند بركة « أم الأشرف شعبان » :
١٣٦ ،
خوند سعادات « بنت صرغتمش وأم
المظفر أحمد » : ١٨٩
خوند سمرا : ١٩٧ ،
خوند شقراء « بنت الناصر فرج » :
١٥٢ ،

خوند طولوز : ١٢٢
خوند قطار ملك : ١٨٦
خوند « غلى » بنت « ناصر البارزي » :
١٥٥ ،
خير بك الدوادار : ٥٢ ، ٢٢٣ ،

د

دولات باي « نائب حلب » : ١٧٩ ،
١٨٠ ،

ر

الرشيد الفارقي : ٢٤٥
« رميس الثاني » : ٢
« ركن الدين بيبرس البندقداري » « الملك
الظاهر » « انظر بيبرس .
« ركن الدين بيبرس الجاشنكير » « الملك
المظفر » « انظر بيبرس .

ز

زين الدين يحيى الحلبي الاستاذ : ٢

سينو ستريس : ٢
 سيف أمير آل فضل : ١٥٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠
 سيف الدين أبو بكر بن محمد : انظر
 « الملك المنصور »
 سيف الدين الأيوبي « الملك العادل » :
 سيف الدين بخشي : ٢٦
 سيف الدين برقوق « الظاهر » انظر
 برقوق .
 سيف الدين تنكز الحسامي ١٨٤ إلى ١٨٩
 سيف الدين الجاي اليوسفي : انظر
 الجاي .
 سيف الدين الحاج آل ملك الجوكندار :
 ١٠٧
 سيف الدين سلار « نائب السلطنة »
 انظر سلار .
 سيف الدين سلامش بن بيرس « الملك
 العادل » انظر سلامش .
 سيف الدين شيخو العمري الناصري :
 ١٦ ، ٣٧ ، ٩٢ ، ١١١ ، ١١٦ ،
 ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٨٩ ، ١٩٠
 سيف الدين صرغتمش الناصري :
 انظر صرغتمش
 سيف الدين طنجي الأشرفي : ١٠٠ ،
 ١٨٣
 سيف الدين قبالاي الناصري : ١٠٩ ،
 سيف الدين قطز « الملك المظفر »

١٨٢ ، ٦٣ ، ٦١
 سنجر الجاولي « علم الدين » : ١٨٧ ،
 سنجر الحلبي : ٢٦
 سنجر الشجاع « علم الدين » : ٣١ ،
 ٩٨
 سنقر الأشقر « شمس الدين » : ٢٩ ،
 ٩٧ ، ٩٦
 سنقر الأصغر : ٢٤٢ ، ٢٥١ إلى ٢٥٣
 سنقر الروي : ٧٧ ،
 سنقر المظفرى الألفي « شمس الدين » :
 ٩٦
 سوار ملك الأبلستين : ٥٣ ، ٦٠ ،
 ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٦٣ ،
 ٢٠٢ ، ٢٠٦
 سودون الشهابي الدوادار : ١٨٢ ،
 سودون الظاهري : ١٤٩ ،
 سودون الدجى : ١٨٠ ، ١٨١ ،
 ١٨٢
 سودون الفخرى الشيخوني : ٩٢ ،
 ٩٣ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٣٨ ،
 ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٩١
 سودون المظفرى : ١٣٤ ، ١٣٥ ،
 سولى بن ذى القادر أمير التركان :
 ١٣٤
 سيباي « نائب الشام » : ١٨١ ،
 سيبى الأول : ٢

شرف الدين أوجده بن الخطيرى :
انظر أوجده .

شرف الدين يحيى بن صنيعة : ٢٦٠
شرف الدين هبة الله بن صاعد
الفائزى : ٢٤٤ ، ٢٤٥

شرف الدين يحيى بن أربك : ١٦٢ ،
الشرىف حصن الدين ثعلب : ٢٤
شعبان بن حسين « الملك » انظر
الأشرف .

شعبان بن محمد « الملك الكامل » :
٣٦ ، ١٠٧ ، ١١١

شمس الدين آق سنقر السلاوى : انظر
آق سنقر .

شمس الدين آق سنقر التمارقانى : انظر
آق سنقر .

شمس الدين بن دانيال : انظر ابن
دانيال .

شمس الدين بن السلوس : انظر ابن
السلوس .

شمس الدين البباوى ومحمد : ٢٥٩ ، ٢٦٠
شمس الدين البساطى : ١٥٠

شمس الدين سنقر المظفرى الألفى :
انظر سنقر .

شمس الدين شاكر بن غزىل البقرى : ٢٥٦
شمس الدين الفرنوى : ٢١٨

شمس الدين قرا سنقر الجوكندار
النصروى : ٩٩

شهاب الدين بن قطيعة : انظر أحمد

انظر قطار المعزى .

سيف الدين قوصون « الأتابكى

والثائب » : ١٥ ، ٣٥ ، ٧٠ ،

٩٢ ، ٩٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،

١١٧ ، ١١٩ ، ١٣٠ .

سيف الدين منجك اليوسفى : ٦٦ ،

٩٢ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ،

١١٢ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،

١٢٧

سيف الدين منكوتغر الحسامى ، نائب

السلطنة : ٢٢ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،

١٨٣

سيف الدين كوندك الساقى : ٩٦ ،

ش

شادبك أبازا الإيتالى الأشرفى : ١٦ ،

شادبك الخوخ : ٢١٣ ،

شاكر بن البقرى ، محمد الدين بن علم

الدين : ٢٦٠

شاكر بن الجيمان « تلم الدين » :

٢٠٣ ،

الشاه زمساعيل الصفوى : « انظر

اسماعيل :

الشاه رمضان أخروسار : انظر رمضان

شاهين الحسمى « الجدار » : ١٩٢ ،

شجره لار « الملك » : ١٠ ، ١٩ ،

٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٩٤ ،

١٤٩ .
 الصلاح نجم الدين الأيوبي « الملك » :
 ١٣ ، ١٤ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٢ ،
 ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٧٥ ، ٧٦ ،
 ٩٤
 صبيح العاطمي « المظلي » العواشي :
 ٢٠ .
 صدر الدين المزاوي « القاضي » :
 ١٩٣ .
 صرغتمش الناصري : « سيف الدين »
 ٣٨ ، ٨١ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ،
 ١٩٠ .
 صفر خجا الجركسي : ١٥٣ ،
 صلاح الدين الأيوبي : ٨ ، ٩ ، ١٣ ،
 صلاح الدين خليل بن قلاوون « الملك » :
 انظر الأشرف .
 صلاح الدين الصالح بن الناصر محمد
 « الملك » انظر الصالح .
 صلاح الدين الصفدي : ١٨٦ ،
 ط
 طاجار : ١٠٥ .
 طاز الدوادار : ٢٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ،
 ١١٢ ، ١٤٥ ، ١٨٩ ، ١٩٠ .
 طراباي الشريفي : ١٧٠ ، ١٧٣ .
 طرغاي نائب السلطنة : انظر حسام
 الدين .
 طشتمر البدرى « الساق » نائب

شهاب الدين أحمد بن الناصر « الملك
 الناصر » : انظر أحمد .
 شهاب الدين « طائر المصري الشاعر » :
 ١٢٩ .
 الشهابي محمود : ٢٥٠
 الشهابي أحمد بن أسنفا « الطيار » : ١٦٥
 الشهابي أحمد بن الهيبي : انظر أحمد .
 شيخ المحمودي « الملك المؤيد » :
 ١٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ،
 ٨٢ ، ١١٧ ، ١٢٦ ، ١٤٦ ،
 ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٩٤ ،
 ١٩٨ .
 شيخو العمري الناصري : انظر سيف
 الدين .
 شيشنق ٣٠
 ص
 الصالح أمير حاج بن شعبان « الملك » :
 انظر أمير حاج .
 الصالح صلاح الدين بن ناصر محمد
 « الملك » : ٢٧ ، ٣٨ ، ١٠٤ ،
 ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١٢٠ ،
 ١٤٧ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،
 ١٨٩ ، ١٩٠ .
 الصلاح علاء الدين أبو الفداء « اسمعيل
 ابن الناصر » : انظر أبا الفداء .
 الصلاح ناصر الدين محمد بن ططر
 « الملك » : ٤٨ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،

١٨٤

ظ

الظاهر برقوق « الملك » : انظر
برقوق .

الظاهر بلباي المؤيدى أبو النصر
« الملك » : انظر بلباي .

الظاهر بپيرس « الملك » : انظر
پيرس .

الظاهر تمرينا « الملك » : انظر تمرينا
الظاهر جقمق الملاى « الملك » : انظر
جقمق .

الظاهر خشقدم « الملك » : انظر
خشقدم .

الظاهر ططر « الملك » : انظر ططر .
الظاهر قانصوه بن قانصوه « الملك » :

٥٦ ، ٥٧ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧١ ،
١١٧ ، ١٦٢ ، ١٧١ ، ١٧٤ ،

١٧٧ ، ١٧٨ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،
٢١٨

ح

العاذل بن پيرس « الملك سيف
الدين » : انظر سلاش .

العاذل سيف الدين الأيوبى « الملك » :
١٨

العاذل طومان باى « الملك » : انظر
طومان باى .

السلطنة : ٩٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،

طشتمر الملاى : ١١٠ ، ١٢٩ ،
١٣٠ .

طشتمر المحمدى الصهير بالصف :
٩٢ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،

ططخ احر الرقيق : ١٥٥ ،
ططر « الملك الظاهر » : ٤٧ ، ٤٨ ،

١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ،
طغنى الاشرفى : انظر سيف الدين .

ططتمر النظامى : ١٢٥ ،
طقزدرم الناصرى « نائب السلطنة » :

٩٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
طقطباى حاجب الحجاب : ٢٦٤

طلائع بن رزيك : ٨ ،
طنبغا الطويل : ١٢٢ .

الطنبغا القرشى : ٤٧ ، ١٤٦ ،
١٤٧

طولون بن على شاه : ١٤٠ .
طومان باى « الملك » : انظر

الاشرف .
طومان باى « الملك » : العادل : ٥٦ ،

٥٧ ، ٥٨ ، ١١٦ ، ١١٧ ،
١٦٢ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،

١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ،
١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،

٢٢٢ ،
طيرس الحاندارى « علاء الدين » :

عز الدين بن مسافر تاجر الرقيق : ١٦٠

١٦٠ ، ٤٢

عز الدين بن فوق « عبد العزيز

الملك المنصور » : ٤٥ ، ٤٦

عز الدين بن عبد السلام : انظر

عبد العزيز .

عز الدين أبيك الامير الصالحى ٩٧

عز الدين أبيك « الملك الممزر » :

انظر أبيك .

عز الدين أبيك البغادى : ٢٥٣

عز الدين ليذمر الحلى : ٩٤ ، ٩٥

١١٢ .

عز الدين ليذمر الخطيرى : ١٦٧ ، ١٧٧

عز الدين ليذمر الظاهرى : ٢٥١

العزير يوسف بن برسباى « الملك » :

٤٩ ، ٦٦ ، ١١٨

علاء الدين آق سنقر : ١٧ ، ٢٩

علاء الدين بن أبى الجود « على » :

٢٢٤ .

علاء الدين بن زنبور : انظر ابن

زنبور :

علاء الدين أبو الفداء إسماعيل بن الناصر :

انظر الصالح .

علاء الدين أقيفا « الناصرى » : انظر

أقيفا .

علاء الدين ليذكن البندقار : انظر

ليذكن .

العادل كتبغا « الملك » : ١٧ ، ٣١

٢٢ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٩٢ ، ٩٩

العاضد الداملى : ٨

عبد الباسط بن القرشى خليل : انظر

الزنى .

عبد الرحمن بن بنت الأعز : انظر

نق الدين .

عبد الرحيم بن محمود المينى : ٢٢٢

عبد الرحيم البيسانى « القاضى الفاضل » :

١٠ .

عبد العزيز بن عبد السلام « عز الدين » :

١٦ ، ٢٧ ، ٧٥

عبد العزيز الانصارى : ٧٠ .

عبد العزيز بن برقوق « الملك المنصور

عز الدين » : ٤٥ ، ١٤٥ ، ١٤٦

١٩٧ .

عبد القادر الطويل : ٢٦١

عبد الله بن تاج الدين « علاء الدين

ابن زنبور » : انظر ابن زنبور

عبد الله الوزيرى : ١٨٤

عبد الله يحيى الزورى : ٢٧

عبد الوهاب بن عبد الله « انظر تاج

الدين بن شاكر » :

عبد الوهاب بن بنت الأعز : انظر

تاج الدين

عثمان بن جقمق « الملك المنصور » :

١٥ ، ١٦ ، ١٥١ ، ١٥٥ ، ١٥٦

١٦٤ .

- علاء الدين اسيرامى « تاجر الرقيق » : ١٨٥
علاء الدين طيرس الخزندارى : ١٨٥
انظر طيرس .
علاء الدين بكك بن الناصر « الملك » :
انظر الأشرف .
العلاقى بن الأمانى « على بن محمد » : ١٩٩ ، ٢٠٠
العلاقى بن إبنال اليوسفى « على » : ٦٦
علاقى والى القاهرة : ٧٣ ،
علم الدين سنجر الجاولى : ١٨٧ ،
علم الدين سنجر الشجاعى : ٣٠ ، ٩١
علم الدين شاكر بن الجيعان : ٢٠١ ، ٢٠٢
على باى : ١٤٣ ،
على بن أبى الجود « انظر علاء الدين » :
على بن أبى طالب : ٧ ،
على بن إبنال اليوسفى : انظر « العلاقى » .
على بن سعيد الدين محمد : « انظر بهاء الدين بن حنا » .
على بن إسماعيل « الملك المنصور » : ٤٠ ، ٤٢ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ،
على بن محمد الأمانى : ١١٥ ، ١١٨ ،
على باى :
على دولات أخوسوار : ٥٤ ،
على الماردى : ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٩٠ ،
العلاء الضائع : ١٤ ، ٢٦ ،
عماد الدين زنكى : ٨٠ ، ٨٤ ،
عماد الدين التلبلى « الطبيب » : ٩٥ ،
عمر بن الخطاب : ٥ ،
عمر بن المارض : ٢٠٢ ،
عمرو بن العاص : ٥ ،
عمر بن قايماز : ٢٥٦ ، ٢٥٧ ،
غ
غازان ملك التتار : ٣٣ ، ١٠١ ،
ف
الفارغى الفاطمى : ٨ ،
فارس الدين أقطاى : انظر أقطاى
فارس الدين أقطاى المسترب : انظر أقطاى .
فاطمة الزهراء : ٧ ،

١٥٥ .
 قاني باي قرقور : ٢٠٣ .
 قايبياي « الملك » انظر الاشرف .
 قبلاي الناصري : انظر سيف الدين .
 قبحق الشعباني : ١٤٨ .
 قرا تيمر : ١٢٣ .
 قرا سنقر المنصوري : انظر شمس الدين .
 قراقوس الظاهري : انظر بهاء الدين .
 قرا ملك : ٤٨ .
 قرطاي الطازي : ١٢٨ .
 قرقاس بن ولي الدين : ١٧٦ الى ١٧٩ ، ٢١٣ .
 قرقاش الشعباني : ٤٩ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٥١ .
 قرقاش المقرئ .
 قشتمر المنصوري : ٩٢ ، ١٠٩ ، ١١٦ ، ١٢٢ .
 قصروه قائم الشام : ٥٧ ، ١١٦ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ .
 ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ .
 قطر التدي : ٦ .
 قطر المعزي سيف الدين « الملك المظفر » : ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٦٨ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١١٥ .
 ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ .

نحر الدين بن لقمان القاضي : ٢٠ ، ٩ ، ٢٠٠ ،
 فرج بن برقوق : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٦٦ ،
 ٨١ ، ٩٣ ، ١١٤ ، ١٣٢ ، ١٤٣ ،
 ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ،
 ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٩٣ ،
 ١٩٤ ، ١٩٥ .
 فرج بن النحال سعد الدين : انظر سعد الدين .

ق

قاسم شقيقته : انظر زين الدين .
 القاضي الفاضل : انظر عبد الرحيم .
 قانصوه البرجي : ١٧٤ .
 قانصوه بن قانصوه « الملك » : انظر الظاهر .
 قانصوه خشيانة « الأتابكي » : ٥٥ ،
 ٧١ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ،
 ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،
 ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ،
 ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ،
 ٢٠٦ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ .
 قانصوه الشامي : ١٦٣ .
 قانصوه الغوري : انظر الاشرف .
 قانصوه المحمودي : ١٧٧ .
 قانصوه اليحياوي : ٢١١ .
 قان بردي الدوادار : ١٧٣ .
 قانباي الملاقي : ١٩٦ .
 قائم التاجر المؤيدي : ١٥٢ ، ١٥٣ ،

كراى المنصورى : ١٨٤ .
 كرتاي الأحر : ١١٧ ، ١٦٣ ،
 ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ٢١٦ ،
 ٢١٧ ، ٢١٨ .
 كرجى : ١٠٠ ، ١٨٣ .
 كريم الدين الصغير : ١٨٥ .
 كرل : تاجر الرقيق : ٦٦ .
 كليوترا :
 كشيفا الخوى : ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣ .
 كوندك الساقى انظر سيف الدين .

ن

لاجين الملك المنصور : انظر حسام الدين
 لويس التاسع ملك فرنسا : ١٨٠ ، ٩ ،
 ٢٠ ، ١٩ .

م

المؤيد أبو الفداء إسماعيل صاحب
 حماة : انظر أبا الفداء .
 المؤيد أحمد بن إتيال « الملك » انظر
 أحمد .
 المؤيد شيخ الحمودى « الملك » انظر
 شيخنا .
 المستوكل على الله العباسى : ١٢٨ ،
 ١٢٩ ، ١٩٥ .
 مجد الدين بن البقرى : انظر شاكر .
 مجد الدين بن لقيطة .

قطليجا بن باران الجو كندار : ٨٠ .
 قطليجا علاء الدين : ٨٠ .
 قطليجا الفخرى : ١٠٥ ، ١٠٦ .
 قطربنا السكرى : ١٩٧ .
 قطربك الملايى : ١٩٣ .
 قطروشاه : ١٠٠ .
 قطربناه « أجو أيبك » : ١٢٩ .
 قطرب لجاء السلحدار : ١٢١ .
 قفجى نائب الشام : ٣٣ .

قلادون « الملك المنصور » : ١٧ ،
 ٢٢ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ،
 ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٢ ، ٦٥ ، ٦٦ ،
 ٦٨ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٩٣ ،
 ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ،
 ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٦ ،
 ١١٧ ، ١١٩ ، ١٨٤ ، ١٨٧ .

قير : ٣

قوصون « الأتابكى والنائب » : انظر
 سيف الدين .
 قيف الرجى : ١١٦ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ،
 ١٧٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ .
 قيف الساقى : ١٧٣ .
 ك

الكامل شعبان بن الناصر محمد
 « الملك » .
 كشتيفا « الملك العادل » انظر العادل .
 كجيك بن الناصر محمد « الملك » انظر
 الأشرف .

محمد بن محمد « تاج الدين بن حنا »
انظر تاج الدين .

محمد بن يحيى بن شاكر : انظر
أبا البقاء .

محمد ركة خان « الملك السعيد بن
بيبرس » انظر السعيد .

محمود الناصري بن جمال الدين بن
الاستادار .

محمود نور الدين بن زنكي : ٨ ،
٨٤ .

محيي الدين عبد الرحيم : القاضي الفاضل
انظر عبد الرحيم .

المستضيء العباسي .

المستعصم بالله العباسي : ١٢٨ .

المستعين العباسي : ١٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ،

٦٨ ، ١١٧ ، ١٤٦ ، ١٩٥ .

المستنصر بالله الفاطمي : ٧ .

المستكني بالله العباسي : ٣٧ .

مسعود الأيوبي : ٢٤ .

مصرياى الدوادار : ٥٩ ، ١٧٥ ،

٢٢١ ، ٢٢٢ .

المظفر أحمد بن شيخ « الملك » انظر
جـ أ .

المظفر بيبرس الجاشنكير « الملك »
انظر بيبرس .

المظفر حاجي بن الناصر « الملك »
انظر حاجي .

المظفر صاحب حماة : ٧٠ .

محمد البياوي « شمس الدين » انظر
شمس الدين .

محمد بن بكتغر : ٨٠ .

محمد بن حاجي « الملك المنصور بن المظفر »
٣٨ ، ٣٩ ، ٩٢ ، ١٠٩ ، ١١٢ ،

١١٦ ، ١٢٢ .

محمد بن ططر « الملك الصالح ناصر
الدين » انظر الصالح .

محمد طنج : ٦ .

محمد بن صاحب حماة « المنصور بن
المظفر » ٧٠ .

محمد بن العيني : ٢٢٤ .

محمد بن قايتباي « الملك الناصر » :

١٥ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٧ ، ٨٢ ،

١١٧ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ،

١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ،

١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٧٩ ،

٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ .

محمد بن قلاوون « الملك الناصر » :

١٥ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ،

٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٦٦ ،

٦٩ ، ٧٠ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ،

٨٥ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ،

١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،

١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ،

١٠٩ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ ،

١٢٨ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ،

١٨٧ ، ١٨٨ .

المنصور قلاوون ، الملك ، انظر
قلاوون .

المنصور محمد بن المنظر صاحب حماء :
انظر محمدا .

المنصور محمد بن حاجي ، الملك ، :
انظر محمدا .

منطاش الأشراف : انظر تمسريفا
الأفضل .

منفتاح : ٢ .

منكلي بقا الشمسي : ١٢٥ ، ١٢٦ .
منكوتمر الحسامي نائب السلطنة : انظر

سيف الدين .

موفق الدين أبو الفرج ناظر الجيوش .
موفق الدين هبة الله بن سعد الدولة
القطبي الوزير :

مهنا أمير العرب : ١٥٣ .

ميناء : ١

ن

الناصر أحمد بن الناصر محمد ، شهاب
الدين الملك ، انظر احمد .

الناصر الأيوبي ، الملك ، .

الناصر حسين بن الناصر محمد : انظر
حسنا .

ناصر الدين بن الخنث وشيخ العرب ، :
ناصر الدين بن الرماح : ١٩٣ .

الناصر فرج بن برقو ، الملك ، انظر
فرجاً .

المنظر قطز المعزى : انظر قطز .

المنظر يوسف الأيوبي ، الملك ، انظر
الأشرف .

المعتضد العباسي ، أبو بكر الخليفة ،
انظر أبا بكر .

المعز أيك ، الملك ، انظر أيك .
المعز لدين الله الفاطمي : ٧ .

المعظم توران شاه ، الملك ،
انظر توران شاه .

مغلطاي الجمالي :

ملكباي بنت قرقاس : ١٦٤ .

ملكتمر الشيخوني : ١٢٥ .

ملكتمر المحمدي : ١٢٥ .

ملكشاه بن ألب أرسلان : ١١٥ .

منجك اليوسفي : انظر سيف الدين
المنصور أبو بكر بن الناصر : انظر

بابكر .

المنصور حسام الدين لاجين ، الملك ،
انظر سيف الدين .

المنصور عبد العزيز بن برقو
، الملك ، انظر عبد العزيز .

المنصور عثمان بن جقمق ، الملك ،
انظر عثمان .

المنصور علي بن الأشرف : انظر
علييا .

المنصور علي بن أيك ، تور الدين
ابن المعز ، الملك ، انظر عليا .

يشيك الساق المعروف بالأعرج ١٤٨ :

يشيك السودوي : ١٥٠ ، ١٥١ .

يشيك الشعباني الدوادار : ٤٥ ،

١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ .

يشيك الفقيه : ٢٢٢ .

يعقوب بن حسن الطويل ملك العراقين

١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٩٥ ، ٢١٠ ، ٢١١ .

يعقوب بن كلس « أبو الفرج » :

يعقوب صاحب زين الدين بن الزبير :

يلبغا آص المنصوري : ١٢٤ ، ١٢٥ ،

يلبغا الأحمد الأستاذار : ١٣٣ .

يلبغا أروس : ١١١ ، ١٢٠ .

يلبغا السالمى : ١٤١ .

يلبغا العمري الناصري « مملوك الناصر

حسن : ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٦٦ .

٨١ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١١٦ .

١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ .

١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٣ .

١٩٠ ، ١٩٤ .

يلبغا الناصري نائب حلب : ٤٣ ،

١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ .

١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤١ .

يلبغا اليحيوي : ١١١ .

يوسف بن رجب « الملك » انظر العزيز .

يوسف الأيوبي مظفر الدين « الملك » .

يوسف البدرى : انظر الجالى .

يوسف ناظر الخصاص : انظر الجالى .

الناصر محمد بن قايتباي « الملك » انظر محمدا .

الناصر محمد بن قلاوون « الملك »

انظر محمدا .

الناصرى بن البارزى : ١٥٥ .

الناصرى محمد بن خاص بك : ١٧٨ .

الناصرى محمد بن فرج الناصر :

الناصرى محمد بن محمود جمال الدين

الأستاذار :

نجم الدين الأصقوف :

نجم الدين الأيوبي « الملك الصالح ،

انظر الصالح .

نظام الدولة : ١١٥ .

نعيد بن جبار : ١٤٠ .

نور الدين على بن أيك الممز « الملك

المنصور » : انظر عليا .

نور الدين محمود بن زنكي : انظر محمودا .

نوروز الحاقطى : ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٤ ،

١٤٨ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،

١٩٧ ، ١٩٦ .

و

الوليد بن عبد الملك : ٦ .

■

هولاكو : ٢٥ .

ي

يحيى الأستاذار : انظر زين الدين .

يشيك الدوادار : ٥٣ ، ١٥٨ ، ١٦٥ ،

٢٠٤ ، ٢٠٥ ، إلى ٢١١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤

فهرس القسم الأول من الجزء الأول

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١	مقدمة الكتاب	٣١	العادل كتبها المنصورى
١	نظرة سريعة في تاريخ مصر	٣٢	المنصور حسام الدين لاجين
١	من الفراعنة إلى المماليك : تمهيد.	٣٢	العودة الأولى للناصر محمد بن قلاوون
١	مصر الفرعونية	٣٣	المظفر ركن الدين بيبرس
٤	مصر من عهد الإسكندر الى فتح العرب	٣٤	العودة الثانية للناصر محمد بن قلاوون
٥	مصر من فتح العرب حتى قيام دولة المماليك	٣٥	المنصور سيف الدين أبو بكر
١١	مصر في عهد المماليك ٦٤٨ هـ - ٨٩٢٣	٣٥	الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد
١٢	أصل المماليك	٣٥	الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد
١٨	انتقال الحكم من الأيوبيين إلى المماليك	٣٦	الصالح علاء الدين اسماعيل
٢٢	دولتا المماليك : الدولة البحرية	٣٦	التكامل شعبان بن الناصر محمد
٢٣	٦٤٨ هـ - ٧٨٤ هـ	٣٦	المظفر حاجي بن الناصر محمد
٢٣	الملك المعز عز الدين أيك	٣٧	الناصر أبو المحاسن حسن بن الناصر محمد
٢٤	المنصور نور الدين بن المعز	٣٧	الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد
٢٥	المظفر سيف الدين قطز	٣٨	عودة الناصر حسن بن الناصر محمد
٢٦	الظاهر ركن الدين بيبرس	٣٨	المنصور محمد بن المظفر حاجي
٢٨	السعيد أبو المعالي محمد	٣٩	الأشرف شعبان بن حسين .
٢٨	العادل سيف الدين سلامش	٤٠	المنصور على بن شعبان
٢٩	المنصور سيف الدين قلاوون	٤٠	الصالح أمير حاج بن شعبان
٣٠	الأشرف صلاح الدين خليل		
٣١	الناصر محمد بن قلاوون		

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٥٦	الظاهر قانصوه بن قانصوه	٤١	دولة المالك الجركسية
٥٧	الاشرف جان بلاط بن يشبك	٤٢	الظاهر برقوق العثماني
٥٧	العادل طومان باي	٤٣	عودة الصالح أمير حاج بن شعبان
٥٨	الاشرف قانصوه الغوري	٤٣	عودة الظاهر برقوق العثماني
٦٢	الملك الاشرف أبو النصر	٤٤	الناصر فرج بن برقوق
	طومان باي	٤٥	المنصور عز الدين عبد العزيز بن برقوق
٦٣	تقيقب		
٦٥	السلطنة ونظام الحكم	٤٦	عودة الناصر فرج بن برقوق
٧٦	ثقافة المالك وتربيته	٤٦	سلطنة الخليفة المستعين بالله العباسي
٨٤	الرتب والمناصب الهامة في الدولة	٤٧	المؤيد أبو النصر شيخ الممقودى
٩٠	نيابة السلطنة	٤٧	المظفر أبو السادات أحمد بن المؤيد شيخ
٩٣	نواب السلطنة	٤٨	الظاهر ططر
٩٣	علاء الدين إبدكن البندقدار	٤٨	الصالح ناصر الدين محمد بن ططر
٩٤	عز الدين إيدمر الحلي	٤٨	الملك الاشرف برسيباي
٩٥	بدر الدين بيبيك الخازندار	٤٩	الملك العزيز يوسف بن برسيباي
٩٦	شمس الدين آق سنقر الفارقاني	٤٩	الظاهر جقمق العلاقي
٩٦	شمس الدين سنقر المظفرى الألباني	٥٠	المنصور عثمان بن جقمق
٩٦	سيف الدين كوندك الساقى	٥٠	الاشرف إينال العلاقي
٥٧	عز الدين أيبك الأفرم الصالحى	٥٠	المؤيد أحمد بن إينال
٩٧	حسام الدين طر نطاي	٥١	الظاهر خشمقدم الناصرى
٩٨	بدر الدين بيدرا	٥٢	الظاهر أبو النصر بلباي
٩٩	شمس الدين قراسنقر المنصورى	٥٢	الظاهر أبو سعيد تمر بقا الناصرى
١٠٠	سيف الدين منكوتمر الحسامى	٥٢	الاشرف أبو النصر قايتباي
١٠١	سيف الدين سلاز المنصورى	٥٥	الناصر محمد بن قايتباي
١٠٢	بكتمر الجوكندار المنصورى		

المصنف	الموضوع	المصنف	الموضوع
١٠٣	بيبرس الدوادار المنصوري	١١٨	فارس الدين أقطاي المستعرب
١٠٣	أرغون الدوادار الناصري	١١٩	بكشتمر الساقى
١٠٣	طغز دمر الناصري	١٢٠	سيف الدين شيخو العمري
١٠٤	سيف الدين قوصون الساقى	١٢١	يلبغا العمري الناصري الكبير
	الناصرى	١٢٣	المقر الصيغى استدمر الناصري
١٠٦	طشتمر البدرى الساقى	١٢٥	يلبغا آص المنصوري
١٠٦	شمس الدين آق سنقر السلاوى	١٢٥	منكلى بغا الشمسى
١٠٧	سيف الدين الحاج آل ملك	١٢٦	سيف الدين الجاى اليوسفى
	الجوكنندار	١٢٧	المقر السيقى إيدمر
١٠٧	أرقطاي القفجقى	١٢٧	المقر السيقى أرغون شاه الأشرقى
١٠٨	يلبغا أروس الناصري	١٢٧	الأمير طشتمر الحممدى
١٠٨	أرغون الكاملى	١٢٨	المقر أيلبك البدرى
١٠٩	سيف الدين قبلای الناصري	١٢٩	المقر السيقى طشتمر العلائى
١٠٩	قشتمر المنصوري	١٣٠	المقر السيقى إيتش البجاشى
١٠٩	على الماردىنى		الجركى
١١٠	طشتمر العلائى	١٣٣	المقر السيقى يلبغا الناصري
١١٠	المقر السيقى إيدمر الدوادار	١٣٧	تمربة الأفضل المعروف بمنطاش
١١٠	سيف الدين منحك اليوسفى		الأشرقى
١١٣	آقشمر الصاحبى	١٤٠	إينال اليوسفى
١١٣	آقشمر بن عبد الغنى	١٤٢	كشيبغا الخوى
١١٣	سودون الفخرى الشيخونى	١٤٣	بيبرس الركنى
١١٤	تمراز	١٤٥	تقرى بردى بن يشبغا
١١٤	أقبغا القرازى	١٤٦	الطشيبغا القرشى
١١٥	أتابكية المسكر	١٤٧	جائى بك الصرقى
١١٨	الأنابكية	١٤٨	قجق الشعبانى

المصنف	الموضوع	المصنف	الموضوع
١٨٤	آفوش الأفرم الجركسى	١٤٨	يشبك الساق المعروف بالأعرج
١٨٤	عز الدين لإيدمر الخطيرى	١٤٩	يسفا المظفرى
١٨٥	بدالدين التركانى	١٤٩	سودون الظاهرى
١٨٥	سيف الدين قسكز الحسامى	٢٥٠	قرقاس الشعبانى
١٨٦	علاء للدين أقبضا الناصرى	١٥٠	يشبك السودونى
١٨٧	علم الزين سنجر الجاوى	١٥١	ثانى بك البردبكي الظاهرى
١٨٧	علاء الدين بن زنبور	١٥١	جوياش الجركسى المحمدى
١٧٨	سيف الدين صرغتمش الناصرى		المعروف بكركت
١٨٩	طاز الدوادار	١٥٣	قائم التاجر المؤيدى
١٩٠	أزدمر العمرى	١٥٣	جانى بك قلقشير الأشرفى
١٩١	بيدمر الخوارزمى	١٥٥	أزيك بن ططخ
١٩١	جمال الدين محمود الأستاذار	١٥٧	إنشاء الأزيكية
١٩٢	تم الحسمى	١٦٢	الأمير تمتاز الشمسى
١٩٣	توروز الحافظى	١٦٥	قانسوه خسمانة الأشرفى بن
١٩٥	جسك العوضى		طراباى
١٩٧	يشبك الشعبانى الدوادار	١٧٠	ثانى بك الجالى الظاهرى
١٩٨	عبد الباسط بن الفرشى خليل	١٧١	قصوره نائب الشام
١٩٩	جانى بك الظاهرى الجركسى	١٧٣	قيت الرجبى
	الدوادار	١٧٦	قرقاش بن ولى الدين
١٩٩	برد بك الأشرفى	١٧٩	دولات باى من بن أركاس
١٩٩	العلاقى على بن محمد الأهناسى	١٨٠	سودون العجمى
	الأستاذار	١٨٢	سودون الشهبانى الدوادار
٢٠٠	الأستاذار زين الدين الحلبي	١٨٣	أفنداز من رجال العصر
٢٠١	برد بك الجمعدار	١٨٠	سيف الدين طغجى الأشرفى
٢٠٢	برقوق الناصرى	١٨٤	علاء الدين طيبرس الخازندارى

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٠٢	إرنال الأشقر البجاوى	٢٤٤	زين الدين يعقوب بن الزبير
٢٠٣	القاضي علم الدين شاكر بن الجمعان	٢٤٥	بهاء مدين بن حنا المصرى
٢٠٤	الأمير جاثم الشريفي	٢٤٦	علم الدين سنجر الشجاعى
٢٠٤	إشيك بن مهدي الدوادار	٢٤٨	شمس الدين بن السلوس التنوخى
٢١١	قائصه اليخاوى	٢٥٠	تاج الدين بن حنا
٢١١	أبو البقاء بن الجمعان	٢٥١	شمس الدين سنقر الأعسر
٢١١	أقردى الدوادار بن علي باى	٢٥٣	بكتمر الحاجب المنصورى
٢١٧	كرتابى الأحمر بن مصطفى	٢٥٤	مغلطاي الجمالى
٢١٩	أزبك اليوسفى	٢٥٥	الجناب الناصرى محمد بن الحسام
٢٢٠	أقباي الطويل		العقري
٢٣١	الأمير تاني بك قرا	٢٥٥	موفق الدين أبو الفرج ناظر الجيوشه
٢٣١	مصر باى الدوادار	٢٥٦	محمد بن رجب بن كلبك
٢٣٢	المقر الشهابى أحمد بن المعينى	٢٥٧	مبارك شاه الظاهرى
٢٣٤	علاء الدين على بن أبي الجلود	٢٥٧	الجاباب الركفى عمر بن قايماز
٢٣٥	الأمير طراباى الشريفي	٢٥٧	سعد الدين القبطى
٢٣٧	خاير بك الخازندار	٢٥٨	ناج الدين بن أبي شاكر
٢٣٧	قاني باى قرا	٢٥٨	أمين الدين بن الهبيضم
٢٣٨	جان بردى الغزالى	٢٥٩	سعد الدين فرج بن ماجد النحال
٢٣٢	خاير بك بن بلباى	٢٥٩	الشمس محمد البباوى
٢٣٦	الزبني بركت بن موسى المحتسب	٢٦٠	شرف الدين يحيى بن صانعة
٢٣٩	أوزارة	٢٦٠	مجد الدين بن البقرى
٢٤٣	الوزاراء	٢٦١	زين الدين قاسم المعروف بشفيته
٢٤٣	هبة الله بن صاعد الفاتزى	٢٦١	خشفتم الاحدى
		٢٩٣	الجمالى يوسف البدرى

عصر الأئمة الطين المالك

ونشأه
العلمي والأدبي

تأليف الدكتور

محمود زور سليم

رئيس قسم الأدب بكلية الدراسات العربية — جامعة الأزهر

المجلد الثاني

وهو القسم الثاني من الجزء الأول

الطبعة الثانية

١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م

وَلَا تُرْجَى لِلْعِلْمَانَةِ
شَايِعُ الْجَيْشِ - كَتَبَهُ كَاتِبُ الْمَدِينَةِ

مراجع القسم الثانى من الجزء الأول

أثبتنا فى صدر القسم الأول من هذا الجزء عددا من مراجعه، ذاكرين الكتاب والطبعة التى اعتمدنا عليها . وهذه المراجع هى نفسها مراجع القسم الثانى أيضا ، ونزيد عليها ما يلى :

١ - تاريخ الخلفاء لجلال الدين السيوطى . طبع بالمطبعة المنيرية عام ١٣٥١ هـ

٢ - المختصر لآبى الفداء طبع الأستانة عام ١٢٨٦ هـ

٣ - تحفة الأحباب للسخاوى على هامش نفع الطيب ، طبع المطبعة الأزهرية

بالقاهرة عام ١٣٠٤ هـ

٤ - القوائد البنية للكنوى الهندى طبع الهند سنة ١٩٢٣ م

٥ - الطالع السعيد للإدفوى طبع مطبعة الجمالية بالقاهرة سنة ١٣٣٢ هـ

٦ - رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر السقلاى ، مخطوط بدار

الكتب المصرية .

٧ - نهاية الأرب للنورى طبع دار الكتب المصرية .

٨ - تاريخ ابن الوردى وتمة المختصر، طبع المطبعة الوهبة بالقاهرة سنة ١٢٨٥ هـ

٩ - قويم الثبيل لأمين باشا سائى طبع مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٦ هـ

١٠ - النجوم الزاهرة لآبى المحاسن بن تغرى بردى طبع دار الكتب المصرية .

١١ - عجائب المقدور فى أخبار تيمور ، لشهاب الدين أحمد بن عربشاه . طبع

المطبعة العثمانية بباب الشعرية بمصر عام ١٣٠٥ هـ

١٢ - إغاثة الأمة بكشف الغمة لتقى الدين المقرئى . طبع لجنة التأليف

والترجمة والنشر عام ١٩٤٠ م

١٣ - المدخل لابن الحاج . طبع المطبعة المصرية بالأزهر عام ١٣٤٨ هـ - ١٩٢٩ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين . وبعد فهذه هي الطبعة الثانية للسجل الثاني من كتاب عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى ، وهو القسم الثانى من جزئه الأول . ويتضمن هذا المجلد خلاصات فى ضروب من الأحوال الاجتماعية فى مصر تلقى أضواء على نواح من حياة المجتمع المصرى فى عصر المماليك .

وقد راجعنا هذه الطبعة وصححنا ما كان من خطأ ، وأكملنا ما كان من نقص ، وزودناها بما ينبغى أن تزود به من الجديد الضرورى ، والله نسأل أن ينفع بها القراء .

مقدمة الطبعة الأولى

حمداً لله على ما أولاه ، وشكراً له على ما أنعم به وأسده ، وصلاة وسلاماً على سيدنا محمد رسول الله ومصطفاه ، وعلى آله وصحبه أولى النبل والفضل ، وذوى الأدب اللباب والعلم والجزل .

وبعد فقد أعان الله على إظهار القسم الأول من الجزء الأول من هذا الكتاب الجامع عصر سلاطين الممالك ونتاجه العلمى والأدبى . وقد لمس القارىء الكريم فيه - بلاريب - ما يستفد من جهد ، وما احتاج إليه من مشقة ، وما استغرق من زمن ، وما بذل فيه من هناية .

وما نحن أولاء نصدر قسمه الثانى ، مستمدين من الله فى الإرادة قوة ، وفى العزيمة مضام ، وفى الهمة توثباً ، وفى النشاط جدة ، راجين منه سبحانه ، أن يلهم السداد فى كل خطوة ، ويهب الصواب فى كل مرحلة ، وأن يهيئ السبيل لنجاز هذه الموسوعة وإظهارها للناس متتابعة فى عهد قريب .

وهذا القسم - الذى نقدمه - يتم سابقه ، ويتألف منهما الجزء الأول ، الذى خصصناه للموجزات التاريخية وتراجم بعض الرجال المتصلين بموضوعاتها .

وبرى القارىء فى هذا القسم - على غرار سابقه - عدة من نواحي الحياة فى العصر المذكور . الحديث عنها قد بوضع غامضاً ، وبجعل مبهماً ، أو يركز حائراً ، ويسكن قلقاً ، أو يكشف الغطاء عن مخبوء ، أو يلم الشعث من متفرق . وفى خلال هذا وذاك طرف من القول محمود ، وملح من الحديث معجبة فريدة .

وقد بدأناه بفصل عن الخلافة العباسية الثانية ، وتراجم خلفائها . ثم أتبعناه

بفصل آخر عن القضاء وأحواله ، مع تراجم رجاله ، من أول العصر إلى آخره . ثم
بفصول أخرى عن المحمل والحج والفيضان والربيل والقصاده السفراء ، والهدايا .
وتحدثنا في فصل طويل عن حسنات العصر ومساوئه ، وركزنا في هذا الفصل جملا
من الحديث عن بعض نواحي الحياة في سياسة العصر وإدارة الدولة وانجازاتها .
فتحدثنا في إجمال ووضوح معاً ، عن حروب الممالك مع التتار ومع الفرنجة ، وعن
استقلال البلاد في عهدهم ، وعن التعليم وسياسته ، وعن الجيش والسجون والثورات
الداخلية ، وغير ذلك . ويرى القارىء في ثنايا هذا الفصل ألوانا من الرأى جديدة
نافعة .

وأتمنا الفصل المذكور بحديث عن التقاليد والعادات المرحية في الحياة الرسمية
وغير الرسمية ، وأثبتنا نصوصاً مأثورة ، وحكايات مروية تنطق بلسانها ، وتتكلم
معبرة وشاهدة بنفسها ، عما كان في العصر من مزاج واتجاه ، تاركين للقارىء
أحياناً أن يستنبط من بعضها ما يشاء ، ، ويصل بنفسه منها إلى ما يريد .

وحرصنا في كل ما نوردته على ذكر مرجعه وسنده . كذا أننا - معونة لمن شاء
التثبت والتزيد . وقد يرى القارىء أننا أكثرنا من أبواب الجزء الأول ، دون أن
نستقصي جميع المسائل في كل باب ، وقد نوهنا في مقدمة الكتاب بالقسم الأول
بأن الاستقصاء لم يكن غاية من غاياتنا ، فتركناه لظروف أخرى أو لباحثين آخرين .
ولأننا أكثرنا في الأبواب انضع بذلك عدة لبنات متواضعة في بناء بحوث جديدة ،
نرجو أن تصلح كل لبنة منها لإقامة صرح من البحث مفيد .

والله نسأل أن يهب التوفيق والسداد ، ويهdy إلى سبيل الرشاد ، لنؤدى
لإمتها المصرية الكريمة بعض ما يجب علينا إزاءها ؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الخلافة العباسية الثانية (١)

لما اكتسح التتار ملك العراق، وأسقطوا مدينة بغداد عام ٦٥٦ هـ ، وعاثوا في أرجائها فسادا، وضموا مملكتها إلى ملكهم، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله العباسي آخر خلفائها ، وولى عهده ، فزال بزوال الخلافة العباسية الأولى، ومثلوا بعلماؤها وأحرقوا كتبها، كان لذلك أثر بالغ، وصدى بعيد المدى، في مدينة القاهرة والبلاد المصرية ، التي كانت قد أصبحت تحيا تحت سيطرة سلاطين ممالكها . وهم مسلمون هالهم ما لقي الدين والعلم وأهلها ، على يد التتار ببغداد . وخشوا أن يصيبهم مثل ما أصاب القوم فيها . فتهيئوا للقائهم خير تهية ، وأعدوا العدة لقتالهم أحسن إعداد . ثم وقعت بين الفريقين وقائع عدة ، كان النصر فيها سجالا . وانتصر سلاطين مصر في بعضها انتصارا حاسما .

آلت تركة بغداد بذلك إلى القاهرة ، وحملت مصر من الأعباء ما كان يحمله العراق . وصارت عاصمتها ومذنها الكبرى موثلا لعلوم الدين واللغة ، وملجأ لدورها ، يفدون إليها من شتى الممالك والأمصار ، أو ينشثون في أقبائها ، فيجتون في كنف ملوكها وأهلها ، مراحا خصبها وظلا ظليلا . وأصبحت القاهرة من ذلك الحين مركزا للعلوم الإسلامية والعربية .

وكما آلت هذه العلوم والمعارف إلى مصر ، وآلت إليها أعباء حماية المسلمين

(١) مرجع هذا الباب : تاريخ الخلفاء ، وحسن المحاضرة ج ٢ ، كلاهما للجلال السيوطي ، وبدائع ابن الجاس ، ولسان المقرئ في حوادث الأموات ٦٥٣ هـ ، ٦٦٠ هـ ونهج ابن أبي الفخار . ونحصر في القراء ، وصبح الأعشى ج ٢ ، وتاريخ ابن خلدون ٣ ص ٤٤٠ تحت عنوان « فصل من الخلفاء العباسيين بمصر » .

وبلادهم من أعدائهم، آلت إليها كذلك الخلافة الزائلة من بغداد، فجددت نفسها ولبست بها ثوبا من الحياة قشيبا. ووجد سلاطين الممالك في تجديد هذا شرعية لمكانهم من الملك، ومكلا لمظهرهم الإسلامى، وسبيلا إلى جمع قلوب الخاصة والعامة من المسلمين في سائر الأنظار حولهم. فيدعمون بذلك عرشهم، ويثبتون سلطانهم. لذلك عاونوا معاونة كبرى على إنشائها واستمرارها.

فند عصر الملك الظاهر بيبرس - في سنة ٦٥٩ هـ - أنشئ منصب خلافة إسلامية في مصر، مركزه القاهرة. وأصبح أحد مناصب الدولة الرئيسية. وظل كذلك حتى آخر العصر الذى نحن بصدده - سنة ٩٣٣ هـ - أى نحو ثلاثة قرون :

وتوالى على هذا المنصب، ستة عشر، أو سبعة عشر خليفة من سلالة العباسيين. أولهم الإمام المستنصر بالله أحمد بن الخليفة الظاهر بأمر الله العباسى الهاشمى. وآخرهم الإمام المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بن الخليفة المستمك بالله يعقوب. وبعض المؤرخين يسقط المستنصر بالله - أول الخلفاء - من عدادهم. ويعتبر أولهم هو الذى وليه، وهو الحاكم بأمر الله.

وتسمى كل منهم بأمير المؤمنين. وتوالوا على هذا المنصب بطريق الوراثة. وأعنى توريث الولد عن أبيه أو قريبه من العصب. ولم تخرج الخلافة عن أسرة الحاكم بأمر الله، ثانى هؤلاء الخلفاء. غير أن هذا كان منوطا إلى حد كبير بإرادة السلطان. فقد يعهد الخليفة إلى ابنه، ثم لا يقر السلطان هذا العهد، ويختار رجلا غيره من الأسرة نفسها، ينصبه خليفة، كما وقع في عهد الناصر بن قلاوون - كما سيأتى -

وبلغت الفترة التى خلت فيها الدنيا من الخلافة الإسلامية نحو ثلاث سنوات ونصف من زوال خلافة بغداد في صفر عام ٦٥٦ هـ إلى انشاء الخلافة الثانية بمصر في رجب عام ٦٥٩ هـ.

وصاحب الفكرة في إنشائها، هو - بلاريب - الظاهر بيبرس. فلما نفذت فكرته، واستقرت دعائمها، أصبحت حالة مرعية وسنة متبعة.

وخلامة ما رواه المقرئ في سلوكه - في حوادث عام ٦٥٩ هـ - بصدد إنشائها ما يلي ، قال :

وفيهما^(١) - أى سنة ٦٥٩ هـ - سار الأمير أبو القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء بالله العباسي . . مع جماعة من العرب بنى مهنا ، يريد دمشق . وكان قد فر من بغداد لما قتل هولاكو الخليفة المستعصم بالله ، ونزل عند عرب العراق في هذه المدة . ثم أراد أن يلحق بالملك الظاهر بيبرس بمصر . فوردت مكاتبة الأمير علاء الدين يذكر البندقدار ، والأمير علاء الدين طبريس الوزير نائب دمشق : بأنه ورد إلى الغوطة رجل ادعى أنه أبو القاسم أحمد الأسمر ابن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر . وهو عم المستعصم وأخو المستنصر . ومعه جماعة من عرب خفاجة في قريب الخمسين فارساً^(٢) . وأن الأمير سيف الدين قلع البغدادى عرف أمراء العرب المذكورين . وقال بهؤلاء يحصل المقصود .

فكتب السلطان إلى النواب بالقيام في خدمته ، وتعظيم حرمة . وأن يسير معه حجاب من دمشق ، فسار من دمشق بأوفر حرمة إلى جهة مصر . فخرج السلطان من قلعة الجبل يوم الخميس تاسع^(٣) شهر رجب إلى لقائه^(٤) ومعه الوزير صاحب بهاء الدين بن حنا ، وقاضى القضاة تاج الدين بن بفت الاعز وسائر الأمراء وجميع العسكر ، وجمهور أعيان القاهرة ومصر ، ومعظم الناس من اليهود والمؤذنين . وخرجت اليهود بالتوراة ، والنصارى بالإنجيل . فسار السلطان به إلى باب النصر ودخل إلى القاهرة ، وقد لبس الشعار العباسي . وخرج الناس إلى رؤيته . وكان من أعظم أيام القاهرة . وشق القصة إلى باب زويلة ، وصعد قلعة الجبل وهو راكب . فأنزل في مكان جليل فدهي له بها ، وبالنسبة إلى السلطان في إكرامه وإقامة ناموسه .

(١) كان ذلك في شهر رجب من عام ٦٥٩ هـ . (٢) قيل مصر من بني مهازم .

(٣) في ابن إياس : يوم الاثنين ١٩ رجب وفي حزن المحاضرة ٢ منه (٤) قيل : خرج السلطان إلى لقائه بالطرية ، وعاداً معاً إلى القاهرة .

« فلما كان يوم الاثنين ثالث عشره ، - أى ١٣ رجب - حضر قاضى القضاة ونواب الحكم وعلماء البلد وقهاؤها وأكابر المشايخ وأعيان الصوفية ، والأمراء ومقدمو العساكر ، والتجار ووجوه الناس ، وحضر أيضا الشيخ عز الدين بن عبد السلام . فثلثوا كلهم بحضرة الأمير أحمد ، وجلس السلطان متأدبا معه بغير كرسي ولا طراحة ، ولا مسند ، وشهد العربان وخادم من البغادة ، بأن الأمير أحمد هو ابن الإمام الظاهر أمير المؤمنين ابن الإمام الناصر أمير المؤمنين . وشهد بالاستفاضة القاضي جمال الدين يحيى بن عبد المنعم بن حسن المعروف بالجمال يحيى ، نائب الحكم بمصر . والفقير علم الدين محمد بن الحسين بن عيسى بن عبد الله بن رشيق . والقاضى صدر الدين موهوب الجزرى ، ونجيب الدين الحرانى ، وسديد الدين عثمان بن عبد الكريم بن أحمد بن خليفة . وأبو عمرو بن أبى محمد الصنهاجى التزمتى : أنه أحمد ابن الإمام الظاهر ابن الإمام الناصر - فقبل قاضى القضاة تاج الدين شهادات القوم ، وأجمل على نفسه بالثبوت ، وهو قائم على قدميه فى ذلك المحفل العظيم ، حتى تم الإيجال والحكم . »

« فلما تم ذلك كان أول من بايعه القاضى تاج الدين ، ثم بعده قام السلطان وبايع أمير المؤمنين المستنصر أبا القاسم أحمد بن الإمام الظاهر ، على العمل بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله ، وأخذ أموال الله بحقها ، وصرفها فى مستحقها . ثم بايعه بعد السلطان الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، ثم الأمراء وكبار الدولة (١) . »

« فلما تمت البيعة قلد الإمام المستنصر بالله ، السلطان الملك الظاهر البلاد

(١) وهكذا قال السيوطى فى تاريخ الخلفاء ولكنه قال فى حسن المحاضرة ، كان أول من بايعه شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ثم السلطان الظاهر بيبس ثم القاضى تاج الدين بن بكت الأقرم ثم الأمراء . . . الخ ودوى السبكى فى طبقاته فى سبيل ترجمة الشيخ عز الدين أن الملك الظاهر لم يبايع واحدا من الخليفة المستنصر والحاكم إلا بعد أن تقدم الشيخ عز الدين للبايعه .

الإسلامية وما ينضاف إليها ، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار . ثم قام الناس فبايعوا الخليفة المستنصر بالله على اختلاف طبقاتهم . وكتب في الوقت إلى الملوك والنواب بسائر الممالك ، أن يأخذوا البيعة على من قبلهم للخليفة المستنصر بالله أبي القاسم أحمد بن الإمام الظاهر ، وأن يدعى له على المنابر ، ثم يدعى للسلطان بعده ، وأن تنقش السكة باسمهما . انتهى .

ومما يذكر أن الخليفة المستنصر بالله ، خطب خطبة منبرية في جامع القلعة ، في يوم الجمعة التالي ليوم بيعته - ١٧ رجب - وذكر في خطبته شرف بني العباس ، ودعا للملك الظاهر ، وحض على الجهاد .

هذا وقد ذكر السيوطي في كتابه « تاريخ الخلفاء » أن السلطان رتب للخليفة أتابكا وأستادارا وشرابيا ، وخازندارا ، وحاجبا ، وعين له خزنة ، وجعله مماليك ، ومائة فرس وثلاثين بغلا ، وعشرة قطارات جمال إلى أمثال ذلك .

تمت إذاً بيعة الخليفة ، وأصبح مصدرا للولايات الشرعية ، وكان لا بد للملك الظاهر من أن يبايعه الخليفة ويقلده عرشه ، حتى تصبح ولايته شرعية . وقد رأينا في حفلة مبايعة الخليفة ، كيف بايع بدوره الملك الظاهر وولاه الأمور في بلاد المسلمين مبايعة سريعة عقب الانتهاء من مبايعته هو . - وفي يوم ٤ شعبان من السنة نفسها أقيمت حفلة مبايعة رائعة ، قل فيها الخليفة الملك الظاهر عرش البلاد وألبسه يده خلعة سوداء ، وغمامة سوداء ، وطوقا من الذهب في عنقه وقيدا من الذهب في رجله ، وفوض إليه الأمور في البلاد الإسلامية ، وما سيفتحه من بلاد الكفر وسباه « قسم أمير المؤمنين » .

ولا ندرى بالضبط ما هي الدوافع التي دفعت الملك الظاهر يبرس إلى أن يعجل بتجهيز هذا الخليفة بمال ورجال ويشخصه لقتال التتار واسترداد بغداد وبلاد العراق منهم . وأشخصه وحده ولم يرحل معه . - ربما كان ذلك نتيجة لإلحاح هذا الخليفة على السلطان بتعجيل الغزو ، ليسترد بلاده وبلاد أجداده ، أولئك يظهر السلطان للبلا صدق نيته وصفاء طويته لنصرة الإسلام والمسلمين ؛

أو ليكون هذا الخليفة وجيشه بمثابة الطليعة لجيوش السلطان ، فإن أصابوا غنما تبعم ، ولا تريثوا . وقد يكون السلطان أحس بروح من الحماسة الإسلامية تسرى في نفوس المسلمين جميعا بمناسبة تنصيب هذا الخليفة ، فخشى أن يلتفتوا حوله ويجتمعوا إليه دونه ، فتفلت من يديه أزمة الأمور ، وهو إنما نصبه ليكون صنما يعمل باسمه وليس له من الأمر شيء ، فدفعه دفعا إلى قتال التتار ، متزهرا رغبته في هذا القتال ، وهو يعلم أنه إنما يدفع به إلى أتون محرق .

ومهما يكن من شيء ، فقد سار هذا الخليفة إلى قتال التتار وخرج في ذى القعدة عام ٦٥٩ هـ ، مجهزا بكل ما يحتاج إليه ، وسار معه الظاهر بيبرس إلى دمشق (١) ثم عاد إلى القاهرة . ولقى التتار بقيادة مقدمهم قرايغا ، جيش الخليفة ، على مقربة من « هيت » فدحروه ، وفر منه من فر ، ولم يعثر للخليفة على أثر ، قيل إنه قتل في المعركة في ٣ المحرم عام ٦٦٠ هـ ، وقيل إنه فر مجروحا في طائفة من العرب ، فأتى لديهم .

كان قد هذا الخليفة ، مجددا لمشكلة الخلافة مرة أخرى ، وقد انتهر الفرصة رجل آخر اسمه أحمد ، قال إنه من أمراء العباسيين ، وإنه كان في عداد جنود المستنصر بالله ، وأنه استطاع أن يفر بنفسه من القتل . وقدم إلى مصر فلقبه الظاهر بيبرس . وأعيد تمثيل الرواية السابقة ، فأقيمت حفلة لمبايعته بالخلافة بعد ثبوت نسبه ثم بايع السلطان بالسلطنة وتلقب بالحاكم بأمر الله . ويعتبره بعض المؤرخين أول الخلفاء بمصر ويفضون النظر عن سابقه المستنصر . ومن سلالته جميع من ولى الخلافة بمصر من بعده .

كان وفود الحاكم بأمر الله إلى مصر في ٢٧ ربيع الآخر عام ٦٦٠ هـ ، ولبث بها مكرما حتى ٨ المحرم عام ٦٦١ هـ ، وفي هذا اليوم تمت مبايعته ، ثم كتبت بيعته إلى الآفاق ليخطب له ، وتكتب السكة باسمه .

(١) هذه رواية للقرنبي والديوطي ، وذكر ابن أبيس أنه سار معه إلى الطرية ثم عاد (ج ٢ ص ١٠٢) .

ويلاحظ أن الظاهر يبرس تريت هذه المرة في مبايعة هذا الخليفة الثاني . ولم يجعل إليها كما يجعل في الأولى . فقد بقي الحاكم بأمر الله نحو ستة شهور مقبياً بغير مبايعة بعد قدومه إلى مصر ، ولعل مرجع هذا التريث رغبته في التثبت من مقتل المستنصر ، أو رغبته في اتخاذ الأهبة لكبح جماح الخليفة - فيما بعد - إذا أحاط به ما يدفعه إلى الجحوش ، والتطلع إلى الاستئثار بشيء من الأمر ، ولذلك قال السيوطي في حسن المحاضرة ، بعدما تمت مبايعة الحاكم بأمر الله ، ما نصه :

« ثم خاف الظاهر عاقبة أمره فأمكنه عنده في القلعة وعنده حريمه وخدمه وغلمانة موسعا عليه في النفقات والكسارى ، يتردد إليه العلماء والقراء على أكل ما يكون من أنواع الإكرام ، وملاحظة جانب الإجلال والمهابة ، بمنوعا من اجتماع أحد من أهل الدولة ، ثم أسقط اسمه من سكة النقود وأبقاه على المنابر . واستمرت الخلافة من ذلك الحين قائمة ، حتى زالت بزوال الدولة .

والخلافة العباسية المصرية قريبة الشبه بالخلافة العباسية البغدادية في طورها الثاني - أى منذ عام ٣٣٤ هـ - تقريبا ، ومنذ احتل البويهيون بغداد وأصبحوا فيها أهل الأمر والنهى ، وأصبح خلفاؤها لاحول لهم ولا قوة . يقدم إليهم الطعام والشراب ، ولهم مرتب من المال يكفيهم حسب مقتضيات الأحوال .

كذلك فعل سلاطين مصر مع خلفائهم ، وهم في الواقع ذوو نعمتهم . وكان الخلفاء لا يملكون إزاء السلاطين حولا ولا طولا ، وتلك هى السياسة التى وضع قواعدها ، ودعمها ، الظاهر يبرس بكامر . فعاشوا كالأمرى قد هيئت لهم الدور ، وربت الأجور ، وقدمت الأطعمة والأشربة والكسبى ، وما إلى ذلك من مطالب الحياة ليضمنوا عيشا رغدا هادئا صامتا ، وليسبقوا على من حولهم ألوان الرضا ، ويبدلوه كلما طلب إليهم بذله . وهل كانوا يملكون سواه ؟ وإذا ما خطر لأحدهم ما يغضب السلطان ، عرض نفسه للسجن أو النفي أو نحوهما .

كان من العجيب أن يفيض خليفة من هؤلاء ، أسباب الولاية على غيره ،

والسنة التي كانت متبعة، ومع أنه قيل : إن فاقد الشيء لا يعطيه، كان الخليفة الذي لا يملك ملكا ولا يعتلى عرشا، يمنح الملك، ويعلى العرش، وهو الضعيف المغمور، والدعى المنكور، الذي لا يملك من أمر نفسه شيئا، ولكنه كان يؤمر فيصعد بالأمر. فهو ذو سلطة شكلية اسمية فحسب، أما صاحب السلطة الفعلية الحقيقية فهو السلطان.

وأعتقد أن هذا الوضع - وإن سلم من الناحية الشكلية - لا يتدو فيه روح الإسلام ولا سياسته، وما هو إلا ضرب من خداع السلاطين، ونفاق الخاصة وتمويه أولى الأمر ليهرؤا أنظار العامة.

وقد اتبع في اعتلاء منصب الخلافة طريق الوراثة - كما ذكرنا - ولكن أمره كان منوطا برغبة السلطان، فهو الذي يبت في الرجل الذي يبايع بالخلافة. ولو عهد الخليفة إلى ولده مثلا.

وقد حدث في عهد الناصر محمد بن قلاوون من - عام ٧٤١هـ - أن الخليفة المستكني بالله أبا الريح سليمان - أمير المؤمنين إذ ذاك - عهد بالخلافة من بعده، إلى ولده أحمد وبجل عهده، وشهد عليه أربعون شاهدا. ولكن الناصر لم يمض هذا العهد، ولم يرضه ولم يجزه. فلما مات الخليفة المذكور دعا السلطان ابن أخيه المسمى إبراهيم، وعهد إليه بالخلافة على الرغم من معارضة بعض الناس في ذلك، فلم يكترث السلطان، وأنفذ عزمه وصار إبراهيم هذا هو الخليفة. ولقب بالوائقي بالله.

ولما مات الناصر وخلفه ابنه المنصور أبو بكر، عقد مجلسا للنظر في أمر الخلافة، كانت نتيجة عزل الوائقي بالله إبراهيم وتولية أحمد بن المستكني بالله، وتلقيبه بالحاكم بأمر الله.

وبما وقع أيضا أن الخليفة المتوكل على الله أبا عبد الله محمدا، خلع بناء على رغبة الأمير زينبك البدرى مدير الدولة في عهد السلطان المنصور على بن الأشرف عام ٧٧٩هـ. ١٠٠٠، مكانه ابنه محمد بن الأشرف. ٧٨٠هـ.

ولقب بالمستعصم بالله . فلبث في خلافته نحو خمسة عشر يوما ، ثم خلع وأعيد المتوكل على الله .

وكذلك خلع المتوكل على الله مرة ثانية ، في عهد الظاهر برقوق - عام ٧٨٥ هـ - وبين وأجبر الناس على خلافة عمر أخى زكريا بن ابراهيم ، ولقب بالوائى بالله .

وهكذا ترى أن منصب الخلافة كان أذى شها بأى منصب آخر من مناصب الأمراء وأماهم ، ورهنا بإرادة السلطان .

وكان أم عمل يتولاه الخليفة ، مبايعة السلطان الجديد بالسلطنة ، وتفويض أمور المسلمين إليه . وكان بعض ملوك المسلمين في الأقطار النائية يرسلون إلى مصر يستمنحون خليفته أمرا بولايتهم لتكون شرعية . وقد روى ابن إياس من ذلك د ج ٢ ص ١٣١ ، مانصه .

وفي جمادى الآخرة - أى عام ٨٧٦ هـ في عهد قايتباى - قدم قاصد من عند صاحب بلاد الهند الملك غياث الدين . وأحضر على يده هدية إلى السلطان ، وإلى الخليفة المستنجد بالله يوسف . وأرسل يطلب منه تقليدا بولايته على إقليم الهند ، عوضا عن كان قبله من ملوك الهند ، فأكرمه السلطان وخلع عليه ، وكتب له الخليفة تقليدا بما سأل .

وحالما تكن سلطنة السلطان تم إلا بمبايعة الخليفة له . ولكن الخليفة كان لا يستطيع أن يمتنع عن هذه المبايعة ، متى تمت مشورة الأمراء ، ووقع اختيارهم على شخص الملك الجديد . وفي عام ٩٠٦ هـ أعلن طومان باى بنفسه سلطانا في بلاد الشام ، وتلقب بالعدل ، وتم ذلك بغير حاجة إلى موافقة خليفة أو بيعة . غير أنه لما زحف على مصر وامتلكها ، أجريت له مراسيم التولية كالمعتاد ، وتمت مبايعة الخليفة له .

كان للخليفة بجوار هذا أعمال إضافية تافهة بالقياس إلى ما ينبغي لمنصبه من جلال . وذلك كنظر مشهد نفيسة أحيانا ، وكالركوب مع السلطان أحيانا (٢٠٢ هـ)

أخرى في طليعة تجريدة . وذلك من باب الدعاية فحسب لا اشتراكا في القتال ، كما كان يصاحبه يوم حفل ، أو يستقبله يوم أوبة من قتال أو حج ، أو رحلة أو نحو ذلك . ويستدعى أحيانا للشهود مجلس منعقد للنظر في تقرير حرب أو فرض ضريبة . ويستدعى لمجرد الشهود فحسب لا لإبداء الرأي . وقد يطلب إليه تحليف الأمراء على المصحف الشريف ، على ألا يخونوا السلطان ، وقد يستخدم استخداما أدبيا لإطفاء ثورة أو تهدئة فتنة . وهكذا .

ولا ندري ! هل كان له من الأمر شيء في سماع القصص والمظالم . أقول ذلك لمناسبة ما قرأناه في سيرة الخليفة المستكفي بالله - الأول - على عهد الناصر بن قلاوون ، إذ قيل : إن السلطان المذكور غضب على الخليفة المستكفي لأنه رفعت إليه قصة وعليها خط الخليفة : « يحضر محمد بن قلاوون إلى مجلس الشرع أو بوكل » . فشق عليه ذلك ، ونفاه إلى قوص ، (١) .

وكان الخليفة بين هذا وذاك ، يقدم إلى السلطان التناهي مع القضاة ، بمناسبة عيد أو موسم . وقد تأتي الناصر محمد بن قايقباي - عام ٩٠٢ هـ - على الخليفة المتوكل على الله ، حينما قدم إليه يهنئه ، فلم يقابله ، وبعث إليه من شكره وصرفه .

ولم أجد في سيرة أحد الخلفاء ، من كان له سطوة أو نفوذ . بل لم يصل واحد منهم إلى مثل ما كان للشيخ أبي السعود الجارحي - مثلا - من نفوذ فإن الشيخ المذكور كان ذا مكانة عالية ، ورأى مسموع . وقد لجأ إليه الأمراء حينما اجتمعوا على ترشيح طومان باي للسلطنة عام ٩٢٢ هـ ، وأبأها طومان باي ، فتدخل الشيخ بينهم فرضعها . وهذا الشيخ من الصوفية .

وقد عبث الزمان مرة في عام ٨١٥ هـ ! بعد مقتل فرج بن برقوق ، إذ انحصر أمر السلطنة بين أميرين كبيرين هما شيخ الحمودي ، ونوروز الحافظي ، فرأيا حسمًا

(١) ابن لياس ج ١ ص ١٧٠ حوادث عام ٧٣٨ هـ .

ومن طريف ما يذكر أن الخليفة المتوكل على الله أبا العز بن يعقوب ، أسند في عام ٩٠٢ هـ ، إلى صديقه «جلال الدين السيوطي» ، وظيفة قاض كبير على جميع القضاة يولى منهم من يشاء ويعزل من يشاء ، فلما علم هذا الخبر احتج عليه القضاة واستخفوا عقله ، وأنكروا هذه الوظيفة ، وأنكروا هم وذوو السلطان أن يكون للخليفة حق تولية شخص ما . وأعلوه أنه لا يملك هذا التعيين . فرعان ما اعتذر واسترد الوظيفة من السيوطي ، واحتج بأن السيوطي هو الذي زين ما فعل وأوهمه أن له حق التعيين ^(١) . وقال عن نفسه «إيش كنت أنا ، وقبل إن هذه الوظيفة لم يلها إلا القاضي تاج الدين بن بنت الأعر في عهد الأيوبيين .

ولعل هذا الخطأ من الخليفة دليل على الجبل . وقد كان كثير من هؤلاء الخلفاء جهلاء ، أو على الأقل ذوى بضاعة من العلم هزيلة ، بل لقد رشع رجل من هؤلاء العباسيين نفسه للخلافة - واسمه خليل - وكا ابن عم الخليفة القائم حينذاك وهو المستمسك بالله يعقوب ، وذلك عام ٩١٤ هـ في عهد الغوري ^(٢) وجهد في سبيل بلوغها ، حتى بذل كثيرا من المال ، فغيره منافسه - وهو ابن المستمسك بالله - بأنه لا يحسن قراءة الفاتحة وأنه لا تصح خلفه الصلاة . وكان خليل هذا أنشغ لا يحسن النطق بالراء . فاخبره الغوري فتعثر في قراءة الفاتحة . فأبعد عن الخلافة بعد رسوبه في الاختبار . ولو قد اجتازه لأصبح للخلافة أهلا . . . وما يذكر بصدد هؤلاء الخلفاء أن أكثرهم من أم فارسية أو تركية أو حبشية وقليل منهم الهاشمي الأيوبي مثل المستمسك بالله يعقوب أبي الصبر ابن عبد العزيز .

وما يذكر أيضا أنه إذا اختير خليفة ، كتبت له تولية ، يدبجها كاتب سر السلطان وتتل في حفل المباينة ، وتكون عبارة عن خطبة أدبية رائعة بأسلوب

(١) ابن أبياس ج ٢ ص ٣٠٧ في سياق حوادث عام ٩٠٢ هـ .

(٢) راجع ابن أبياس ج ٤ - حوادث البيت ٢ شعبان عام ٩١٤ هـ .

أهل العصر (١).

ومهما يكن من شيء ، فقد لبثت الخلافة في مصر قائمة ، إلى أن احتلها العثمانيون عام ٨٩٢٢ ، ٨٩٢٣ ، فحمل السلطان سليم - فيما حمل - أثناء خروجه من مصر إلى بلاده ، آخر خلفاء العباسيين بمصر ، وهو المتوكل على الله الثالث . - وهناك في القسطنطينية تسمى سلاطين العثمانيين بأمراء المؤمنين وخلفاء رب العالمين ، إن طوعا أو كرها . وبذلك انتقلت الخلافة الإسلامية من الجنس العربي والسلالة الهاشمية إلى الجنس التركي وسلالة آل عثمان ، فلبثت فيهم زهاء أربعة قرون ومركزها القسطنطينية عوضا عن القاهرة . حتى قضى عليها الكاليون القضاء المبرم في سنة ١٩٢٣ م ، ومنذ تلك السنة والعالم الإسلامي يعيش بغير خلافة .

ونلاحظ أن مصر شهدت خلافة أخرى ، غير الخلافة العباسية الثانية ، وأعني بها الخلافة الفاطمية ، وهي بالرغم مما بها من مأخذ ، أنه شأننا وأسمى حياة وأشرف موضعا . وإن لم يعترف بها بعض المؤرخين . ونورد فيما يلي تراجعا يسيرة لخلفاء هذه الفترة .

الخلفاء العباسيون في مصر

١ - المستنصر بالله ٦٦٠ هـ

هو أبو القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر بأمر الله بن الخليفة الناصر لدين الله ابن الخليفة المستنصر بالله العباسي الهاشمي^(١). كان أسمر اللون وأمه حبشية، وهو أول من بويع بالخلافة في مصر، كان معتقلا ببغداد منذ سقوطها على يد التتار، ثم أطلق أوفر، فقدم إلى مصر مع جماعة من الأعراب، منهم الأمير ناصر الدين مهنا، لعله يجد فيها كنفا رحبا بجوار ملكها الظاهر بيبرس فبلغ القاهرة في ٢٠ رجب عام ٦٥٩ هـ، ففرج الظاهر للقائه واحتفل بقدمه احتفالا شاقا، ولقيه الناس بالقاهرة على اختلاف نحلهم وأديانهم ومراتهم لقاء باهرا.

ثم عقد الظاهر مجلسا لمبايعته بالخلافة في ١٣ رجب - تصدده الشيخ عز الدين ابن عبد السلام وتقدمه قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز، وشهده السلطان والأمراء وكبار رجال الدولة وتقدم الشهود فأثبتوا نسبه. فبايعه الشيخ عز الدين ثم القاضي تاج الدين، ثم بايعه السلطان فالأمراء فالخضور^(٢). وكتبت الرسائل باسم السلطان إلى الأفاق لأخذ البيعة له من أهلها، ولقب بالمستنصر بالله، ودعى له على المنابر، وضربت السكة باسمه مشاركا السلطان.

وقد قام الخليفة بدوره، بمبايعة السلطان بيبرس - في ٤ شعبان - وقلده السلطنة وفوض إليه أمور البلاد الإسلامية وما يفتتحه، ولقبه «بقسيم أمير المؤمنين»، وألبسه جبة وعمامة سوداوين، وطوقا وقيدا من الذهب وقلده سيفا. ورتب السلطان للخليفة أتابكا وأستادارا وشرابيا وخازندارا وحاجبا وكتابا،

(١) راجع ما كتب عنه في الفصل السابق وقال في السلوك إنه أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر بالله أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستنصر بالله العباسي.

(٢) قال ابن إياس إن قدمه كان في الـ١٩ رجب عام ٦٥٩ هـ.

(٣) وقيل بايعه أولا القاضي تاج الدين فالسلطان فالشيخ عز الدين فالأمراء الخ.

وعين له خزانة وجملة بماليك ، ومائة فرس وثلاثين بغلا وعشرة قطارات جمال ، إلى أمثال ذلك :

سكن الخليفة المستنصر بالله بقلعة الجبل وفي يوم الجمعة خطب بالناس وصلى بحضور السلطان ، ثم جهزه السلطان بعد زمن قليل بجند وسلاح ومال وسار إلى قتال التتار. ورحل معه السلطان إلى دمشق ، فدخلها يوم الاثنين ٧ ذى العقدة عام ٦٥٩ هـ . - وقيل إلى المطرية - ثم عاد السلطان . فزحف الخليفة بمن معه . فلقبهم التتار بقيادة مقدمهم « قرايغا » في ناحية الأنبار ، فهزموهم هزيمة منكرة . وفر منهم من فر ، وقتل من قتل ، ولم يعلم للخليفة خبر . قيل إنه قتل بالماهركة في جهة « هيت » في ٣ المحرم عام ٦٦٠ هـ ، وقيل إنه فر مجروحا في طائفة من العربان ، ثم توفى لديهم . وهكذا ذهبت خلافة بعد أقل من ستة أشهر . وبعض المؤرخين لا يعتبرونه أول الخلفاء ويسقطونه من عدادهم .

« ابن ياس ج ١ ص ١٠٠ إلى ١٠٢ - وحسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٩ ، إلى ٥٢ - وصبح الأمل ج ٣ ص ٢٦٤ - سلوك المغرب ج ١ حوادث عام ٦٥٩ هـ ٦٦٠ هـ - وتاريخ الخلفاء السيولى ص ٣١٦ » :

٢ - الحاكم بأمر الله الأول ، ٧٠١ هـ

هو الإمام أحمد الحاكم بأمر الله أبو العباس بن الأمير أبي علي الحسن القبي ابن الأمير علي بن الأمير أبي بكر بن أمير المؤمنين المسترشد بالله العباسي . يقال إنه أقيم خليفة من قبل في مدينة حلب ، ولقب بالحاكم أيضا . ثم يقال إنه كان بمن انضم إلى جند الخليفة المستنصر بالله أثناء قتاله مع التتار . منطويا تحت لوائه هو وأهل حلب . فلما انهزم الخليفة وفقد ، فر الأمير أحمد المذكور وسار إلى الرحبة ونزل إلى عيسى بن منها أحد الأمراء بها . فكتاب هذا فيه الملك الظاهر بيبرس سلطان مصر ، فبعث إليه يستقدمه فقدم إلى القاهرة ومعه (ابنه سليمان^(١) وعدد

(١) في صبح الأمل أن الحاكم بأمر الله وفد على مصر وهو ابن خة عمر سنة وهذا غريب فقد كان يجارِب مع المستنصر قبل قدومه إلى مصر وقدم ومعه ابنه . وذكر أيضا أنه قدم عام ٦٥٩ هـ وأن مبايعته كانت سنة ٦٦٦ هـ

من تابعيه . فبلغها في ٢٧ ربيع الآخر عام ٦٦٠ هـ . فلقبه السلطان لقاء حسنا ، وأنزله بقلعة الجبل . وظل بلا مبايعة إلى آخر العام المذكور . وفي يوم الخميس ٨ المحرم عام ٦٦١ هـ عقد له السلطان مجلسا كالذي عقده من قبل للخليفة المستنصر بالله . وأثبت نسبه بين يدي القضاة والأمراء ، وبايعوه جميعا بالخلافة وبايعه الناس من بعدهم . ثم لقبوه بالحاكم بأمر الله ، ثم بايع هو بدوره السلطان وفوض إليه أمور المسلمين . وخطب بين يدي السلطان في الجمعة التالية ، خطبة منبرية طلبة حض فيها على الجهاد وصلّى به .

أقام الحاكم بأمر الله في مصر وسكن مناظر الكباش التي أنشأها الأمير أحمد ابن طولون وهي مطلة على النيل ، ثم تحول عنها بعد زمن إلى قلعة الجبل في زمن الأشرف خليل . وفي زمن لاجين عاد إلى مناظر الكباش ثانيا ، ورتب له ما يكفيه هو وأهله وأمر بالصعود إلى القلعة في مستهل كل شهر لينهى السلطان به .

وقد ضربت السكة باسمه واسم السلطان يبرس ودعى لها على المنابر وبعد زمن خاف الظاهر عاقبة هذا الأمر ، فنقل الخليفة عنده في القلعة هو وأهله وحاشيته إلى المنصور ، ثم أسقط اسمه من النقود وأبقاه في خطبة الجمعة .

وقد عاش هذا الخليفة في منصبه زمنا طويلا يقرب من أربعين عاما . وشهد عددا من ملوك مصر في ذلك الحين ، منهم ابن يبرس والمنصور قلاوون وابناه خليل ومحمد ، والمنصور لاجين . ويعتبره بعض المؤرخين أول خلفاء العباسيين في مصر . لأنه هو وابنه سليمان ينتمى إليهم جميع خلفاء العباسيين بها .

وقد شهد هذا الخليفة أحداثا عدة ، لطول المدة التي أقامها . وكان يتردد على الخطابة المنبرية يوم الجمعة بين يدي السلطان من آن لآخر ، وقد كان سفيرا بين الأمراء الثائرين والسلطان الملك السعيد بن يبرس ، وكانت نتيجة سفارته خلع السلطان وتولية أخيه .

وكان بعامه غير مطلق التصرف مضيقا على حريته خصوصا في عهد يبرس . وفي عهد الأشرف خليل نال بعض الحرية ، ورتبه هذا السلطان خطيبا بجامع

القلعة : ومن العجيب أنه خطب أول خطبة له بعد ترتيبه هذا يوم الجمعة ١٤ شوال عام ٦٩٠ هـ وتلا نفس الخطبة التي تلاها من قبل في زمن بيبرس أى منذ نحو ثلاثين سنة. ووضع مكان اسم بيبرس اسم الأشرف خليل - وهذه الخطبة كانت من إنشاء شرف الدين أحد كتاب عصر بيبرس - . وفى عهد السلطان لاجين أبيع له التصرف والاختلاط بالناس والركوب مع السلطان ، وعاقبه هذا السلطان على الحج عام ٦٩٧ هـ فأعطاه بهذه المناسبة سبعمائة ألف درهم .

وقد توفى فى عهد الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنة الثانية ، بعد أن عهد بالخلافة لابنه سليمان . وكانت وفاته فى جمادى الأولى عام ٧٠١ هـ ليلة الجمعة ١٨ من الشهر ، ودفن بمشهد السيدة نفيسة فى قبة خاصة .

» ابن إياس ج ١ ص ١٠٢ ، ١١٣ ، ١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٤٤ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ - سلوك القرزى ج ١ - صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٥ - تاريخ الخلفاء السيوطى ص ٣١٧ - والدرج ١ رقم ٢٣٢ .

٢ - المستكنى باقه ، الأول ، ٧٤١ هـ

وهو أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله أحمد الخليفة السابق . ولى الخلافة بعد أبيه بعهده منه . وقد أقر هذا العهد السلطان الناصر بن قلاوون سلطان هذا الحين ، بعد أن سأل قاضى القضاة تقي الدين بن دقيق العيد عن صلاحه للخلافة لصغر سنه إذ كان دون العشرين إذ ذاك ، فأجاب به بصلاحه لها . وكان ذلك بعد وفاة أبيه . فلما أقر له السلطان بالخلافة ببيع ودعى له على المنابر بعد موت أبيه بثلاثة أيام فى جمادى الأولى عام ٧٠١ هـ . وكان ابن أخيه إبراهيم وهو أسن منه ينازعه الخلافة ولكنها تمت لسليمان . فلما ببيع أشهد على نفسه أنه ولى الملك الناصر جميع ما ولاه والده وفوضه إليه . ومن ثم نقش اسمه على السكة مع اسم السلطان وحسنت صلتها ، وسكن زمنا فى مناظر الكيش ثم رسم السلطان له بعد قليل أن ينتقل بأهله جميعاً إلى القلعة ، وأجرى عليهم الرواتب السكافية . وإلى هذا الخليفة تنسب خلفاء بنى العباس بمصر .

وخرج مع السلطان في عام ٧٠٢ هـ إلى بلاد الشام لقتال التتار ، ثم عاد إلى القاهرة في شوال من ذلك العام منتصرين . وظلت صلته بالسلطان على خير ما تكون حتى سعى السعاة بينهما ووشى الوشاة فغضب عليه السلطان الناصر محمد . وقيل إن سبب غضبه أن الخليفة كتب على إحدى القصص الخاصة بالسلطان : « ليحضر محمد بن قلاوون إلى مجلس الشرع أو يوكل » ، فشق عليه ذلك وأحضرها له في نفسه . وكان ذلك عام ٧٣٦ هـ ، فرسم له أن ينتقل من القلعة إلى مناظر الكباش ثانيا . ثم نفاه إلى قوص هو وأهله في ذى الحجة عام ٧٣٧ هـ . وقيل أوائل عام ٧٣٨ هـ . فسافر الخليفة إليها ولبت بها منقيا حتى توفي . وقد ألم الناس لهذا أشد الألم . وكانت وفاته في شعبان سنة ٧٤١ هـ . وقيل سنة ٧٤٠ هـ . وكان مولده في منتصف المحرم عام ٦٨٤ هـ . وقيل ولد عام ٦٨٣ هـ .

وقد عهد بالخلافة من بعده لابنه أحمد ، وأشهد على هذا العهد أربعين عدلا . فلم يقره الناصر وولى مكانه ابن أخى المستكنى المدعو إبراهيم .

وكان المستكنى مشتغلا بالعلم محبا للألعاب الرياضية مجالسا للعلماء والأدباء مشاركا لهم في كلامهم .

« ابن أبي عمير ج ١ ص ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٦ ، ١٧٠ - سلوك القرطبي ج ١ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٤ إلى ٥٨ - صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٥ - تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٢١ ج ٢ - البد الكفنة لابن حجر ج ٢ رقم ١٨٢٨ » .

٤ - الوائق بالله ، الأول ، ٧٤٨ هـ

اسمه إبراهيم بن محمد الخليفة الحاكم بأمر الله وهو ابن أخى المستكنى الخليفة السابق .

كان الخليفة الحاكم بأمر الله قد عهد أولا إلى ابنه محمد ولقبه المستمسك بالله . فمات في حياة والده ، فعهد الحاكم إلى إبراهيم ابن ابنه محمد ، ثم شهد فيه أموراً مردولة دغته إلى العدول عن العهد إليه ، ثم عهد إلى ابنه الثانى وهو المستكنى بالله

سليمان . فاغتاض إبراهيم وحاول منازعة عمه المستكني بالله وقت ولايته ، وزاحمه ، فلم يلتفت إليه السلطان الناصر وولى المستكني .

ثم غضب الناصر على المستكني فنفاه هو وأولاده وأهله إلى قوص - كما مر في ترجمته - وامتد غضبه عليه إلى أنه لم يقر عهده إلى ابنه أحمد ، واستدعى ابن أخيه إبراهيم المذكور وباعه ، ودفع الناس إلى مبايعته . على الرغم من نصح كثيرين له بعدم بيعته - وكان من ناصحيه قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة - فلم يأبه الناصر لكل أولئك . فتمت بيعته إبراهيم وسمى الواثق بالله ، بعد أن لبث منصب الخلافة شاغرا زمنا . وتمت هذه البيعة في رمضان عام ٧٤١ هـ . وهو العام الذي مات فيه الناصر محمد بن قلاوون .

وقيل إن الناصر ندم بعد ذلك على تولية هذا الخليفة . ولذلك أوصى قبيل وفاته بخلعه وتولية ابن المستكني وهو أحمد . فلما ولى الملك ابنه أبو بكر المنصور نفذ وصية والده وعقد مجلسا لذلك في ذى الحجة عام ٧٤١ هـ . وطلب الخليفة الواثق بالله إبراهيم وأحمد ابن الخليفة المستكني وبين يديه القضاة وحقق المسألة ووازن بينهما ، وراجع عهد المستكني بالله إلى ابنه أحمد ، ثم خلع إبراهيم وولى مكانه أحمد ، ولقبوه بالحاكم بأمر الله كلقب جده .

وكانت مدة خلافة الواثق بالله عدة شهور . ومات في ٤ شعبان سنة ٧٤٨ هـ .

• ابن إياس ج ١ ص ١٧٠ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٨ ، ٥٩ - صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٥ - سلوك القرطبي ج ١ - تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٢٤ - الدرر لابن جبر ج ١ رقم ١٤٧ •

• - الحاكم بأمر الله « الثاني » ٧٥٤ هـ

لقب بلقب جده وهو أبو العباس أحمد بن المستكني بالله بن الحاكم بأمر الله . لما مات أبوه عام ٧٤١ كان قد عهد إليه بالخلافة وهو منفي بقوص وأشهد على

عده أربعين رجلا عدلا ، وبجل العهد لدى قاضى قوص ، ولكنه لما مات لم يأبه الناصر محمد بعده لابنه أحمد ، وولى مكانه إبراهيم الوائى بالله - كما مر بيانه - فلما ندم الناصر على تولية إبراهيم ، ثم أوصى بإعادة الأمر إلى أحمد ثم مات ، عقد الملك المنصور أبو بكر مجلسا من القضاة ، ونفذ وصية أبيه وأقر عهد المستكنى بالله إلى ابنه أحمد وبايعه الخلافة بعد أن خلع الوائى بالله وبايعه الناس قاطبة ، وكان ذلك فى ذى الحجة عام ٧٤١ هـ ولقبوه بالحاكم بأمر الله .

ويقول القلقشندى فى صبح الأعشى ج ٣ ، وكذلك ابن خلدون فى المعبر ج ٣ ص ٥٤ ، إن هذا الخليفة ولى الخلافة زمنا يسيرا قبيل الوائى ودعى له على المنابر فى أواخر شوال عام ٧٤٠ هـ ، يقصد السنة التى مات فيها المستكنى بالله إذ يعتبرها سنة ٧٤٠ هـ ، ثم لم يررض الناصر بذلك واختار بدلا منه إبراهيم الوائى بالله .

ويقول السيوطى فى حسن المحاضرة عن الحافظ ابن حجر - وهكذا قال ابن حجر فى الدرر ونقله أيضا السيوطى فى تاريخ الخلفاء : إن هذا الخليفة لقب أولا بالمستنصر بالله ثم غير لقبه ، ولقبه القلقشندى بالمستعظم بالله . وقد توفى هذا الخليفة فى عهد الملك الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد عام ٧٥٤ هـ بعد أن شهد عدة من الملوك . وقبل فى حسن المحاضرة إنه مات بالطاعون فى منتصف عام ٧٥٣ هـ . وفى صبح الأعشى أنه مات سنة ٧٤٨ هـ ولم يمد بالخلافة لأحد من بعده . وكانت مدة خلافته نحو ثلاث عشرة سنة . وقد ولى بعده أخوه .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٠٠ - صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٥ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٨ ، ٥٩ - وتاريخ الخلفاء ص ٣٢٥ - الدرر الكامنة لابن حجر ج ١ رقم ٣٨٤ . »

٦ - المعتضد بالله « الأول » ٧٦٣ هـ

وهو أبو الفتح أبو بكر بن الخليفة المستكنى بالله وأخو الخليفة السابق الحاكم

بأمر الله ، مات أخوه ولم يعهد لأحد بالخلافة فوق الاختيار على أبي بكر هذا ،
ولقب بالمعتضد بالله وذلك في ١٧ شعبان عام ٧٤٨ هـ ، على رأى القلقشندي ، وعام
٧٥٤ هـ كما يقول ابن اياس ، وعام ٧٥٣ هـ كما يقول السيوطي .
وقد أسند إليه نظر مشهد السيدة نفيسة ، ثم توفي ليلة الأربعاء ١٨ جمادى
الأولى عام ٧٦٣ هـ وكانت مدة خلافته نحو عشر سنوات ، وعهد بالخلافة بعده
لابنه فتقلدها ولقب بالمتوكل على الله .

« ابن اياس ج ١ ص ١٠٠ ، ٢١٦ - صبح الأمل ج ٣ ص ٢٦٦ - حسن المحاضرة ج ٢
ص ٦٥ - تاريخ الخلفاء ص ٣٣٣ » .

٧ - المتوكل على الله ، الأول ، ٨٠٨ هـ

وهو أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الخليفة المعتضد بالله ، بويج بالخلافة بعد
أبيه بهمد منه في جمادى الأولى عام ٧٦٣ هـ في عهد الملك المنصور محمد بن المظفر
ابن الناصر بن قلاوون .

ظل في دست الخلافة إلى سنة ٧٧٨ هـ ، وفي هذه السنة خرج مع السلطان
الآشرف شعبان قاصدين حج بيت الله الحرام . وهناك في العقبة وقع تخاذل
وعدوان بين الأمراء أدى في النهاية إلى قتل الآشرف شعبان . هناك عرض عليه
بعض الأمراء منصب السلطنة تخاف من عواقبها ، وصمم على عدم قبولها ، فوقع
الاختيار على المنصور علي بن الآشرف شعبان ، فصار سلطانا وهو في سن السابعة
تقريبا . ثم استبد بملكه الآتابكي أيبك البدرى وصار مدبر دولته ، فجرت بينه
وبين الخليفة المتوكل حوادث أدت إلى كراهية شديدة وحقد عظيم . فإذ كان
من البدرى إلا أن خلع الخليفة المتوكل عنوة عام ٧٧٩ هـ . وأقام مكانه خليفة
جديدا هو زكريا بن الخليفة ابراهيم الواثق بالله . ولقبه بالمعتصم بالله رقيـل
المستعصم بالله .

خلع المتوكل إذن من منصبه - غير أن الأمراء لم يرتضوا هذا التغيير الجائر ،
ولم يبايعوا ولم يبايع الناس هذا الخليفة الجديد ، حتى وجد الآتابكي أيبك البدرى

أنه لا بد من عودة المتوكل إلى منصبه ، فأعاده بعد خلع دام نحو خمسة عشر يوما أو عشرين . وهكذا خلع أيضا المعتصم بالله .

سافر الخليفة المتوكل في نفس العام وهو عام ٧٧٩ هـ ، مع السلطان المنصور على في تجريدته إلى بلاد الشام . غير أنهما اضطرا إلى العودة إلى القاهرة بعد بلوغهما بلبس لفتنة قاصمه شبت بين الأمراء حينئذ .

وعاش هذا الخليفة حتى شهد أول دولة الجراكسة وعهد منشئها وهو السلطان برقوق بن أنص العثماني . وما بدأت سنة ٨٨٥ هـ حتى نفي إلى السلطان برقوق أن الخليفة يريد أن يستبد بالملك دونه وأنه يرأسل الأمراء والعربان بذلك وأنه يدبر مؤامرة لاغتياله . فخذ عليه وجمع القضاة ليفتوه في شأنه فتوى تتفق وهو . فلم يظفر منهم بشيء . فاستنار الله وأعلن خلع عنة في رجب عام ٧٨٥ هـ وقبض عليه وحبسه بالقلعة في البرج . وهكذا خلع للمرة الثانية .

استقدم السلطان برقوق بعد ذلك عمر بن الخليفة إبراهيم الوائلي بالله وأخا زكريا الخليفة المعتصم بالله ، وولاه الخلافة ولقبه بالوائلي بالله كلفب أيه إبراهيم . وفي ذي القعدة من نفس العام أطلق سراح المتوكل وأنزله إلى داره مكرما .

ومهما يكن من شيء فإن المتوكل قاسى ضروبا من الضغط والأذى بعد ذلك كانت تملأها الظروف على السلطان . حتى إنه في سنة ٧٩١ هـ أمر نائب القلعة بأن يضيق الخناق على الخليفة المتوكل ويمنعه من الاجتماع بالناس ، ويبقيه بالبرج مقيدا ، وذلك بمناسبة اضطراب الأمور في السنة المذكورة .

وفي تلك الأثناء كان الخليفة الجديد الوائلي بالله عمر قد توفي عام ٧٨٨ هـ فأسندت الخلافة إلى أخيه الخليفة الأسبق ، وأعني به المعتصم بالله زكريا بن إبراهيم . فظل حتى عام ٧٩١ هـ . وهنا اتجهت نفس برقوق من جديد إلى الخليفة المتوكل ، فاستقدمه من حبسه بعد قبوعه فيه نحو ست سنوات ، فزج منه قيده وقدم إليه المعذرة وندم إليه على ما فرط منه في حق . فأعاده إلى الخلافة بعد أن خلع منها المعتصم بالله زكريا الذي عاش بعد ذلك حتى توفي عام ٨٠١ هـ مخلوعا .

عادت الخلافة إذن إلى المتوكل على الله . وهذه ثالث مرة يتبوأ فيها منصبه . وبعد قليل زال برقوق من السلطنة ، وأسندت إلى الملك الصالح أمير حاج بن الأشرف شعبان للمرة الثانية وذلك عام ٧٩١ هـ ، فتنفس المتوكل الصعداء . وانضم إلى عصاة السلطان الجديد ، وهموا باستصدار فتوى بكفر برقوق لخلعه الخليفة المتوكل واضطهاده . وقتله البريء في الشهر الحرام . وكان برقوق قد أخذ نجمه في الظهور مرة أخرى بناحية الشام ، حتى خرج السلطان الصالح للقائه وقتاله في بلاد الشام ، وخرج معه الخليفة المتوكل عام ٧٩١ هـ ، إلا أنهما شعرا بالهزيمة ففرا في أوائل عام ٧٩٢ هـ ، بعد انكسارهما أمامه . غير أن الملك الصالح فضل الانسحاب من السلطنة ، فغلق نفسه وعادت السلطنة إلى برقوق ، فتولاها مرة أخرى ، وشهد المتوكل على هذا الخلع وهذه التولية . . . ودخل المتوكل في ركاب برقوق وهو عائد من الشام إلى مصر .

ولما كانت ثورة منطاش ضد برقوق في بلاد الشام وحلب عام ٧٩٣ هـ خرج ، إليه برقوق في حملة كثيفة ، وكان في ركابه هنا أيضا خليفتنا المتوكل على الله ، وخرج معه كذلك لقتال التتار في عام ٧٩٦ هـ وهكذا .

ثم زالت دولة برقوق بموته ، وتولى ابنه الناصر فرج عام ٨٠١ هـ فبايعه المتوكل على الله ، وأقره هو أيضا على خلافته . وكان أحد أعضاء المجلس المنعقد في نفس السنة من القضاة والعلماء والأمراء للتشاور في أمر العثمانيين واعتدائهم على بلاد السلطان . وقرر هذا المجلس محاربتهم . ولكن هذه المحاربة لم تتم ، لنكوص العثمانيين عن أعمالهم العدائية . ثم إن المتوكل خرج إلى الشام ضمن حملة ، لتأديب الأمير تم نائب الشام ، الخارج على السلطان عام ٨٠٢ هـ . ثم خرج معه أيضا في حملته على تيمورلنك ملك التتار عام ٨٠٤ هـ ، ثم عاد معه على حين غفلة في يوم الخميس ٥ جمادى الآخرة من العام المذكور .

شهد هذا الخليفة أحداثا كثيرة هامة وتقلبات عدة . ثم توفي في أول السلطنة الثانية لفرج بن برقوق عام ٨٠٨ هـ ليلة الثلاثاء ٢٨ رجب بعد أن قضى في خلافته

نحو من خمسة وأربعين سنة . ودفن بمشهد السيدة نفيسة . وتولى الخلافة خمسة من أولاده وهم داود وسليمان وحمة ويوسف والعباس . وينسب إليه البر وجب الخير وفعل الجليل وبذل الصدقة . كما أنه أول من أئرى من خلفاء بني العباس في مصر . ورزق أولادا عدة . وقيل إن بإيزيد ملك العثمانيين التمس منه تقليدا بملك الروم قتلده .

و ابن لباس ج ١ ص ٢١١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٥ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ . - وحسن المحاضرة جزء ٢ من ٦٥ إلى ٦٨ - صبح الأعشى جزء ٣ ص ٢٦٦ ، ٢٦٨ - تاريخ الخلفاء من ٣٣٣ .

٨ - المستعصم بالله : ٨٠١ هـ

وسماه السيوطي في حسمى المحاضرة « المستعصم بالله » . وفي تاريخ الخلفاء « المستعصم » ، وهو أبو يحيى نجم الدين زكريا بن الخليفة الواثق بالله إبراهيم . - وبني إبراهيم هذا كثير أما نافع بيت المستكن بالله ، في الخلافة .

وقد ولي المستعصم بالله زكريا أمراها في عهد الملك المنصور على بن الأشرف شعبان . أسندها إليه أتابكيه الأمير أيبك البدرى عام ٧٧٩ هـ ، حينما فقد هذا الأمير على خليفة مصر المتوكل على الله محمد ابن المعتضد ، غلغله عنوة ، ونصب مكانه زكريا . فظل في الخلافة بلا مبايعة نحو أسبوعين ثم اضطر أيبك أن يعيد المتوكل ، ويطلع زكريا .

ظل زكريا بعد ذلك زمنا حتى وقع النفور بين المتوكل المذكور وبين السلطان برقوق ، فخلعه وقبده وبجحه ، ثم استدعى عمر أخا زكريا وولاه الخلافة فلبث بها حتى توفي عام ٧٨٨ هـ ، فاستدعى على إثره أخاه زكريا وولاه الخلافة ولقب المستعصم بالله كما كان . فظل في الخلافة حتى عام ٧٩١ هـ . ثم بدا لبرقوق أن يعيد المتوكل فخلع زكريا في ذلك العام . وهذه ثانی مرة يخلع فيها . فظل مغلولا حتى

توفي عام ٨٠١ هـ في شهر جمادى الأولى . وقال عنه السخاوى : كان عاميا صرفا .
« ابن إياس ج ١ ص ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٣٦٥ — حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٦ ، ٦٧ — صبح
الأعشى ج ٣ ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ — تاريخ الخلفاء ص ٣٣٦ ، — الضوء ج ٣ رقم ٨٨٩ » .

٩ - الوائى باقه والثانى ، ٧٨٨ هـ

وهو أبو حفص عمر بن الخليفة الوائى بالله إبراهيم . وأخو الخليفة السابق
المستعصم بالله زكريا . دعاه برقوق التسلّم مهام الخلافة بعد أن خلع منها المتوكل
على الله فى رجب مام ٨٧٨٥ ، فبقى بها حتى سنة ٧٨٨ هـ . ثمّ توفي فى شوال من
العام المذكور . قال ابن إياس : إن برقوقا عزله قبيل وفاته : فعلى هذا الرأى
يكون الوائى قد مات معزولا . وقد خلفه أخوه زكريا ثمّ المتوكل ثمّ ابن المتوكل
وهو الخليفة المستعين بالله .

« ابن إياس ج ١ ص ٢٤١ ، ٢٦٥ — صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٦٦ — حسن المحاضرة
ج ٢ ص ٦٧ » .

١٠ - المستعين بالله ، الخليفة والسلطان ، ٨٣٣ هـ

هو أبو الفضل العباس ابن الخليفة المتوكل على الله محمد . وأمه أم ولد تركية اسمها
خانون . ولى الخلافة بعد موت أبيه بعهد منه ، وكانت ولايته فى رجب عام ٨٠٨ هـ
فى عهد السلطنة الثانية لفرج بن برقوق . وقد كان أبوه المتوكل قد عهد إلى ابنه
الأول المسمى أحمد ، ولقبه المعتمد على الله . ثمّ عدل عنه إلى ابنه الثانى أبى الفضل
العباس المذكور .

ولما ولى الخلافة شهد أحداثا كبرى ومر بظروف متقلبة . وشهد من العز
والهوان ضروبا . فهو فى هذا شبيه بأبيه المتوكل على الله محمد .

ظل يقوم بالمراسيم التقليدية لمنصبه حتى كانت سنة ٨١٤ هـ . فى هذه السنة شق
حصا الطاعة على السلطان فرج الأميران شيخ المحمودى ونوروز الحافظى . وتحصنا
فى بلاد الشام . وهناك قويت شوكتهما . فجرد عليهما السلطان الناصر فرج جيشا
تترك به فى نفس العام إلى بلاد الشام ، وسار صاحبته الخليفة العباس المستعين باقه
(٣٢ - مائلك)

ولكن كانت العاقبة وخيمة على السلطان ، فانكسر ثم قبض عليه ثم قتل عام ٨١٥ هـ .
وفي هذه الاثناء انضم عدد كبير من معه إلى المنتصرين وهما شيخ ونوروز ، فاشتور
الجميع في الأمر ، وفكروا فيمن يلى السلطنة . وكانت قد انحصرت بين هذين الأميرين
تخسب . غرقا من وقوع النزاع بينهما ، ودرءا للتباغض ، استقر رأيهما ورأى من
معهما على أن يكون الخليفة المستعين هو السلطان .

خشى المستعين مغبة الأمر فامتنع عن قبول السلطنة ، ولكنهما ألجاعليه وقدم
إليه نوروز من الموائيق وعهود الأمان مالم يجد معه بدا من القبول . واشترط
شروطا كثيرة كان في عدادها أن يحتفظ بمنصب الخلافة ، وأنه إذا خلع من السلطنة
يوما ما فإنه يعود إلى ذلك المنصب كما كان ، فرضوا بشروطه .

أصبح المستعين بالله خليفة وسلطانا معا على البلاد المصرية والشامية والحلبية
وما يتبعها وذلك عام ٨١٥ هـ . وفوض البلاد الشامية من غزة إلى الفرات للأمير
نوروز الحافظي ، وفوض أنابكية مصر للأمير شيخ المحمودى وجعله مدير المملكة
ونظام الملك . وعاد الجميع معه إلى مصر في ركب عظيم وحفاوة باهرة وهناه
الشعراء ، وكان في جملة مهنتيه ابن حجر العسقلاني القاضي والعالم والأديب
الشاعر ، بقصيدة عصماء أولها .

الملك فينا ثابت الأساس بالمستعين العادل العباسي .
رجعت مكانة آل عم المصطفى محلها من بعد طول تناسي

سكن الخليفة السلطان بالقلعة . وظل يصرف أمور الدولة . ولكن الواقع أن
الذى كان يصرفها من الوجهة العملية هو الأتابكي شيخ وظل يضيق الخناق على خليفته
السلطان ويستأثر بكل الاعمال ، حتى ضاق المستعين بالله ذروعا به .
كان ذلك كله بمثابة تهديد من الأتابكي شيخ ليستولى على السلطنة ، وقد نفذ
هذه الرغبة فعلا في مستهل شعبان عام ٨١٥ هـ ، أى بعد مضي نحو ستة شهور على
سلطنة المستعين بالله ، وتلقب بالمؤيد .

كانت حجة الملك المؤيد شيخ أن الأحوال فسدت وأن أهل السوء اجترءوا ،

وأصبح الحال يتطلب سلطاناً تركياً يجمع أهل الفساد . فخلع الخليفة من السلطنة واستولى هو عليها .

أراد الخليفة المستعين بالله أن يعود إلى منصبه ويفرغ له كما كان أولاً ، فأبى عليه المؤيد وتركه بالقلعة سجيناً ، فظل بها حتى ذى الحجة عام ٨١٦ هـ . ثم خلع من الخلافة أيضاً ، وقد عاون على خلعه منها بفتوى شرعية من الشيخ جلال الدين البلقيني أحد قضاة الشافعية . ويقول السيوطي إنه كان في نفس البلقيني من الخليفة شيء ! إذ عزله من القضاء في مستهل سلطنته فأضمرها له في نفسه .

فلما خلع من الخلافة ، استدعى أخوه المسمى داود فبوع بها ولقب بالمعتضد بالله . أما المستعين بالله فإنه أرسل إلى سجن الإسكندرية بعد أن سجن بالقلعة مدة فلبث في السجن سنين طويلة ، حتى ولي الملك الأشرف (١) برسبای عام ٨٢٥ هـ . فكان في جملة ما أثره إخراج هذا السجين وإطلاق حريته ، وأسكنه بعض الدور بالإسكندرية . فزاول التجارة بها حتى كان عام ٨٣٣ هـ . فمات بطاعونه في يوم الأربعاء ٢١ جمادى الآخرة ، وقد كتبت عنه كلمة بين سلاطين الدولة الجركسية .

د ابن أبياس ج ١ ص ٣٥١ ، إلى ٣٥٩ - ج ٢ ص ٣ ، ١٣ ، ١٩ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ - صبح الأُمم ج ٣ ص ٢٦٧ - تاريخ الخلفاء ص ٣٣٦ - الضوء اللامع ج ٤ رقم ٤٧٠ .

١١ - المعتضد بالله ، الثاني ، ٨٤٥ هـ

وهو أبو الفتح دارد بن الخليفة المتوكل على الله محمد ، وأخو الخليفة المستعين بالله ، وأمه أم ولد تركية يقال لها كزل . ولي الخلافة في عهد الملك المؤيد شيخ محمود سنة ٨١٥ هـ . عقب خلع أخيه المستعين بالله منها . وظل يقوم بمراسم الخلافة من مبايعة سلطان وتهنئة آخر في موسم أو عيد ورحيل مع ملك في تجريدة إلى بلاد الشام ، وغير ذلك من ضروب الأعمال المنوطة به .

ويقال إنه بعد موت المؤيد شيخ ، عارض في تولية ابنه المظفر أحمد لصغر

(١) هذه رواية ابن أبياس ؛ وذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء ، أن الذي أطلقه هو الظاهر طغر ، وأذن له في الجي ، إلى القاهرة ، ولكنه اختار الإسكندرية .

سنه إذ كان في نحو سنة وثمانية أشهر . ولما وجد إجماعا من الممالك المؤيدية على توليته ، رضى مكرها على أن يكون الأمير ططر - وهو من هو في ذلك الحين - مدبر المملكة ونظامها . وأرجح أن هذه الشجاعة واثته من الأمير ططر نفسه ، ولابد أن يكون هو الموعز إليه بالمعارضة ، لأن فيها منفعة له .

ولما شق الأتابكي الطنبا عصا الطاعة على هذا السلطان الصغير هو ومدبر مملكته ، سارع إليه الأمير ططر وحمل معه السلطان والخليفة والقضاة . وهو مهام ٨١٢٤هـ ، ثم خلع المظفر أحمد ، وتسلم عرشه بنفسه . وبإيعه الخليفة ، ومن معه في دمشق ،

ثم شهد هذا الخليفة عصر ططر وابنه وعهد الأشرف برسبای وابنه وعصر جقمق العلاق . وما يذكر أنه حدث سوء تفاهم بين برسبای وبين قرامك أحد ملوك التركان عام ٨١٣٦هـ ، فخرج من مصر في ذلك العام لملاقاته على الفرات وتأيديه ، فصحبه الخليفة المعتضد باقه فيمن صحبه .

وقد توفي هذا الخليفة في سنة ٨١٤٥هـ في يوم الأحد ٤ ربيع الأول ، مناهزا السبعين ، وقيل في سن ٦٣ سنة . وينسب إليه حب الخير وكثرة البر والميل إلى العلماء وحب مجالستهم والاستفادة من فضلهم . وقد خلفه أخوه سليمان بن المتوكل على الله

ابن إياس ج ١ ص ٣٥١ ، ٣٥٨ - ج ٢ ص ١٠ ، ١٢ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٨ -
- وحسن المخاضرة ج ٢ ص ٧١ - وتاريخ الحقاء ص ٣٣٨ - الضوء ج ٣ رقم ٨٠٥

١٢ - المستكني باقه ، الثاني ، ٨١٥٤هـ

وهو أبو الربيع سليمان ابن الخليفة المتوكل على الله محمد . وأخو الخليفة السالف ، وهو المعتضد باقه . ولما خلافة بعد وفاة أخيه المذكور عام ٨١٤٥هـ ، بعهد منه كتابة له صديقه والد جلال الدين السيوطي .

وقد كان المستكني رضى السيرة حسن العشرة ، كثير العبادة كثير التلاوة ، ورعا صالحا . وقد توفي آخر ذى الحجة عام ٨١٥٤هـ ، وقال ابن إياس : في يوم الجمعة ٢ المحرم عام ٨١٥٥هـ ، بعد خلافة دامت نحو عشر سنوات . ومات بغير أن يعهد

إلى أحد بالخلافة ، وكانت وفاته في عهد السلطان جقمق العلاءى الذى كان يبجله ،
فزل وصلى عليه وشيع جنازته ، وقيل حمل نعشه مسافة . وتولى بعده أخوه حمزة ،
ولقب بالقائم بأمر الله . وبما يذكر أن ابنة هذا الخليفة وهى آمنة ، تزوجها الخليفة
المتوكل على الله عبدالعزيز فولدت له ابنة يعقوب الذىولى الخلافة بعد أبيه بهدمنه
وتلقب بالمستمسك بالله عام ٥٩٠٣ .

• ابن ياس ج ٢ ص ٢٨ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٦ - حسن المحاضرة ص ٧١ ج ٢ - تاريخ الحقاء
ص ٣٤٠ - الضوء ج ٣ رقم ١٠١٥

١٣ - القائم بأمر الله ٨٦٣ هـ

وهو أبو البقاء حمزة ابن الخليفة المتوكل على الله محمد ، وأخو الخليفة السالف ،
وهو المستكنى بالله . ولى الخلافة بعد وفاة أخيه المذكور عام ٨٥٥ هـ بغير عهد منه ،
بل وقع عليه اختيار السلطان جقمق وحاشيته ، ولقبوه بالقائم بأمر الله .

وشهد عهد ثلاثة من الملوك هم جقمق وابنه وإينال العلاءى .

وبما يذكر أنه خلع الملك المنصور بن جقمق عام ٨٥٧ هـ بناء على طلب أتاكبيه
إينال ، ثم ارتقى إينال العرش فبايعه الخليفة حمزة ، وكان من أكبر معاضديه على
نيل السلطنة ، إذ أن المنصور لم يكن قد انهزم فى صراعه مع أتاكبيه ، فقت
خلع الخليفة له فى عضده ، ولما ملك إينال أنعم على الخليفة القائم بأمر الله بإقطاع
واسع النطاق ومال وخيل وقماش .

ثم دارت الأيام دورتها وثارت نائرة الممالك على إينال نفسه ٨٥٩ هـ ، فضلع
معهم الخليفة القائم بأمر الله آملا أن يحتاز لنفسه غنمة جديدة من وراء ذلك ،
حتى قيل إنه طمع فى السلطنة ، ثم إن الممالك أخفقوا فى حركتهم ، ومن ثم أسقط
فى يد الخليفة وأوجس خيفة من السلطان ، وما لبث أن استقدمه السلطان إليه ،
ووجه على سوء عمله ، فإكان من الخليفة إلا أن خلع نفسه وخلع السلطان معا ،
ولكن القاضي علم الدين البلقينى أفتى السلطان بأن عمل الخليفة ينطبق عليه هو دون
السلطان ، إذ بدأ بخلع نفسه فأصبح لا يملك خلع سواه ... !

فذلك ثبت الملك إينال في السلطنة رغم أنف الخليفة وأفتاء علم الدين البلقيني بأنه يجوز له خلخ الخليفة غلغله في مجلس عقد لذلك وشهد عليه الحاضرون ، وقبض عليه وقذف به في البحرة بالقلعة مسجوناً ، قلبت بها أياماً وذلك عام ٨٥٩هـ . ثم سيق إلى الإسكندرية فسجن فيها ولبت في سجنه حتى توفي عام ٨٦٣هـ ودفن في مقبرة شقيقه المستعين بالله . وقد دامت خلافته نحو أربع سنوات ونصف . وخلفه في منصبه عام ٨٥٩هـ أخوه يوسف .

• ابن ياس ج ١ ص ٣٥١ ، ج ٢ ص ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٥١ ، ٥٢ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٢ - وتاريخ الخلفاء ص ٢٤١ - الضوء ج ٣ رقم ٦٣٩ .

١٤ - المستنجد بالله ٨٨٤هـ

واسمه أبو المحاسن الجمالي يوسف ابن الخليفة المتوكل على الله محمد ، بويع بالخلافة في عهد الملك إينال عام ٨٥٩هـ في يوم الخميس ١٣ رجب ، وذلك بعد القبض على أخيه الخليفة السابق حمزة القائم بأمر الله . وكان مصاهر القاضي القضاة علم الدين البلقيني ، وينسب البعض تحمس البلقيني في خلخ الخليفة القائم بأمر الله إلى هذه المصاهرة وإلى رغبته في أن يكون صهره يوسف هو الخليفة مكان أخيه . قم له ما أراد ، ولبت يوسف هذا وهو الملقب بالمستنجد بالله في منصبه زمناً طويلاً يقدر بنحو ٢٥ سنة .

وشهد بقية عهد إينال وعهد ابنه المؤيد ، وأيام خشقدم وبلبای وتمرغا وقايتباي . وقد توفي في عهد هذا السلطان يوم السبت ٢٤ المحرم عام ٨٨٤هـ بعد مرضه بالفالج نحو عامين ، وقد بلغ التسعين أو جاوزها . وقد كان إينال قد أقطعه قرية إنابة فأخرجها عنه قايتباي وأقطعها أحد الأمراء .

وما يذكر أنه كان أحد أعضاء المجلس الذي عقده الأشرف قايتباي عام ٨٧٢هـ للنظر في أموال الأرقاف المرصودة على المساجد ، ومحاولة الاستيلاء على جزء منها معارضة للسلطان على تجهيز الجنود بما يحتاجون إليه في الحرب من سلاح وغيره ، وكان رأى الخليفة الرضا والموافقة على رأى السلطان ، وهو الاستيلاء

على جزء من المال . ولولا معارضة شيخ الإسلام أمين الدين الأنصاري في ذلك لنفذ هذا الرأي .

وعما يذكر أيضا أن هذا الخليفة هو الذي بعث إليه الملك غياث الدين صاحب بلاد الهند رسولا يطلب إليه تقليدا بولايته ، وذلك عام ٨٧٦ هـ . فبعث إليه التقليد المطلوب .

وعما يذكر كذلك أنه سكن بالقلعة بعد أن سكن بمنازل إخوته زمنا . ولما مات لم يعقب ولدا ذكرا ، وأنجب بنت واحدة تسمى ست الخلفاء ، كان الأمير خشك كدى السيفي قد عقد عليها ، ثم فسخ العقد .

وقد وليه في الخلافة عبد العزيز ابن أخيه يعقوب بن المتوكل على الله بعهد منه .

« ابن أبيس ج ٢ ص ٥٢ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٧٥ ، ١٨٥ -
حن الحاضرة ج ٢ ص ٧٢ - تاريخ الخلفاء ص ٣٤٢ - الضوء ج ١٠ رقم ١٢٤٧ .

١٥ - المتوكل على الله « الثاني » ٩٠٣ هـ

واسمه أبو العز عبد العزيز بن يعقوب بن المتوكل على الله محمد ، وهو ابن أخى الخليفة السابق ولم يل أبوه الخلافة . بويغ بالخلافة في عهد قايتباى بعد وفاة عمه المستنجد بالله في الاثنين ٢٦ المحرم عام ٨٨٤ هـ ، بعهد منه . ولم يكن إذ ذاك بين بنى العباس بمصر من يصلح للخلافة سواه . وكان عمه موسى موجودا ، ولكنه لم يكن كفئا للخلافة ، وقد مات موسى هذا عام ٨٩١ هـ . أراد أن يلقب بالمستعز بالله ، ثم لم يقع الاتفاق على هذا اللقب الأخير . وسكن بالقلعة بالجوش .

كان هذا الخليفة صديقا لجلال الدين السيوطي ، فأسند إليه في سنة ٩٠٢ هـ وظيفة غير معروفة في الدولة ، إذ جعله قاضيا على جميع القضاة بولى منهم من يشاء ويعزل من يشاء في سائر ممالك الإسلام . قيل إن هذه الوظيفة كانت قد أسندت جئا إلى تاج الدين بن بنت الأعز في دولة الأيوبيين . وكان لهذا التعيين

رنة ألم وحسرج وقد مرير لدى قضاة الشرع ، ولدى السلطان . ورموا الخليفة بأنه استخف بالسلطان لصغر سنه . وقد كان السلطان هو ابن قايتباى . وما زالوا به ينكرون عليه حق التولية ، وأنه لاحل له ولا ربط بجوار السلطان ، حتى اضطر إلى سحب الوظيفة من السيوطى ، وتقديم ضروب الاعتذار عما صدر منه قائلاً إنه إنما فعل ذلك بناء على اقتراح السيوطى نفسه ! . وانتهت المسألة بعد أن كادت تكون فتنة للناس !

وقد صدرت من الخليفة المتوكل على الله فعلة أخرى فى نفس السنة ، إذ اشترك فى خلع الملك الناصر بن قايتباى ، وضلع من الآتابكى قانسوه خمسمائة ، وبإيعه بالسلطنة فلم يلبث قانسوه بها سوى ثلاثة أيام ثم غلب ، وعاد الملك إلى صاحبه وهو الناصر بن قايتباى ، فعاد الخليفة وبإيعه بالسلطنة . وهذا الخليفة صعد القلعة ، عام ٩٠٢ هـ . بنى الناصر بن قايتباى بعيد الفطر ، فلم يقابله السلطان وأرسل إليه من يشكره ويصرفه .

توفى هذا الخليفة فى يوم الخميس آخر المحرم سنة ٩٠٣ هـ بعد أن مرض زمناً فى أخريات عام ٩٠٢ هـ . وينسب إليه الاشتغال بالعلم والآداب ودمائة الخلق ، وتوفى وله من العمر نحو ٨٤ سنة ، ومدة خلافته نحو ١٩ سنة . وتولاها من بعده ابنه يعقوب يعهد منه .

وما يذكر فى تاريخ المتوكل أنه فى عهد قايتباى وفى سنة ٨٩٩ هـ ، شبت نار قاسية فى القلعة فألحقت بها وبمحواصلها تلفاً بالغا . فقبل للسلطان إن النار اندلعت من مطبخ الخليفة المتوكل . وكان يسكن القلعة . فرسم له توا ياخلأ سكنه بها والنزول إلى المدينة ليختار له بها سكناً فسكن فى قاعة مجاورة لمشهد السيدة نفيسة ، وظل كذلك حتى عام ٩٠٢ هـ ، فكان عهد الناصر بن قايتباى ، فرسم له بالعودة إلى سكنى القلعة كما كان ، فعاد فى تلك السنة . وهذا الخليفة هو الذى ألف له السيوطى كتابيه فى تاريخ بنى العباس أولها « كتاب الأساس فى فضل بنى العباس » . ثانيهما « كتاب رفع الباس عن بنى العباس » .

دايز لياس ج ٢ ص ١٨٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣٢١ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ . - حسن الحاضرة ج ٢ ص ٧٢ - تاريخ الخلفاء ، ص ٣٤٢ - الضوء ج ٤ رقم ٤٦١ .

١٦ - المستمسك بالله ٩٢٧ هـ

وهو شرف الدين أبو الصبر يعقوب بن الخليفة السابق المتوكل على الله عبد العزيز ، وهو هاشمي الأيوبي . قال ابن إياس : لم يل الخلافة من هو هاشمي الأيوبي غير أربعة من بني هاشم وهم الإمام علي كرم الله وجهه ، وكانت أمه هاشمية ، رهي فاطمة بنت أسد بن هاشم ، ثم ابنه الحسن رضى الله عنه ورحمه ، وأمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ . ثم محمد الأمين بن زيدة وكانت أمه هاشمية . ثم يعقوب بن عبدالعزيز وأمه هاشمية تسمى آمنة بنت أمير المؤمنين المستكفي بالله أبي الربيع سليمان . ف هؤلاء الأربعة هاشميو الأيوبي وغيرهم من الخلفاء كانوا من سرارى مولدات وحش وغير ذلك .

بعد أن مات أبوه في عهد الناصر بن قايقباى عام ٩٠٣ هـ اختير للخلافة في المحرم من ذلك العام ، وكان أبوه قد عهد إليه بهما ، فأقر الناصر هذا العهد ، وزاحمه لدى السلطان على الخلافة ابن عم له يدعى خليلا ، فلم يأبه له السلطان . وتلقب بالمستمسك بالله . واكتفى القاضى الشافعى بمهد أبيه إليه عن المبايعة ، فتمت بذلك خلافته ، وهو فى سن الخمسين تقريبا وقد خطه المشيب . وقد شهد هذا الخليفة عددا من السلاطين ، وتمت بيعتهم بالسلطنة على يديه وهم : قانصوه ابن قانصوه وجان بلاط والعاذل طومان باى والأشرف الغورى والأشرف طومان باى . كما عاصر جملة من الحوادث الرائعة . وامتد به الأجل حتى رأى احتلال العثمانيين لبلاد . وابنه المتوكل على الله هو آخر خلفاء بنى العباس فى مصر .

ويخلص تاريخ المستمسك بالله يعقوب فيما يلى : كان يسكن بالمدينة حتى رسم له الأشرف جان بلاط بأن ينتقل إلى القلعة ، فانتقل وذلك عام ٩٠٥ هـ . ولما ملك طومان بلاد الشام ، وتلقب بالعاذل ، دان له أهلها وبايعوه ودعوا له على منابرهما

ولم يحتج إلى مبايعة الخليفة المستمسك بالله يعقوب ، لأنه كان بمصر مع سلطانها جان بلاط . غير أنه سرعان ما بايع العادل لما تم له النصر على جان بلاط ، ولانفى أن هذه المبايعات رسوم تقليدية تحسب لا تغير من جوهر الواقع شيئاً ، ولا أثر لها فيه . ١

ولما تمت السلطنة للعادل طومان - عام ٦٠٩ هـ - خلع على الخليفة بعض خلعه ، وبعد قليل في مستهل رمضان رسم له بترك القلعة ، والسكنى بداره بالمدينة ثم زالت دولة العادل وآلت السلطنة إلى الأشرف الغورى .

سار الخليفة المستمسك بالله العصر الجديد بنفس المهمة والنشاط الذين سار بهما العصور السالفة ، فبايع السلطان الغورى الجديد ، واشترك في حفلة تنصيبه وقام الأمراء بين يديه مرات بالحلف على المصحف إخلاصاً للسلطان .

وأصيب بضعف في عينيه ، فعيّره^(١) بذلك خليل ابن عمه الذى زاحمه من قبل في منصب الخلافة ، فلم يظفر بطائل حينئذ . فعاد الكرة في يوم السبت ٢ شعبان عام ٩١٤ هـ ووقع بينهما تشاجر بمجلس السلطان والقضاة . فقال خليل للخليفة يعقوب : أنت ولايتك ما تصلح فإنك أعمى ، فقام إليه الناصرى محمد ابن الخليفة ، وقال له : وأنت ما تصلح خلفك صلاة ، لأنك ما تحسن قراءة الفاتحة . وكان خليل ألنخ لا يحسن النطق بحرف الراء - فالزمه السلطان الغورى بأن يقرأ بحضرة القضاة فلما قرأ لم يحسن ثم سكّت ولم يكمل الفاتحة . وربما كان هذا التشاجر والاختبار والدفاع بسبب هم السلطان بتعيين خليفة آخر جديد بدل المستمسك بالله يعقوب لضعف عينيه . فانفض ذلك المجلس المعقود على أن يكون الناصرى محمد ابن المستمسك بالله هو الخليفة . وقد عاد المجلس فعلا إلى الانعقاد في يوم الاثنين ٤ شعبان عام ٩١٤ هـ ، أى بعد يومين ، وقرر الخليفة خلع نفسه من الخلافة عاهداً

(١) ذكر ابن الأثير خلافاً لهذا وقال عنه مرة أنه ابن عم يعقوب (ج ٢ ص ٣٣٤) ومرة ابن عم أبيه (ج ٤ حوادث ٢ شعبان عام ٩١٤ هـ) .

إلى ابنه المذكور ، فأقر الغورى هذا العهد ، ووافق القضاء والأمراء ، وزايل الخليفة المستمسك بالله المجلس مكرما . وانتهت بذلك خلافته بعد نحو إحدى عشرة سنة ونصف .

من ذلك الحين ظل الخليفة المذكور قابلاً في داره ، قليل الاختلاط بالناس ، محتفياً عن الأنظار ، حتى أذن له السلطان بالخروج والظهور في يوم الخميس ١٥ من ذى الحجة عام ٩١٧ هـ فركب ثاني يوم ، وهو الجمعة ، للصلاة وزيارة المقابر . وظل مرعى الجانب من السلطان الغورى ، حتى خرج في تجريدته المشهورة إلى بلاد الشام للقاء السلطان سليم عام ٩٢٢ هـ ، وخرج معه الخليفة المتوكل على الله ، ثم مات الغورى ، وأسر المتوكل . فاستدعى حينئذ الخليفة أبو الصير يعقوب المستمسك بالله للقيام بمراسيم الخلافة عوضاً عن ابنه ، بصفة مؤقتة ليبيع السلطان الجديد طومان باى ، وأظهر هو توكيلاً مطلقاً كتبه له ابنه المتوكل لينوب عنه في أمور الخلافة ، فأقر القضاء هذا التوكيل ، وهكذا عاد إلى الخلافة في عام ٩٢٢ هـ .

ثم زالت عنه صفة الخلافة حينما عاد ابنه المتوكل في ركاب العثمانيين ، وبعد عودته معهم إلى بلادهم لم تبق للخليفة منزلة رسمية مرجية .

وقد توفى المستمسك بالله في عهد ملك الأمراء خابر بك يوم الخميس ١٩ ربيع الآخر عام ٩٢٧ هـ . ودفن بمشهد السيدة نفيسة ، وينسب إليه الإصلاح وحسن الدين وحب الخير والتواضع . .

« ابن ايسر ج من ٣٥١ - ج ٢ ص ٣٣٣ و ٣٣٤ و ٣٤٤ و ٣٥٠ و ٣٦١ و ٣٧٠ و ٣٧١ و ٣٧٣ .
٣٨٠ و ٣٨٧ و ٣٩٤ - ج ٤ في التواريخ المذكورة من عام ٩١٦ هـ إلى ٩٢٧ هـ - ج ٥ في التواريخ المذكورة » .

١٧ - المتوكل على الله ، الثالث ،

وهو آخر خلفاء بنى العباس بمصر . واسمه أبو عبد الله الناصر محمد بن الخليفة المستمسك بالله يعقوب . ولى الخلافة بعد تنازل أبيه عنها وبعهد منه إليه . وزاحمه فيها خليل ابن عم أبيه كزاحم أباه من قبل ، ولكنه لم ينتصر عليهما . ولى الخلافة

في عهد الغورى يوم الاثنين ٤ شعبان عام ٩١٤ هـ ، وبايعه السلطان والقضاة ونزل إلى داره في مركب عظيم ، وقيل إنه بذل في سبيل الوصول إلى الخلافة ١٢ ألف دينار . ولولا ذلك لكان نصيبه النفي من القاهرة وإحلال خليل مزاحمه محله .

ظل المتوكل على الله محمد ، يقوم بمراسيم منصبه من تهنئة واستقبال وتحليف وغير ذلك . حتى أذنت سنة ٩٢٢ هـ وتحرك العثمانيون ضد مصر وتمسكاتها . فخرج الخليفة المتوكل في عداد من خرج مع السلطان الغورى ، وأراد السلطان على أن يجهز نفسه من ماله كما أراد القضاة على ذلك . ولكنه لم يستطع ، وبعدلأى ومفاوضة أرسل السلطان إليه ألف دينار وكانت عادة الخلفاء من قبل إذا خرجوا في حرب مع السلطان أن تكون نفقة خروجهم جميعها من مال السلطان . ولما خرج ركب الخليفة كان أمامه طبل وزمر ... وعلى رأسه عمامة بغدادية بمذبتين .. وعلى جسده قباء بمليكي مطرز بحري أسود ... واختصر ضرباً من التجميل كان يتبعها الخلفاء السابقون في مثل هذه المناسبات . وذلك نظراً للضنك المالى الذى كانت البلاد وأهائها تعانيه .

ثم سار الجميع إلى الشام . وهناك كانت المزمعة في « مرج دابق » ، وقد سلطان مصر الغورى . وأسر السلطان سليم عدداً كبيراً من مرافقيه ، ووفد عليه عدد آخر . فكان الخليفة المتوكل في عداد من وفد عليه . وقيل إن السلطان سلبها سألته عن أصله . فقال : من بغداد فقال له : نعيدكم إلى بغداد كما كنتم ! - ولما علم الخليفة بالانصراف أحسن إليه السلطان سليم ، وخلع عليه خلعة ثمينة من ملابسه . وسيره إلى حلب . وأمره بالإقامة بها . وبكل به من يجرسه ويمتعه الحرب ! . فظل بها هو والقضاة المصريون الثلاثة الذين وفدوا على السلطان سليم معه . وقام مقامه بمصره أبوه يعقوب . ظل في الأسر حتى دحفت العثمانيون على مصر فاحتلموه معهم هو والقضاة الثلاثة . ثم أرسلهم سفراء إلى القاهرة قبيل دخولهم فيها ، هم وطائفة من وزرائهم وجنودهم ، طلائع لدخول سلطانهم ، وبشروا الناس بالأمن والعدل المنتظرين على يد العثمانيين ...

وأضنى السلطان سليم على الخليفة المتوكل ضرورا من الثقة والنفوذ ، حتى عظم أمره وهيبته سطوته وقبلت شفاعته . وأصبحت داره مأجلا لذوى الحاجة سادة وغير سادة . وكانت هذه بلا شك سياسة حازمة من السلطان سليم ليخضع الناس عن رغباته الخفية ، ويفهم المصريين حبه للدين وخوفه على رجاله . ثم هى وسيلة لإدخال الطمأنينة فى نفس المتوكل ، حتى يثق بالسلطان سليم ، وحينئذ يسهل على السلطان أن يتخذ منه إكافا إلى غايته ، وأن يمتطيه حتى النهاية . ثم أمره بعد قليل بالمسير إلى القسطنطينية فى عداد من أمروا بذلك .

وفى يوم الثلاثاء ١٢ جمادى الأولى عام ٨٩٢٣ ، خرج الخليفة المتوكل على الله محمد ، ومعه عدد من أقاربه للسفر إلى القسطنطينية . فغادر القاهرة فى ذلك اليوم . ولبت فى جهة بولاق إلى الثلاثاء ١٩ جمادى الأولى المذكورة . ثم رحبا إلى رشيد ومنها إلى عاصمة بنى عثمان . وبسفره انقطعت سلسلة الخلافة من مصر ، وانتهت أيامها .

وقيل إن السلطان سليما نفاه بعد ذلك إلى مكان بعيد عن استانبول . وضيق عليه الخناق . وقيل إنه قهر على أن يتنازل عن الخلافة للسلطان سليم . وقيل إنه لم يقهره ، وإنما تسمى سلاطين العثمانيين بأمراء المؤمنين وتلقبوا بالخلفاء . وقد انتقلت بذلك الخلافة من العباسيين إلى آل عثمان .

وما يذكر أنه بسفر الخليفة المتوكل انقطع عنه نظر مشهد السيدة نفيسة ، وكان هو ومن قبله من الخلفاء يتألون من وراء هذا المنظر المال الكثير والخير الوفير . وعاد المتوكل بأخرة إلى مصر ومات بها .

« ابن إياس ج ٤ ، ٥ فى التواريخ المذكورة - نهر الدكتور محمد مصطفى زيادة »

القضاء

على الرغم من أن النظام الإدارى فى ذلك العصر ، قد اقتضى تحويل مناصب البلاد تقريبا ، إلى مناصب عسكرية ، اختيار لشغلها عدد من الأمراء أرباب السيف ، كان لابد من أن تترك مناصب القضاء والكتابة وما إليها ، لى يلبها أهل العلم ورجال الدين ، وذوو الخبرة باللغة العربية وإنشائها ، من نابتة البلاد ومتفهميها . وذلك لأن الأمراء لا يستطيعون بفطرتهم ونشأتهم وظروف حياتهم ، أن يقوموا بها لفة خبرتهم بأحكامها ، ولضعف تجاربهم فيها ، ولانصرافهم عنها إلى غيرها من المهام العسكرية .

وقد يكون فى مقدمة الأسباب التى دفعتهم إلى ترك القضاء لعلماء الدين : أنهم مسلمون ، وأن سلاطينهم نصبوا أنفسهم حماة للإسلام ، وذادة عن أهله . فكان لابد لهم من أن يشجعوا رجال الإسلام ويبجلوهم ، ويستشيروهم ويسترشدوا برأيهم عند الحاجة إليه ، مقتدين بمن سلف من الملوك قبلهم . وفى ذلك كسب عظيم لجانب هذه الطبقة من أبناء البلاد ، وهى أكثر أبنائها ثقافة ، وأنبغها فها ، وأقواها حجة ، وأشدّها تأثيرا . ثم فى ذلك مافيه من إيهام العامة - إن حقا وإن باطلا - أن سلاطينهم وأمرأهم ، يغارون على دينهم ، ويحرصون على تنفيذ قوانينه وتعاليمه ، فيظفرون منهم بالإعجاب والطاعة .

وكان التعليم فى ذلك الحين نوعين :

الأول : مقصور على طائفة الممالك ، يساقون إليه درن استثناء ، ويربون على النمط الموضوع له ، فى أماكن خاصة بهم ، وقوام هذا النوع يسير من الكتابة والقراءة ، وآيات من القرآن الكريم ، وفروض الدين . وعناية كبرى بالرياضة البدنية من جرى وقفز وسباحة ورمى أطواق ، وغير ذلك . واهتمام بالتمرنات

العسكرية من ركوب الخيل ، والسكر بها والفر ، ورمى النشاب ، وجر الرماح ،
وسل السيوف ، إلى غير ذلك . وقد عقدنا لهذا النوع من التعليم فصلا مستقلا
فيما مر .

الثاني : مباح لمن يشاء من أبناء الشعب الآخرين في مصر والشام وسواهما من
بلاد المسلمين . لا يساق إليه أحد دون رغبته ومشيتته . وأماكن المساجد التي
كانت في ذلك الحين ، كالجوامع ، تدرس بها شتى المواد . وأهم ما كان يدرس بها
علوم الدين ومذاهبه الأربعة ، وعلوم اللغة ، وقليل من العلوم الأخرى . ومنفرد
له فصلا في الجزء الثاني من كتابنا هذا .

وقد نبغ كثير من أبناء البلاد ، الذين تتقوا بهذا النوع الثاني من التعليم ، في
الفقه ، والحديث رواية وشرحا ، والتفسير ، والنحو والكتابة ، وما شاكل ذلك من
علوم الدين وفنون اللغة العربية ، فاختر السلاطين من بينهم . ومن النابغين فيهم ،
من احتاجوا إليهم ، في مناصب القضاء والكتابة . وما إليهما .
ويمحس بنا - بهذه المناسبة - أن نشير إلى أمرين .

الأول . أن المتعلمين من أهل الدين واللغة ، كانت لهم عناية بالغة . بأن ينسبوا
إلى المذهب الديني الذي اختاروه ونبغوا فيه ، وكل منهم حريص على أن يضيف إلى
اسمه في النهاية كلمة . الشافعي ، أو الحنفي ، أو المالكي ، أو الحنبلي ، حتى أصبحت
نسبة كل منهم إلى مذهبه لصيقة باسمه لا تفارقه ، وصارت إحدى مميزاته .

الثاني ، أن القضاء لم يكن يطلق عليه لفظ « شرعي » إلا نادرا . لأنه لم يكن في
البلاد قضاء غير شرعي ، فلم تكن هناك حاجة إلى تمييزه غير أن القضاء كان يقال لهم
أحيانا « قضاء الشرع » ، لما لكلمة « الشرع » ، في بعض المواضع من تأثير ومعنى خاص .

وفي الحق كان القضاء « شرعيا » ، وفي أيدي قضاء الشرع . غير أنه كان
بجانبهم شخصان آخران يقضيان في المنازعات ، وهما السلطان ، وحاجب الحجاب
ويمحس بنا أن نشير بكلمة إلى كل منهما لأهميته القضائية .

السلطان وجلوسه للقضاء

السلطان ولى الأمر الشرعى فى البلاد . يقضى فيها باسمه ، ويستمد منه قضاء المملكة قوتهم القانونية ، التى بها يحكون بين الناس .

وكان من المستطاع أن يترك السلاطين أمر الفصل فى القضايا والخصومات ، لمن نصبوهم من رجال الشرع فى مناصب القضاء ، إلا فى القضايا العليا ذات الصبغة الهامة فلا مانع من أن ينظروا فيها نظراً آخرأ ، يفصلون به فيها نهائياً . وفى ذلك ما فيه من الثقة برجال القضاء وفيه أيضاً ما فيه من توزيع الاختصاص ، وعدم شغل السلطان بما يستطيع أحد رعاياه أن يشتغل به . ولكن سلاطين الممالك ، أرادوا أن يتشبهوا بالسلف الصالح ، وبقيادة الأمة فى بدء أمرها وحدثة عهدا بالإسلام وذلك بتفقد أحوال الرعية ، والنظر فى مطلبات الأمة ، ونشر العدل بين ربوعها (١) ليكون لهم من وراء ذلك ذكرى حسنة وصيت جميل .

فعل السلاطين ذلك ، على الرغم من اتساع الدولة ، وكثرة دواوينها ، وتشابك أمورها وتشعبها ، ووفرة موظفيها ، وقيام قضاتها . فعلموا ذلك على الرغم من الفارق البعيد بينهم وبين السلف الصالح ، فى فقه الإسلام والعلم بأصول أحكامه . ولهذا ، لم يحدوا بدا من اصطحاب القضاء أنفسهم معهم ، إذا ما جلسوا مجلس القضاء . ولهذا أيضاً ، لم يحدوا بدا من أن لا يواظبوا على هذه العادة الحميدة . فكان جلوسهم للقضاء بين الناس متقطعا حسب المشيئة والهوى . بل من السلاطين من هجر هذه العادة ، ولم يجعلها من تقاليدهم . ومنهم من أناب عنه نائب سلطنته لأداء هذه المهمة .

ومن جلس من السلاطين للقضاء : السلطان الظاهر بيبرس ، والأشرف خليل ابن قلاوون (٢) وأخوه الناصر محمد . ومن نواب السلطنة : الأمير عز الدين إيدمر

(١) راجع خطط القرطبي ج ٣ ص ٣٣٦ تحت عنوان « ذكر النظر فى الخاتم »

(٢) من سلوك القرطبي ج ١ ص ٥٠٣ ، ٧٧٢ - الخط ج ٣ ص ٣٣٣ ، ٣٣٨

الحلى^(١)، عن الظاهر بيبرس، والأمير سلال المنصورى عن الناصر بن قلاوون. فإذا ما استوى أحدهم على منصة القضاء، قدمت إليه الخصومات على اختلاف أنواعها، سواء أكانت جنائية أم مدنية، أو من قضايا الأحوال الشخصية، فيستشير فيها قضاة الشرع، ويحكم بما عليه عليه رأيه، بعد هذه الاستشارة، وهو لا يخرج عن الأخذ بها غالباً.

ومن الممتع أن نثبت هنا وصف جلوس السلطان للقضاء في دار العدل. وكان للسلطان فيها منصة. قال السيوطي^(٢):

قال ابن فضل الله: «إذا جلس السلطان للمظالم، جلس عن يمينه قضاة القضاء من المذاهب الأربعة ثم الوكيل عن يمين المال، ثم الناظر في الحسبة، ويجلس عن يساره كاتب السر وقدامه ناظر الجيش، وجماعة من الموقعين، تسكلة حلقة دائرة. وإن كان ثم وزير من أرباب الأقاليم، كان بينه وبين كاتب السر. وإن كان الوزير من أرباب السيوف، كان واقفاً على بعد مع بقية أرباب الوظائف، ويقف من وراء السلطان، صفان عن يمينه ويساره من السلاحدارية والجدارية والخاصكية. ويجلس على بعد تقديره خمسة عشر ذراعاً، من يمينه ويساره، ذوو السن من أكابر أمراء المؤمنين، وهم أمراء المشورة. ويلهم من درنهم من أكابر الأمراء، وأرباب الوظائف وقوفاً، ببقية الأمراء وقوف من وراء أمراء المشورة، ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان، الحجاب والداوآدارية، لإحضار قصص الناس، وإحضار المساكين، وتقرأ عليه، فما احتاج إلى مراجعة القضاة راجعهم فيه، وما كان متعلقاً بالعسكر تحدث مع ناظر الخاص وكاتب السر فيه.»

(١) السلوك ج ١ ص ٥٥٠

(٢) عن حسن المحاضرة ج ٢ ص ٩٢ عنوان «ذكر جلوس السلطان في دار العدل للمظالم» وقد ورد نفس النص بيبرس في التصيل في خطط القرى ج ٣ ص ٣٣٩ تحت عنوان «ذكر خدمة الأيوان المعروف بدار العدل». وورد كذلك في صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٤ تحت عنوان «بيتته في جلوسه بدار العدل لخلاص المظالم».

(م) «مألفه»

قال : « وهذا المجلس يكون يوم الاثنين ويوم الخميس ، إلا أن القضاة وكتاب
السر لا يحضرون يوم الخميس » .

وقد حجب القلقشندى في صبح الأعشى على ذلك بما يفهم منه أن تعديلا طفيفا
دخل على هذا النظام ، وأهم ما فيه جلوس القاضي الشافعي والمالكي عن يمين
السلطان ، والحنفي والحنبل عن يساره (١)

وبما يذكر أن دار العدل بناها الظاهر بيبرس وجلس فيها للفصل في الشكايات
عام ٦٦٢ هـ ، وتعرف بدار العدل القديمة ، ثم هجرت حينئذ لما بنى المنصور قلاوون
بدلا منها « الإيوان » ، ثم هدمت جملة في عهد ابنه الناصر محمد (٢) . وحل محلها
« الإيوان » ، وجملة الناصر المذكور وجلس فيه للقضاء والنظر في المظالم يومى الاثنين
والخميس . واقتدى به أبناؤه من بعده . حتى ملك برقوق . فاستبدل به الاصطبل
السلطاني يجلس فيه للحكم بين الناس يومى الأحد والأربعاء . ثم استبدل بهما
السبت والثلاثاء وأضاف إليهما يوم الجمعة .

هذا وقد كان للسلطان وحده الحق في مصادرة أملاك المتهمين كبارا وصغارا
دون اللجوء إلى حكم قضائى . فإذا ما اتهم لديه إنسان ما ، من الأمراء أو المباشرين
أو غيرهم ، أمر فوراً - إذا أراد - بالقبض عليه والإحاطة بماله من مال وعقار
ونحوهما ، وضمه إلى الخزانة الشريفة ... وهذه الحالة أمثلة كثيرة لا عدد لها براها
القارىء فيما مر من سير رجال العصر .

وكان السلطان كذلك يتدخل في أحكام قضاة الشرع أنفسهم ، ويعنفهم أحيانا
إذا لم يقضوا بحكم يرضيه - ومن الأمثلة على ذلك ، ما رواه ابن راس (٣) في سياق
حديثه عن السلطان النورى ، قال :

(١) صبح الأعمى ج ٤ ص ٤٥ بالتوان السابق .

(٢) خطط القرزى ج ٣ ص ٣٣٣ تحت عنوان « دار العدل القديمة » ص ٣٣٥ تحت عنوان

« الإيوان » ص ٣٣٨ ق نهاية « ذكر النظر في المظالم » .

(٣) البدايع ج ٤ حوادث سفر سنة ٩١٧ هـ .

« في صفر - أي عام ٩١٧ هـ - صعد الخليفة إلى القلعة ليخبره بالشهر ، وكذلك القضاة الأربعة . فحصل في ذلك اليوم للقاضي شمس الدين الحلبي غاية المتع من السلطان ، وكاد يبطشه ، وسبب ذلك أنه حكم في بعض الوقائع بما اعترض عليه في ذلك ، فتغير خاطر السلطان عليه ، ولم يقبل له عنده ، وحط على قاضي القضاة الشافعي كمال الدين بن الطويل بسببه ، وكان مجلسا مهولا . »

ويبدو لنا أن السلطان كانت تقدم إليه القصص من جميع الأنواع ، حتى التافه منها ، فكثرت عددها وأرهقتها كثرتها ، حتى اضطر إلى تحويلها إلى المختصين . ويدلنا على ذلك ما رواه ابن إياس ، قال ما نصه (١) :

« وفيه - أي في شهر ربيع الأول عام ٨٧٦ هـ - نودي من قبل السلطان بأن لا يشكو أحد أحدًا للسلطان إلا بعد أن يرفع أمره لأحد من الحكام ، فإذا لم ينصفه يقف بعد ذلك للسلطان . وكان قد كثرت شكاوى الناس بين يدي السلطان حتى إن امرأة شككت زوجها لأجل أنه وطئ جارية في ملكه ، فأطلقت زوجته الغيرة ، وشكته للسلطان بقصة . »

حاجب الحجاب

قد أشرنا من قبل إلى شيء من اختصاص هذا الحاجب (٢) . ويعرف منصبه بالحجوية ، ويعرف هو بحاجب الحجاب ، أو الحاجب الأكبر ، وذلك لأن له أعوانا يساعده في أداء عمله . ويعتبر منصبه من أهم مناصب المملكة ، وقد لا يسمو عليه - من الناحية العملية - غير نائب السلطنة .

وقد أنشئ هذا المنصب ، ليشغله أحد أمراء الدولة العظماء . وكان عمله في بادئ أمره الفصل في الخصومات المدنية ، وفي جميع ضروب النزاع التي تقع بين

(١) البدائع ج ٢ ص ١٢٩ في سياق ترجمة فابليي ، وفي سنة ٨٧٦ هـ .

(٢) راجع ما ذكرناه عنه في هذا الكتاب - وراجع مقدمة ابن خلدون ص ١٧٠ في نهاية فصل في مراتب الملك والسلطان وإلقابهما .

الجنود المالك لحسب ، فينصف ضعيفهم من قويمهم ، ويضرب على يد ظالمهم لظلمهم ، ولم يتعد اختصاصه هذه الدائرة .

غير أن أحكامه لم تكن دائماً مقتبسة من أحكام الدين الإسلامى ، بل كان يمزج فيها بين رأيه الشخصى وبعض القوانين السابقة المرعية عند أمم أخرى غير إسلامية مثل التتار القدماء .

وكان جنكيز خان القائم بدولة التتر فى بلاد الشرق - على ما رواه المقرئى (١) - قد قرر قواعد وعقوبات أثبتها فى كتاب سماه « ياسه » ، ونقشه فى صفائح من الفولاذ وجعله شريعة لقومه . فالنمونه بعده . وكان جنكيز خان لا يتدين بشئ من أديان أهل الأرض . فصار « ياسه » حكماً يتأق فى أعقاب لا يخرجون عن شئ من حكمه .

ومن جملة ما شرعه جنكيز خان فى « ياسه » - على رواه المقرئى كذلك - أن من ذنب قتل ، ولم يفرق بين المحسن . وغير المحسن . ومن لاط قتل : ومن تعد الكذب أو سحر أو تجسس على أحد ، أو دخل بين اثنين وهما يتخاصمان وأعان أحدهما على الآخر ، قتل . ومن بال فى الماء أو على الرماد قتل . ومن أهلى بضاعة خسر فيها ، فإنه يقتل بعد الثالثة . ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنهم قتل . ومن وجد عبداً هارباً أو أسيراً قد هرب ولم يرده على من كان فى يده قتل . وأن الحيوان تكشف قوائمه ويشق بطنه ويمرس قلبه إلى أن يموت ، ثم يؤكل لحمه . وأن من ذبح حيواناً كذبيحة المسلمين ذبح . . . إلى غير ذلك من الأحكام .

وقد حرف أهل مصر كلمة « ياسه » إلى « سياسة » ، وأدخلوا عليها الألف واللام فصارت « السياسة » . ثم قال المقرئى عن ملوك مصر وأمرائهم وعساكرها فى دولة المالك ما نصه :

« وكانوا إنما ربوا بدار الإسلام ، ولقنوا القرآن وعرفوا أحكام الملة

(١) راجع المخطوط ج ٣ من ٣٥٧ تحت عنوان « ذكر أحكام السياسة » .

المحمدية تجمعوا بين الحق والباطل ، وضموا الجيد إلى الرديء. وفوضوا لقاضي القضاة ، كل ما يتعلق بالأمور الدينية ، من الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وناطوا به أمر الأوقاف والآيتام ، وجعلوا إليه النظر في الآتية الشرعية ، كتنادى الزوجين وأرباب الديون ونحو ذلك .

واحتاجوا في ذات أنفسهم إلى الرجوع لعادات جنكيز خان ، والاقتداء بحكم الياسة ، فلذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه من عوائدهم ، والأخذ على يد قوهم ؛ وإنصاف الضعيف منه على مقتضى ما في « الياسة » .

وجعلوا إليه مع ذلك ، النظر في قضايا الدواوين السلطانية ، عند الاختلاف في أمور الإقطاعات ، لينفذ ما استقرت عليه أوضاع الديوان وقواعد الحساب . وكانت من أجل القواعد وأفضلها ، حتى تحكم القبط في الأموال وخراج الأراضي ، فشرعوا في الديوان ما لم يأذن به الله تعالى ، ليصير لهم في ذلك سبيلا إلى أكل مال الله تعالى بغير حقه .

وكان - مع ذلك - يحتاج الحاجب إلى مراجعة النائب أو السلطان في معظم الأمور . هذا وستر الحياء يومئذ مسدول وظل العدل صاف ، وجناب الشريعة محترم ، وناموس الحشمة مهاب ، فلا يكاد أحد أن يزيع عن الحق ، ولا يخرج عن قضية الحياء . إن لم يكن له وازع من دين ، كان له ناه من عقل . ثم قلص ظل العدل ، وسفرت أوجه الفجور ، وكشر الجور أنيابه وقلت المبالاة ، وذهب الحياء والحشمة من الناس ، حتى فعل من شاء ماشاء ، وتعدت - منذ عهد المنقلى كانت في سنة ست وثمانمائة - الحجاب ، وهتكوا الحرمه وتحكوا بالجور تحكما حتى معه نور الهدى ، وتسلبوا على الناس .

وكان أول حكم الحجاب - على ما رواه المقرئى أيضا - في جمادى الأولى سنة ٧٤٦ هـ ، في عهد الملك الكامل شعبان بن الناصر بن قلاوون . وأول الحجاب هو الأمير سيف الدين بيغوا . وجلس بين يديه موقعان من موقى السلطان لكتابة الولاة ونحوهم بالأعمال . وأقيم الأمير رسلان بصل ، حاجبا معه يعاونه .

وكان أول قضاء الحجاب بما في « السياسة » من الأحكام عام ٨٧٥٣ . في عهد الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون . إذ رسم للأمير سيف الدين جرجي الحاجب ، أن يتحدث في أبواب الديوان ويفصل بينهم وبين غرماهم ، وكان هذا من اختصاص قضاء الشرع .

وكان سبب ذلك ، أن تجارا من العجم شكوا إلى السلطان بدار العدل - إذ ذاك - أنهم ما خرجوا من بلادهم إلا لكثرة ما ظلمهم التتار ، وجاروا عليهم ، وأن التجار بالقاهرة اشترؤا منهم هدة بضائع ، وأكلوا أثمانها . فأنبتوا أمام القاضي الحنفى إحصارهم وأودعوا سجنه . وقد أفلس بعضهم ولم يستفيدوا هم من وراء سجنهم شيئا . فرسم السلطان الصالح للأمير سيف الدين الحاجب بأن يخرج هؤلاء الفرما من السجن ، وأن يعمل على استخلاص الديون منهم ، وأنكر السلطان على قاضى القضاة جمال الدين عبد الله التركاى الحنفى ما عمله ، ومنع من التحدث في أمر التجار والمدينين .

فأخرج الحاجب فرما التجار من السجن ، وعاقبهم ، حتى أخذ التجار أموالهم منهم شيئا بعد شيء . قال المفريزى : « وتمكن الحجاب حينئذ من التحكم على الناس بما شاءوا » .

وبعد نقل اختصاص النظر في الديون ، والفصل فيها بغير طريق الشرع ، تعديا على الشرع . ونزعا لاختصاص القاضى الشرعى ، وتضييقا لنفوذه ، وإضافة للفصل بين الناس في بعض منازعاتهم إلى الحجاب ، بعد أن كان عمله « قصورا على الجنود . وقد تدخل الحجاب من بعد في كثير من اختصاص قضاء الشرع . وصار للحجاب أعوان . وكان له من قوة نشأته وعظمته رتبته ، وقرب مكانته من السلطان معين على توسيع دائرة نفوذه ، واستشراء شره ، وضخامة اختصاصه . ومسعف على جمع المال والثراء على حساب المتنازعين .

هذا إلى أن كثيرا ما كان الأمراء الآخرون ، يتدخلون في القضاء كأنما كانوا - إلى جوار أنهم سلطة تنفيذية - سلطة قضائية كذلك ، تفصل في المنازعات ،

ولم في ذلك أعوان ونقباء . وما يدلنا على ذلك ، ما رواه ابن عباس في سياق تاريخ النورى قال ما نصه :

ولما اشتد أمر الطاعون وفسا ، أمر - أى السلطان - الأمراء بأن يطلوا النقباء من أبوابهم ، وألا أحد يشكو إلا من طريق الشرع الشريف ، وقد فعل ذلك قري إلى الله وزلنى ، حتى يدرأ البلاء عن البلاد .

ويبدو لنا أيضا أن بعض علماء الشرع ، عن أهلهم كفاءتهم العلمية للفتوى ، كانوا يتصدون للفصل في المنازعات بين الناس ، وبين من يلجأ إليهم للفصل في منازعاته ، وشييه بهذا في عصرنا الحديث ، المجالس العرفية التى يفصل فيها بعض ذوى رأى من العلماء والأعيان ، ويسرى حكمهم على المتخاصمين . ويبدو لنا كذلك أن من بين قضاء الشرع من كان يتناول أجراً على قضاءه ، ومنهم من كان يقضى بالمجان . ويفهم هذا من عبارات كثيرة ترد على ألسنة مؤرخى العصر ، ومن ذلك ما ذكره السخاوى فى الضوء اللامع - ج ١ ص ٢٠ - فى ترجمة عز الدين الحنبلى وهو أحمد بن ابراهيم بن نصر الله . إذ قال فى سياقها ما نصه : « وصار يقضى فيما يقصد به فى بيته مجانا . ثم تركه جملة ، أى ترك القضاء . »

القضاء الشرعى

اتبعت مصر فى عصر المماليك . كثيرا من النظم الإدارية التى كانت متبعة فى عصر الأيوبيين ، ومن بينها النظام القضائى . وقد أسس الأيوبيون دولتهم على اقتاض الدولة الفاطمية الشيعية ، وكانوا سنين يتبعون المذهب الشافعى ؛ فعملوا على نشره فى البلاد ، وقضوا به فى الأحكام ، وجهدوا فى محو آثار المذهب الشيعى .

ويعتبر رجال الشافعية البلاد المصرية من مناطق نفوذهم ، فعودة قضائهم إليهم فى عهد الأيوبيين إعطاء الأمور لأربابها ، ورجوع للمياه إلى مجاريها .

وكان القضاء - إذ ذاك - مقسما إلى دائرتين ، الأولى قضاء القاهرة والوجه البحرى ، والثانية قضاء مصر - القسطنطينية - والوجه القبلى . ويعين فى كل دائرة

قاض واحد . وقد تجمع الدأرتان لقاض واحد (١) .

وقد جرى المالك على هذا النظام في أول عهدهم بالدولة ، فكان بالبلاد حيناً قاضيان ، وحيناً قاض واحد ، وهو نادر . وعن اجتماع له قضاء مصر كله بدر الدين السنجارى في عهد المعز بن أيك ، وتاج الدين بن بنت الأعز في عهد الظاهر بيبرس . ثم تعدد القضاة كما سيأتى .

والقاضى فى دائرته هو المتصرف الوحيد فى شئون القضاء ، وتعرض عليه جميع القضايا على اختلاف أنواعها سواء أكانت جنائية أم مدنية أو زوجية . ويدخل فى اختصاصه النظر فى عقود الزواج والبيع والإجارة والوصية ونظر الأرقاق ورعاية بين المال ، والعناية بشئون الصلاة والزكاة والصوم ، وما إلى ذلك من شئون الدين (٢) . وهو يقضى فى كل أولئك حسبما يرتبه فقهه وعلمه وذكاؤه .

ويبدو لنا أن القاضى - حينذاك وقبل عام ٦٦٣ هـ - كان إليه الفصل فى جميع قضايا دائرته مما يدخل فى اختصاصه ، وليس له من الأعوان إلا من دعت إليهم الضرورة ، بغير تدخل من أحد هؤلاء الأعوان فى شئون القضاء . ومع ذلك كان القاضى يلقب بقاضى القضاء . ولعله 'نظر فى ذلك إلى نوابه .

يفهم ذلك من عبارات المؤرخين ونعوتهم للقضاة قبل عام ٦٦٣ هـ ، فتلا قال المقرئى فى سلوكه - ج ١ ص ٤٤٨ - مانعه د فى يوم الثلاثاء حاشى جمادى الأولى فوفى قضاء القضاء بديار مصر للقاضى تاج الدين عبد الوهاب بن القاضى الأعز خلف ، المعروف بابن بنت الأعز . وقال فى ص ٤٧٢ د وفى ثالث رمضان عزل السلطان قاضى القضاء برهان الدين السنجارى ، وذلك كان عام ٦٦٠ هـ .

(١) فى ابن لياس ج ١ ص ١٠٣ أنه كان فى الدول الخمسة قاض فرد كبير شافى - وفى صبح الأمل ج ٤ ص ٣٥ أن الأمر فى الأول كان مقصوراً على قاض واحد بالديار المصرية من أى مذهب كان .
(٢) راجع مسبق فى حجب الحجاب ، والمخطط ج ٢ ص ٣٥٧ تحت عنوان ذكر أحكام السياسة وسبح الأمل ج ٤ ص ٣٤ ،

غير أنه لما ولي تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز ، قضاء الديار المصرية جميعها ، وكان متشدداً في أحكامه - ومن شأن هذا التشدد أن يوجه الأحكام وجهة خاصة ، أو أن يؤجل وقت الفصل فيها أو يوغر صدر البعض عن لا يستريح إلى الفصل بمذهب الشافعي ، أو نحو ذلك - رأى السلطان الظاهر بيبرس في عام ٦٦٠ هـ أن يستنوب القاضي تاج الدين بن بنت الأعز عنه ثلاثة قضاة ، واحداً من كل مذهب . وقد قال المقرئ في ذلك ما يلي بالنص ^(١) .

« وفي ثالث شهر رمضان - أي عام ٦٦٠ هـ - عزول السلطان قاضي القضاة برهان الدين السنجاري ، عن قضاء مصر والوجه القبلي ، وأعاد قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز . فصار يده قضاء القضاة بديار مصر كلها . وكان متشدداً في أحكامه ، فرسم له في ذي القعدة أن يستنوب عنه مدرسي المدرسة الصالحية من الحنفية والمالكية والحنابلة ، فاستنابهم في الحكم عنه ، ولم يعرف ذلك بمصر قبل هذا الوقت . فجلس القاضي صدر الدين سليمان الحنفي ، والقاضي شرف الدين السبكي المالكي ، والقاضي شمس الدين محمد بن إبراهيم الحنبلي ، في أول ذي القعدة ، وحكموا بين الناس بمذاهبهم » .

ويفهم من ذلك أن قاضي القضاة تاج الدين ، استناب ثلاثة قضاة من المذاهب الثلاثة الأخرى غير مذهبه . ولم يستنوب شافعيًا . وأن كلا منهم يسمى « نائب حكم » . غير أن المقرئ عاد في موضع آخر ، فقال مانصه ^(٢) :

« وفيها - أي في سنة ٦٦٠ هـ - أمر بتنصيب أربعة قضاة نواباً لقاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز ، فاستناب حنفياً ومالكيًا وشافعيًا . ولم يجد من يستنوبه من الحنابلة ، فولى عاقداً حنبلياً » .

ويفهم من ذلك أن قاضي القضاة استناب أربعة لا ثلاثة ، وأن بينهم قاضين شافعيًا ، وأن رابعهم الحنبلي كان عاقداً لا نائباً ، والعائد أقل مرتبة من القاضي ،

(١) السلوك ج ١ ص ٤٧٢ .

(٢) السلوك ج ١ ص ٥٠١ .

وهو الذى يتولى تحرير العقود ، كالبيع والآنسكة .

وذكر السبكى فى طبقاته ، ونقل عنه السيوطى فى حسن المحاضرة ^(١) ما يوافق المفريزى فى نفيه الأول ، حيث قال :

« سئل تاج الدين - أى ابن بنت الأعز - فى أمر ، فامتنع من الدخول فيه .
ف قيل له : مر نائبك الحنفى ، وكان القاضى وهو الشافى ، يستنيب من شاء من
المذاهب الثلاثة فامتنع من ذلك أيضا . »

ومهما يكن من شيء ، فقد أناب قاضى القضاة عنه نوابا يحكون بمذاهبهم ،
وكان ذلك منذ عام ٦٦٠ هـ . فكان هذا الحادث تمهيدا للحادث الأكبر التالى وهو
تعدد القضاة .

ولعل بعض فقهاء المذاهب الثلاثة - عدا الشافى - كان بهم تطلع إلى القضاء
ومناصبه ، وبنفسهم شيء من استئثار فقهاء الشافعية بها . ومن لطيف ما نسوقه بهذه
المناسبة ، ما رواه المفريزى فى مطلع عام ٦٦٢ هـ . حيث قال ما نفيه ^(٢) .

« استفتح السلطان هذه السنة بالجلوس فى دار العدل ، فأحضرت إليه ورقة
مختومة مع خادم أسود ، تتضمن مرافعة ^(٣) فى شمس الدين شيخ الحنابلة ، أنه
يغض السلطان ويتمنى زوال دولته ، لأنه ما جعل للحنابلة نصيبا فى المدرسة التى
أنشأها بجمارقة الملك الصالح ، ولأولى حنبليا قاضيا . وذكر أشياء فادحة فيه ،
فبعث السلطان بها إلى الشيخ ، فأقسم أنه ما جرى منه شيء ، وإنما هذا الخادم
طرده من خدمته . فقال له السلطان : « ولو شتمتني أنت فى حل . » وأمر
فضرب الخادم مائة عصا . »

هذا وقد لبث نظام النواب الثلاثة أو الأربعة مرعبا ، حتى كانت سنة ٦٦٣ هـ ،
فتمدد فيها القضاة .

(١) الطبقات ج ٥ ص ١٣٤ حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١١ .

(٢) السلوك ج ١ ص ٣ ، والمطلع ج ٣ ص ٣٣٣ تحت عنوان « دار العدل القديمة » .

(٣) المرافعة الفكوى وإقامة الدعوى .

تعدد القضاة

كان نظام التواب تمهيدا واضحاً لتعدد القضاة ، وقد أدى إلى الحادّين معا ، ما نسب إلى قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز من شدة في أحكامه ، ومن امتناعه ، حيناً عن الفصل إلا بمذهبه ، وحيناً عن أن يأمر أحد نوابه للفصل في بعض المسائل بمذهبه . وكثير من الناس من يغص بمثل موقف هذا القاضى المتشدد النزبه ، وتقف شدته ونزاهته حيناً عقبة في سبيل تنفيذ بعض الرغبات ، وتليّيتها . ثم لعل هذه الرغبات تجد ملجأ لها ومنغذاً ومتسعا في المذاهب الأخرى ، غير الشافعى . ثم إن هذا القاضى كان لا يقبل شهادة كبار الأمراء ^(١) . ولعله كان في ريبة من أمر عتقهم ،

ولقد حق بعض الأمراء فعلاً ، على القاضى المذكور ، فوسوسوا إلى السلطان الظاهر بيبوس أن يعدد القضاة ، وأن يقيم من كل مذهب قاضياً ، يحكم بين الناس بأحكام مذهبه .

ويروى في هذا المقام ، القصة التالية . وهى من الأسباب المباشرة التى أدت إلى هذا التعدد ^(٢) ، قال المقرئى فى السلوك :

« كان الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى ، يكره قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز . ويضع من قدره ، ويحط عليه عند السلطان بسبب تشدده فى الأحكام وتوقفه فى القضايا التى لا توافق مذهبه . فاتفق جلوس السلطان بدار العدل فى يوم الاثنين ثانى عشر ذى الحجة - أى عام ٦٦٣ هـ - فرفع إليه بنات الملك الناصر قصة ، فيها أن ورثة الناصر اشتروا دار قاضى القضاة

(١) يفهم هذا من الرواية التالية ، وما رواه السيوطى أيضاً فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٢ . والسبكى فى الطبقات ج ٥ ص ١٣٥ :

(٢) رواها المقرئى فى سلوكه ج ١ ص ٣٩ - وذكرها القفشندى فى صبح الأمل ج ٤ ص ٣٤ ، ناقلاً عن نهاية الأرب للنورى .

بدر الدين السنجارى فى حياته ، فلما مات ذكر ورثته أنها وقف ، فعندما قرئت ، أخذ الأمير أيدغى يحيط على الفقهاء وينقصهم ، فقال السلطان للقاضى تاج الدين : « يا قاضى ! هكذا تكون القضاة ؟ » . فقال تاج الدين : « يا مولانا ! كل شاة معلقة بعقوبها » . قال : « فكيف الحال فى هذا ؟ » قال : « إذا ثبت الوقف يعاد الثمن من الورثة » . فقال السلطان : فإذا لم يكن مع الورثة شىء ؟ » .

قال القاضى : « يرجع الوقف إلى أصله ، ولا يستعاد الثمن » . فنضب السلطان من ذلك .

وماتم الكلام ، حتى تقدم رسول أمير المدينة النبوية وقال : « يا مولانا السلطان ! سألت هذا القاضى أن يسلم إلى مبلغ ربيع الوقف الذى تحت يده ، لينفقته صاحب المدينة فى فقراء أهلها ، فلم يفعل » . فقال السلطان للقاضى عما قاله ، فقال : « نعم » . قال السلطان : « أنا أمرته بذلك ، فكيف رددت أمرى ؟ » . قال : « يا مولانا ! هذا المال أنا متسلمه ، وهذا الرجل لا أعرفه . ولا يمكننى أن أسلمه لمن لا أعرفه . ولا يتسلمه إلا من أعرف أنه موثوق بدينه وأمانته . فإن كان السلطان يتسلمه منى أحضرته إليه » . فقال السلطان : « تنزعه من عنقك وتجعله فى عنقى ؟ » قال « نعم » . قال السلطان : « لا تدفعه إلا لمن نختاره » .

ثم تقدم بعض الأمراء وقال : شهدت عند القاضى فلم تسمع شهادتى فى ثبوت الملك وصحته ، فقال السلطان القاضى عن ذلك فقال : « ما شهد أحد عندى حتى أثبتته » . فقال الأمير : « إذا لم تسمع قولى فمن تريد ؟ » . قال السلطان : « لم لاسمعت قوله ؟ » فقال : « لاجابة فى ذكر ذلك » .

فقال الأمير أيدغى : « يا قاضى ! مذهب الشافعى لك ، ونولى من كل مذهب قاضيا » . فصنع السلطان لقول أيدغى ، وانفض المجلس .

« إلى أن كان يوم الاثنين تاسع عشره » ، ولى السلطان القاضى صدر الدين سليمان ابن أبى العز بن وهيب الأذرى الحنفى مدرس المدرسة الصالحية . والقاضى

شرف الدين عمر بن عبدالله بن صالح بن عيسى بن عبد الملك بن موسى . السبكي المالكي . والقاضي شمس الدين محمد بن إبراهيم الحنبلي ، ليكونوا قضاة القضاة بديار مصر . وجعل السلطان لهم أن يولوا في سائر الأعمال المصرية ، مضافا لقاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعر . وأبقى على ابن بنت الأعر النظر في مال الأيتام والمحاكمات المختصة بيوت المال . وكتب لكل منهم تقليدا ، وخلع عليه . فصار بديار مصر قضاة القضاة من حيث أدب أربعة ، يحكم كل منهم بمذهبه . ويستنبط من هذا النص جملة أمور :

الأول : أن القضاة تعدد في عصر الظاهر بيبرس ، وصار بمصر أربعة قضاة ، واحد من كل مذهب ، يحكم بأحكام مذهبه . غير أنه لما رواه السيوطي في حسن المحاضرة ^(١) يفهم أن القضاة تعدد مرة أخرى قبل عصر بيبرس . وقد قال ما نصه :

« قال ابن ميسر في تاريخ مصر : « في سنة خمسة وعشرين وخمسمائة ، رتب أبو أحمد بن الأنفل في الحكم أربعة قضاة ، يحكم كل قاض بمذهبه ، ويورث بمذهبه . فكان قاضي الشافعية سلطان بن رشا ، وقاضي المالكية أبا محمد عبد المولى ابن اللبني ، وقاضي الإسماعيلية أبا الفضل بن الأزرق ، وقاضي الإمامية ابن أبي كامل ، ولم يسمع بمثل هذا . وقال ابن ميسر : « وقد تجد في عصرنا هذا الذي نحن فيه أربع قضاة على الأربع مذاهب » .

هذا وعلى الرغم من فرض نظام التعدد ، ومن أنه صار لكل مذهب قاضي قضاة في البلاد ، ينبغ عنه في الأحكام ، ورد في بعض النصوص ما يشعر بأن السلطان قد يعين قاضي قضاة شافعية للقاهرة والوجه البحري ، وقاضي قضاة شافعية آخر لمصر والوجه القبلي في وقت واحد ، على نمط ما كان متبعاً في أول العصر إلى جانب قضاة القضاة الثلاثة الآخرين . وفي هذه الحالة قد يكون قاضي قضاة

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١١ باب ذكر قضاة مصر :

القاهرة والوجه البحرى مقدماً فى مجلس السلطان وفى الجلوس بدار العدل ،
على زميله .

ومن تلك النصوص ما رواه المقرئى فى سلوكه (١) حيث قال ما ملنصه فى
مطلع حوادث سنة ٦٨٦ هـ : « فى يوم الأحد نصف المحرم استقر برهان الدين
خضر السنجارى فى قضاء القاهرة والوجه البحرى عوضاً عن قاضى القضاء
شهاب الدين محمد بن أحمد الخورق . . فنزل السنجارى من القلعة ، وجلس للحكم فى
المدرسة المنصورية بين القصرين ، ورسم له أن يجلس فى دار العدل فوق قاضى
القضاء تقي الدين بن بنت الأزهر ، فشق ذلك على ابن بنت الأزهر ، وسعى أن يعنى
من حضور دار العدل . فلم يشعر إلا وقد مات البرهان السنجارى فجأة . .
فاستقر ابن بنت الأزهر فى قضاء القاهرة وجمع له بين قضاء البلدين . »

الثانى : أن نظام التعدد بدأ يوم الاثنين ١٩ من ذى الحجة عام ٦٦٣ هـ ،
ويوافق هذه الرواية فى تحديد العام الفلفشندى فى صبح الأعشى د ج ٤ ص ٣٥ .
والسيوطى فى حسن المحاضرة د ج ٢ ص ١١٣ ، وابن الوردى فى تمة المختصر .
ودوى ابن إياس د ج ١ ص ١٠٣ حوادث عام ٦٦٠ هـ ، أن هذا النظام كان فى
أواخر عام ٦٦٠ هـ .

الثالث : أنه - على الرغم من التعدد - ظل قاضى قضاء الشافعية ممتازاً على سائر
زملائه ، وكان يقدم عليهم فى مناسبات كثيرة كالمبايعات والخطابة فى الاستسقاء ،
وبقى له النظر فى مال الأيتام والمحاکات المختصة ببيت المال . وقد روى السبكى فى
طبقاته بهذا الصدد مانصه ، قال (٢) : « وأما الظاهر فقلد الشافعى يوم ولاية السلطنة
ثم لما ضم القضاء إلى الشافعية استثنى للشافعية الأوقاف وبيت المال والنواب وقضاء
البر والأيتام ، وجعلهم الأرغفين . » وهذه العبارة أوضح من عبارة المقرئى ،

(١) سلوك المقرئى ج ١ ص ٧٣٤

(٢) الطبقات ج ٥ ص ١٣٥ فى ترجمة تاج الدين بن بنت الأزهر . وهمل عنه السيوطى فى حسن
المحاضرة ج ٢ ص ١١٢

وثبت أن اختصاص القاضى الشافعى كان أوسع ، وكان يضم - فيما يضم - الحق في تعيين نواب الحكم دون بقية زملائه . وهذا الحق غير واضح في عبارة المقرئ بل فيها ما يوم تقيضه حيث قال : « وجعل السلطان لهم أن يولوا في سائر الأعمال المصرية مضافا لقاضى القضاة تاج الدين . . . » . فعبارة مع اضطرابها توحى بأن السلطان جعل للقضاة الثلاثة - مع الشافعى - الحق في تعيين نواب حكم ينوبون عنهم في الأحكام في سائر الأعمال المصرية .

وقد وضع القلقشنندى ^(١) هذا الحق وحده بما يناقض رواية السبكي بعض المناقضة حيث قال : « وجعل - أى السلطان - لهم الأربعة أن يولوا النواب بأعمال الديار المصرية ، وأفرد القاضى تاج الدين بالنظر في مال الأيتام والأوقاف وكتب له بذلك تقليد ^(٢) من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، أوله : « الحمد لله مجرد سيف الحق على من اعتدى » . ثم كل من الأربعة له التحدث فيما يقتضيه مذهبه بالقاهرة والفسطاط ، ونصب النواب وإجلاس الشهود . ويستقل الشافعى منهم بتولية النواب بنواحي الوجهين القبلى والبحرى لا يشاركه فيه غيره . . . ورضهم منه أن القضاة ينوبون عنهم نوابا في القاهرة والفسطاط فقط ، ويمتاز الشافعى بتعيين نواب له في الوجهين دونهم .

ومهما يكن من شئ ، فهذا كله يشعر بأن القاضى الشافعى احتفظ له بكثير من مكانته واختصاصه .

هذا ، وقد طبق هذا النظام في قضاء دمشق في عام ٦٦٤ هـ ، في شهر المحرم ، إذ أرسلت في الشهر المذكور تقاليد بتولية كل من شمس الدين عبد الله محمد بن حنظل قضاء الخنيفة ، وزين الدين أبى محمد عبد السلام بن على بن عمر الزواوى قضاء المالكية ، وشمس الدين عبد الرحمن ابن الشيخ أبى عمر محمد بن قدامة قضاء الحنابلة ، وكان بها شمس الدين أحمد بن خلكان قاضى قضاء ، وكان شافعيًا فلبث في قضاء الشافعية .

(١) صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٦

(٢) التقليد هو مكتوبة رسمية على لسان السلطان موجهة إلى القاضى بطلبه فيها .

وبما رواه المقرئى أنه لما وردت التقاليد إلى دمشق لم يقبل المالكي ولا الحنبلي،
وقيل الحنفي . فورد مرسوم السلطان بإلزامهما بالقبول أو أخذ ما بأيديهما من
الوظائف إن لم يقبلا . فأجابا . . . ثم أصبح المالكي وعزل نفسه عن القضاء
والوظائف ؛ فورد المرسوم بإلزامه ، فأجاب . . . وامتنع هو والحنبلي من تناول
جامكية على القضاء .

ويبدو أن هذا الأخذ والرد استغرق زمنا . إذ ذكر المقرئى أن استقلالهم
بالقضاء كان في ٦ جمادى الأولى^(١) .

محاسن التعدد ومساوئه

هكذا تعددت القضاء في مصر ودمشق ، وأصبح لأصحاب المظالم والقصاص
الحق في عرضها على أى القضاء يختارون ، ويتحاكون بذلك إلى المذهب الذى
يرتضون ، وفى ذلك من التوسعة وحرية التقاضى ما فيه ، ويمكن بهذا التعدد حل
مشاكل عدة كان يصعب حلها حلا مناسباً للظروف والملابسات ، لو اقتصر الأمر
على مذهب واحد ، وبدى أن أقل ما يقال فى مزايا هذا التعدد أنه أضاف مواد
قانونية جديدة متنوعة إلى مواد القانون المفضى به ، فأتسع بذلك مجال الفتوى
والرأى . وكل مذهب من هذه المذاهب الشرعية ، يستقى من معين واحد ، هو
كتاب الله وسنة نبيه ، جهد فيه أصحابه وجهدوا ، وقلبوا الرأى على وجوهه ،
حتى استقام لهم ، وبشوا تعاليمهم فى أماكن كثيرة ، فارتضى المسلمون منهم ذلك
وأجمعوا على أن مذاهبهم خير ما استنبط من الكتاب والسنة . فلا غشاضة على
الشافعية ، من أن يشركهم الحنفية أو غيرهم من فقهاء أهل السنة فى القضاء ، لأن
الغرض الأول من القانون تيسير القضاء وتحقيق العدالة ، ورعاية المصالح العامة
والخاصة بما يوافق الحق ، فإذا تعددت مواد ، بغير تناقض فى الباطن بينها ،
استطاع القاضى أن يجد خلاصاً من الأحكام ما يتمشى وملابسات القضية واستطاع

(١) السلوك ج ١ ص ٥٤٢ حوادث عام ٦٦٤ هـ

المتقاضيان ، أن يجدا متسعا لتحقيق ما يندادانه من عدالة . واستطاعت المصلحة أن تتحقق وترعى بوجه من الوجوه .

وقد حدث في سنة ١٦٩٥ هـ ، أى بعد أن تعدد القضاء بزمان وجيز ، أن أصلح الأمير عز الدين إيدمر الحلي ، الجامع الأزهر ، بعد أن استأذن السلطان الظاهر بيبرس في ذلك ، فلما تم إصلاحه ، اختلف الناس في صحة إقامة صلاة الجمعة فيه . - وكانت الجمعة وخطبتها قد أبطلتا فيه منذ عهد الأيوبيين - فعارض في إقامة الصلاة قاضى قضاء الشافعية ، وهو تاج الدين بن بنت الأزهر ، أيضا . وأفتى قاضى قضاء الحنفية بجواز إقامتها . فخل المشكل ، واجتمع في الجامع الأزهر خلق كثير يوم الجمعة ١٨ ربيع الآخر في السنة المذكورة ، وأقيمت بهم صلاة الجمعة ، ولم يكتبوا بإقامتها في جامع الحاكم . وظل الأمر كذلك حتى اليوم .

على أن هذا التعدد كانت له - إلى جانب ذلك - مساوى . لأنه يهدد الطريق أمام أرباب القضايا ، ليتحولوا لبلوغ مآربهم . يهجرون قاضيا إلى آخر ، ويستبدلون منهبا بسواه ، متى وجدوا في ذلك إربتهم . وقد ينجم من وراء هذا التحيل والاستبدال اتساع الخلاف بين المتخاصمين ، واضطرابهم بين جهات الاختصاص . ثم إن في تعدد القضاء في البلد الواحد مظهرا للتفريق بين بني ، وأداة له ، وتهينة لإثارة الفتن والخلاف بين الفقهاء .

ومهما يكن من شيء فقد سرى العمل بهذا النظام طول عصر المماليك حتى وحده الأتراك والعثمانيون بعد فتح مصر . واتخذوا المذهب الحنفي منعبا لم يقضون به ، وألغوا نظام القضاء الأربعة ، وجعلوا بالبلاد قاضيا واحدا من الأخفاف .

وقد ذكرنا أن قاضى قضاء الشافعية ، كان أرفع القضاء منزلة ، وأكثرهم اختصاصا . وهو المقدم على زملائه ، وأقربهم إلى السلطان مجلسا . هذا إلا إذا اختص السلطان قاضيا آخر بصحبته ومودته . كالأشرف الغورى فإنه اختص قاضى قضاء الحنفية سرى الدين عبد البر بن الشحنة بمودته ، فكان أكثر مجالسة له وأقرب إليه حديثا . ومثل هذا نادر .

شعور الشافعية نحو تعدد القضاة

كان يقضى في البلاد بمذهب الإمام الشافعى قبل عصر المماليك وبخاصة فى عصر الأيوبيين ، وتلك نتيجة طبيعية لانتشار هذا المذهب فيها أكثر من غيره ، ولاعتناق الأيوبيين له ، وهم سلاطين البلاد وأمرائها .

وقد أشرنا تليحاً من قبل ، إلى ما قد يكون فى نفوس فقهاء المذاهب الأخرى ، من قصر القضاء على الشافعية . ونشير هنا إلى شعور الشافعية أنفسهم نحو القضاء . وكأنما يقسم أئمة المذاهب بلاد المسلمين فيما بين مذاهبهم ، فكل مذهب يختص بمصر دون آخر . وكان نصيب المذهب الشافعى أن يختص بالديار المصرية ، وتوطنها ، واتخذها منطقة نفوذ ، لا يصح أن يجور عليه فيها مذهب آخر . وذلك لأن الإمام الشافعى نفسه قد اتخذ هذه البلاد موطناً ، وفيها نشر مذهبه الأخير ، وكثرت بها تلاميذه ، وتوالى فيها الأئمة المجتهدون على مذهبه . فكأنما صار من حق هذا المذهب أن يحتفظ لنفسه بهذه البلاد دون سواء من المذاهب الأخرى . وهى إذا عاشت معه فى ربوعها ، فإنما تعيش الجار لا صاحب الدار ..

هذا هو الشعور الذى ساد رجال الشافعية فى الديار المصرية ، ورأوا أن من حقهم الطبيعى أن يكونوا وحدهم قضاتها . فلما تعدد القضاء منذ عصر يبرس ، وأصبحت المذاهب الثلاثة الأخرى ورجالها ، شريكة للمذهب الشافعى ورجالها ، فيه ، وجد رجال الشافعية فى أنفسهم ، ولم يبد منهم هذا الوجد صراحة ، بل انحوا إليه تليحاً لا يجنى عن اللبيب .

ونسوق هنا بعض أقاربهم فى هذا الشأن ، ومنها يتضح لنا صدق ما ذكرناه . قال السبكي فى طبقاته (١) وتقل عنه السيوطى فى حسن المحاضرة - ما يلى :

« وفى أيامه - أى أيام القاضى تاج الدين بن بنت الأعز - جدد الملك الظاهر القضاء الثلاثة فى القاهرة ، ثم تبعها دمشق . وكان سبب ذلك أنه سئل تاج الدين فى أمر فامتنع من الدخول فيه . فقبل له : « مر نائبك الخفى » - وكان القاضى وهو

(١) طبقات الشافعية ج ٥ ص ١٣٤ فى سابق ترجمة تاج الدين بن بنت الأعز .

الشافعي ، يستتبع من شاء من المذاهب الثلاثة - فامتنع من ذلك أيضا . فجرى ما جرى ، وكان الأمر متمحفا للشافعية ، فلا يعرف أن غيرهم حكم في الديار المصرية ، منذولها أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقي ، في سنة ٥٢٨٤ ، إلى زمان الظاهر ، إلا أن يكون نائب يستتبعه بعض قضاء الشافعية ، في جزئية خاصة . وكذا دمشق ، لم يلها بعد أبي زرعة المشار إليه - فإنه ولها أيضا - ولم يلها بعده إلا شافعي ، غير التلاشاعوني التركي الذي ولها فويعات . وأراد أن يجدد في جامع بني أمية إماما حنفيا ، فأخلق أهل دمشق الجامع ، وعزل القاضي . واستمر جامع بني أمية في يد الشافعية ، كما كان في زمن الشافعي - رضى الله عنه - ولم يكن يل قضاء الشام والخطابة والإمامة بجامع بني أمية ، إلا من يكون على مذهب الأوزاعي ، إلى أن انتشر مذهب الشافعي ، فصار لا يلى ذلك إلا الشافعية . وقال أيضا :

« وقال أهل التجربة إن هذه الأقاليم المصرية والشامية والحجازية . متى كان اليد فيها لغير الشافعية خربت ومتى قدم سلطانها غير أصحاب الشافعي زالت دولته سريعا ، وكان هذا السر جعله الله في هذه البلاد ، كما جعله للمالك في بلاد المغرب ، ولأبي حنيفة فيما وراء النهر . » وقال أيضا :

« سمعت الشيخ الإمام - يعنى أباه تقي الدين السبكي - يقول - : « سمعت صدر الدين بن المرحل - رحمه الله - يقول : ما جلس على كرسي ملك مصر غير شافعي إلا وقتل سريعا . وهذا الأمر يظهر بالتجربة . فلا يعرف غير شافعي إلا قتل - رحمه الله - كان حنفيا ، ومكث يسيرا وقتل . وأما الظاهر فقلد الشافعي يوم ولايته السلطنة . » . وقال أيضا عن يبرس بمناسبة أنه عدد القضاء ما نصه :

« قيل إنه ندم ، وقال : « أندم على ثلاث : ضم غير الشافعية إليهم . والعبور بالجيوش إلى القرات ، وعمارة القصر الأبلق بدمشق » .

« وحكى أن الظاهر رأى الشافعي في النوم ، فلما ضم إلى مذهبه بقية المذاهب ، وهو يقول : « ديني مذهبي ؟ البلاد لي أولئك ؟ أنا قد عزلتك وعزلت ذريتك

إلى يوم القيامة . فلم يمكث إلا يسيرا ومات . ولم يمكث ولده السعيد إلا يسيرا ، وزالت دولته ، وذريته إلى الآن فقراء . وقال أيضا عن بييرس :

« وقد حكى أنه رأى بعد ذلك في النوم . فقيل : ما فعل الله بك ؟ قال : عذبني عذابا شديدا يجعل القضاء أربعة . وقيل : « فرقت كلمة المسلمين » .. إلى غير ذلك . ولسنا بحاجة إلى رد هذه الأوهام . فقد تمذهب الحكم في البلاد بمذهب أبي حنيفة منذ فتحها العثمانيون . وتمذهب حكامها بهذا المذهب ولم يصب أحد منهم بما وقع في حدى رجال الشافعية . ثم إننا لا نرى غضاصة على الشافعية أن يشركرم في القضاء رجال المذاهب الأخرى ، مادامت وجهة الجميع العدالة والمصلحة الحق لا المناصب والحكم .

تعيين القضاء وعزلهم

كان تعيين القضاء الأربعة متروكا بإرادة السلطان وحده . وقد يشير عليه أحد خاصته بتعيين قاض ، ولكن مرد الأمر إليه ، وهذا جميل غير أنه - مع الأسف - كانت مناصب القضاء - وكثير غيرها من المناصب - يسمى إليها طالبوها بالمال للوسطاء ، بل ومنه ما يدفع للوسيط يتوسط للطالب بين يدي السلطان ، ومنه ما يدفع للسلطان نفسه . فكان هذا بمثابة رشوة تقدم للوسيط وللسلطان معا ثمنا للوظيفة ، وكان هذا في جملة أسباب الفساد المنتشرة في ذلك العصر .

وقد يعجب المرء - وقد يشك - في أن يسمى قضاء الشرع إلى الوظيفة بالمال ، ولكن هذه هي الحقيقة ، غير أنه ليس معنى ذلك أن كل قاض كان يعين بعد أن يدفع مالا ورشوة ، بل إن من القضاء من عفا عن القضاء - كما سيأتي - ومنهم من سعى إلى الوظيفة بالمال ، بل وكان السلطان نفسه في بعض الأحيان يرسل إلى أحد العلماء يرأوده عن الوظيفة ويسأومه في قبولها لقاء مال يدفعه . والأثلة على الرشوة موفورة بارزة في تراجم بعض القضاء . وقد روى أن قاضى القضاء محي الدين عبد القادر بن النقيب ، سعى إلى منصبه عدة مرات ، وفي كل مرة كان يبذل آلافا من الدنانير ، ولا يكاد يتربع في دست منصبه شهورا حتى يعزل فيعادر مسعاه . وقد قال عنه ابن إرباس ما مؤداه : أنه كان في كل مرة يسعى جاهدا إلى العودة لهذا المنصب

على الرغم من وجود قاض يشغله ... فينزل المال الوفير للسلطان وللوسطاء حتى يصل إلى مبتغاه ، وبلغ مجموع مادفعه نحواً من ثلاثين ألف دينار .

ومثل ابن النقيب ، القاضي برهان الدين الديري . قيل : دفع في سبيل الوظيفة خمسة آلاف دينار . والقاضي بدر الدين المكيني ، قيل : سعى بنحو ثلاثة آلاف دينار^(١) .

وروى ابن إياس^(٢) قال : توفي القاضي شهاب الدين أحمد بن سعيد بن السومى المالكي المغربي قاضي قضاة المالكية بدمشق . وولى قضاء الإسكندرية . وكان من أهل العلم والفضل ، وجرت عليه أمور شتى ، وأذهب أموالاً جملة على وظيفة القضاء .

وقد استشرى أمر الرشوة على الوظائف - ومنها وظائف القضاء - بما يدفع للوسطاء أو للسلطان ، في أواخر دولة الجراكسة ، حتى إنه حدث في عهد الأشرف الغورى عام ٩١٩ هـ ، حادثة^(٣) رائعة لهم فيها أحد نواب الشافعية بالزنا ، واعترف بحريته ثم رجع عن اعترافه . وقد اختلف في الحكم فيها قضاة القضاة الأربعة ، مع السلطان ، وخالفوا رأيه ، فعزلهم جميعاً بعد مشادة عنيفة . وبقيت مصر بلا قضاة خمسة أيام عطلت فيها الأحكام ، ثم عين السلطان مكانهم أربعة قضاة آخرين دون أن يسعوا إلى المناصب بشيء من المال ، فعاد ابن إياس هذا التعيين قذا في بابه ، وقال إنه كان من المستطاع أن تظهر الخزائن السلطانية بنحو عشرة آلاف دينار من وراء هذا التعيين^(٤) .

وروى السيوطي^(٥) أن الأشرف قايتباى لم يزل قاضياً ولا شيئاً ، بمال قط

(١) انظر تراجم هؤلاء القضاة في الباب التالي وهو باب القضاء .

(٢) البدايع ج ٢ ص ١١٤ في حوادث ربيع الآخر عام ٨٧٤ هـ .

(٣) اقرأ تفصيل هذه الحادثة في باب قصص هذا العصر ونوادره في هذا القسم من الكتاب وفى غيره .

(٤) راجع ابن إياس في ج ٤ حوادث عام ٩١٩ هـ شهر شوال وذى القعدة .

(٥) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٤٢ عند الكلام عن المستجد بالله العباسي مستطرداً إلى ذكر الأشرف قايتباى .

ويشعرنا هذا بأن التعيين بالمال كأنما كان قاعدة . ثم شذ عنها قايتباي .

غير أن المال الذي يسمى به لم يكن محدودا ، بل أمره موكول إلى همة الطالب . . . ثم إن المدة التي يفضيها القاضي في منصبه - لقاء مال - لم تكن محدودة كذلك ، ولم يكن له من الضمانات ما يكفلها ، فقد يدأب في السعي إليه ويدفع ما يدفع ، ثم يعين فيه ولا يلبث في دفته غير قليل ، ثم يعزل .

ويختار القضاة عادة من أبرز فقهاء كل مذهب . وعن اشتهر وافي بالفضل : ولذلك ترى تاريخ قضاء مصر في تلك الحقبة يضم نخبة صالحة من رجال العلم والفقه ، ومنهم من برز في أكثر من ميدان . ويندر أن يختار قاض ليس في الصف الأول من رجال مذهبه . وقد اختير القاضي حسام الدين بن حريز لقضاء المالكية عام ٨٦١ هـ ، وكان بين رجال مذهبه من هو أكفأ منه . فكان ذلك مثارا لنقد ابن إياس حيث ، قال فيه مأموداه : إنه كان بين المالكية من يعتبر أكفأ منه وأولى بمنصب القضاء ولكنه أسعده حظه .

وقد ينتقل القاضي من قضاء دمشق إلى قضاء الديار المصرية أو العكس ، وقد يجمع له بين القضاءين ، وهذا نادر . وقد اجتمع للقاضي شهاب الدين بن فرفور الشافعي . وقد ينتقل أيضا من قضاء القدس أو غيرها من النيابات إلى قضاء مصر . وكثيرا ما يكون قضاء دمشق وغيرها مرشحا لقضاء مصر . وهذه المناسبة نذكر واقعة لها مغزاها . وهي أنه لما وقع الجفاء بين قاضي قضاء الشافعية بمصر تقي الدين عبد الرحمن بن بنت الأعر ، وبين الوزير ابن السعلوس ، وأدى ذلك إلى عزله من القضاء ، أراد السلطان الأشرف خليل أن يختار قاضيا من رجال الشافعية بالديار المصرية عوضا عنه . فسألم واحدا واحدا ، كلا منهم على انفراد ، عن يصلح من بينهم لولاية القضاء ، فلم يجد من بينهم إلا من ذم زميله وأهل مذهبه ، ورامهم بما لا يليق^(١) . فوقع الاختيار على بدر الدين بن جماعة قاضي القدس وخطيبها .

وقد ينتقل القاضى إلى سلك القضاء من سلك غيره كالكتاباة مثلا . أو ينتقل من القضاء إلى الكتابة . فمثلا : كان محمود بن أجا الحلبي قاضيا في حلب ، ثم نقل إلى كتابة السر في عهد الغورى . وكان محب الدين بن الشحنة كاتباً للسر في عهد الأشرف إينال ، ثم انتقل إلى القضاء .

وقد يجمع القاضى بين القضاء ووظيفة أخرى كالقاضى قطب الدين الخضيرى ، فقد جمع بين الكتابة والقضاء بدمشق في عهد الأشرف إينال كذلك . وكالقاضى صدر الدين بن العديم الحنفى فقد جمع بين القضاء والحسبة ، وقيل إنه أول من جمع بينهما ، وكالقاضى شهاب الدين أحمد بن فرفور ، فقد جمع بين قضاء الشافعية بدمشق ونظر الجيش ، وهو الذى جمع بين قضاء الشافعية ومصر زمنا - كما أشرنا - (١) .

وإذا وقع اختيار السلطان على أحدكم لتعيينه قاضى قضاء ، مثل بين يديه بالقلعة وخلع عليه السلطان خلعة المنصب وتسمى «التشريف» ، فينزل بها من لدنه في مركب حافل ، ويكتب له كاتب الإنشاء أمرا بتولية القضاء عن لسان السلطان ، ويسمى هذا الأمر «تقليدا» .

ويكتب هذا التقليد بعبارة أدبية طليقة مسجوعة بديعية على نمط الأساليب المربة حينذاك ، فيها - عادة - إسهاب وإطالة ، ويذكر في هذا التقليد الأسباب التى أدت إلى اختيار القاضى ، وصفاته الممتازة التى أهلته للقضاء ، وجملة من الوصايا والنصائح التى يجب عليه اتباعها لتحقيق العدالة ومراعاة الإنصاف ، ونحو ذلك . أما عزل القضاء ، فقد كان كتعيينهم منوطا بإرادة السلطان . وقد يغضب السلطان على القاضى فيعزله ، ولما يتمتع بالوظيفة ، ولما يجب من ورائها ما نأفقت إليه نفسه من مال ، أو ما يكون قد دفعه في سبيل الوصول إليها . وقد يكون مما يغرى السلطان بعزل أحد القضاء ، سعى رجل آخر لديه ليحل في هذا المنصب . ومن الحق - ونحن بصدد الحديث عن تعيين القضاء وعزلهم - أن نذكر أن

(١) راجع تراجم هؤلاء القضاة في الباب التالي .

مناصب القضاء - وإن كان قد تهاقت عليها قوم - قد عفا عنها كثيرون ، ربثوا بأنفسهم عن أن يحملوها أوزارها . أو أن يلوثوها بأجورها . وهم يعلمون تمام العلم أن من حمل عبء القضاء فقد ذبح بغير سكين (١) . فمنهم من رفض القضاء جملة وأباه بل وفر منه ، ومنهم من رضيه كارها لما رأى العدالة تقضى عليه بالرضا . ومنهم من نزه يده عن أن تتناول عليه أجرا ، ومنهم من رعى فيه العدالة وحدها دون الأكثرات بشيء آخر .

والقصص في ذلك كله كثيرة موفورة . فقد ذكر السخاوي في كتابه « تحفة الأحباب » (٢) ، أنه لما توفى قاضي القضاء شمس الدين البساطي المالكي أرسل السلطان جقمق وراء العالم الزاهد الجليل زين الدين عبادة بن علي الجرزائي المالكي ، ليلي القضاء ، فاختنى . وقيل سافر من القاهرة ، حتى بلغه أن القضاء تولاه رجل آخر فظهر .

ومن القضاة : عبد الرحيم البارزي المتوفى عام ٦٨٣ هـ ، لما عين في قضاء حماة أنف أن ينال من ورائه رزقا . وتاج الدين بن بنت الأهر المتوفى عام ٦٦٥ هـ فقد كانت صلابته في الحق مضرب المثل . وتقى الدين بن دقيق العيد المتوفى ٧٠٢ هـ ، فإنه دعى إلى ولاية القضاء في عهد السلطان العادل كتبنا المنصوري ، فأبى وامتنع امتناعا شديدا ، فهددوه بأن يولوا رجالا لا يصلحون للقضاء ، تخاف حينذاك على العدالة ، وأرجب على نفسه قبول المنصب ، وكان في قضائه عفا نزيها . ومنهم ذكرها الأنصارى المتوفى عام ٩٢٦ هـ ، دعاه الأشرف قايتباي لولاية القضاء ، فزهد فيه وامتنع ، وطلق يشترط ويثقل في شروطه ، والسلطان يقبل ، حتى قبل هو في النهاية ، ورضى بالقضاء مكرها ، فلبث فيه مدة ثم عزل نفسه .

(١) هذا معنى حديث شريف .

(٢) تحفة الأحباب المطبوع على هامش فتح العلي (من ٣٦٤) . وزين الدين المذكور هو زين الدين بن عبادة بن علي بن صالح بن عبد المنعم الأنصارى الجرزائي المالكي ، وله بقرية جزا بالعبيد ومن أعمال القاهرة سنة ٧٨٠ هـ ، وكان يدرس بالجامع الأزهر ويعتد به السلطان الأشرف برسباي ،

وترى في تراجم كثير منهم أخبارا من هذه الأنواع ، ومنهم من عزل نفسه وربما عزلها أكثر من مرة . والقاضى عز الدين بن عبد السلام ، وابن حجر العسقلانى عزل كل منهما نفسه . وغيرهما كثير .

أعوان القضاة ونوابهم

قد كان للقضاة جند وأعوان ورسل ونقباء - كما كان لحاجب الحجاب - يجلسون ببابهم ، إذا جلسوا للفصل فى الخصومات ، فيقدم إليهم هؤلاء الرسل والنقباء المتخاصمين ، ويتقاضون منهم الأجور ؛ ويقومون بتنفيذ الأحكام والأوامر .
ويبدو لنا أن كل قاض كان له « أمين » أو « نقيب نقباء » وهو رئيس لأهوانه .
وربما تحكم النقيب فى نواب الحكم عوضا عن القاضى (١) . ويتبع قاضى القضاة عقاد الأنكحة (٢) ، ونواب الحكم .

ونواب الحكم قضاة صغار ، يعينون فى الجهات المختلفة ليقوموا بالفصل فيما يقدم إليهم من القضايا والخصومات عوضا عن قاضى القضاة فيما لا يستطيع القيام به ، ولا ندرى على التحديد هذه الجهات التى وصفت بأنها من أعمال مهر ، والمفهوم على كل حال أن بعضها بعيد عن القاهرة كالحلة أو أشموم .

وقد ذكرنا فيما سبق - نقلا عن المقرئى والسبكى - أن السلطان الظاهر بيبرس رسم للقاضى تاج الدين بن بنت الأحرز فى عام ٦٦٠ هـ بتنصيب أربعة نواب أو ثلاثة ، واحدا من كل مذهب ، وقد يفهم من هذا أن أول تنصيب للنواب كان فى العالم المذكور .

غير أن السيوطى فى حسن المحاضرة (٣) روى عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام ما نصه قال : « ولما عزل الشيخ نفسه عن القضاء ، تلطاف السلطان فى رده إليه ، فبأشره مدة ، ثم عزل نفسه منه مرة ثانية وتلطاف مع السلطان

(١) راجع ترجمة زكريا الأنصارى فى الضوء اللامع ج ٣ رتم ٨٩٢ .

(٢) السلوك ج ١ ص ٨٤٩ . (٣) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٠ .

في إقصاء عزله، فأهضاه وأبقى جميع نوابه من المحكام، وكتب لكل حاكم تقليدا، وقد كان عزل الشيخ عز الدين عن القضاء قبل عام ٦٦٠ هـ. فيفهم من عبارة السيوطي أن نظام «نواب الحكم» كان معروفا في مصر قبل العام المذكور. غير أن النواب ربما كانوا - ويغلب على الظن أنهم كانوا - جميعا من الشافعية. فإذا صح هذا كان الجديده الذي تم في عام ٦٦٠ هـ هو تنصيب نواب من رجال المذاهب الأخرى. ثم لما تعدد القضاء ظل قاضي قضاء الشافعية ممتازا على سائر زملائه - كما بينا - وأوسع منهم اختصاصا. وكان في جملة ما اختص به تعيين النواب. وقد قال السبكي في الطبقات ما نصه :

« وأما الظاهر - ييوس - فقلد الشافعي يوم ولاية السلطنة، ثم لما ضم القضاء إلى الشافعية، استثنى للشافعية الأوقاف وبيت المال والنواب وقضاء البحر والأيام وجعلهم الأرفعين ^(١) ».

وصرح النلقشندى في صحيح الأعشى بما يناقض ذلك - فيما يختص بالنواب - حيث قال : « وجعل لهم الأربعة أن يولوا النواب بأعمال الديار المصرية وأفراد القاضي تاج الدين بالنظر في مال الأيتام والأوقاف »، ثم قال : « كل من الأربعة له التحدث فيما يختص به مذهبهم بالقاهرة والفسطاط ونصب النواب، ثم عاد فقال : « ويستقل الشافعي منهم بتولية النواب بنواحي الوجهين القبلي والبحري لا يشاركه فيه غيره » ».

وروى المقرئ في سلوكه في حوادث عام ٦٧٠ هـ ما نصه : « أن القضاء الأربعة الذين ولاهم السلطان الملك الظاهر بديار مصر، كان كل منهم يستنصب قضاء عنه في النواحي ».

وقد روى المقرئ في سلوكه أيضا في حوادث عام ٦٧٨ هـ ^(٢) قال : « وفي يوم

(١) سبق أن قلنا هنا النص في موضوع آخر. ويتنا وجه الخلاف بينه وبين ما رواه المقرئ والنلقشندى.

(٢) البلوك ج ١ ص ٦٦٨ حوادث ٢٧ شوال عام ٦٧٨ هـ

الجمعة سابع عشره - أى ٢٧ شوال - كتبت تقاليد القضاة الأربعة . واستقر الحال على أن يكون قاضى القضاة صدر الدين عمر بن قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز الشافعى ، هو الذى يولى فى أعمال مصر ، قضاة ينوبون عنه فى الأحكام ، وأن قاضى القضاة معز الدين الحنفى ، وقاضى القضاة المالكى ، وقاضى القضاة عز الدين الحنبلى ، يحكمون بالقاهرة ومصر خاصة بغير نواب الأعمال . فاستمر الأمر على ذلك حتى اليوم .

وفهم من ذلك أن تعيين النواب كان من حق القضاة جميعاً ، ولو فى فترة من الفترات قبل هذا التاريخ . وأنه منذ ذلك التاريخ أصبح من حق قاضى قضاة الشافعية دون سائر زملائه . وأن هذا النظام استمر معمولاً به زمناً طويلاً من بعده .

ويبدو لنا أنه أبيع بعد حين ، لكل قاض أن يعين لنفسه نواباً من مذهبه ينوبون عنه فى الأحكام ، وأن قضاة القضاة اشتطوا فى تعيين نوابهم ، حتى أربى عددهم على ما يحتاج إليه . وأن هذا العدد كان أكثر من مائة .

وفهم هذا كله من عبارة رراها ابن إياس فى حوادث عام ٩١٩ هـ حيث قال ما مؤداه (١) : « إن الأشرف القورى غضب مرة من قضائه وكثرة نوابهم ، فرسم لهم أن يكون مجموع نوابهم مائة : منهم أربعون يعينهم القاضى الشافعى ، وثلاثون يعينهم الحنفى ، وعشرون يعينهم المالكى وعشرة يعينهم الحنبلى ، وقرر معهم ألا يولوا أحداً من النواب إلا بإذنه » .

وفهم من الجملة الأخيرة ، أن تعيين نواب الحكم كان من اختصاص القاضى وحده دون أن يرجع إلى السلطان . فظل للقاضى الحق فى اختيار نوابه ، ولكن لابد من استئذان السلطان .

هذا ويُعزل النائب بناء على رغبة القاضى . كما أن القاضى إذا عزل من القضاء ، كان ذلك عزلاً أيضاً لجميع نوابه . فإذا عين قاض جديد من بعده ، اختار لنفسه

(١) بدائع الزهور ج ٤ حوادث ذى القعدة عام ٩١٩ هـ .

نوابا جددا ، ذلك لأن النائب يستمد صفته القضائية من قاضيه ، فإذا عزل زالت عنه هذه الصفة .

ويفهم هذا مما روئناه عن السيوطي خاصا بعزل الشيخ عز الدين بن عبد السلام . فإنه لما عزل نفسه من القضاء وأمضى السلطان عزله . أتى بجميع نوابه من الحكام ، وكتب لكل حاكم تقليدا ، ولعلها خصوصية لهذا القاضي الكبير .

وقد روى الإدقوى في كتابه الطالع السعيد ، قال (١) في سياق ترجمة علي ابن عبد الرحيم بن الأثير ، إنه كان نائبا في الحكم عن القاضي تقي الدين بن دقيق العيد . فعزل تقي الدين . ثم ولي القضاء مرة أخرى فولى من قبله قاضيا على جهة أشموم ، حيث كان ينوب عنه الشيخ علي بن عبد الرحيم . فعجب هذا النائب . ولكنه أخبر أنه عزل بعزل قاضي قضائه .

أجورهم

من البدهي أن يكون للقضاة والنواب أجور يدفعها لهم الأخصام ، بواسطة قبايئهم وأعوانهم . وإلا لما تماقت على مناصب القضاء المتهافتون ، ولما سعى إليها الساعرون ، وبذل الباذلون . وإن رجلا يتقدم ساعيا إلى منصب القضاء بالمسال والوسيط لبعض في نفسه - بلاريب - أن يستعيب عنه بصورة ما . وإن كان من القضاة من عفا عن تناول أجره كما بينا .

ويبدو لنا أنه لم تكن لهذه الأجور حدود مرسومة ، ولا قواعد مقررة . وأن أمرها كان فوضى ومتروكا لمشئمة القاضي والنائب وأعوانها ، يقدرونها كما يشتهون . وما دامت النفس أماردة بالسوء ، وأن شهوتها لا تقف عند حد ، كان هذا عاملا من العوامل التي أدت إلى ظلم الخصوم ، وفرض الأتاوات الباهظة عليهم في بعض الأحيان . وكان هذا الظلم ماثرا للشكاية ومحلا للنظر في أحيان أخرى .

وقد روى ابن إياس (٢) ، أن الأمير كرتباي الآخر لما قرر في الوزارة - عام

(١) الطالع السعيد للإدقوى ص ٢٠٩ رقم ٢

(٢) البدائع ج ٢ ص ٣٠٥ حوادث سنة ٩٠٦ هـ .

٥٩٠١- أظهر ضروريا من العدل. منها أنه حجر على الرسل والنباء ألا يأخذوا من
الأخصام أكثر من نصفي فضة ، وأن أحدا منهم لا يقرر رسما على أحد .
وروى أن قاضي القضاة محيي الدين بن النقيب كان يريج من وظيفته هذه في
كل يوم أشرفيين ، والأشرفي أفضل أنواع الدنانير حينذاك ^(١) .
وهذه الأجور شديدة بالرسوم ، التي يدفعها المتقاضون في عصرنا إلى خزانة
المحكمة ، ولكنها اليوم تنضم إلى الخزانة العامة للدولة . أما في ذلك العصر البعيد
فكانت نذهب إلى جيوب القضاة والنواب والأهوان .

وفي هذه الحالة - كما ذكرنا - تؤدي إلى الجور في فرض الأجر . وقد
تؤدي إلى أكثر من ذلك ، وهو الجور في الحكم . وقد روى ابن إياس ^(٢)
« أن السلطان الأشرف قايتباي رسم مرة - في عام ٨٩٤ هـ - بعض
نواب الشافعية والحنفية عليه ، فلما عرضوا أسمهم من الكلام ما أذمهم وأذبحهم ،
ثم أمر بعزل جماعة منهم . وآل الأمر إلى الحجر عليهم في الأحكام الشرعية ،
وإلى أمرهم بعدم يمن الخصوم إلا بإذن من القاضي الشافعي والحنفي ، وعم ذلك
سائر النواب » .

وقد كان القضاة - كما نعتقد - يؤدون جزءا من هذه الأجور إلى الخزائن
السلطانية . وإلا لما قبض على بعض القضاة وعزلوا وحوسبوا حسابا عسيرا ،
واستخرج منهم جانب من المال . أو لعل السر في القبض عليهم وحسابهم واستخراج
جانب من أموالهم هو - غير غضب السلطان عليهم - أنهم جبروا هذه الأموال
من المتخاصمين ظلما وإرهاقا .

وإذا ما غلا القاضي في طلب الأجر ولم يتعفف ، انقلب الأجر رويدا رويدا
إلى رشوة يدفعها المتخاصمون إلى القضاة لضمان الفصل لصالحهم . وهذا هو ما
وقع فعلا . فكما أنهم القضاة بأنهم يدفعون الرشوة في سبيل الوصول إلى منصب

(١) راجع ترجمته فيما يلي .

(٢) البدائع ج ٢ من ٢٥٥ حوادث عام ٨٩٤ هـ .

القضاء ، انهموا بأنهم يأخذون الرشوة على القضاء . وهذا شر ما تبلى به أمة ، وكان ذلك في جملة أسباب فساد القضاء .

واقعد قال السلطان سليم العثماني لقضاة مصر حينما وقعوا في أمره ومثلوا بين يديه ، موبخا لهم . « أتم تأخذون الرشوة على الأحكام الشرعية ، وتسعون بالمال حتى تتولوا القضاء . »

ومن طريق ما يذكر بهذه المناسبة قصة (١) قاضي القضاء شمس الدين محمد بن إبراهيم بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي . « فقد كان قاضي الخنابلة في عهد الظاهر بيبرس . وقد حدث أنه في سنة ٥٦٧ هـ . نعى عن نيابته أحد نوابه ، وكان مركزه المحلة السكرى . فغضب آخر النائب لذلك واسم هذا الأخ تقي الدين شبيب الحراني . فكتب ورقة للسلطان بأن عند قاضي القضاء شمس الدين الحنبلي ودائع للتجار من أهل بغداد وحران والشام بمحملة كبيرة ، وقد ماتوا ، فاستدعاه السلطان وسأله عن ذلك فأفكر وحلف ، وورى ، في يمينه . فأمر السلطان بالهجوم على داره ، فوجد فيها كثيرا مما ادعاه شبيب ، بعضه قد مات أهله وبعضه لقوم أحياء . فأخذ السلطان مما وجد الزكاة لمدة سنين . وسلم لمن كان حيا ودائعه . وغضب السلطان عليه واعتقله وأوقع الحوطة على داره في يوم الجمعة ثاني شعبان . قال المقرئى ولم يول السلطان بعده قضاء الخنابلة أحدا . وهكذا كانت هذه الحادثة سببا في إنسقاط أحد مناصب القضاء ولو إلى حين . »

هذه العوامل تجعلنا ننظر بريبة إلى القضاء وأحكامه في ذلك الزمن البعيد . إذا استثنينا بعض القضاء . وقد أصبح القضاء والقضاة حينذاك محلا للتندر والتفكه . وقد قال بعض شعراء العصر في القاضي ابن النقيب .

قاض إذا انفصل الخصمان ردهما إلى جدال بحكم غير منفصل
يبدى الزهادة في الدنيا وزخرفها جبرا ويقبل سرا بكرة الجمل

(١) سارك المقرئى ج١ ص ٦٠٢ ، ٦٠٣ .

وللشاعر المصرى جمال الدين السالمونى قصة (١) طويلة مع قاضى قضاء الحنفية فى عهد الغورى ، وهو عبد البر بن الشحنة . وكانت بينهما خصومة . فنظم السالمونى قصيدة هجاء فى القاضى عبد البر ، رماه فيها بكل كبيرة ، واثمه علانية بقبول الرشوة . وفى مطلعها يقول :

فشا الزور فى مصر وفى جنباتها ولم لا وعبد البر قاضى قضاتها
إذا جاءه الدينار من وجه رشوة يرى أنه حل على شباتها
أجاز أمورا لا تحمل بملة يحمل ويرم مظهرها منكراتها . الخ
جلوسهم للقضاء

كان القضاء يجلسون مع السلطان ، إذا جلس للفصل فى الخصومات بدار العدل ، وذلك يوم الاثنين فقط ، دون يوم الخميس . وكان السلطان يستشيرهم فى الخصومات ذات الصلة بالشرع . ويبدو لنا أن كل قاض كان يختار لنفسه مسجدا أو مدرسة ، يجلس فيها للفصل فى الخصومات . وقد قال المقرئى فى سلوكه (٢) عن برهان الدين السنجارى إنه لما عين فى قضاء القاهرة والوجه البحرى ، جلس للحكم فى المدرسة المنصورية بين القصرين .

وإذا جمع القضاء بين قضاء القاهرة ومصر خصصوا يوم الاثنين والخميس لفضايا مصر . ويجلسون فيها بجامع عمرو بن العاص . ويجتمع حولهم علماء مصر وقد قال تاج السبكي فى طبقاته فى سياق ترجمة تقي الدين بن رزين ما نصه (٣) .

وكان قضاء القضاء بالديار المصرية إذا جمعوا بين قضاء القاهرة ومصر . كما استقرت عليه القاعدة من الأيام الظاهرية - يتوجهون يوم الاثنين ويوم الخميس

(١) انظر تفاصيل هذه القصة فى الجزء الرابع من هذا الكتاب فى باب أثر البيئة الاجتماعية المصرية

فى الشعر .

(٢) السلوك ج ١ ص ٧٣٤ حوادث عام ٦٨٦ هـ .

(٣) طبقات الشافعية ج ٥ ص ١٩ .

إلى مصر ، فيجلسون بجامع عمرو بن العاص ، لفصل القضاء بين الناس . ومحضر
عندهم علماء مصر . وكان ابن الرفعة يحضر عند قاضي القضاة تقي الدين مجلس حكمه
إذا ورد عليهم مصر يوم الاثنين والخميس . وابن الرفعة كان ساكناً بمصر ، وقاضي
القضاة تقي الدين بالقاهرة .

القضاة (١)

ترد في مبحث القضاء ، بتراجم موجزة لأشهر قضاة مصر ، من جميع المذاهب .
ولم تتوخ الاستقصاء والاستيعاب - كما جرينا على ذلك - وإنما هي مثل نعر ضئيلة .
ورجدر بهؤلاء القضاة أن يفرد لهم سفر على حدة . ولكن ليس هنا مكانه .
وقد عطينا بتراجم قضاة القضاة بديار مصر ، دون نوابهم ودون قضاة الشام .
وأوردناها مراعى فيها عصور ظهورهم وسنوات وفاتهم جهد الطاقة أيضاً . فنهيم :

١ - عماد الدين الحموي

هو القاسم بن إبراهيم بن عبد الله الحموي . كان شافعي المذهب ، تولى القضاء
في مصر (٢) ، وشهد جزءاً يسيراً من أوائل عصر المماليك . وصرف عن القضاء
في جمادى الأولى عام ٦٤٨ هـ . ثم ولي قضاء القاهرة ، ثم أعيد إلى قضاء مصر ثانية
في شهر رجب من العام المذكور ، ثم عزل في شوال .

« حسن المحاضر ج ٢ من ١١٠ ، ١١١ »

٢ - هو الدين بن عبد السلام ٦٦٠ هـ

هو شيخ الإسلام وسليمان العلماء ، عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم

(١) في كتب التراجم ، كثير من أخبار هؤلاء القضاة ، مثل : الطالع السعيد ، والدور
الكاسية ، والطبقات والفوائد البهية للكنوز الهندى والضوء اللامع ، وحسن المحاضرة ، ورفع
الأمر ، ومنها مغترفات في مثل بدائع الزهور والبلوك . وهذه الكتب مراجعتنا في هذا الباب .
وفي الجزء الثاني من كتابنا هذا تراجم لبعض القضاة في باب العلماء .
(٢) المراد بمصر هنا : مصر الحقيقة بفتح صرنا . وكان لها ولوجه القبل سائر واحد ، وقاهرة
ولوجه البحرى آخر . وهذا في القالب قبل تمدد القضاة .

ابن حسن محمد بن مذهب السلي أحد الأئمة المجتهدين الأعلام . وأحد المتعصين للحق ، والغيورين على سلامة الإسلام وأهله ، المدافعين عنهم المرشدين لهم ، الساعين في صلاحهم .

ولد عام ٥٧٧ هـ . أو ٥٧٨ هـ . وتفق على كثيرين ، ونبغ في مذهب الشافعي ، حتى أصبح رأس الشافعية في زمانه . واشتهر بالورع والتقوى والصلابة والقسوة في الدعوة إلى الحق ، وهذا مما يتلاءم مع الفساد المنتشر في عصره . وقد اشتغل بالتعليم والقضاء والفتوى والتأليف ، وتخرج به تلاميذ نابغون .

وقد عاش في دمشق ثم زایلها إلى القاهرة ، لخلاف وقع بينه وبين ملكها الصالح اسماعيل . فاستقر في القاهرة منذ عام ٦٣٩ هـ . ولبث حتى شهد عصر الظاهر بيبرس ، وكان بيبرس يحله ويعظمه وينتظر رأيه في مشاكله .

وله حوادث عدة بدا فيها حرصه على أموال المسلمين ، وعلى تنفيذ أحكام الدين وتسبب إليه كرامات متعددة . ومنذ قدومه إلى مصر ، وهو على قضاءها . فقد ولى قضاء مصر والوجه القبلي عام ٦٣٩ هـ . ثم عزل نفسه بعد حين . وولى التدريس وما زال ينفع ويدفع ويحادل ويناضل ، حتى مات في جمادى الآخرة عام ٦٦٠ هـ . بالقاهرة ، ودفن بالقرافة الكبرى .

« ملحوظة » ترجمناه بفصل في الجزء الثاني من هذا الكتاب في باب العلماء - حسن المحاضرة ج ٢ ص ٩٥ - طبقات السبكي ج ٥ ص ٨٠ .

٣ - بدر الدين السنجاري ٦٦٣ هـ

هو أبو المحاسن يوسف بن الحسن بن علي . كان شافعي المذهب يعرف بقاضي سنجار - مدينة ببلاد الروم - كان بها قاضيا في عهد الأيوبيين . وقد فارقها في ذي الحجة عام ٦٣٨ هـ ، في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب . وكانت بينهما صلة ود وصداقة ، منذ كان الصالح ببلاد الشام ، وكان هذا القاضي حينذاك - عام ٦٣٨ هـ - قد توجه إلى سنجار برسالة من الملك الصالح عماد الدين صاحب دمشق ، فبلغه أن الصالح نجم الدين قد ملك مصر ، فرغب في اللحاق به ولم يرغب في العودة إلى (٦٦٠ - ٦٦٣ هـ)

دمشق . فاحتال حتى بلغ حجة ، ومنها عاد لمصر عن طريق الساحل ، فلتقاء الصالح نجم الدين تلقيا كريما . وفوض إليه قضاء مصر والوجه القبلى عوضا عن القاضي شرف الدين بن عين الدولة الإسكندرانى (١) .

وفى سنة ٦٤٨ هـ فى عهد المعز بن أيك عين فى قضاء القاهرة فى شهر رجب ، ثم أضيف إليه قضاء مصر بعد أيام قليلة ، وذلك فى شوال لجمع بين المنصبين .

وقد ورد إلى مصر رسول من قبل الناصر صاحب دمشق ، إلى المعز بن أيك عام ٦٤٩ هـ للمفاوضة فى الصلح بينهما فتدب لمكالمته القاضي بدر الدين السنجارى . وقد تم الصلح على يده ، ثم صرف عن القضاء فى هذا العام .

ولبت أمره فى القضاء بين تولية وعزل وجمع بين المنصبين ، حتى صرف عنه فى عام ٦٥٤ هـ ، ثم عاد إلى قضاء القاهرة فى ربيع الآخر عام ٦٥٥ هـ ، وضم إليه ثانية قضاء مصر فى رجب ، وفى هذا العام ولّى الوزارة مع القضاء بعد القبض على الوزير شرف الدين الفاضلى ، ثم صرف عن الوزارة فى العام نفسه ثم عزل عن القضاء وعاد فى أواخر عام ٦٥٩ هـ . ثم عزل عن قضاء مصر والوجه البحرى فى ٣ رمضان عام ٦٦٠ هـ . ولما عزل مرة قبض عليه الظاهر بيبرس وبجته عشرة أيام ثم أطلق سراحه . وقد مات وهو معزول عن القضاء عام ٦٦٣ هـ عن نيف وستين عاما .

وينسب إلى هذا القاضي أنه باع داره مع العلم بأنها موقوفة لاتباع ولا تشتري . فلما مات تقدم الشارون إلى السلطان الظاهر بيبرس بالشكوى ، فنظر فى قصتهم ثم قال لقاضى القضاة - حينذاك - تاج الدين بن بنت الأعز : « يا قاضى !

(١) هو شرف الدين محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي القاسم الإسكندرانى المعروف بابن عين الدولة . من قضاة مصر فى أواخر العصر الأيوبي .

وقد تولى فى ذى القعدة عام ٦٣٩ هـ ، وله قصة طريفة مع الملك الكامل الأيوبي ملخصها أن هذا الملك كانت تطلع إليه منية اسمها « حبيبة » أولح بها فتنه بالملك على ألف ، ثم حضر فى شهادة أمام هذا القاضي فلم يقبل شهادته . فلما أراد على قبولها ندد به ثم عزل نفسه من القضاء (راجع حن الحضارة ج ٢ باب قضاة مصر - وطلبات السبك ج ٥ ص ٢٦) .

هكذا تكون القضاء ، فقال له : « يامولانا اكل شاة معلقة بعرقوبها » . وكانت هذه القصة في عداد الاسباب التي اوجدت أزمة في القضاء ، وأدت إلى تعدد القضاء - كما بينا - .

والقاضي بدر الدين السنجارى ، هو أخو القاضي برهان الدين السنجارى الآتى ذكره ، وكان يخلفه حيناً في القضاء .

« حسن المحاضرة ج ٢ في بابى قضاء مصر . ووزراء مصر - السلوك ج ١ » .

٤ - تاج الدين بن بنت الأهر ٦٦٥ هـ

هو قاضى القضاء الشافعى المذهب أبو محمد عبد الوهاب بن خليفة بن بدر العللى المصرى المعروف بابن بنت الأعز . كان جده لأمه يعرف بالقاضى الأعز . غفر الدين أبى الفوارس مقدم بن القاضى كمال الدين أبى السعادات أحمد بن شكر ، الذى كان وزيراً لذلك الكامل بن أيوب ، فغلبت عليه هذه النسبة وقيل : ابن بنت الأعز . أما علامة بفتححتين وبغير شدة فهى قبيلة من لحم . فهو إذن من أصل عربى . وقيل إنه عبد الوهاب بن خلف بن أبى القاسم . وقد عرف بالذكاء وحدة القريحة والعفة وسداد الرأى ، وقد تولى قضاء مصر فى زمن الأيوبيين وصدر عصر المماليك . وبارك الله فى نسله فكان من أبنائه وحفدته قضاء وعلماء أجلاء منهم : تقى الدين وصدر الدين ابنه ، ومنهم : علاء الدين أحمد ابنه أيضاً وغفر الدين حفيده .

وقد اشتهر تاج الدين بالعلم والتفوى والفضل وحسن الرأى وقوة الحججة والشدّة فى الأخذ ، والصلابة فى الحق . وتقلب فى مناصب عدة منها الحسبة والوزارة والخطابة والتدريس والإمامة . أما ولاية قضاء البلاد ، فقد كان بدء أمره فى عهد الأيوبيين ، وقيل إنهم عينوه قاضياً كبيراً على جميع القضاء يولى ويعزل منهم من يشاء ، - ولعل المراد بذلك نواب الحكم - وبلغ لديهم منزلة سنية .

وفى صدر عصر المماليك تنقل فى مناصب القضاء . ثم ظل أمره فيه بين عزل وتعيين حتى توفى . وخلاصة حالته هذه أنه فى عام ٦٥٤ هـ ولى قضاء البلاد بعد

عزل بدر الدين السنجارى فى عصر السلطان عز الدين بن أيك ، ثم تقلد الوزارة ثم عزل ثم عادت إليه الوزارة فى ربيع الثانى سنة ٦٥٥ هـ فى عهد السلطان المنصور ابن المعز بن أيك . وعين فى قضاء مصر فقط ثم عزل عنه بعد قليل . ولما بدأ عهد المظفر قطر عام ٦٥٧ هـ عزله عن الوزارة فى أوائل حكمه ، فظل بعيداً عن المناصب حتى كان عام ٦٥٩ هـ وكان شهر جمادى الأولى من ذلك العام ، وكان سلطان البلاد يبرس ، فدعاه ليستد إليه الوزارة فرفض ، ثم دعاه ليجلس على منصة القضاء بعد أن عزل بدر الدين السنجارى ، ولكنه أحب أن يرفض ، فاشتطرت لجلوسه ذاك شروطاً قاسية على السلطان أملا فى أن يعفيه من تقلد هذا المنصب ، ولكن يبرس أجابه إلى شروطه وقبلها رغبة فيه وثقة به . فتم بذلك تعيينه فى ١٠ جمادى الأولى . وصلى بالسلطان صلاة الظهر فى ذلك اليوم ، وتولى أمر القضاء . وأصبح منذ ذلك الحين مهيب المنزلة عند يبرس ورجال دولته .

وفى عهده بالقضاء حدث حادثان هامان كان له شأن فى كل منهما :

الحادث الأول :

تجديد الخلافة العباسية فى مصر . فكان هو المقدم فى رأى إذ جمعت إليه الشهود . وقدم إليه أبو القاسم أحمد بن الإمام الظاهر العباسى . فشهد الشهود بين يديه بأنه حفيد العباسيين . فكان القاضى تاج الدين أول من بايعه بالخلافة - على رأى - ثم السلطان ، ثم بايعه الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، ثم الباقر من علماء وأمرأه عن حضر الحفل ، وذلك فى عام ٦٥٩ هـ .

الحادث الثانى :

هو حادث تعدد القضاء وسنشير إليه من بعد . ظل تاج الدين فى القضاء حتى عزل فى شوال من العام المذكور عن قضاء مصر والوجه القبلى ، وتولى مكانه برهان الدين السنجارى ، وبقي هو قاضياً فى القاهرة والوجه البحرى فقط ، حتى كان يوم ٣ رمضان سنة ٦٦٠ هـ فعزل السلطان قاضى

القضاة برهان الدين السنجارى عن قضاء مصر والوجه القبل وضهما إلى تاج الدين ابن بنت الأعز ، وبذلك صار قاضيا بديار مصر جميعها . غير أنه نظرا إلى شدة وصلابته وتوقفه في بعض الأحكام ، اضطر السلطان إلى أن يرسم له في شهر ذى القعدة من نفس العام أن يستنوب عنه مدرسى المدرسة الصالحية من الخفية والمالكية والحنابلة ، فاستنابهم في الحكم ، أو صاروا « نواب حكم » ، وكانت هذه أول مرة ينوب فيها قاضى القضاة : كما أنها أول تمهيد عملي أدى إلى تعدد القضاة . وقد استناب القاضى تاج الدين عنه ثلاثة أحدهم حنفى والثانى مالكي والثالث حنبلى . وحكموا بين الناس بمقتضى مذاهبهم . غير أن القاضى تاج الدين لم يجد من الحنابلة رجلا كفئا للنصب ، فاكتمى بأن ولى منهم حاقدا يتولى تحرير العقود وكتابتها ، كعقود البيع والزواج والوصية والهبة وما شابه ذلك .

لم تكن شدة قاضى القضاة تاج الدين سببا في هذا فقط ، ولكنها أوغرت صدور بعض الأمراء عليه ، لأنه كان لا يقبل شهادتهم في القضايا . ومن بين الحاقدين الأمير جمال الدين إيدغى العريزى الذى ظل يحط من قدر قضاة الشرع لدى السلطان بيبرس . وانهز فرصة مظلة رفعت إلى السلطان من بنات الملك الناصر ، أن ورثته اشتروا دار قاضى القضاة بدر الدين السنجارى في حياته ، فلما مات قال ورثة القاضى إن الدار موقوفة ، فقال السلطان للقاضى تاج الدين - وكان قاضى قضائه - « يا قاضى ! هكذا تكون القضاة » فقال تاج الدين : « يا مولانا ! كل شاة معلقة بعروقها » قال : « فكيف الحال في هذا ؟ » قال : « إذا ثبت الوقف يعاد الثمن من الورثة » . فقال السلطان : « فإذا لم يكن مع الورثة شيء ؟ » قال القاضى . يرجع الوقف إلى أصله ولا يستعاد الثمن . فغضب السلطان من ذلك . لأن معناه ضياع حق الشارين إذا ثبت الوقف ولم يكن في ميراث القاضى البائع ما ينهض بالثمن .

ثم حدثت حادثة أخرى ، وهى أنه قدم رسول أمير المدينة المنورة ليقسم من قاضى القضاة ما ينقص قراءها من ريع الوقف . ولم يكن الشيخ يعرف هذا الرسول

فرده دون أن يعطيه شيئاً . فشكا إلى السلطان بمحضر من القاضي . فسأل السلطان القاضي عن سبب امتناعه . فقال : « يا مولانا ! هذا المال أنا متسلبه ، وهذا الرجل لا أعرفه ، ولا يمكنني أن أسلبه لمن لا أعرفه ، ولا يتسلبه إلا من أعرف أنه موثوق بدينه وأمانته ، فإن كان السلطان يتسلبه ، في أحضرته إليه ا ، فقال السلطان : « نزع من عنقك ونجعله في عنق » . قال . نعم . قال السلطان : « ولا تدفعه إلا لمن تختاره » .

هذه حوادث تشهد بصلابة هذا الرجل العظيم ، وتشدده فيما يراه أنه حق . وكانت هذه الحوادث من المهدات إلى تعدد القضاة . وقد نوهنا بذلك . إذ انتهن الأمير إدغدى هذه الفرصة وأوحى إلى السلطان يبرس بوجوب هذا التعدد ، ليجدوا مندوحة في المذاهب الأخرى وآراء رجالها ، عن مثل هذا الوقوف في القضايا والمشاكل . ثم قال الأمير للقاضي : « يا قاضي مذهب الشافعي لك ، ونولي من كل مذهب قاضياً » . فلما كان يوم الاثنين ١٩ من ذى القعدة عام ٨٦٦١ ، صدر أمر السلطان يبرس بتعيين ثلاثة قضاة آخرين ، واحد من كل مذهب . أي واحد حنفي وآخر مالكي وثالث حنبلي . وتم بذلك تعدد القضاة على نحو ما بينا في الباب السابق ، وبقي تاج الدين قاضي قضاة الشافعية ، مضافاً إليه النظر في مال الأيتام والمحاكمات المختصة ببית المال . ومع هذا التعدد بقي ابن بنت الأزهر مهيب الجانب مقدم المنزل .

وعندما أصبح الأمير عز الدين إيدمر الحلبي الجامع الأزهر . وجهد في تجميعه وانتزاع الأموال له من السلطان والأمراء ، وتم إصلاحه عام ٨٦٦٥ وقرشه وجدد فيه مقصورة ومنبرا ، أحب أن تصلي فيه صلاة الجمعة ويخطب فيها ، فتنازع الناس في جواز ذلك . ومنعه القاضي تاج الدين ولم يتمتع الأحناف وتمت بفتواهم الصلاة والخطبة .

هذا ، وقد ولي تاج الدين من المناصب الأخرى نظر الإحياس وتدريس القبة الشافعية ، والصلحية وغير ذلك . وقد توفي في يوم الأحد ٢٧ من رجب عام ٨٦٦٥ ، عن ٥١ سنة . وفي حسن المحاضرة أنه مات في ١٧ من رجب المذكور .

« نهاية الأرب ج ٢٨ ص ٦٢ - السلوك ج ١ - صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٥ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١١ ، ١١٢ - ابن إياس ج ١ ص ١٠١ ، ١١٢ - طبقات السبكي ج ٥ ص ١٣٣ - راجع تراجم أبنائه وأخفاده فيما يلي » :

٥ - محي الدين عبد الله بن شرف الدين بن عین الدولة ٦٧٨ هـ

هو قاضى القضاة محيى الدين أبو الصلاح عبد الله بن شرف الدين محمد بن عبد الله بن الحسن بن على بن صدقة بن حفص الصفر اوى الإسكندرانى المعروف بابن عین الدولة . شافعى المذهب . تولى قضاء مصر والوجه القبلى بعد وفاة قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز ، وورد له المرسوم بذلك فى يوم الخميس ٩ شعبان سنة ٦٦٥ هـ . فلما كان عهد الملك السعيد بن بيبرس عزل فى ١٨ ذى القعدة عام ٦٧٦ هـ ، فظل مصر وفا حتى توفى فى ٥ رجب سنة ٦٧٨ هـ وقد نيف على الثمانين .

« سلوك الفريرى ج ١ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٢ - راجع ترجمة أبيه فى طبقات الشافعية لابن السبكي ص ٢٦ ج ٥٥ . »

٦ - تقي الدين محمد بن الحسن بن رزين الحموى ٦٨٠ هـ

هو قاضى قضاة الشافعية بالديار المصرية ، تقي الدين أبو عبد الله محمد بن الحسن ابن رزين بن موسى بن عيسى بن موسى العامرى الحموى . ولد بحجة سنة ٦٠٣ هـ ، وحفظ كثيرا من كتب الفقه والأصول والنحو والكلام والقراءات . وأخذ عنه جملة علماء عصره . وتولى بدمشق وظائف عدة منها التدريس ووكاله بيت المال . ثم يمم شطر مصر ، فاشتغل بالتدريس ، حتى توفى قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز فى رجب عام ٦٦٥ هـ . فأسند إليه قضاء القاهرة والوجه البحرى فى شعبان من تلك السنة . فامتنع عن أن يتناول عليه أجرا . وعرف بالفقه وحسن الرأى وصدق النظر وحسن الفتوى . ولما عزل محيى الدين بن عین الدولة فى ١٨ ذى القعدة سنة ٦٧٦ هـ ضم اختصاصه إلى اختصاص ابن رزين ، فتم له قضاء مصر كله . ثم عزل فى رجب سنة ٦٧٨ هـ ^(١) لتوقفه فى خلع الملك السعيد بن بيبرس . وتولى

(١) ق. سلوك الفريرى ج ١ ص ٦٥٧ ما يفهم منه ، أنه عزل قبل رجب بنحو شهرين .

القضاء مكانه صدر الدين بن بنت الأعز ، فظل حتى عزل نفسه في رمضان سنة ٦٧٩ هـ . فأعيد مكانه تقي الدين بن رزين ، فظل في القضاء حتى توفي في ٣ رجب عام ٦٨٠ هـ . وله ولد من كبار علماء العصر هو صدر الدين عبد البر .
 د السلوك الفرزي ج ١ - حسن الماضرة ج ٢ ص ١١٢ - طبقات السبكي ج ٥ ص ١٩٠ .

٧ - صدر الدين بن بنت الأعز ٦٨٠ هـ

هو قاضي القضاء ، عمر بن تاج الدين بن بنت الأعز ، عبد الوهاب العلامى الشافعى . ولد عام ٦٢٥ ، وترعرع في كنف أبيه تاج الدين . وأخذ عنه وعن علماء عصره ، الفقه والحديث . ونشأ ورعا تقيا دينا ، حتى كان أبوه - على جلال قدره - يتبرك به . كما نشأ صلبا في الحق ، هيوفا عن الباطل . لا يحب المزاح ولا الهزل ولا الضحك .

وفي شهر رجب عام ٦٧٨ هـ مات القاضي محي الدين بن عين الدولة ، وكان يده قضاء مصر والوجه القبلى . وعزل القاضي تقي الدين بن رزين ، وكان يده قضاء القاهرة والوجه البحرى . فلما وقع ذلك ، أسند قضاء مصر كله إلى صدر الدين عمر ابن تاج الدين بن بنت الأعز . وذلك في أوائل عهد الملك العادل سلامش عام ٦٧٨ هـ (١) .

فلما ولي القضاء سار فيه على سنة أبيه تحريا للحق ، وفودا عنه وصلابة فيه . ثم عزل نفسه في رمضان عام ٦٧٩ هـ ، واشتغل بالتدريس وتنتظر على المدرسة الصالحة ، فلبث حتى توفي في ١٠ المحرم عام ٦٨٠ هـ عن خمس وخمسين سنة .
 د السلوك ج ١ - حسن الماضرة ج ٢ ص ١١٣ - طبقات السبكي ج ٥ ص ١٣١ .

٨ - وجيه الدين البهنسى ٦٨٥ هـ

هو أبو محمد وجيه الدين عبد الوهاب بن سديد الدين أبى عبد الله بن الحسين ابن عبد الوهاب المهلبى البهنسى . كان قتيها عالما بالأصول والنحو متدينا . اشتغل

(١) في السلوك ج ١ ص ٦٥٧ أن ولايته القضاء كانت في منتصف جمادى الأولى عام ٦٧٨ هـ .

زمنًا طويلاً بالتدريس والمناظرة . وقد كان به حب للكتابة والنسبة . وقد تولى قضاء البلاد كلها بعد وفاة ابن رزين عام ٦٨٠ هـ في ٢٧ شعبان ، ثم عزل عن قضاء القاهرة والوجه البحرى استجابة لطلبه ، إذ قال إنه يضعف عن أن يجمع بين كل جهات القضاء . واستمر بيده قضاء مصر والوجه القبلى إلى أن توفى في جمادى الآخرة عام ٦٨٥ هـ . وهو شافى المذهب .

ولما مات انتقل قضاء مصر والوجه القبلى إلى تقي الدين عبد الرحمن ابن بنت الأعر .

ملفات البكى ج ٥ ص ١٣٣ — حن المحاضرة ج ٣ ص ١١٢ — السلوك ج ١ ص ٤١ .

٩ — برهان الدين السنجارى ٦٨٦ هـ .

هو أبو محمد الجضر بن الحسين بن على ، أخو القاضى بدر الدين السالف ذكره . وهو أيضاً شافى المذهب وأدرك عهد الأيوبيين وطرفاً من عصر المماليك . ولعل أول مرة ولى فيها منصب القضاء كانت في رمضان عام ٦٥٤ هـ . وفي شوال سنة ٦٥٩ هـ ، كان قاضياً على مصر والوجه القبلى ، بديل القاضى ابن بنت الأعر إذ صرف عن قضاء هاتين الجهتين وقصر أمره على قضاء القاهرة والوجه البحرى . وقيل عوضاً عن الوجه البهنسى . ثم صرف السنجارى عن قضاء مصر في رمضان سنة ٦٦٢ هـ . ويظهر أنه ظل بين تعيين وعزل في القضاء حتى كانت سنة ٦٧٧ هـ . وكان شهر ذى القعدة ، فاختاره الملك السعيد ناصر الدين بن بيبرس لى الوزارة عوضاً عن بهاء الدين بن حنا . فظل بها عصره وعصر أخيه العادل سلامش حتى عصر المنصور قلاوون فثبته في منصبه . فير أنه مالبث أن ساءت ظنونته فيه فمزله من الوزارة في ٢٦ رمضان سنة ٦٧٨ هـ ، وقبض عليه وعلى ولده شمس الدين عيسى ، وأخذت خيولها وخيول أتباعها ، وسجنا في دار الأمير علم الدين سنجر الشجاعى . وصودر أتباعها وحكم عليهم بأن يدفعوا غراماً مقداره مائتا ألف وستة وثلاثون ألفاً . ثم أفرج عن برهان الدين السنجارى ، بعد قليل فلزم مدرسة أخيه بالقراءة .

وفي أواخر جمادى الثانية عام ٦٧٩ هـ أعاده السلطان قلاوون إلى الوزارة ، وعزل هذا الصاحب نغر الدين بن لقمان ، ولكنه ما لبث أن عزل مرة ثانية وذلك في ربيع الأول عام ٦٨٠ هـ ، وقبض عليه وعلى ولده واعتقلا بقلعة الجبل . وصودرت أمواله وأهله . ثم أطلق سراحه بعد زمن . حتى كان يوم ١٠ ربيع الأول من عام ٦٨٢ هـ ، فأسند إليه التدريس بمدرسة بجوار ضريح الإمام الشافعي ، فلبث بهذا المنصب زمناً حتى كانت سنة ٦٨٦ هـ ، وكان يوم الأحد ١٥ المحرم ، فأسند إليه منصب قاضي القضاة بالقاهرة والوجه البحري . وجلس للفصل في القضايا بالمدرسة المنصورية بين القصرين . ورسوم له أن يجلس في دار العدل فوق قاضي القضاة تقي الدين بن بنت الأعز . قيل : فشق ذلك على ابن بنت الأعز ، وسمى في أن يعني من حضور دار العدل . فلم يشعر إلا وقد مات البرهان السنجاري في ٩ صفر من ذلك العام فجأة ، وذلك بعد أن ولي القضاء لآخر مرة نحو ٢٤ يوماً . وتوفي وسنه نحو سبعين سنة . وقد دفن بعد أن صلى عليه ابن بنت الأعز تقي الدين .

ملحوظة : ورد في طبقات السبكي ج ٥ ص ٥٥ اسم لأحد قضاة القضاة شليه باسم برهان الدين المذكور هنا إذ قال : الخضر بن الحسن بن علي ، الوزير الكبير قاضي القضاة برهان الدين السنجاري ، إلى آخره . ولكن سياق ترجمته لا يدل على أنه هو القاضي الذي ترجمنا له هنا . إذ أورد السبكي أنه توفي عام ٦١٨ هـ ، وقد نيف على الثمانين .

• سلوك القرعزي ج ١ - وحسن المحاضرة السيوطي ج ٢ ص ١١١ إلى ١١٣ - وطبقات السبكي ج ٥ ص ٥٥ - سورغ الإصر •

١٠ - شهاب الدين محمد الخوي ٦٩٣ هـ

محمد بن أحمد بن خليل من قضاة الشافعية . وهو الخوي منسوب إلى خوية بلدة بأذربيجان . وقد كان متولياً قضاء حلب ثم عزل . وعين مكانه نجم الدين أبو بكر بن سني الدولة ، وذلك في عام ٦٧٨ هـ في عهد السلطان المنصور قلاوون .

ولما طلب قاضى القضاة وجه الدين عبد الوهاب البهنسى أن يقال من بعض نواحى القضاء ، أقبل من قضاء القاهرة والوجه البحرى ، ويق بيده قضاء مصر والوجه القبلى . فأسند قضاء القاهرة والوجه البحرى إلى القاضى شهاب الدين محمد الخوي . وذلك فى أول رجب سنة ٦٨١ هـ وكان قبيل ذلك يشغل نيابة الحكم فى قضاء الغربية من أعمال مصر . ولما كانت أوائل سنة ٦٨٦ هـ انتقل الخوي إلى قضاء دمشق وترك قضاء القاهرة ، فأسند إلى برهان الدين خضر السنجارى كما مر فى ترجمته . وقد عاش الخوي حتى توفى فى سنة ٦٩٣ هـ . وكان ميلاده فى رجب عام ٦٢٦ هـ .

« حن المعاصرة ج ٢ ص ١١٢ ، ١١٣ - وسلوك القرى ج ١ - رف الامر »

١١ - تقي الدين بن بنت الأهر ٦٩٥ هـ .

وهو قاضى القضاة عبد الرحمن بن تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأهر ، وأخو قاضى القضاة صدر الدين عمر . كان عالماً فقيهاً . ذكياً فصيح اللسان مجاباً للأدب ، شاعراً مجيداً ومدرساً نافعاً . تأدب وسمع الحديث : وانتفع بعلم أبيه وأتقاه عصره كعمر الدين بن عبد السلام . وكان شافئى المذهب . وقد كان فى سنة ٦٨٠ هـ والياً على الخزائن المعمورة فى عهد الملك المنصور قلاوون . وفى ١٠ المحرم من تلك السنة توفى أخوه صدر الدين ، وكان ناظراً على المدرسة الصالحية والتربة الصالحية . فصدر مرسوم الملك المنصور ، بأن يخلفه فى النظر أخوه تقي الدين ، مضافاً إلى ما بيده فى نظر الخزائن ، بشرط أن يكتب بالاجر الذى يصله من المدرسة والتربة فقط ويحذف أجره من نظر الخزائن . فتم ذلك .

ولما توفى القاضى وجه الدين البهنسى عام ٦٨٥ هـ ، وكان بيده قضاء مصر والوجه القبلى ، اختير لهذا المنصب من بعده القاضى تقي الدين . فتم تعيينه فيه فى يوم الأربعاء ١٥ جمادى الأولى من العام المذكور .

ولما نقل القاضى شهاب الدين الخوي من قضاء القاهرة والوجه البحرى إلى قضاء دمشق ، وأسند منصبه هذا إلى القاضى برهان الدين السنجارى فى نصف المحرم

سنة ٦٨٦ هـ ، نزل السنجارى مجلس الحكم فى المدرسة المنصورية بين القصرين .
ورسم له أن يجلس فى دار العدل فوق قاضى القضاة تقي الدين عبد الرحمن بن
تاج الدين بن بنت الاعز . فشق ذلك على القاضى تقي الدين وسعى أن يعنى من
الجلوس للحكم فى دار العدل . ولكنه ما لبث أن مات برهان الدين السنجارى
فى ٩ صفر فجأة بعد ولايته ٢٤ يوماً . فانضم قضاء القاهرة والوجه البحرى إلى
قاضى القضاة تقي الدين عبد الرحمن ، وبذلك أصبح قضاء البلاد كلها فى قبضة يده
مع نظر الخزانة المعمورة . وأصبح ذا مكانة ممتازة . حتى لقد عرض السلطان
المنصور عليه أن يلى الوزارة وذلك فى ربيع الأول سنة ٦٨٧ هـ فامتنع . فولياها
الأمير بدر الدين بيدرا ، وأمره السلطان بمشاورة ابن بنت الاعز تقي الدين ، وأن
يعمل بما يشير به عليه . وقيل بصدد هذا إن السلطان كان إذا دخل عليه القاضى
تقى الدين - وهو يومئذ ناظر الخزانة - يقول له : يا قاضى كيف حال ولدك
بيدرا فى وزارته ؟ فيقول له : ياخوندا ولد صالح ، دخلت بولايته الجنة .
وأزلت الظلم واستجلبت لك الدماء . والذى كان يحصل بالسف حصل باللفف .

وصار القاضى تقي الدين يدخل على بيدرا كل يوم أربعاء وينظر فى تصرفاته
ويقش عمله ويشير عليه بما يفعل . ثم لم يلبث بيدرا أن عزل فى ١٩ ربيع الآخر
من العام نفسه ، واستدعى قاضى القضاة تقي الدين عبد الرحمن ليلى الوزارة مع ما
بيده من القضاء ونظر الخزانة . فقبلها بعد أن قبلت شروطه التى قدمها . غير أنه
- كما يقول المقرئ - لم يوف كل هذه المناصب حقها لا تقاسم وقته فيما بينها ،
ولتشعب عمله فيها . إذ كان يجلس فى اليوم الواحد مرة فى دست الوزارة
ومرة فى مجلس الحكم ومرة فى ديوان الحكم . ولم يوف منصب الوزارة حقه
لتسكه بظاهر الأمور الشرعية . . . فاعفى من الوزارة وأعيدت إلى الأمير
بيدرا بعد قليل .

وبعد زمن يسير أسندت الوزارة إلى ابن السلجوس . وذلك فى أوائل حكم
السلطان الأشرف خليل ، لأنه كان من أصفياه وخلصائه . وفوض إليه أمور

دولته حتى عظم شأنه ، وأصبح صاحب الكلمة الأولى في الدولة ، واستهان بغيره من أمراء وكبار وموظفين . ولعل قاضي القضاة تقي الدين عبد الرحمن لم يعترف بتلك العظمة التي بلغها ابن السلعوس ، فلم يعامله بالتجلة المناسبة ، ولهذا كرهه ابن السلعوس وطلق يكيد له لدى السلطان حتى عزله عن جميع المناصب التي كان يتولاها ، وقيل إنه كان يتولى سبعة عشر منصباً ، منها : قضاء الشافعية في الديار المصرية كلها وخطابة الأزهر ونظر الخزانة ومشيخة الشيوخ ونظر تركة يبرس وأوقافه وجملة دروس . وقد تم هذا في رمضان عام ٦٩٠ هـ ، وتولى القضاء من بعده بدر الدين بن جماعة .

ولما عزل القاضي تقي الدين عبد الرحمن ، عز أمره على جماعة من الأمراء ، منهم الأمير علم الدين سنجر الشجاعي ، فتقدم هذا الأمير إلى السلطان الأشرف خليل وشفع لديه في القاضي تقي الدين ، واتفق وإياه على أن يتولى قضاء الشام ، فعلم عدوه ابن السلعوس بالآمر ، فما كان منه إلا أن دبر له مؤامرة دينية ، اتهمه فيها بأنه يلوط وأنه كافر ، وأنه يقتبسه بالنصارى . ولم يعجزه أن يسوق الشهود لإثبات ذلك حتى اندفع السلطان إلى أن حكم على القاضي البريء بأن يركب حملاً ويظهر في الطريق . فقبض عليه الوزير وتكل به وسجنه ، وطالبه بمال كثير وألحق به ضرراً من الإهانة . وما زال أمره في محنة ، حتى شفع فيه لدى السلطان الأمير بدر الدين بيدرا ، بناء على طلب الأمير بدر الدين بكتاش الفخري ، فأطلق السلطان سراحه بعد أن لبث في السجن أياماً ، وغرم غراماً مالياً طائلاً . وقد استمرت محنته إلى آخريات العام المذكور ٦٩٠ هـ . بفضل حنق ابن السلعوس عليه ، ولم تهدأ هذه المحنة إلا قليلاً من الزمن ، تولى خلاله التدريس في المدرسة الناصرية بجوار ضريح الإمام الشافعي ، وبسبب ذلك طولب بأن يؤدي مالا ومثل وأهين مرة ثانية وادعى عليه بالباطل . ثم سجن مرة أخرى . وظل في السجن حتى أول شهر رمضان عام ٦٩٢ هـ . فأفرج عنه . ولم يجد الرجل بداً من أن يداهن ويتعلق حتى ينجو من الشر ، فألشأ قصيدة يمتدح بها الوزير

ابن السلحوس . باعث محنته ومسبب كربته قبلها منه ومن ثم ثبتت برأته .
وأذن له في المسير إلى مكة ليؤدي فريضة الحج . بعد طول هذه الإهانة ، وبعد
بذل هذا الغرم الكبير الذي قيل إنه بلغ ثمانية وثلاثين ألف دينار .

قبل إنه لما حج وزار قبر النبي عليه السلام ، كشف رأسه واستغاث به
ومدحه بقصيدة دالة - مستشفعا به إلى الله أن يحيره . فلم يصل إلى
القاهرة إلا وقد أزال الله ملك الأشرف خليل فقتل . أما وزيره ابن
السلحوس فقد سجن وعذب حتى مات ، وهكذا تقلبت الأحوال . وبدأت
سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون . وهي سلطته الأولى ، وكان وزيره فيها
الأمير علم الدين سنجر الشجاعى . وذلك في أوائل المحرم عام ٦٩٣ هـ . فعزل
القاضى بدر الدين بن جماعة من قضاء الشافعية ، وأسند في ١٩ صفر إلى القاضى
تقى الدين عبد الرحمن بن بنت الأهر كما ذكر . وسمى ذا الرئاستين . وقد وصل إليه
خير عودته إلى القضاء قبل وصوله إلى القاهرة . فظل في منصبه هذا حتى شهد هدم
عهد الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى . ثم وافته منيته في ١٦ جمادى الأولى
عام ٦٩٥ هـ . وكان ميلاده في ١٢ رمضان عام ٦٣٩ هـ ،

وروى الفضله من بعده تقى الدين بن دقيق العيد القشيرى .

• طبقات البكى ج ٥ ص ٦٤ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٢ و ١١٣ - تاريخ ابن الوردى
ج ٢ حوادث عام ٦٩٥ - فوات الوفيات ج ١ ص ٣٢٧ - سلوك المفريزى ج ١ - رفع الأصرة .

١٢ - تقى الدين بن دقيق العيد القشيرى (١) ٧٠٢

هو قاضى القضاة العف الورع ، تقى الدين أبو الفتح محمد بن مجد الدين على
ابن وهب بن مطيع بن أبى الطاعة القشيرى المنفلوطى المعروف بابن دقيق العيد .
ولد بناحية ينبع سنة ٦٢٥ هـ ، وكان أبوه حينئذ متوجها من قوص إلى مكة لأداء
فريضة الحج . وقد نشأ مباركا ذكيا جليل النظر ، حسن الاستنباط ، وتمذهب
كأبيه بمذهب الإمام مالك ثم عدل عنه إلى مذهب الشافعى ، حتى أصبح فيه قدوة

وإماما ، وثبغ في الفقه والحديث والأصول والنحو . وله باع طويل في الشعر والكتابة والوعظ والتأليف والتدريس . وأكب على الاطلاع والدرس ، وتتلذذ للشيخ عز الدين بن عبد السلام وغيره من الأفاضل .

وقد تولى التدريس بالمدرسة المجاورة لقبة الشافعي في شهر رجب سنة ٨٦٨٠ . ولما توفي القاضي الشافعي تقي الدين بن بنت الأعز عام ٦٩٥ هـ . اختير تقي الدين ابن دقيق العيد ليلي منصب القضاء ، وذلك في دولة العادل كتيبا المنصوري ، فتأني وامتنع . فهددوه بأن يولوا القضاء رجالا لا يصلحون له ، تخاف تقي الدين وأوجب على نفسه القبول خشية على العدالة . وقد قام بمهمة القضاء خير قيام بعفة ونزاهة ومهارة وحكمة ، حتى أجله السلطان وعظمه الأمراء . واشتد في الحق شدة شبيهة بشدة القاضي تاج الدين بن بنت الأعز . وغير لباس القضاء من الحرير إلى الصوف . وعما يدل على شدته أن الأمير منكوتر نائب السلطنة في عهد السلطان لاجين أراده على أن يقضى لشخص يارث رجل متوفى باعتباره أنه أخوه ، فرفض القاضي تقي الدين على الرغم من إلحاح منكوتر عليه وتحميله ، وهم بترك القضاء لولا إلحاح السلطان عليه . والسبب في ذلك أن الأذلة لم تقم لديه كاملة على الأخوة المذكورة ، إلا شهادة منكوتر وحده . وعما يدل على ذلك أيضاً أنه في عهد الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثانية ، أراد السلطان ما لا من الرعية لإتفائه على تجريدة له إلى بلاد الشام . واحتاج في ذلك إلى فتوى من القاضي تقي الدين بن دقيق العيد فرفض . فاحتجوا عليه بفتوى العز بن عبد السلام للبطفر قطر بجواز أخذ مال من الرعية . فرد عليهم بأنه لم يميز ذلك إلا بعد أن أحضر الأمراء مالههم من مال وحلى هم وأولادهم ونساؤهم . وحلف كلا منهم أنه لا يملك غير ما تقدم . وظل رافضا آبيا وقام عنهم . فكان رفضه هذا سبباً لعدم إرهاب الرعية بضرائب فادحة .

وعما يذكر لتقي الدين بن دقيق العيد أنه كان كثير النصح للناس دائماً الإرشاد لنواب حكمه يوصيهم بالعمل الصالح ومراعاة العدل . ويدنح لهم رسائل طريفة

جامعة برسم لهم فيها طريق العمل . . وخرج مرة مع الناصر محمد بن قلاوون عام ٦٩٩ هـ إلى الشام لمحاربة التتار وشهد موقعة سليمة . وظل في القضاء مهيب الجانب محمود السيرة ساءى المنزلة حتى قبض إلى رحمة الله عام ٧٠٢ هـ في ١٢ صفر . وسنذكر عنه كلمة منفصلة في الجزء الثاني من كتابنا هذا ، ومن شعره كثير في مدح النبي عليه السلام والغزل والحنين ، وقد ورد كثير منه في طبقات الشافعية للسبكي مع بعض أثره وخطبه .

« طبقات الشافعية ج ٦ ص ٢ - حسن الماضرة ج ٢ ص ١١٣ - ١١٤ - وفي فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٠٥ - ابن أبياس ج ١ ص ١٤٠ ، ١٤٣ ، ١٤٧ - الطالع الجيد للأدنى رقم ٤٦٢ - وفي سلوك القرزى ج ١ - وفي رفع الإصر »

١٣ - بدر الدين بن جماعة ٧٣٣ هـ

هو قاضى القضاء العالم الفاضل المؤلف الكاتب الشاعر الأديب ، بدر الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن علي بن جماعة بن حازم بن صخر الكنانى الحمري ، نفر حماة . وقد ولد في ربيع الآخر سنة ٦٣٩ هـ وله أسرة من أهرق أسر مدينة حماة ، بارك الله في كثير من رجالها فخدموا العلم والدين والأدب والعدالة في القضاء خير الخدمات . وقد برع هذا القاضي في الفقه والحديث وتفسير القرآن الكريم والكتابة الإنشائية ونظم الشعر . ولما ذاع فضله وكل إليه قضاء الشافعية بالقدس وخطابتها في شوال سنة ٦٨٧ هـ .^(١) وكان قبيل ذلك يشتغل بالتدريس في دمشق . فلبث في القدس حتى وقعت الفتنة والعداوة بين قاضى قضاء الشافعية بمصر وهو تقي الدين عبد الرحمن بن بنت الأعزويين الوزير المستبد ابن السلجوس ، وأدى ذلك إلى عزله من القضاء . وأشار ابن السلجوس على سلطان البلاد الأشرف خليل بن قلاوون ، بأن يولى في قضاء الشافعية عوضاً عنه قاضى القدس وخطيبها ، بدر بن جماعة ، فوقع عليه اختيار

(١) قيل في الدور الكائنة أنه تولى سنة ٦٨٢ هـ

السلطان فعلا . وكانت بين بدر الدين وبين ابن السلوس صلة ودوية . ومن غريب ما يروى في هذا المقام أن السلطان لما عزل القاضي تقي الدين أراد أن يختار رجلا من رجال الشافعية بالديار المصرية ليؤليه القضاء فسأل هؤلاء الرجال واحدا واحدا ، كل منهم على انفراد ، فيمن يصلح منهم ليل هذا المنصب الجليل ، فما منهم إلا ذم زميله وأهل مذهبه وعندئذ وجد ابن السلوس الوزير فرصة أشار فيها على سلطانه بأن يختار البدر بن جماعة . فأرسل إليه ، فوفد إلى مصر وأجله أهلها . وتولى قضاء الديار المصرية في رمضان عام ٦٩٠ هـ . وخطب بالجامع الأزهر وألقى دروسه في المدرسة الصالحة . وكان يجيد إلقاء هذه الدروس ، كما أنه كان يعنى بتدبير خطابته وتمييقها . ولبت في منصبه حتى أوائل المحرم عام ٦٩٢ هـ ، إذ كانت السلطنة قد آلت إلى الناصر محمد بن قلاوون ، وكانت الوزارة قد آلت إلى الأمير علم الدين الشجاعى صديق القاضي تقي الدين بن بنت الأعر . ف عزل البدر بن جماعة من منصب القضاء وأعيد إليه تقي الدين بن بنت الأعر . وتم ذلك في ١٩ صفر من العام المذكور . وأسند إلى بدر الدين بن جماعة التدريس في المدرسة الناصرية بحوار قبة الشافعى وفي المشهد الحسينى . ثم نقل بعد قليل إلى قضاء الشافعية بدمشق . وفي السنة التالية أضيفت إليه الخطابة بالجامع الأموى . وقيل إنه أول من جمع له بين القضاء والخطابة بدمشق . وظل في منصبه حتى شهد عصر السلطان المنصور لاجين ، فعزل من قضاء الشافعية بدمشق وحل محله إمام الدين عمر ابن عبد الرحمن القزوينى وذلك في ٤ جمادى الأولى عام ٦٩٦ هـ . وأصبح أمر ابن جماعة مقصورا على الخطابة في جامع دمشق والتدريس بالمدرسة التيمرية بها . ولبت على تلك الحال زمنا حتى توفي القزوينى ، فأعيد إليه منصب قضاء دمشق في ١٥ شعبان عام ٦٩٩ هـ . وفي سنة ٧٠١ هـ أضيفت إليه مشيخة الشيوخ بدمشق بإجماع الصوفية ، بعد موت شاغلها وهو ابن حمويه في ربيع الأول . ولما مات قاضى قضاء الشافعية بمصر آتت وهو تقي الدين بن دقيق العيد ، وقع الاختيار على القاضي بدر الدين بن جماعة ليل المنصب . وهذه ثاى مرة يليه فيها . (٧٢ - عاله)

فقدم إلى القاهرة وخلعت عليه خلع المنصب في يوم السبت ٤ ربيع الأول عام ٧٠٢ هـ. ثم ظل أمره في قضاء مصر بين عزل وتعيين، حتى كف بصره وثقل سمعه في أخريات حياته، فاعتزل القضاء عام ٧٢٧ هـ، وأقام في داره وفي مدرسة الخنسية يدرس العلم للناس. ويعرف عنه أنه كثرت أمواله فترك أخذ الأجر على القضاء. ثم توفي سنة ٧٣٣ هـ بالقاهرة في سن ٩٥ تقريبا، ودفن بالقرافة، بعد أن بلغ من المجد أوجه ومن العز أعلاه ومن الجاه أسماء. وقد ظل حياته مرجعا للأمراء في الصلح وفي الثورى والسفارة. وكان لا يفتأ يسعى لصالح الناس إلى أبواب الملوك. وكان في الوفد الدمشقي الذي وفد على السلطان غازان ملك التتار عام ٦٩٩ هـ، رجوه أن يرسل أمانا إلى أهل دمشق وألا يبطش بهم. وذلك بعد أن هزم جيوش مصر وفروا من وجهه إلى ديارهم.

ويعتبر القاضي بدر الدين بن جماعة أحد أدباء العصر ومؤلفيه، لما له من خطابة جامعة شاملة كان يكف على إعدادها. ولما له من نظم مليح. ولما له من مؤلفات منها: رسالة في الأسطرلاب، وأخرى سماها «كشف المعاني» بحث فيها عن بعض معاني القرآن الكريم والفروق بين الآيات المتشابهة فيه. وله شعر ذكر بعضه السبك في طبقاته، وهو دقيق من النوع العلى. كما ذكر له عدة مسائل فقهية أفتى فيها برأى صائب، وجملة تفاسير قرآنية جليلة في التشابهات.

وأ أسرة ابن جماعة من الأسر التي أسدت خدمات جليلة للدين والقضاء والعلم والأدب. ومن أبنائه قاضي القضاء «عبد العزيز بن جماعة» ولد سنة ٦٩٤ هـ بدمشق وسمع الحديث من الأبرهوق وابن عساكر. وتولى قضاء الشافعية بمصر زمنا، وزاول التدريس بها زمنا آخر بجامع الإمام الشافعي وجامع ابن طولون وتوفي بمكة المكرمة سنة ٧٦٧ هـ. — أما بدر الدين بن جماعة نفسه فقد دفن بالقرافة بالقاهرة.

« ابن لاس ج ١ من ١٣٥، ١٤٠ - طبقات السكك ج ٥ من ٢٣٠ - وفي فوات الوفيات ج ٢ ص ٢١٧ - وفي كتاب تاريخ حماة لابن الصابوني الحموي - وفي تاريخ ابن الوردي ج ٢ حوادث عام

٧١١ هـ - سوق حسن المخاضرة ج ٢ ص ١١٤ ، ١١٥ - وفي الدرر ج ٣ رقم ٧٤٦ - وفي السلوك ج ١ - وفي رفع الإمر « .

١٤ - جلال الدين القزويني ٧٣٩ هـ

هو محمد بن عبد الرحمن بن عمر . ويلقب بجلال الدين . وأصله من بلاد قزوين ، قدم إلى دمشق . وكان شافعي المذهب ، فاشتغل بالتدريس في مدارس . ثم نائب في الحكم عن القاضي نجم الدين بن مصري ، قاضي قضاء دمشق . ثم اشتغل بالتدريس بالمدرسة البدرانية وولى الخطابة بدمشق ، ولحق حينذاك ، من نائبها كراى أذى كثير ، بسبب وقوفه مع العوام يسوق الخيل محتجين على الضرائب التي فرضها عليهم . ولكن سرعان ما عزل النائب لهذا . وولى جلال الدين قضاء القضاة بها . ثم انتقل إلى قضاء الشافعية بمصر سنة ٧٢٧ هـ ، على أثر عزل بدر الدين ابن جماعة . فلبث فيه زهاء إحدى عشرة سنة ، ثم عزل سنة ٧٣٨ هـ ، وانتقل ثانية إلى قضاء دمشق ، فظل حتى مات سنة ٧٣٩ هـ . فولى قضاء الشام من بعده تقي الدين السبكي^(١)

وكان جلال الدين كريما سمحا غزير العلم ، متصدرا للفتوى ، مشغلا بالشئون العامة . وقد وفد على ملك التتار غازان ، حينما أراد أن يقتحم دمشق سنة ٦٩٩ هـ ، فأرسلت إليه دمشق وفدا يطلب الأمان ، كان فيه بدر بن جماعة ، وجلال الدين القزويني . فأخبرهم أنه آمنها قبل قدومهم .

ولما مات رئاه صلاح الدين الصفدى بقصيدة منها :
هذا الإمام الذى ترضى حكومته خلاف ما قاله النحوى فى الصحف
جهر منى جال فى بحث ويجاد فلا تسأل عن البحر والمطالة الوطف
ومن مؤلفاته الكثيرة : كتاب التلخيص فى المعانى والبيان . وكتاب

(١) انظر ترجمة تقي الدين السبكي منفصلة فى باب العلماء وللاؤلفين بالجزء الثانى من كتابنا هذا .

الإيضاح فيه أيضا . وكانت ولادته بالموصل عام ٦٦٦ هـ .

« طبقات البكي ج ٥ ص ٢٣٨ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٤ ، ١١٥ - ابن لاس ج ١ ص ١٤٠ -
ورقم الأصم حوروى البكي أنه مذكور في سبع الطوق لابن نباتة والمالك لابن فضل الله - راجع
أيضا المجلد السادس من كتابنا هذا . »

١٥ - ناصر الدين بن الملق ٧٩٨ هـ

محمد بن عبد الدائم بن سلامة بن بنت الملق ويقال له ابن الملق - تناوب
قضاء الشافعية زمنا ، هو وبدر الدين السبكي ، وغيرهما من القضاة . وأول تولية
له كانت في شعبان عام ٧٨٩ هـ ، في عهد برقوق ، فلما خلع عليه السلطان خلعة
التولية ، امتنع من لبسها ، غاية الامتناع ، فأكرمه السلطان على لبسها ، وتوفي
عام ٧٩٨ هـ . وكان مولده في عام ٧١٢ هـ .

« حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٥ - رقم الأصم - ابن لاس ج ١ ص ٢٦٧ ، ٢٠٤ »

١٦ - بدر الدين السبكي ٨٠٣ هـ

هو بدر الدين محمد بن القاضي بهاء الدين أبي البقاء محمد بن عبد الله السبكي .
كان شافعي المذهب تولى أبوه بهاء الدين قضاء الشافعية بمصر زمنا . أما بدر الدين
فقد ولي قضاء الشافعية سنة ٧٧٩ هـ . ثم هزل منه مرارا ، وعاد إليه مرارا أخرى .
فمن ذلك انفصالة عام ٧٨٩ هـ ، ثم عاد إليه سنة ٧٩١ هـ . وتوفي في ليلة السبت
١٧ ربيع الثاني سنة ٨٠٣ هـ .

« ابن لاس ج ١ ص ٢٦٨ ، ٣٤٠ - حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٥ »

١٧ - موفق الدين الحنبلي ٨٠٣ هـ

هو أحمد بن نصر الله بن أحمد ، موفق الدين بن ناصر الدين السكنافي العسقلاني
الأصل ، القاهري الحنبلي . سبط الموفق عبد الله . اشتغل بالفقه وغيره . فهر . وولى
قضاء الحنابلة بالديار المصرية بعد أخيه إبراهيم ، ثم صرف عام ٨٠٢ هـ . ثم أعيد
في آخرها ، فلبث به إلى السنة التالية . وخرج عام ٨٠٣ هـ مع الناصر فرج للقاء
تيمورلنك بالشام ، فهزم الجيش ، وعاد الموفق إلى مصر ، مع من عاد . وتوفي

بعد قليل في رمضان عام ٨٠٣ هـ . وكان مولده في المحرم سنة ٧٦٩ هـ .

« ابن لباس ج ١ ص ٣٢٨ ، ٣٣٧ - دفع الإصر - الضوء اللامع ج ٣ رقم ٦٥٧ »

١٨ - صدر الدين المناوى ٨٠٤ هـ

كان شافعى المذهب . أول ما ولى قضاء الشافعية في مصر في ذى القعدة عام ٧٩١ هـ ، ثم عزل في الشهر التالى ثم أعيد في المحرم سنة ٧٩٥ هـ عوضا عن عماد الدين السكركى . ثم أعيد وعزل عام ٧٩٩ هـ ، ثم أعيد وعزل في السنة التالية . ثم أعيد في رجب سنة ٨٠١ هـ وهكذا ظل أمره بين التعيين والعزل في عهد برقوق وابنه فرج .

وقد خرج مرة مع السلطان فرج إلى بلاد الشام سنة ٨٠٣ هـ في حملته ، لقتال تيمور لك ملك التتار ، فانهزم الجيش المصرى ، وأسر التتار منه عددا ضخما ، كان من بينه ، القاضى صدر الدين المناوى . ويقال إن تيمور لك وضع القاضى صدر الدين في كيس وأغرقه في نهر الفرات سنة ٨٠٤ هـ .

« حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٥ - ابن لباس ج ١ ص ٢٩٨ ، ٣٠٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٤ ، ٣٤٢ »

١٩ - ولى الدين بن خلدون ٨٠٨ هـ

هو عبد الرحمن بن خلدون المؤرخ المشهور . كان مالكي المذهب . تولى قضاء المالكية بمصر عدة مرات . أولها جمادى الآخرة عام ٨٨٦ هـ بعد عزل القاضى جمال الدين خير السكندرى .

وستنرجم له بتفصيل في الجزء الثانى ، والثالث من كتابنا هذا .

« حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٣ »

٢٠ - تقي الدين القرشى ٨١٣ هـ

هو أبو محمد عبد الرحمن بن محمد عبد الناصر بن هبة الله . تقي الدين القرشى الزبيرى المحلى الشافعى . كان والده من أعيان أهل المحلة . اشتغل بالفقه وغيره . وممن في التوقيع . ومازال يرقى حتى ناب في القضاء ، ثم ولى قضاء الشافعية بمصر

بعد عزل الصدر المتاوى عام ٧٩٩ هـ . فباشره بمنكته ومعزقة وعفة . ثم عزل في عام ٨٠١ هـ وولى غير القضاء . وقد توفى عام ٨١٣ هـ ودفن بقرية الصوفية خارج باب النصر .
« الضوء اللامع ج ٤ ، رقم ٣٦٢ » .

٢١ - صدر الدين بن العديم

كان حنفى المذهب ، تولى قضاء الحنفية في مصر ، في عهد سلطنة الخليفة المستعين بالله وتولى معها حسبة القاهرة . ويقال إنه أول من جمع بين القضاء والحسبة . وظل متوليا في عهد الملك المؤيد شيخ مدة .
« ابن لياس ج ١ ص ٣٥٩ - ج ٢ ص ٩٤ »

٢٢ - جلال الدين البلقينى ٨٢٤ هـ

هو أبو الفضل عبد الرحمن بن عمر بن رسلان ، وأبوه شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينى . كان شافعى المذهب مثل أبيه . فنشأ في كنفه ورعايته ، لحفظ القرآن الكريم وكتبا عدة علوم مختلفة . وفقهه أبوه وغيره . وكثرت مشايخه . وسمع الحديث ...

ولما ولى أبوه قضاء دمشق ، رحل معه وهو صغير . ولبت مكبا على طلب العلم في ذكاء وصبر ، وجد وقوة حافظته . وكان - كما قال ابن حجر - من عجائب الدنيا في سرعة الفهم وجودة الحفظ ، فمر في مدة يسيرة ، وأصبح أهلا لولاية الوظائف فاشتغل موقعا بالديست بديوان الإنشاء ، وولى قضاء العسكر ، وإفتاء دار العدل ، وتوقيع الدرج . ونبه شأنه وكان قد أذن له في الفتوى والتدريس فتصدى لها وكثرت طلبته .

ثم ولى قضاء الشافعية بمصر لأول مرة في جمادى الأولى عام ٨٠٤ هـ في حياة أبيه ، عوضا عن القاضي ناصر الدين الصالحى . ثم عزل في سنة ٨٠٥ هـ ، وأعيد سنة ٨٠٦ هـ ، ثم عزل بعد قليل .

وكان مبتلى بحب القضاء ، يأسف للجزل ، ويسعى للعودة ويهش لها . وظل

أمره فيه بين عزل وإعادة ، وشهد عصر فرج بن برقوق ، وعصر المستعدين بالله الخليفة السلطان فعزل في عهده مدة ، فأسرها بعزل هذا في نفسه - على ما قيل - وأقوى المؤيد شيخ بعزل الخليفة من السلطنة .

وظل في القضاء مرة نحواً من ستة أعوام ، وذلك في صفر عام ٨١٥ هـ إلى جمادى الأولى عام ٨٢١ هـ . ثم عزل ثم أعيد في عام ٨٢٢ هـ . ولبث في منصبه حتى توفي في ليلة ١١ شوال عام ٨٢٤ هـ . وكان مولده عام ٧٦٣ هـ .

وكانت وفاته في منزله بالصالحية . وقال السخاوي في الضوء : إن وقته كانت بالقاهرة . وأنه مات مسموماً بمكيدة .

وكان مهيباً عفيف النفس ، لا يقبل هدية من صديق أو غيره . متواضعاً لين الجانب . اشتغل بالتدريس في مدارس عدة وله تلاميذ أفاضل أئمة ، منهم ابن حجر العسقلاني . وله نثر ونظم في مسائل علمية ، ما بين أسئلة وأجوبة وغيرها .

وله أخ اشتهر بالعلم والتقوى كأيهما : وهو « علم الدين صالح البلقيني » ، الآتي ذكره ، ولى القضاء زمناً بعد أخيه . وله أيضاً ابن اسمه « تاج الدين البلقيني » .

« حسن الخاضرة ج ٢ ص ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١١٥ ، ١١٦ - ابن إياس ج ١ ص ٣٤٢ ، ٣٥١ - ج ٢ ص ٩ - الضوء اللامع ج ٤ رقم ٣٠١ » .

٢٣ - مجد الدين أبو البركات الحنبلي ٨٢٦ هـ

هو سالم بن سالم بن أحمد بن سالم . . . القاضي مجد الدين أبو البركات بن أبي النجا المقدسي القاهري الحنبلي . لعله ولد بالمقدس ، وذلك عام ٧٤٨ هـ أو ٧٤٩ هـ .

وقد اشتغل بطلب العلم في بلده ، فبرز في فنون عدة منها : الفقه . وسمع الحديث ورأى في الحكم ، ثم وفد على القاهرة عام ٧٦٤ هـ ، فزاد تفقهاً على كثيرين من أئمتها ، وفي مقدمتهم قريبه « موفق الدين الحنبلي » . فلما مات الموفق اختير مجد الدين لقضاء الحنابلة عام ٨٠٣ هـ ، بعد تردد منه . وأضيف إليه التدريس في مدارس عدة . ولبث في القضاء نحواً من خمسة عشر عاماً . ثم مرض وضعف ، ففقد عنه ، ثم توفي عام ٨٢٦ هـ .

٢٤ - زين الدين التفتنى ٨٨٣٥

هو زين الدين أبو هريرة التفتنى، واسمه عبد الرحمن بن علي بن عبد الرحمن ولد بتفتنا عام ٨٧٦٤، بالقرب من دمياط، ومات أبوه وهو صغير. وكان فقيرا، فانتقلت به أمه إلى القاهرة، وهناك تفقه وسمع، حتى أصبح أحد رجال الحنفية البارزين. ومهر، فضلا عن الفقه والحديث، في الأصول والتفسير والعربية والبلاغة والمنطق، وتصدى للتدريس والفتوى وناب في الحكم عن الأمين الطرابلسي وغيره. وولى مشيخة مصر غتمشية، واشتغل بالخطابة.

ثم ولى قضاء الحنفية بعد الشمس بن الديري، في عام ٨٨٢٢، فباشره مباشرة حسنة، وسار فيه سيرا محمودا. ثم صرف عنه عام ٨٨٢٩، وحل محله البدر العيني. وولى هو مشيخة الشيخوخة.

لم يلبث أن مات عام ٨٨٣٥ ودفن بقرية صهره الشهاب المحلى - كبير تجار مصر - بالقرب من قرية يشبك الناصرى بالقراة.

النبوء الاصح ٤ رقم ٢٨٥.

٢٥ - شهاب الدين بن حجر العسقلاني ٨٥٤

هو شيخ الإسلام وقاضى قضاء الشافعية بمصر. ولى القضاء لأول مرة عام ٨٨٣٠ وقيل عام ٨٨٢٧، في عصر الأشرف برسباى. وعزل من القضاء مرارا، وأعيد إليه. حتى اعتزله نهائيا في جمادى الآخرة عام ٨٥٢ هـ، وتوفى عام ٨٥٤ وقيل ٨٥٢ هـ.

وابن حجر كان علامة زمانه في فقه الشافعية، وكان من حفاظ الحديث كما أنه كاتب وشاعر ومؤلف فذ، وله كتب في التاريخ والحديث، هي الحجة والسند منها: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. والأصابة في تاريخ الصحابة وشرح البخارى.

ملحوظة: ترجمناه بتفصيل في الجزء الثانى من كتابنا هذا في باب العلماء والمؤلفين ونوهنا بأدبه في الجزء الثالث والرابع.

٢٦ - سعد الدين الديري ٨٦٧ هـ

هو سعد الدين بن محمد بن عبد الله بن سعد بن أبي بكر ، وهو سعد الدين أبو السعادات النابلسي الأصل الدمشقي الحنفي نزول القاهرة . يعرف بالديري نسبة إلى مكان بجبل نابلس يسمى الدير . وكان ذكي الفؤاد سريع الحفظ . تفقه على أبيه وعلى كثير من رجال عصره الأفاضل مثل كمال الدين السريجي وعلاء الدين ابن النقيب . ونسخ في فقه الحنفية وروى كثيرا من الأحاديث . وأجيزت له روايتها عن برهان الدين بن جماعة . وكان محبا للمباحثات والمناظرات العلنية ، مقبلا على تفسير القرآن الكريم ، كثير الاطلاع ، محبا للأدب ، كاتبنا ظملا .

وقد زادت مهابته في عهد أبيه ، فكان يقدمه على نفسه في الفقه وغيره . وحج عدة مرات أولها سنة ٨٠١ هـ . ويعتبر في مقدمة رجال الحنفية في زمانه . وقد تولى قضاءها بالبلاد المصرية لأول مرة في المحرم عام ٨٤٢ هـ عوضا عن العيني . فكان في منصبه مهيبا كثير الغفة . ثم عزل وأعيد مرارا ، وشهد عصر الظاهر جقق إلى عصر الأشرف إينال ، وكان أحد قضاته . ثم فصل في أواخر عام ٨٦٦ هـ وتوفي في العام الذي يليه وهو ٨٦٧ هـ في ٩ ربيع الآخر وقيل في ١٠ منه . وقد اشتهر بالتدريس بمدارس عدة منها المدرسة المعظمية بالقدس وتولى مشيخة الجامع المؤيدي زمنا . ولما مات دفن بمقبرة الظاهر خشفتم بعد أن تولى القضاء خلال ثلاثين عاما عدة مرات . وله ابن من رجال العلم والفضل يعرف بـ « بتاج الدين » ، توفي سنة ٨٩٢ هـ .

ومن مؤلفاته : شرح العقائد النفيسة والكواكب النيرات في وصول ثواب الطاعات إلى الأموات ، والسهام المارقة ، ومنظومة في علم البديع تسمى « النجانية » ، وهي طويلة ، وفتوى في الحبس بالتهمة ، وفتوى في هل تنام الملائكة أم لا ، وفتوى في هل منع الشعر مخصوص بنينا عليه السلام أم عام في جميع الأنبياء ، وتكملة شرح الهداية للسروجي صنف منها شيئا ، وقصيدة مخمسة في مدح النبي عليه السلام .

حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٢ — ابن ياس ج ٢ ص ٣٣، ٦٥، ٧٤، ٧٦، ٢٤٥ — الضوء
اللامع ج ٣ رقم ٩٣٩ — الفوائد البهية للكنوز الهندى ص ٨٧ .

٢٧ — علم الدين البلقيني ٨٦٨ هـ

هو صالح بن عمر بن رسلان بن نصير بن صالح . علم الدين بن سراج الدين .
وأخو القاضي جلال الدين . كان شافعى المذهب . وأول من سكن « بلقينة » ، جده
صالح . وكان مولد علم الدين بالقاهرة سنة ٨٩١ هـ .

نشأ حفظ كتباً وتفقه بأخيه جلال الدين وغيره ، ودرس الفقه والأصول
والنحو والحديث ، وحج عام ٨١٤ هـ . ودخل دمياط وأذن له فى الإفتاء والتدريس ،
وخطب بالمسجد الحسينى . واستقر حيناً فى توقيع الدست ، وناب فى القضاء عن
أخيه بدمهور ، واشتغل بالتدريس ، فدرس الفقه والتفسير والميعاد . وولى
وظائف عدة .

واختير بعد وفاة أخيه جلال الدين بمدة لقضاء الشافعية بالديار المصرية فى
عام ٨٢٦ هـ ، وظل أمره فيه بين ولاية وعزل يتناوبه هو وابن حجر الصقلانى
وشرف الدين المناوى وغيرهما من أفاضل عصره ، حتى كان مجموع ولايته نحو
ثلاث عشرة سنة ونصف . وقد أعيد إليه فى عام ٨٦٧ هـ ، فلبث به حتى مات سنة
٨٦٨ هـ فى شهر رجب ، بعد أن شهد عصر جفقى وإينال وخشقدم . وقال
ابن لياس إن وفاته كانت سنة ٨٦٩ هـ . وصلى عليه فى جامع الحاكم ودفن بجوار
والده بمدرسته .

وكان علم الدين إماماً فطناً قوى الحافظة سريع الإدراك ، طلق العبارة فصيحاً
ينطق العربية معربة صحيحة ، لم تضبط عليه شاذة ، ميبها لا يهاب ملكاً ولا أميراً
وقد اشتغل بالتأليف ، ومن مؤلفاته : تفسير القرآن الكريم ، وشرح
على البخارى لم يكمل ، وجملة من الفتاوى ، وحواشى على الروضة وترجمته وترجمة
أبيه ، والقول المفيد فى اشتراط البرتيب بين كلمتى التوحيد والتذكرة . وله نثر
ونظم كثير .

د حسن المخاضرة ج ٢ ص ١٢٤ - ابن لياس ج ٢ ص ٦٥ و ٦٨ و ٧٤ و ٧٥ و ٧٨ - الضوء
اللامع ٣٠ رقم ١١٩٩ -

٢٨ - شرف الدين يحيى المناوى ٨٧١ هـ

هو من أسرة المناوى ، وهى إحدى الأسر المصرية التى اشتهرت بالعلم والفقه
والادب . وكان شرف الدين شافعى المذهب ، وتولى قضاء الشافعية بمصر ، ويظهر
أنه وإيه لأول مرة عام ٨٥٢ هـ فى عهد الظاهر جقمق ، فكان عادلا دينيا كثير
الصلاح . وبما حدث له أنه لما توقف النيل عن الارتفاع عام ٨٥٣ هـ ، وخرج الناس
على بكرة أبيهم للاستسقاء ، خرج معهم قاضيه شرف الدين ، فصعد المنبر وخطب
خطبة الاستسقاء ، ولما تم بتحويل رداءه سقط منه الرداء إلى الأرض فطير الناس ،
ولكن النيل أوفى بعد هذه الحادثة . وظل شرف الدين يعزل أنا ويولى أنا آخر ،
حتى توفى عام ٨٧١ هـ ، وكان إذ ذاك منفصلا عن منصب القضاء .

د حسن المخاضرة ج ٢ ص ١١٦ - وابن لياس ج ٢ ص ٣٠ و ٣١ و ٧٤ و ٧٨ و ٨٥ -

٢٩ - حسام الدين بن حرير ٨٧٣ هـ

هو قاضى القضاء المالكي المذهب السيد الشريف حسام الدين بن حرير بن
أبى القاسم الهاشمى القرشى العلوى الحسنى . أصل أسرته من بلاد المغرب ولد
عام ٨٠٤ هـ . ونشأ بمنفلوط ، وبرع فى فقه المالكية ، وأخذ جاهد يعظم ، والزمن
يصغوه له حتى ولى منصب قضاء المالكية بمصر عام ٨٦١ هـ بعد وفاة القاضى
ولى الدين السنباطى ، ويقال إنه بذل فى سبيله مالا جزيلا ، وكانت وساطته إليه
ناظر الخاص الجلالى يوسف ، وذلك فى عهد السلطان الأشرف إينال . ويقال إنه
كان بين المالكية حيثئذ من يعتبر أكفأ منه وأولى بمنصب القضاء . ولكنه
أسعده جده ولبث فى هذا المنصب نحو ١٢ عاما حتى قبض فى شعبان سنة ٨٧٣ هـ ،
بعد أن شهد عصر خشمدم وتمربغا والأشرف قايتباى . وبعد وفاته تولى قضاء
المالكية أخوه سراج الدين بن حرير الآتى ذكره بعد .

د حسن المخاضرة ج ٢ ص ١٢٤ - ابن لياس ج ٢ ص ٥٨ و ٨٣ و ٩٦ و ٩٧ -

٣٠ - عز الدين أحمد بن نصر الله الحنبلى ٨٧٦ هـ .

هو قاضى القضاة أحمد بن إبراهيم بن نصر الله بن أحمد بن محمد بن هاشم ابن إسماعيل بن نصر الله بن أحمد العسقلانى الحنبلى . ولد بالقاهرة فى ١٦ ذى القعدة عام ٨٠٠ هـ ، وكان غزير العلم كثير التواضع فكه المحاضرة عفيف اليد واللسان . واشتغل بالتدريس زمنا ، وولى قضاء الحنابلة فى مصر بعد وفاة قاضيا بدر الدين البغدادى فى عام ٨٥٧ هـ ، واستمر فى منصبه هذا نحو عشرين عاما . وكان أجل علماء مذهبه وأفضلهم . وقد توفى بالقاهرة قبيل الثمانين فى جمادى الأولى عام ٨٧٦ هـ ، واستمر المنصب شاغرا بعد وفاته أشهراً ، ثم وليه القاضى بدر الدين السعدى ، وقد شهد القاضى عز الدين مصر ثمانية من سلاطين مصر وهم من جقق إلى قايتباى . وقد ذكرناه فى جزئنا الثانى من هذا الكتاب .

حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٤ - ابن ايس ج ٢ ص ٣٥ ، ٦٥ ، ٩٦ ، ١٤٩ - الفوه اللامع ج ١ ص ٢١٥ .

٣١ - برهان الدين الديرى ٨٧٦ هـ

هو قاضى قضاء الحنفية فى مصر إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن سعد بن مصلح العيسى القدى . وقبل أن يلى منصب القضاء ، تقلب فى مناصب عدة فنها ، نظارة الأسطول ونظارة الجيش . وحينما عزل عبد الدين بن الشحنة من كتابة السر وسلك فى منصب القضاء عام ٨٦٧ هـ ، عين على أثره برهان الدين الديرى فى كتابة السر بمصر ، ولكن لسانه زل زلة كانت سببا لغضب السلطان الظاهر خشقدم عليه ، وذلك أنه توفيت والدة المقر الشهابى أحمد بن العيسى يوم سبت ، فشيحا مع المشيعين وعاد بصحبة الأمير جاني بك ، فقال له إن هذه المتوفاة نزلت من القلعة يوم السبت ولا بد أن يعقبها كبير ، وأظنه السلطان ! فبلغت قائلته إلى السلطان فغضب عليه وغزله بعد أقل من شهرين ، مع العلم بأنه - كما قيل - ما نال هذه الوظيفة إلا بعد أن بذل فى سبيلها خمسة آلاف دينار ! ثم تقلبت الأيام ورضى عنه السلطان فأقامه قاضى قضاء الحنفية بعد عزل ابن الشحنة من هذا المنصب عام ٨٦٩ هـ ومنحه خلعة

القضاء ونزل في موكب حافل من لدنه . ولكنه ما عزم أن عزول في العام الذي ولىه ، وعاد مكانه ابن الشحنة ثانية . أما برهان الدين فقد ظل زمنا بلا منصب . ثم أسندت إليه مشيخة الجامع المؤيدى فلبث بها حتى توفي عام ٨٧٦هـ في المحرم . وهو أخو القاضي سعد الدين الديري المذكور فيما مضى .

• ابن إياس ج ٢ ص ٧٥ ، ٧٨ ، ٧٨ - الفوائد البهية للسكنوى الهندى ص ٨٠ •

٣٢ - شمس الدين الأمشاطى ٨٨٥هـ

هو محمد بن محمد بن أحمد بن حسن به إسماعيل بن يعقوب العيتنبائى الكعكاوى الأمشاطى . برع في فقه الأحناف وكان أحد نواب قضائه زمنا كبيرا مع وفرة عقل وفكاهة محض وعفة واستقامة وعدل . وعندما عزول عجب الدين بن الشحنة من القضاء الأكبر عام ٨٧٧هـ عين مكانه شمس الدين الأمشاطى ، فكان كفتنا لهذا المنصب العظيم ، وذلك في حكم الأشرف قايتباى . وراوده السلطان على حل الأوقاف والاستبدالات ، وأن يقيم قاضيا يقوض إليه أداء هذه المهمة ، فقال للسلطان : إن السلطان له ولاية التفويض إلى من يشاء ، وأما أنا فلا أتق الله تعالى بحل الوقف ولا بعمل استبدال . وقام من مجلس السلطان كالغضبان . وما زال بمنصبه حتى مات في شوال سنة ٨٨٥هـ ، وظل منصب قاضى قضاء الحنفية من بعده خاليا زمنا ، ثم عين فيه شرف الدين موسى بن عياد أحد علماء الشام . وبما يذكر أن شمس الدين كان شيخا للمدرسة البروقية .

ابن إياس ج ٢ ص ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٢

٣٣ - شرف الدين موسى بن عياد ٨٨٦هـ

هو موسى بن أحمد بن عياد دمشقى الحنفى . أصله من عجلان ، وتولى قضاء الحنفية بدمشق . ولما توفي قاضى قضاء الحنفية بمصر شمس الدين الأمشاطى عام ٨٨٥هـ ، لم تتجه رغبة السلطان الأشرف قايتباى إلى تولية أحد الأحناف المقربين بمصر ، فاستدعى بعد قليل قاضى قضاء دمشق شرف الدين موسى بن عياد ليلى هذا المنصب الرفيع . فوصل إلى مصر في ذى القعدة من هذا العام .

ولبث في منصبه قليلا ، ثم وقعت زلزلة راثعة في المحرم من عام ٨٨٦ هـ ، مادت لها الأرض . فارتاع لها الشيخ ، وسقط عليه ساقط ، فقتله ومات لساعته . ولما شيعت جنازته كان السلطان في طليعة المشيعين والمصلين عليها . وقد دفن بالصحرَاء وكان مولده في سنة ٨٠٣ هـ .

« ابن ياس ج ٢ ص ١٩٨ ، ٢٠٧ ، ٢٠٣ . »

٣٤ - محب الدين بن الشحنة ٨٩٠ هـ

هو قاضى القضاة الكاتب الشاعر الفقيه المؤلف ، محب الدين محمد بن محمد ابن محمد ابن محمود بن غازى التتقى الحلبي . وهو حنفي المذهب . وهو غير محب الدين ابن الشحنة الذى كان قاضيا في حلب عام ٧٧٧ هـ ، في العهد الأول من سلطنة الملك برقوق ، أول ملوك الجراكسة والذى ولد عام ٧٤٩ هـ وتوفي عام ٨١٧ هـ . والذى له بعض المؤلفات ولعل بين الاثنين صلة قرى ونسب ^(١)

أما محب الدين بن الشحنة قاضى قضاة مصر ، فيظهر أنه ولد عام ٨٠٤ هـ بحلب أيضا وشب بها ، وعلى علمائها تنقف ، وكانت ميدانا له ظهرت فيه مواهبه ثم يمم شعر مصر ، ولبث فيها زمنا يغترف من مناهلها . ثم اختاره السلطان الأشرف إينال قاضيا للعنفية في جمادى الثانية لمدينة حلب ، فسافر إليها . ثم عين كاتباً للسر فى مصر فى ذى القعدة عام ٨٥٧ هـ عوضا عن محب الدين بن الأشقر الذى عزل منها . فبدأ نجم ابن الشحنة فى الصعود من ذلك الحين . ويظهر أنه أسند إليه أيضا نظر الجيش فى ذلك الحين . وظل فى منصبه ذلك أكثر من نصف عام ، ثم عزل فى رجب سنة ٨٥٨ هـ وأعيد ابن الأشقر إلى كتابة السر كما كان من قبل . فظل محب الدين بعيدا عن المنصب حتى توفي ابن الأشقر عام ٨٦٣ هـ ، فعاد هو إلى كتابة السر . غير أنه مالبث فيها إلا إلى سنة ٨٦٧ هـ ، ثم عزله السلطان الظاهر خشقدم ، وعُدل به من كتابة السر إلى القضاء . فعينه قاضى قضاة الأحناف

(١) انظر كتاب « التعليقات السنية على القوائد البية » للكنوى الهندى ص ٥١

بمصر، فظل بمنصبه حتى عام ٨٦٩ هـ ثم عزل منه . ولم يمكث غير قريب حتى أعيد إليه في أوائل السنة التالية ، فظل في القضاء زمنا حتى شهد عصر السلطان ترميضا ثم قايتباي . وفي عام ٨٧٥ هـ ، وقعت فتنة بسبب عمر بن الفارض المتصوف من الزاهد والشاعر المشهور ، فاختلف العلماء فيه ، فمنهم من يقول بإيمانه وحسن معتقده ويؤول ما اشتبه من ألفاظه ، ومنهم من يقول بفسقه بل وتكفيره ، لأن ألفاظه تؤم الحلول والاتحاد . وكان على رأس الفريق الثاني القائل بتفسيقه جملة علماء على رأسهم محب الدين بن الشحنة وبرهان الدين البقاعي . ووقعت بين الفريقين في هذه المسألة مشاحنات طويلة ومناقشات عدة ، أودى في سبيلها القاضي محب الدين حتى هجاه بعض شعراء عصره وعوامه .

عزل ابن الشحنة من القضاء بعد ذلك بقليل ، ثم أصيب بفالج ، فعد الناس ذلك من بركات ابن الفارض . ولبت محب الدين زمنا حتى برىء من مرضه ، فعاد إلى والقضاء . غير أنه مكث زمنا يسيرا ، ثم ابتلى بمحنة أخرى ، إذ وقع بين أميرتين شقيقتين نزاع حول وقف يخصهما ، فتمصب محب الدين لإحداهما ، وكان سلطان العصر الأشرف قايتباي في جانب الأخرى ، فعزله من القضاء في ربيع الثاني عام ٨٧٧ هـ ، فكان ذلك آخر عهده به . ولم يكتف السلطان بذلك بل أمر بالتعريض عليه بدعوى استيلائه على بعض أموال أوقاف الحنفية ، فلبث في سجنه زمنا ، ثم أطلق سراحه . وفي جمادى الأولى رضى عنه السلطان وأسند إليه مشيخة الخانقاه الشيخوية فلبث بها حتى توفي في المحرم سنة ٨٩٠ هـ .

وأ أسرة ابن شحنة من الأسر المباركة ، التي تبغ فيها أفراد خدموا العلم القضاء والأدب في مصر زمنا طويلا . ومنهم القاضي سرى الدين عبد البر بن محب الدين . ومنهم حسام الدين بن الشحنة ، والقاضي عفيف الدين ابن الشحنة وسنشير إلى بعضهم .

ابن ياس ج ٢ من ٤٣ ، ٤٤ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٩٦ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٤٠ ، ١٧٥ ، ٢٢٦ .

٣٥ - ولى الدين الأسبوطى ٨٩١ هـ

هو أحمد بن عبد الحاق بن عبد العزيز بن محمد القاهرى السيوطى الشافعى المذهب. ولد عام ٨١٣ هـ. وقد اشتهر بالعلم وحسن الخلق والمعاملة. وتولى مشيخة بعض الخوانق، وقام بالتدريس زمنا. وقد ولى قضاء الشافعية عام ٨٧٠ هـ بعد أن عزل عنه القاضي أبو السعادات البلقينى. وكان ذلك فى عهد السلطان الظاهر خشقدم. وأصل حبله بالقضاء زمنا كبيرا حتى عهد الأشرف قايتباى : ثم اختلف معه فى رأى بسبب تركه، فكان من السلطان إلأن عزله، فلبث المنصب شاغرا حتى عاد هو إليه بعد قليل بشفاة بعض الأمراء، وذلك فى ربيع الثانى عام ٨٨٥ هـ. ثم حدثت له حادثة شبيهة بالأولى فى رجب عام ٨٨٦ هـ، فقد كانت هناك قضية خاصة بتركه كان الشهاب أحمد بن العبنى طرفا فيها، وحكم له ولكن الحكم لم ينفذ، فكان عدم تنفيذه سببا لأن أخذ السلطان القاضي الشافعى ولى الدين الأسبوطى والقاضى المالكي معا، ويظهر أنهما كانا محتضين بالنظر فى هذه القضية. فزله السلطان بعد نقاش بينهما طال أمده، فكان ذلك آخر عهده بالقضاء بعد أن لبث فيه نحواً من ١٦ سنة مشكور السيرة دائماً العدل، ثم توفى سنة ٨٩١ هـ فى شهر صفر.

ابن لياس ج ٢ ص ٧٩، ٩٦، ١٩٦، ٢٠٦، ٢٣٤ - الفقه اللامع ج ١ ص ٢١٤.

٣٦ - شمس الدين الغزى بن المغربى ٨٩١ هـ

عينه الأشرف قايتباى فى قضاء الحنفية بمصر عقب وفاة القاضي موسى بن هيد عام ٨٨٦ هـ. قيل إنه لم يكن أهلا لولاية القضاء، إذ كان بين علماء الحنفية من هو أكثر منه فقها وجاها. وقيل إنه سعى إلى هذه الوظيفة، وكانت وساطته إليه الاستادار تغرى بردى، والمهمندار يعقوب شاه. ولبت فى منصبه نحو عامين، ثم أمر السلطان فى ربيع الأول عام ٨٨٨ هـ، بمحاسبته على ما لديه من مال. فكان ذلك بدء عذابه وعنه. وتكاثر ضدّه الشكاوى، حتى عقد له مجلس من إقضاء الثلاثة، وحاسبه جباة المال حسابا عسيرا، وذلك بمنزل الأمير برسباى قرا. ومع هذا كله ظل فى منصبه لا يرحه حتى عام ٨٩١ هـ، والسلطان يصايره حتى

فاض به إناه صبره ، فأمر في شعبان من العام المذكور بالقبض عليه ومحاسبته حسابا دقيقا ، وسير إلى المدرسة الصالحية وظل مقبوضا عليه حتى صدر أمر عزله في غضون العام نفسه . ويظهر أنه توفي قريبا من ذلك .
• ابن لباس ج ٢ ص ٢٠٤ ، ٢١٧ ، ٢٢٢ ، ٢٣٧ •

٢٧ - سراج الدين عمر بن حرير ٨٩٢ هـ

هو سراج الدين عمر بن أبي بكر بن محمد بن محمد بن حرير بن أبي قاسم ، الهاشمي القرشي العلوي الحسني المنفلوطي . وهو أخو قاضي قضاة المالكية حسام الدين بن حرير الذي سبق ذكره . وسراج الدين هذا مالكي المذهب كذلك . أصل أسرتهما من بلاد المغرب ، استوطنت منفلوط . ولما توفي أخوه حسام الدين عام ٨٧٣ هـ ، تولى منصبه ، فظل قاضيا للمالكية حتى عام ٨٧٧ هـ . ثم غضب عليه السلطان الأشرف قايتباي ، وقبض عليه وسجنه ، فلقي عذابا ألينا وقامى ممنا شديدة . ثم أطلق سراحه . غير أنه ظل معزولا حتى توفي عام ٨٩٢ هـ .
• ابن لباس ج ٢ ص ١٠٦ ، ١٣٧ ، ٢٤٣ •

٣٨ - محي الدين عبد القادر بن تقي ٨٩٥ هـ

هو عبد القادر بن أحمد بن محمد بن علي بن تقي ، الدميري المالكي . كان عالما فاضلا من أئمة المالكية في زمانه ، وأكثرهم هبة وقارا . تلقى العلم على جماعة من القداى كالبساطي ، فبرع في مذهبه . وناب في الحكم زمنا عن القاضي المالكي ، ثم انتهى إليه قضاء المالكية بمصر ، في عهد قايتباي ، قبيل عام ٨٩١ هـ ، فظل فيه حتى توفي ذى القعدة عام ٨٩٥ هـ . وهو أخو القاضي عبد الغني بن تقي الآتي ذكره .

• ابن لباس ج ٢ ص ٢٣٢ ، ٢٦٦ •

٣٩ - برهان الدين المغربي ٨٩٦ هـ

هو أبو اسحق إبراهيم بن محمد بن محمد بن عمر بن يوسف بن عطية ، المغربي الأصل اللقاني القاهري الأزهرى الملبكي . ولد عام ٨١٧ هـ ، بالقهوقية من أعمال (٨٢ - بمالك)

لقانة ، ووفد إلى القاهرة وجاور بالأزهر ودرس علوما عدة ، وحفظ كتباً فيها
جمة ، وأخذ عن كثير من الأئمة ، ودرس الفقه وسمع الحديث ولفن العربية .
وما زال حتى نضج ، فتعرض للفتوى والتدريس بعدة مدارس منها : المؤيدية
والقمحية ومدرسة أم السلطان . وصار مهيباً لدى الناس والعلماء .

ثم استدعاه الأشرف قايتباي يوم الاثنين ٦ صفر عام ٨٧٧ هـ لتولى قضاء
المالكية ، بعد عزل سراج الدين بن حريز قبائشه بمهارة وكفاءة . وله فيه
مواقف رائدة . ثم جفاه السلطان قايتباي سنة ٨٨٦ هـ ، فعزله ، وقام مكانه يحيى
الدين بن تقي . قتال الناس لعزله .

من ذلك الحين لزم منزله متردداً على الجماعات وعلى الأزهر ، يقضى أحياناً ،
ويقضى أحياناً أخرى ، حتى مات في ٩ من المحرم عام ٨٩٦ هـ ، وشيع بجنازة
حافلة شهدها السلطان ، ودفن بقرية سعيد السعداء .

« الضواء الاعم ج ٢ ص ١٦١ »

٤٠ - بدر الدين السعدى ٨٩٠-٩٠٢ هـ

هو محمد بن محمد بن أبى بكر بن خلف بن إبراهيم السعدى . كان حنبلي المذهب
وقد تولى قضاء الحنابلة في مصر وهو في عتفوان شبابه ، فلبث زمناً طويلاً . وأول
عهده به كان في زمن الأشرف قايتباي عام ٨٧٦ هـ بعد وفاة القاضى عز الدين
أحمد الحنبلى . فبعد أرسل السلطان إلى قاضى الحنابلة بدمشق ابن مفلح ليل هذا
المنصب في مصر فاعتذر إليه بمرضه ، فعين بدر الدين السعدى . وكان بين الحنابلة
حينئذ من يعتبر أفضل منه ، فعده بعضهم هذا المنصب كبيراً عليه . ومع ذلك فقد ازدان
به منصبه ، وخلع عليه السلطان خلع المنصب وعاد من لدنه في موكب عظيم .
وفي ربيع الثانى عام ٨٨٥ هـ غضب عليه السلطان كما غضب على القاضى ولى الدين
الاسيوطى الشافعى ، وذلك بسبب تركه ووقف . فعزله وأمر بنفيه إلى قوص .
فدفع فيه الأتابكي أربك بن ططخ ، فعاد إلى منصبه بعد قليل في نفس شهر عزله وهو

ربيع الثاني . وهذه هي المرة الوحيدة التي عزل فيها عن القضاء إذ ظل فيه منذ ذلك الحين ، حتى قبض في ذى القعدة عام ٨٩٠٢ .

• ابن لباس ج ٢ ص ١٣٠ ، ١٩٦ ، ٢٣٢ ، ٢٩١ ، ٣٢٢ •

٤١ - ناصر الدين محمد الإخيمى ٨٩٠٢

هو محمد بن أحمد بن الأنصارى الإخيمى القاهرى الحنفى . كان عالما فاضلا ، له دراية بالقرارات . وكان أبى النفس . وتولى قضاء الحنفية بمصر في عصر الأشرف قايتباى قبيل عام ٨٩٠١ . ولبث في منصبه زمنا حتى توفي في ذى الحجة سنة ٨٩٠٢ .

• ابن لباس ج ٢ ص ٢٩١ ، ٣٢٦ •

٤٢ - عبد الغنى بن تقي ٨٩٠٧

هو عبد الغنى بن أحمد بن محمد بن على بن تقي ، الديميرى المالكي ، وأخو القاضى محيى الدين عبد القادر بن تقي الماز ذكره . كان مالكي المنهج كأخيه . وقد تولى منصب قضاء المالكية بعد وفاته . وكانت ولايته في ربيع الأول عام ٨٨٩٦ .

وحدث في ذى الحجة عام ٨٩٠٢ ، أن اشتط السلطان الناصر محمد بن قايتباى في جمع المال من الناس ، ففرض على القضاء والمباشرين أموالا . يجبرونها له ، ولكي ينفقها على الجنود . وكان من بينهم القاضى عبد الغنى ، فما كان منه إلا أن اختفى في بيته ، ليمعد عن هذه المحنة ، ولا يشترك فيها .

وظل في منصبه حتى شهد عصر جان بلاط والعدل طومان باى وأوائل حكم الغورى . ثم توفي في أواخر ربيع الأول عام ٨٩٠٧ . وكان عالما فاضلا ومن أسرة خدمت البلاد بعلمها وفقها .

• ابن لباس ج ٢ ص ٢٦٧ ، ٢٩١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٨٧ - و ج ٥ حواشي ربيع الأول عام ٨٩٠٧ •

٤٣ - شهاب الدين أحمد بن فرغور ٩١١

كان عالما غزير المادة كفتا . عين في قضاء الشافعية بدمشق زمنا . ثم عزل في

رجب عام ٨٨٩هـ ، وثوى بعده شمس الدين بن المزلق الدمشقي^(١) . ولكنه عاد إلى منصبه بعد عزل ابن المزلق عام ٨٩٩هـ في جمادى الأولى . وأضيف إليه نظر الجيش ، مع القضاء .

وشهد عصر قايتباي ، ومن بعده ، حتى كان عصر الغورى ، وعزل قاضى قضاء الشافعية حينذاك - في ربيع الأول سنة ٩١٠هـ - وهو برهان الدين بن أبى شريف ، فاستدعى شهاب الدين بن فرفور هذا ، ليلى المنصب مكانه ، فوق منصبه فى قضاء دمشق ، لجمع له بذلك بين قضائى دمشق والقاهرة . وقد لبث فى قضاء مصر حتى توفى فى يوم الخميس ٢ جمادى الآخرة عام ٩١١هـ .

«ابن إياس ج ٢ ص ٢٢٣ ، ٢٢٩ - وج ٤ حوادث التواريخ المذكورة» .

٤٤ - برهان الدين الديميرى ٩١٣هـ

هو برهان الدين بن الديميرى قاضى قضاء المالكية بمصر . كان عالما فاضلا دينيا خيرا لين الجانب كثير التواضع انتهت إليه رئاسة المالكية فى عصره ، عينه السلطان الغورى فى القضاء فى جمادى الأولى سنة ٩٠٧هـ . وقيل فى ربيع الثانى ، بعد وفاة قاضى المالكية عبد الغنى بن تقي . فلبث فى منصبه ذلك حوالى ست سنوات ونصف ، ثم توفى فى الأربعاء ٢٣ رمضان سنة ٩١٣هـ .

وقيل فى سبب وفاته إن السلطان الغورى كان قد أمر بأن ينحطب به قاض من القضاة الأربعة فى كل جمعة . فلما كانت جمعة ابن الديميرى تم أن ينحطب فأرتج عليه فنزل فرض ، وزاد مرضه حتى مات فى نحو الثمانين من عمره . فلما شيعت جنازته هم السلطان الغورى بأن يصلى عليها مع المصلين ولكن الجنازة كانت قد بدىء فى تشييعها فلم يلحقها ، فانجبه إلى المقابر جهة الإمام الشافعى لاستقبالها .

(١) هو شمس الدين بن محمد بدر الدين حسن بن المزلق الدمشقي . كان قاضى قضاء الشافعية بدمشق فى عهد قايتباي منذ رجب عام ٨٨٩هـ عوضا عن ابن فرفور ثم عزل فى جمادى الأولى عام ٨٩٠هـ . وقد وجد مذبوحا فى داره فى شعبان عام ٩٠٢هـ . وذكره ابن إياس ج ٢ ص ٢٢٣ ، ٢٢٩ . ٣٢٠ .

وقد كان الديميرى عليا بأحكام مذهبه متمكنا فيه . واشتهر بحسن الخط . وله ابن جليل وهو محي الدين ، وتولى قضاء المالكية بعد وفاة أبيه وهو الآن بعد .
« ابن إياس ج ٤ في حوادث القهور للذكورة ، و ج ٢ من ٢٦٣ » .

٤٥ - بدر الدين محمد المكي ٩١٦ هـ

هو قاضى القضاة بدر الدين محمد بن قاضى القضاة صلاح الدين أحمد بن محمد بن بركوت المكي . عينه السلطان القورى قاضيا بمصر للشافعية بعد عزل كمال الدين الطويل في ذى الحجة سنة ٩١٥ هـ ، فأصبح جامعا بين القضاء ومشيشة الخشائية والشريفية . ويقال إنه سعى لهذا المنصب بنحو ثلاثة آلاف دينار . فظل بمنصبه هذا حتى عزل في ربيع الأول عام ٩١٦ هـ . ولم يمكث به سوى شهرين وأربعة عشر يوما . خلفه فيه ابن التقي السابق الذكر .

لم يمض على عزل المكي شهران وأثنا عشر يوما حتى قبض في يوم الأحد ١٢ جمادى الأولى عام ٩١٦ هـ وله من العمر نحو ستين عاما .
« ابن إياس ج ٤ في التواريخ للذكورة هنا » .

٤٦ - شهاب الدين أحمد الشيشينى ٩١٩ هـ

أحد أفضاذا المذهب الحنبلى . انتهى إليه قضاؤه بمكة المكرمة ، ولما توفي قاضى قضاة الحنابلة بمصر عام ٩٠٢ هـ ، في عصر السلطان الناصر محمد بن قايىباى ، عين مكانه ، فوفد من مكة إلى مصر في ربيع الثانى سنة ٩٠٣ هـ . وتسلم مهام منصبه ، ولما أراد السلطان أن ينجي من القضاة والمباشرين مالا ، كان الشيشينى أسبق إلى الاختفاء في داره . فرارا من هذه المحنة ، كما صنع القاضى المالكي عبد الغنى بن تقى . ومع ذلك لبث في منصبه حتى شهد عصر الملك الظاهر قانصوه ، فعزله من القضاء في رمضان عام ٩٠٤ هـ . وولى القاضى ابن قدامة . ولكنه ما عزم أن عاد إلى منصبه بعد شهر وأربعة أيام . وعزل منه ابن قدامة . ولبث فيه بعد ذلك زمنا طويلا ، حتى شهد عصر العادل طومان باى ، وجزءا كبير من عهد الأشرف

الغورى . ثم توفي في صفر عام ٥٩١٩ ، بعد أن نيف على السبعين . وكان سبب وفاته إصابته بطاعون انتشر في البلاد ذلك الحين . وكانت ولادته عام ٥٨٤٤ . وله ابن هو عز الدين الحنبلى الشيشينى ، سنشير إليه فيما بعد .

و ابن لياس ج ٢ ص ٣٣٢ ، ٣٣٦ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٥٤ ، ٣٨٧ - ج ٤ حوادث صفر عام ٥٩١٩

٤٧ - سرى الدين محمد بن الشحنة ٥٩٢١

هو عبد البر محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمود ، وهو سرى الدين أبو البركات بن محب الدين أبى الفضل ، ابن محب الدين أبى الوليد الحلبي القاهري الحنفي . ولد بجلب في ٩ من ذى القعدة عام ٥٨٥١ . وانتقل مع أبيه إلى القاهرة ، وحفظ كتباً علمية عدة . والتقى بكثير من المشايخ والأئمة ، فانتفع بعلمهم . ومنهم أبوه ، قاضى القضاة محب الدين ، والأمين الأنصرائى ، والتقى الشمنى ، والزين قاسم بن قطلوبغا .

وقد عرف سرى الدين بالذكاء والفطنة ، حتى بذأقرانه ، وفخر به أبوه . ونبه شأنه في الفقه والحديث والأصول وغيرهما ، كما مهر في الأدب ، فكتب وخطب ونظم الشعر متوسط الجودة . وأذن له أبوه في الفتوى والتدريس . وأناه عنه في القضاء ، فكان أمره بيده . وولى وظائف عدة ، منها الخطابة بجامع الحاكم ، وتدريس الحديث بالحسينية ، والتفسير بالجمالية ، وغير ذلك .

ويتمه السخاوى - معاصره - في كتابه الضوء اللامع ، بتمه عدة خطيرة لعله مبالغ فيها ، ومنها أنه « ليس بثقة فيما ينقله ، ولا بعمدة فيما يقوله ، بل هو في غاية في الجراءة والتقول » . ومنها « أنه اتهم بإخفاء تفسير الفخر الرازى ، وكان يضرب بسبب ذلك » . ومنها « أنه كثير الوقعة في الأكابر ، لا يتأدب مع مشايخ وقته » ، ومنها ، أنه لما ناب في القضاء عن والده استبد بالتعاليين والاستبدالات ، فكثرت القالة فيه بسببها » . وغير ذلك .

ومهما يكن من شيء ، فقد لبث منصب قضاء الحنفية بمصر ، يتناوبه عدة قضاة منذ وفاة قاضها محب الدين بن الشحنة ، حتى آل أمره أخيراً إلى ابنه سرى الدين . وقد نشأ سرى الدين في أسرة وفي بيئة مليئة بالعلم والأدب : فتحلى بما تحلت به من ضروب الكمال . فهو ما شئت أدباً وعلماً وقهاً وذكاءً ودهاءاً وحسن حيلة . وقد تولى مشيخة المدرسة الأشرفية عام ٩٠٣ هـ ثم عزل منها ولبث زمناً حتى ملا منصب قضاء الحنفية بمصر في عهد العادل طومان باي سنة ٩٠٦ هـ لأول مرة . وذلك بعد عزل برهان الدين بن الكركي عنه ، ولكنه لم يمكث به إلا أياماً ، ثم عزل وأعيد ابن الكركي . وقد قبل إن ابن الكركي دفع في سبيل العودة إلى منصبه مالا . ولكن القاضي عبد البر عاد إلى المنصب بعد زمن ، وظل به حتى شهد عصر الغوري وأصبح أحد أصفياه المقربين ، فقد كان يكون معه في الأسفار ، وقد يأوى السلطان إلى داره للمبيت ، وصار متصرفاً في شئون كثيرة من شئون المملكة ، وكان كثير الموافقة للسلطان في اقتراحاته ، حتى قيل إن الغوري لما أراد أن يأخذ من مال الأوقاف ليشبعهم جنوده أو يدفع رواتبهم المتأخرة عارضه القضاة الثلاثة ووافقه القاضي عبد البر بمفرده . إلا أن الأيام حبل إليها أن تعبت بعض العبث بصداقتهما ، فنعى إلى السلطان أن قاضيه عبد البر يكاتب يحيى بن سبع أمير ينبع - وكان ثائراً على السلطان - ويحذره من القبض عليه . وكانت مكاتبتة سبباً في انضمام هذا الأمير إلى الجازاني ابن أمير مكة الثائر أيضاً فنهباهما ورجلها المحمل في عام ٩٠٨ هـ . فإما كان من السلطان إلا أن قبض على سرى الدين وأمر بنفيه إلى قوص ، وكاد يرسل إليها لولا شفاعته الأمير قيت الرجبى فيه ، فرضى عنه السلطان ، وأعادته إلى منصبه موفور الكرامة ، ووقعت بينه وبين القاضي ابن النقيب الشافعي مشاحنة ومشادة بسبب خزانة كتب اختلف فيها رأياهما . وابتلى أيضاً في شهر المحرم عام ٩١٣ هـ بالشاعر جمال الدين السلبوني . وذلك أن الشاعر المذكور هجا معين الدين بن شمس ، وكل بيت المسال هجا شعرياً مرأً مقدحاً . فادعى معين الدين ، أن السلطان الغوري ترك له أمر السلبوني ليعاقبه

بما يقتضيه الشرع ، ولذلك شكاه إلى قاضى الحنفية سرى الدين عبد البر . فما كان من القاضى إلا أن ضرب الشاعر ، وعزره وأشهره فى القاهرة عارى الرأس . فقم منه الشاعر وكال له بدل الكيل كيلين ، وهجاه بقصيدة طويلة مريرة نسب إليه فيها كل موبقة ومنها :

فشا الزور فى مصر وفى جنباتها ولم لا وعبد البر قاضى قضاتها
إذا جاءه الدينار من وجه رشوة يرى أنه حل على شهباتها
أجاز أموراً لا تحل بملة بحل وبرم مظهرأ منكراتها

وقد أوردنا هذه القصيدة فى ترجمة الشاعر المذكور فى الجزء الرابع . وقد شاع أمرها بين الناس وملا أسماعهم وأصاب من لدنهم موضع قبول ! فشكاه القاضى عبد البر إلى السلطان ، فأرسل فى طلبه ثم وبخه ودفعه بين يدى القاضى يأمر فيه بما يأمر الشرع فى التافذين الهجائين ، وتعصب للقاضى جميع قضاة الشرع ، وأرادوا ضرب هذا الشاعر وإشهاره فى المدينة إشهار المذنبين المعززين ، ولكن الشاعر كان ذا منزلة مرموقة لدى العوام وبعض الخواص ، فأغرم ذلك بالقاضى عبد البر وعموا برجه بالحجارة ، فخاف فكف عن إلحاق الأذى بالشاعر !

وبما يذكر أيضاً أنه وقعت مشاحنة بين القاضى عبد البر وبين كاتب السرى محمود ابن أجا الحلبي خاصة بوقف فى مدينة حلب لكل منهما فيه نصيب . فأمر السلطان بمعد مجلس الفصل بينهما . ويظهر أن ابن أجا كان ألحن بحجته من القاضى فنصفه السلطان .

ثم إن السلطان الغورى أسند إلى القاضى عبد البر مشيخة المدرسة الصرغتمشية فى جمادى الأولى سنة ٩١٤ هـ ، وأدخل ابنه حسام الدين محموداً فى عداد موظفى الدولة ، فأخذ نجمه فى الصعود . وما زال يصعد حتى بلغ به منصب القضاء كما سنذكر بعد .

وقد وقعت فى سنة ٩١٩ هـ وفى شهر شوال منها حادثة زنا مروعة إنهم فيها

أحد نواب الحكم . وقد أشرنا إليها عند الكلام عن حالة القضاء . رأى السلطان فيها أن يقتل الزاني والزانية ، ورأى القضاء وقفها العصر أن الزاني له حق الرجوع عن اعترافه ، وحينئذ لا يجد . وكان الزاني قد اعترف كتابة بجنايته . وكان القاضي عبد البر فيمن أفتى بالرجوع ، فغضب السلطان وعزل قضاته الأربعة ومنهم عبد البر ، بسبب هذه الحادثة . فكان هذا آخر عهد قاضينا بالقضاء . وظل معزولا حتى توفي في يوم السبت ٢٨ رجب عام ٨٩٢١ هـ ، وله من العمر ٧٥ عاما . وقيل إنه شارح منظومة ابن وهبان . وهو صاحب الذخائر الأشرفية في الألغاز الخفية .

ابن لباس ج ٢ ص ١٥٤ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ — ج ٤ حوادث التواريخ المذكورة في الترجمة من عام ٩٠٨ هـ — التلخيصات السنية للكنوز ص ١١٣ — الضوء اللامع ج ٤ رقم ١٠٢

٤٨ - محي الدين عبد القادر بن التقيب ٨٩٢٢ هـ

هو محي الدين عبد القادر بن علي بن مصلح الشافعي ، كان من أهل العلم والفضل ونبغ في مذهب الشافعي . وأول ولايته القضاء بمصر كان في عهد الأشرف جان بلاط في ٢٠ صفر سنة ٨٩٠٦ هـ ، حينما اعتزل هذا المنصب قاضيه الأكبر الشيخ زكريا الأنصاري . وقبل حينئذ إنه كان بين الشافعية أنبغ من ابن التقيب ، وأحق بالمنصب منه .

وفي عهد جان بلاط ثار الأمير طومان باي - الذي ملك البلاد فيها بعد وتسمي بالعاذل - وتمصن في بلاد الشام وأخذ في الزحف منها على الديار المصرية هو ومن التفحوله . هنا اضطرب أمر السلطان جان بلاط ، وجمع أمراءه ليقسموا له على المصحف بين الطاعة وعدم الخيانة . وقيل إن القاضي ابن التقيب هو الذي كتب لهم صيغة القسم ، وهو قسم غليظ مؤكد بالله وبالمصحف وبالحنج والعق والطلاق . فكان هذا القسم سببا في محتته في المستقبل . فقد تم الأمر للأمير طومان باي وقبض على الأشرف جان بلاط . وما عثم أن قبض على ابن التقيب ودفع به بين

يدى جنود غلاظ شداد ، وسبق إلى السجن على أقدامه ماشيا . وفرض عليه غرم يدفعه ، فلبث في سجنه حتى دفع ما فرض عليه ، وعزل من القضاء وعاد إليه بعده الشيخ زكريا الأنصارى . ولم يمكث ابن النقيب في القضاء هذه المرة إلا أقل من أربعة أشهر .

لم يستطع الشيخ زكريا الأنصارى أن يستمر طويلا في منصبه فاعتزله . وكان عهد طومان باى قد انتهى ، وبدأ عهد الأشرف الغورى . فعاد حينئذ ابن النقيب إلى منصب قضاء الشافعية وذلك في ٨ من ذى الحجة سنة ٩٠٦ هـ . غير أنه لم يتمتع به سوى ثلاثة عشر يوما ، وبرمت به نفس السلطان فعزله في ٢٣ من الشهر المذكور . ولم يكتف بذلك ، بل أمر بنفيه إلى قوص ، فأسله نقيب الجيش وأركبه حمارا ، وتوجه به إلى النيل ليركبه إلى منفاه ، فشفع فيه بعض الأمراء فأعفى عنه من النفي وفرض عليه غرم مالى فأداه .

ظل ابن النقيب زمنا طويلا معزولا ، حتى تقلبت الأيام وطابت له نفس السلطان ، فدلف إلى منصبه للمرة الثالثة في ذى القعدة عام ٩١١ هـ . عقب عزل القاضي برهان الدين القلقشندى ، فلبث فيه هذه المرة أقل من عام ، ثم عزل في ١٢ رمضان عام ٩١٢ هـ . ولبث في معزله هذه المرة نحو أربع سنوات . ثم أعيد إلى المنصب في ربيع الأول سنة ٩١٦ هـ ، بعد عزل القاضي المكينى ، فلم يلبث به هذه المرة أيضا إلا زمنا قليلا ثم عزل ، وفرضت عليه غرامة مالية كبيرة وسجن حتى دفعها . ثم ظل بعيدا عن القضاء نحو عامين ، فلما عزل القاضي الطويل عين مكانه ابن النقيب في ٦ رجب سنة ٩١٨ هـ ، فمكث في منصبه نحو من أربعة أشهر ، ثم عزل في ذى القعدة من نفس السنة ، ثم مالبث أن عاد إليه مرة أخرى في جمادى الآخرة عام ٩٢١ هـ . وما عزم أن عزل في ٢٧ رجب من نفس العام أى بعد خمسين يوما . فظل معزولا وآيا إلى خلوته في المدرسة المنصورية ، حتى توفي يوم الاثنين ١١ ربيع الأول سنة ٩٢٢ هـ . وقيل في سبب وفاته إنه ركله فرس فكبه على الأرض فأصيب بانكسار نخده ، وحمل إثر ذلك إلى خلوته فلبث أياما ثم مات .

ويقول ابن إلياس ماملخصه : إن هذا القاضي تولى قضاء الشافعية ست مرات ، ومع ذلك فجموع أيامه فيه خلال هذه المرات الست يقرب من عامين ، وكان في كل مرة يسعى جاهدا إلى العودة لهذا المنصب على الرغم من وجود قاض يشغله ، فيبذل المال الوفير للسلطان وللوسطاء حتى يصل إلى مبتغاه وبلغ مجموع مادفعه نحواً من ثلاثين ألف دينار . وكان سعيه سبباً في إخراج كل من القضاة الأنصارى والطويل والفلقشندى والمكيني وغيرهم من مناصبهم ليحل هو محلهم ، ومع ذلك فقد كان أغلب أمره أن يعزل أو يسجن ويؤخذ منه غرم مالى كبير .

وفهم من ذلك أن الرجل كان باتس الحظ ، كما يفهم أنه لم يكن عادلاً في أحكامه . وسيرته دائماً ، أو أنه على الأقل كان قريب العثور سريع الزلل ، وكان محبا لجمع المال ، لذلك كان ما يدخره من وراء وظيفته في اليوم الواحد نحواً من دينارين أشرفيين . والأشرفي أجود أنواع الدينارين إذ ذاك .

وقيل فوق ذلك إنه كان شحيح النفس يعرف الناس عنه بخله . وامل هذا من أم ما شوه سيرته .

د ابن إلياس ج ٢ ص ٣٧٦ ، ٣٨٠ ، ٣٨٧ - ج ٤ حوادث التواريخ المذكورة ج ٣ ص ١٧ ٦٣ .

٤٩ - برهان الدين الكركي (١) ٩٢٢ هـ

هو إبراهيم بن زين الدين عبد الرحمن بن إسماعيل الكركي الحنفى ، ولد بالقاهرة عام ٣٨٥ هـ ، وأخذ العلم عن أفاضل علماء الأحناف في زمانه ، مثل الشيخ محي الدين الكافى .

ولما عرف فضله وذاع صيته ، استخدمه الأشرف قايتباى إماماً له : وبلغ

(١) ذكر أبو القداء في المختصر (ج ٤ حوادث سنة ٧٢٩ هـ) قال الكركي : بكافين الأولى مفتوحة وينهما راء مهله ساكنة ، قلعة قريب البحر في أطراف بلد سيس من جهة التراب والقبال ومي تناخم بلاد ابن قرمان ، وضبطها غيره بفتح الراء .

في كنفه من العز والجاه ما يغبط عليه ، وكان يتردد على مدارس العلم ، فيلقى بها الدروس الشافية واستخدم حيناً في استيفاء الصحة ، وأسندت إليه مرة مشيخة المدرسة الأشرفية .

ولما كان عصر الناصر محمد بن قايقباي توفي قاضي الحنفية بمصر ناصر الدين الأحمسي في أخريات عام ٩٠٢ هـ ، فاتجهت رعاية السلطان إلى برهان الدين الكركي فعيّنه في قضاء الحنفية مكان القاضي المتوفى . وكان تعيينه في مسهل عام ٩٠٣ هـ ، وصرف عن المدرسة الأشرفية ، فأسندت مشيختها إلى سري الدين بن الشحنة ، ولسكنها لم تمكث في يده سوى ثلاثة أشهر ، ثم أعيدت إلى الكركي ، مع بقاءه في القضاء .

لبث برهان الدين الكركي في منصبه القضائي زمناً طويلاً ، حتى شهد عصر السلطان الظاهر قانصوه ، ثم الأشرف جان بلاط ، ثم العادل طومان باي . فلما بدأ عهد العادل المذكور عزل ابن الكركي من القضاء عام ٩٠٦ هـ وخلفه فيه سري الدين بن الشحنة ، وهذه أول مرة يلى فيها القضاء ، فلم يلبث إلا أياماً ثم عزل وعاد ابن الكركي إليه ، وقيل إنه سعى للعودة بمال .

ثم إنه بعد ذلك حسن اتصاله بالملك العادل طومان باي حتى إن العادل حينما خلع وزال ملكه فاختنى فأخذ في البحث عنه عام ٩٠٦ هـ ، قيل إنه اختفى في منزل القاضي برهان الدين بن الكركي ، ولهذا قبض عليه في أرائل ذى القعدة من العام المذكور ، وسجن يوماً وليلة وقتش منزله ، وسطا عليه أثناء ذلك عدد من الجند فتهبوه وجثوا بمال للأرقاف محفوظ عنده . ثم إنه عزل فظل معزولاً حتى مات في يوم الثلاثاء ٥ شعبان سنة ٩٢٢ هـ ، في أخريات عهد الخوري . وقيل في سبب موته إنه نزل إلى النيل ليتوضأ ، وكان النيل في إبان زيادته فولقت رجله جرفه التيار فغرق ومات . وكان باش الوجه رقيق الحاشية مرموق الحديث ، ومات في خلال العقد الثامن من عمره .

« ابن إياس ج ٢ ص ٣٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ - وج ٤ حوادث شوال وذى القعدة سنة ٩٠٦ هـ - وج ٣ ص ٦٤٤ ، ٦٤٥ - الضوء اللامع ج ١ ص ٥٥٩ .

٥٠ - عز الدين الشيشيني

هو عز الدين بن قاضي القضاة شهاب الدين أحمد الشيشيني الخنبلي ، سلك في منصب القضاة بمصر بعد وفاة أبيه الذي كان يشغل نفس المنصب ، وذلك في ربيع الأول عام ٥٩١٩ هـ ، وكان إذاك شابا حسن السيرة .

لم يلبث في منصبه سوى أشهر ، ثم عزل في شوال عام ٥٩١٩ هـ ، مع القضاة الثلاثة عندما اختلفوا مع السلطان الغوري في حادثة زنا أشرنا إليها .

ظل معزولا عن القضاء حتى أسر قاضي قضاة الحنابلة عند العثمانيين بعد موقعة مرج دابق ، وهو القاضي الشهاب الفتوحى . فأعاد السلطان الأشرف طومان باي القاضي عن الدين إلى قضاء الحنابلة بمصر ثانية في ذى القعدة سنة ٥٩٢٢ هـ .

علاء الدين الإخميمي

هو القاضي علاء الدين بن جلال الدين الإخميمي الشهير بالتيقب الشافعى ، عكف على إجادة المذهب الشافعى فنبغ فيه وأصبح أحد أعلامه ، واشتغل في فجر حياته العملية بالخطابة في المساجد فكان مشارا إليه فيها . وكان إلى نبوغه فيهما ، مشهورا بعلوم وفنون شتى حتى إنه كان عليا باللغة التركية وقد برأ على روى الشباب ، ولهذا كان ذا منزلة ممتازة عند الأتراك ، واشتغل بالخطابة في مسجد عبد القادر الدشطوطى ، وتردد على مجالس التدريس فشارك فيها ، وناب في الحكم عن القاضي الشافعى ، ولما عزل الشيخ كال الدين الطويل قاضي قضاة الشافعية عام ٥٩١٩ هـ ، استدعى الشيخ علاء الدين ليخطب بالسلطان ويؤم يوم الجمعة بدل كال الدين فأحسن وأجاد وأبدع وأفاد ، فعهد إليه بعد نحو يوم بالاضطلاع بمنصب قضاة الشافعية بمصر دون أن يسئ إلى ذلك بمال لاضطرار السلطان إليه ، فظل في دسته نحو سبعة أشهر لم يترك خلالها دروسه النافعة بالمدرسة الصالحية النجمية . ثم عزل في ٦ جمادى الآخرة عام ٥٩٢١ هـ وتولى من بعده ابنه التيقب محيى الدين .

وكان علاء الدين كفتا في منصبه لم يشهد عليه دنس أو جور أو فظاظة فكان مثال القاضي النزية العادل . ولم يل القضاء بعد ذلك .

د ابن ياس ج ٤ حوادث ذى القعدة سنة ٩١٩ هـ وجمادى الآخرة سنة ٩٢١ هـ .

٥٢ - جمال الدين القلقشندي

هو جمال الدين إبراهيم بن علاء الدين القلقشندي . كان شافعي المذهب عينه السلطان الغوري قاضيا لقضاء الشافعية بمصر بعد وفاة القاضي ابن فرفور . وذلك في جمادى الآخرة عام ٩١١ هـ . ثم صرف بعد ستة أشهر ، وقيل إنه سعى إلى ذلك بثلاثة آلاف دينار ، فما زال ابن النقيب ساعيا بخمسة آلاف دينار إلى السلطان ، وألفين لمن توسط له من الأسراء ، حتى عزل القلقشندي ، واستقر مكانه ، غير أنه سرعان ما عزل وعاد القلقشندي إلى القضاء في ١٢ رمضان عام ٩١٢ هـ ، فظل أقل من عامين ، ثم عزل في أواخر صفر سنة ٩١٤ هـ ، وعين مكانه الشيخ كمال الدين المعروف بالقادرى . وقد توفى القلقشندي في عهد الغورى .

د ابن ياس ج ٤ حوادث الشهور المذكورة - وج ٣ ص ٦٣ «

٥٣ - برهان الدين بن أبى شريف ٩٢٣ هـ .

هو برهان الدين إبراهيم بن أبى شريف المقدسى الشافعي . عينه السلطان الغورى في قضاء الشافعية بمصر يوم الخميس ٢٢ من ذى الحجة سنة ٩٠٧ هـ ، بعد عزل ابن النقيب . وكان كفتا لمنصبه . ويوم أن خلع السلطان عليه خلعة القضاء ، كان له في القاهرة يوم حافل . وقد صرف عن هذا المنصب في ربيع الأول عام ٩١٠ هـ ؛ ثم عينه السلطان الغورى شيخا لجامعة فظل به زمنا ، وقد ألحق الغورى به أمورا وشهادات كثيرة ، مرض يسببها فاته ، وكانت وفاته في أوائل عام ٩٢٣ هـ ، بعد ذهاب دولة الغورى .

د ابن ياس ج ٤ حوادث التواريخ المذكورة - وج ٣ ص ١٠ «

٥٤ - حسام الدين بن الشحنة ٩٢٣ هـ .

هو محمود بن قاضى القضاء سري الدين عبد البر بن عبد الدين بن الشحنة . نشأ من أسرة اشتهرت بالعلم والفقه والفضل ، واتبع مذهب أبيه وهو مذهب

أبي حنيفة ، ولما ذاع فضله وكل إليه منصب قضاء الحنفية بمصر ، وهو لا يزال شابا لما يبلغ مبلغ علماء الأحناف في ذلك الزمان . وكان ذلك في رمضان عام ٩٢١ هـ . وقيل إنه سعى إلى هذا المنصب بدفع مبلغ ثلاثة آلاف دينار ، فظل في منصبه ذاك حتى عام ٩٢٢ هـ ، فخرج في جملة القضاة مع السلطان الغوري لقتال العثمانيين ، فكانت عاقبة أمره الهزيمة معهم في حلب : ولكنه دون سائر القضاة ، استطاع أن يفر بعد أن نهب ماله وثيابه ودخل بلاد الشام وهو بائس تحس ، فلما وصل إلى مصر وصلها مكدرودا مجهودا ، فأعاده السلطان طومان باي إلى منصبه . ولما بدأت أقدام العثمانيين تثبت في الديار المصرية أرسله السلطان سليم في جملة القضاة والموفدين لمصالحة طومان باي بالصعيد بالهنسا ، فأخفق معهم في المسمى ، واستطاع غيره من القضاة الرجوع إلى القاهرة . أما هو فقد كان معه أخوه أبو بكر بن الشحنة ، وكانت بين أبي بكر وبين بعض الجراكسة المتلفين حول طومان باي ترة قديمة ، فاعتدوا في الطريق عليه فتصدى أخوه حسام الدين للدود عنه ، فكانت عاقبتهما القتل معا ، وذلك في ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ .

« ابن أبياس ج ٤ حوادث رمضان سنة ٩٢١ هـ - وج ٣ في حوادث التواريخ المذكورة أيضا » .

٥٥ - جلال الدين بن قاسم ٩٢٥ هـ

هو القاضي جلال الدين عبد الرحمن بن زين الدين قاسم المالكي ، لما انفصل القاضي محيي الدين بن الدميري من القضاء في شوال عام ٩١٩ هـ ، تولى بعده قاضينا جلال الدين بغير سعى . فظل نحو عامين ، ثم انفصل في رمضان سنة ٩٢١ هـ ، وظل مقصولا إلى أن توفي في أواخر ذي الحجة عام ٩٢٥ هـ ، بعد الاحتلال العثماني .

« ابن أبياس ج ٤ ، حوادث الفهور المذكورة » .

٥٦ - زين الدين زكريا الأنصاري ٩٢٦ هـ

هو شيخ الإسلام المفتي الكبير والعالم القدير الجليل القدر السائر الذكر ،

زين الدين أبو يحيى زكريا بن محمد بن الانصارى ، ذاع صيته في مصر حتى صار في مقدمة رجال الشافعية وهو في مبكر حياته .

وكان مولده في عام ٨٢٤ هـ ، وقيل عام ٨٢٦ هـ . فعاش نحواً من مائة عام ، قضاه في ميدان الجهاد العلوى ما بين منصب القضاء الأكبر والتدريس والإفتاء والتأليف . حتى توفى في ٣ ذى الحجة عام ٩٢٦ هـ ، فشيح تشيعاً حافلاً ، ودفن بجماعة مقبرة الشافعى .

وقد عين مدرساً بالمدرسة الصلاحية بجوار قبة الشافعى عوضاً عن الشيخ تقي الدين الحصنى المتوفى ؛ وذلك في ربيع الأول عام ٨٨١ هـ . وولى منصب القضاء بعد تمتع وزعاده في رجب عام ٨٨٦ هـ ، بعد عزل قاضى قضاء الشافعية ولى الدين الأسيوطى . وقد اشترط لولايته شروطاً كثيرة قبل السلطان بعضاً منها . وقد زاول منصبه بعلم ودراية وعفة ونزاهة ، وزهد وتقوى ، وشدة في الحق وذود عنه وصراحة فيه .

وقد لبث في منصب القضاء مدة طويلة ، لعلها أطول مدة قضاه قاض في منصبه . في ذلك العصر ، وهى عشرون عاماً تقريباً حتى صفر عام ٩٠٦ هـ ، إذ مرض وضعف عن حمل أعبائه وعشى بصره ففصل من القضاء . فولى بعده يحيى الدين ابن التقيب ، فقبض عليه بعد قليل ، واستعيد الشيخ زكريا إلى القضاء رغم امتناعه ومرضه ، إلا أنه زايه في الخيس ٨ ذى الحجة عام ٩٠٦ هـ ، ولم يعد إليه بعد ذلك .

وقد طالت حياته - كما ذكرنا - وشهد عصور سلاطين عدة وعاش حتى شهد عصر الغورى كله ودخول العثمانيين مصر . فرأى من الحوادث الكثير ما يندر أن يراه غيره . وقد وقعت في عام ٨٧٥ هـ فتنة بين العلماء بشأن الشيخ عمر بن الفارض ، وانقسموا بين مفسقين له ، وغير مفسقين . وقد أخذ رأى الشيخ زكريا فيه ، فبرأه مما نسب إليه واتهم الناس بالقصور عن إدراك رأى هذا الشيخ ، فسكنت الفتنة .

هذا : ومترجم له بتفصيل في الجزء الثاني من كتابنا هذا .

« الضوء اللامع ج ٣ رقم ٨٩٢ » .

شمس الدين السمدي

هو القاضي شمس الدين محمد بن النقيب السمدي . أسند إليه منصب قضاء الحنفية في عهد الغوري في ذي القعدة عام ٩١٩ هـ بعد عزل ابن الشحنة عبد البر ، ولم يسع إلى المنصب بمال ، بل اضطر الغوري إلى تعيينه هو وزملائه إذ ذاك ، بعد أن عزل قضائه الأربعة . وكان من قبل إماما للسلطان في مدرسته ، كما كان مؤدبا لولده . وظل في منصبه حتى عزل في رمضان ٩٢١ هـ وعاد ابن الشحنة إلى مكانه ، فميتة السلطان إماما له مرة ثانية ، ورحل معه في خروجه عام ٩٢٢ هـ إلى الشام وحلب لقتال الثمانيين ، فكان نصيبه الأسر فيمن أسر . وأرسل مسجوناً إلى القسطنطينية ، ثم عاد إلى مصر بناء على أمر السلطان سليم الثماني ، وكانت عودته في جمادى الآخرة ٩٢٧ هـ وفي صحبته عدد من الأسرى .

« ابن إياس ج ، وج ٣ حوادث المذكرة » .

٥٨ - محي الدين بن الدميري ٩٢٨ هـ

هو قاضي قضاة المالكية محي الدين بن محي قاضي القضاة برهان الدين إبراهيم الدميري . كان في حياة أبيه شابا حسن السيرة ، أخذ نفسه بالدرس والعلم والبحث ، ونشأ في بيئة عليية فتيغ في مذهب مالك ، نبوغا شهد له به أهل عصره .

وقد تولى منصب القضاء في ١٧ شوال سنة ٩١٣ هـ بعد أن توفي أبوه . فتلقاه المالكية بصدر رحب ونفس باشة ، فاتته بذلك رياستهم ، وهو في عتوان شبابه . وضم إليه السلطان الخطابة في جامع المنبي في ناحية الشراشيين في شهر المحرم عام ٩١٨ هـ ، عرضا عن شمس الدين الغزي المتوفى . وطلب إليه السلطان ألا أن يخطب مرة على مسمع منه يوم الجمعة ، فخطب فأجاد ، فأعجب به السلطان وضم إليه الوظيفة المذكورة .

(٩٢ - مالك)

وما زال مرعى الجانب يعيش فى كنف السلطان حتى شوال عام ٩١٩ هـ وفى هذا الشهر تعصب القاضى محى الدين مع سائر القضاة والعلماء ضد السلطان فى مسألة الرضى التى أشرنا إليها عند الكلام عن القضاء ، فعزل مع القضاة الآخرين . وظل معزولا حتى استعاده السلطان فى رمضان عام ٩٢١ هـ . بعد أن دفع ألفى دينار .

ظل القاضى محى الدين بن الدميرى فى القضاء ، حتى خرج السلطان الغورى فى عام ٩٢٢ هـ بجيشه الكثيف نحو البلاد الشامية والحلبية لقتال السلطان سليم العثمانى ، ومعه الخليفة والقضاة الأربعة فكان من بينهم قاضينا محى الدين . ثم تمت الهزيمة على الغورى فى مرج دابق ، وأسر كثير من رجاله ، كان من بينهم هذا القاضى . وقد أدخل على السلطان سليم فيمن أدخل من العلماء ، فوبخهم بكلام جارح لأنهم يسعون إلى القضاء بالمال ، ويقبلون الرشوة على الفتاوى والأحكام الشرعية . وسجن مع القاضى الشافعى والحنبلى فى مدينة حلب .

ولما دخل السلطان سليم مصر بجيشه كان القاضى فى ركبه مع الأسرى ، ولما اشتد النزاع بين السلطان سليم والسلطان طومان باى ، أرسل السلطان سليم إليه القاضى محى الدين الدميرى ، وكال الدين الطويل وشهاب الدين الفتوحى لمفاوضته ومصالحته بالصعيد ، ولكنهم أخفقوا فى مسعاهم ، وعادوا من لدنه إلى القاهرة فى أوائل ربيع الثانى سنة ٩٢٣ هـ .

وقد عاش الدميرى بعد ذلك زمناً طويلاً . وحج عام ٩٢٣ هـ ، وظل متقلداً منصبه فى عهد العثمانيين ، وعلت مكانته لدى نائب السلطان الأمير خير بك . ولهذا حينما كان ختان ابنه فى أواخر المحرم سنة ٩٢٦ هـ ، نظم له موكب شائق سار فيه كثير من الوجهاء ، وأصبحت شفاعته لدى النائب غير مردودة ، ويصحبه فى ركبانه أحياناً .

ظل يقضى حتى أرسل السلطان سليم العثمانى من لدنه قاضياً سمى « قاضى العسكر » ، وأمر بإلغاء نظام القضاة الأربعة . وحل « قاضى العسكر » محل قضاة الشرع الأربعة فى منصب القضاء بالبلاد مستمداً أحكامه من مذهب أبى حنيفة . فانفصل القضاء

الأربعة ومن بينهم محي الدين الدميرى . فهو آخر قضاء المالكية بمصر . وكان ذلك في جمادى الآخرة عام ٩٢٨ هـ . وعاش محي الدين بعد فصله زمنا ولعله توفي عام ٩٢٨ هـ .

« ابن أبياس ج ٤ حوادث التواريخ المذكورة — وج ٣ ص ٧ ، ٢٧ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٩٨ ، ١١٨ ، ١٤١ ، ١٨٢ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٦٩ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ » .

٥٩ - كمال الدين محمد بن الطويل ٩٢٨ هـ .

هو أبو الفضل محمد بن نور الدين علي بن الناصرى محمد بن السيفي بهادر العمرى القادري . وأصله تركى الجنس ، وقد تذهب بمذهب الشافعى ، وبرع فيه حتى عد أحد أساطينه ، وأول ولايته لقضاء الشافعية بمصر فى أواخر صفر عام ٩١٤ هـ ، بعد أن صرف عنه جمال الدين القلقشندى ، وكان من قبل شيخاً للخانقاه البيهرسية ، فاجتمعت له مع القضاء قبل لم يجتمع هذا لشخص غيره إلا للعلامة شهاب الدين بن حجر ، والقاضى شمس الدين القفاياق .

وقد خطب أمام السلطان الغورى خطبة يوم الجمعة فى مستهل ربيع الأول من السنة نفسها ، فوفى فيها أكبر توفيق وأعجب بها السلطان والأمراء . وقد أخذت كفاءته لمنصبه تثبت على مر الأيام فيرداد مكانة وسمو فى الجاه .

ظل فى منصب القضاء نحو عامين ثم عزل فى ذى الحجة عام ٩١٥ هـ ولكن الأمراء أظهروا رضاهم عنه ، فكان ذلك سبباً فى عودته إلى منصبه ، فى يوم الجمعة ١٧ جمادى الأولى سنة ٩١٦ هـ ، وعزل ابن النقيب . وفى يوم توليته أم السلطان وخطب له فى الصلاة ، فلما نزل من داره إلى المصلى احتفل به الناس احتفالاً شائعاً ، وزينت له الدور والمحال ولقيه الناس بالتغنى والموسيقى ، حتى بلغ الخانقاه البيهرسية حيث أدبت الصلاة . فخطب خطبة بليغة أشار فيها إلى عودته للقضاء ، وقرأ وهو فى المحراب الآية التى منها « هذه بضاعتنا ردت إلينا ، وقد سر منة السلطان وأظهر له رضاه بعد الصلاة ومنحه خلعة وضم إليه أعمالاً ومشبختات

كثيرة . ويقال إنه دفع في سبيل عودته إلى القضاء نحواً من خمسة آلاف دينار .
وقد ظل في منصبه مهيب الجانب موفور الكرامة رفيع المنزلة حتى عزل في
٦ رجب سنة ٩١٨ هـ . واستقر مكانه ابن النقيب . ولكن ابن الطويل ما لبث غير
قليل حتى عاد إلى القضاء في ذى القعدة عام ٩١٨ هـ . وهذه ثالث ولايته . وقيل إنه
أدى في هذه الولايات الثلاث أكثر من عشرة آلاف دينار . وظل قرابة عام ثم
عزل في شوال سنة ٩١٩ هـ في حادث الخلاف الذي جرى بينه وبين السلطان خاصاً
بمسألة الزنى التي أشرنا إليها عند الكلام عن القضاء ، فعزل مع بقية القضاء . وظل
مقرباً حتى رضى عنه السلطان بعد زمن ، وأعادته إلى القضاء في ٢٧ رجب عام
٩٢١ هـ بعد أن دفع ثلاثة آلاف دينار .

وقد خرج القاضى كال الدين بن الطويل مع قضاة الشرع حينما خرجوا في حملة
الغورى سنة ٩٢٢ هـ في قتاله للسلطان سليم العثمانى . ولما بلغوا حلب خطب في
جامعها الكبير عدة مرات خطباً بليغة ، ثم أسر في جملة من أسر ، وأدخل مع
القاضى المالكى والخبيل على السلطان سليم ، فأسمهم كلاماً قاسياً . وظل في الأسر
حتى دخل في ركاب هذا السلطان وهو يفتح مصر . ومرفى ركب الخليفة هو وسائر
القضاة في وسط القاهرة في أواخر عام ٩٢٢ هـ . ينادون الناس بالخضوع لسلطان
العثمانيين . ثم ذهب في وفد السلطان سليم أرسله إلى الصعيد لمصالحة السلطان
طومان باى . فمادوا في أوائل ربيع الثانى عام ٩٢٣ هـ ، ولم تفلح مفاوضاتهم .

ولما زالت دولة الجراكسة وتم ملك مصر للعثمانيين ، حمل ابنه زين العابدين
فيمين حملوا إلى القسطنطينية . أما هو فقد ظل في منصبه بضع سنين ، وهو موضع
التعظيم والتعظيم والاستشارة . وظل على الكعب في الخطابة المنيرة يرسلها منوعة
حسب المناسبات . وما زال حتى ألغى نظام القضاة الأربعة في جمادى الآخرة
سنة ٩٢٨ هـ . وحل محلهم قاضى العسكر ، فانفصل القاضى كال الدين عن القضاء
بعد ما تردد عليه نحواً من أربعة عشر عاماً . ثم عاش بعد ذلك زمناً ، ولعله توفى
في ٩٢٨ هـ ، أو قريباً منه .

« ابن أبياس ج ٤ حوادث الشهور المذكورة - وج ٣ ص ٧ ، ٧٣ ، ٢٧ ، ٣٥ ، ٤١ ،
٤٢ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٩٨ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٧٨ ، ١٨٢ ، ١٩٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ،
٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢٢٦ ، ٢٥٠ ، ٢٨٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ » .

٦٠ - شهاب الدين الفتوحى

هو شهاب الدين أحمد بن عز الدين عبد العزيز الفتوحى الشهير بابن النجار
الحنبل . لما انفصل قاضى الحنابلة بمصر الشيخ الشيشينى عام ٩١٩ هـ ، أرسل السلطان
العورى إلى الشيخ شهاب الدين . وكل إليه منصب القضاء المذكور . فلبث فيه
زمناً طويلاً . وكان فى جملة القضاة الأربعة الذين خرجوا فى حملة السلطان العورى
إلى البلاد الشامية والحلبية لمقاتلة العثمانيين . ثم كانت عاقبة أمره أن أسرى فى جملة
الأسارى ، فظل فى حلب مدة وبعثه السلطان سليم مع من ويخ من القضاة . ثم
عاد إلى مصر كما عادوا مسوقين فى الركاب العثمانى . ولما تمت لصرة العثمانيين الأولى
على طومان باى ، سبق شهاب الدين هو والقضاة والحليفة ينادون الناس بالخضوع
لهم ، ثم سار فى موكب السلطان سليم نفسه حيناً اخترق شوارع القاهرة الرئيسية
فى المحرم عام ٩٢٣ هـ . ثم أرسله السلطان سليم إلى الصعيد فى عداد الوفد المرسل
إلى طومان باى لمصالحته فأخفقوا .

وبعد أن تم الفتح العثمانى ثبت القاضى شهاب الدين الفتوحى فى منصبه . غير
أنه كان أقل نفوذاً من القاضى المالكي وهو برهان الدين الدميرى . ولذلك حينما
قام بختان ولده فى ٢٣ شعبان سنة ٩٢٦ هـ ، كان الاحتفال به أقل بهاء من احتفال
الدميرى بختان ابنه .

وقد ظل الفتوحى فى منصبه حتى ألغى نظام القضاة الأربعة فى جمادى الآخرة
عام ٩٢٨ هـ ، فانفصل من القضاء وعاش بعد ذلك زمناً ، ولعله توفى قريباً من
العام المذكور .

« ابن أبياس ج ٤ حوادث شوال عام ٩١٩ هـ - وفى ج ٢ ص ٢ ، ٢٧ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٩٨ ،
١١٣ ، ١٢٤ ، ٢٥٠ ، ٢٨٢ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ » .

٦١ - يحيى البردبني

هو القاضي شرف الدين يحيى البردبني الشافعي . كان له باع طويل في الخطابة المنبرية . وقاب عن القاضي الشافعي زمنا . وشهد مبايعة الأشرف طومان باي بالسلطنة ، عوضا عن كمال الدين الطويل ، لأسره عند السلطان سليم . ولما عاد القاضي كمال الدين بن الطويل ، وتسلم مهام منصبه أصبح البردبني مفصولا ، ولم يل القضاء بعد ذلك .

ولما نباه العيش بمصر ، حينما اضطربت أحواله بعد الفتح العثماني ، جهد في أن يعين شيخا للحرم النبوي الشريف ، فأجيب إلى طلبه ، وسافر توا إلى المدينة في شهر جمادى الآخرة عام ٩٢٢ هـ .

« ابن لاس ج ٣ ص ٧٠ ، ٧٨ ، ١٢٥ » .

قضاة آخرون

نحمل فيما يلي ذكر عدد آخر من قضاة مصر مرتبين حسب عصورهم ووفياتهم تقريبا . وقد اعتمدنا في إيرادهم على تاريخ ابن إياس أولا ، ثم نضيف إليه من بعض المراجع الأخرى .

عن الجزء الأول من ابن إياس :

١ - جمال الدين الزرعي : من قضاة الشافعية في عهد الناصر بن قلاوون « د ١٧٥ »

٢ - برهان الدين بن جماعة : خطيب يدت المقدس . عين في قضاء الشافعية عام

٧٧٣ هـ في عهد الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر بن قلاوون . بدلا من بهاء

الدين السبكي . وهو ابن أخي القاضي عز الدين بن جماعة المقدسي « د ٢٢٧ ،

٣١٥ - طبقات السبكي ج ٥ ص ٤٦ » .

٣ - جمال الدين بن خير المالكي السكندري : قاضي قضاء المالكية عام

٧٨٧ هـ في عهد برقوق ، بدلا من ابن خلدون « د ٢٦٢ ، ٢٨٤ » .

- ٤ - شمس الدين الطرابلسي : قاضى قضاء الحنفية عام ٧٩١ هـ . فى عهد السلطان أمير حاج . د س ٢٨٤ .
- ٥ - ناصر الدين العسقلاني : قاضى قضاء الحنابلة عام ٧٩١ هـ . فى عهد السلطان أمير حاج . د س ٢٨٤ .
- ٦ - تقى الدين الزبيرى : عين قاضيا للشافعية عام ٧٩٩ هـ ، غرضا عن المناوى ، فى عهد برقوق . د س ٣١٥ ، ٣٠٧ .
- ٧ - صدر الدين بن منصور : من قضاء الحنفية فى عهد برقوق . د س ٣١٥ .
- ٨ - مجد الدين الكنانى من قضاء الحنفية فى عهد برقوق . وقد توفى عام ٨٠٢ هـ . د س ٣١٥ ، ٣٢٦ .
- ٩ - جمال الدين محمود القصيرى : من قضاء الحنفية فى عهد برقوق . د س ٣١٥ .
- ١٠ - جمال الدين يوسف الملطى . من قضاء الحنفية فى عهد برقوق وفرج . توفى بالشام عام ٨٠٣ هـ . د س ٣١٥ ، ٣٢٨ ، ٢٣٧ .
- ١١ - شمس الدين الزركاكي : من قضاء المالكية فى عصر برقوق . د س ٣١٥ .
- ١٢ - شهاب الدين أحمد التحريرى : من قضاء المالكية فى عصر برقوق . توفى عام ٨٠٣ هـ . مفصلا عن القضاء . د س ٣١٥ ، ٣٤٠ .
- ١٣ - ناصر الدين التونسى : من قضاء المالكية فى عصر برقوق . د س ٣١٥ .
- ١٤ - بهان الدين العسقلاني : من قضاء الحنابلة فى عصر برقوق . وقد توفى عام ٨٠٢ هـ . د س ٣١٥ ، ٣٢٦ .
- ١٥ - نور الدين بن الجلال المالكي : من قضاء المالكية فى عهد فرج . ومات مأسورا عند تيمورلنك عام ٨٠٣ هـ . د س ٣٢٨ ، ٣٤٠ .
- ١٦ - ناصر الدين الصالحى : من قضاء الشافعية ، ولى قضاءها عام ٨٠٣ هـ بدلا من صدر الدين المناوى لأسره عند تيمورلنك . د س ٣٢٧ .
- ١٧ - أمين الدين الطرابلسي : ولاء السلطان فرج قضاء الحنفية غرضا عن جمال .

الدين يوسف الملقب المتوفى عام ٥٨٠٣ هـ . د س ٣٣٧ .

١٨ - جمال الدين الأقبسى : ولاة السلطان فرج قضاء المالكية ، عوضا عن نور الدين بن الجلال المتوفى مأسورا عند تيمورلنك عام ٥٨٠٣ هـ . ثم عزل الأقبسى وعين مكانه ابن خلدون . د س ٣٣٧ .

١٩ - محمد الدين بن سالم الجنبى . ولى قضاء الحنابلة فى عصر فرج عام ٥٨٠٣ هـ ، بدلا من موفق الدين الحنبلى المتوفى . د س ٣٣٧ .

عن الجزء الثانى من ابن إياس :

٢٠ - ولى الدين العراقى : ولى قضاء الشافعية بمصر مدة فى عهد المؤيد شيخ عوضا عن جلال الدين البلقينى . وتوفى عام ٥٨٢٤ هـ فى عهد الملك المنصور أحمد بن المؤيد . د س ١٣٠٩ .

٢١ - بدر الدين محمود العينى : ولى قضاء الحنفية زمنا بمصر فى عهد المؤيد شيخ . وشهد عصور من بعده حتى توفى فى أواخر عهد جقمق . وله كتب فى التاريخ وشرح البخارى وغيره من المصنفات النافعة ، وله شعر وزجل ، انظره فى الجزء الثانى من كتابنا هذا . د س ٣٦٠٩ .

٢٢ - نصر الدين بن التونسى : ولى قضاء المالكية زمنا فى مصر فى عهد المؤيد شيخ . د س ٩٠٠ .

٢٣ - علاء الدين بن مقل : ولى قضاء الحنابلة زمنا بمصر أيام المؤيد شيخ . د س ٩٠٠ .

٢٤ - شمس الدين البساطى : ولى قضاء المالكية زمنا فى عهد الظاهر جقمق وتوفى عام ٥٨٤٢ هـ . د س ٣٣٠٣٧ .

٢٥ - بدر الدين التونسى : ولى قضاء المالكية بمصر عام ٥٨٤٢ هـ بعد وفاة البساطى فى عهد جقمق ، ثم توفى فى نفس العهد . د س ٣٦٠٣٧ .

٢٦ - شمس الدين محمد القاياني : ولى قضاء الشافعية بمصر زمناً في عهد الظاهر جقمق بعد عزل ابن حجر عام ٨٤٩ هـ . د س ٢٩ .

٢٧ - ولى الدين السقطي : ولى قضاء الشافعية زمناً بمصر في عهد جقمق قبيل عام ٨٤٩ هـ وتوفي في هذا العهد . د س ٣٠ ، ٣١ .

٢٨ - ولى الدين الأرموي : ولى قضاء المالكية بمصر زمناً في عهد جقمق بعد البدر التونسي . د س ٣٠ .

٢٩ - محب الدين العسقلاني : ولى قضاء الحنابلة بمصر زمناً في عهد جقمق وتوفي في ذلك العهد . د س ٣٠ ، ٣١ .

٣٠ - بدر الدين البغدادي : ولى قضاء الحنابلة بمصر زمناً في عهد جقمق بعد محب الدين العسقلاني . وتوفي في نفس العهد . د س ٣٠ ، ٣١ .

٣١ - بدر الدين عبد المنعم البغدادي : هو عبد المنعم بن محمد بن محمد بن عبد المنعم البغدادي ، كان عالماً فاضلاً ورجحاً عند الناس . ولد عام ٨٠١ هـ . وتوفي عام ٨٥٧ هـ . ولى قضاء الحنابلة زمناً وشهد عهد الأشرف إينال - ولعله هو بدر الدين البغدادي رقم ١١ كرر ابن إياس ذكره وذكر وفاته في ميخاين وموضعين . د س ٤٢ .

٣٢ - عز الدين الكنتاني . هو ابن برهان بن محمد الدين بن نصر الله . عينه الأشرف إينال في قضاء الحنابلة بعد وفاة بدر الدين البغدادي سنة ٨٥٧ هـ فلبث فيه زمناً . د س ٤٢ .

٣٣ - ولى الدين السنباطي . كان قاضياً قضاء المالكية بمصر زمناً . وتوفي في عهد الأشرف إينال سنة ٨٦١ هـ . وولد سنة ٧٨٦ هـ ، واسمه محمد بن عبد اللطيف إسحق بن أحمد بن إبراهيم بن سليمان بن داود بن عتيق الأموي المالكي . كان عالماً فاضلاً وقد تولى بعده القاضي حسام الدين بن حريز . د س ٥٨ .

٣٤- صلاح الدين أحمد بن بركوت المكي: تولى قضاء الشافعية بمصر بعد عزل يحيى المناوى فى أواخر عام ٨٦٩ هـ فى عهد السلطان خشقدم . وقبل دفع فى سبيل ذلك مالا . ولم يلبث فى منصبه طويلا ، بل عزل أوائل عام ٨٧٠ هـ وظل معزولا حتى توفى عام ٨٨١ هـ .

« الضوء اللامع ج ٢ رقم ٣٠٤ - وابن إياس ص ٨٧ ، ٧٩ ، ١٦٦ »

٣٥- بدر الدين محمد أبو السعادات : هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عمر الكناني الشافعي . تولى قضاء الشافعية بمصر زمنا قليلا فى عهد خشقدم ، ثم عزل وتوفى سنة ٨٩٠ هـ . « ص ٢٢٨ »

٣٦- برهان الدين اللقاني : تولى قضاء المالكية زمنا بمصر فى عهد قايتباى بعد عزل ابن حريز عام ٨٧٧ هـ ثم عزل . « ص ١٣٧ ، ٢٠٦ »

٣٧- الجمالى يوسف الخنبلى : هو ابن الشهابى أحمد بن نصر الله بن البغدادى ، تولى قضاء الخنابلة بمصر زمنا . وكذلك اشتغل بالتدريس بمدارس الخنابلة كالمدسة البروقية ، وكان لطيف المعاشرة . وقد توفى فى المحرم عام ٨٨٩ هـ . « ص ٢٢١ »

٣٨- بهاء الدين عبد الرحمن بن قدامة الدمشقي : عينه السلطان الظاهر قانصوه فى قضاء الخنابلة بمصر عوضاً عن الشيشينى فى رمضان عام ٩٠٤ هـ . فبكت أربعة أشهر وحرف عن القضاء . ثم عين فى قضاء الخنابلة بدمشق بعد ذلك ، وشهد عصر النورى ، وتوفى فى أخرياتة . « ج ٧ ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ - وج ٣ ص ٦٣ »

عن الجزء الثالث من ابن إياس :

٣٩- شمس الدين التتائي :

عينه الأشرف طومان باى فى قضاء المالكية عوضاً عن يحيى الدين الدميرى الأسير لدى السلطان سليم وذلك فى مستهل ذى القعدة عام ٩٢٢ هـ ، ثم انفصل حينما عاد الدميرى وتسلم منصبه ثانياً . « ص ٧٨ »

المحمل والحج

منذ دخل الإسلام بلاد مصر ، أصبح أهلها - إلا قليلا منهم - يدينون به ، ولم تفتر مهمتهم عن إظهار شعائره الدينية . والافتتان في إظهارها . ومرت بمصر عصور دفعتها إلى الغلو في ذلك ، حتى بدت منها في هذه السيليل ضروب من البدع ، مابين مقبول ومرذول . ومن هذه البدع خروج المحمل في موسم الحج إلى بلاد الحجاز . وقد كانت هذه البلاد خاضعة لمصر في عصر المماليك .

والمحمل جمل فوقه تركيب يحمل أشياء ثمينة ، وكسوة مخصوصة لتغطية الكعبة . والعادات المرعية في إبان الاحتفال به وبخروجه الآن يعرفها المصريون ولاسيما القاهريون . إذ لا يزال خروج المحمل سنة متبعة في بلادنا حتى اليوم ، ويحتفل به في القاهرة كل عام . وإن كان قد ركذ أخيرا بسبب ظروف السياسة .

وقد كان لكل من العراق والشام والمغرب محمل ، فكانت عدة المحامل السلطانية أربعة ^(١) . ثم عني الزمن هذا التقليد ولم يبق مقبلا على اتباعه حتى الآن غير مصر . والمعروف أن الظاهر بيبرس ، أول من أمر بخروج المحمل بديار مصر ، وكان ذلك في ١٦ شوال عام ٦٧٥ هـ . فقد روى السيوطي قال :

« وفي أيامه - أي بيبرس - طيف بالمحمل وكسوة الكعبة المشرفة ، بالقاهرة . وذلك في ستة خمس وسبعين - أي وستائة - وكان يوما مشهودا . وهو أول من فعل ذلك بالديار المصرية » ^(٢) .

وقال صاحب تقويم النيل :

« إنه - أي بيبرس - بعد أن تولى ملك مصر ، قرر إرسال تحفة سنوية إلى مكة ، وهي جمل يحمل أشياء ثمينة وكسوة مخصوصة لتغطية الكعبة ، وهي التي أطلق عليها اسم المحمل » .

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٤ قلاعن ابن فضل الله .

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٤

وقال أيضا ونقل عن حسن المحاضرة :

« وقال ابن كثير : في سادس عشر شوال سنة ٦٧٥ هـ ، طيف بالمحمل وبكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة ، وكان يوماً مشهوداً ، قلت : كان هذا مبدأ ذلك ، واستمر ذلك كل عام إلى الآن ، ^(١) .

غير أنه ورد في ابن إياس ما يفيد أن المحمل ، كان معروفاً قبل عام ٦٧٥ هـ . فقد ذكر في حوادث عام ٦٦٧ هـ أن السلطان بيبرس حج إلى بيت الله الحرام في العام المذكور . ثم قال بالنص :

« وكان ولد السلطان ، السعيد محمد ، توجه صحبه المحمل بالحاج المصري . فلما قضى حجه - أي السلطان - رجع إلى الشام ، ورجع ابنه الملك السعيد صحبه المحمل مع الركب المصري . »

فهل كان « المحمل » معروفاً في مصر قبل عام ٦٧٥ ؟ قد يكون ذلك تبعاً لنص ابن إياس . غير أن ما رواه السيوطي أصرح وأقطع . وعلى كل حال ، فالمنهوم أن بدعة « المحمل » وبدعة الطواف به في مصر ، من مبتكرات عصر المماليك . ولعلنا أن نفرق أولاً بين مجرد الكسوة للكعبة الشريفة ، وبين « المحمل » . فكثير من الأمم والسلاطين كانوا يرسلون الكسوة ولكن بغير محمل .

ولسنا هنا في مقام تعداد محاسن المحمل أو مساوئه ، أو نقد بدعته ، وإن كانت تحتاج منا الآن - نحن أهل القرن العشرين - إلى إعادة النظر . وكل ههنا منصرف إلى الحديث عنها ورواية أخبارها وبيان مبلغ اهتمام المصريين بأمرها ، وذكر ما يتصل بها من شئون الحج ، في عصر المماليك فنقول :

روى السيوطي في وصف المحمل المصري ما يلي :

« قال ابن فضل الله ... يخرج الركب من مصر بالمحمل السلطاني والسيل المسبل للفقراء والضعفاء والمنقطعين ، بالماء والزاد والأشربة ، والأدوية والعقاقير ، والأطباء

والسكاحين ، والمجبرين والأدلاء ، والأئمة والمؤذنين والأمراء والجند والقاضي والشهود ، والدوابين والأمناء ، ومغسل الموق . في أكل ذى وأُم أبهة . وإذا نزلوا منزلا أو رحلوا مرحلة ، تدق الكوسات ، وينفر النفير ، ليؤذن بالرحيل والنزول .. (١)

وقد جرت عادة السلطنة المصرية أن يقوم بالحجاج ركبان : يسمى أحدهما « الركب الأول » ، ويسمى الثاني « ركب المحمل » ، وهو أُم الركبين ، لأنه يضم الكسي والمهدايا وما إلى ذلك ، ويسافر في صحبته عظماء الحجاج .

ويعين لكل ركب ، أمير يختاره السلطان من بين رجاله المقربين الموثوق بهم . والغالب أن يكونا من رجال السيف ، وقل أن كافا من رجال القلم أو الدين . وبدهى أن يكون أمير ركب المحمل ، أُم وأسى من أمير الركب الأول ، ويتم تعيينهما في النصف الثاني من ربيع الأول من كل سنة ، وبعد انتهاء المولد النبوى . ولوحظ أنه ينذر أن يتأخر تعيينهما أو يتقدم ، إلا لسبب عارض ويهد ذلك مخالفا للعادة المرحية .

وإذا ما وقع اختيار السلطان على أُمير الركبين ، أهدى إليهما خلع الإمارة ، وهى أردية نفيسة ذات قيمة . ثم يأخذ الأميران في الاستعداد للرحيل وينادى المنادى بين الناس بالقيام للحج ، ليستعد أيضا من عقد التبة في عامه على حج بيت الله الحرام . هذا إذا لم يكن هناك خطر مرقوب يتوقع حدوثه لركبي الحجاج ، كقيام العربان في الطريق لقطعه عليهم ، وترصدهم لنزولهم حتى ينهبوا ما معهم . وقد يقتلون منهم عددا . وقد يأسرون عددا آخر . وكثيرا ما حدثت حوادث من هذا النوع حتى اضطر السلطان خوفا على حياة رعاياه أن ينادى في سنة ما يمنع النساء وحدهن من الخروج للحج في سنتهن تلك . أو يمنع الرجال والنساء معا من الخروج للحج في عامهم ذلك . وكذلك إذا تتالت الأخبار عن ثوران العربان في الطريق المؤدى إلى الحجاز ، وعن توقع الشر منهم للحجاج . وهذا هو

ما وقع في سنة ٩١١ هـ . وربما خيف من فتنة أخرى أو حرب منتظرة أو نحو ذلك . فينادى بعدم الخروج للحج حيثئذ .

ويزود ركباً المحمل بعدد من الجنود لحمايتهما . والذود عنهما في خلال الطريق ذهاباً وإياباً وإقامة . وقد يصل عدد الجنود إلى خمسمائة أو ستمائة ومعهم أمراؤهم . كما قد يزود الركبان بنحو خمسين جندياً آخرين عليهم أمير خاص بهم ، يصاحبونهم إلى مكة . ولا يعودون في عودتهم ، بل يقيمون بمكة طول العام حتى يعود ركب المحمل في السنة القادمة إلى الحجاز ، فيستبدل بهم سواهم وهكذا . وهذه حيلة نافعة في تلك العصور المظلمة المليئة بالفوضى وحب الاعتداء من العربان وغيرهم . ويسمى هؤلاء الخمسون « المجاورين » ويسمى أميرهم « باش المجاورين » ، لأنهم يجاورون مكة والبيت الحرام . ويعطى كل جندي عن يصحبون المحمل مالاً لينفق منه ويكفيه طيلة عمله المكلف إياه .

فإذا تهيأ المحمل وأعد ، عرض على الأنظار السلطانية عرضين : أما العرض الأول فموعه شهر رجب من كل عام . وفي نصفه الثاني في الغالب . وأما العرض الثاني فموعه شهر شوال من كل عام ، وفي نصفه الثاني في الغالب . ويندر أن يعرض في غير هذا الميعاد .

والعرض الأول عبارة عن خروج المحمل بالكسوة الشريفة والبرقع وكسوة مقام إبراهيم عليه السلام تحتيته والحفاوة به ، وإعلان الناس باقتراب موسم الحج وبث الحماسة الدينية في نفوسهم ، ثم لإشهار غنائمه ، ولقضاء يوم القسلى برؤيته . ويسير الجنود أمامه وحوله بملابسهم المزركشة ، وأسلحتهم المزخرفة ، وألوانهم اللامعة . فيخترقون به وسط القاهرة ميممين جهة القلعة في ناحية الرملة . فإذا توسطوا ساحتها ، أشرف عليهم السلطان وحوله عدد من موظفيه وأمرائهم رجال دولته . حيثئذ يقوم « الرماحة » وهم طائفة خاصة تحمل الرماح ، معدة لمثل هذه المناسبة ، بملابسهم الحمراء . فيلعبون ألعباً عسكرية كثيرة تتم عن فروسيتهم ومهارتهم . فينتسلى الجمع بمشاهدتهم . ويدور المحمل في أثناء ذلك أمام السلطان هورة استعراض .

وفي هذا اليوم - وهو يوم العرض الرجبي - يدور المحمل دورتين ، أولاً في الصباح وثانياً في بعد الظهر .

وفي هذا اليوم تبلغ الحفاوة باستقبال المحمل غايتها ، ويبالغ الناس في حسن لقائه ، ويكاد بعضهم ضروباً من النفقة المرفقة لتزيين منازلهم ومحالهم وإبقاء هذه الزينة طول نهارهم وليلتهم ويحملونها بقطع من القماش الملون والحرير الموشى والقاديل الزيتية ذات الأضواء الجميلة والشموع الموقدة ليلاً ونهاراً^(١) . وينثرون هنا وهناك المقاعد الوثيرة المحلاة . منهم من يندفع إلى ذلك بدافع العادة والتقليد أو سعيًا وراء الظهور وحب الصيت . ومنهم من يفعل ذلك خوفاً من عقاب الوالي - وأعني به والي القاهرة - لأن والي المذكور يغلب أن ينادى هو وأعواله قبيل يوم العرض الرجبي في أنحاء القاهرة ، وخاصة في عمر المحمل ، بأن يحمل الناس وجوه منازلهم وحوالياتهم في اليوم المذكور . فيخشى بعضهم العقاب إذا لم يطع هذا الأمر .

ويكثر في هذه المناسبة خروج الناس رجالاً وركباناً ذكورا وإناثاً إلى أماكن اللهو والتسلي يعشون ويسمرون ويغنون ويرقصون ويتناشدون ، ويعاونه في ذلك الشعراء والزجالون بما ينظمون من ضروب الشعر والزجل .

وبما هو جدير بالذكر أن العرض الرجبي ظل مرعياً زمناً طويلاً . ولبت من تقاليد الدولة . وأبطل مرة قبل الأشرف إينال فأعاده عام ٨٤٩ هـ ، ثم أبطل بعد الظاهر خشقدم في سنة ٨٧٢ هـ ففسيه الناس ، وظل منسياً^(٢) قرابة أربعين عاماً ، حتى أعاده وقرره السلطان الأشرف الغوري في عام ٩٠٩ هـ ، وجعله من تقاليد الدولة مرة أخرى . فظل كذلك إلى آخريات العصر . غير أني لاحظت أن العرض

(١) للدخل لايت الحاج ج ١ ص ٢٧٢

(٢) هذا كلام ابن أبياس ج ٤ حوادث عام ٩٠٩ هـ . وحاشا لم نلظ أخباراً من العرض الرجبي طول هذه المئة إلا مرة في عهد قايتباي عام ٨٩٦ هـ فوجب التنبيه .

الأول المذكور وقع مرارا في شوال لا في رجب وذلك في عهد الغورى .
أما العرض الثاني فهو عرض الخروج ، ويكون في شهر شوال من كل سنة كما
ذكرنا ، وفي نصفه الثاني غالبا ، وهو عبارة عن خروج المحمل شاقما من وسط القاهرة
في زينة حافلة وحفاوة تامة . والجالون يحملون على رؤسهم الكسوة وغيرها
أر يستخدون لذلك الجمال والدواب الأخرى . ويعرض على أنظار السلطان في
جهة القلعة ، ثم يقبع في مكانه يوما أو بعض يوم ، ثم يخرج من القاهرة في زينته
وبين حفاوة الناس بتوديعه ناسلا إلى بركة الحاج شمال القاهرة ، حيث يجتمع
الحجاج ، يفدون إليه ويأوون من كل حطب وصوب في البلاد . وفي خلال هذين
اليومين يولم السلطان والأمراء الولائم الحافظة ويذلون الأطعمة ويمدون الموائد
ياكل منها الناس ، ويفيضون بضروب من البر والعطاء ، يستعين بها الفقراء .
فإذا وصل ركب المحمل إلى بركة الحاج يلتدى الحجاج المجتمعون بها في الاستعداد
الآخر للرحيل على جماهم ودوابهم ، ثم يبتدىء الركب الأول . ويكون قبلها
قبل ركب المحمل . في السفر ، ويسافر قبل ركب المحمل بيوم واحد . ثم يليه ركب
المحمل وهكذا . ويندر أن يتأخر عن اللحاق به أكثر من يوم .
ويفهم من تحديد زمن الخروج بالنصف الثاني من شهر شوال أن مسافة الرحيل
قد تستغرق نحو شهر ونصف ، ومع ذلك فقد حج الناصر بن قلاوون عام ٧١٨ هـ .
وخرج مع ركبه في ١٩ ذى القعدة فسار مسرعا وبلغ مكة قبل الوقفة بثلاثة أيام .
وفي عام ٩١٥ جاء مبشر الحاج في ١٣ يوما فقط .
هذا وقد يصحب الركب في عام ما ، سلطان مصر نفسه متوجها لأداء الفريضة
وفي هذه الحالة تزداد رغبة الأمراء والأعيان والناس في السفر إلى الحج ، وكذلك
يزداد عدد الأمراء والجنود والموظفين المعينين لمصاحبة الركب حفاوة بالسلطان
وقياما على راحته وسهرا على حفظه . وقد حج السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام
٧١٨ هـ ، فاستصحب معه الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة ، واثني عشر
أميرا مقبما ، وثلاثين أميرا من غير المقدمين ، ورافقه كاتب سره علاء الدين بن

الأثير ، وناظر جيوشه القاضي غفر الدين ، وناظر خواصه القاضي كريم الدين بن السديد ، وكثير من المباشرين . وحج الناصر أيضاً مرة أخرى في عام ٧٣٢هـ وكان يصحبه كذلك الملك المؤيد صاحب حماة وكثير من الأمراء ، قيل إن عددهم ٧٢ أميراً . وحج السلطان الأشرف قايتباي عام ٨٨٤هـ ومعه كثير من الجنود وأمرائهم . وهكذا .

وقد يحج ابن السلطان أو زوجته . فإذا خرجت زوجة السلطان إلى الحج يغلب أنها لاتصحب أحد الركبين في سفرها . بل يهيا لها ركب خاص تسافر فيه ، يبدأ مبعاده قبل ميعاد رحيل ركب المحمل بقليل . ويكتفى إذ ذاك بزفاف ركبها الخاص ضمن الاحتفال بعرض المحمل العرضة الأخيرة .

وبهذه المناسبة تذكر أنه قد جرت العادة إذا تهيأ أحد عظماء القوم للخروج للحج ، أن يعد لنفسه ركبا خاصا وعفة مزدانة ازدياتا على قدر استطاعته ومركزه وجاهه ، وينضم بهذا الركب الجزئي إلى الركب العام وهو ركب المحمل حين خروجه إلى بركة الحاج . فإذا كان هذا العظيم هو زوجة السلطان ، خرج ركبها وفيه محفها جميلة وضوءة مزدانة بالحرير والأفواف والوشى والزخرف والجوهر وتسمى كأن الأميرة فيها . ويقسم الناس حينئذ أنها ملء محفها ، ولكن الغالب أنها لاتكون بداخلها ، بل تلحقها خفية فيما بعد . ثم تمتطيها من بركة الحاج وتسير بالسفر كما رويناه .

ويرسل مع ركب المحمل ما جادت به مكارم السلطان ، وقاض به جود الدولة وسمحت به نفوس أعيان مصر ومحسنينا للبيت الحرام وخدمه وفراء مكره الحجاز والحرم النبوي الشريف قربي إلى الله وزلفى .

فمن ذلك البكوة الشريفة ، وكانت العناية بصنعها بالغة وينفق في سبيلها وإعدادها مال وفير . وقد يهتم بشأنها بعض السلاطين والأمراء أكثر من اهتمام سوام . فقد روى أن الملك الصالح علاء الدين بن الناصر محمد بن قلاوون ٧٤٣هـ - (١٠٢ - مائة)

٧٤٦ هـ ، أوقف إحدى ضيعاته وتسمى «ببسوس» ، على صنع كسوة الكعبة الشريفة . وفي عام ٧٩٢ هـ صنعت أخت الملك الظاهر برقوق كسوة ثمينة للحجرة الشريفة مع ستارة غالية لبابها . وهكذا .

ومن ذلك أيضا الغلال والشموع والزيت والقمش وصرر الدنانير وأمثال ذلك ، ومعها الهدايا المختلفة . وقد روى أن الملك الناصر محمد بن قلاوون لما خرج للحج في مرته الثالثة عام ٧٣٢ هـ حمل معه بابا للكعبة قد صنعه بمصر من خشب السنت الأحر المغطى بصفاق من الفضة ، قيل إن زنتها كانت ثلاثين ألف درهم .

هذا ، ثم يخرج ركب المحمل مبيا بلاد الحجاز . ويسير إليها برأ لا بحر (١) إذ طرق المواصلات البحرية ، عن طريق البحر الأحمر طبعاً ، لم تكن ميسرة قادرة على حمل هؤلاء الحجاج وركيهم بماعمهم من زاد وملابس وخيل وأدوات وأسلحة وغير ذلك . ومع ذلك فقد كان بعض الحجاج يسافر عن طريق البحر ، وكذلك يعود ، أما الطريق البري فعليه جل الاعتماد . ويمر كل ركب بجهة العقبة ، ولا شك أنه يقيم هناك آونة للاستراحة . ولذلك عنى كثير من سلاطين مصر بهذه الجهة ، فمنهم من أنشأ بها السواق لاستنباط الماء ، ومنهم من أقام الربوع للنوم ، ومنهم من بنى المخافر وأسكن فيها الجند لحماية للطريق ومحافظة على أرواح الحجاج . ومن هذا القبيل ما أنشأه السلطان الغوري في عام ٩١٤ هـ .

وإذا بلغ الركب هذه النواحي يرسل عادة إلى القاهرة مبشراً بنبأ سلامة وصوله إليها وبجالة الركاب وما هم عليه من سلامة وصحة وأمن ، ويحمل معه رسائل بعض الحجاج إلى ذويهم .

ثم يصل الركب إلى مكة فيخرج أميرها للقاء أمير المحمل ، وحينما يراه يترجل

(١) اقرأ وصف رجل الحجاج من بركة الحاج حتى مكة ومراحله ، لابن فضل الله في حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٨٤ تحت عنوان « ذكر الطريق السلوك من مصر إلى مكة » .

عن فرسه ويتقدم في مهابة وتوقر فيقبل رجل حمل المحمل . ثم يتسلم الكسي
والأعطيات ، ويقوم أميره وأعوانه بتفريق ما لديهم من الهبات والחסنات .
ويؤدون جميعا مع الحجاج فريضة الحج ، ويتركون بالزيارة ، ثم يأخذون سمتهم
إلى العود ويتخلف منهم الجند المجاورون ، ويتخلف أيضا من حكم عليه السلطان
بالننى إلى مكة في عامه ذلك ، فأوفده مع الركب إليها . ويتخلف أيضا من عقد النية
على مجاورة بيت الله الحرام .

يعود الركبان والحجاج كما أتوا سالكين طريقهم في الحجى . فيصلون إلى البلاد
سالمين ، ما لم يتم في طريقهم في الذهاب أو الإياب عائق . وأشد العوائق وأشقها
خروج العربان عليهم ونهب ما معهم أو قتل بعضهم أو أسرهم . ومن ذلك ما وقع
في عام ٨٥٨ هـ ، ٨٩٠ هـ . وأكثر ما اشتد عسف العربان وقتكهم بالحاج في أخريات
العصر . ومن أعداء الحجاج الأمراض والطواعين تنفث في جماعاتهم ، وكذلك
الغلاء وموت الدواب يقاسون منها شدة كبيرة وضيقاً لا حد له . وكذلك كثرة
السيول أو قلة الماء . وقد يشتد بهم أمر هذه الأعداء فيلبدد جمعهم ويقعثر ملوهم
من جرائمها . فيعودون إلى مصر فرادى عن طريق البر أو البحر فيصلونها منهوكي
القوى مكثودي العزائم .

وقد جرت العادة أيضا أن يفد إلى مصر في أخريات شهر ذى الحجة ، مبشر
بخبر بأحوال الحجاج والركبين في مكة في أثناء عودتهم ، ويحمل معه رسائل الحجاج
إلى ذويهم . وقل أن انقطع بحى هذا البشير . بخلاف المبشر الأول فإنه كثير ما
انقطع . ثم يعود الركبان فيصلان في أواسط النصف الثانى من شهر المحرم في السنة
التالية . فيزل الركب الأول ببركة الحاج ، وبعد نزوله يوم ينزل ركب المحمل .
ومن هنا يتفرق الحجاج إلى بلادهم ، ثم يتقدم الركب الأول فيخترق مدينة القاهرة
فيلاقيه الناس في حفارة . ثم يتلوه بعد يوم واحد ركب المحمل ويشق طريقه في
وسطها ، فيحسن الجمهور لقاءه . وينذر أن يتأخر ركب المحمل عن الركب الأول
في قدومه إلى القاهرة أكثر من يوم واحد ، وكلما دخل أحد الركبين إلى القاهرة

صعد أسيره إلى حضرة السلطان بالقلعة فيفيض عليه عادة بمجمل رضاه وسنى جوائزه وتقيس خلعه ، فيحدث السلطان بما رأى في رحلته وما سمع وما صنع . ثم يغادر مجلسه مكرماً .

واعتاد الناس أن يتسقطوا أخبار الحجاج وأخبار أمير المحمل فإذا علموا عنه براً وعبلاً صالحاً ، وحسن رعاية للحجاج وجميل معاملة ، أثنوا عليه بما هو أهله ، ولهجت ألسنتهم وتحدثت مجالسهم بمناقبه وحمده ، وإن علموا منه أذى كثيراً وبجلاً وسوء معاملة ذموا وحفظوا له سوء صنعه .

وفيما يلي نصوص تاريخية متقولة عن تاريخ ابن إياس - وقد اكتفينا بذلك صفحاته - نجمل فيها بعض أخبار المحمل والحج في العصر الذي نحن بصددده على سبيل المثال لا الاستيعاد . وهي مجموعة بعد تفرق مهبدة العبارة بعدركة ، مسبوكة في قالب من اللفظ مناسب ، مع حذف ما لا غناء فيه ، مشاراً في سياقها إلى أسماء الأمراء الذين اختيروا في كل عام لإمارة الركبين ، مزودة أحياناً بنصوص عن غير ابن إياس فنقول :

أخبار ركب الحج وأمرائهما وما يتعل بذلك

١ - في سنة ٦٦٧ هـ . حج السلطان الظاهر بيبرس إلى بيت الله الحرام ، فخرج من القاهرة في ثالث شوال وتوجه إلى غزة فأخذ ما أعده له نائب الشام ، ثم وفد إلى الكرك بالمدينة المنورة فزار قبر النبي عليه السلام والسلام . ثم قصد مكة فدخلها في غاس ذي الحجة - وكانت الوقفة يوم الجمعة - وقد تواضع بيبرس لله كل التواضع . وكان ولد السلطان بيبرس ، وهو السعيد محمد ، قد صحب الركب المصري ، فأدى السلطان فريضته وعاد إلى الشام . وعاد ابنه مع ركب المحمل المصري .

٢ - سنة ٦٧٨ هـ حج بالناس الأمير جمال الدين أفتش البخلى . وسار
الركب في ١٧ شوال . وقاضيه نغر الدين عثمان ابن بنت أبى سعيد .
« سلوك ج ١ ص ٦٧١ » .

٣ - في سنة ٦٨١ هـ : حلف الشريف أبو نعيم أمير مكة للسلطان المنصور -
والده بالطاعة . وأنه التزم تعليق كسوة مصر على الكعبة كل عام ، ولا يعلق غيرها ،
وأن يقدم علم السلطان على سواه ، وأن يسهل زيارة البيت للحجاج ويمرهم
ويسهر على أمنهم .

وخرج من القاهرة بالمحمل الأمير ناصر الدين الطنبغا الخوارزمي ، ومعه كسوة
الكعبة . وسار بالسييل حسام الدين مظفر أستاذ دار الفارقاتى وحج الأمير
علاء الدين البندقدار في ركب كبير . « السلوك ج ١ ص ٧٠٦ ، ٧١٠ » .

٤ - في سنة ٦٨٣ هـ : في هذا العام وقعت فتنة في مكة بسبب استبداد شريفها
أبى نعيم ، ومنعه الحجاج من أداء القرينة ، فجرد عليه السلطان جندا هزموه ، ثم
نحلت الفتنة ، وقضى الناس حجبهم . « السلوك ج ١ ص ٧٢٤ ، ٧٢٦ » .

٥ - في سنة ٧٠٨ هـ : أعلن السلطان الناصر بن قلاوون أنه عقد النية على
الحج ، ثم بكر في الخروج ومعه عدد من الأمراء ، وقصد الكرك ، ولحقت به
أسرته . وكانت هذه خطوة موضوعة برى من إوائها إلى الإقامة في قلعة الكرك .
والتنازل عن العرش ومن المزاكين له ، وقد تم له ما أراد ،

وقد خرج الركب من القاهرة في شوال ، وكان أمير المحمل الأمير جمال الدين
خضر أبو نوبة . « ج ١ ص ١٤٨ » .

٦ - في سنة ٧١٨ هـ : خرج الناصر بن قلاوون للحج - بعد عودته إلى سلطنته -
فاستصحب معه اثني عشر أميراً من المقدمين ، وثلاثين من الطلبخانات والعشرات

وحج في صحبته الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة ونائب السلطان فيها،
وكانهم سره علاء الدين بن الأثير، وناظر جيوشه نغر الدين، وناظر خواصه
كريم الدين بن السديد وغيرهم من المباشرين. وخرج في ٩ من ذى القعدة متأخراً،
فاخذ السير إلى مكة فبلغها قبل الوقفة بثلاثة أيام. ولابد من أن ركب المحمل قد
سبقه إليها. فأدى الفريضة وبذل. ثم قصد المدينة ودخلها ماشياً عارى القدمين.
وزار وأنفق. وعاد إلى القاهرة في حفل عظيم في أوائل صفر عام ٥٧١٩ هـ.
د ج ١ ص ١٦٠، ١٦١.

٧- في سنة ٥٧٣٢ هـ خرج الناصر محمد بن قلاوون للحج أيضاً، واستصحب
معه كذلك الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة. ورفب السلطان الناصر
أن يوضع بمشهد منه باب جديد صنعه للكعبة. وقد رافقه في تلك الحجة نحو ٧٢
أميراً من رتب مختلفة من بينهم صهره بكتمر الساقى وابن بكتمر، وهو أحمد
ابن أخت السلطان، وقد مرضا في عودتهما وماتا في الطريق.

أما السلطان الناصر فإنه خرج إلى حجته تلك في ٧ شوال، وعاد بعد أربعة
وخمسين يوماً. د ج ١ ص ١٦٦.

٨- في سنة ٥٧٤٦ هـ. جاء في أخبارها في ابن إياس أن من أعمال السلطان
الصالح علاء الدين إسماعيل بن الناصر بن قلاوون أنه أوقف ضيعة تسمى «بيسوس»،
على كسوة الكعبة الشريفة. د ج ١ ص ١٨٢.

٩- في سنة ٥٧٥١ هـ. كان أمير ركب المحمل الأمير طاز - في عهد الناصر حسن
ابن الناصر محمد بن قلاوون - فلما بلغ مكة وقع بينه وبين الملك المجاهد صاحب
الدين نفور وزاع أدى إلى القتال - وكان صاحب الدين يحج في تلك السنة - فهرمه
الأمير طاز وقبض عليه وساقه مقيداً إلى مصر في أثناء عودته. وكانت عودته في
أوائل طم ٧٥٢ هـ فقدم أسيره إلى السلطان. فلم يلبث حتى أطلقه وورده إلى بلاده.

د ج ١ ص ١٩٣، ٢٩٤.

١٠ - في سنة ٧٧٨ هـ . كان السلطان هو الأشرف شعبان حفيد الناصر بن قلاوون . فخرج للحج في هذه السنة ، وأشار عليه بعض الصالحاء بترك الحج فلم يقبل . وخرج من القاهرة يوم السبت ١٢ شوال في ركب عظيم ومعه الخليفة المتوكل على الله والقضاة . ومعه كية كبيرة من المأكولات . فأقام مدة في بركة الحاج ثم رايلها إلى العقبة ، ومعه عديد من الأمراء . ولكن سرعان ما وقعت فتنة هائلة في القاهرة عقب خروجه أدت إلى سلطنة ابنه علي ، بدعوى أن الأشرف قد قتل . ووقعت فتنة أخرى في العقبة بين الأمراء المصاحبين للسلطان أدت إلى قتله في النهاية ، فلم يتم له حج . . .

وقد عين الأمراء لإمارة الحج الأمير بهادر الجمالي أمير أخور كبير ، فصاحب المحمل وسار الجميع في ركب واحد هذا العام . د ج ١ ص ٢٣٠ و ٢٣١ و ٢٣٥ .

١١ - في سنة ٧٨٨ هـ . لما وصل المحمل إلى مكة خرج أحمد أميرها للقائه ، ونزل عن فرسه ليقبل رجل حمل المحمل فاغتاله رجل بسكين في جنبه فات ليومه . فاضطربت أحوال مكة وكادت العرب تستبذ بالركب لولا ادراع الجند وأميرهم بسلاحهم سبعة أيام . ثم عين أمير الحاج الأمير عنان بن مغامس نائباً على مكة . فاستقر الاضطراب بعض الاستقرار . وكان ذلك في عهد برقوق . د ج ١ ص ٢٦٥ .

١٢ - في سنة ٧٩٢ هـ : في هذه السنة صنعت أخت الملك الظاهر برقوق كسوة نفيسة للحجرة الشريفة وستارة قيمة لبابها . وكانت قد نذرت أن تصنع ذلك إن عاد أخوها برقوق إلى السلطنة . وقد أرسلت هذه الكسوة والستارة هذا العام في موكب حافل . د ج ١ ص ٢٩٣ .

١٣ - وفي سنة ٨٠١ هـ : في هذه السنة نادى السلطان برقوق للناس بأن يحجوا الحجة الرجبية . وكان قد بطل ذلك من عام ٧٨٣ هـ ، فرمى بإعادته . وكان أمير حاج المحمل ، الأمير شيخا المحمودى - قبل سلطنته - د ج ١ ص ٣١٣ - د ج ٢ ص ٢٠٤ .

١٤ - وفي سنة ٨٠٣ هـ : خرج المحمل والحجاج كالعادة . وفي أوائل سنة

٨٠٤ هـ جاءت الأخبار بأن عربان بنى عقبة اعتدوا على الحجاج ، ونهبوا ما معهم . فشدت أمير الحجاج شملهم وكسروهم وأسر شيخهم ومنجد بن خاطر ، وساقه أمامه بين يدي السلطان ، فأمر بأعدامه ، فتقدم إليه وأعدا برد جميع ما نهب عربانه من الحجاج . فظل مأسورا لدى السلطان حتى رد كثيرا مما نهب .
« ج ١ ص ٣٤٠ ، ٣٤١ » .

١٥ - في سنة ٨٠٤ هـ : تأخر خروج المحمل من القاهرة إلى ٢٢ شوال ، وهذا لم يعد قط . وكان أمير المحمل ، « نكسيه الأزدري » ، وقد وقع له أمر عوق المحمل عن الخروج في مواعده . « ج ١ ص ٣٤٧ » .

١٦ - في سنة ٨١٨ هـ : كان أمير الحج ثاني بك الجرسي شاد الشر بخانه المتوفى سنة ٨١٩ هـ . « الضوء ج ٣ رقم ١٢٦ » .

١٧ - في سنة ٨٢٠ هـ : كان غرس الدين خليل بن شاهين الشيعي الظاهري أمير الركب المحمل . « الضوء ج ٣ رقم ٧٤٨ » .

١٨ - في سنة ٨٥٦ هـ : كان الأمير دولات باي الجرسي المحمودي أميراً لركب المحمل ، وحج في تجمّل زائد . « الضوء ج ٣ رقم ٨٢٧ » .

١٩ - في سنة ٨٤٧ هـ : في شهر رجب رسم السلطان إينال ، بدوران المحمل ونودي في القاهرة بالزينة . ولعب الرماحة لعبهم برياسة جاني بك الظريف . وكان ذلك قد أوقف منذ زمن . ثم خرج الحجاج وركب المحمل في شوال . وعقدت إمارته لجاني بك المذكور . وكان أمير الركب الأول عبد العزيز بن محمد الصغير ، وهو الذي غضب عليه السلطان إينال عام ٨٥٩ هـ وضربه ونفاه إلى دمياط وكان قتيلاً للجيش ، ثم رضى عنه بعد ذلك ، وعينه أميراً للركب الأول عام ١٨٦٠ هـ .
« ج ١ ص ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٣ » .

٢٠ - في سنة ٨٥٨ هـ : في هذه السنة أدير المحمل كما جرت العادة ، ثم خرج . وجاء في ذي الحجة رسول من قبله يخبر بأن العربان تعرضوا بالأذى له في الطريق . وعاد الحجاج في المحرم عام ٨٥٩ هـ وتحدثوا بما أصيبوا به من سيول

شديدة وموت جمال وقطع طريق من العربان . ج ٢ ص ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ .

٢١- في سنة ٨٥٩ . عرض المحمل في شهر رجب كالعادة وأبدع الراحة . وكان السلطان هو إينال ، فرسم في شهر شوال بأن تصنع كسوة للحجرة الشريفة ، فلما تم صنعها عرضها على أنظاره ناظر الخاصة يوسف فأعجب بها وأنعم عليه ، ثم خرج الحاج . وكان أمير ركب المحمل بيبرس الأشرفي والأمير الثاني بردبك البهيمقداري ، وهو الذي ولي أمانة الركب مرارا بعد ، وقد توفي عهد قايتباي عام ٨٧٥ . وكان نائبا على الشام . وقد عاد الركب وحججه في المحرم عام ٨٦٠ هـ ، فخذثوا بما رأوه ومن ذلك أن العراق لم يصبح منه أحد هذا العام خوفا من رجل ثائر كثير الفساد يدعى المشعشع . ولقى الحاج في هذه السنة شدة وسوءا . ج ٢ ص ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ١٢٢ .

٢٢- في سنة ٨٦٠ هـ أدير المحمل في رجب وتقدمه لاهجو الرماح . وشهده السلطان إينال وضيغه إذ ذاك رسول ملك الروم ابن عثمان ، وخرج الحاج في شوال من القاهرة . وكان أمير ركب المحمل قائم التاجر أحد الأمراء المقدمين ، وكان أمير الركب الأول عبد العزيز بن محمد الصغير . وهو الذي كان أميراً للركب الأول عام ٨٥٧ هـ ، وفي عام ٨٥٩ غضب عليه السلطان ثم رضى عنه واختاره لإمارة الركب الأول . ج ٢ ص ٥٥ ، ٥٦ .

٢٣- في سنة ٨٦١ هـ . في شهر ربيع الأول قرر السلطان إينال أن يكون ابنه المقر الشهابي أحمد أميراً للركب المحمل . ورأى لزوجته خوند زينب أن تنجى هي وأولاده ، وأرسلهم في رفقة ابنه أحمد المذكور . ثم أدير المحمل في رجب . واتهم الممالك الجلبان فرصة دورانه وعاثوا في الأرض فسادا . ثم خرج الحاج والركبان في شوال ، وكان خروج ركب المحمل شاقا لعظمة من صحبه من أعيان الرجال والنساء وقد اصطحب المقر الشهابي أحمد أمير الركب كثيرا من المباشرين

منهم كاتم السر القاضي محب الدين بن الأشقر ، وبعض أبناء ابن الجيعان منهم :
القاضي علم الدين بن شاكر ، وناظر الإسطبل القاضي أبو بكر بن مزره وغيرهم .

وفي ٢٨ ذى الحجة جاء البشير - وهو مرداش الطويل - فأخبر عن حالة
الحجاج ووصف ما لقوه من عطش أثناء الطريق وموت بعضهم بسببه . وأخبر
عن سلامة زوجة السلطان وأبنائه . وفي المحرم ٨٦٢ عاد الحجاج إلى القاهرة
وروصل ابن السلطان المقر الشهابي أحمد ووالدته وإخوته فكان يومهم مشهوداً ،
وخرج الأمراء والناس جموعاً للقائهم وفرشت البسط وشققي الحرير ونثر على
رأس خوند « زينب » الفضة والذهب ، وقدمت إليهم الهدايا الثمينة وأولمت
الولائم الثمينة . وكان أفضل من تقدم بذلك ناظر الخاص الجمالي يوسف ، وأهدى
إليهم نائب الشام قاني باي الخزاوي ثمانين فرساً أحدها مسرج بسرج بلور .

« ج ٢ ص ٨٥ إلى ٨٦ »

٢٤ - في سنة ٨٦٩ هـ : كان السلطان إذ ذاك خشقدم ، وفي هذا العام حجت
زوجته وهي خوند الاحمدية ، وكان أمير ركب المحمل المقر الشهابي أحمد بن العيني
وأمير الركب الأول الشرقي يحيى بن الأمير يشبك الفقيه ، وحج معهم أيضاً الأمير
يشبك الفقيه نفسه ، وقد أظهر المقر الشهابي أحمد بن العيني ضروباً من الأبهة
والعظمة في إمارته تلك ، لأنه يعد من أبناء الملوك ، فهو حفيد خشقدم . وقد
خرج في أكوار مرصمة بالذهب والياقوت واللؤلؤ وغير ذلك ، وخرج في موكب
عظيم يتقدمه جميع الأمراء والمباشرين ، وذلك في شوال . ثم عاد الركب في
أوائل عام ٨٧٠ هـ « ج ٢ ص ٧٩ »

٢٥ - في سنة ٨٧٢ هـ : كان السلطان هو خشقدم أيضاً ، وقد أمر فدار المحمل
دورته الرجبية ، وأحرقت إحراقة نعط في ليلتها ، فشبت النار في الإسطبل
السلطاني فقتلهم السلطان من ذلك ؛ وقد أصابه هذا التشاؤم فعلاً إذ توفي بعد
قليل . وقال ابن لباس عن هذا السلطان ما نصه :

« وكان يدور الحمل في كل سنة في رجب ، وتسوق الراحة على جارى العادة أربعين يوما ، ثم يلبسون الأحمر وتزين القاهرة ثلاثة أيام ، ويخرج الناس في ذلك عن الحد في القصف والفرجة » .

والمفهوم من كلام ابن إياس في حوادث جمادى الآخرة عام ٩٠٩ هـ بالجزء الرابع أن من أيام خشقدم عام ٨٧٢ هـ إلى أيام الغورى عام ٩٠٩ هـ أبطلت دورة الحمل الرجبية . فالمفهوم أنها أبطلت بعد زوال دولة خشقدم . « ج ٢ ص ٨١ ، ٨٢ » .

٢٦ - في سنة ٨٧٣ هـ . كانت الدولة دولة قايتباى . وكان قد عين لإمارة ركب الحمل ، ثانياً بك المعلم . فلما سار إلى العقبة بدا للسلطان أن يعيده ويقبض عليه ثم نفاه إلى القدس . ثم عين « يشبك بن » في إمارته ، وكان قد « بن » في الأمير أخورية الثانية . وعين « يشبك الجمالى » أميراً للركب الأول . وذلك في ربيع الأول وفى شوال خرج الركبان والحجاج . وعن انضم إليهم الملك المنصور عثمان بن جفقى - وكان مغلوها - وقد عارنه السلطان قايتباى أكبر معارفة في خروجه إلى الحج وأذن له في الخروج . ثم عاد الحجاج إلى القاهرة في المحرم عام ٨٧٤ هـ .

« ج ٢ ص ٩٠٠ ، ٩٠٣ ، ٩٠٨ ، ٩٠٩ ، ٩١٢ » .

٢٧ - في سنة ٨٧٤ هـ : في هذه السنة - في عهد قايتباى - عين « يشبك الجمالى » المحتسب أميراً لركب الحمل ، « وأفيردى بن أصباء » الأشرفى برسبأى أميراً للركب الأول . ثم خرج الركبان والحجاج في شوال ، وحج معهم الشيخ كمال الدين ابن إمام المدرسة الكاملية ، وهو من أفاضل العلماء والمحدثين ، ولكنه توفى في ثغرة حافد وقت الذهاب . وقد قامى الحجاج في هذه السنة شدائد عدة من عطش وموت جمال ، وعادوا مجهودين مكدودين ، ولهذا عاد الركبان في المحرم عام ٨٧٥ هـ ودخلوا القاهرة معاً في موكب واحد . وما يذكر أن الأمير يشبك الدوادار لما علم ما يعانيه الحجاج من العطش والشدّة بعث إلى المنقطعين منهم بأوعية مليئة ماء وزاد . فبلغتهم في ينبع وانتفعوا بها انتفاعاً محموداً . « ج ٢ ص ١١٣ ، ١١٧ ، ١٢٢ » .

٢٨ - في سنة ٨٧٥ هـ : في هذه السنة - في عهد قايتباي أيضا - عين يشبك الجمالي المحتسب ، أميراً لركب المحمل ، وأقبردى بن أصبای ، الأشرفي برسباي أمير الרכ الأول . وقد كانا أميری الحج في العام الفائت كذلك . وقد خرج الحاج من القاهرة في ٢٠ شوال ، وقد تأخروا إلى هذا الميعاد بسبب فرار غلبان أمير الحج ، ثم عاد الרכ في المحرم عام ٨٧٦ هـ . ج ٢ ص ١٢٣ ، ١٢٧ .

٢٩ - في سنة ٨٧٦ هـ : عين في إمرة الרכ الأول « برسباي الشرفي » ، ثم استعفى من ذلك فقبل منه السلطان ، وعين في إمارة ركب المحمل الأمير « يشبك الجمالي الزردكاش المحتسب » ، وهذا ثالث عام يعين فيه إلى مكة أميراً للمحمل ، وهو الذي توفي عام ٩٠١ هـ . وكان هذا الاستعفاء والتعيين في شهر ربيع الأول ، فلما كان شهر رجب أبطل السلطان إمارة يشبك الجمالي ، وأسند إمارة ركب المحمل إلى برسباي الشرفي وهو الذي كان قد استعفى في ربيع الأول منها . ثم عين في إمارة الרכ الأول الشهابي أحمد بن الأتابكي تاني بك البرديكي الظاهري برفوق ، ثم خرج الركب في شوال من القاهرة ، وعادا في المحرم من العام الثاني .

ج ٢ ص ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ٢٩٣ .

٣٠ - في سنة ٨٧٧ هـ : في ربيع الثاني خلع السلطان قايتباي على « برسباي (١) الشرفي » ، وأسند إليه إمارة ركب المحمل . وأسند إمارة الרכ الأول إلى « الشهابي أحمد » بن الأتابكي تاني بك البرديكي . وكان كذلك في العام الماضي ، ولكن الشهابي كان مريضاً فاستعفى فلم يقبل السلطان أن يعفيه ، ولذلك لما نسل الركب من القاهرة إلى بركة الحاج في شوال ، حمل هذا الأمير في محفته وهو على وشك الموت ، فبلغ بركة الحاج وبات بها ليلة الرحيل فتوفي ، فعين مكانه « جاني بك الأشقر » ، أحد مماليك السلطان وخواصه . فقام فوراً ورحل بالركب .

(١) برسباي الأشرفي يونس ، أو العرق أرسله قايتباي رسولاً إلى ملك الروم عام ٨٧٨ هـ ومات بحلب . ذكرناه في باب الخراء . ونوه به السخاوي في الضوء ج ٣ رقم ٣٩ .

ثم وفد رسول من قبل الحجاج في ذى الحجة ، فكان من أهم ما أخبر عنه أن
الركب العراقي كان عليه أمير يدعى « رستما » ومعه قاض يسمى « أحمد بن وجيه »
- وكان ملك العراقيين هو حسن الطويل - فدخل الركب المدينة المشرفة وأرغما
قضايتها على أن يخطبوا هناك باسم الملك العادل حسن الطويل خادم الحرمين
الشريفين . . . ثم أخذوا في الرحيل إلى مكة بركبهما ، فأمرع أميرها الشريف
محمد ابن الشريف بركات وكان الخبير قد بلغه ، فلقهم في بطن من قبض على
الأمير والقاضي وعدة من أعيانها وقيدهم بالحديد ليبحث بهم إلى السلطان .
وأطلق الباقيين .

وقد عاد الحجاج والركبان متأخرين عن مواعيد ثلاثة أيام لموت المحال
وقلة المياه وذلك في المحرم عام ٨٧٨ هـ ومعهم الأسرى ، فسجن الأمير رستم
والقاضي في برج القلعة ثم أطلقا^(١) بعد حين مراعاة للمكهم بإشارة من الأمير
يشبك الدوادار . (ج ٢ ص ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ٢١٢) .

٣١ - في سنة ٨٧٨ هـ : أسندت إمارة ركب المحمل إلى « جاني بك الأشقر »
الدوادار . وقد كان في العام الماضي أميراً للركب الأول وأسندت إمارة الركب
الأول إلى « قانصوه خنمبائة » الخاصكي أحد ماليك السلطان . وقد ترجمناه في
باب الأتابكية . وقد خرج الحاج في شوال وعاد في موعده . (ج ٢ ص ١٤٧ ، ١٤٩) .

٣٢ - في سنة ٨٧٩ هـ : أسندت إمارة ركب المحمل إلى « جاني بك الأشقر »
وهذه ثاني مرة يتولاها . وأسندت إمارة الركب الأول إلى « جاني بك الخنم »
الإينالي تاجر الماليك . وذلك في ربيع الآخر . وهذه آخر مرة يسافر فيها « جاني
بك الأشقر » إذ عين في السنة التالية - ٨٨٠ هـ - فوات قبل سفره .

(١) ذكرنا ابن إياس مرة أخرى ج ٢ ص ٢١٢ في المحرم عام ٨٨٧ هـ وقال إن السلطان أفرج
عنهما فيه . فوجب التفتيه .

وفي ٣ شوال خرج إلى الحج عدد من عظام مصر منهم الاتابكي أربك بن ططخ ومعه زوجته بنت الملك الظاهر جقمق . ومنهم الأمير أربك اليوسفي ومعه زوجته بنت عم الملك الظاهر جقمق أيضا . ومنهم الشيخ أمين الأقصراني وولده أبو السعود وقد عارته السلطان بسبعائة دينار . فسبقوا الحاج بنحو عشرين يوما . وعن حج في هذه السنة خوند فاطمة زوجة السلطان قايتباي وهي بنت العلائي علاء الدين ابن غاص بك ، فكان لها ركب شائق وعحفة ثمينة مرصعة بالجواهر النفيسة . ومعها أخت السلطان في محفة أخرى ، ومعها خمسون جملا محملة بشكول وألوان من طعام وكسي ومال . . . فسار الركب وأمامه كثير من الموظفين والمباشرين والخدم ، وأمامه كذلك عدد من المغنين والمنشدين منهم إبراهيم بن الجندي المغني وأبو الفوز الواعظ .

وقد خرج الركبان في هذا الشهر ، ثم هاد الحجاج في ٢٤ المحرم عام ٨٨٠ . متأخرا أربعة أيام بسبب ما أصابهم من العطش .

وقد مات من الحجاج ابن الأقصراني المدعو أبا السعود فأصيب أبوه بما يشبه الذهول ، ولم يمكث بعد هودته سوى تسعة أيام ثم توفي .

ولما عادت زوجة السلطان خرج إلى لقاءها الأمراء والقضاة وترجلوا وهي في محفنها وحوّلها تصدح الأغاني . ونثرت عليها الفضة والذهب ، وقدمت إليها هدايا نفيسة . ج ٢ ص ١٥٥ إلى ١٥٧ .

٣٣ - في سنة ٨٨٠ : أسندت إمارة الحمل : لجاني بك الأشقر ، لكنه توفي قبل موعد الرحيل فاختر مكانه : لاجين الظاهري ، أمير السلاح ، وذلك في رمضان . وأسندت إمارة الركيب الأول إلى « جاني بك الحفص » الإينالي كالمرّة السالفة ، ثم خرج الركبان في شوال ووصل مبشر بسلامته في ذي الحجة .

ج ٢ ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

٣٤ - في سنة ٨٨١ . عين في إمارة ركب الحمل : تاني بك الجبالي ، الظاهري

أحمد مقدى الألو ف وعين في إمارة الركب الأول : أقبردى الأشقر الأشرفى ، وذلك في جمادى الأولى . وخرج الحجاج في شـو ال . وجاء المبشر عنهم في ذى الحجة فأخبر بأمنهم وسلامتهم على الرغم من أن بمكة كثر الموت بعدة البطن - ولعلها نوع من الحيات - وفي المحرم عام ٨٨٢ هـ وصل الحجاج إلى القاهرة مثنى على « تانى بك الجمال » . « جز ٢ ص ١٦٧ إلى ١٧١ » .

٣٥ - في سنة ٨٨٢ هـ . في شهر شعبان عين في إمرة الركب الأول : أقبردى الأشقر الأشرفى ، كالعام الفائت . وفي إمارة ركب المحمل الأمير « جاني بك الفقيه » ، أمير السلاح . وخرج الحجاج والركبان من القاهرة وذلك في ١٨ شوال . قيل لما خرج ركب المحمل ومعه أميره « جاني بك الفقيه » ، أمر السلطان قايتباى بهدم سبيله الذى أنشأه بالرميلة . فلهج الناس بعدم عودة جاني بك وقد وقع ذلك ، فإن السلطان أمر بالقبض عليه من العقبة ونفيه إلى القدس . « ويغلب على الظن أنه نفي بعد أداء مهمته وفي أثناء عودته ، إذ ترامت أخبار نفيه في المحرم سنة ٨٨٣ هـ ، ولم يذكر أن أحدا خلفه » .

وعن حج تلك السنة المؤرخ الكبير ابن إياس المصرى صاحب تاريخ مصر المعروف ببدايع الزهور - أهم مراجعنا - وقد عاد الحجاج في المحرم سنة ٨٨٣ هـ ، وأخبروا بما قاسوه من شدة وضنك بسبب الغلاء وموت الجمال ، وقد تخلف بعضهم مضطرا في الطريق . وأخبروا بقتل قاضى المدينة وخطيبها بيد رجل رافضى . « جز ٢ ص ١٧٦ ، ١٨ ، ١٨١ » .

٣٦ - في سنة ٨٨٣ هـ . في شهر ربيع الثانى اختير « قجاس الإسماعلى » ، أمير آخور كبير أمير أركب المحمل و« فارس الركنى » ، أمير أركب الأول ، فاستعفى « فارس » ، هذا فأسندت إمارة « لأقبردى الأشقر الأشرفى » ، كالعام الفائت أيضا . وقيل إن فارسا دفع في سبيل قبول السلطان استغفاه مالا .

وقد خرج الركبان والحجاج في شوال . وكانت العودة في المحرم عام ٨٨٤ هـ
وحدثت سيرة الأمير « قجاس » .

« جزء ٢٠ ص ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٥ »

٣٧ - في سنة ٨٨٤ هـ : أسندت إمارة ركب المحمل إلى صاحب « خشقند
الاحمدى ، الزمام الذى كان زماما وخارندارا ووزيرا فى عهد قايتباى - وترجمناه
مع الوزراء . - وأسندت إمارة الركب الأول إلى « شاهين الجمال » ، وذلك على أثر
وفاة « جانيه الزردكاش » ، الذى كانت أسندت إليه أولا فتوفى قبل سفره .

وفى هذه السنة عقد السلطان قايتباى النية على الحج . فلما كان شهر شوال خرج
الحاج من القاهرة . فى زينة باهرة وخرج صاحب « خشقند » ، فى موكب عظيم
واستعداد كبير ، ومحمولات عدة بسبب سفر السلطان . وقيل كان معه نحو ٢٥٠
جملا محملة . وأرسل السلطان إليه لذلك ثلاثين ألف دينار .

ثم خرج الحجاج وركب المحمل من القاهرة فى شوال . وخيموا ببركة الحاج
ثم نزلوا منها متخذين طريقهم المتبع إلى الحجاز . وبعد ذلك بقليل ، فى يوم الخميس
٢٣ شوال نزل السلطان قايتباى من القلعة دون أن يشعر الناس بنزوله وسافر ميمما
شطر الحجاز وفى معيته كثيرون من أمرائه وأخصائه ومباشره . منهم : يشبك
الجمالى الزردكاش المحقشب ، الذى عين مرارا فى إمارة المحمل . وأبو البقاء بن
الجيومان وبرهان الدين بن الكركى الإمام . وقد ودعه الأتابكى أربك بن ططخ ،
والدوادار يشبك بن مهدى . ورحلا معه إلى مسافة من الطريق . وقد أوصاهما
بالرعية ثم آبا .

وفى ذى الحجة قدم مبشر الحاج وهو « أسنباى » الخاصكى ، فأخبر بسلامة
السلطان وأنه دخل مكة فى موكب حافل ولقيه أميرها قبيل دخولها يومين وأنه
أحسن وتصدق على فقراء مكة بمخمسة آلاف دينار . وأظهر ضروبا من البر
والتواضع . وبهذه المناسبة قدمت لهذا المبشر هدايا كثيرة لأخباره السارة ، قدمت

إليه من بعض الأمراء ومن خوند زوجة السلطان . ثم أطلقت على « أسنباى ،
لفظة « المبشر » وظل معروفا بها من ذلك الحين .

وفي المحرم عام ٨٨٥ هـ جاء رسول « نجاب » من قبل السلطان إلى الأمراء مخبرا
بأنه دخل المدينة المشرفة وزار قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه تصدق بها على
الفقراء بخمسة آلاف دينار ، وأنه يعم شطر ينبع قاصدا العقبة ، ثم زایلها ، وأنه
أت عمما قريب فهب الأمراء حينئذ إلى لقاء السلطان ، وقد علموا رغبته في نزوله
بقبة الأمير يشبك بالمطرية . فنشروا هناك خيامهم وزينت الناحية خير زينة .
ثم علموا أنه وصل إلى البويب فركب أربك الأتابكي ويشبك الدوادار وعديد
من الأمراء ، من جهة المطرية إلى البويب فلاقوا السلطان هناك وباركوا له
حججه وهنتوه .

عاد ركب السلطان حافلا إلى المطرية في السبت ١٢ المحرم قبل وصول الحجاج
بثانية أيام . وهناك توافدت الوفود إليه تهنتته . ومدت الموائد وأقيمت
الحفلات . وفي الاثنين ١٤ المحرم نظم له موكب عظيم الشأن سار فيه من المطرية
إلى القاهرة ، والأمراء والأعيان من حوله ، والناس حاقون به ، ومنهم وقوف
بالطرقات يشاهدون ، والطرقات فى أبهى زينة . واللاحقون يعرضون على
أنظاره ألعابهم ، وفرشت له خوند زوجته بسطا ، ونثرت على رأسه الفضة
والذهب ، وقت صعوده إلى القلعة . ثم أولت الولائم ، وقدمت الهدايا ،
ووزعت الصدقات ، وكانت حجة مبرورة ...

وقد عاد الحجاج بعد ذلك والركبان فى المحرم . وحدثت سيرة صاحب خشفدم
الزمام أمير المحمل . جز ٢ ص ١٩٠ إلى ١٩٣ هـ .

٣٨ - فى سنة ٨٨٥ هـ : فى ربيع الأول عين فى إمارة المحمل الأمير « تغرى
بردى ططر » أحد المتقدمين . وفى إمارة الركب الأول « يشبك بن حيدر » وإلى
القاهرة . وخرج الخجاج والركبان فى شوال . جز ٢ ص ١٩٥ ، ٢٠٢ هـ .
(١١٢ - مالىك)

٣٩ - في سنة ٨٨٦ هـ . في ربيع الأول عين يشبك بن حيدر ، والى القاهرة في إمارة المحمل - وكان أميراً للركب الأول في العام الماضي . وعين الشهابي أحمد ابن الجمالي ، ناظر الخاص أميراً للركب الأول . ثم عين شاهين الجمالي نائباً لجدة ، وضم إلى الشهابي أحمد ، على أن يرعى شئون الحجاج بالركب الأول . - وفي شوال كان خروج الحجاج والركبين من القاهرة . وفي معيهم الجلام بن عثمان - من أمراء العثمانيين - ومعه أمه وأولاده ، وقد عاونه السلطان معاونة كبيرة في خروجه إلى الحج . وكان إذ ذاك من ضيوف مصر .

وقد عاد الجميع في المحرم عام ٨٨٧ هـ . جزء ٢ ص ٢٠٠ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ .

٤٠ - في سنة ٨٨٧ هـ : في ربيع الآخر أسندت إمارة المحمل إلى « أذربك اليوسفي » ، أحد الأمراء المقدمين ، وإمارة الركب الأول إلى « دولات باي الحسيني » ، شاد الشؤون . وبخرج الحاج في شوال . ووصل مبشر بوصوله إلى مكة في ذي الحجة ، وأخير بنزول سبل عظيم بها حتى دخل الحرم وأحدث به تلفاً وأغرق كثيرين . ثم وصل الجميع في المحرم عام ٨٨٨ هـ . ولم يحمد الناس سيرة أمير المحمل أذربك اليوسفي . جزء ٢ ص ٢١٣ و ٢١٥ إلى ٢١٧ .

٤١ - في سنة ٨٨٨ هـ : في ربيع الثاني أسندت إمارة المحمل إلى « أذمر تمساح » ، أحد الأمراء المقدمين . وإمارة الركب الأول إلى « أذمر الأشقر » ، أحد الأمراء العشرات . وفي هذه السنة كان السلطان قايتباي قد أمر بصنع مقصورة للحجرة النبوية الشريفة . فمرضت على أنظاره في شهر رمضان في أوله ، ونصبت في الحوش بالقلعة لمشاهدتها . وكانت زيتها أربعائة قنطار من الحديد ، وقد نقلها إلى المدينة سبعون جملاً : وفي شوال خرج الحجاج والمحمل من القاهرة في حفاوة وبين زينة . وخرج في معيهم شاد بك أحد الأمراء آخورية وكان ضمن الجنة الحملة السلطان المقصورة لإيصالها إلى المدينة ، وعينه « باش المجاريين » ، ومعه خمسون جندياً ، وحمله كذلك مصحفاً كبيراً فوق ظهر بعير بمفرده . وهذا المصحف من خط شاهين النوري ، ومات دون أن يتمه فأتمه الشيخ خطاب . - قال ابن إياس :

« وهو باق إلى الآن في الحجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام » .

وقد عاد الحجاج في المحرم عام ٨٨٩ هـ وحدثوا بما وقع لهم من عطش وموت جمال وقد تأخر دخول المحمل في هذه السنة إلى ٢٤ من الشهر المذكور بسبب ذلك .

« جزء ٢ ص ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ »

٤٢ - في سنة ٨٨٩ هـ : في هذه السنة كان أمير المحمل « أزدمر تمساح » ، أحد المقدمين ، وأمير الركب الأول « برسبای العلائی » أحد العشرات . وقد حج معهم سيدى منصور بن الظاهر خشقدم ، وكان برسبای العلائی قد تزوج أم منصور . وحج في تلك السنة أبو البقاء بن الجيمان ومعه الخاصكيان جان بلاط ومامای ، وذلك ليشراف على تفريق ما رتبته السلطان من الدشيشة على أهل المدينة . وحج أيضا عالم سمرقند الشيخ أبو بكر اللبثي وولده ، مارين من ديارها على مصر . وحج أيضا شيخ ركب المغاربة الشيخ عبد اللطيف ومعه عديد من المغاربة يبلغ ألفا وخمسةائة ، وحج كذلك بعض أقارب السلطان قايتباى .

وقد خرج المحمل في شوال . وعاد منه رسول مبشر بأمنه في ذى الحجة ويدعى قايتباى وهو من بمالك السلطان . وقد دخل الحجاج القاهرة في المحرم عام ٨٩٠ هـ .

« جزء ٢ ص ٢٢٤ إلى ٢٢٧ » .

٤٣ - في سنة ٨٩٠ هـ . في جمادى الأولى أسندت إمارة المحمل إلى « أزدمر السرطن » ، أحد الأمراء المقدمين . وإمارة الركب الأول إلى « برسبای اليوسفى » أحد الأمراء الطليخانات . وخرج المحمل من القاهرة في شوال . وعاد في ٢٥ المحرم عام ٨٩١ هـ وقد أصيب الحجاج بموت الجمال والغلاء . وانقطع بعضهم في ينبع ولم يعودوا إلى القاهرة إلا بعد أيام وانقطع البعض في مكة بمجاورا . « جزء ٢ ص ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ » .

٤٤ - في سنة ٨٩١ هـ : خرج الحجاج في هذه السنة في شوال . وتولى إمارة ركب المحمل الأمير « أزدمر تمساح » . « جزء ٢ ص ٢٣٨ » .

٤٥ - في سنة ٨٩٢ هـ : خرج الحجيج في هذه السنة في شوال أيضا . وتولى إمارة ركب المحمل الأمير « أزدمر تمساح » كالعام الفائت . وتولى إمارة الركب

الأول « غاير بك » كاشف المحلة . وعادوا في المحرم عام ٨٩٣ هـ إلى القاهرة وكان قد أشيع عنهم أن عرب الأحامدة اعتدوا عليهم واستولوا على ما معهم ولم ينج منهم أحد فظهر فساد هذه الإشاعة وعلم صحتها . « ج ٢ ص ٢٤٦ ، ٢٤٨ » .

٤٦ - في سنة ٨٩٣ هـ : أسندت إمارة المحمل في هذه السنة إلى الأمير « جان بلاط الأشرفي » الخاصكي أحد الدوادارية - وهو الذي ملك فيها بعد - وأسندت إمارة الركب الأول إلى كرتباي ، كاشف البحيرة . وخرج الحجاج في شوال ، وفي صحبتهم داود بن أمير عربان هواره . « ج ٢ ص ٢٤٩ ، ٢٥٤ » .

٤٧ - في سنة ٨٩٤ هـ : كان الحجاج في هذه السنة قليلين . وقد خرجوا في شوال . وإمارة ركب المحمل معقودة للأمير ، أزدمر تمساح ، « ج ٢ ص ٢٦١ » .
٤٨ - في سنة ٨٩٥ هـ . كان أمير ركب المحمل « كرتباي » كاشف البحيرة ، وأمير الركب الأول « إينال الفقيه » الحاجب الثاني . « ج ٢ ص ٢٦٣ » .

٤٩ - في سنة ٨٩٦ هـ : منذ زمن بعيد لم نجد ذكرا للعرض الرجبي وذلك منذ زوال عهد خشقدم . أما في السنة المذكورة فقد عني السلطان قايتباي ، بمرض الكسوة الخاصة بالكعبة والكسوة المصنوعة لمقام إبراهيم عليه السلام ، وزف المحمل أيضا وذلك في أول رجب ، فكان يوما مشهودا - وقد خرج الحجاج من القاهرة في شوال . وكانت إمارة المحمل معقودة للأمير « أزدمر تمساح » ، وعادوا في المحرم عام ٨٩٧ هـ . وكان طريق الحج محفوقا بالمخاطر بسبب فساد العربان - .
وبما يذكر أن زوجة الأمير أقبردى الدوادار وهي بنت العلائي علي بن خاص بك وأخت زوجة السلطان قايتباي ، قد حجت في تلك السنة ، وكان أمير الركب الأول ، شاهين الجمالي ، ناظر الخاص يوسف بن كاتب جكم^(١) .

« ج ٢ ص ٢٧٢ ، ٢٧٠ » .

٥٠ - في سنة ٨٩٧ هـ : خرج المحمل في شوال . وكان أميره « ثاني بك »

الجمالى ، أمير المجلس . وكان أمير الركب الأول « كرتباى ، ابن أخت السلطان ، ووافت سنة ٨٩٧ هـ . ولم يأت مبشر عن الحجاج حتى انتشر القلق بسببهم . وكان المبشر ، تانى بك الأبح ، أحد المالك السطانية ، فاعترضه فى طريقه بعض العربان فتأخر عن مواعده . » ج ٢ ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

٥١ - سنة ٨٩٨ هـ : فى ربيع الثانى عين « قانصوه خمسمائة » أمير آخر كبير ، فى إمارة ركب المحمل ، والناصرى « محمد بن أزيك » الأتابكى فى إمارة الركب الأول ، فخرج الركبان فى شوال . واتفق أن وفى الثيل واحتفل بكسر سده ، وكثير من الناس فى بركة الحاج يحتفلون بالحجاج . ثم عاد الحجاج فى المحرم عام ٨٩٩ هـ ، ولم يثنوا على « قانصوه خمسمائة » لسوء معاملته وعدم مساعدته لهم مع ما أصيبوا به من غلاء وموت جمال . » ج ٢ ص ٢٧٨ إلى ٢٨٠ .

٥٢ - فى سنة ٨٩٩ هـ : فى ربيع الثانى أسندت إمارة ركب المحمل إلى « أزدمر تمساح » (١) . وقد حظى بذلك مرارا - وأسندت إمارة الركب الأول إلى الناصر « محمد بن العلائى » على بن خاص بك التركى ، ولكنه توفى فى رمضان . فعين مكانه « إينال الفقيه » وعين « يشبك الأشقر » باشا للمجاورين بمكة . وقد خرج الحجاج والركبان فى شوال - ثم عادوا فى أوائل السنة التالية . وعما يذكر فى هذه السنة أن الركب الشامى اهتدت عليه طائفة من هربان بنى لام فنهبوا المال وأسروا النساء وقبضوا على أمير الركب . » ج ٢ ص ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ .

٥٣ - فى سنة ٩٠٠ هـ . فى جمادى الأولى عين « تانى بك الجمالى » أميراً لركب المحمل و « كرتباى » ابن أخت السلطان أميراً للركب الأول . وخرج المحمل فى شوال . وعاد فى المحرم عام ٩٠١ هـ وقد أصيب الحجاج بعطش شديد لقله المياه بجهة نخل ، فخرج بهم أميرهم إلى عيون موسى ، فوجدوا بها ماء .

» ج ٢ ص ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ .

(١) توفى أزدمر تمساح فى جمادى الآخرة عام ٩٠٠ هـ .

٥٤ - في سنة ٩٠١ هـ : في ربيع الأول عين « تاني بك قرا ، أميراً للركب المحمل ، و « برد بك » نائب جده أميراً للركب الأول وخرج المحمل في شوال ثم عاد في المحرم عام ٩٠٢ هـ . وما يذكر أن دولة قايتباي كانت قد انتهت بوفاته ، وذلك في غيبة الحاجاج ، فتولى ابنه الناصر . فرسم بالقبط على أمير المحمل « تاني بك قرا » . فخرج لتنفيذ هذا الأمر في شهر المحرم عام ٩٠٢ هـ اصطر بن ولي الدين ، ومعه عدة من الجنود ، فلقبه في عجرود قتيده وبعث به إلى سجن الإسكندرية . وما يذكر أيضاً أن المحمل حينما دخل القاهرة أمر السلطان الجديد بأن يمر تحت أنظاره بالقلعة ليستمع بشهادته . إذ أنه لم يره قبل ذلك .

« ج ٢ ص ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ »

٥٥ - سنة ٩٠٢ هـ : أسندت إلى كرتباي ، إمارة ركب المحمل وهو ابن عمه السلطان الناصر بن قايتباي . وكثيراً ما عين أميراً للركب الأول . وكان هذا الإسناد في ربيع الأول . ثم قتل « كرتباي » قبل سفره ، فعين مكانه الأمير « مصر باي » أحد المقدمين . وعين للركب الأول الناصري « محمد بن العيني » . وكان الحاج في تلك السنة قليلاً لكثرة الفتن في مصر . وقد خرج المحمل في شوال . وتأخر مجيء المبشر إلى أواخر المحرم عام ٩٠٣ هـ لفساد العربان في الطريق . ثم دخل الحاج القاهرة في هذا الشهر . وما يذكر أن السلطان أمر بالقبط على أمير المحمل « مصر باي » وهو عائد ، فقبض عليه في عجرود وسجن بالإسكندرية .

« جزء ٢ ص ٣٠٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ »

٥٦ - سنة ٩٠٣ هـ : في هذه السنة كان أمير المحمل « تاني بك الجمالي » . وأمير الركب الأول « جان بلاط الموت » المحتسب . وخرج الحاجاج في شوال بحفاوة وزينة . وقد قاسوا هذا العام شدائد جمّة من عطش وخوف وقطع طريق من العربان ، وعادوا في المحرم عام ٩٠٤ هـ . وما يذكر أن المحمل لما عاد سار في وسط القاهرة حتى بلغ جامع المارداني . وانفض الموكب وبدأ العمال ينزعون ما فوق جمل المحمل من قماش وغيره ، فإذا رسول من قبل السلطان يطلب إليهم العودة بالمحمل إلى المطرية حيث يقيم ليشاهده ، فأعادوا الموكب وساروا إلى

المطرية حتى رآه السلطان . « جز ٢ ص ٣٤٢ ، ٣٤٠ ، ٣٤٦ » .

٥٧ - في سنة ٩٠٤ هـ : كان السلطان هو قانصوه بن قانصوه . فعين في ربيع الثاني الأمير « قرقاس بن ولي الدين » - وكان رأس نوبة حيتن - أميراً لركب المحمل . « وأربك المسكل » أحد الأمراء الطليخانات أميراً للركب الأول . ثم ألقى إمارة أربك المسكل واختار مكانه الناصري « محمد بن خاص بك » أخاخوند زوجة الأشرف قايتباي . وكان هذا مقبوضاً عليه لبعض الأسباب . فلما اختاره السلطان لهذه الإمارة اشترط عليه أن يقوم بجميع نفقاتها من ماله الخاص . وخرج المحمل في ميعاده في شوال وعاد في المحرم عام ٩٠٥ هـ .

ومما يذكر أن أمير المحمل « قرقاس » قدم معونة كبيرة لركب غرة ، إذ انتهته طائفة من العربان قرب الشرفة ، وكذلك نهبا بعض الركب الأول المصري . « جز ٢ ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧ ، ٣٦١ » .

٥٨ - في سنة ٩٠٥ هـ : في ربيع الأول عين الأمير « قانصوه البرجي » المحمدي - أمير المجلس - أميراً لركب المحمل . والمحاسب « جان بلاط الموت » أميراً للركب الأول وخرج المحمل من القاهرة في شوال وظل في بركة الحاج إلى ٢٥ منه ، فتأخر عن موعد رحيله كل عام ، وذلك بسبب هروب أكثر غلمان أمير الركب الأول . ثم عاد الحاج والركبان في ٢٥ المحرم سنة ٩٠٦ هـ متأخرين بسبب ما أصيبوا به في الطريق من اعتداء العربان . « جز ٢ ص ٣٦٢ ، ٣٦٧ ، ٣٧٠ » .

٥٩ - في سنة ٩٠٦ هـ : كان السلطان هو الأشرف جان بلاط : وقد عين في شهر ربيع الأول الأمير « سودون العجمي » أحد المقربين أميراً لركب المحمل . ودولت باي قرموط ، وإلى القاهرة أميراً للركب الأول .

ولم ينجح شهر شوال من السنة المذكورة إلا بعد أن زالت دولة السلطان جان بلاط وعقبه في الملك العادل طومان باي ، وسرعان ما ذهبت دولته هو أيضاً ، وآل الملك إلى السلطان الغوري . وفي عهد هذا الأخير سافر المحمل في شوال : ففي ١٨ منه

خرج الحجاج من القاهرة وركبهم وأميرهما المذكوران ، وذهب صحبتهم الأتابكي تاني بك الجبلى منفيًا إلى مكة ، ومعهم أيضا خاتون ابنة خليل بن حسن الطويل صاحب العراقين ، وقد عاونها السلطان على حجها . ٥ جز . ٢٠ ص ٣٧٦ - وجز . ٤ ص ٥٧٦ »

٦٠ - في سنة ٩٠٧ هـ : في يوم الاثنين ١٨ شوال خرج المحمل من القاهرة في زينة وحفاوة . وكان أمير ركب المحمل واصطمر بن ولي الدين ، أمير المجلس ، وأمير الركب الأول الناصري محمد بن العلافي علي بن خاص بك التركي . وقد ذهب أميرًا غير هذه المرة ، وقد رسم السلطان بإخراج قائم أخى الظاهر قانصوه صحبة الحاج منفيًا إلى مكة ، ومعه قانصوه الفاجر .

وإلى يوم الأحد ١٩ المحرم عام ٩٠٨ هـ لم يجيء مبشر أو رسول من قبل الحجاج حتى كثر القال والقيل واشتد القلق عليهم . وفي اليوم المذكور وصل إلى القاهرة راكب هجين ، وأخبر عن اضطراب أمور الحجاج بسبب ثورة العربان بن عامة الجازاني ابن أمير مكة ، فهبوا ركب الحاج الشامي وقتلوا رجاله وأسروا نساءه ، قبل دخول الركب إلى مكة .

وفي أول صفرو قد الحجاج إلى بركة الحاج على حين غفلة ، وفي ٢ صفر دخل المحمل القاهرة ، وتحدث الحجاج عما لقوه من شدة ، من الجازاني وعصابته . وكان أمير ركب المحمل اصطمر من مثيرى هذه الفتنة كما أنه لم يستطع إطفاءها . وملخص الحادثة أنه تدخل في النزاع القائم بين الجازاني وأخيه الشريف بركات ، وكانا يتنازعا ن إمارة مكة . فسمى اصطمر بينهما بالدرس حتى تقائلا ، ودخل هو في هذا القتال بعد أداء فريضة الحج ، فقتل من ركبه نحو مائة ، ودارت الهزيمة عليه ، فهرب الحجاج وعرى النساء . وهرب كثير منهم وتخلف البعض في ينبع ، ومنهم من امتطى ظهر البحر الأحمر عائداً ، ومنهم من مات جوعاً وعطشاً لردم آبار المياه . وهكذا كانت طامة كبرى على الحجاج لسوء تصرف أمير المحمل اصطمر . وما زاد الطين بلة أن الحجاج الذين صاحبوا الركب إلى العقبة لقيهم دونها عربان بني لام ، ورفضوا

عليهم غراما مقداره ثلاثة آلاف دينار فاضطروا إلى دفعها درءاً لأذاًم ، وقد جباها منهم أمير المحمل .

ولما مثل الأميران بين يدي السلطان أسمعها من الكلام قارصه ، لسوء سلوكهما وعدم حيلتهما وأمر بهما فسجنا حتى حين . « ج ٥ ، ص ٢٨ ، ٣٥ إلى ٣٨ » .

٦١ - في سنة ٩٠٨ هـ : في شهر شعبان عين السلطان القورى الأمير « قيت الرجبي » ، الأتابكي أميراً لركب المحمل ، والأمير « أنص باي » ، أحد المقدمين أميراً للركب الأول ، وأعد لهم ستائة مملوك من الممالك السلطانية : وأنفق لكل مملوك مائة دينار ، وفرض على بعض البلاد المصرية تقديم الجمال للركب ، أو دفع قيمتها مالا ، فتأذى الناس من ذلك ، وإن كانوا قد أدوا ما طلب منهم .

وفي السبت ٢٧ رمضان عرضت الكسوة الشريفة والمحمل - بغير دوران - وخلق العيد كذلك على الأنظار السلطانية . وفي الاثنين ٢٠ شوال خرج المحمل من القاهرة ، وبه النساء إلى عدم الخروج إلى الحج في تلك السنة . وما ذلك إلا لأن السلطان عزم على إطفاء فتنة الجازاني والقضاء على قطاع الطريق من العربان ، فاحتاط بمنع النسوة في الحج حتى لا يسهن أذى أثناء الطريق .

وفي الجمعة ٢٨ من ذى الحجة جاء مبشر من قبل الحجاج ، فأخبر أن الأتابكي « قيت » طرد العربان من بني إبراهيم عن مكة ، وهرب الجازاني من وجهه ، وأنه أصلح أمور مكة ، وقبض على الشريف بركات وآخرين . وانتشر الخبر في أرجاء القاهرة فطرب الناس وعمهم السرور وزينوا الدروب وأخذوا في أسباب اللهو والعبث . ونودي بأمر السلطان أن تزين القاهرة سبعة أيام .

وبسبب هذه الفتن والحروب تأخرت عودة الحجاج والركبين إلى يوم الخميس ٢ ربيع الأول عام ٩٠٩ هـ . وفي اليوم المذكور دخل الأتابكي « قيت الرجبي » ، والحجاج إلى القاهرة ومعهم الأسرى ، فكان لهم يوم مشهود . « ج ٥ ، ص ٤٨ إلى ٥٧ » .

٦٢ - في سنة ٩٠٩ هـ : في شهر ربيع الأول عين السلطان الغورى الأمير وأنص
باى، أحد المقدمين أمير الركب المحمل ، ودان بك الأبح، أميراً بالركب الأول .
وفي شهر جمادى الأولى عقد الغورى النية على أن يدور المحمل فى القلعة وأن
يعاد العرض الرجبى كما كان . وأن يلعب حاملو الرماح «الراحة» أمامه ، وكان هذا
التقليد قد بطل منذ زوال سلاطنة خشقدم عام ٨٧٢ هـ . فجدده الغورى فى عام ٩٠٩ هـ
الذى نحن بصده . ومن ذلك الحين أخذ السلطان الآهة لهذا الاستعراض
والدوران . فعين الأمير عمر الحسى الزردكاش معلماً للراحة ومعه عدد من «الباشات»
- أى الرؤساء - ليعاونوه فى عمله ، ومن الخاصكية أربعين مملوكاً . فأخذوا فى
الاستعداد لبوم العرض . وبعد تمرينهم مدة عرضوا مرة على الأنظار السلطانية .
وفى يوم الخميس ٨ رجب نودى بأمر السلطان فى القاهرة أن المحمل يدور فى
هذه السنة ، وأمر الناس بنشر الزينات فى أرجائها .

وفى يوم الاثنين ١٢ رجب بدت القاهرة فى أبداع حلة وأينع زينة . وخرج
المحمل والكسوة الشريفة قاصداً إلى الرملة . وهناك جلس السلطان ورجاله فى شرفة
مطلّة على هذا الميدان . ولعب الراحة ، وهم فى أنوابهم الحمراء ، ألعايم الشائقة .
ودار المحمل مرة فى الصباح ومرة فى المساء بعد الظهر . والناس يجمعون لمشاهدته
فى كل فج ومن كل بلد . ونظمت الأزجال بهذه المناسبة ، والمصام ينشدونها
ويرقصون على نغمها وهم يقولون :

بيع الحاف والطراحة حتى أرى ذى الراحة

بيع لى لحافى ذى المحمل حتى أرى شكل المحمل

ولج الناس بعد ذلك فى العبث واللهو والمجون ، واستعادوا ذكريات الأيام
الماضية وتقاليدها القديمة فى ذلك الحين - وظلت هذه العادة وذلك التقليد مرجحاً
- غالباً - بين تقاليد الدولة طول عهد الغورى بعد ذلك .

ثم خرج الحجاج والمحمل فى شهر شوال . ولم تخرج النساء للحج فى هذا العام

لتوقع فن يقوم بها العربان في الطريق - وقد عاد الجميع في ٢٣ المحرم عام ٨٩١٠ .

« جزء ٤ ص ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٥ »

٦٣ - في سنة ٨٩١٠ : في ربيع الأول حين « قافى باى قراء ، أمير آخوريكبر ، أمير الركب المحمل ، و « جان بردى ، تاجر الممالك أميراً للركب الأول . وفي يوم ٩ رجب نودى في القاهرة بالزينة لاقتراب موعد دوران المحمل . واستعد لاعبو الرماح ، الرماحة ، للقيام بألعابهم المدهشة . ثم دار المحمل دورتيه ولعب الرماحة على خيولهم ، فأبدعوا أكثر من العام الماضى وزفت الكسوة ، ووزعت الخلع على مستحقها من اللاعبين .

ثم خرج المحمل من القاهرة في شوال ، وعاد في ٢٤ المحرم عام ٨٩١١ ، بعد معاناة فن عربان وعطش وموت جمال . « جزء ٤ ص ٦٦ ، ٧٧ ، ٨٠ » .

٦٤ - في سنة ٨٩١١ . في شعبان خلع الفورى على الأمير « خاير بك ، كاشف الغربة وأحد الأمراء المقدمين ، وأسند إليه إمارة ركب المحمل . وخلع على « قنك ، رأس نوبة ثان ، وأسند إليه إمارة الركب الأول . وفي شوال توالت الأخبار عن شدة فن الأعراب بالحجاز ، ومكة ، فرأى السلطان أن يمنع الناس الحج هذا العام من مصر والشام وجميع البلاد التابعة وأصدر أمره بذلك . ثم إنه أرسل الكسوة والمال والزيت وما إلى ذلك في مراكب شراعية بالبحر الأحمر . وقد وفد الركب المغربي والتسكرورى إلى مصر ذاهبين إلى الحج ، فلما علموا الأمر عدلوا عن الرحيل أيضاً . قال ابن يباس : « إنه لم يسمع عن سنة امتنع فيها الحج من مبدأ دولة الأتراك إلا هذه السنة » . « جزء ٤ ص ٨٦ ، ٨٩ » .

٦٥ - في سنة ٨٩١٢ . جاءت أخبار في صفر في تلك السنة من مكة تفيد أن عدداً من اليمنيين والعراقيين وفدوا إليها حاجين في ذى الحجة المنصرم ، وقد تم لهم أداء الفريضة . فندم السلطان على عدم إخراجه المحمل . ولمنعه الناس من الحج في السنة السابقة بسبب ما تواتر إلى سمعه من الفتن القائمة ببلاد الحجاز .

ثم إنه أرسل جندا إلى مكة لتطهيرها من دعاة الفساد وأهل الفتنة . فخرج نحو خمسمائة ملك من الممالك السلطانية بقيادة خاير بك بن إينال كاشف الغريبة وأحد المقدسين . وفي صحبته قبك بن شاد بك رأس نوبة ثان وعدد من الأمراء العشرات . وكان خروجهم في رجب . وقد أرسل معهم المحمل أيضا . ونودى للنساء بعدم الخروج إلى الحج في هذا العام كذلك . فأقام المحمل بالريذانية إلى الأربعاء ٩ رجب ، ثم سافر . ولما بلغوا بلاد الحجاز قاتلوا الخارجين العابثين وانتصروا على بنى إبراهيم ، وهرب منهم أمير ينبع السابق يحيى بن سبع ، وهو أحد العابثين الثائرين وقد أرسلوا بذلك كله رسولا - هجانا - إلى السلطان بلغ القاهرة في ١٨ رمضان ، فسر الناس والسلطان لأخبارهم . وأمر بعزف الموسيقى ثلاثة أيام وقد أرسلت رهوس القتل فيما بعد في شوال فأشهرت في القاهرة .

وفي الاثنين ١٩ رمضان عرضت كسوة الكعبة على السلطان مزفوقة على رهوس الحمالين بين طرقات القاهرة والناس يتمتعون بمشاهدتها . وفي ذى القعدة جاء بشرى آخرون بأن الجند المصرى هموا أعداءهم هزيمة أخرى منكرة . وفي ذى الحجة وفد مبشر عن الحجاج بأنهم في أمن ، وأن الجنود بعد انتهابهم من القتال أدوا فريضة الحج . ٥٦٠ ص ١٠١٩ إلى ١٠٦٠ ١٠٩٠ .

٦٦ - في سنة ٩١٣ هـ . في الخميس ١٩ ربيع الأول خلع الغورى على الأمير طرباي ، رأس نوبة النوب وقرره في إمرة ركب المحمل ، وقرره قانصوه أبو سنة ، وإلى القاهرة في إمرة الركب الأول . ونودى للناس في ذلك اليوم بأن يخرج إلى الحج من يشاء رجالا ونساء ، فكان ذلك ماثرا للسرور العام .

وفي الاثنين ١٩ شوال خرج الركبان في تجمل وزينة . وكان عدد الحجاج هذا العام وأفرا ، نظرا لما توقعوه من أمن الطريق ، وحج عدد كبير من أعيان رجال مصر ومنهم القاضي صلاح الدين بن الجيعان ، والقاضى شمس الدين التتائى المالكي . وكان قاضى المحمل - وعدد من الأمراء العشرات . وحجت خوند أصل باى أم

الملك الناصر سرية الأشرف قايتباى . . وحجت خوند جان كلدى زوجة الملك
الظاهر قانصوه خال الناصر بن قايتباى . وحجت زوجة الأمير تانى بك قراوى
بنت برديك صهر الملك الأشرف إينال .

وفى ٢٤ وفد مبشر عن الحاج وأخبر عما هم فيه من أمن وسلامة ورغاء .
وعاد الجميع فى ٢٠ المحرم عام ٨٩١٤ . فأنعم السلطان على الأميرين لما مثلا بين
يديه . « جزء ٤ ص ١١٧ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ » .

٦٧ - فى سنة ٨٩١٤ : فى ربيع الثانى أسند السلطان الغورى إمارة ركب
المحمل إلى « ماماي جوشن » ، وإمارة الركب الأول إلى « قانصوه دولات بردى ،
أستادار الصحة . وفى يوم الخميس ٤ شوال نزل السلطان إلى الميدان وجلس
بالمقعد وحوله أمرؤه ورسول من قبل ملك بغداد وطيف أمامهم بالمحمل ولعب
الراحة ألعاب فرسية مدهشة ، والناس من حولهم يشاهدون . وتقدم عدد
من المماليك من راكبي الخيول ولعبوا بالشباب ألعابا بدعية تم عن مهارة وقدره
وأحرقت إحراقه فقط مرتين .

وفى يوم ١٨ شوال نسل المحمل وحجاجة من القاهرة فى زينة وحفاوة وحسن
وداع - وجاء مبشر بأمنهم وسلامتهم فى ٢٣ ذى الحجة ، وكان مجيئه مبكرا . وفى ٢٢
المحرم عام ٨٩١٥ دخل الحاج القاهرة ، وكانوا فى يمن وسرور وحدوثا بما أنشأه
السلطان الغورى من ضروب الإصلاح بالعقبة ، فقد أنشأ هناك نولا وعدة مخازن
لإيداع الودائع ، وأبراجا يقيم بها جند لحماية الطريق . وهد الطريق للمسير ، وأنشأ
أبراجا بعدة نواح أخرى يقيم بها جنود منها برج بعجروود وآخر بنخل وآخر
بالأزهم ، وأجرى آبارا بطريق مكة ، وهكذا فعل فى سبيل الحج . فلمجت الألسنة
بمدحه ، والثناء عليه . « جزء ٤ ص ١٢٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥١ » .

٦٨ - فى سنة ٨٩١٥ : فى يوم الخميس ١٧ ربيع الأول عين الأمير « ملقطباى ،

نائب القلعة وأحد الأمراء المقدمين أميراً لركب المحمل ومغلباى الزردكاش، أميراً بالركب الأول، وفي يوم الاثنين ١٠ شوال نزل السلطان إلى الميدان بالقلعة وعرض عليه كسوة الكعبة والبرقع وكسوة مقام إبراهيم . وطيف بهذه الأشياء مع المحمل في القاهرة . وفي يوم الاثنين ١٧ شوال أيضا خرج المحمل من القاهرة . وخرج في صحبته أحد أمراء بنى عثمان حاملان نحو أربعين ألف دينار أرسلها ملك العثمانيين لتفريقها على فقراء مكة والمدينة . وفي ذى الحجة وفدمبشر من قبل الحجاج بالأمن والسلامة ، ويقال إنه وصل في ١٣ يوما فقط . وفي يوم الخميس ٢٣ المحرم عام ٩١٦ هـ دخل المحمل إلى القاهرة ، وقد تأخر بعد دخول الركب الأول بيومين .

• جزء ٤ ص ١٥٧ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٩ •

٦٩ - في سنة ٩١٦ هـ : في ربيع الأول عين قانصوه بن سلطان جركس ، أحد الأمراء المقدمين أميراً لركب المحمل ، والأمير دنوروز ، تاجر المال بك أحد الأمراء الطليخانات أميراً للركب الأول . وفي يوم السبت ١٨ شوال خرج المحمل من القاهرة . وفي الخميس ٢٦ المحرم عام ٩١٧ هـ دخل الحجاج إلى القاهرة . وقد قاسوا في هذه السنة مشقة وشدة من مرض وموت جمال ، وقيل توفي نحو ألف وثمانمائة نفس .

• جزء ٤ ص ١٨٤ ، ١٩٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ •

٧٠ - في سنة ٩١٧ هـ : في الاثنين ٢٠ ربيع الأول خلع السلطان على المقر السني ، وطومان باى الدوادار الكبير ، - الذى ملك فيما بعد - وقرره في إمارة الحج ، بركب المحمل . وخلع على بك باى ، أمير عشرة وأحد بمالك الأتابكى أربك - كان - ، وقرره في إمارة الركب الأول .

وفي يوم الاثنين ١٥ شوال ، جلس السلطان في الميدان بالقلعة وعرضت عليه الكسوة الشريفة والبرقع ومقام إبراهيم عليه السلام والمحمل الشريف . وفي الخميس ١٨ منه خرج المحمل الشريف من القاهرة في حفاوة وحسن وداع . وحج عدد كبير من الأعيان والأمراء والأميرات . منهم غاير بك أحد مقدمى الآلاف والذى كان كاشفا للغربة واشتهر بذلك : وحج الشرفى يونس بن الأقربع نقيب

الجيش . وزوجة الأمير طومان باى وهى بنت الأمير أقبردى الدودار ومعها والدتها بنت خاص بك وزوجة الأتابكى سودون العجمى . وحج شيخ العرب الأمير أحمد بن بقر ، وكثير غيره من العربان منهم حسام الدين بن بغداد .

وفى يوم الجمعة ٢٣ من ذى الحجة حضر مبشر الحجاج وأخبر عنهم بأنهم وسلامتهم ، وكانت قد أشيعت عنهم أخبار سيئة فزيقت . وفى يوم الخميس ٢١ المحرم عام ٩١٨ هـ دخل الركب الأول ، وفى يوم السبت ٢٣ منه دخل ركب المحمل إلى القاهرة متأخراً عن معاده ، فخلع السلطان على أميره خلعة نفيسة ، وكذلك على من حج غيره من الأمراء . وقد حمد الناس هذا العام سيرة أمير المحمل طومان باى الدودار ، وأثنوا عليه بما هو أهله ، وتحذثوا بما قام به من ضروب البر والإحسان وما بذله للفقراء والمساكين . « جزء ٤ من ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ » .

٧١ - فى سنة ٩١٨ هـ : فى ٢٢ ربيع الأول خلع السلطان الغورى خلعة على الأمير « تمر الحسى » المعروف بالزردكاش أحد الأمراء المقدمين وجعله أميراً لركب المحمل . وخلع على الأمير « يوسف التامرى » شاد الشراب خاتاة الذى كان نائب حماة ، خلعة وجعله أميراً للركب الأول . وكان قد اشتكى واستعفى من هذه الإمارة فلم يعفه السلطان .

وفى الخميس ١٤ شوال جلس السلطان بالميدان وعرضوا عليه كسوة الكعبة والبرقع ومقام إبراهيم عليه السلام ، والمحمل ، فطيف بها فى القاهرة وكان يوماً حافلاً . وفى ١٨ منه خرج الحجاج من القاهرة وصحبته المحمل الشريف ، فرجت لهم القاهرة . وتقدم المحمل عدد من الأفيال الكبار مزينة بألوان من الأقمشة ومعها الموسيقى من طبل وزمر . وتقدمه أيضاً القضاة الأربعة وقاضى مكة وغيرهم من أمراء وأعيان .

وقد عاد الركب الأول فى الأربعاء ٢٢ المحرم عام ٩١٩ هـ . وعاد ركب المحمل فى الخميس ٢٣ منه . وقد أثنى الحجاج على أمير الركب الأول ولم يثنوا على أمير

المحمل ليخله وشحه . « جزء ٤ ص ٢٦٢ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ » .

٧٢ - في سنة ٩١٩ هـ : في ٢ ربيع الآخر خلع السلطان على الأمير « قانصوه كرت » أحد الأمراء المقدمين وقرره في إمرة ركب المحمل . وخلع خلعة أخرى على الأمير « طومان باي » الحاجب الثاني وقرره في إمرة الركب الأول وهو من الأمراء الطبلخانات .

. وفي ١٤ شوال نزل السلطان إلى الميدان وعرضت عليه الكسوة والبرقع ومقام إبراهيم والمحمل عرضا عاما . وفي ١٧ منه خرج المحمل من القاهرة في حفاوة وزينة ، وفي صحبته مملكان من ملوك التكايرة ، وودعهم الاتابكي سودون السجى وعدد من الأمراء . وفي السبت ٢٣ من ذى الحجة جاء البشير بخبرهم وأمنهم وسلامتهم . وقد وصل من مكة في ١١ يوما فعجب الناس لسرعته . ثم عاد الحجاج في الخميس ١٩ المحرم عام ٩٢٠ هـ ، إلى بركة الحاج ثم دخل الركب الأول القاهرة في الجمعة ٢٠ منه ، وعلى أثره في السبت ٢١ المحرم دخل ركب المحمل . نزع السلطان على أميرهما خلعه السنية . وقد تقدم يوم دخولهما عن كل عام يومين في هذا العام .

« جزء ٤ ص ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٥٧ ، ٣٦٠ » .

٧٣ - في سنة ٩٢٠ هـ : في ٢٣ المحرم خلع السلطان الغورى خلعة على الأمير « طقطباي » نائب القلعة أحد الأمراء المقدمين وأسند إليه إمارة ركب المحمل ، وخلع خلعة أخرى على الركنى سبدي « عمر » بن الملك المنصور عثمان بن الملك الظاهر جقمق ، وأسند إليه إمارة الركب الأول ، فشكوا واستعفى فلم يعفه . وقد خالف السلطان العادة في التعيين المذكور إذ جرت أن تكون حوالى ربيع الأول ، فعجل بالتعيين هذا العام في المحرم . قال ابن إياس : « وقد خالف السلطان العوائد القديمة في لبس أمراء الحاج في شهر المحرم ، وكانت العادة القديمة بأن يلبسوا بعد المولد في شهر ربيع الأول » .

وقد حج في هذا العام من الأعيان : المقر الناصرى محمد بن السلطان الغورى ، وخوند زوجة السلطان ، والقاضى محمود بن أجا كاتب السر ، والأمير نائق الخازن ،

وكان موكولا إليه شئون الركب السلطاني . وفي ١٥ شوال رحل السلطان إلى بركة الحاج ليتفقد الحيام والجمال المعدة للحجاج بمناسبة خروج زوجته وولده إلى الحج .

وفي الاثنين ١٧ شوال خرج المحمل الشريف من القاهرة . وكان لخروجه يوم مشهود لم يقع له نظير ... وذلك لعظم من صاحب الركب هذا العام من الحجاج وجمال مواكبتهم وأبهة زينتهم ، وما حملوه في جميتهم من مال وهبات . وخلع السلطان خلعاً على أمير المحمل وقاضيه وولده . وكان السلطان وقت خروج المحمل جالسا في شباك قصره بالقلعة لمشاهدته . وقد ركبت زوجة السلطان إلى بركة الحاج وودعها من كرائم العقيلات عدد كبير ، ثم نودي ألا يصحب موكبها أحد من الحجاج ... وحج هذا العام عدد ضخم ، وخرج من أصحاب المحفات الخاصة أكثر من عشرة . وقد خيف عليهم من الكثرة والبرد معا ...

وقد رحل المحمل من بركة الحاج في يوم السبت ٢٢ شوال ، وسبقه في اليوم الماضي - ٢١ منه - الركب الأول ، ومعه باش المجاورين . أما زوجة السلطان وولده وكاتب سره فقد رحلوا في ركب خاص مبكرين جداليل ٢٢ منه حين طلوع القمر . وقبولوا مقابلة شائقة في مكة ، وقيل نزل أميرها الشريف بركات عن فرسه واقتاد زمام فرس ابن السلطان .

وفي الخميس ٢٥ ذى الحجة ورد بشير بسلامة الحجاج وزوجة السلطان وولده وكاتب سره . وكان قد أشيع موته - ثم عاد الركبان إلى بركة الحاج في ٢١ المحرم عام ٩٢١ هـ وصحبته هؤلاء العظام ، فخرج الأمراء للقاءهم ، ودخلوا القاهرة في حمادة وحسن استقبال - وقد أثنى الحجاج على أمير الركب الأول ، ولم ينشأ على أمير ركب المحمل .

وجزء من ٣٦١ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ .

٧٤ - وفي سنة ٩٢١ هـ : في ١٢ ربيع الأول أسندت إمارة ركب المحمل

(١٢٠ - مالك)

إلى الأمير «علان» أحد المقدمين والدوادار الثاني . وأسندت إمارة الركب الأول إلى الجناب العلائي «على» بن المؤيد أحمد بن الأشرف إينال .

وفي يوم الخميس ١٦ شوال عرض السلطان كسوة الكعبة ومقام إبراهيم ، وعرض المحمل وهو جالس في حوش القلعة . وفي يوم السبت ١٨ منه خرج المحمل الشريف من القاهرة في خفاوة وحسن وداع . ومعه باش المجاورين في تلك السنة الأمير «بيردى بن كسباى» أحد الأمراء العشرات، ومعه خمسون مملوكا للإقامة في مكة .

وفي ٢٦ منه حضر المبشر الأول للحجاج ، وقد أبطأ عن مياده أياما بسبب خروج العربان عليه وسرقة ما معه حتى خطابات الحجاج ، فلم تصل إلى من أرسلت إليهم . - وقد عاد الحجاج هذه المرة في يوم الثلاثاء ٢٣ المحرم عام ٩٢٢ هـ - وأثنى الجميع على الأمير علان لما بذله من المعاونة الصادقة والبر وعمل الخير . وقد قامى الحجاج مشقة وشدة من السيول الجارفة والغلاء وقطع الطريق .

« جزء ٤ ص ٤٤٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ - جزء ٣ ص ٦ ، ٧ ، ٨ »

٧٥ - في سنة ٩٢٢ هـ : في ١٨ ربيع الأول خلع السلطان الغورى على الأمير «أرزمك الناشف» أحد المقدمين، خلعة ، وعينه في إمارة ركب المحمل . وخلع على الأمير «برسباى القيل» أحد أمراء الطبلخانة خلعة ، وعينه أميراً للركب الأول . وبعد مدة خرج الغورى لقتال العثمانيين ، فكان هذا التعيين آخر تعيين يمضى باسم السلطان المذكور . وكان هذان الأميران آخر أميرين عيننا للحج في عصر المماليك .

ولما رحل الغورى إلى الشام وحلب أرسل في رجب كتاباً إلى نائبه في مصر الدوادار طومان باى يطلب إليه أن يمنع الحجاج من السفر هذا العام إن علم أن طريق الحجاج غير مأمون . وإن علمه مأموناً فليجهز الحجاج كالعادة المتبعة وليرحلهم . وكان قد أشبع بين الناس أن الحج ممنوع هذا العام بسبب اضطراب الأحوال

ما بين هجوم العثمانيين على أملاك الدولة ، وما بين فنن العربان وقطعهم الطريق الحجازى على سالكه ، فتودى فى يوم - الاثنين ٤ شعبان فى القاهرة بأن يستعد معزمو الحج للخروج فى الميعاد . ولكن بعد قليل كان الغورى قد انهزم وقتل فى مرج دابق وزادت البلاد اضطرابا ، وتولى الملك الأشرف طومان باى . وأخذ فى الاستعداد للقاء العثمانيين بالبلاد المصرية . حينئذ تقاعد الناس عن الخروج إلى الحج . وقد أرسل السلطان طومان باى الكسوة والأموال المعتادة لأهل المدينة ومكة مع رسول خاص هو العاواشى مرهف ، فركب لذلك البحر الأحمر وتوجه لقضاء مهمته - وفى أوائل عام ٩٢٣ هـ تم استيلاء العثمانيين على مصر وانتهى بذلك عصر المماليك .

فيضان النيل والاهتمام به

النيل مبة لمصر ونعمته ، ويده عليها ورحمته . لولاه لناها الجذب وأجهدنا المحول ، ودب فيها ديب الموت والخنول ، وأصبحت الحياة فيها قليلة الغناء ، ضئيلة الهناء . لاه شريان أرضها . وملشى تربها . وباهت خصبها ، ومحى نباتها ، وساقى أهلها ودوابها . وهى إليه أكثر احتياجا من بلدان كثيرة إلى أنهارها . لصالة ماها وقلة أمطارها .

وله فى كل عام موسم فيضان ، يرتفع فى إبان ماؤه فى مجراه رويدا رويدا فى يوليو وأغسطس وسبتمبر إذ يبلغ أقصى ارتفاع له فيه . ثم فى أكتوبر ونوفمبر ، ومن ثم يأخذ فى التراجع والتقصان . وسبب فيضانه هبوط الأمطار الغزيرة على بلاد الحبشة فى موسم الصيف لهبوط الرياح الموسمية الصيفية عليها . فتمتلئ وديان الحبشة بالماء ، وهى روافد النيل . فتندفق فى مجراه وتربو على مياه منبعه الاستوائى الدائم .

وفى غير موسم الفيضان تسمع المياه فى مجرى النيل وتتضاءل وتفيض ، حتى يصعب على سقااة الأرض سقيها منه ، لذلك أخذت الحكومة المصرية فى العصر الحديث تنشر الرى الصينى الدائم بوساطة ما تنفثه من قاطر وخزانات وترع ومصارف . فيخزن جزء من مياه النيل خلف القناطر ، حتى يحتاج إليه - أما فى أيام الفيضان فيسهل الرى طبعاً ، ولا سيما فى أراضي الحياض النيلية التى لم تنظم تنظيمها صيفياً .

ولهذه الأهمية الكبيرة التى احتازها نهر النيل ، عنى به المصريون منذ الأزمنة القديمة ، وحيكمت حوله الأساطير الطريفة الخيالية المسلية التى برهن الكشف الحديث على عدم صدقها . فقالوا إنه ينبع من الجنة ! وإنه عند منبعه يشترك مع

سيحون وجيحون ودجلة والفرات حيث تفيض جميعا من قبة عظيمة.. وهكذا^(١)
وقد بلغ من حب المصريين القدماء له أن انقلب هذا الحب إلى قداسة وعبادة
واحتفوا بفيضانه احتفاء هو مضرب الأمثال، وجروا على عادات في احتفائهم به
فيها كثير من الإسراف، منها ما أبطل منذ دخول العرب والإسلام إلى البلاد
المصرية على ما يذكره بعض المؤرخين.

ولم يقصر المصريون في العصور الوسطى، في الاهتمام بالنيل؛ وفي العناية
بفيضانه وإقامة الجسور عليه، والقناطر ومد الخللجان منه، وإنشاء المقاييس عليه،
 وإقامة المهرجانات الحافلة في موسم زيادته، وتخصيص أيام بذلك، اشتهر منها يوم
كسر الخليج.

واهتمام مصر به في العصر الحديث غنى عن الإشارة إليه، فقد هني بمقاييسه،
ورصد له المهندسون والعمال والخبراء للحراسة والملاحظة مائه ارتفاعا وانخفاضاً
ولحسن تصرفها. ويحتفل بوفاته كل عام.

والنيل كان ولا يزال إحدى النواحي المهمة التي أوحى إلى شعراء مصر
وأدبائها السائغ الرائع من الشعر، والبديع الذائع من الأدب. فوصفوه طولا
وعرضا ومدا وجزرا وفيضانا وتقصانا. ووصفوا ما على خفافيه من زروع كريمة
وثمار شبيهة. وما شدا حوله من أطياف مغردة، وما أنشأه من بساتين غناء، وجنات
فيح، وما امتلأ بأنسامه الروائية من ليالي حافلة، وما فاض على جانبيه من أسمار
وأحاديث، وما خلد على شاطئيه من جميل الذكريات... قال الشاعر أبو حامد
ابن محمد الأنطاكي المتوفى عام ٨٣٩٩. من قصيدة له يتشوق إلى مصر:

ليالي النيل لا أنساك ما هتفت ورق الحمام على دوح وأغصان
أصبوا إلى مفوات فيك لي سلفت قطعتن وهين الدهر ترعاني
مع سادة نجب غر غطارقة في ذروة المجد من ذهل بن شيبان

(١) راجع ما كتب من النيل في حسن الحضارة وخط الفرزي

وذى دلال إذا ما شئت أنشدنى وإن أردت غناء منه غنائى
سقيته وسقائى فضل ريقته وجادلى طرفه صفوا ومنائى (١)

ولم يقل اهتمام مصر فى عصر سلاطين المماليك ، بالنيل وفيضانه ، عن اهتمامها
به فى أى عصر آخر ، وذلك بمراقبة فيضانه وتقصانه ، ونشر البشرى بزيادته ،
والاحتفال بعيد وفاته ، والعناية بمقياسه .

ومقياس النيل له تاريخ حافل . وقد أفرد به بالبحث فى باب طويل صاحب
تقويم النيل (٢) . ويستخلص مما رواه ، وما رواه المقرئى وأبو المحاسن
والسيوطى (٣) وغيرهم ما يلى :

١ - أن مصر عرفت مقاييس النيل قبل دخول الإسلام إليها ، ومنها :

(أ) مقياس منف - ويقال إن يوسف عليه السلام هو الذى بناه - ويبدو
أنه ظل مستعملا معتمدا زمتا بعد دخول الإسلام .

(ب) مقياس ، قيل إن دلوكه الملكة العجوز أقامته ببلاد إخم . وقيل
أقامت مقياسا آخر بأفصنا .

٢ - أنه بنى بمصر عدة مقاييس بعد الإسلام ، منها :

(أ) مقياس ، قيل إن عمرو بن العاص بناه عند أسوان ، ثم عند دندرة ، ثم
عند أفصنا . وقال المقرئى بناه بجحوان .

(ب) مقياس ، بناه عبد العزيز بن مروان - وكان واليا على مصر - بجحوان
وكان يسكن بها . وذلك عام ٥٨٠ هـ .

(١) عن بقيمة الدر الثمالي ج ١ ص ٢٦٠ .

(٢) تقويم النيل ج ١ ص ٦٥ وما بعدها .

(٣) راجع المخط ج ١ ص ٩٢ تحت عنوان « ذكر مقاييس النيل وزيادته » وحسن المباشرة

ج ٢ ص ٢٢٠ بعنوان ذكر المقياس :

(ج) مقياس ، بناء أسامة بن زيد التنوخى - وكان عاملا على خراج مصر -
بحميرة الروضة ، فى خلافة الوليد بن عبد الملك ، ثم اقترح إبطاله فأبطل ، وبني
مقياسا آخر فى الروضة كذلك ، عام ٩٧ هـ ، فى خلافة سليمان عبد الملك .

(د) مقياس ، أقامه - أورهه - الخليفة المأمون بالروضة أيضا ، بدلا
من مقياس أسامة الذى هدمه الماء ، وذلك عام ١٩٩ هـ . ولكنه لم يمتعه . فاتمه
الخليفة المتوكل فى عام ٢٤٧ هـ . وهز أكبر المقاييس ، وقد بنى فى ولاية يزيد بن
عبد الملك على مصر ، وقدم من العراق محمد بن كثير المهندس فتولى بناءه .
(هـ) مقياس ، يقال إن أحمد بن طولون بناء فى الجزيرة .

هذا وأهم المقاييس قبل الإسلام مقياس « منف » ، وأهمها بعد الإسلام
وأكبرها مقياس « الروضة » الذى أتمه المتوكل . ولعله بنى على نمط من مقياس
« منف » ومقياس الروضة هو الذى ظل مستعملا طول عصر المماليك ، وقد
أمر قايتباى فى عام ٨٨٦ هـ بتجديد بعض أماكنه وإصلاح أساسه (١)
وقد روى المقرئى فى وصفه قال :

« والمقياس عمود رخام أبيض مشتم ، فى موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه
إليه . وهذا العمود مفصل على اثنين وعشرين ذراعا . كل ذراع مفصل على أربعة
وعشرين قسما متساوية تعرف بالأصابع ، ما عدا الاثنى عشر ذراعا الأولى ، فإنها
مفصلة على ثمان وعشرين إصبعاً ، كل ذراع ، والأذرع الأولى هى السفلى .

وقيل فى سبب اختلاف تقسيم أذرع ، ما يلى : وقد ذكره المقرئى نقلا عن
القضاعى عن الحسن بن محمد بن عبد المنعم . ونقله السيوطى ، قال :

« لما فتحت العرب مصر ، عرف عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ما يلقى أهلها
من الغلاء عند وقوف النيل عن حده فى مقياس لهم ، فضلا عن تقاصره . وإن
فرط الاستشعار يدعوهم إلى الاحتكار ، وأن الاحتكار يدعو إلى تصاعد

الأسعار ، بغير قسط فكتب عمر إلى عمرو ، يسأله عن شرح الحال . فأجابه :
إني وجدت ما تروى به مصر ، حتى لا يقسط أهلها ، أربعة عشر ذراعا ، والحد
الذى يروى منه سائرهما حتى يفضل عن حاجتهم ، ويبقى عندهم قوت ستة أخرى
سنة عشر . والهابتان المخوفتان في الزيادة والنقصان - وهما الظما والاستبحار -
اثنا عشر ذراعا في النقصان ، وثمانية عشر ذراعا في الزيادة . - هذا والبلد في ذلك
الوقت محفور الأنهار معقود الجسور عندما تسلموه من القبط ، وخميرة العمارية فيه .
فاستشار أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، عليا رضى الله عنه ، في ذلك ، فأمره
أن يكتب إليه أن يبنى مقياسا وأن ينقص ذراعين من اثني عشر ذراعا ، وأن يقر
ما بعدها على الأصل ، وأن ينقص من كل ذراع بعد الستة عشر ذراعا أصبعين .
ففعل ذلك ، وبناء بجولان فاجتمع له بذلك كل ما أراد من حل الإرجاف ،
وزوال ما منه كان يخاف ، بأن جعل الاثني عشر ذراعا أربع عشرة ، لأن كل
ذراع أربع وعشرون أصبعا ، فجعلها ثمانية وعشرين من أولها إلى الاثني عشر
ذراعا . يكون مبلغ الزيادة على الاثني عشر ثمانية وأربعين أصبعا ، وهى الذراعان .
وجعل الأربع عشرة ست عشرة ، والست عشرة ثمانية عشرة ، والثمانى
عشرة عشرين .

ويبدو أن هذا التقدير لمناسيب الفيضان لم يثبت تماما فيما بعد ، وطرا عليه
بعض التغيير .

ثم إن المقياس وكل به من يلاحظ ارتفاع الماء عنده باستمرار ، إذا كان
موسم الفيضان ، وببشر الناس بكل زيادة ، ويصعد إلى السلطان بأخبارها بين
الحين والحين . واشتهر طيلة عصر المماليك اسم « ابن أبى الرداد » مختصا بمراقبة
المقياس والبشارة بمناسيب الماء عنده . وأصل ابن أبى الرداد هذا ، يرجع إلى الفقيه
عبد الله بن عبد السلام بن عبد الله بن أبى الرداد المؤذن . وكان أصله من البصرة ،
قدم مصر وحدث بها . فلما بنى المتوكل مقياس الروضة عام ٢٤٧ هـ ، أمر ألا يتولى
أمره إلا رجل من المسلمين ، فاختار القاضي بكار بن قتيبة ، ابن أبى الرداد لمراعاة

المقياس ، وأجرى عليه الرزق . وقد توفي ابن أبي الرداد في عام ٢٦٦ هـ ، وبقي عمله وراثيا في عقبه . فظلوا يتوارثونه واحداً بعد آخر .

هذا وكان للنداء بالزيادة أثر هام في حياة الناس والدولة معاً ، لأن الدولة تستحق جباية الخراج إذا بلغ الفيضان حداً خاصاً . وإذا تأخر الفيضان عن مواعده أُرْجِفَ الناس وغافوا الشرق والجدب والفلاء ، وأمسك التجار ما في يدهم من البضائع ، وإذا طغى الفيضان وزاد عن معتاده خشى الناس الغرق والبوار ، وخافوا انتشار الأوبئة في أعقاب نكوصه . وهكذا .

والفيضان - كما ذكرنا - يقع في صيف كل عام وكانوا يضبطونه بالشهور القبطية لأطراد الحساب بها واتساق مواعيدها . ويبلغ النيل حد الوفاء عادة في شهر مسرى . فإذا وفي تهيأ السلطان ورجاله والناس ، للاحتفال بعيد وفاء النيل . وتختلف أبهة الاحتفال وعظمته والعناية به باختلاف الأيام والظروف والملايسات . ومهما يكن من شيء فقد جرت عادة الدولة أن يندب سلطانها من ينوب عنه في ترأس هذا الاحتفال . فيفتح السد على مرأى منه . وجرت العادة أيضاً أن يكون مندوب السلطان هو نائب السلطنة أو أتابك العسكر . وقد يندب أمير آخر غيرهما من عظماء الأمراء كالاستادار أو الدوادار ، تبعاً للملايسات الأحوال . وقل أن ذهب السلطان بنفسه لكسر السد . ومن ذهب بنفسه من السلاطين لكسره الظاهر برقوق عام ٨٠٠ هـ ، والمؤيد شيخ المحمودى في عام ٨١٦ هـ ، والناصر محمد بن قايتباى عام ٩٠٣ هـ ، وشارك الأشرف الغورى فيه عام ٩١٧ هـ ، والظاهر ختمقدم عام ٨٧٠ هـ ، وعام ٨٧١ هـ وعام ٨٧٢ هـ . كما جرت العادة بأن يكون كسر السد نهاراً لا ليلاً . ولعل المرة الوحيدة التي كسر فيها السد ليلاً هي المرة التي ذهب فيها الملك الناصر بن قايتباى لكسره عام ٩٠٣ هـ وذلك لحوفه على نفسه من بعض المماليك .

ويركب السلطان أو مندوبه سيفته تتبعها سفن أخرى كثيرة تمتلئ برجال

الدولة ، وتذلف بهم السفن إلى ناحية المقياس ، وإلى حيث يوجد السد في أول الخليج الكبير ، فيشاهدون المقياس . ويخلق أحيانا ، أى يطلى بالخلق وهو عطر . ويكسر السد أمامهم ، ثم يأكلون ويشربون ويلهون حيناً بضروب من اللهو ثم يعودون .

ومن السفن التي اشتهرت بالاستخدام لهذا الغرض سفينة أطلق عليها « الحرافة » ، وأخرى سميت « الذهبية » ، ولبت « الذهبية » السفينة الرسمية التي تتركب في هذه المناسبة زمناً ، ثم أبطلت عاداتها في عهد الأشرف قايتباي ^(١) . ويبدو أنها كانت سفينة ضخمة مجهزة خير تجهيز ، إذ قيل إن فيها ستين مجدافاً . وهذا ولعل تسمية « العوامات » - السفن المائمة - المعروفة في القاهرة الآن « الذهبيات » ذات صلة بهذه التسمية القديمة . وكان يطلق على السفن الأخرى التي تستخدم للعبور بين البرين أو للانتقال في خلال النهر لفظ « العشاريات » .

وأم المظاهر العملية للاحتفال بوفاء النيل ، كسر سد الخليج . أما الخليج فهو عبارة عن جدول متسع يستند الماء من النيل زمن الفيضان . والمراد بالخليج هنا ، الخليج الكبير أو خليج مصر أو خليج القاهرة . فكل هذه تسمية لخليج واحد كان يجرى في ظاهر القاهرة ومنهم من سماه خليج اللؤلؤ والخليج الحاكى وخليج أمير المؤمنين وقد كان بمصر خلجان على غرار عدة ، يجرى معظمها في الوجه البحري ، ولكن الخليج الكبير هو الذي كان يعنى بكسر سده في عيد الوفاء . أما السد فهو حاجز صناعي يسد به فم الخليج من ناحية النيل عندما يتبدى النيل في الفيضان تقوية لجسوره ، واحتفاظاً به ليوم العيد . فإذا بلغ النيل ستة عشر ذراعاً أو يزيد في شهر مسرى احتفل بكسر هذا السد فتجرى المياه من النيل إلى الخليج الكبير إلى غاية مداه . وكان يتلو هذه العملية فتح السدود الأخرى للخلجان الأخرى فيجرى فيها الماء كذلك : وقد يحتفل بعض السلاطين بفتح سد آخر غير سد

(١) داجع ابن لياس ج ٢ ص ٣٠١ .

الخليج الكبير أو يعنى به على الأقل ، كسد خليج أبى المنجا أو سد قنطرة قديدار . . .

والاحتفال بكسر الخليج ، عنى به الفاطميون قبل المماليك ، بل وكان يومه يعد فى جملة أيامهم الهامة ، ولعل أبهة الاحتفال به فى زمن المماليك لم تبلغ فى أقصى مداها بعض ما بلغت فى زمن الفاطميين من ركوب الخليفة بنفسه لكسر السد فى أجهل ملابس وزينة ، وحوله رجال دولته ، ثم بذل ضروب البذر والصدقات ، وإلقاء الخطب والنصائح ومنع الخلع والعطايا ومد الولائم الحافلة .

ومهما يكن من شيء ، فقد لبث هذا الاحتفال من تقاليد الدولة فى عصر المماليك . وكان السلاطين فى بعض السنين يأمرون بقراءة القرآن فى ليلة الاحتفال بجوار المقياس . وقد يأمرون القضاة الشرعيين بالمبيت هناك أيضا . فإذا تم الاحتفال فى الغد مدت الموائد وخلعت الخلع وأجريت الألعاب المختلفة . وفى يومه يخرج الناس فى سفن نيلية يرتادون بعض خلجان مصر أو يتجمعون على جانبيها يأخذون بأسباب اللهو والتمتع والعبث .

وما يذكر أن من العادات المتبعة حينئذ كتابة بشارات إلى آفاق الدولة بوفاء النيل المبارك واستحقاق الخراج . ويقوم بكتابتها موظفو ديوان الإنشاء الممتازون ، فيدجوا بأسلوب أدبى رائع مطول . وهو نموذج من أدب هذا العصر . كما ينظم الشعراء فى هذه المناسبة المقطوعات الكثيرة . وكذلك الزجالون والعوام ينظمون ويغنون .

وما يذكر أيضا أن النيل إذا زاد ارتفاعه حتى غيغ مته على البلاد ، صدر أمر السلطان إلى الأمراء والأعوان للتعاون فى ملاقة ذلك . فتقام السدود والجواجز وتقوى الجسور ، وتسهر الحراس والرقباء . وقد يستخدمون من أبناء البلاد من يصلح لهذا العمل بطريق السخرة فيصابون بضرر من وراء ذلك كثير . وإذا لم يف النيل فى مواعده ، تغيغ الشرق والجفاف والفناء ، يصدر أمر

السلطان فيخرج القضاة والناس للاستسقاء... أو لقراءة القرآن والحديث والدعاء طلباً للوفاء. وقد أتى الشيخ أمين الدين يحيى الأقصراني عام ٨٦٦هـ السلطان خشقدم، لما لم يف التيل، بأن يستعين ببنى العباس صغاراً وكباراً، وأن يضعوا ماء في أفواههم، ثم يمجوه في إناء، ويرى في التيل.. ففعلوا فزاد..

وكما يستسقون طلباً للزيادة، يستسقون طلباً للهبوط أحياناً، إذا طغى الفيضان وزاد حتى خيف الضرر. كما وقع في عام ٧٦١هـ.

وفيما يلي نصوص تاريخية عن اهتمام المصريين في العصر المملوكي بفيضان النيل - ذرن تحاريفه والاحتفال بوفائه وكسر سده وما يتصل بذلك من حوادث وحالات نقلت عن ابن إياس، مع الاستعانة بغيره أحياناً، ومع الإشارة إليه^(١) وذلك على سبيل المثال على الاستيعاب.

أخبار فيضان النيل وما يتصل به

١ - كان يجي من أهل مصر عند وفاء النيل ثمن الجلولى والثفاكة والشواء التي يمد بها السباط بمجوار المقياس يوم الوفاء. فأبطل المنصور قلاوون ذلك وجعل نفقات السباط من بيت المال. (دج ١ ص ١٢٠ ع ٤)

٢ - بلغت الزيادة عام ٦٤٨هـ، ١٧ ذراعاً وإصبعا - وفي عام ٦٤٩هـ، ١٨ ذراعاً، ١٨ إصبعا - وفي عام ٦٥٠هـ، ١٨ ذراعاً، ١٧ إصبعا - وفي عام ٦٥١هـ، ١٧ ذراعاً و١٧ إصبعا - وفي عام ٦٥٢هـ، ١٧ ذراعاً، ١٢ إصبعا - وفي عام ٦٥٣هـ، ١٨ ذراعاً - وفي عام ٦٥٤هـ، ١٨ ذراعاً و ٣ أصابع - وفي عام ٦٥٥هـ، ١٧ ذراعاً

(١) إذا قلنا من مرجع غير ابن إياس فصننا عليه مشيرين إلى التجوم الزاهرة بحرف نون وحسن المحاضرة بجماء وسلاوك القرى بيمين، وتجوم النيل بناء. وقد التزم صاحب التجوم التنس على مقدار الماء في العام القديم ومقدار الزيادة في العام الجديد، عقب حوادث كل عام، فتراجع ثمت. وقد أثبتنا عنه عشرة فيضانات متتالية.

(٢) أظن الحديث عن حوادث القسط والتلاء في الأبواب القاحلة.

و ١٧ أصبعا - وفي عام ١٧٠٦ هـ ، ١٧ ذراعا . ه أصابع - وفي عام ١٦٥٨ هـ ، ١٨ ذراعا و ١١ أصبعا . د ن : ٧ ص ٢٢ الى ٢٣ .

٣ - في عام ١٦٩٤ هـ : أوفى النيل في السادس من أيام النسيء وبلغت الزيادة في تلك السنة ١٦ ذراعا ، ١٧ أصبعا ، ثم هبط فوق الغلاء وتندر وجود القمح . وبلغ سعر كل أردب ثمانية مثاقيل ذهب ونصفا . د ت : ١ ص ١٦٧ .

٤ - في عام ١٦٩٥ هـ : في عهد العادل كتبغا ، شمع النيل وقد وصل إلى اثني عشرة ذراعا ، ثم هبط فشرقت الأراضي وزاد الغلاء وتعذر العيش على الناس ، حتى أكلوا الكلاب والقطط وسائر الدواب . ثم خف الأمر في جمادى الآخرة (١) .

د ج : ١ ص ١٢٣ .

٥ - في سنة ١٧٠٩ هـ : وقف النيل في هذه السنة عن الوفاء في ميعاده . واستمر كذلك إلى آخر مسرى : ودخلت أيام النسيء وهو في توقه . ثم أخذ في نقصان ، فكثرت الضجيج والصخب والخوف من الغلاء . وفعلوا ارتفعت أثمان الغلات والخبز وخرج الناس للاستسقاء ، فاستسقى الخطيب نور الدين .

ثم رسم السلطان المظفر بيبرس بكسر السد ، من غير وفاة ، إذ نقص النيل عن حد الوفاء ثلاث أصابع ، فكسر السد في ٧ توت ، ولم يخلق المقياس حيثئذ لأن التخليق لا يكون إلا بالوفاء . وفي ٢٧ توت نقص النيل نقصا عظيما وكان أقصى ارتفاع له في هذا العام ١٥ ذراعا ، ١٧ أصبعا . فشرقت البلاد وأصابها الجذب واشتد الغلاء . د ج : ١ ص ١٥٠ - ت : ١ ص ١٧١ .

٦ - في سنة ١٧١٧ هـ وفي النيل في ٢٩ أبيب وزاد عن الوفاء نصف ذراع . فكسر السد بعد عصر اليوم المذكور خوفا من قوة عزم الماء . د ج : ١ ص ١٦٠ .

٧ - في ٧٢٤ هـ في هذه السنة بدأ حفر الخليج الناصري إلى سرباقوس بأمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون . - وهو غير الخليج الحاكى .

قيل : لما أوفى النيل في تلك السنة ودخل الماء إلى الخليج الناصري كان له يوم

(١) انظر الحديث من حوادث القسط والتلاء في الأبواب المتقدمة .

مشهود ، ونزل السلطان الناصر ومعه أمراؤه يوم كسر السد « ج ١ ص ١٦٣ ،

٨- في سنة ٧٦١ هـ : جاءت القاعدة ١٢ ذراعا ثم كان الوفاء في ٦ مسرى ، وبلغت الزيادة إلى ما يقرب من ٢٤ ذراعا فأصاب الناس الضرر ، واستسقوا لمبوطه حتى هبط بعدما مكث إلى آخر توت . « ج ٣ ص ٣٤ ، ٣٥ ،

٩- في سنة ٧٧٥ هـ : في هذه السنة توقف النيل عن الزيادة والوفاء . ثم هبط ونقص أصبعين . فضج الناس وما جوا . وغلت أسعار الغلال وقلت كمياتها ، واختفى الخبز من الأسواق . فرسم السلطان الأشرف شعبان بأن يخرج الناس للاستسقاء . وفي يوم الخميس ٢ ربيع الآخر خرجت جماهير منهم إلى الصحراء وبينهم العلماء والصالحون والرجال والنساء والأطفال والمسلمون واليهود والنصارى . ثم وفد الخليفة المتوكل على الله محمد ، والقضاة الشرعيون الأربعة وساروا خلف قبة النصر ، وأقاموا منبرا صعد إليه قاضى القضاة الشافعى شمس الدين بن القسطلانى وخطب خطبة بليغة في الاستسقاء . ثم حول رداءه وكشف عن رأسه . ودعا الله تعالى أن يخفف عنهم هذا البلاء .

وفي اليوم التالى نقص ماء النيل مرة واحدة . . . فزادت الأسعار وبلغ ثمن الأردب من القمح ١٢٠ درهما ومن الشعير ٨٠ درهما . وهكذا . . . واستمر الحال كذلك ، فاضطر السلطان والأمراء إلى بذل المعونة للناس والفقراء . . . « ج ١ ص ٢٢٩ ،

١٠- في سنة ٧٨٩ هـ : في هذه السنة لم يصل النيل إلى حد الوفاء . ثم نقصت زيادته واضطربت الأحوال وقلق الناس . ثم زاد مرة أخرى وبلغ حد الوفاء . « ج ١ ص ٢٦٦ ،

١١- في سنة ٨٩٧ هـ : في هذه السنة وفي يوم السبت ٦ شوال الموافق آخر يوم من أبيب ، زاد النيل أربعين أصبعا في يوم واحد .

وفي ثاني يوم ، أى فى أول مسرى ، زاد ٦٢ إصبعا . فبقى إلى الوفاء ذراعا .
وفي ٣ مسرى زاد ٥٠ إصبعا فبلغ حد الوفاء وزاد إصبعين . وكانت جملة زيادته
أربعة الأيام سبع أذرع ونصف ذراع وإصبعين .

وكان وفاقه فى ٣ مسرى - وزيادته تلك لم يعهد مثلها فى السنين الماضية .

« ج ١ ص ٣٠٤ »

١٢ - فى سنة ٥٨٠٠ : فى يوم الأحد ١٩ من ذى القعدة كان وفاء النيل المبارك ،
فزل السلطان برقوق من القلعة إلى ناحية المقياس ليخلق العمود ويكسر السد ،
فدخل إلى المقياس وخلق العمود ثم نزل إلى الحراقة لكسر السد فكسره .

« ج ١ ص ٣١٠ »

١٣ - فى سنة ٥٨٠١ : بينما كان السلطان فرج بن الظاهر برقوق يجلس على
عرشه فى أول عهده إذ جاءه ابن أبى الرداد ببشارة النيل المبارك فاستبشر الناس
بذلك . « ج ١ ص ٣١٧ »

١٤ - فى سنة ٥٨٠٣ : وقف النيل دون الزيادة . فانتشر الغلاء وقلت الغلال
ثم زاد النيل فى يوم واحد ٤٨ إصبعا ، وبقى إلى الوفاء ١٦ إصبعا . وبعد قليل أوفى
وزاد عن الوفاء خمس أصابع . « ج ١ ص ٣٤٠ »

١٥ - فى سنة ٥٨١٣ : انتهت زيادة النيل إلى ٢١ ذراعا . وكان الوفاء
أول مسرى . « ج ١ ص ٣٥٤ »

١٦ - فى سنة ٥٨١٤ : وفى النيل فى أول مسرى . وبلغت الزيادة ٢٢ ذراعا
وإصبعا من الثالثة والعشرين . ففرقت البساتين وانقطعت الطرق وتأذى الناس .

« ج ١ ص ٣٥٤ »

١٧ - فى سنة ٥٨١٦ : قال ابن حجة الحموى : وفى النيل المبارك فى سنة ٥٨١٦

في أوائل مسرى . فزل الملك المؤيد وخلق المقياس ، وكسر السد على العادة .
وذلك قبل أن يتوجه إلى دمشق بسبب نوروز - أي نوروز الحافظي الذي شق عليه
عصا الطاعة - فأنشدته في ذلك اليوم مهنتا :

أيا ملكا بالله صار مؤيدا ومنتصبا في ملكه نصب تمييز
كسرت بمسرى سد مصر وتفضى وحقق بعد الكسر أيام نوروز
فكان الفأل بالنطق . « ج ٢ ص ٤ »

١٨ - في سنة ٨١٨ هـ : كان الملك المؤيد شيخ يتباهى في يوم كسر النيل
المبارك . ويلزم الأمراء المقدمين بأن كل واحد منهم يزين له « حرافة » ويجعل فيها
الصناجق والكشوسات . فإذا وفي النيل يعدون له « الذهبية » في بولاق . ويتوجه
إلى المقياس يخلق العمود ويكسر السد . والأمراء المقدمون حوله في « الخزازيق »
المزينة ، حتى يسدوا البحر من كثرة المراكب . ويكون له يوم مشهود لم يسمع
بمثله فيما تقدم . وقد فاق في ذلك ما كان يصنعه أستاذه برفوق . « ج ٢ ص ٥ »

١٩ - في سنة ٨٢١ هـ : لم يف النيل في ميعاده ، وزاد الغلاء . فزل الملك
المؤيد للاستسقاء ، ولبس جبة من الصوف الأبيض وعلى رأسه عمامة صغيرة
جداً بعذبة مرخية خلفه . وعلى كتفه مئزر من صوف أبيض . وركب فرسا بنير
قماش حريري ولا سرج ذهبي . وذبح هناك يده أغناما وأبقارا ، وفرقها على الفقراء
وفرق في ذلك اليوم على الفقراء ثلاثين ألف رغيف ، وصلى على الرمل من غير
سجادة . وتواضع لله . فزاد النيل ، ووفي في أوخر توت . ثم هبط بسرعة .
وشرق أكثر البلاد ، واستمر الغلاء بمصر ، وعزت الاقوات سنة كاملة (١)
« ج ٢ ص ٦ »

(١) هذه الحوادث ذكرها صاحب تهويم النيل في عام ٨٢٣ هـ وذكر في عام ٨٢١ هـ أن النيل وفي ،
وفتح السلطان السد .

٢٠ - في سنة ٨٢٤ هـ ، زاد النيل زيادة مفرطة . وثبت إلى آخر هاتور ، ولم يعهد هذا من قبل في الإسلام . وأصاب الناس الضرر . وكثرت البرك والمستنقعات وغرقت البساتين وأوذت الزروع وسدت الطرقات . وبلغت الزيادة ٢٠ إصبعا من ١٩ ذراعا . ج ٢ ص ١٧ - ت : ص ١ ج ٢٠٩ - تاريخ الخلفاء ص ٢٣٩

٢ - في سنة ٨٢٦ هـ : وفي النيل في ١٨ أيب ، فكأنه تقدم عن ميعاده أياما . وقيل في دت ، أو في ٦ مسرى . ج ٢ ص ١٧ - ت : ج ١ ص ٢١١

٢٢ - في سنة ٨٣٨ هـ ارتفع النيل ١١ ذراعا و ١٠ أصابع . ثم وفي في ٢ مسرى . وبلغت الزيادة ٢٠ إصبعا من الذراع العشرين وثبت إلى أواخر بابه . وفتح السد الجمالي يوسف بن السلطان برسباي .

ج ٣ ص ٣٥ - ت : ج ١ ص ٢١٣

٢٣ - في سنة ٨٤٥ هـ : كان وفاة النيل في ١٤ أيب . ج ٢ ص ٢٨

٢٤ - في سنة ٨٣٥ هـ : وقف النيل عن الزيادة والوفاء ثلاث أصابع ، وقيل أربع ، ولبت كذلك أياما لم يزد شيئا . فرسم السلطان بأن يخرج الناس للاستسقاء . فخرج القضاة الأربعة وأمير المؤمنين المستكني باقه سليمان ، ومشايخ العلم الصالحاء والأعيان ، ولم يصحبهم السلطان فتألم الناس . وخرج الأطفال من المكاتب وعلى رؤسهم المصاحف . واليهود على رؤسهم التوراة . والنصارى وعلى رؤسهم الإنجيل . ومعهم أبقار وأغنام ، وكثير من الرجال والنساء والأطفال الرضع . وهم يقولون : يا الله ارحمنا . ويمدوا الصحراء عند الجبل الأحمر وأقاموا منبرا ، صعد عليه قاضي قضاة الشافعية شرف الدين يحيى المناوي . فخطب خطبة الاستسقاء .

فلما أراد أن يحول رداء سقط الرداء إلى الأرض فتطير الناس من ذلك ! فلما رجعوا من الاستسقاء طلع ابن أبي الرداد ، ومعه روايات زعفران ! ونادى (١٣٢ - ماله)

زيادة إصبع ١ ففرح الناس بذلك ١ وأنعم عليه السلطان بمائة دينار . ثم إن النيل نقص بعد في تلك الليلة أصبعين ، وبقي إلى الوفاء ثمانية أصابع . فرسم السلطان بكسر السد فكسر . فلم يجر الماء في الخليج إلا قليلا . وأخذ النيل في النقص بعد ذلك . وقد أصيب الناس من وراء ذلك شر إصابة ، فانت البهائم وأجذبت الأرض وزاد الغلاء (١) « ج ٢ ص ٣١ »

٢٥ - في سنة ٨٥٧ هـ : وفي النيل في ٢٣ مسرى - في رجب - ، فكسر السد المقر الشهابي أحمد بن إينال ، وهذه أول مرة يفتح السد . « ج ٢ ص ٤٣ »
٢٦ - في سنة ٨٥٨ هـ : وفي النيل في ١٣ مسرى - في شعبان - ففتح السد المقر الشهابي أحمد بن إينال . « ج ٢ ص ٤٧ »

٢٧ - في سنة ٨٥٩ هـ : في شهر شعبان كان وفاة النيل ، وقد أوفى في ١٥ مسرى ونزل المقر الشهابي أحمد ابن السلطان إينال وفتح السد . وبعد أيام زاد النيل زيادة مفرطة حتى قطعت الجسور وغرقت بلاد كثيرة . ثم انخفض الماء بسرعة حتى شرقت الأرض البعيدة العالية وارتفعت أسعار القمح بسبب ذلك . « ج ٢ ص ٥٢ ، ٥٣ »

٢٨ - في سنة ٨٦٠ هـ : وفي النيل في ٦ مسرى - شعبان - . وفتح السد الشهابي أحمد بن إينال . « ج ٢ ص ٥٦ »

٢٩ - في سنة ٨٦٦ هـ : لم تبد زيادة في النيل في هذه السنة في شهر أبيب إلا أوائلها فقط . أي أوائل الزيادة . وظل كذلك ١٥ يوما ، فضج الناس وافتضح خوفهم وارتفعت الأثمان . فرسم السلطان خشقدم للقضاة الأربعة والمشايخ والعلماء بأن يتوجهوا إلى المقياس ويبيتوا هناك ويتلوا القرآن والحديث الشريف ويتوجهوا إلى الله بالدعاء لزيادة النيل . فتوجه القاضي يحيى المنار والسيّد الشريف ابن حرز المالكي وجماعة من العلماء ، فأقاموا في المقياس أياما ورجعوا ولم يزد النيل ١ فأرسل السلطان إلى الشيخ أمين الدين يحيى الأقصر أني يستغثي في ذلك .

(١) هذه رواية ابن إياس . وذكرها صاحب تقيوم النيل في عام ٨٥٤ هـ

فقال الشيخ أمين الدين : اجمعوا بنى العباس من الرجال والنساء من صغارهم لكبارهم ثم يضعون في أفواههم شيئا من الماء ويمجونه في إناء ، ثم يصبونه في فسقية المقياس ففعلوا ذلك . فكان فيه البركة !

ثم إن القاضي علم الدين صالحا البلقيني توجه إلى المقياس ، وأقام هناك ثلاثة أيام . وفي اليوم الرابع زاد النيل ثلاث أصابع ، وفرح الناس بذلك ورجع القاضي علم الدين وشق من القاهرة وأمامه الأعلام وحوله المهتاف . ثم وفي النيل وثبت ثباتا طويلا في زيادته إلى أواخر توت ، وتوجه المقر السيفي قائم التاجر وكسر السد . وقبل في دت ، ثم السلطان بهدم المقياس حتى لا يعلم الناس الزيادة أو النقصان فنبطه الأقصراني . ج ٢ ص ٧٤ ، ٧٥ — ت ج ١ ص ٢٢٣ .

٣٠ — في سنة ٨٧٠ هـ . وفي النيل . فزل السلطان خشقدم بنفسه وكسر السد وخلق المقياس . ج ٢ ص ٨٠ .

٣١ — في سنة ٨٧١ هـ . كسر السلطان خشقدم السد . وقيل في دت ، نقلا عن « د » إن هذه السنة خلت من الوفاء . ج ٢ ص ٨١ . ت . ج ١ ص ٢٢٥ .

٣٢ — في سنة ٨٧٢ هـ . وفي النيل هذا العام فزل خشقدم كعادته وفتح السد وهذه آخر مرة يفتحه فيها . ج ٢ ص ٨١ .

٣٣ — في سنة ٨٧٣ هـ . بعد أن وقف النيل عن الزيادة في مواعده مدة ، وفي شهر المحرم . فأناب الأمير قرقاس الجلب أمير مجلس في فتح السد . وكان سلطان العصر الأشرف قايتباي . ج ٢ ص ١٠٠ ، ٩٩ .

٣٤ — في سنة ٨٧٤ هـ . في يوم عيد النحر عام ٨٧٣ هـ جاءت بشارة المبشر بارتفاع النيل . وفي شهر صفر عام ٨٧٤ هـ كان وفاؤه . وقد وافق ٢٤ مسرى . فلما وفي نزل الأمير لاجين الظاهري أحد مقدمي الألوف وفتح السد . ج ٢ ص ١١٠ ، ١١٣ .

٣٥ — في سنة ٨٧٥ هـ . في شهر صفر كان وفاء النيل ووافق ٢٢ مسرى . وقم بكسر السد الأتابكي تلقصير الذي كان يحتشد أمير سلاح بعد زوال أتابكيتيه . أما

أتابكي العصر فقد كان أربك بن ططخ ، وكان وقت كسر السد غائبا في البحيرة .
« ج ٢ ص ١٢٢ »

٣٦ - في سنة ٨٧٦ هـ . بشر بزيادة النيل في أول المحرم من السنة المذكورة .
فتفاد الناس بذلك . وفي شهر صفر كان وفاؤه . ووافق ٢٦ مسرى فقام الأتابكي
أربك بفتح السد . « ج ٢ ص ١٢٨ ، ١٢٩ »

٣٧ - في سنة ٨٧٧ هـ . وفي النيل في ٢١ مسرى - ربيع الأول - وفتح السد
الأتابكي أربك بن ططخ « ج ٢ ص ١٣٧ »

٣٨ - في سنة ٨٧٨ هـ . وفي النيل في شهر ربيع الأول . ووافق ٥ مسرى .
فذهب الأمير لاجين الظاهري أمير المجلس وفتح السد . وفي ذلك اليوم زاد النيل
١٢ إصبعا بعد ١٧ ذراعا . وكانت زيادته ثلاث أذرع في ستة أيام . « ج ٢ ص ١٤٧ » .
٣٩ - في سنة ٨٧٩ هـ . وفي النيل في شهر ربيع الأول . وكان قد توقف
أياما وقلق الناس لوقوفه . ووافق ٢٠ مسرى . ففتح الأتابكي أربك بن ططخ
السد . « ج ٢ ص ١٥١ »

٤٠ - في سنة ٨٨٠ هـ . وفي النيل في شهر ربيع الثاني . ووافق يوم وفاته يوم
١٢ مسرى . وقام الأتابكي أربك بفتح السد . « ج ٢ ص ١٥٩ »

٤١ - في سنة ٨٨١ هـ : وفي النيل في شهر ربيع الثاني . وكان وفاؤه في
٣ مسرى . وفتح السد الأتابكي أربك . « ج ٢ ص ١٦٦ ، ١٦٧ »

٤٢ - في سنة ٨٨٢ هـ . في شهر ربيع الثاني كان وفاة النيل . ووافق آخر
شهر أبيب ، وكسر السد في أول مسرى ، وقد قام الأمير لاجين الظاهري أمير المجلس
بكسره ، وفي جمادى الأولى انتهت زيادته إلى عشرين ذراعا وإصبع واحدة . وثبت
كذلك إلى آخر بابه ، وقد كسر الجسور وقطع الطرقات وأغرق المنيا لارتفاعه .
« ج ٢ ص ١٧٤ ، ١٧٥ »

٤٣ - في سنة ٨٨٣ هـ . في شهر ربيع الثاني وفي النيل . وكان وفاؤه في ٤ مسرى
فتوجه الأتابكي أربك وفتح السد . وفي الليلة زاد عن الوفا ١٢ إصبعا . وفي
ثاني يوم كسر سده زاد ١٦ إصبعا ، وأكل الذراع السابعة عشرة في يومين . ويستفاد

ذكره ابن إياس في سنة ٨٨٤ هـ أنه بلغ ٢٠ ذراعا و ٢٠ إصبعا .

« ج ٢ ص ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٩٠ »

٤٤ - في سنة ٨٨٤ هـ : في ٣ جمادى الأولى كان وفاة النيل . ووافق ٢٩ أبيب وكسر السد في آخر أبيب على مرأى من الاتابكي أربك . وبعد يومين زاد النيل عشرين إصبعا ، فبلغ بذلك الذراع السابعة عشرة وست أصابع ، واطردت زيادته بعد ذلك حتى بلغ عشرين ذراعا وعشرين إصبعا ، وثبت على ذلك في جمادى الآخرة ، فوافق بذلك مقدار ارتفاعه في العام الماضي « ج ٢ ص ١٨٨ ، ١٩٠ »

٤٥ - في سنة ٨٨٥ هـ : في جمادى الآخرة كان وفاة النيل وقام بكسر السد الاتابكي أربك بن ططخ « ج ٢ ص ١٩٧ » .

٤٦ - في سنة ٨٨٦ هـ : في جمادى الآخرة كان وفاة النيل . ووافق ١٥ مسرى . وقام بفتح السد الأمير أربك السيفي « ج ٢ ص ٢٠٦ » .

٤٧ - في سنة ٨٨٧ هـ : في جمادى الآخرة كان وفاة النيل . وفتح السد الاتابكي أربك بن ططخ « ج ٢ ص ٢٤١ » .

٤٨ - في سنة ٨٨٨ هـ : في ربيع الآخر ارتفع النيل إلى ٦ أذرع وأربع أصابع وقد وفى النيل في جمادى الآخرة . ووافق يوم ١٢ مسرى . وفتح السد الاتابكي أربك « ج ٢ ص ٢١٨ ، ٢١٩ » .

٤٩ - في سنة ٨٨٩ هـ . جاء شهر جمادى الآخرة والنيل متوقف عن الزيادة حتى قلق الناس ، ثم زاد ، واطردت زيادته حتى وفى في شهر رجب . ووافق يوم وفاته يوم ٢٢ مسرى . وقد قام الاتابكي أربك بن ططخ بفتح السد ، وبعد أيام في شعبان انخفض انخفاضاً مسرعاً . ثم ثبت على الأصبع الثانية والعشرين من الذراع الثامنة عشرة . قيل : فشرقت بلاد كثيرة وزاد سعر التمتع . وقد تأثرت أسعار البضائع في السنة التالية تبعاً لذلك . وفى شهر رمضان عاد إلى زيادة مفرطة بغير أوان ، ودخلت مياهه الخليج بعد أن جف ماؤه . فكان ذلك مثاراً لعجب الناس . ولكن رى الأرض كان قد اضطرب فلم تعد الزيادة في ذلك الحين .

« ج ٢ ص ٢٢٢ إلى ٢٢٤ » .

٥٠ - فى سنة ٨٩٠ هـ : فى جمادى الاولى اخذ النيل فى الارتفاع حتى بلغ ثمانى أذرع وعشرين إصبعا . وفى ٢ شعبان كان وفاؤه موافقا ٢٠ مسرى . وفتح السد الأتابكى أزبك بن ططخ . وفى ذى القعدة فى يوم ١٣ هاتور زاد النيل زيادة مفرطة تقرب من ذراع فأثارت عجب الناس . « ج ٢ ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ »

٥١ - فى سنة ٨٩١ هـ : فى شعبان تم وفاء النيل . ووافق وفاؤه يوم ١٣ مسرى فتوجه الأمير أزدمر تمساح وفتح السد . وذلك لغياب الأتابكى أزبك فى حملة . وقد زاد النيل فى اليوم المذكور عشرين إصبعا من الذراع السابعة عشرة ، واطردت زيادته بعد الوفاء ثلاثة أيام متوالية حتى بلغت ٩٩ أصبعا . « ج ٢ ص ٢٣٧ »

٥٢ - فى سنة ٨٩٢ هـ : هل رجب والنيل متوقف عن الزيادة واستمر أياما ، ثم زاد واطردت زيادته حتى بلغ حد الوفاء فى شهر شعبان ، موافقا ١٢ مسرى . ففتح الأتابكى أزبك بن ططخ السد فى اليوم المذكور . « ج ٢ ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ »

٥٣ - فى سنة ٨٩٣ هـ : فى شعبان وفى النيل موافقا فى وفائه يوم ١١ مسرى . ففتح السد الأمير أقبردى الدوادار لغياب الأتابكى أزبك . وهذه هى المرة الوحيدة التى فتح فيها الأمير أقبردى السد . « ج ٢ ص ٢٥٣ »

٥٤ - فى سنة ٨٩٤ هـ : وفى النيل فى آخر شعبان . وفتح السد فى أول رمضان موافقا ٦ مسرى بحضور الأتابكى أزبك . « ج ٢ ص ٢٦٥ »

٥٥ - فى سنة ٨٩٥ هـ : جاءت البشارة بيده الزيادة فى شعبان ، وبلغت فيه سبع أذرع إلا ثمانى أصابع . وفى ١٠ رمضان كان وفاؤه موافقا ٤ مسرى . ونزل الأمير أزدمر تمساح وفتح السد . وقد زاد فى ٣ مسرى ٣٣ أصبعا مرة واحدة . « ج ٢ ص ٢٦٥ »

٥٦ - فى سنة ٨٩٦ هـ : فى شوال ليلة عيد الفطر كان وفاء النيل المبارك . فأمر السلطان بفتح السد فى ٢ شوال وكان ذلك فى ١٥ مسرى . « ج ٢ ص ٣٧٢ »

٥٧ - فى ٨٩٧ هـ . قال ابن إياس : إن النيل وفى هذه السنة فى ذى القعدة وفتح السد الأتابكى أزبك . ويفهم من هذا أنه تأخر شهرا تقريبا أو ثلاثة أسابيع على

الأقل من ميعاده في السنة الماضية . وهذا كثير . فلعلة أخطأ في ذكر الوفاء في شعبان . وكان أحق بذكره في شوال . . . أو لعل النيل تأخر هذه المدة كلها - كما أنه لم يذكر التاريخ القبطي .
« ج ٢ ص ٢٢٧ »

٥٨ - في سنة ٨٩٨ هـ : في شوال كان وفاء النيل موافقا ١٢ مسرى . وفتح السد الاتابكي أزبك ، وكان قبيلها مشغولا بالحجاج في بركة الحجاج . فلما علم الوفاء سارت تحت جناح الليل لفتح السد في الغد ثم عاد .
« ج ٢ ص ٢٧٩ »

٥٩ - في سنة ٨٩٩ هـ : في ذى القعدة : وفي النيل بعد وقوفه مدة فاضطربت الاسواق . ولما وفي آخر الشهر فتح الاتابكي أزبك السد « ج ٢ ص ٢٨٤ - ٢٨٥ »
٦٠ - في سنة ٩٠٠ هـ : في ذى القعدة وفي النيل . وفتح الاتابكي أزبك السد . وهذه آخر مرة له يفتح السد فيها . « ج ٢ ص ٢٨٨ »

٦١ - في سنة ٩٠١ هـ : وفي النيل في ذى القعدة فرسم السلطان للأمير الكبير تميزاز يفتح السد وخلع عليه خلع . . . فتم فتح السد والناس يسودهم الاضطراب من ناحية مرض السلطان ومن ناحية الفتن الكثيرة الناشئة بسبب الماليك ومطالبهم وبسبب الأمير أفندي . وهذه آخر سنة يأمر فيها قايتباي بفتح السد ، إذ توفي في ١٧ ذى القعدة المذكور . « ج ٢ ص ٢٩٦ »

٦٢ - في سنة ٩٠٢ هـ : كان السلطان هو الناصر بن قايتباي . ولما بلغ النيل أيام الوفاء المعتادة لم يف . ووقف عن الزيادة . وكانت القاهرة إذ ذاك تموج في قها . وظل كذلك حتى يوم الاثنين ٢٢ من ذى الحجة الموافق ٢٧ مسرى فبلغ حد الوفاء . وكان الأمير أفندي الدوادار متعلبا على القاهرة في ذلك الوقت . ففتح في مسألة كسر السد فبعث من لدنه إلى القاهرة لهذا الغرض بعد يوم الوفاء بيوم ، أهنى يوم ٢٨ مسرى ، فوجد أن الشيخ عبد القادر الدشوطي قد فتح منه جانبا .. فأجهز وأعلى البقية . ولم يصحب الاحتفال بفتح السد بهجة ولا روعة ولا سرور ، ولم يخرج الناس لمشاهدته والتفرج به نظرا لفشو الفتن والاضطراب ، وبعد أيام

انخفض ماء النيل بسرعة وأصبحت بلاد بالجفاف العاجل ، ونجم عن ذلك ضرر كثير وغلاء . « ٢٠ ص ٣٢٧ »

٦٣ - في سنة ٩٠٣ هـ : ناسب وفاء النيل في هذه السنة أن جاء في أوائل السنة الهجرية التالية لها إذ في ٤ المحرم عام ٩٠٤ هـ الموافق ١٩ مسرى وكان السلطان الناصر بن قايتباى عقد النية على أن يفتح السد بنفسه فنعه الأمراء خوفاً عليه من الفتن القائمة . ولكنه ما لبث بعد أن صلى العشاء أن نزل من القلعة على حين غفلة وأمامه المصاييح والمشاعل ومعه أولاد عمه ونحو مائة من الخاصكية ، وسار إلى السد لفتحه بالليل . وهذه المرة الوحيدة - أو لعلها - التي فتح فيها السد ليلاً . وبعد تمام الفتح ذهب إلى سد قنطرة قديدار ففتحه أيضاً ، ثم عاد إلى القلعة تحت جنح الليل . فلما أصبح الصباح وجد الناس الماء يملأ الخلدجان والبرك والقرنات فتار مجهم . « جزء ٢ ص ٢٤٥ »

٦٤ - في سنة ٩٠٤ هـ : رأينا كيف وقع وفاء النيل عام ٩٠٣ هـ في المحرم عام ٩٠٤ هـ وذلك لاختلاف السنين القبطية والعربية إذ الأولى مطردة إذا قيس بها ارتفاع النيل . والثانية لا طراد لها في ذلك . أما وفاء عام ٩٠٤ هـ فبدأت زيادته في شهر ذى الحجة . وكانت زيادته في ٣ مسرى ثلاثين إصبعا . وفي ٤ مسرى أربعين إصبعا . وفي ٥ مسرى عشرين إصبعا . وبلغ حد الوفاء في ٥ مسرى . وفتح السد في ٦ مسرى الموافق ٢١ من ذى الحجة عام ٩٠٤ هـ . وقد رسم السلطان للأمير طومان باى النوادر الكبير بفتح السد . - وطومان باى هو الذى ملك فيها بعد وتلقب بالعاذل - وكانت الآتابكية إذ ذاك شاغرة . وكان السلطان قانصوه ابن قانصوه . « جزء ٢ ص ٣٦٠ »

٦٥ - في سنة ٩٠٥ هـ : وقع وفاء النيل هذه السنة أيضا في أوائل السنة الهجرية التالية أى عام ٩٠٦ هـ . ففي يوم السبت ٥ المحرم الموافق ٨ مسرى بلغ النيل حد الوفاء . وكسر السد في يوم الأحد ٦ المحرم . وقام بفتحه الأمير طومان باى

الدرادار إذ ذاك . فسار في أبهة وعظمة . وفرق على المدعويين كثيرا من الحلوى والفاكهة . ونثر على العوام دراهم من فضة وكان السلطان إذ ذاك الأشرف جان بلاط . فلعل طومان باي كان بذلك يمهّد لنفسه السيل إلى السلطنة . . .

« جزء ٢ ص ٣٧٤ »

٦٦ - في سنة ٩٠٦ هـ : في أوائل هذه السنة كان النيل قد وفى وفاءه وفتح السد في ٦ المحرم كما ذكرنا في سنة ٩٠٥ هـ . ولم يقع وفاء النيل في تلك السنة غير هذا . إذ الوفاء التالى وقع في السنة التالية أى عام ٩٠٧ هـ .

٦٧ - في سنة ٩٠٧ هـ : في ١٨ المحرم الموافق ٩ مسرى كان وفاء النيل . وخشى الآتابكى قيت الرجبى أن يسير لفتح السد فبعث مكانه الأمير مغلباى الشربى الزردكاش . وكانت السلطنة قد آلت إلى الأشرف الغورى منذ السنة الماضية . وفى ربيع الأول انتهت زيادة النيل إلى سبع عشرة إصبعا من الذراع العشرين . واستمر ثابتا إلى نصف بابه . « جزء ٤ فى التواريخ المذكورة » .

٦٨ - في سنة ٩٠٨ هـ : فى يوم الخميس ٢٣ المحرم الموافق ٤ مسرى زاد النيل أربعين إصبعا فى يوم واحد . وفى يوم الجمعة ٥ مسرى زاد عشرين أخرى . وبلغ حد الوفاء فى يوم الأحد ٨ منه ؛ وزاد عنه إحدى عشرة إصبعا . وتم فتح السد يوم الاثنين ٩ مسرى الموافق ٢٧ المحرم . - قال ابن إياس : « وهو سابق النيل الماضى بيوم واحد » . مع أن وفاء العام الماضى كان فى ١٨ المحرم - كما قال - ٢٨ لا منه . . . وقد قام بفتح السد الآتابكى قيت الرجبى .

ثم قال : « والفضل بينهما سبعة عشر إصبعا » . أى زادها النيل فى هذه السنة عن السنة الماضية . « جزء ٤ ص ٣٦ »

٦٩ - سنة ٩٠٩ هـ : فى صفر وفى ٩ مسرى كان وفاء النيل . فتوجه الأمير سودون المعجمى أمير المجلس وفتح السد . وكان الآتابكى قيت غائبا فى الحج .

« جزء ٤ فى التاريخ المذكور »

٧٠- في سنة ٨٩١٠ هـ : في ٧ ربيع الأول الموافق ٢٥ مسرى وفي النيل متأخرا عن العام الماضي ١٧ يوما . ولكنه زاد خمس أصابع من الذراع السابعة عشرة . وقد فتح الأنابكي قيت الرجبي السد . وفي ربيع الآخر ثبت النيل على ١٣ إصبعا و ١٩ ذراعا وثبت كذلك إلى ٢٨ قوت « جزء » في حوادث التواريخ المذكورة »

٧١- في سنة ٨٩١١ هـ : في المحرم أخذ النيل في الارتفاع ، حتى بلغ سبع أذرع . وفي ربيع الأول في يوم السبت ٢ منه كان وفاء النيل ووافق ذلك يوم ٩ مسرى . فتوجه الأنابكي فرقاس لفتح السد . وقد أوفى وزاد على وفائه ثلاث أصابع . وكانت مياهه كثيرة عالية . ولم يقف النيل منذ بدء زيادته بل اطردت . وفي جمادى الأولى ثبت ارتفاعه على ١١ إصبعا من عشرين ذراعا . واستمر كذلك ثابتا إلى آخر بابة . وكان نيلا مباركا .

« جزء » في حوادث التواريخ المذكورة »

٧٢- في سنة ٩١٢ هـ : في ٢٨ المحرم حمل ابن أبي الرداد بشارة ارتفاع النيل حيث بلغ سبع أذرع وعشر أصابع ، فهو أرجح منه في العام الماضي في مثل هذا الميعاد بنحو عشرة أصابع . وفي ٢٠ ربيع الأول كان وفاؤه . ووافق ٢٠ مسرى أيضاً : وكسر السد في ٢١ منه بمحضور الأنابكي فرقاس بن ولي الدين . وفي جمادى الأولى ثبت على ١٩ ذراعا وأصبعين من عشرين ذراعا .

« جزء » في حوادث التواريخ المذكورة »

٧٣- في سنة ٩١٣ هـ : في صفر طلع ابن أبي الرداد ببشارة الزيادة . وكانت سبع أذرع بلغت في الارتفاع . وفي ١٩ ربيع الأول تم وفاء النيل ووافق ١٠ مسرى ، وفتح السد في ١١ منه بمحضور الأنابكي فرقاس بن ولي الدين . وكان النيل قد استمر في الزيادة حتى ٦ مسرى فواد دفعة واحدة في ذلك اليوم ثلاثين إصبعا . وفي يوم ٧ منه زاد عشرين أخرى . وفي ٨ منه زاد عشرين أخرى . فبلغت زيادته سبعين إصبعا في ثلاثة أيام . واستمرت زيادته حتى بلغ حد الوفاء .

« جزء » في سياق التواريخ المذكورة »

٧٤ - في سنة ٩١٤ هـ: في صفر، جاء ابن أبي الرداد ببشارة زيادة النيل إلى السلطان وبلغ الارتفاع ست أذرع وعشر أصابع . فكان أكثر ارتفاعا من مثله في العام الماضي . ثم رقف عن الزيادة زمنا . ثم زاد في ١١ مسرى خمسين إصبعا دفعة واحدة، فوسم السلطان الغوري لقضاة الشرع بالتوجه إلى المقياس المبني هناك فتوجهوا . واجتمع هناك قراء المدينة لقراءة القرآن . ثم أمر السلطان بمد الموائد وتقديم الأطعمة الشعبية . فكانت تلك الليلة حافلة أهلة . وفي ١٢ مسرى زاد النيل ٢٠ إصبعا . وفي ١٣ منه عشرين أخرى . فبلغت زيادته في ثلاثة أيام تسعين إصبعا .. قال ابن إياس : و ذلك ما لم يقع من مبتدأ الإسلام سوى مرتين منها مرة في دولة الظاهر برقوق سنة ٧٩٧ هـ . فإنه زاد في أول مسرى ٦٢ إصبعا ، وفي ٣ منه ٥٠ إصبعا . فكانت زيادته في ٤ أيام ٧ أذرع ونصفا وأصبعين .. والمرة الثانية في دولة الأشرف برسبای سنة ٨٢٥ هـ فإنه زاد في يوم واحد ٥٠ إصبعا دفعة واحدة ،^(١) هذا وقد قام بفتح السد يوم ١٤ مسرى الأتابكي ، فرقاس .

« جزء ٤ في سياق حوادث التواريخ المذكورة هنا »

٧٥ - في سنة ٩١٥ هـ : في ربيع الأول طلع ابن أبي الرداد إلى السلطان ببشارة النيل . وبلغ الارتفاع ست أذرع و ١٨ إصبعا . فكان أدنى من العام الفائت في مثل هذا الميعاد بثاني أصابع . وفي ربيع الثاني انقطع جسر أم دينار بالجيزة . وكان ذلك في ليالي الوفاء فتعاون الأمراء بأمر السلطان على إصلاحه . فسخروا كثير من الناس في هذا العمل : واتبعوا معهم ضربا من القسوة والإرهاق . فكانوا يقبضون عليهم في الطرقات ويسوقونهم في القيود إلى محل العمل ومع ذلك لم يجدوا سده وإعادة إلى ما كان عليه على الرغم من إعيائهم .

(١) ذكر ابن إياس في سياق حوادث سنة ٧٩٧ هـ : هذه الزيادات كما ذكرها هنا . أما في سنة ٨٢٥ هـ فلم يصر إلى النيل بكثير أو قليل

وفي جمادى الآخرة ثبت النيل على ٢٢ إصبعا من ١٩ ذراعا . وقد ثبت على ذلك إلى أواخر بابه . وكان النيل عاليا ومباركا . وظل ثابتا إلى نصف هاتور . ثم زاد فيه ثمانى أصابع حتى عد ذلك من التوادر الغربية . . ولما اشتدت زيادته رسم السلطان للقضاة الأربعة بالتوجه إلى المقياس ليدعوا الله تعالى في انخفاضه ، ففعلوا فانخفض في تلك الليلة نحواً من نصف ذراع ١ « ج ٤ حوات التواريخ المذكورة »

٧٦ - في سنة ٩١٦ هـ : في يوم الخميس ١٣ ربيع الأول طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وارتفع إلى ٧ أذرع بزيادة عشر أصابع عن العام الماضى . وفي ٢ جمادى الأولى قرئت ختمة في المقياس بأمر السلطان كما مدت الأسبطة الحافلة وقدمت الأطعمة الشهية . وحضر القضاة وأعيان الناس . وسبب ذلك أن البحر استمر في الزيادة . ومضى من مسرى ١٦ يوما ولم يف . . فلما توجه القضاة إلى ناحية المقياس زاد النيل في تلك الليلة ثمانى أصابع ، وفي الليلة التالية زاد ١٥ إصبعا ، واستمرت الزيادة حتى بلغ حد الوفاء في ٢٠ مسرى ، وفي يوم ٢١ منه الموافق ٨ جمادى الأولى فتح السد ، وقد تأخر الوفاء عن العام الماضى ٧ أيام ، فلما وفى توجه الأتابكى فرقاس وفتح السد . وهذه آخر مرة للأتابكى فرقاس يفتح فيها السد ، لأنه توفى في أواخر هذه السنة ، وفي جمادى الآخرة ثبت النيل على ٢١ إصبعا من ١٨ ذراعا ، وانخفض في أواخر توت ، ولم يثبت فكان نيلا شحيحا ، فأصبحت بلاد بالشرق والجفاف ، وكانت البلاد يتفشى فيها الغلاء . « جزء ٤ في حوات التواريخ المذكورة . »

٧٧ - في سنة ٩١٧ هـ : في يوم الجمعة ٢٤ ربيع الأول طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وبلغ الارتفاع ست أذرع ، فهو أقل من العام الماضى في مثل هذا الميعاد ، وفي يوم الأربعاء ١١ جمادى الأولى أخذ النيل تطلد زيادته حتى شارب الوفاء . . وبقي إليه خمس أصابع ، فزاد في تلك الليلة إصبعين ، فتأخر عن الوفاء في ميعاده ، ثم زاد إصبعين ولم يصل حد الوفاء . فكثر بين الناس القيسل والقتال ، وقالوا إن عدم وفائه سببه كثرة الفسوق والعصيان . . فلما بلغت الغالة سمع السلطان رسم لبعض الأمراء باقتحام بعض الجهات المشبوهة لمنع أهلها من اقتراف

المربقات . ففعلوا بلا غلو .

وكان السلطان توجه إلى الروضة ، ورسم للقضاة الأربعة أن يتوجهوا إلى المقياس للبيت ولقراءة ختمة ، ففعلوا ، ومد السلطان موائد حافلة واجتمع هناك أعيان الناس من العلماء والفقهاء وغيرهم ، وفي يوم الخميس ١٢ جمادى الأولى ركب السلطان من هناك « الحراقة » إلى المقياس ، وكانت تلك الليلة ليلة الوفاء ، ثم شق من بر الروضة إلى قصر ابن العيني وعاد إلى القلعة .

وفي النيل في تلك الليلة وكسر السد ثاني يوم - الجمعة ١٣ جمادى الأولى - ١٥ مسرى - وقد زاد النيل في يوم الوفاء إصبعين ، فزاد عن حد الوفاء إصبعا ورسم السلطان للأتابكي سودون المعجمي بفتح السد فركب الحراقة وأتى المقياس وخلق العمود ثم فتح السد وكان له يوم مشهود ، وهذا أول فتحه للسد وهو في الأتابكية . ثم زاد بعد ذلك ثمانى أصابع مرة واحدة ، وقد هم الأراضى وملأ الخللجان فازدادت بهجة بما عليها من القناطر الجديدة ، وغدا الناس يروحون ويحيثون في مراكمهم مبتهجين ، وقد ثبت النيل في أوائل رجب على ٩ أصابع من عشرين ذراعا ، وكان النيل عاليا ، ولكن ارتفعت أثمان بذور البرسيم والقمح .

« جزء ٤ حوادث التواريخ المذكورة »

٧٨ - في سنة ٩١٨ هـ : بشر ابن أبي الرداد بزيادة النيل في يوم الأحد ٦ ربيع الثاني ، وارتفعت المياه إلى ست أذرع فهي أقل من العام الماضى ذراعا - وفي الاثنين ١٢ جمادى الأولى كان وفاؤه ، ووافق أول مسرى . وفتح السد في اليوم الثاني منها ، وفي اليوم الثاني المذكور زاد النيل بعد الوفاء اثنتى عشرة أصبعا ، وفي الثالث عشرة ، فبلغ سبع عشرة ذراعا وأربع أصابع ، فرسم السلطان النورى للأتابكي سودون المعجمي بأن يتوجه إلى السد ويفتحه فكان له يوم مشهود . وفي يوم ١٣ منه بات السلطان في قصره بالمقياس وقرئت هناك ختمة ، واجتمع لذلك قراء المدينة وعواظها ، وفي ثاني يوم ركب الحراقة وتوجه إلى بولاق - وفي هذا الشهر اطردت زيادة النيل حتى بلغ ١٢ إصبعا من الذراع التاسعة عشرة ،

فأخصبت الفواكه في هذا الشهر حتى البطيخ الصيفي والعنب والرومان وسائر الفواكه . ولكن الزبيب كان غالبا . وكذلك الغلال والزيت والسكر وغيرها .

وفي يوم ١٨ رجب الموافق أول بابه ثبت النيل المبارك على ٨ أصابع من ٢١ ذراعا واستمر في ثبات إلى نصف هاتور « ج ١ في التواريخ للذكورة » .

٧٩ - في سنة ٩١٩ هـ : طلع المبشر ابن أبي الرداد ببشارة النيل في يوم الاثنين ١٦ ربيع الثاني . وارتفع الماء ست أذرع وست عشرة إصبعا . وفي الأحد جمادى الآخرة بلغ النيل حد الوفاء . ووافق ذلك ١٤ مسرى . وفي زاد عن الوفاء خمس أصابع من الذراع السابعة عشرة ، وكان عرس النيل وفتح السد في ٦ جمادى الموافق ١٥ مسرى . وقد رسم السلطان الأتابكي سودون العجمي بالذهاب لفتح السد .

وفي مستهل رجب كان النيل في عشر أصابع من ١٩ ذراعا . وفي ١٦ رجب ثبت النيل على الأصبع الرابعة من الذراع العشرين . وكان في العام الماضي في مثل هذا الموعد قد أتم عشرين ذراعا وزاد ٨ أصابع من الذراع الحادية والعشرين . « ج ٤ في التواريخ للذكورة »

٨٠ - في سنة ٩٢٠ هـ : طلع المبشر ابن أبي الرداد ببشارة النيل يوم ٢٦ ربيع الثاني . وكان الارتفاع إلى ست أذرع و ١٢ ذراعا . وكان في العام الماضي أرجح من هذا . وكانت زيادته في أول يوم ٥ أصابع . وفي يوم ٢٣ جمادى الآخرة . بلغ حد الوفاء بعد الظهر ، وعلق الستر على شباك القصر الذي أنشأه السلطان على ردهة المقياس . وقد بلغ ١٦ ذراعا وأصبعين ، وذلك في ٢٢ مسرى ، وقد بدأ النيل عن السنة الماضية بسبعة أيام ، والناس بسبب ذلك في قلق واضطراب ، وقد فتح السد في ٢٤ جمادى الثانية الموافق ٢٣ مسرى - وكان يوما مشهودا - برئاسة الأتابكي سودون العجمي .

وزاد النيل بعد فتح السد يومين عشرة أصابع دفعة واحدة ، ثم في اليوم الثالث زاد ١١ إصبعا دفعة واحدة ، وفي اليوم الخامس زاد ٧ أصابع دفعة واحدة ، فزاد

١٦ إصبعا من ١٨ ذراعا . وذلك في أواخر مسرى بعد الوفاء بخمسة أيام ، فعد ذلك من النواذر . وفي ١٠ شعبان كان ارتفاعه يومئذ ١٥ إصبعا من الذراع العشرين . وقد انتفع الناس بذلك أيما انتفاع . وظل ارتفاع النيل ثابتا إلى أواخر بابة دون انخفاض . - وفي الأربعاء ١٥ شعبان الموافق ٧ بابة كان ارتفاعه هو نفس ارتفاعه في ١٠ شعبان أي ١٥ إصبعا من ٢٠ ذراعا . فكان أزيد من العام الماضي ١١ إصبعا . » ج٤ في التواريخ المذكورة «

٨١ - في سنة ٩٢١ هـ . في جمادى الأولى ، جاء ابن أبي الرداد ببشارة النيل وبلغ ارتفاعه ٧ أذرع ، و٤ أصابع ، فكان أرجح من العام الماضي بعشرين إصبعا - وفي الاثنين ١٨ جمادى الآخرة احتفل بوفاء النيل المبارك . ووافق وفاءه يوم الأحد ١٧ منه الموافق ٥ مسرى . فوقع الاحتفال حيثئذ في ٦ مسرى . وفي ذلك اليوم رسم السلطان للأتابكي سودون العجى بأن يتجه إلى السد ليفتحه ، وإلى المقياس ليخلع عموده ، فنزل في الحرافة ، وقام بما عهد إليه في اليوم المذكور . وعاد إلى القلعة فخلع عليه السلطان خلعة سنية .

وفي ٢٠ شعبان الموافق أول بابة ثبت ارتفاع النيل على ١٦ إصبعا من ٢١ ذراعا واستمر ثابتا إلى أوائل هاتور .

وقد رويت بلاد كثيرة لم ترو من قبل لعلو الماء ، وهم بذلك النفع .

» ج٤ في التواريخ المذكورة «

٨٢ - في سنة ٩٢٢ هـ . في يوم الخميس ٢٣ صفر أشيع بين الناس أن النيل قد زاد ذراعين . . فصدق ابن أبي الرداد وأخبر السلطان أن النيل قد زاد نصف ذراع . وكان النيل يومئذ في ١٢ ذراعا و٣ أصابع . فزاد على ذلك نصف ذراع . وكان هذا في شهر برمات . وسبب هذه الزيادة المبكرة أن الأمطار سقطت بأعلى بلاد الصعيد وانحدرت منها سيول إلى النيل ، فزاد هذه الزيادة في غير أوانها .

وفي يوم الجمعة ١٩ جمادى الأولى طلع ابن أبي الرداد ببشارة زيادة النيل ، إلى

القلمة - وكان السلطان الغورى قد رحل في جنده إلى بلاد الشام للملاقاة العثمانين - وبلغت الزيادة حيثئذ إلى ارتفاع ١٢ ذراعا وبقي على الوفاء ٦ أذرع اوقال ابن إياس نقلا عن المقرئى :

« ولم يحدث أن زاد ارتفاع النيل في أول زيادته كل هذا الارتفاع وهو ١٢ ذراعا. الإمرتين: واحدة عام ١٧٦٢ هـ ، وأخرى في عام ١٨٣٨ هـ . ثم قال : « فلما كانت الزيادة في عامنا هذا - ١٩٢٢ هـ - أثقت عشرة ذراعا ، ظن الناس الظنون ، وخشوا أن تطرد الزيادة بهذه النسبة فتغرق الأراضى . غير أن النيل أخلف هذه الظنون ... ، وفى يوم الاثنين ٢١ جمادى الآخرة الموافق ٢٧ أبيب بلغ النيل حد الوفاء . وفتح السد في يوم الثلاثاء ٢٢ منه ، الموافق ٢٧ أبيب . وقد وفى قبل دخول مسرى بأربعة أيام . وقد فرح الناس بهذا الوفاء المبكر ، ونظموا الأزجال يتغنون بها . وقد قام بفتح السد نائب الغيبة إذ ذاك طومان باى الدوادار - الذى ملك فيما بعد - فركب « الحرافة » ، وتوجه إلى المقياس وخلق العمود ومعه كثير من عظماء الأمراء . ثم عاد إلى بيته فى ركب حافل .

وفى شعبان بلغ النيل عشرين ذراعا . ووافق بلوغه ذلك ٢٢ توت . وثبت على عشرين ذراعا حتى ٢ بابه واستمر إلى هاتور . فكان أقل من مثله فى العام الماضى . « جزء ٣ ص ١٤ ، ١٥ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٥٤ ، ٥٦ »

ملحوظة . فى أوائل عام ١٩٢٣ هـ تم للعثمانيين الاستيلاء على مصر ووقع وفاة النيل التالى فى عهدهم . فضر بنا الذكر صفحا عنه .

السفارة

كانت مصر دولة عظيمة الشأن ، مترامية الأطراف في عصر المماليك . نشبت بينهما وبين عدد من الدول ، وشائج وصلات من ألوان مختلفة ، ترجحت ما بين صداقة وعداوة ، ومنافسة ومعاونة . وهكذا . ووسط هذا كله ، لم تجد بدا من اصطناع السفراء ، تبعثهم إلى ملوك هذه الدول في بعض المهام . أو تستقبل سفراء هذه الدول ، وتنتظر فيما لديهم من المسائل والأخبار . ونعني هنا السفراء المبعوثين في أمرا ، والذين يعودون إلى بلدهم بمجرد نجاح ما أرسلوا من أجله ويسمونهم « قصاداء » . ومن طائفتان : طائفة ترسلها مصر ، وطائفة تستقبلها . ومن العادات المتبعة - غالبا - أن سلطان مصر يختار رسوله من رجاله الحكاء الكيسين ، ويزوده بتعليماته وإرشاداته ، كما يزوده بهداياه أحيانا ليقدّمها إلى من أرسل إليه .

ومن العادات المتبعة - غالبا - أن يستقبل سلطان مصر من يفد إليه من الرسل في حوش القلعة ، يحف به كبار رجاله في حفل عظيم . وقد يعرض بعض أسلحة الجند إذ ذاك وتعرض بعض الأسلحة أو الخلع أو نحو ذلك . وقد تعرض أيضا بعض الألعاب للتسلية ، أو يستصحب الرسول إلى حفل مقام لمناسبة ما ، وهكذا .

ويتركز السفير ضيفا على السلطان طيلة إقامته . فينزه عند أحد أتباعه من أعيان الأمراء والمباشرين ، أو في أحد قصورهم . وبعد زمن يأذن له في العودة ، ويخلع عليه الخلع النفيسة ، ويزوده ببعض الهدايا .

ولاشك في أن هؤلاء السفراء كثيرا ما تكون سفارتهم ذات أثر كبير في علاقات الدولة المصرية بغيرها ، وذات أثر كبير في توجيه سياستها إلى ناحية ما . وبما اتبع في بعض الأحيان أن السلطان إذا اختار أحد رجاله رسولا ، أن يأخذ هذا الرسول في إعداد العدة لخروجه وسفره ، ويقم الاحتفالات والزيّنات . (١٤ م - ممالك) .

على داره . وربما جامله جيرانه وأحباؤه ، فأقاموا مثله الحفلات والزينات . وربما تحيا الليالي إذ ذاك بالمغنين والراقصين وأضرابهم ، احتفاء بالزوار . ومثل ذلك ما فعله « ماماي بن خداد » ، الخاصكي ، حينما اختاره قايتباي رسولا إلى ملك العثمانيين عام ٨٩٩ هـ . وحين خروج الرسول من القاهرة يخرج في ركب حافل وزينة بالغة وثبت فيما يلي بعض هذه الوفادات نقلا عن ابن إياس .

١ - من سفراء مصر إلى غيرها من الدول

١ - الأمير برسباي أمير آخورتان : لما فتح السلطان محمد العثماني مدينة القسطنطينية بعث رسولا إلى السلطان الأشرف إينال يبشره بذلك فبعث السلطان إينال هذا الأمير ليهيئ بالفتح . وذلك في شوال عام ٨٥٧ هـ . فسار لأداء مهمته ، ثم عاد في رجب عام ٨٥٨ هـ . فلقى السلطان فخلع عليه خلعة . ج ٢ ص ٤٤٤ ، ٤٧ ، ٤٨

٢ - الأمير قاضي باي اليوسني المهندار : بعثه السلطان الأشرف إينال إلى السلطان محمد الفاتح مهتبا ببعض الفتوحات ومعه هدايا قيمة فسافر في شعبان سنة ٨٦٠ هـ . وقد عاد في رجب عام ٨٦١ هـ وحدث بما لقيه من الكرم .

ج ٢ ص ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧

٣ - الأمير دولات باي حمام الأشرفي : أرسله السلطان الأشرف قايتباي في ذي القعدة سنة ٨٧٧ هـ إلى ملك بني عثمان ردا على رسوله الذي أوفده خاصا بما كاتب به ملك العراقيين حسن الطويل ، ملوك الفرنجة للاتفاق على مقاتلة ملك العثمانيين وملك مصر . ج ٢ ص ١٤٥ .

٤ - الأمير برسباي الأشرفي أستاذ دار الصحة (١) : أرسله السلطان قايتباي إلى ملك العثمانيين في صفر عام ٨٧٨ هـ . فسافر ومعه هدايا قيمة . وقد توفي هذا

(١) هو برسباي القرقي يونس الذي كان أميراً للسجل عام ٨٧٧ هـ ، ونوه به السخاوي في الضوء

الرسول بحلب . وجاء خبر وفاته في جمادى الأولى من العام المذكور . ويبدو أنه لم يتم مهمته قبل وفاته . « ٢٦٥ ص ١٤٧ » .

٥ - الأمير الماس الأشرفي أستاذار الصعبة : أرسله السلطان الأشرف قايتباي مبعوثاً إلى ملك العثمانيين في جمادى الأولى عام ٨٧٨ هـ بدلاً من برسباي الأشرفي المتوفى . وكان الماس أحد خواص السلطان ، وقد عينه قبل سفره في أستاذارية الصعبة . وقد أخذ يستعد للسفر . ولكن ألغى إرساله في ذى القعدة من العام نفسه . وعين مكانه يشبك الجمالى . « ٢٦٥ ص ١٤٧ و ١٤٩ » .

٦ - الأمير يشبك الجمالى : في ذى القعدة عام ٨٧٨ هـ رسم السلطان قايتباي للأمير يشبك الجمالى المحتسب بأن يخرج قاصداً إلى ابن عثمان ملك الروم عوضاً عن الماس الأشرفي الذى ألغى إرساله . وقد عاد من سفره في جمادى الأولى عام ٨٧٩ هـ حاملاً إلى السلطان رسالة تتضمن الود والصداقة من ملك العثمانيين . فسر السلطان قايتباي برسالته . ويشبك هذا ولى عدة مناصب منها الحسبة . وسافر أميراً للحج عدة مرات ، وغضب عليه قايتباي عام ٨٩٠ هـ ونفاه إلى القدس فظل إلى أن مات في عام ٩٠١ هـ . « ٢٦٥ ص ١٤٩ و ١٥٣ » .

٧ - الأمير جاني بك حبيب العلاقى : كان قد هرب من مصر في أيام السلطان خشقدم لما أصابه من محن ، وبم شطر بلاد العثمانيين . فلعله عرفها معرفة وثيقة ، ولعله أصبح ذا صلة محمودة ببعض من فيها ، إذ استخدم في السفارة بينها وبين مصر فيما بعد ، أكثر من مرة . وقد عاد إلى مصر في شوال عام ٨٧٢ هـ في أوائل حكم قايتباي . فلما عاد أكرمه هذا السلطان وخلع عليه خلعة سنية . وبعث إليه الأمير يشبك الدوادار ألف دينار يصلح بها شأنه . وبعد قليل منحه السلطان قرية أنبابة إقطاعاً له ، وكانت بيد الخليفة المستنجد بالله يوسف فأخرجها عنه . وفي ربيع الأول عام ٨٧٤ هـ منحه السلطان مركز أمير آخور ثان عوضاً عن يشبك . فلبث فيه

بضع سنين . وسار في عداد أمراء الحملة المرسله إلى حلب بقيادة الأتابكي أزيك بن ططخ عام ٨٨٥ . وعرف هذا الأمير بالكياسة والسياسة وحسن التآقي ، ولذلك أرسله الأتابكي أزيك إلى يعقوب بن حسن الطويل ملك العراقيين ليطلق من عنده من الأشرى بعد واقعة يشبك الدوادار لدى بابتدر عامل هذا الملك . فأكرمه وسلم إليه الأشرى فعاد بهم إلى حلب ، وذلك عام ٨٨٦ . فكان هذا مرشحا له في عام ٨٨٩ ، إذ اختاره السلطان قايتباي في ذى الحجة رسولا إلى ملك بني عثمان ، بعد مشورة الأمراء فيمن يكون أهلا للسفارة ، وبعد أن أشاروا على السلطان باختياره . وكانت مهمته في ذلك الحين أن يتحدث مع ملك العثمانيين في الأسباب التي دعتهم إلى الانضمام إلى على دولات أمير التركمان الخارج على الدولة المصرية ، ويحاول إبعاده عنه وتهديم الفتنة الناشئة بينه وبين السلطان بسبب ذلك . وقد حمل معه هدية نفيسة للموفد إليه . وحمل معه تقليدا من الخليفة ليكون نائبا عن السلطان فيما يده من الأملاك ، ومكانة أخرى من الخليفة أيضا يتلطف فيها بملك العثمانيين أن ينهي هذه الفتنة التي أثارها بينه وبين السلطان .

وقد قبل في سبيلها الأول أن أحد ملوك الهند أرسل مع رسول هدية نفيسة إلى ملك العثمانيين وفي عدادها خنجر ثمين فانتزع منه نائب جدة وأهداه إلى السلطان قايتباي مع بقية الهدية . فقبله هذا ولم يرده . فأكل الحقد قلب ملك العثمانيين وانهز ثورة على دولات على السلطان وأمد به بالجند .

وقد اضطر السلطان إلى رد الخنجر والهدية مع رسوله جاني بك حبيب مع الاعتذار . ثم سافر جاني بك في صفر عام ٨٩٠ . بطريق البحر المتوسط إلى القسطنطينية .

لبث جاني بك في مهمته نحو ثمانية شهور . وعاد في ذى القعدة عام ٨٩١ . فحدث السلطان بأنه لم يجد لدى ملك بني عثمان إكراما مناسبا ولا لقاء حسنا ولا إقبالا . وأنه أنس منه الجفاء لمصر وسلطانها وإضرار العداوة وحب الأذى . وقد

وقد أرسله السلطان قايتباي إلى الملك رستم أحد أبناء حسن الطويل ملك العراقين وذلك في عام ٨٩٨ هـ ، وكان إذ ذاك أمير عشرة .
« ج ٢ ص ٢٧٩ »

١١ - الشيخ عبد المؤمن العجمي : وهو شيخ قبة السلطان بالمرج أرسله قايتباي إلى ملك بنى عثمان وفي صحبته هدية نفيسة بينها قاشن فاخر وسبع وزرافة وبيغاء حمراء اللون ، وقد عاد الشيخ عبد المؤمن من وفادته تلك في المحرم عام ٩٠١ هـ . وقد نقل إلى السلطان أن ملك العثمانيين جبن وضعف عن الهجوم على مصر ..
« ج ٢ ص ٢٩٢ »

١٢ - غازي بك أخو قانصوه البرجي : وهو الذي صار بعد ملك الأمراء في عهد العثمانيين وترجمناه في باب أفذاذ الرجال ، كان قد أرسله الناصر بن قايتباي إلى ملك بنى عثمان رسولا عام ٩٠٣ هـ فتوجه إليه بعد قليل ، ثم عاد في عهد الظاهر قانصوه بن قانصوه بعد مقتل الناصر بن قايتباي ، وكانت عودته في شعبان عام ٩٠٤ هـ :
وقيل إن ملك العثمانيين أكرمه ، فلما بلغه مقتل الناصر أبعده من الكلام قارصه .
« ج ٢ ص ٣٣٢ ، ٣٣٩ ، ٣٥٤ »

٣ - قانصوه كرد : أحد الأمراء في عهد الناصر بن قايتباي ، وكان غازي ندارا ثانيا وأحد الأمراء الطليخانة ، وفي ربيع الأول عام ٩٠٥ هـ عينه السلطان قانصوه رسولا إلى سلطان بنى عثمان فخرج بعد مدة وجرى عليه أمور شتى .
« ج ٢ ص ٣٦٢ »
١٤ - تفرى بردى الترجمان : أرسله الغوري إلى بلاد الفرنجة في ذى القعدة عام ٩١١ هـ ، وأخذ معه كتابا إلى البترك لينع عبث الفرنجة بالسواحل ، ثم عاد بعد سنتين . واستخدمه السلطان في أمور شتى ، ووبخ بوساطته قناصل الفرنجة على مؤامراتهم عنده .

وفي ١١ المحرم سنة ٩١٧ هـ قبض عليه بتهمة أنه راسل الفرنجة بأمرار السلطان وبأنه يعد حملة عليهم ، وأفهمهم أن سواحل مصر خالية من الاستحكامات ولذا يستطيع التغلب عليها وأمتلاكها بسهولة ، وضبطت مراسلات بخطه في هذه الأمور .

وحقق معه بمحسوسها فأنكرها . ولكن السلطان وبخه توبيخاً شديداً ووضعه في الحديد ، وألقاه في السجن ، وصادر بتملكاته وراقب أهله وأولاده .

وتفرى بردى هذا غير تفرى بردى نائب الشام في عهد فرج بن برقوق ، والذي هو والد أبي المحاسن يوسف المؤرخ . « ج ٤ في التواريخ المذكورة »

١٥ - الأمير تمر باي الهندي : أرسله الغوري إلى الشاه اسماعيل بن حيدر الصفوي « الصفوي » متملك العراق . فظل لديه زمناً ثم عاد في ١٢ ربيع الثاني عام ٩١٨ هـ بعد نحو سنتين . وقيل إنه قاسى شدائد وأهوالاً كثيرة في سفارته تلك . فمات خيوله وجماعة من غلبانه ، ولم ينصفه الشاه اسماعيل ولم يكرمه ولم يقابله غير مرة واحدة ، ولم يكتب له رداعلى رسالة السلطان : بل أرسل محبته رسولا آخر من قبله . « ج ٤ في حواشي ربيع الثاني عام ٩١٨ هـ »

١٦ - يونس العادلي : أرسله الغوري إلى بلاد الروم حيث ملك ابن عثمان ، ليشتري له أخشاباً وحديدًا وباروداً . فلما بلغ ابن عثمان ذلك ، رد المال الذي حمله يونس العادلي . وأظهر استعداداه لتقديم هذه المشتريات هدايا من لدنه إلى سلطان مصر . وكانت عودة يونس في شهر رجب عام ٩١٦ هـ . وقد بر ابن عثمان بوعده إذ وصلت هذه الهدايا الثمينة في مراكب إلى مصر في شوال عام ٩١٦ هـ . « وقد ذكرت في باب الهدايا والتقدمات » .

وقد سافر يونس هذا مرة إلى سييى نائب الشام بصحبة ماماي الخازندار في ٦ جمادى الأولى عام ٩٢٠ هـ لخطبة ابنته لابن السلطان الغوري . ثم رجعا في ١٥ رمضان عام ٩٢٠ هـ بدون قبول لصغر البنت فسها كانت ٦ سنوات .

« ج ٤ في التواريخ المذكورة » .

١٧ - الطواشي بشير : أرسله الغوري إلى بلاد اليمن قاصداً إلى بعض ملوكها وإلى بعض ملوك الهند . لكي يتعاونوا جميعاً مع عسكره على قتال الفرنجة العابثين بسفن التجارة في المحيط الهندي . وذلك في ١٤ ربيع الأول عام ٩١٦ هـ على أثر حضور رسول الملك محمود شاه صاحب كنباية وآخرين من ملوك الهند يطلبون

سرعة تجهيز تجريدة ضد هؤلاء الفرنجة لكثرة عيهم ولأنهم أوشكوا أن يستولوا على بعض بلاد الهند . وقد عاد بشير الطواشي من وفادته في يوم الاثنين ٩ المحرم سنة ٩١٧ هـ فقابل السلطان وقدم إليه هدايا نفيسة قبلها منه وخلع عليه . « ج » في حوادث التواريخ المذكورة »

١٨ - الرئيس حامد المغربي : أرسله الغوري إلى بلاد العثمانيين ليشتري أخشابا وحبالا ومكاحل نحاسية . فلما بلغ ملكهم خبر مجيئه ، لقيه وأكرمه وأرسل صحبته عدة مكاحل نحاسية وحديدية وجملة من الأخشاب والحبال وغير ذلك من الأشياء المطلوبة ، وشحن جميعها في سفن إلى مصر وذلك في رمضان عام ٩١٨ هـ . « ج حوادث ٤ رمضان عام ٩١٨ هـ »

١٩ - الأمير أقبای الطويل : في ١٠ من القعدة عام ٩١٨ هـ ، خلع عليه السلطان الغوري خلعة وأرسله إلى السلطان سليم شاه ملك الروم بمناسبة توليه الملك ليمنته بذلك ، ولعقد أواصر صداقة جديدة بين السلطانين . فزل أقبای بعد الخلع عليه من القلعة في موكب حافل . ثم سافر في يوم الخميس ٢ جمادى الآخرة عام ٩١٩ هـ وخرج في ركب حافل مارا بداخل ميدان القلعة لير تحت الانتظار السلطانية . وقد عاد من سفارته هذه في ١٤ ربيع الآخرة عام ٩٢٠ هـ ومعه هدايا حافلة من السلطان سليم ومن نواب البلاد التي مر بها والحاضنة لسلطان مصر .

وأقبای الطويل هذا غير أقبای الطويل المذكور في باب أفذاذ الرجال والمتوفى عام ٩٠٥ هـ . « ج ٤ حوادث التواريخ المذكورة »

٢٠ - إينال باي دودار سكين . وجهه الغوري إلى بلاد الشام وبلاد الروم في ربيع الآخر عام ٩٢٠ هـ ، قاصدا ملك العثمانيين السلطان سليم لكي يتحسس الأخبار ويتلسس النوايا ، بمناسبة ماذح من الأنباء عن عزم السلطان سليم على البطش بالشاه إسماعيل الصوفي ملك العراقيين . وقد حددت له أيام معدودة للقيام بمهمته . وخرج مسافرا في ٢٢ جمادى الأولى عام ٩٢٠ هـ . ثم عاد في رجب من العام نفسه مكرما من ابن عثمان أكثر من إكرامه لأقبای الطويل . وقيل إن السلطان

سلم أرسل معه مكاتبة للسلطان الغورى وصفه فيها بصفات عظيمة مبالغاً في تعظيمه مظهراً في ثنايا ذلك ما عليه جنده هو من شدة وبأس . ولم يبال السلطان بذلك .

وقد أرسله السلطان مرة أخرى في شوال عام ٩٢٠ هـ إلى حلب ليعمل على تهدئة فتنة المماليك الثائرين بها . ولكي يكشف الأخبار عن أعمال العثمانيين . وقد عاد من إحدى رحلاته إلى حلب في ربيع الثاني عام ٩٢٢ هـ فأخبر أن السلطان سليم أهدى إليه هدايا وأنه يرغب في المصالحة وأنه بعث من لدنه سفيرا وهو مقيم بحلب لدى نائبها وقد منعه من المسير .

«جزء ٤ في التواريخ المذكورة ، وجزء ٣ ص ٣٠»

٢١- جانيه الخاصكي : أصله من ممالك قايقاي . ومن ذوى القول الراجحة . أرسله الغورى في المحرم عام ٩٢١ هـ إلى السلطان سليم ومعه مكاتبة يرد على مكاتبة وردت إليه منه مع قاصد خاص ، وهى خاصة بالمشاحة القائمة إذ ذاك بين على دولات نائب حلب وابن أخيه سوار - : وقد سافر في ٢٥ صفر عام ٩٢١ هـ . وعاد في جمادى الأولى عام ٩٢١ هـ وأخبر أن السلطان سلماً أكرمه . ولكن ذلك بعد أن أوقع عسكره بمسكر على دولات بحلب - . وقيل إن السلطان أرسله مرة أخرى إلى ملك التتار لمسائل تخص أقارب السلطان - . قيل فر على بلاد العثمانيين فقبضوا عليه وسلبوا ما معه من الهدايا وهموا بقتله ثم أطلقوا سراحه . فعاد إلى القاهرة في ١٦ شعبان عام ٩٢١ هـ وأخبر السلطان بضخامة عسكر ملك الروم السلطان سليم ، وأنه يجهز جنوداً برية في جهة حلب للزحف بها على مصر ، وأنه أعد ٤٠٠ مركب للهجوم على الإسكندرية ودمياط . فاضطرب السلطان بسبب أخباره .

«جزء ٤ حوادث التواريخ المذكورة»

٢٢- الأمير مغلباي دودار سكين : لعل هذا الأمير آخر سفراء الغورى إلى السلطان سليم ، فقد أرسله إليه عام ٩٢٢ هـ ومعه مكاتبة خاصة بالصلح المقترح بينهما . وكان الغورى إذ ذاك قد خرج إلى الشام وحلب لملاقاة العثمانيين . فبعث السلطان سليم إليه وهو في حلب وفداً من قبله يقترح عليه الصلح وعدم دخوله في النزاع

القائم بين السلطان سليم والشاه إسماعيل الصفوى ، وأظهر الوفد الخضوع والالطف للسلطان الغورى ، وكان هذا من قبيل الخداع والتثييط . فكان رد الغورى أن أوفد رسوله مغلباى إلى السلطان سليم مقترحا الصلح منخدعا بما اقترحه عليه وفد العثمانيين - فما كان من السلطان سليم إلا أن قبض على الأمير مغلباى وقيده بالحديد وآذاه ، وهم بشنقه - وكان الغورى إذ ذاك قد أطلق وفد السلطان سليم ولم يستبقه لديه حتى يعود رسوله - ثم شفع فيه بعض وزراء السلطان سليم ، فلم يعدم وحلقت لحيته ، وظل مهانا لديه ثم أطلقه ذليلا إلى سلطانة قائلا له : قل لأستاذك : يلاقينا على مرج دابق ، . ج ٣ ص ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٦ .

ب - من سفراء الدول إلى مصر

١ - فى عام ٦٥٨ هـ كان جند التتار بقيادة ملكهم هولكو قد بلغوا أطراف دمشق ونهبوا وقتلوا بعد أن أوقعوا من قبل بمدينة بغداد عام ٦٥٦ هـ - فلما بلغوا أطراف دمشق أرسلوا من قبلهم أمير اسمه كتيبغا فوز بك ، رسولا من هولكو إلى سلطان مصر المظفر قطز . ومعه رسالة تطلب إليه وإلى أهل مصر قاطبة الخضوع والتسليم للملك التتار ذاكر ما عليه جنده من قوة ، وما عليه المصريون من ضعف - وكان مع الأمير كتيبغا المذكور أربعة أمراء سواه . فتشاور السلطان قطز مع أمراءه ، فأجمعوا على قتال هولكو . ثم أمر السلطان المظفر بإعدام كتيبغا ومن معه . وسار لقتال هولكو . فتلاقى الفريقان بعين جالوت فى أرض كنعان وكسروا التتار كسرة شنيعة فى عام ٦٥٨ هـ . ثم هزموه مرة أخرى فى نيسان فى العام نفسه . (جزء ١ ص ٩٦ ، ٩٧) .

٢ - فى عام ٧١٢ هـ حضر إلى القاهرة رسل صاحب اليمن ومعهم هدايا نفيسة قبلها السلطان الناصر محمد بن قلاوون . (جزء ١ ص ١٥٧) .

٣ - فى عام ٧٨٨ هـ : حضر إلى الأبواب الشريفة - فى عهد برقوق - قاصد

صاحب ماردين وأخبر بأن خارجيا من التتار الجفطاوية يقال له تمرلك اقد استولى على البلاد وقد وصلت طلائع جنده إلى مدينة تبريز وخربها وقتل من أهلها آلافا مؤلفة - وهو يعني تيمورلك التترى - وأن القان أحمد بن أويس انتقل إلى بغداد وحصنها وأخذ حذره من تيمورلك . « ج ١ ص ٢٦٤ » .

٤ - في عام ٧٨٨ هـ أيضا حضر إلى القاهرة رسول من قبل القان أحمد بن أويس صاحب بغداد يخبر عن سلطان التتر تيمورلك أنه قد بلغ مدينة قريباغ ونهبها وسبي أهلها وطلب إلى السلطان برقوق أن يعد العدة ويأخذ حذره . « جز ١ ص ٢٦٥ »

٥ - في عام ٧٩٥ هـ وفد على السلطان برقوق رسول من قبل صاحب ماردين يدعى صفى الدين جوهررا وهو طواشي روى . يخبره أن تيمورلك قد ملك تبريز . ثم حضر بعده بقليل رسول آخر من قبل صاحب بسطام وأخبره أن تيمورلك قد ملك شيراز .

ثم وفد بعده رسول من نائب الرحبة يخبر أن القان أحمد بن أويس صاحب بغداد قد وصل إلى الرحبة هاربا من بطش تيمورلك الذى قد صادر أملاكه ونهب معظم بلاده بعد أن خدعه بمسول الكلام وأوفد إليه من يقول له إنه يرغب فى زواج ابنته . ففرح وثنى عزمه عن قتاله . وسرح جنوده الذين جمعهم لذلك . وكانت هذه خدعة من تيمورلك جازت على القان أحمد بن أويس . فسا لبث حتى أطبق عليه تيمورلك بخيله ورجاله فترك له البلاد وفر . ودخلت بغداد فى طاعة تيمور .

وبعد قليل وفد نائب حلب يخبر أن القان أحمد بن أويس قد بلغ حلب وأنه وافد على مصر . فاستعد السلطان للقائه وبعث إليه بالهدايا والمساعدات من مال وقاش وخيل وأمرأه .

ثم جاء رسول من ملك العثمانيين ومعه هدايا نفيسة وقد جاء يحذرا للسلطان

من بطش تيمورلنك ويطلب إليه الاستعداد والاحتياط والحذر . وطلب من السلطان أن يرسل طبيباً حاذقاً وضروباً من العلاج والدواء لمداواة الملك إذ كان يشكو ألماً في المفاصل ، ويظهر أنه كان مريضاً بالنتقرس ، فأرسل إليه السلطان الطبيب الرئيس شمس الدين بن صغير ومعه الأدوية والهدايا ومن هنا نعلم مقدار ما كانت عليه مصر من عظمة الجاه والعلم والفن إذ ذاك .

ثم وفد رسول من عند صاحب ماردين يخبر أن تيمولك قد ملك بلاد الأكراد وأنه بعث إلى البصرة أستاذه الملك محمود شاه لمحاصرتها وكان معه ابن تيمور ، فوقع بين العسكريين موقعة هائلة هزم فيها التتار وقتل الشاه محمود وأسر ابن تيمور . فطلب تيمور من صاحب البصرة إطلاق سراح ابنه فلم يعأ به وطلب إليه أن يطلق سراح أسرى البغداديين وابن القان أحمد صاحب بغداد فرفض تيمور وتوجه لغزو البصرة فأعجزه فصل الشتاء على بلوغ غايته .

« جزء ١ ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ »

٦ - وفي عام ٧٩٩ هـ حضر إلى السلطان برقوق رسول من تيمورلنك يطلب إليه إطلاق سراح أحد الأسرى المسمى « أطلش » فرفض السلطان حتى يطلق تيمور مالهديه من أسراه . « ج ١ ص ٣٠٦ » .

٧ - وفي عام ٨٠٣ هـ وفد في يوم الاثنين ٢٣ ذى الحجة رسول من قبل ملك العثمانيين صاحب بلاد الروم وهو بايزيد بن مراد بك . وفد إلى سلطان مصر فرج ابن برقوق ومعه هدايا للسلطان وللأمراء . وقد جاء مخذراً من تيمورلنك يخبرها بأنه جمع عدداً كبيراً من الجند الذي يخشى بأسه ويخاف قوته على مصر .

« ج ١ ص ٣٣٩ »

٨ - في عام ٨٣٦ هـ جاءت رسل إلى سلطان مصر الأشرف برسبای من قبل قرا ملك . فضعدها إلى القلعة وقدموا إليه هدايا ملكهم وفي عدادها امرأة منجبة وخروف بألبتين وخلعة للسلطان من الحرير المنذهب ، فاستأن السلطان بهذه الهدايا ، وفهم منها معاني أخرى مؤداها استنزاء قرا ملك بالسلطان . إذ فهم أنه يرى من

إهداء المرأة أن جنود السلطان كالنساء ينظرون في المرأة ، ومن إهداء الخروف أنهم أمامه كالنجاج ، ومن إهداء الخلعة أن السلطان من جملة نوابه . - ولهذا عامل السلطان رسل قرا ملك معاملة سيئة وتهكم بهم وأرجعهم إلى ملكهم ليلغوه أن يلاقيه على القرات ، أخذ السلطان بعد ذلك في إعداد العدة للقائه . وقد توجه فعلا إلى الديار الشامية فالخليفة فديار بكر وحاصر مدينة آمد ثم عاد بلا كثير طائل .

« ج ٢ ص ١٩ »

٩ - في عام ٨٥٧ هـ وصل القاهرة في شهر شوال رسول من لدن ملك بلاد الروم وهو سلطان العثمانيين محمد الفاتح بنى السلطان الأشرف إينال بفتح القسطنطينية . وقد زينت القاهرة وعم أهلها الفرحة لهذه البشارة . وعاد الرسول ومعه رسول آخر من لدن السلطان ليقدم التهئة بهذا الفتح العظيم . وهذا الرسول هو الأمير برسبای أمير أخور الذى ذكر في سفراء مصر . « ج ٢ ص ٤٤ »

١٠ - وفي جمادى الأولى عام ٨٦٠ هـ جاء الخواجا جمال الدين عبدالله القابوقى رسولا من لدن ملك بنى عثمان محمد الفاتح ومعه رسالة إلى السلطان إينال تتضمن ما تم له فتحه من البلاد فقال من سلطان مصر ما يليق به من إكرام وعاد ومعه رسول آخر هو قاقى باى اليوسفى المهندار ومعه هدايا إلى السلطان إلى محمد الفاتح . وقد ضافرا في شعبان . « ج ٢ ص ٥٤ ، ٥٥ »

١١ - وفي ذى الحجة عام ٨٦٠ هـ وفد إلى مصر قاصد جهان شاه ومعه هدايا نفيسة للسلطان إينال . وفي يده رسالة يشكر فيها الشاه إلى السلطان من حسن الطويل ملك العراقين ويشرح جوره عليه وأنه زحف على بلاده فرد السلطان بمكاتبة أخرى عليه . « ج ٢ ص ٥٦ »

١٢ - وفي شهر المحرم عام ٨٧٣ هـ جاء رسول من عند حسن الطويل ملك العراقين ومعه رسالة للسلطان الأشرف قايتباى يهنئه فيها بالملك وبصحبته هدايا قيمة وعاد بعد مدة . « ج ٢ ص ١٠٠ ، ١٠٢ »

١٣ - وفي شهر رجب عام ٨٧٣ هـ وفد رسول آخر من قبل حسن الطويل

ملك العراقيين ومعه هدية قيمة للسلطان الأشرف قايتباي وفي صحبته رسالة ضمنها ما أفاء الله عليه من قلاع وحصون . وفيها يتملق السلطان ويتودد إليه ويظهر خضوعه كأنه نائب عن السلطان في بلاده . فأكرم السلطان وفادته وأذن له بالسفر وكان هذا خداعا من حسن الطويل لأنه أظهر غير ما أبطن . « ج ٢ ص ١٠٦ »

١٤ - في شهر رمضان عام ٨٧٤ هـ وفد إلى السلطان قايتباي رسول من لدن «سوار» ملك الأبلستين ليعرض عليه الصلح - وكانت العلاقات قد فسدت بينهما - وكان مع القاصد هدية ومكاتب مضمنة شروط الصلح - ومن بينها أن يكتب السلطان تقليدا له بإمارة الأبلستين وأن ينعم عليه بتقدمه ألف مجلب . وإن رضى السلطان بذلك يسلم سوار مدينة « عيتاب » إلى السلطان ، - وقد رفض السلطان هذه الشروط وطال بينه وبين الرسول بأمد المفاوضة دون طائل . وعاد الرسول دون جدوى . « ج ٢ ص ١١٢ »

١٥ - في شهر المحرم عام ٨٧٥ هـ وفد رسول من لدن حسن بك الطويل ملك العراقيين ومعه مكاتب يذكر فيها أنه قتل عددا من أولاد تيمور لنك وملك بلاده . « ج ٢ ص ١٢٢ »

١٦ - وفي شهر المحرم عام ٨٧٥ هـ أيضا جاء رسول من لدن ملك بنى عثمان يخبر السلطان بما فتح من بلاد «القرنجة» و«البنادقة» . « ج ٢ ص ١٢٢ »

١٧ - في شهر جمادى الآخرة من عام ٨٧٦ هـ قدم قاصد من لدن صاحب بلاد الهند الملك غياث الدين ومعه هدية من الملك إلى السلطان قايتباي ، وهدية إلى الخليفة المستنجد بالله يوسف . وأرسل يطلب من الخليفة أن يكتب له تقليدا بولايته على إقليم الهند عوضا عن كان قبله من ملوكها . فأكرم السلطان وفادته وأهدى إلى الرسول خلعة . وكتب له الخليفة التقليد المطلوب . « ج ٢ ص ١٣١ »

١٨ - وفي ذي القعدة عام ٨٧٦ هـ جاء رسول من لدن حسن الطويل ومعه مكاتب تضمنت أمورا لم ينشرح لها السلطان . « ج ٢ ص ١٣٤ »

١٩ - وفي ذي القعدة عام ٨٧٧ هـ جاء رسول من لدن ملك بنى عثمان - وقد

وفد من ناحية البحر - فأكرمه السلطان . وعرض على السلطان مكاتبه أرسلها حسن الطويل إلى ملوك الإفرنج بحرضهم على سلطان مصر وملك بنى عثمان . ليهجموا عليهما من البحر ، وهو - أى حسن الطويل - يهجم من البر . - وقد ضبطت هذه المكاتبه مع رسول حسن بك الطويل الذى قبض عليه فى أثناء سفره إلى بلاد الفرنجة بحرا . - ثم إن الرسول أقام ودحا من الزمن مكرما ثم خلع عليه السلطان خلعة وأذن له فى السفر . « ٢٠٥ من ١٤٥ » .

٢٠ - فى المحرم عام ٨٧٩ هـ قدم رسول من حسن الطويل ملك العراقين ومعه رسالة إلى السلطان قايتباى يعتذر فيها عما صدر منه . فأكرمه السلطان وعفا عما سلف ، وكانت المنازعات مستمرة فيما بينهما . « ٢٠٥ من ١٥٠ » .

٢١ - وفى ربيع الثانى عام ٨٧٩ هـ وفد على السلطان قايتباى مبعوث من قبل ملك الشانين ومعه رسالة من ملكه يشفع فى « إينال الحكيم » وكان السلطان قد غضب عليه ففر إلى بلاد الروم فقبل السلطان شفاعته وأكرمه وفادته وخلع عليه خلعة وأقام بمصر زمنا ثم عاد إلى بلاده . « ٢٠٥ من ١٥١ » .

٢٢ - وفى شهر جمادى الأولى عام ٨٧٩ هـ وفد إلى السلطان قايتباى رسول من ملك الهند ومعه هدية إليه ومن بينها سبع عظيم الخلفة وخجمة كبيرة نفيسة غريبة الصنع . فأكرمه السلطان . « ٢٠٥ من ١٥٢، ١٥٣ » .

٢٣ - فى صفر ٨٠٢ هـ وفد رسول من لدن ملك بنى عثمان ومعه رسالة إلى السلطان قايتباى فأكرمه ورد على رسالته وسافر إلى بلاده بعد أيام . « ٢٠٥ من ١٢٧ » .

٢٤ - فى شعبان عام ٨٨٤ هـ حضر قاصد من عند بعض ملوك الهند صحبة أبى الفتح نائب جدة ومعه هدية نفيسة للسلطان . « ٢٠٥ من ١٩٠ » .

٢٥ - وفى المحرم عام ٨٨٦ هـ وفد قاصد من ملك الحبشة فأقام له السلطان قايتباى موكبا بالحوش واستقبله استقبالا حافلا وأكرمه . وسبب وفادته أنه جاء يطلب إلى بطرك القبط أن يولى عنه نائباً فى بلاده . « ٢٠٥ من ٢٠٤ » .

٢٦ - وفى رمضان عام ٨٨٦ هـ جاء موفد من لدن يعقوب بن حسن الطويل

ملك العراق ومعه مكاتبة إلى السلطان قايتباى يعتذر فيها عما وقع من بابندر - وهو أحد نوابه ، وكان قد آذى جنود السلطان وقتل بعض أمرائه ومنهم الأمير يشيك - فغضب السلطان على الرسول تسرع بابندر بما قام به من الأعمال . ثم ظل الرسول زمناً بمصر وعاد إلى بلاده مكرماً . « ج ٢ ص ٢١٠ » .

٢٧- في شهر ذى القعدة عام ٨٩٢ هـ جاء قاصد من ملك الغرب صاحب الأندلس ومعه مكاتبة يطلب فيها إلى السلطان قايتباى معونة عسكرية لمساعدته في قتال الفرنجة الذين حاصروه وحاصروا مدينته غرناطة وأشرفوا على امتلاكها - وصاحب غرناطة هذا هو أبو عبد الله آخر ملوكها من بنى الأحمر ^(١) .

وقد رأى السلطان أن يعاونه عن طريق آخر وذلك أنه بعث إلى القسوس الفرنجة المقيمين بجهة القمامة بالقدس - وهي تابعة لمصر وهم يعتبرون من رعاياها - أن يرسلوا رسالة على يد قسيس منهم ومن كبارهم إلى ملك نابلى ليراسل بدوره صاحب أشيلية ، وهو الذى يحاصر مدينة غرناطة ، ليفك عنها الحصار ، وإلا أساء السلطان معاملتهم - أى معاملة القسوس الفرنجة المقيمين فى بلاده - ويمنع جميع طوائف الفرنجة من الدخول إلى القمامة ويهدمها .

وقد تم إرسال هذه المكاتبات كلها ولكنها لم تفد شيئاً وملك الفرنج مدينة غرناطة . « ج ٢ ص ٢٤٦ » .

٢٨- في شهر رجب عام ٨٩٣ هـ وصل إلى مصر قاصد ملك الفرنج الانكيزوس من بنى الأصفر وصحبته هدية حافلة للسلطان فأكرمه وأزله فى مكان أعده له .

« ج ٢ ص ٢٥٢ »

٢٩- فى جمادى الآخرة عام ٨٧٩ هـ . قدم قاصد من عند داود باشا وزير ابن

(١) ذكر الأستاذ عبد الله نمان فى كتابه مصر الإسلامية هذه الواقعة فى الفصل السابع من الكتاب الثانى ، وحقها ، وخلس بأن صاحب الأندلس هو الزغل ملك وادى آش . لا أبو عبد الله ملك غرناطة

عثمان يشير على السلطان بأن يبعث قاصدا إلى ملك بني عثمان للمفاوضة في الصلح بينهما - وكانت المنازعات قد بدأت بين الطرفين - فأجاب السلطان بأنه إذا أطلق تجار الماليك الذين أسرم لديه ، وبعث مفاتيح القلاع التي أخذها يكاتبه في أمر الصالح ، وبعث إليه بمن ينوب عنه في مفاوضته - (ج ٢ ص ٢٦٠) .

٣٠ - وفي جمادى الآخرة عام ٨٩٦ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد من عند ملك العثمانيين في حجة ماماي الخاصكي الذي أوفده السلطان إليه منذ آمد ، وكان هذا القاصد من أجل قضية ابن عثمان تولى القضية بمدينة بروسة ، وهو من أهل العلم ويدعى الشيخ علي جلبي . فبعد إلى السلطان بالقلعة فأكرمه وبالغ في تعظيمه جدا . وأحضر معه مفاتيح القلاع التي استولى عليها ملكه فسلبها إلى السلطان ، وكلبه في المصالحة . (ج ٢ ص ٢٧٠) .

٣١ - في رجب عام ٨٩٨ هـ جاء رسول من عند رستم بن قرا ملك صاحب العراقين . (ج ٢ ص ٢٧٩) .

٣٢ - في جمادى الأولى عام ٩٠٨ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد ابن عثمان ملك الروم وصحبته هدية حافلة للسلطان الأشرف النوري . فأقام له السلطان موكبا عظيما بالحوش وكان يوما مشهودا .

وفي جمادى الآخرة دعا السلطان هذا القاصد في الميدان تحت القلعة حيث أقيمت حفلة رعى الشباب من فوق الخيل وقام بذلك عدة من الماليك . ونصب لهم هناك القبق (١) يرمون عليه ، وأحرق النفط بالنهار وكان يوما مشهودا .

وفي يوم الثلاثاء ١١ من رجب أقام الأمير أزدمر الدوادار مأدبة حافلة لهذا القاصد في جهة قناطر العشرة . وكان الزمن ربيعا . ولبتا مدة ثم عادا . - ثم أقام

(١) القبق : لعبة كانت تعرفه جندياته . وهي سمود طويل من الخشب ، في رأسه حطب من ذهب أو فضة على شكل قرعة صلبة - كرة - بها حام . يتبارى اللاعبون بقتلها وهم فوق الجياد « السلوك » ص ١٨٠ - هامش .

السلطان حفلة أخرى في ميدان القلعة حضرها القاصد ، ثم خلع عليه خلمة وأذن له في السفر . . . ج ٤٦ ، ٤٤٧ .

٣٣- وفي ذى القعدة عام ٩١٢ هـ وفد رسول ملك الروم ابن عثمان فأكرمه السلطان وأحسن إليه . . . ج ٤٨ ، ١٠٧ .

٣٤- وفد في رمضان عام ٩١٤ هـ رسول من عند مراد خان بن يعقوب صاحب بغداد ، يستمد المعونة من سلطان مصر الغورى لسيده . وذلك لأن الشاه إسماعيل بن حيدر الصوفى المتغلب على ملك العراق طغى على بلاده وسلب منه بغداد . فأكرمه السلطان ولبت في رجاؤه زمنا ، غير أنه لم يجب طلبه . ورجع في ذى القعدة عام ٩١٤ هـ . . . جزء ٤ في التواريخ المذكورة .

٣٥- في ذى القعدة عام ٩١٤ هـ وفد رسول من لدن صاحب قبرص ومعه هدايا للسلطان قيمة فأكرمه ورحب به . . . ج ٤٩ في حوادث ذى القعدة المذكور .

٣٦- في يوم السبت ١٦ ذى القعدة عام ٩١٦ هـ وصل إلى القاهرة رسول من لدن ملك الروم ابن عثمان إلى السلطان الغورى ومعه مكاتبة . فلما ناولها للسلطان قبلها ووضعها على يمينه ، ثم ناولها إلى كاتب السر قراها بحضور السلطان والأمراء ، وكانت ألفاظها منمقة مزوقة بضروب من البديع ونعت السلطان فيها نعتا رفيعا . وكان من مضمونها أنه بعث إلى السلطان عدة مراكب فيها زردغاناه ، فإيدرى هل وصلت إلى السلطان أم لا . وأخبر فيها أن الرئيس كالا المجاهد قد غرق ولا يعلم له خبر . فأقام القاصد بمصر أياما فلا تمل ، وكتب له الجواب عن مكاتبته وأذن له في السفر إلى بلاده . . . جزء ٤ في حوادث ذى القعدة المذكور .

٣٧- وفي صفر عام ٩١٦ هـ جاء إلى مصر رسول من قبل الملك محمود شاه صاحب كنيابة ومن قبل بعض ملوك الهند ، يستحثون سلطان مصر الغورى لإرسال حملة لتأديب الفرنجة العاشين في المحيط الهندى الذين أوشكوا يستولون على البلاد . فأرسل السلطان رسوله بشير العواشى إلى ناحية اليمن لتدبير هذا الأمر . وقد عاذا

بشير المذكور في المحرم سنة ٩١٧ هـ . دج ، في حوادث الشهرين المذكورين .

٣٨ - في يوم السبت ١٨ ربيع الأول سنة ٩١٧ هـ دخل إلى مصر قاصد إسماعيل شاه الصوفي . فأنزل في بيت قاني بأى سلق الذى يقع فى رأس الزملة عند سوق الجلاق . فاستقر هناك إلى أن يؤذن له بمقابلة السلطان . وفى يوم قدومه رسم السلطان لبعض الأمراء والجند بالخروج إلى المطرية للقائه . فخرجوا وخرج الجمل الغفير من المعسكر حتى ضاق بهم رحب الفضاء .

قال ابن إياس : « ولكن وقع من السلطان فى ذلك غاية الخفة وهو أنه نزل وسار إلى نحو المطرية ليرى القاصد والعسكر عن بعد . فانعقد الغبار هناك فلم يتمكن السلطان من رؤية القاصد ولا العسكر فرجع إلى القلعة » .

وفى ٢٠ منه أقام السلطان موكبا بالحوش وجلس على المصطبة وحفت به الأمراء والجنود وهم بالآلات الحرب والسلاح . ثم أذن للقاصد بالطولع إلى القلعة ، فلما مثل بين يدى السلطان قبل الأرض ثم رجل السلطان ، ثم قرئت مكاتبتة بين يديه ، ثم قدم إليه مصحفا شريفا وسجادة صلاة . فقبل السلطان المصحف ، ثم أحضر القاصد صندوقا لطيفا ففتح بين يدى السلطان فوجد به رأس شخص من ملوك التتار يسمى « أزيك خان » وهو الذى قتله الصوفى ، فرسم السلطان بدنه . ثم أحضر القاصد قوسا عريضة مزينا بشير ، فكسرها أحد الزردكاشية بعد نزول القاصد . ثم نزل القاصد بعد هذا الموكب والمجلس العظيم .

وفى يوم ٢٨ منه دعا السلطان هذا القاصد إلى ميدان القلعة وشاهد ضرب الكرة إذ اشترك السلطان هو والأمراء المقدمون فيه ، ثم خلع عليه السلطان سلاريا من الصوف .

وقد كان السلطان حذرا فى معاملة هذا القاصد ، إذ وكل به وعين معه جماعة من الخاصكية تمنع وصول الناس إليهم وحرم عليهم المشى فى الأسواق . وكان القاصد مع ذلك يتردد على حفلات السلطان بين الغيبة والغيبة .

ثم أذن له السلطان في العودة إلى بلاده يوم الجمعة ٦ جمادى الأولى عام ٩١٧ هـ.
ولم يعلم بماذا أجابه السلطان على جواب البيتين اللذين قيل إن مولاه اسماعيل شاه
أرسلهما إليه وهما :

السيف والخنجر ربحاننا أف على النرجس والأس
مدامننا من دم أعدائنا وكأسنا جمجمة الرأس

مع العلم بأن نحواً من مائتي شاعر من شعراء مصر عارضوا هذين البيتين
بمقطوعات طريفة (١) .

٣٩- في يوم الخميس ١٩ جمادى الأولى عام ٩١٧ هـ حضر إلى الأبواب
الشريفة قاصد من ملك الكرج ، فأكرمه السلطان وقرأ مطالعته وأقام له موكبا
بحوش القلعة وجلس على المصطبة التي أنشأها عوضاً عن الدكة .

« ج ٤ في حوادث جمادى المذكورة »

٤٠- في يوم الخميس ٢٢ ذى الحجة عام ٩١٧ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة
قاصد على دولات ومعه هدايا ، انظر وصفها في باب الهدايا من هذا الجزء من
كتابتنا . - وقد أكرمه السلطان ودعاه إليه مراراً في الميدان . وألبسه سلازياً
بصور من ملابسه ، وأذن له في السفر في ٤ المحرم عام ٩١٨ هـ .

« ج ٤ في حوادث النواريح المذكورة »

٤١- في يوم الاثنين ١١ المحرم عام ٩١٨ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قصاد
من عند ملوك الفرنجة الفرنسيين وكانوا من رؤساء الفرنجة ، فبعث إليهم السلطان
خيولاً يركبونها من يولاق إلى القلعة ، ثم أقام لهم موكباً حافلاً بالحوش بالقلعة ،
وزين باب الزردخان وغيره بالصنائج واللبوس وآلات السلاح .

وكان القصاد نحو خمسين رجلاً وقد بدأوا في أحسن زينة وأشرف لباس ، ومن
بينهم اثنتان برزا أجمل من سواهما بثياب مخملة كفورية وفي رقبتهما سلاسل من

(١) ولهم هذه الأبيات في الجزء الرابع من كتابنا هذا .

ذهب « فلما مثلوا بين يدي السلطان أبدوا عظمة ، ثم قبلوا له الأرض ، وقرئت كتبهم ثم انصرفوا ، ونزلوا في بيت كاتب السر أبي بكر بن مزهر ببركة الرطلى وفي صحبتهم نائب المهندار . وساروا في وسط القاهرة وكان يومهم مشهودا . . وقد قدموا إلى السلطان هدايا حافظة . وتجدد وصفها في باب ذكر الهدايا من هذا الجزء » .

« ج » في حوادث التاريخ المذكور .

٤٢ - في الاثنين ٢٣ صفر عام ٩١٨ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد ملك البنادقة فكان له يوم مشهود . وأقيم له موكب شائق . وزين لأجله باب الزردغاناه باللبوس والسلاح . ثم صعد القاصد وفي صحبتته هدية حافظة « انظر باب الهدايا » . وكان راكبا فرسا وأمامه سبعة من أخصائه يركبون الخيول مثله . وبقية حاشيته مشاة ، وعدد الجميع نحو رجلا . وكان القاصد مسنا ذا ذقن بيضاء ، وهو بدين يبدو عليه الوقاء ، وعليه خلعة مذهبة من الحرير الأصفر .

فتلقاهم السلطان بالقلعة ثم غادروها إلى مكان أعد لإقامتهم . وأشيع أن القاصد جاء يسعى لدى السلطان في أن يأمر بفتح القمامة بالقدس الشريف . وكان السلطان قد أغلق بابها ومنع الفرجة من الدخول إليها بسبب ما تقدم منهم - وقد سافر القاصد في ٢٦ ربيع الآخر عام ٩١٨ هـ .

« ج » التاريخ المذكور .

٤٣ - في ١٢ ربيع الثاني سنة ٩١٨ هـ رجع عمر باي الهندى رسول السلطان إلى الشاه إسماعيل وكان غير مكرم منه . وكان في صحبتته قاصدان : أحدهما قاصد من الشاه إسماعيل ، والثاني من ملك الكرج . فأمر السلطان الزينى بركلت بن موسى المحتسب بأن يلاقيهما ويقيم لهما الموائد . فصعد بالامر ومد لهما بالخانكة . وكان مع قاصد إسماعيل شاه نحو مائة رجل ، وقيل كان فظا شديدا البأس . ونزل في بيت قاضي باي سلق في رأس الزمعة عند سويقة عبيد المنعم .

وفي يوم ١٤ منه صعد هذا القاصد إلى السلطان بالقلعة في موكب حافل بالحوش ،

جلس السلطان إلى المصطبة ونصب السحابة الزركش ، وحوله الأمراء المقدمون
وعديد من الجنود ، وزين باب الزردغاناه بالأسلحة والأعلام. وقد خرج القاصد
إلى السلطان من بيت قاني باى سلق وفى صحبته أزدمر المهمندار والأمير كرتباى
والى القاهرة . ثم مثل بين يدى السلطان وقدم إليه هدايا حافلة فكانت نحواً من
أربعين حملاً ، ومنها من الفهود سبعة - وكانوا تسعة فئات اثنان - وقد شقت
طريقها فى القاهرة وعليها جلال من الحرير ، ومن بينها هدايا كثيرة أخرى . وانظر
باب الهدايا .

• ومثل القاصد بين يدى السلطان ومعه رجل آخر وكلاهما من أعيان الأمراء
لدى الشاه إسماعيل الصوفى . فقبلا الأرض ثم ركبة السلطان ثم قدما إليه مكاتبة
مولاهما فخرت فوجد فيها ألفاظ جافة نائية وكلام فج فلم يرشح السلطان إليه وبدا
الغضب على وجهه فكظمه . ثم نزل هذا القاصد من لدنه .

وفى عقبه صعد قاصد ملك السرج ومعه هدية حافلة بأثواب ثمينة وأقشة
غالية . وقد سافر هذا القاصد فى ٢٦ ربيع الآخر عام ٩١٨ هـ وقبل فى ١٠
جمادى الأولى .

أما قاصد الشاه إسماعيل فلبث مدة بمصر يحضر مع السلطان حفلات عدة .
وقد ورد السلطان جواب سيده بكلام يابس مثله . وكان ذلك بدءاً للوحشة بين
العاهلين . « ج ٤ حوادث التواريخ المذكورة »

٤٤ - فى يوم الاثنين ٢٨ ربيع الآخر عام ٩١٨ هـ حضر قاصد ابن رمضان
أمير التركان ومعه هدية للسلطان حافلة . « ج ٤ فى حوادث اليوم المذكورة »

٤٥ - قال ابن إياس ماملخصه : « فى شهر ربيع الآخر عام ٩١٨ هـ أنه من
العجائب أن اجتمع عند السلطان نحو من أربعة عشر قاصداً . كل قاصد من لدن
ملك على انفراد . ومنهم : ١ - قاصد الشاه إسماعيل الصوفى ، ٢ - قاصد ملك
السرج ، ٣ - قاصد ابن رمضان أمير التركان ، ٤ - قاصد من لدن ابن عثمان ،

٥ - قاصد من عند يوسف الصوفي أحد أمراء التركان ، ٦ - قاصد من عند صاحب تونس ملك الغرب ، ٧ - قاصد من مكة ، ٨ - قاصد من عند الملك محمود ، ٩ - قاصد ابن ذرغل من أمراء التركان ، ١٠ - قاصد نائب حلب ، ١١ - قاصد من ملك الفرنج ، الفرنسية ، . وغير هؤلاء . « ج » في التاريخ المذكور »

٤٦ - في الخميس ٢ رمضان عام ٩١٨ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد من عند ملك الهند وصحبته فيلان عظيمان في الخلفة وعليهما « بركستوانات »^(١) مخلاة بمسامير كف ، وعلى ظهرهما صنماجق وعلى أنيابهما خلوف من الفولاذ ، فرجت لهما القاهرة . ولما دخلوا على السلطان عرضا عليه في الميدان وأمامهما الطبل والزمر . « ج » في التاريخ المذكور »

٤٧ - في أواخر رمضان عام ٩١٨ هـ حضر الأمير حسين الذي وجهه السلطان إلى بلاد الهند لرد هبة الفرنجة فلقى الشدائد . وعاد بعد سبع سنوات تقريبا . وكان معه قاصد من قبل الملك المظفر شاه بن الملك محمود شاه صاحب كنيابة الذي توفي . وقد حضر قاصد المظفر ليكتب الخليفة تقليدا للمولاه بولايته . نخلع عليه السلطان وأكرمه . « ج » في التاريخ المذكور »

٤٨ - في ١٨ ربيع الأول سنة ٩٢٠ هـ حضر رسول من لدن سليم شاه بن عثمان ملك الروم . وكان السلطان بالميدان . فلما قرئت عليه مكاتبتة أشيع بين الناس أن السلطان سليما يرغب في قتال إسماعيل الصوفي ملك العراقيين . فبعث يخبر السلطان بذلك حتى يكون هو نا له ضد الصوفي . - وقد أذن السلطان الغوري لهذا القاصد في السفر يوم ٢٢ ربيع الثاني من العام المذكور ، فعاد معه إنثال باني دواذار سكين قاصدا إلى سليم الأول ليتجسس الأخبار . انظره في باب القصاد . « جزء » في التواريخ المذكورة »

٤٩ - في ٢٧ جمادى الأولى عام ٩٢٠ هـ وفد رسول من عند السلطان سليم

(١) البركستوانات : البروج .

الأول . وهو أحد الأمراء الأجلاء لديه . فزل في بيت الظاهر تبرغا جهة سوق السلاح ثم قابل السلطان في مستهل جمادى الآخرة عام ٩٢٠ هـ فأوكل له بالحوش وجلس على المصطبة ونصب على رأسه السحابة الزركشية ، وزين له باب الوردخاناه بالسلاح والصناجق ، واصطفت الأمراء والعسكر بالحوش من غير شاش ولا قماش . ثم طلع القاصد ومعه أئدمر المهندار وجماعة من الرؤوس النوب ، فقدم هدية نفيسة إلى السلطان ، انظرها في باب الهدايا . وكان جميل الهيئة ومعه جماعة من العثمانيين ذور هينات جميلة ، فأكرمهم السلطان وقرأ مطالعتهم وانفض الموكب وكان يوما مشهودا .

وفي اليوم الثاني استدعاه السلطان وجلس معه في قصر المتياس ومد له هناك أسمطة حافلة .

وفي ١٢ جمادى الآخرة عام ٩٢٠ هـ ، وفد قاصد آخر من لدن السلطان سليم ، فلما وصل إلى الصاحلية سرقت منه أقشة في طياتها مكاتبة إلى السلطان . فغضب الثورى لذلك وأرسل إلى شيخ العرب بتلك الجهة أحمد بن بقر ، وشدد عليه في البحث عنها فبحث حتى وجدها وردت إلى صاحبها .

أما القاصد الأول فقد لبث مقبيا في مصر مكرما لدى السلطان . وأقيمت له حفلة في ٦ رجب عام ٩٢٠ هـ ولعب الرماحة أمامه بما أعجبه وملاؤه دهشة . وقد قصد السلطان من إقامتها أن يريه ما عليه جند مصر من قوة ومهارة وفروسية :

وبعد أن أذن له في السفر عاد فاستهمله وعافه عنه ، حتى يشوب رسول السلطان إينال ، لأن الأخبار كانت تتوالى بأشواقك السلطان سليم مع الشاه لإسماعيل الصفوى . ومن الغريب أن القاصد الثاني عرض على القاصد الأول - إذ أنهما من جهة واحدة ووفدا في زمنين متقاربين - فأبكره ولم يعترف به ! فما كان من السلطان إلا أن خلع عليه وأنعم بمال ، فسافر وهو ورفيق له فاختلفا في الطريق على اقتسام المال ، فما كان من رفيقه إلا أن عاد إلى السلطان وأعلمه أن هذا القاصد جاسوس من قبل حسن بن أحمد بك العثماني الذي فر من وجه السلطان سليم إلى إسماعيل الصفوى ،

وأنه جاء إلى مصر ليستمع الأخبار . فرسم السلطان برده ، فقبض عليه وسجن بالمقشرة وأشهر في القاهرة وهو مقيد بالحديد وحملة المشاعل تنادى عليه : هذا جزاء من يكذب على الملوك .

أما القاصد الأول فإن السلطان أذن له في العودة إلى بلاده في ٢١ رجب عام ٢٩٠ هـ بعد أن خلع عليه ومن معه ، فأخذ في الاستعداد ثم عاد .

« ج » في التواريخ المذكورة »

٥٠ - في يوم الخميس ٢٩ رمضان عام ٩٢٠ هـ حضر سفير من لدن السلطان سليم الأول العثافي ومعه مطالعة تتضمن أخبار انتصاره على الشاه إسماعيل ملك العراقيين . وتصف له أخبار هذه المعركة بما يشيب الولدان . فقرئت هذه المطالعة ثم خلع السلطان على القاصد ، ولم يأمر حين لقائه بالزينة كما أمر في المرات السالفة . ثم أذن له في السفر في أواسط شوال سنة ٩٢٠ هـ ومعه جواب تهنئة .

« ج » في التواريخ المذكورة »

٥١ - في أوائل المحرم عام ٩٢١ هـ حضر قاصد من عند السلطان سليم ومعه مكتبة مضمونها أن شخصا من أبناء الشاه سوار وقع بينه وبين عمه على دولات نائب حلب ، شجار بسبب بلاد آبيه ، فخلق من عمه وتوجه إلى السلطان سليم ، فتعصب له ، وأرسل إلى السلطان الغوري يطلب إليه أن يعطي ابن سوار أملاك آبيه التي استولى عليها عمه على دولات . فلم يوافق السلطان الغوري على ذلك ، وغضب أشد الغضب وتشاور مع الأمراء في الأمر خوفا من الفتنة أن تنسع ، ويزيد الخلف بينه وبين السلطان سليم .

وأشيع أن السلطان سليما أورد في مكانته المذكورة ألفاظا تتم عن عظيمته وتثعربسطوته ، إذ كان يقول عن نفسه : « مقامنا الشريف ، ويقول عن السلطان : « مقامكم العالي » . وهذا التغاير نوع من الاستخفاف ...

وقد ورد بعد ذلك رسول من لدن على دولات ومعه مكتبة أكد فيها للسلطان الغوري ما وقع بينه وبين ابن أخيه سوار عما ذكرته مكتبة السلطان سليم

وذكر تمصّب هذا السلطان لابن سوار ضده . « ج ٤ »

٥٢ - في يوم الاثنين ٢٥ جمادى الآخرة عام ٩٢١ هـ حضر رسول من لندن السلطان سليم ومثل بين يدي الغوري سلطان مصر وهو جالس في الحوش على المصطبة ، فقدم إليه علبة وجدها رأس على دولات نائب السلطان ، ورأس ولده ووزيره . فشق على السلطان رؤيتها ، وقال للقاصد : « هل هذه رؤوس ملوك الفرنجة انتصر عليهم حتى أرسلهم إلى » . ثم أمر بدفنها وأذن للقاصد بالمسير إلى بلاده ، في ١٠ رجب عام ٩٢١ هـ وكتب له مجاورة عن مكاتبته .

أقول إن هذه السفارة والتي قبلها نبي . عن الأسباب التي كان يخلفها السلطان سليم لإيقاع النزاع بينه وبين سلطان مصر ليتخذ منها ذريعة إلى غزوها في المستقبل . « ج ٤ حوادث التواريخ المذكورة »

٥٣ - في المحرم عام ٩٢٢ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد من عند سوار شاه الذي تمصّب له السلطان سليم ضد أخيه على دولات . وأحضر محبته هدية للسلطان وكانت غير نفيسة ، وهي خمسة عشر جملاً بخانيا وثمانى أكاديش وستة بغال . وقد أرسله ليترقى للسلطان ومعه مطالعة يبنى من وراثتها رضاه . فاستشار السلطان الأمراء في قبول الهدية أو ردّها فاجتمعوا عنده وظلوا إلى قبيل الظهر ولم يعلم أحد ما تم عليه اتفاقهم . « جزء ٣ ص ٥٠ »

٥٤ - وفي يوم الخميس ٢٥ من شهر المحرم عام ٩٢٢ هـ حضر قاصد من لندن ملك الحبشة . وكانت قصاد ملوك الحبشة لهم مدة طويلة لم يدخل منهم أحد إلى مصر . وقد دخل قاصد من عند ملك الحبشة في دولة الملك الأشرف قايتباى وذلك في عام ثمانين وثمانمائة ، ومن بعد ذلك لم يدخل قاصد من عند ملوك الحبشة سوى هذا القاصد لأن بلادهم بعيدة وأعمالهم في مصر قليلة متضائلة .

فلما حضر هذا القاصد أقام له السلطان موكباً بالحوش من غير شاش ولا قاش ، كما تقدم للأشرف قايتباى . فجلس السلطان على المصطبة التي أنشأها بالحوش ،

ونصب على رأسه السحابة الزركشية واصطفى الأمراء يمينه وشماله ، كل واحد منهم في منزلته . ثم طلع القاصد من الصليبة وفي صحبته الأمير أزدر المهندار ، وجماعة من الروس النوب ومن المالك السلطانية وغير ذلك . وكان مع القاصد من أعيان أمراء الحبشة نحو خمسة رجال ، والبقية ليسوا من الأعيان . وفيهم من هو عريان ومكشوف الرأس وعلى رأسه شوشة شعر . وفيهم من في أذنه حلق من الذهب متسع الدائرة ، قدر القرصة ، وفي أيديهم أساور ذهبية . وأما القاصد الكبير فذكروا أنه كان ابن أمير كبير في الحبشة . وقيل إن أباه هو الذي حضر في دولة الملك الأشرف قايتباي . وكان على رأسه خوذة من الحرير النخل الأحمر وفيها صفائح ذهبية وبعض فصوص . وعلى رأس الخوذة درة كبيرة غالية وعليه علامات من الحرير الملون . وعلى بقية أمراء الحبشة علامات وشايات ، من الحرير الملون وعلى رؤوسهم وشود ، من الحرير . وذكروا أن فيهم شخصاً شريفاً . وكان مجموع هؤلاء الأجناس الذين حضروا إلى مصر نحو ستائة إنسان وأرسلهم مشدودة بمواضع كهية الدنانير . وكان معهم حيناً خرجوا من الصليبة طبلان على جمل يضربون عليهما ، وكان في صحبتهم البترك وعليه برنس من الحرير الأزرق . وكانت أعيانهم راكبة فوق الخيول ، والبقية مشاة . فصعدوا إلى القلعة من سلم المدرج . والبترك ماش أمامهم . فلما وصلوا إلى باب الخوش كان في صحبتهم كرامى عالية من الحديد وأرادوا الجلوس عليها بحضرة السلطان ، فلم تمكنهم روس النوب ، من ذلك . - ووقع في أيام الملك الأشرف قايتباي مثل ذلك فما أجلسهم .

فلما بلغ القاصد الخوش قبل الأرض ثم لما وصل إلى أوائل البساط السلطاني قبل الأرض هو ومن معه من أعيان الحبشة . ولم يدخل معه أمام السلطان غير سبعة أنفس . ولم تدخل البقية . فلما اقتربوا من السلطان قبلوا الأرض بين يديه ثلاث مرة . ثم قدموا كتاب ملك الحبشة - قيل إنه كان في غلاف من فضة ، وقيل من ذهب - فلما قرئ على السلطان سمع منه ألفاظاً حسنة وتعارفياً له وعلم منه أن ملكهم أوفدهم إلى مصر مستأذنين في زيارة القمامة بالقدس ، وظلوا واقفين

زمننا حتى قرىء مكتوبهم ، ثم انصرفوا ونزلوا من القلعة وأمر لهم السلطان أن يقيموا في ميدان المهارة الواقع قرب قناطر السباع حتى يسافروا . وضربت لهم به خيام ونيطت حراسهم بعدد من الجند المالك .

ولما عادوا من لندن السلطان عاد في صحبتهم الوالى والمهندار وجماعة رموس النوب ، فزالوا في صحبتهم حتى أوصلوهم إلى حيث ينزلون . وقيل إن هذا القاصد أمضى تسعة أشهر مسافرا حتى بلغ مصر .

ثم إن القاصد بعث إلى السلطان بهدية لم تكن حافلة - قيل قومت بنحو خمسة آلاف دينار أو دون ذلك . فلما شهدها السلطان وبخ من قدم بها إليه . . وأطلعه على قوائم هدايا ملوك الحبشة إلى ملوك مصر في العصور السالفة كالآشرف برسباى والظاهر جقمق والآشرف قايتباى وغيرهم وتواربها .

قال ابن إياس ماملخصه : « ولكن ضعف أمر ملوك الحبشة في هذه الآونة بالنسبة إلى ما كان عليه أسلافهم في قديم الزمان ، حتى نقل أحد المؤرخين أنه كان ملوك الحبشة على نواحى النيل ستون مملكة لا ينازع بعضها بعضا فيما بأيديهم من الأراضى ، وضعفوا الآن عما كانوا عليه . - وقد أرسل بعض ملوك الحبشة هدية للملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧١٢ هـ قومت بمائة ألف دينار أو أكثر حتى عدت من النوادر . »

وقد أقام قاصد الحبشة في الميدان ثلاثة أيام ثم سافر هو ومن معه إلى القدس ليؤدروا القمامة . ٥٣٧ ص ٩٨٤ .

٥٥ - في ربيع الثانى عام ٩٢٢ هـ أخذ السلطان الغورى يجمع جموعه ويعدّه للرحيل إلى الشام لقتال بنى عثمان . . وبينما هو في يوم من أيام ربيع المذكور جالسا بمخيمه إذ وردت عليه مطالعة من نائبه في حلب يخبره أن السلطان العثماني بعث إليه رسولا . وقد منعه النائب من المسير إلى مصر وأخذ الرسالة التي يحملها وبعث بها إلى السلطان . . !

اطلع السلطان الغورى على رسالة السلطان سليم فإذا بها عبارات رقيقة وأففاظ معسولة ومخاطبة بكلمة « ياوالدى » . وأنه يطلب إليه الدعاء له . وأنه ما زحف على بلاد على دولات إلا لبغية على ابن أخيه ، وأنه كان يثير الخلاف بين والد السلطان سليم والسلطان قايتباى ، وأنه كان جرثومة فساد فى مملكة سلطان مصر . وأن ابن سوار تحت أمر السلطان إن شاء أبقاه على ولايته أو عزله . وأنه ما منع تجار الممالك الجراكسة من جلب الممالك ومن مسيرهم إلى مصر ، بل هم الذين شكوا ما يصيبهم من الحيف والضر من جراء معاملتهم بالنقد المصرى . لذلك امتنعوا عن جلب الممالك الجند . وفى هذه الرسالة يبدى السلطان سليم استعداد له لرد جميع ما استولى عليه من ولاية على دولات

وقد سر السلطان الغورى من هذه الرسالة هو ومن معه من الأمراء وانشرحت صدورهم وأنسوا قرب الصلح وفض الحرب والعودة إلى الوطن .

قال ابن إياس : « وكان هذا كله حيل وخداع من ابن عثمان حتى يبلغ بذلك مقاصده . وقد ظهرت حقيقة ذلك فيما بعد » ٣٠٠ م .

٥٦ - فى جمادى الآخرة عام ٩٢٢ هـ كان السلطان الغورى قد رحل إلى الشام لحلب ، بمجيوشه الكثيفة لمحاربة السلطان سليم ، فلما بلغ مدينة حلب ودخلها وفد عليه فيها توا قصاد من لدن السلطان سليم على رأسهم قاضى عسكره واسمه « ركن الدين » ، وأحد أمرائه واسمه « قراجا باشا » . فلما ملوا بين يديه ، قيل إنه عاتبهم على ما صنعهم سيدهم من الإغارة على ممتلكات مصر واستيلائه على ولاية « على دولات » ، فقبلوا عتابه ، وأبدوا رغبة مولاهم فى مصالحة السلطان ، وأنه ينزل عند رأيه ، ويسير وفق مشيئته ، وأطلعوه على مكاتبتة إليه ويقول فيها له « ياوالدى » ، ويطلب إليه الدعاء له . كما يطلب منه ألا يدخل فى النزاع القائم بينه وبين الغشاه إسماعيل الصوفى ، وأطلعوه على فتوى من علماء العثمانيين بقتل هذا الشاه . وكما يطلب إليه أن يبعث له كبة من السكر والخلوى ، ويضمه أنه ما جمع جنوده إلا لقتال الصوفى وأنه متجه بها إليه .

فانخدع السلطان الغورى بكل أولئك وبعث إليه بمائة قنطار من
السكر والخلوى.....

قال ابن إياس ما مؤداه : « كل هذا كان خداعا ونميلا من السلطان سليم حتى
يثبط همة الغورى ويثنيه عن عزمه ويفت في عضده ويبعده عن فكرة القتال حتى
يكر عليه على حين غفلة . وقد جازت هذه الحيلة على سلطان مصر . إذ وقع في
جيشه الخلف والفتنة والحيانة وضاعت معنويته ، حتى كان لذلك أسوأ الأثر إذ
أدى إلى الهزيمة والاحتلال » « ٣٠٠ ص » .

الهدايا

ليس عجيباً أن تتبع الفصل السابق بفصل نذكر فيه الهدايا المتبادلة بين سلاطين مصر وغيرهم من ملوك وأمراء ونواب ، وذلك لشدة الارتباط بين الرسل والهدايا . إذ كان الغالب أن يحمل الرسول القادم من بلد هدية إلى سلطان البلد الذي يحميه .

وأكثر ما كانت هذه الهدايا المتبادلة من الأقمشة والأسلحة والخيول المطعمة والممالك والجواري وبعض حاصلات البلاد ، وبعض الأموال ، فإذا وفدت من ناحية العراق وفارس كان من بينها السجاجيد ، وإن وردت من ناحية الشام وحلب كان فيها الدواب والممالك والأقمشة النفيسة والفاكهة والحلوى . وإن وردت من موافى أوربا كان من بينها الجوخ والحرير والبلور . وإن كانت من مصر كان فيها السكر والحلوى والدواب والمال والممالك .

ويظهر أن الهدايا كان لها دور خاص في الرسميات ومنزلة مرجعية وقبوة عرفية ، كما كانت لها جداول وسجلات ترقم فيها وتحت بين سطورها . وتحفظ للاطلاع عليها وقت الحاجة . كما كانت السلاطين يقيم لها وزناً وتجعل لها أهمية . وتستدل منها على أمور يكون لها دخل كبير في العلاقة بين مصر والبلد الآخر . وكذلك كانت طبقات الشعب تلجج بذكر ما يهدى إلى سلطانها وتحرك حول أوصافها الأقاويل الكثيرة .

ونفهم هذا من جملة حوادث منها :

١ - في عام ٨٣٦هـ جاء إلى السلطان الأشرف برسباي قصاد من قرأ ملكاً ومعه هدايا من بينها امرأة مذهبة وخروف ياليتين وخطة للسلطان من الحرير الأحمر المذهب . فقام السلطان من ذلك أن قرأ ملك يتبعه وجنوده بأنهم نساء

يحتاجون للمرأة . وأنهم كالنعاج لا يابيه لهم . وأن السلطان نائب من نوابه ،
ولذلك خلع عليه الخلعة ..

وكانت النتيجة أن غضب برسياء ، وأهان الرسل وتوعد ملكهم ، فراعادوا
إليه حتى وقعت الحرب بين الملكين . « ابن ياس جزء ٢ ص ١٩ »

٢ - وفي يوم الخميس ١٥ المحرم عام ٩٢٢ هـ . وفد إلى السلطان الغوري رسول
من لندن ملك الحبشة ومعه عدد كبير من الاحباش . فقدم هدية إليه لم تنل منه
الرضا ولا الإعجاب ، قبل قومت بنحو خمسة آلاف دينار . فوج من جعد بها
إليه وأحضر له قوائم هدايا ملوك الحبشة إلى سلاطين مصر السالفين أمثال
برسياء وجفق وقايتباي وتواريخ هدايا ملوك الحبشة إلى ملوك مصر ، فقررت
عليه . « ابن ياس جزء ٣ ص ٨ »

٣ - وفي عام ٩٢٢ هـ وفي نفس شهر المحرم أيضا وفد على الغوري ، قاصد
من سوار شاه وقدم إليه هدية قال عنها ابن إياس إنها « فشرية » وإنها
وجودها وعدمها سواء ، وهي خمسة عشر جملا وثمانى أكاديش وستة بغال ،
فردد السلطان في قبولها ورددها وشارر الأمراء . ولكن لم يعلم ما استقر عليه
رأيهم . « ابن ياس جزء ٣ ص ٥٠ »

ومن هذا يضمم ما ذهبنا إليه ، وقد أشرنا في باب السفارة إلى بعض هذه
الهدايا ونذكر هنا عددا منها نقلا عن ابن إياس ^(١) فنقول :

١ - في سنة ٦٦٩ هـ أرسل صاحب طرابلس هدية قيمة للسلطان الظاهر
بيبرس وأظهر له الطاعة . قبلها منه وأقره على ما كان يده من البلاد . وأهدى
إليه صاحب اليمن هدية فيها تحف ودب أسود وفيل . « ج ١ ص ١٠٨ - السلوك
ج ١ ص ٥٩٥ »

٢ - في سنة ٧٠٤ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة في عهد السلطان الناصر محمد

(١) إذا قلنا من غير ابن ياس فصننا عليه ، وج ٤ منه في تواريخه .

ابن فلاوون ، صاحب دقتلة ، من أعمال الصعيد ، وكان محبته هدايا جميلة من رقيق وجمال وأبقار حبشية وغير ذلك . فطلع عليه السلطان خلعة وأنزله بدار الضيافة . ج ١ ص ١٤٧ .

٣ - في سنة ٧٦٢ هـ أهدى بعض ملوك اليمن إلى سلطان مصر الناصر حسن ، خيمة عظيمة غريبة الشكل ، بها هيئة قاعة وبها حمام ، وهي منقوشة بصنعة غريبة . فتوجه السلطان إلى الجزيرة ونزل بكم برا ، ونصب هناك تلك الخيمة . فكان أهل القاهرة يخرجون لمشاهدتها . وقال فيها ابن أبي حجلة المغربي الشاعر الأديب :

حوت خيمة السلطان كل عجبة فأمسيت منها باهتا أتعجب
لساني بالتقصير فيها مقصر وإن كان في أطناها بات يطنب
وقال : إذا ما خيمة السلطان لاحت فقل في حسنها نظما ونثرا
وإن رفعت ورمت النصب منها فصف أطناها وهلم جرا

ج ١ ص ٢٠٨ .

٤ - في عام ٧٧٨ هـ بعث صاحب إفريقية ، أحمد بن محمد ، من سلالة الموحدين هدية نفيسة لسلطان مصر مع الذين وفدوا من بلاده إلى الحج . وهي عدد من الجياد البرية الأصلية ، فسر منها السلطان . « ابن خلدون ج ٥ ص ٤٧٩ » .

٥ - في عام ٧٩٢ هـ ، بعث إليه صاحب إفريقية أيضا هدية أخرى من الجياد الأصلية كذلك . « ابن خلدون ج ٥ ص ٥٠١ » .

٦ - في عام ٧٩٢ هـ . أرسل ملك العثمانيين إلى برقوق ملك مصر ، يطلب إليه إرسال طبيب حاذق ومعه الأدوية اللازمة لعلاج من وجع المفاصل . فبعث إليه الرئيس شمس الدين بن صغير الطبيب ، ومعه حملان من الأدوية . ج ١ ص ٣٠٠ .

٧ - في عام ٧٩٦ هـ اقتحم تيمورلنك مدينة بغداد على أهلها وعلى صاحبها القان أحمد بن أريس . فهرب القان من وجهه ، وبعث شطر البلاد المصرية في عهد السلطان برقوق فلقية خير لقاء وأنزله خير منزل . وأسكنه في دار الأمير (١٦٠ - ١٦١ هـ)

طفر دمر ، وأهدى إليه ضربا من الهدايا إغاثة له . ومن حملتها عدة خيول مطهبة
يسروج ذهبية وكنائيش ، وعشرون غملا صغيرا ، وعشرون جارية بكرا ، وأقشة
« ج ١ ص ٣٠١ » وخمسة آلاف دينار .

٨ - في عام ٧٩٩ هـ وفد إلى الأبواب الشريفة في عهد السلطان برقوق ، المقر
السيني « تم الحسني » نائب الشام ، فلما بلغ السلطان وصوله إلى الريدانية نزل من
القلعة فلقبه وأنزله بالميدان الكبير عند الناصرية وخلع عليه .

فقدم النائب إلى السلطان عشرة غماليك جراكسة وعشرة جوار وعشرة آلاف
دينار ومصحفا شريفا مكتوبا بالذهب ، ونجاة مسقطلة بالذهب ومرصعة بفصوص
من الياقوت والفيروز ، وأربعة كنائيش وأربعة سروج من الذهب وأربع بدلات
ذهبية زنة كل منها أربعمئة مثقال من صنع المعلم « بهرام » وعشرة كواهي للصيد ،
ومائة وخمسين حملا ما بين سمور ووشق وسنجاب وقاقم وقرضيات وأنواب من
الصوف الملون ، ومائة فرس خاصة وخمسين حملا وعشرين حملا من الأنواب
البعلبكية ، وثلاثين حملا من الفاكية ، وحلوى شامية ، وعشرين حملا من الخيللات
وحملين من حلب السكر التباقي الخوى وغير ذلك أشياء كثيرة . « ج ١ ص ٣٠٦ »

٩ - وفي عام ٧٩٩ هـ أيضا ورد رسول من قبل صاحب النين وهو الملك
الأشرف محمد بن الفضل ومعه القاضي برهان الدين المحلى التاجر الكارمى . ومعهما
هدية حافلة مختلفة الأنواع . فخلع السلطان برقوق على القاصد وأكرمه .

« جز ١ ص ٣٠٧ »

١٠ - في عام ٨٠٣ هـ في عهد السلطان فرج بن برقوق ، طلب إليه تيمورلنك
أن يطلق قريبا له يدعى « أطلش » كان أسيرا منذ عهد السلطان برقوق في مصر .
ووعده أن يطلق من لديه من أسرى المصريين في نظير ذلك . فأطلقه السلطان
فرج وأرسله إليه مع بعض أمراته مكرما . ففرح به تيمورلنك وأطلق من عنده من
الأسرى وأرسل إلى السلطان فرج هدية حملها إليه الخواجا مسعود الكنججارى ،
وكان في عدادها فيل عظيم الخلفة وعلى ظهره صندوق من الخشب يسع عشرة رجال

يجلسون فيه للضرب بالكسوسات . وعدا ذلك أشياء ثمينة . وكان وصوله إلى مصر حافلا وعجب له أهلها .
« جز ١ ص ٢٣٦ »

١١ - في سنة ٨٣٦ هـ وفد إلى السلطان الأشرف برسبای قصاد قرا ملك ، ومعهم هدية له فن جملتها قرص امرأة مكفتة بالذهب وخروف باليتين وخلعة للسلطان من المخمل الحرير المرقوم بالذهب وبعض أثواب حريرية أخرى وصقور صيد . فلما رأى السلطان هذه الهدية استصغر شأنها . ودعا القصاد إلى البحيرة بالقاعة وألبس الخلعة المهداة لشخص من الشهدارية وكان مضحكا فرقص بها أمام السلطان فضحك عليه . ثم أحرق السلطان الخلعة أمامهم ، وذبح الخروف ! ثم سأل القصاد عن الكيفية التي بها يسخر ملكهم من أحدهم فقالوا : يرميه في الماء . فأمر السلطان برميهم في البحيرة فظلوا بها ساعة ثم أخرجوا . ورسم بأن تقص أذنان خيولهم . وعجل لهم في السفر قائلا : « قولوا لاستاذكم يلاقيني على القرات » .

ثم أخذ السلطان في تجهيز تجريدة لقتال هذا الملك . ووقعت بينهما الوقائع - والسبب الذي أهم برسبای هو ما أشرنا إليه فيما سلف من أنه ظن الهدية ضربا من التهمك به ، وأن قرا ملك يصغهم بأنهم نساء وتعاوج وأنه - أي السلطان - نائب من نوابه .
« ج ٢ ص ١٩ »

١٢ - في ربيع الأول عام ٨٥٩ هـ في عهد السلطان إينال العلاء وصلت إليه هدية من الملك أعلان صاحب الأبلستين ، وكانت حافلة وفي جملتها خيول وبغال وجمال وأقنية من الحرير .
« ج ٢ ص ٤٨ »

١٣ - في سنة ٨٨٤ هـ حج السلطان الأشرف قايتباي ، فلما عاد من حجه أوائل عام ٨٨٥ هـ أهدى إليه الأمراء والمباشرون هدايا قيمة منها مال وخيول وقاش . وكذلك أهدى إليهم .
« ج ٢ ص ١٩٣ »

١٤ - في سنة ٩٠١ هـ في شهر المحرم منها عاد الشيخ عبد المؤمن العجمي شيخ قبة

السلطان بالمرج والزيت . وكان قد بعثه السلطان قايتباى إلى ملك بنى عثمان ليتعرف أخباره . وكان السلطان قد بعث معه هدية من جملتها قاش فاخر وسبع وزراقة وبيغاه حمراء اللون وغير ذلك . « ج ٢ ص ٢٩٢ »

١٥ - فى شوال سنة ٩١٦ هـ قدمت إلى السلطان الغورى هدية حافلة من نائب حلب وهى : أطباق فيها ذهب عين ، وممالك جراكسة نحو من ثلاثين أو أربعين ملوكا . ومن الخيول خمسون فرسا منها فرس بسرج بلور . اوكنبوش من الذهب قبل إن ثمنه ألف دينار . وجملة من الأقمشة المتنوعة النفيسة . « ج ٤ »

١٦ - وفى شوال سنة ٩١٦ هـ أيضاً وصلت عدة سفن من لندن ملك العثمانيين فيها زردغاناه للسلطان الغورى . فوصلت إلى بولاق عند الرصيف وشرعوا ينقلون ما فيها إلى القلعة . فكان من جملة ما فيها مكاحل سبقيات عدتها ثلثمائة . وثلاثون ألفا من الشباب أسهما . وأربعون قطارا من البارود ، وألفا مقذاف خشبي وغير ذلك من نحاس وحديد وبكر وحيال وسلب ومراسى حديدية ، وسوى ذلك مما تحتاج إليه السفن . فسكره السلطان لذلك . وكان السلطان الغورى قد أرسل فى مقابل ذلك مالا مع قاصده « يونس العادلى » ليشتري بها أخشابا ونحاسا وحديدا من بلاد العثمانيين . فلما بلغ ذلك أسمع ملك بنى عثمان ردا المال إلى السلطان وبعث إليه بما سبق ذكره هدية إليه . « ج ٤ »

١٧ - فى يوم الثلاثاء ١٤ ربيع الأول عام ٩١٧ هـ ، جاءت الأخبار من بلاد الغرب بأن صاحب جربة انتصر على الفرنجية نصرة عظيمة وغنم منهم غنائم كثيرة وقتل منهم وأسر . وبعث للسلطان مكحلة من النحاس كبيرة ، ومعها أشياء أخرى على سبيل الهدية ، واثنين من أسرى الفرنجية وعليهم سلاحهم . فشكر له السلطان الغورى ومر بهذه النصرة . « ج ٤ »

١٨ - فى يوم الخميس ٢٢ ذى الحجة سنة ٩١٧ هـ حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد على دولات . ومعها هدية حافلة للسلطان الغورى . ومن جملتها ممالك وخيل وجمال بخاقى « وخيمة كبيرة منقوشة بحرير ملون على شكل أشجار

منزرة وفوقها أطياف ، وخركاة من الخشب مدھونة بماء الذهب ، ولازورد وألوان غريبة وهي منقوشة برسوم من أشكال الوحوش المتقاتلة بينها الغالب والمغلوب . ولها غطاء من الجوخ الأزرق المقصوص . ولها أظنايب وعرا من الحرير الأحمر . ولها باب خشبي موشق وعليه ضبة . ولتلك الخركاة بساط مستدير على سمعتها ، وهو منقوش نقشا غريبا قليل النظير . وكانت هذه الخركاة من تحف حسن بك الطويل ملك العراقين - كان - فظلت حتى وقع ملكها للشاه إسماعيل الصفوي فبعث بها إلى علي دولات . فأرسلها هذا إلى السلطان الغوري . فكانت هذه الخركاة والخيمة من عداد التحف الغريبة . فأمر السلطان بنصبها في الحوش ليشاهدها الناس ويتفرجوا بها . وأقام موكبا حافلا للقاصد في ذلك اليوم بلا شاش ولا قاش . « جزء »

١٩ - في شهر المحرم عام ٩١٨ هـ طلع قاصد ملك الفرنج؟ بهدية حافلة للسلطان ما بين أواني بلور مزيكة بالذهب وحمالين يحملون أقنعة من الجوخ والحرير والياب المنذبة ، وقيل بها أيضا ذهب عين . « ج »

٢٠ - في الاثنين ٢٣ صفر عام ٩١٨ هـ حضر إلى مصر قاصد ملك البنادقة إلى مصر ومعه هدية للسلطان الغوري منها نحو مائة حمل بين أواني بلور وجوخ وحرير من أصناف متعددة ، وأطلس وغير ذلك . « ج »

٢١ - في ربيع الآخر عام ٩١٨ هـ . حضر إلى مصر قاصد الشاه إسماعيل بن حيدر الصفوي المتغلب على فارس والعراق . فقابل السلطان الغوري مقدا إليه هدايا مولا . وفي عدادها سبعة فهود - وكانت تسعة مات منها أثناء المسير - وعليها جلال حريرية . ومنها خيول وأباريق من الفضة وطاسات من الذهب ، وزردبات وخوذ وأثواب من الخمل الملون وأدوات للباس الخيشل وشقق حريرية مقصبة وسجاجيد رومية ومدى وغير ذلك . « ج »

٢٢ - في أواخر ذي القعدة عام ٩١٨ هـ . كان الغوري قد رحل إلى زيارة القيوم وعند عودته مر به مشور . فخف الملاحاته فيها الخليفة محمد المتوكل على الله العباسي ، وأهدى إلى السلطان مهارا وأغناما وأبقارا كثيرا من الدجاج والأوز وقصور من عمل

النحل وجرار اللبن وغير ذلك كثير . وكانت دهنشور بلد الخليفة.

« ج ، »

٢٣ - في ١٥ ربيع الأول عام ٩٢١ هـ إلى الأبواب الشريفة الأمير قاني
باى فرا - أمير اخور كبير - باش العسكر الذى وجه إلى حلب . ثم بعد ثلاثة
أيام أهدى إلى السلطان الغورى هدية حافلة ، قيل : كان من جملتها عشرة آلاف دينار
من الذهب الخالص ، وخمسة وعشرون مملوكا من الجراكسة ، وكثير جدا من
الخيول والأغنام والآتواب البعلبكية والصوفية وغير ذلك . « ج ، » في التواريخ المذكورة ،

٢٤ - في المحرم عام ٩٢٢ هـ حضر إلى الغورى قاصد الشاه ابن سوار وقدم هدية
نافذة وهى خمسة عشر جملا بخاتيا وثماني أكاديش وستة بغال . فتردد السلطان
في قبولها ورفضها وعرض الأمر على أمرائه ولم يعلم ما تم رأيهم عليه .

« ج ، » في التواريخ المذكورة »

حسنة هذا العصر وسيداته

لا يخلو عصر من العصور من حسنة يقدمها إلى الناس يد ، ومن سيئة يقدمها باليد الأخرى . فهو بذلك يجمع في آن واحد بين الحسن المقبول وبين القبيح المردول . وكذلك هذا العصر .

وأهم حسناته :

- ١ - دفع التتار عن اقتحام الأراضي المصرية ٢٠ - دفع الفرنجة عنها أيضا
- ٣ - المحافظة على استقلال البلاد ٤ - رصد الأوقاف الكثيرة على وجوه البر والإحسان ، مع البذل الكثير ٥ - تشجيع حركة إحياء العلوم والآداب .

وأهم سيئاته :

- ١ - احتقار الشعب وإهمال حقوقه السياسية ٢ - فداحة الضرائب المفروضة عليه ٣ - الجور والفساد الذي نزل به ٤ - كثرة الفتن الداخلية ٥ - تعدد الزلازل والطواعين والفلاء .

وتتكلم الآن بإيجاز عن كل واحد مما ذكرنا فنقول :

حسنة

- ١ - دفع التتار عن اقتحام الأراضي المصرية^(١) :

لقد كان زحف التتار من أواسط آسيا إلى غربها شروبا أصيب به غرب آسيا في العصور الوسطى . فلقد أطفئت سيول التتار عليه ، وسقطت دوله في أيديهم ،

(١) نذكر في الجزء الثاني كلمة أخرى من التتار . وقد اعتمدنا في هذا الباب على العبر لابن خلدون ، والبدائع لابن إياس ، وتاريخ الخلفاء السيوطي واللوك المقريزي وعجائب القصور لابن عربشاه :

وأذاقوا بلادهم من الحسف والهوان ، وأراقوا الدماء فيه بلا روية ولا ورع ، غير مبالين بصغير ولا كبير ولا عالم ولا جاهل ولا امرأة ولا طفل . ومازلوا جادين في زحفهم وطفانهم كسيل العرم ، حتى بلغوا مدينة بغداد فأسقطوها وقتلوا خليفتها وولى عهده وشتتوا شمل أهلها ، وكادوا لهم كيذا شديدا ، وملكوا الكثير من بلاد العراق ، وساروا على ضفاف الفرات ، وناخوا حدود المملكة المصرية في الشام وفي حلب ، وامتلكوا بعض تلك النواحي .

في تلك الأثناء كانت دولة سلاطين المماليك قد تكونت في مصر ، وامتلك أمراؤهم ناصية الأمور فيها . فشعروا بالخطر الترى يقترب منهم ويذارويدها ، فجمعوا جموعهم وحملوا أسلحتهم ، وهناك في بلاد الشام وحلب وقعت الوقائع بين الفريقين ، وكان النصر فيها غالبا لحليف سلاطين مصر ، فردوا بذلك التتار عن ملكهم مدحورين .

ظلت دولة التتار متاخمة للدولة المصرية وأملاكمها طيلة قرنين تقريبا . وتقلبت بها الأحوال حتى انقسمت دولا ، ثم زالت جميعها عام ١٢٠٦ هـ ، وكان آخر ملوكهم محمد بن أبي سعيد ، صاحب سمرقند ، وقد قتل في العام المذكور^(١) . وكان لا بد من النزاع بين الدولتين . وكان التتار في أغلب أمرهم الطاغين الباغين على أملاك مصر ، والمعتدين على أطرافها ببلاد الشام وحلب . فصور لهم ملوك مصر إلى آخر لحظة من لحظاتهم ، وظللت الحرب دائرة الرحى بينهما ، والعداء مستمرا ، والوقائع سجلا ، والنصر متبادلا ، وبين الفينة والفينة فترة صبر وانتظار ، وريث وراحة . وكان التتار يمتنون النفس بدخول مصر أسوة بسواها ، فردتهم شجاعة المماليك وتماسكهم إزاء هذا العدو الخارجى المقوت . فدالوا وذالت معهم أمانيتهم . ومنلت مصر وقاهرتهما من كل أذى كان مرتقبا ، ومن كل سوء كان منظورا ، كذلك الأذى والسوء اللذين أصابا بلاد العراق وبغدادها .

ونستعرض هنا بإيجاز تاريخ هذا النزاع فنقول :

حروب التتار في الممتلكات المصرية ومقاومة سلاطين مصر لهم

نذكر هنا أهم هذه الحروب ووقائعها الفاصلة فيها :

١ - لما فرغ التتار من احتلال بغداد والتمثيل بأهلها ، لووا أعناقهم شطر بلاد المملكة المصرية والشامية وبدءوا ببلاد الشام . فبعث ملكهم « هولاكو » ثلاث رسائل إلى أمير دمشق المسمى الملك الناصر ، إحداها بعد الأخرى يهدده في كل منها ويتوعده ، ويرأده على التسليم . وفي إحدى هذه الرسائل يقول له :

« أين المفر ولا مفر لهارب ولنا البسيطان الثرى والماء » (١)

وأخذ هولاكو في الزحف على مدن الشام وحلب فأسقطها مدينة إثر مدينة ودخل في طاعته كثير من حكامها وفر آخرون من وجهه .

فشعر سلطان مصر حينئذ المظفر قطز بخطر الغزو يهدد سلطنته من أطرافها ، وخاصة عندما وافته الأخبار بأن طلائع التتار بلغت ظواهر دمشق ، وأخذت في النهب والسلب والقتل والأمر . وخاصة أيضاً عندما بعث هولاكو إليه أحد أمراءه « كتبغا » برسالة تهديدية أخرى يذكر فيها سطوته وقوة جنده . وفيها يقول : « يا أهل مصر أتم قوم ضعاف فصونوا دماءكم مني ، ولا تقاتلوني أبداً فتدموا » (٢) .

فاستشار السلطان المظفر قطز أمراء دولته في الأمر فأجمعوا على غارة التتار . فجمعوا عدداً ضخماً من الجنود بينهم كثير من عربان الشرقية والغربية . وقد عاونهم أهل مصر بالمال والرجال ، فهنا منهم أن هذا القتال جهاد في سبيل الله . ولعل مما ساعد على ذلك أن التتار كانوا وثنيين ومنهم من يعبد الشمس .

وفي أواخر شهر شعبان سنة ٦٥٨ هـ نزل السلطان المظفر من قلعة الجبل

(١) راجع تاريخ الخلفاء سيوطي في ترجمة الخليفة المنصور بالله . وسلوك القرطبي ج ١ ص ٤١٥ .

(٢) ابن لباس ج ١ ص ٩٦ . والسلوك ج ١ ص ٤٢٧ وفيه نص الرسالة .

في موكب عظيم حتى بلغ الريدانية ، وهناك أمر بإعدام رسول هولاكو « كتبغا » وأربعة وفدوا معه من التتار . ثم أخذ في المسير إلى الصالحية ثم فلسطين حتى بلغ بجنده « عين جالوت » وكان هولاكو قد رحل عن بلاد الشام تاركاً فيها جنده ونائبه . وهناك تلاقى العسكران في موقعة هائلة استمر فيها القتل في كل فريق ثم انجلت بغبارها عن هزيمة شنيعة للتتار قتل فيها قائدهم « كتبغا » ، وانتصر جنود مصر انتصاراً مبيناً . وكانت هذه الواقعة في يوم الجمعة ٢٥ رمضان عام ٦٥٨ هـ .

ثم تبسّع جند مصر أثر التتار حتى تلاقوا بهم مرة أخرى عند « بيسان » فكانت بها موقعة أحر من الأولى قتل فيها نصف التتار وغنم جند مصر غنائم كثيرة .

وقد تجلّت شجاعة المالك البحرية في هاتين الموقعتين وخاصة الأمير « بيبرس » الذي ملك مصر فيما بعد ، وتلقب بالظاهر .

٢ - لما استوى الظاهر بيبرس على عرش مصر ، وأقام الخلافة العباسية الثانية وأجلس في كرسيها الإمام أحمد الملقب بالمستنصر بالله عام ٦٥٩ هـ ، رأى أن يحجزه بطائفة من العساكر السلطانية ويحده بالمال والعناد نحو بغداد ، كي يستردها من التتار ويعيد ملك بني العباس . فسار المستنصر في هذا العام بجنده حتى بلغ إلى الفرات ففرج إليه أمير التتار إذ ذاك وهو « قرايغا » ، والتقى به عند « الأنبار » ، فدارت الدائرة على التتار وولوا الأدبار . ولكنهم عادوا في الليل فكروا على جند الخليفة وأحاطوا بهم وشكتوا شملهم وهزموهم هزيمة نكراء . واختفى الخليفة من ذلك الحين ولم يثر عليه . - وقد كانت هذه الحادثة منار أسف شديد لدى الظاهر بيبرس

وفي عام ٦٧٠ هـ في عهد بيبرس أيضاً جاءت الأخبار بعودة التتار إلى الإغارة على البلاد وأنهم بلغوا الفرات وملكوا « البيرة » ، تخف للقائهم معه أمراؤه وجنوده يتقدمهم الأمير قلاوون الأتقي - المنصور قلاوون فيما بعد - والأمير بيسرى ، فتلافوا على ضفاف الفرات في موقعة عظيمة دارت رحاها على التتار فقتل منهم وأسر عدد كبير .

وفي عام ٦٧٥ هـ عاهد التتار الزحف ، فخرج إليهم بيبرس ، واتجه إلى حلب ولقيهم في معركة حامية ، فأتحن فيهم ، حتى فر ملكهم « أبغا » ، فأتبعه بيبرس إلى « الأبلستين » ، وتلاقوا مرة أخرى ، فانتصر بيبرس بعد أن قتل نحو مائة ألف نفس ، وهرب أبغا إلى جهة « زيد » ، ويبرس بطارده . ثم عاد بيبرس إلى « قيسارية » وحاصرها فاستسلم له أهلها .

٣ - وفي عام ٦٧٩ هـ في عهد المنصور قلاوون أغار التتار برعامة الأمير « منكوتر » ، أخى ملكهم « أبغا » ، على مدينة حلب فلكوا ضياعها وأوشكوا على امتلاكها . تخف إليهم المنصور في عديد ضخمة من جنده على ظهور الخيل . فاسمع التتار بقرب قدومهم حتى جلوا عن حلب وفروا ، بعد أن ألحقوا بها ضروبا من الفساد . فلما سمع المنصور خبر نكوصهم وهو في غرة عاد إلى القاهرة . وما لبثوا ثم أن عادوا إلى حلب يعيثون فيها فسادا . فخرج المنصور ثانيا إلى إياهم وأخذ السير في أثرهم حتى تلاقوا على « المرج الأصفر » ، في أوائل عام ٦٨٠ هـ . فكانت بين الفريقين واقعة هائلة ، انهزم فيها التتار شر هزيمة ووقع السبي والغنم في صفوفهم وعتادهم .

٤ - وفي عام ٦٩٩ هـ في عهد السلطنة الثانية للناصر محمد بن قلاوون ، أخذ التتار في الزحف على مدينة حلب مرة ثانية ، بقيادة ملكهم غازان بن أرغون ابن أبغا بن هولاكو ، بجند يبلغ عددهم نحو مائتي ألف وقد زين لغازان هذا الغزو الأمير قنچق الذي كان نائبا على الشام في عهد المنصور لاجين ، وهم المنصور بالقبض عليه فقر إلى غازان .

خرج الناصر محمد إلى لقائه بجند كثيف في ١٥ صفر من العام المذكور ، فبلغ دمشق في ٨ ربيع الأول ، ثم تلاقى الفريقان في « سانية » قرب بعلبك ، فدارت الدائرة على الناصر فقر إلى بعلبك ونهب عتاده وذخيرته جنده .

هذا النصر الذي أصابه « غازان » ، خول له غزو بلاد الشام جميعها ودخول

مدينة دمشق . ولهذا تحول إليها خفاف أهل دمشق مغبة الأمر ، وأوفدوا وفدا من خيار علمائهم إليه ليطالبوا منه الأمان . وكان فيه بدر الدين بن جماعة وزين الدين الفارقي وتقي الدين بن تيمية الحوافي ونجم الدين بن الصرصري وعز الدين بن تركي وعز الدين بن القلانسي وجلال الدين القزويني وغيرهم . . وكان غازان قد بعث إلى أهل دمشق الأمان .

ثم إن « غازان » حاصر قلعة دمشق ولم يستطع الاستيلاء عليها لمناعتها . فرحل عنها وولى نيابة دمشق للأمير قنبيق . ثم إن الملك الناصر عاد إلى القاهرة وأعد جيشه من جديد وزحف به على دمشق فأظهر له نائبها قنبيق الخضوع ومن ثم عاد إلى عاصمة ملكه .

ثم ما لبث التتار حتى أعادوا الكرة على ضفاف الفرات عام ٥٧٠٠ هـ ، فخرج الناصر للقائهم مرة ثالثة . فلما بلغ غرة جاء الخبر أن نائب حلب كسرهم كسرة حاسمة فروا على إثرها هارين . فعاد الناصر إلى القاهرة .

وفي عام ٥٧٠٢ هـ ، تواترت الأخبار عن حلب أن أحد أمراء غازان وهو « قتلوشاه » قد دخلها فجأة بجملة من جنده واحتلوها . فبعث لهم الناصر عدة من الجنود لإجلالهم . فسار الجنود فبلغوا غرة وهناك علموا أن غازان قد تحرك . وأنه وصل إلى الرجة ، وأن نائبها قد خضع له ، فهب الناصر حينذاك لقتال التتار وجمع جموعا كثيفة بينها كثير من العربان . وسار بهم إلى الشام . وكان « غازان » قد قارب حماة . فبلغ الشام في مستهل رمضان وهناك في « مرج راهط »^(١) دارت واقعة رائعة انفرط على إثرها عقد التتار ودارت الدائرة على « غازان » وجنوده ، وأيدى نحو ثلثهم ، وتشقت شمل البقية وغم منهم الشيء الكثير . وكانت هذه الواقعة إحدى الوقائع الحاسمة بين التتار ومصر .

ومع ذلك فقد عادوا لعبثهم مرة أخرى عام ٥٨٠٧ هـ ، ولكن وقع الخلف في صفوفهم فتجت بذلك حلب من شرورهم .

(١) يسميه ابن خلدون « مرج الصفر » ويقال له أيضا « شقيب » .

وفي عهد السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون أرسل إليه نائب حلب في عام ٧١٢هـ ملوكا يخبره أن التتار قد عادوا إلى حركتهم ضد البلاد، فعبا السلطان جنوده على عجل في سبعة أيام، ورحلوا إلى ديار حلب. فلما بلغ غزة وردت إليه الأخبار بتراجع التتار خوفا منه، ورحلوا عن مدينة الرحبة إلى بلادهم بعد أن كسرهم نائبها كسرة قوية. فعُدل الناصر عن المسير إلى حلب وسافر إلى بلاد الحجاز حاجا.

ومن ذلك الحين وقف نسيا تعدى التتار على أملاك الدولة زمنا طويلا حتى كانت سلطنة الظاهر برقوق.

هـ - وفي عهد السلطان برقوق ظهر ملك للتتار قوى الشكيمة قامى القلب محب للتدمير شبيه بهولاكو. وهو «تيمورلنك». وقد وردت أنبأؤه إلى أسمع المصريين عام ٧٨٨هـ، إذ أرسل إليهم صاحب ماردن رسولا ينبئ السلطان أن «خارجيا» من التتار الجفطاوية يقال له «تمرلنك» استولى على البلاد وبلغ مدينة «تهريز» وخربها وقتل كثيرا من أهلها، وهو على وشك الزحف إلى بغداد، وأن صاحب بغداد القان أحمد بن أويس أخذ حذره لهذا الزحف.

وبعد قليل جاء رسوله من القان أحمد ينبئ السلطان أن «تيمورلنك» استولى على مدينة «قرباغ» ونهبها وسي أهلها، ويطلب إليه الجذر..

فأرسل السلطان برقوق الأمير «طغاي» ليتلمس أخبار هذا الطاغية فعاد إليه في جمادى الآخرة عام ٧٨٩هـ؛ وأخبر أن «تيمورلنك» قد وصلت طلائعه إلى الرها وأنهزمت أمامها جنود «قرا محمد» أمير التركان، وأن بوادر هسكرة أيضا قد وصلت إلى ملطية. حيث أخذ السلطان برقوق يعد العدة للقتال. غير أنه قد تأنيا هن عزمه حينما علم أن «تيمورلنك» انسحب إلى بلاده. - وكان برقوق قد أرسل طلبعة إلى بلاد حلب، فلما بلغت سيواس قابلت بمجد «تيمورلنك» وكسرت.

ثم إن «تيمورلنك» ماغم أن كر على بلاد الأكراد، ثم حاصر البصرة، وتواترت الأخبار أنه يعد العدة لغزوها وفتحها. فساد الخوف بلاد مصر وهب

سلطانها برقوق يجمع الجند ويستمد للقاء. ولا سيما عند ما بلغته أخبار تيمورلنك في أوائل عام ٧٩٦ هـ بأن طلائفه وصلت إلى الرها . فخرج بجملته إلى بلاد الشام في ربيع الآخر فوصل دمشق في يوم الاثنين ٢٢ منه . ثم رحل إلى حلب . فلم أن جنود « تيمورلنك » قد بلغت إلى البيرة على الضفة اليسرى لنهر الفرات . فأخذ جند مصر في عبوره ليلا - وقيل إنهم كانوا ينفخون القرب ويحلقونها تحت بطون الخيل فيمرون بها إلى الضفة اليسرى . وأوقعوا بهم وغنموا منهم الشيء الكثير . ولكنهم لم يلتقوا جميعا في معركة حاسمة . ثم « رحل تيمورلنك » بلا منازلة ، فعاد برقوق إلى مصر .

وفي عام ٧٩٩ هـ جاء رسول من « تيمورلنك » يطلب إلى السلطان برقوق إطلاق سراح « أطلش » المأسور لديه . وهو قريب تيمور . فرفض برقوق ، حتى يطلق « تيمور » ما لديه من الأسرى والنواب التابعين لمصر .

٦ - وفي عهد الملك الناصر فرج بن برقوق اعتدى جند « تيمورلنك » على بغداد ، فاجتمع لصدّه صاحبها القان أحمد بن أويس ومعه قرا يوسف أمير التزكان ، وكسروا الجند كسرة بالغة . وذلك في عام ٨٠٢ هـ . فلما انكسروا قصدوا مدينة « ملطية » وكانوا نحو سبعة آلاف نفس . ثم بعثوا إلى نائب حلب يطلبون إليه أن يحلّي لهم مكانا لنزولهم . فذهب نائب حلب ومعه نائب حماة ومعهما جنودها ودارت دائرة الحرب بين العسكرين فانهزم نائب حلب وحماة وقتل من عسكرهما عدد كبير ، منهم « جاني بك اليحايى » « أتاك العسكر بحلب » وأسر نائب حماة دقاق الحمدى ، « فاشتري نفسه منهم بالمال وعاد نائب حلب إلّيا مهزوما .

جاءت أخبار هذه الوقائع كلها إلى مصر في ذى القعدة من العام المذكور . فلما سمع بها السلطان فرج رسم لنائب الشام ونائب صفد ونائب طرابلس بأن يجمعوا جنودهم ويقيموا شطر حلب ويقيموا بها .

وفي أوائل عام ٨٠٣ هـ أرسل نائب حلب رسولا إلى السلطان يخبره بوصول جند « تيمورلنك » إلى سيواس ، وأن ملك بني عثمان والقان أحمد بن يس أو قرا

يوسف توجهوا إلى مدينة « برصا » وتركوا بلادهم خوفاً . وقيل إنه نهب مدينة سيواس ، وقتل أهلها ، يدفن بعضهم أحياء ، ويحرق البعض الآخر .

ثم جاءت الأنباء بامتلاكه عنتاب وغيرها ، ووصوله إلى الباب وبزافا قرب حلب . وبعث يهدد نائب حلب ويغلق له في الحديث ، فحق هذا وضرب أعناق رسل تيمورلنك ، وأخذ في تحصين المدينة والاستعداد للقاء العدو بالمدافع والمكاحل والجنود . فابكان من « تيمور » ، إلا أن دلف إليها من ناحية قرية « جبلان » وأحاط بها . فخرج إليه عسكرها فبطش بهم « تيمور » ، بطشاً بليفاً ، ففروا إلى مدينتهم في أسوأ حال ، وجنود « تيمور » في أثرهم ، فقتلوا وسبوا من سبوا ونهبوا الشيء الكثير . وعاثوا بها وبأهلها فساداً ، وصارت المدينة أمامهم كالكلاب المباح . وذلك في شهر ربيع الأول عام ٨٠٣ هـ . وقيل كانت القتل أكراما مكعدة في شوارع المدينة . حينئذ طلب نائبها ومن معه الأمان ، فأمهم تيمور وامتلك زمام المدينة وقلعتها (١) .

سمعت مصر وسمع سلطانها وأمرؤها بأخبار تيمور ، وما أجرى على مدينة حلب من الشقاء . فسرى الالم في النفوس وملك الخوف الأفئدة . وبعث السلطان الأمير « سودون بن زاده » والأمير « إنال حطب » لكشف الأخبار .

وقد علم بعد قليل أن « تيمور » أقام بحلب شهراً ثم انصرف إلى بلاد الشام ، وأنه بلغ جبل الثلج ، فأخذ السلطان فرج في جمع جنوده وتنظيم صفوفهم استعداداً للقتال . ثم يم بمجده الكثيف شطر البلاد الشامية في شهر ربيع الثاني عام ٨٠٣ هـ ، فبلغ غزة . ثم سار إلى دمشق فبلغها في يوم الخميس ٦ جمادى الأولى . ثم التقى من الجمعين طائفتان فانهزمت طائفة تيمور وولوا الأدبار .

قيل إنه لما وقعت الهزيمة في صفوف التتار ، فر كثير من منهم إلى صفوف سلطان مصر ، وانضوا تحت لوائه مظهرين الطاعة له . وعقب ذلك ظهر الخلف

(١) أسهب السخاوي في ذكر حوادث تيمور هذه في ترجمته بالضم ج ٣ رقم ١٩٢ .

بين أمراء السلطان وجنوده وانقسموا شيعا وراجت الفتن دوايله من زایل ، فاضطره بعض من معه إلى العودة إلى مصر ، فعاد فبلغها في جمادى الآخرة . . . أقول لعل الوقعة تسببت عن هؤلاء الدخلاء من جند التتار بين صفوف جند السلطان ، ولعلمهم كانوا طابورا خامسا ، على حد تعبير الساسة في عصرنا الحديث .

عاد السلطان فرج هذه العودة على الرغم من انتصار جنده ، وعلى الرغم مما قيل من أن « تيمورلنك » بعث إليه في طلب الصلح . . . عاد السلطان فأخذ يعد عدة جديدة للخروج إلى بلاد الشام ولقاء التتار في موقعة حاسمة . وخاصة أن التتار لما علموا بنكوص السلطان وبالفقنة التي وقعت في جنود مصر ، زحفوا إلى دمشق ووقعت معارك عدة بينهم وبين أهلها . ثم طلب منهم تيمورلنك أن يتفاهموا معه فبعثوا إليه من لدنهم سفيراً للمفاوضة وهو القاضي « تقى الدين بن مفلح الحنبلى » ومعه خمسة من أعيان دمشق . ثم عاد ابن مفلح إليهم وطلب إليهم الخضوع لتيمور وانحاز هو إلى جانبه ، وأراد أن يفتح لجنوده باب النصر ليدخلوا منه إلى دمشق . فنهه نائب القلعة وهدده بإحراق البلد كله إن فعل . وقد انقسم سكان دمشق فريقين فريقاً يريد التسليم ، وفريقاً يأباه . ثم أرسل « تيمورلنك » أماناً لأهل دمشق مع فئة من أعيانها ، فقرأ عليهم في جامع بنى أمية ، فقرحوا به وفتحوا له أبواب مدينتهم وبذلك سقطت دمشق في يد تيمور . فلما امتلك ناصية الأمور فيها فرض عليها الغرامات الباهظة الثقيمة ، وكان زعيم جبايتها له القاضي ابن مفلح . فلقى الناس منه الأذى والسوء ، إذ جمع ما لهم ودواهمم وألقى بها غنيمة باردة بين يدي تيمور ، ومع ذلك لم يقنع بها وطلب منه سواها . فلما أخبره أن البلد أقوى وأقصر ، ولم يعد به مال ولادابة ، حتى به وقبض عليه وعلى أحواله وقيدهم بالحديد ... ثم إن تيمورلنك قسم المدينة بين أحواله لينزلوا بها ويحبسوا منها الأموال كل في قسمه . ثم أذاقوا أهلها مر العذاب من ضرب وقتل وهتك عرض وتعذيب مختلف الأنواع ، وامتلات ساحاتها بجنود التتار ينشرون فيها كل فساد وموبقة ... وظل الحال كذلك حتى شهر شعبان من عام ٨٠٣ هـ وفي مستهل أمر « تيمورلنك » بإحراق دمشق فاشتعلت

فيها النار وتداعت مبانها وصوحت أرضها وأصبحت أطلالا بالية... وهذا
جواز الاستسلام والاختلاف.....

ثم رحل « تيمور » عنها بعد فساد دام ثمانين يوما أقامها فيها . وقيل إنه أمر
بإفككها بأطفال المدينة الذين بقوا بعد هذا الدمار كله فقتلوا جميعاً .

ومن عجيب الأمر أن « تيمور لنگ » بعث إلى السلطان فرج يطلب إليه
الإفراج عن « إطلش » - قريه الذي كان أسيرا لدى برقوق ولم يرض بإطلاقه -
ويعتذر إليه عما بدر منه ... فأطلقه في مقابل أن يطلق « تيمور » سراح من عنده
من الأسرى ، فأطلقهم . ورحل بحملته عن بلاد الشام .

حينئذ عين السلطان الأمير نوروز الخافض نائباً على الشام ليصلح فيها ما أفسدته
يد « تيمور » .

ومن لطف الله أن مات « تيمور لنگ » ، وجاءت أخبار موته إلى مصر في عهد
السلطنة الأولى لفرج بن برقوق . وقد أثبت ابن إياس خبر موته في حوادث هام
٨٠٤ هـ . وأثبتها ابن عربشاه في كتابه « عجائب المقنن » عام ٨٠٧ هـ في ليلة الأربعاء
١٧ شعبان . وذلك بعد أن ملك من أواسط آسيا إلى حدود الشام .

وطبعي أن الفتن والحروب الكثيرة التي وقعت في صفوف التتار وبين دولهم
المتعددة فيما وراء الشام شرقاً إلى أواسط آسيا ، بين الحين والحين كانت تعني سلاطين
مصر وأهلها وأهل الشام من مدافعهم . ويضاف إلى هذا قيام دولة بني عثمان
واستحراز النزاع بينها وبين التتار وسواهم مما أقعد همة التتار في الأجزاء الأخيرة
من العصر الذي نحن بصدده عن انتفاص أطراف المملكة المصرية ، وإن كان بنو
عثمان أنفسهم أصبحوا جارا وخمما خطرا عليها جديداً ، شغلها بكفاحه ومناخه
أضع استقلالها في سنة ٩٢٣ هـ .

٢ - دفع الفرنجة عن ممتلكات مصر ودوائر نفوذها :

بما شغل بال سلاطين المماليك فوق انهم ملغهم بمداغة التتار ، إغارة الفرنجة على ممتلكاتهم وطمعهم في الاستيلاء عليها ، وما كانت الحروب التي وقعت بين الفريقين إلا امتدادا لتلك الحروب الصليبية التي اشتهرت في العصور الوسطى مبتدئة من عهد الفاطميين فالأيوبيين . وكان الفرنجة قد أسسوا وملكوا مدنا عدة في سواحل البحر المتوسط في داخل بلاد الشام وحبلى ، وأصبحت هذه المدن عبارة عن مستعمرات لؤلؤة الأوربيين . فعمل سلاطين مصر على استردادها منهم ومقاومتهم .

١ - ومن أشهر سلاطين مصر الذين قاوموهم : الظاهر بيبرس ، فقد حاربهم واسترد منهم أو غزا كثيرا من المدن التي انزعوها فيما سلف أو أسسوها مستعمرات لهم في الشام وسواحل البحر المتوسط الشرقية ، ومن هذه البلاد : قيسارية وأرسوف وصفد وطبرية ويافا والشقيف وأنطاكية وبغراس والقصور وحصن الأكراد والقرين وحصن عكا وصافيتا والمرقة وحبلى وبانياس وطرسوس .

وكان فتح صفد عام ٥٦٦٤هـ ، وفتح أنطاكية ٥٦٦٦هـ ، وفتح قيسارية عام ٥٦٧٥هـ .

٢ - ومنهم المنصور قلاوون ، وقد فتح حصن المرقب وجبله ، وفتح طرابلس عام ٥٦٨٨هـ ، بعد أن حاصرها ونصب عليها المجانيق ودخلها عنوة بعد ٣٤ يوما (١) ومنهم الأشرف خليل بن قلاوون . فقد جرد على مدينة عكا جيشا كثيفا وسار إليها في عام ٥٦٩٠هـ ونصب حولها ٧٥ منجنيقا وحاصرها عدة أيام ثم اقتحمها في يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخرة من العام المذكور ، وهدم أسوارها . ومنها سار إلى جبتي وبيروت فاقتمهما . ويعتبر بعض المؤرخين سقوط مدينة عكا ومدن الساحل في يد مصر عام ٥٦٩١هـ نهاية للحروب الصليبية الدامية .

٣ - على أن تمت وقائع أخرى تلت هذه منها : هجوم فرنجة جزيرة قبرص على ميناء الإسكندرية عام ٥٧٦٧هـ بقيادة حاجبهم في أسطول عظيم يقال إنه بلغ

سبعين مراكبا مليئة بالعدد والعدة والخيول والفرسان ، فباغت سكانها ونضجهم بالنيل وأحرق باب المدينة وأقتحمها ، ففر أهلها منها وأصابهم في فراهم كثير من الأذى والسوء من عربان ضواحيها . أما فرسان قبرص فقد نهبوا من المدينة ما استطاعوا حمله ، وأسروا من أسروا ، ثم عادوا إلى سفنهم وأقلعوا إلى حيث أتوا . وكان نائب المدينة إذ ذاك قد فارقها للحج ، وكان سلطان مصر إذ ذاك الأشرف شعبان بن الأجد حسين ، وكان نائب سلطنته يلغا العمرى . فكتب كتيبة وساقها إلى الإسكندرية حينما علم الخبر ، فوجد الفرنجة قد رحلوا عنها فامتلا غيظا وحنقا ، وأمر بإصلاح ما أفسدوا . ثم هم بصنع عمارة بحرية قوية ، ولكن الأيام لم تعاونه ^(١) .

وذكر ابن إياس في هذه الواقعة أن نائب الإسكندرية جمع عدد من عربان البحيرة والتقوا بالفرنجة القبرصيين في معركة حامية فانكسر النائب ومن معه وفروا من وجههم . فأحرقوا باب رشيد ودخلوا منه إلى المدينة وعاثوا فيها فسادا ، ونهبوا وسلبوا وقتلوا كثيرا من المسلمين ، ثم فروا قبل مجيء جند السلطان من القاهرة .

٤ - وما يذكر أن السلطان الأشرف برسباي بعث تجريدة قوية إلى قبرص عام ٨٢٩ هـ ففتحتها وأمر ملكها وحج به إلى القاهرة مصفدا أسيرا ، معه عدد من جنده . وكان ملكهم راكبا وعليه خوذه وسلاحه . فأمر الأشرف بأن تعلق هذه الخوذة على باب مدرسته الواقعة بسوق الوراقين لتكون عبرة وذكرى .

٥ - وفي عام ٨٦٢ هـ استغاث ملك قبرص على أعدائه بملك مصر الأشرف ليرتال فبعث إليه تجريدة بقيادة الأمير يونس الدواذر ، فبلغت قبرص ولكن قائدها عاد بلا نتيجة وترك بقية جنده بها .

٦ - وفي عهد الأشرف قايتباى أخذت جموع من الفرنجة يتلصصون على سواحل مصر الشمالية ويباغتونها بين الحين والحين ، وينهبون ما تصل إليه أيديهم ، ويأسرون من التجار وغير التجار من يقع لهم . وأكثر ما تلصصوا على سواحل دمياط والإسكندرية . فاهتم قايتباى للأمر وكان يعين لهم في كل مرة تجريدة بحرية لتتبعهم وإرجاع ما أخذوا وقطع دابرهم . وفي عام ٨٨٠ هـ وقعت إحدى حوادثهم في مدينة الإسكندرية حيث أغاروا عليها واحتالوا حتى أسروا عددا من تجارها ومن بينهم أخصاء للسلطان منهم ابن عليبة يعقوب وعلى الكيزانى وعلى التراوى . وحملهم معهم إلى بلادهم . فأمر السلطان بالنقص على جميع تجار الفرنجة بفنخ الإسكندرية ، وبعث أحد خواصه وهو « قيت الساقى » لتنفيذ الأمر ، فاضطلع به ، وطلب إلى المقبوض عليهم أن يرسلوا ملوكهم بمافعل السلطان ليكون ذلك عبدة وعظة ولكي يطلقوا سراح تجار الإسكندرية حتى يطلق سراحهم في مقابل ذلك . وقد تم الأمر وفق مشيئة السلطان وعاد الأسرى .

٧ - وفي عهد الأشرف الغورى نشط البرتغاليون إلى إيذاء مصر بدافع حقدهم عليها لما كانت تحميها من الغزائب على البضائع المارة بها بين الشرق والغرب ، إذ كانت مصر هى الطريق الأهم بين الجهتين . فأخذوا فى التلصص على الشواطئ المصرية وغير المصرية من سواحل البحر الأبيض والأحمر وشرق أفريقيا ، يتلمسون السفن المصرية والمتاجر المصرية فيلحقون بها السوء . وكان من نتائج نشاطهم كشف طريق رأس الرجاء ، الذى هدد مصر فى مورد من أهم مواردها . وقد استغاث بالغورى عدد من أمراء الهند والعرب بمن تربطهم بمصر روابط اقتصادية ودينية ، زد على ذلك إخماء هؤلاء الفرنجة الى ملك الفرس إذ ذاك بالإغارة على ممتلكات مصر وإحديده بالمساعدة .

فاضطرب الغورى إذا . ذلك إلى إنشاء عمارة بحرية بقيادة أحد أمرائه لرد عدوان البرتغاليين وغيرهم من الفرنجة فى شرق إفريقيا وبلاد العرب والهند . فطلت عدة سنوات ولكنها لم تفلح فى رد عدوانهم .

٣ - المحافظة على استقلال البلاد وبسط نفوذها

على الرغم من أن طبقة المالك طبقة طارئة على البلاد المصرية ، وعلى الرغم من أنها طبقة متجددة تجدداً خارجياً باستمرار ، اكتسبت بالإقامة والاستقرار صفة المصرية ، واتخذ سلاطينها وأمرائها هذه البلاد لهم موطناً لا يعرفون لهم موطناً سواه . ولا بدع فقد جلبوا إليه أو نشئوا فيه صفارا ، وشبوا تحت أسمائهم وفوق أرضهم ، وملأ هواؤه صدرهم حياة وحركة ، وحاطتهم نعمه أينما ساروا ، واتسع لهم صدره بما لم يتسع به لهم صدر غيره . وآل إليهم حسب قلبات الأحوال ، حكمه . ونيطت بهم حمايته .

فلا غرابة إذن أن نصبوا أنفسهم ذادة عنه ومدافعين ، وحاطوا استقلاله بكل ضرب من ضروب الصيانة ، وغزوا باسمه في كل مكان يحيط به ، ونشروا رايته على كثير من الآفاق المجاورة ، وأدخلوا في حوزته عدداً ضخماً من البلاد . وأحسنوا سمعته بين دول العالم المعروفة إذ ذاك بصفة عامة ، وبين دول المسلمين بصفة خاصة . فانتشر صيت مصر شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، وامتد ملكها في بعض أيامهم بل وفي معظم أيامهم إلى بلاد المغرب غرباً ، والتوبة جنوباً ، وبلاد الحجاز والشام وحلب وحناف الفرات شرقاً ، وإلى قبرص وغيرها من جزر البحر المتوسط شمالاً .

حافظوا على استقلالها ، وبعثوا بكل من بنى عليه واعتدى على أى طرف في هذا الوطن . لذلك شغلوا جزء كبيراً من زمنهم بالحروب الخارجية .

وحافظوا بصفة خاصة على بلاد الشام وحلب كأنما اعتبروهما جزءاً من مصر لا يتجزأ . وعنوا بهما عنايتهم بالبلاد المصرية ، ونسقوهما من الناحية الإدارية نسقاً مشابهاً للنسق الإداري المصري قريباً ، فكانت مدينتهما نيابات مصرية يعين السلطان لسكل منها نائباً ، فنها نيابة صغد وطرابلس وحلب وحماة ودمشق وغزة

وغيرها . وكان نائب دمشق يعتبر أكبر نواب السلطان بعد نائب السلطنة وكافلها المقيم بالقاهرة .

ومن أجلهما اعتركا مع التتار والفرنجية ، وردوا كلا منهما مرارا عنهما . ومع ذلك لم يقتصر نزاعهم الخارجى على التتار والفرنجية فحسب ، بل كان هناك أمراء التركان وملوك فارس وملوك بغداد وأمراء الأرمن وعربان الحجاز ، وغير هؤلاء وهؤلاء ، كثيرا ما طمعوا فى أملاك الدولة ، ووثبوا أو تحفzوا للوثوب عليها ، فهب لهم أمراؤها وردوهم على أعقابهم داحرين .

ومن أدهى ما ابتليت به السلطة المصرية ، قيام دولة الأتراك العثمانيين ، التى أسست على أنقاض الدول السلجوقية ثم الدول التتارية المتبعثرة ، وملكت بلادا فى أرمينية وشرق الفرات فوق رقبتهما فى بلاد الأناضول . لقد أخذ النزاع بينهما وبين مصر يحتدم شيئا فشيئا منذ عهد الأشرف قايتباى ، فزاد سلاطين مصر عنها ودفعوا غائلتهم وأوقفوا أطماعهم . ولكن ما زال شرهم يكبر ويستشري ، حتى كانت الطامة الكبرى التى أصابت مصر على يدهم إذا فتحتها سلطانهم سليم الأول . بعد جهاد غيف من سلطانها الأشرفين الغورى وطومان باى .

هكذا حافظوا على مصر واستقلالها ، ولولا ما طرأ عليهم من فساد فى النية والتواء فى الطوية وتنازع أملكته الأهواء والمطامع ، لظل لها استقلالها مصونا ولتغير لها بهم وجه التاريخ . وما ذلك إلا لأن بهم نزعة استقلالية ملبوسة واستقلال فى سيلها .

ولم يقف جهد الممالك عند هذا الحد ، بل كانوا يمدون يد المعونة إلى كل من لجأ إليهم واستنجد بهم من ملوك المسلمين وأمرائهم . فعاون الظاهر بيبرس الخليفة المستنصر بالله لرد عرش العباسيين من التتار . وساعد السلطان برقوق القان أحمد ابن أويس صاحب بغداد ضد التتار أيضا . وبعث الغورى عمارة بحرية لمعادنة ملوك الهند والعرب على الفرنجة العابثين بسواحلهم ، وذلك حينما جاءت وسلمهم فى طلب التجارة . وأرسل الغورى أيضا رسله إلى ملوك الفرنجة يلغتهم إلى ضرورة الرفق

بمسمى الأندلس وضرورة الكف عن محاصرة مدنها في نظير أنه يعامل رعاياه من الفرنجة معاملة حسنة ، مهددا بالإساءة إلى هؤلاء الرعايا إذا لم يستجب ملوك الفرنجة إلى ندائه . وذلك كله حينما ناداه صاحب الأندلس مستغيثا به من الحصار . هكذا أتيت فرض عدة هؤلاء السلاطين ، بوجه مصر فيها مركز الزعامة الحربية والسياسية والأدبية بين أهم المسلمين في العصور الوسطى .

٤ - رصد الأوقاف وبذل الأموال وصنع البر :

من المفاخر التي تسابق إليها سلاطين الممالك وأمرائهم وأعيانهم إقامة الأوقاف ورصد الأموال الوفيرة على ضروب البر والإحسان . وسواء كانوا مدفوعين إليه بعامل من الإيمان الصحيح بالله والعطف الحق على الفقراء والرغبة الخالصة في عمل الخير ، أم كانوا مدفوعين إليه بعامل حب الظهور والرغبة في المباهاة والسمعة والصيت فحسب ، أو بعامل الملق إلى الشعب وغض طرفه عن مسامحتهم وأنواع ظلمهم أو بعامل الخوف على ذرائعهم من الفاقة بعدم إذ تولأ ملاكهم إلى السلطان أو بأى عامل آخر من العوامل الاجتماعية أو الاقتصادية . فواء كان هذا أم ذاك فقد نشط الممالك إلى إنشاء الأربطة والسبل والمدارس والمساجد وأوقفوا عليها الدور والأراضي والأموال . وكثيرا ما كانوا ينتهزون فرصة عيد أو موسم أو جمعة أو أى ظرف آخر مناسب ويفيضون بالخير الكثير على الفقير والمحتاج من مال وطعام وكسوة في البلاد المصرية أو الأماكن المقدسة أو غيرها . بل كان لبعض السلاطين عادات مرعية متبعة في مناسبات خاصة يمدون فيها يد المعونة إلى المعوزين والمنكوبين . فكان هذا العمل من جانبهم حسنة من الحسنات خففت كثير من الويلات .

ونحن نسوق هنا طرفا من هذه الأعمال الخيرية نقلا عن ابن إياس لا على سبيل الاستقصاء والاستيفاء ، ولكن على سبيل المثال والاستدلال . فنها .

١ - المستنقبي المنصوري ، البيارستان ، الذي أنشأ السلطان قلاوون عام

٥٦٨٢ - قال ابن إلياس : وجعل له في كل يوم من الرواتب ألف دينار ، ووقف عليه أوقافا كثيرة من ضياع وأملاك وبساتين وغير ذلك . وشرط في وقفه أشياء كثيرة من أنواع البر والخير مما لم يسبق فعله لأحد من الملوك من قبل ومن بعد .. فهو من حسنات الزمان تحتاج إليه الملوك ويفتقر إليه الغنى والصلوك .

وقال ماملنخسه . إن سبب بنائه أن كان المنصور قلاوون قد أطلق مماليسه في العوام وأمرهم بقتلهم فظلوا يقتلون منهم نحو ثلاثة أيام وذلك لتوهمه خالفهم ، ثم ندم على ما جرى وتوهمه إلى الله بإنشاء هذا المستشفى (ج ١ ص ١١٦) .

٢ - في عام ٥٧٠٢ وقعت زلزلة بالبلاد المصرية تهدم من جرائها عدة أبنية وأصبحت عدة مساجد منها الجامع الحاكمي والمدرسة المنصورية وجامع الظاهر بالشواوين وجامع صالح بباب زويلة وجامع عمرو . فقام عدد من الأمراء بترميم هذه المساجد على نفقتهم الخاصة عام ٥٧٠٣ (ج ١ ص ١٤٦) .

٣ - ومن محسناتهم خوند بركة أم السلطان الأشرف شعبان : قيل إنها كانت ذات دين وبر وإحسان . أنشأت مدرسة بالتبانة وربت بها دروسا للذاهب الأربعة ومجلسا للصوفية في كل يوم ، وأسست مكتبا للأيتام وحوضا وسديلا .

(ج ١ ص ٢٢٧)

٤ - وقيل إن السلطان برقوقا لما مرض في أخريات حياته تقرب إلى الله بأن تصدق على العلماء والفقراء بمائتين وخمسين ألف دينار . وقيل إنه كان كثير البر والصدقات ، فمن ذلك أنه أوقف بلدا في الجزيرة ينتفع من إيرادها الحجاج المنتقلون بالحجاز ، وكان له في كل يوم من شهر رمضان عشرون بقرة تطبخ وتفرق على الفقراء ومعها ألف رغيف ، وكان يفرق في كل سنة من التمتع سبعة آلاف أردب في الزوايا والمزارات . (ج ١ ص ٣١٤ ، ٣١٥) .

٥ - في عام ٨٢١ اشتبك الطاعون والغلاء في الهجوم على البلاد المصرية ،

فاستسقى السلطان المؤيد شيخ ثم ذبح بيده قربانا لله عددا من الأغنام والأبقار وفرقها على الفقراء ، وفرق كذلك عليهم ثلاثين ألف رغيف . « ج ٢ ص ٦ »

٦ - وفي عام ٨٢٢ هـ كملت عمارة جامع المؤيد فأوقف عليه السلطان المؤيد شيخ أوقافا كثيرة ، ورتب فيه الدروس وأجرى على الحاضرين فيها الطعام . « ج ٢ ص ٧ »

٧ - ومن المحسنات خوند مغل بنت البارزى زوجة الملك جقمق . كانت دينة خيرة ولها بر ومعروف ، عمرت جامع الشيخ مدين بالمقس ، ووقفت عليه أوقافا كثيرة . « ج ٢ ص ١٣٤ »

٨ - وفي سنة ٨٧٩ هـ رمم السلطان قايتباى مسجد عمرو ورتب ثلاثين صوفيا يقرءون في تربته الخاصة وبني لهم عدة بيوت حولها للسكنى ، وأجرى عليهم الأرزاق من الخبز والزيت والصابون وغيره . « ج ٢ ص ١٥٣ »

٩ - ولما حج قايتباى عام ٨٨٤ هـ بذل كثيرا من المال للفقراء في طريقه وتصدق على فقراء مكة بخمسة آلاف دينار . ولما دخل المدينة المنورة في أوائل عام ٨٨٥ هـ تصدق على فقرائها بخمسة آلاف دينار ، ثم إنه لما عاد إلى القاهرة من حجه هذا أخرج ستين ألفا من الدنانير الذهبية ليشتري بها قاضى قضاء الشافعية ما يناسب من أماكن أو ضياع أو غيرها ويجعلها وقفًا لله على فقراء المدينة . فامتنع القاضى من ذلك ، فتولاه السلطان بنفسه وببنى ربوا في جهة باب النصر والبندقين والخشابين والدجاجين وغيرها .

« ج ٢ ص ١٩٢ ، ١٩٤ »

١٠ - وفي عام ٨٨٦ هـ شرع قايتباى في تجديد المسجد النبوى الشريف وتجميله وإعادة بناء قبته وتزويده بالحديد المرخم بدل الخشب وتغيير المنبر والمآذن . وبعث لذلك كبار المهندسين وعددا من البنائين والنجارين والمرخين . وقد انتهى العمل منه في أواخر عام ٨٨٧ هـ . وقيل أنفق السلطان في ذلك نحو من مائة ألف دينار . وفي عام ٧٨٨ هـ بعث قايتباى مع الحمل مقصورة من

الحديد للحجرة النبوية . « ج ٢ ص ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٢٠ »

١١ - ولما دخلت سنة ٩١٢ هـ تجمع عدد من الفقراء و « الحرافيش » في يوم عاشوراء بأمر السلطان الغورى . وكانوا جميعا غفيرا ، ونزل السلطان بنفسه ووقف فوق سلم المدرج وصار يعطى كل إنسان من الفقراء رجلا أو امرأة ، كبيرا أو صغيرا ، أشرفيا من الذهب . وقيل إنه فرق في ذلك اليوم نحو من ثلاثة آلاف دينار . « ج ٤ حوادث عام ٩١٢ هـ »

١٢ - وفي ذى الحجة عام ٩١٣ هـ ، فرق السلطان الأضحية على العسكر وجماعة من المباشرين والفقهاء . « حوادث عام ٩١٣ هـ »

١٣ - وفي ٨ شعبان عام ٩١٤ هـ نزل الغورى إلى الميدان وجمعت له فقراء المدينة و « حرافيشها » فاجتمع خلق كثير من رجال ونساء فقرق عليهم لكل واحد منهم نصفين من الفضة . قيل إنه فرق في ذلك اليوم نحو من ٤٠٠ دينار . « ج حوادث عام ٩١٤ هـ »

١٤ - وفي جمادى الآخرة عام ٩١٧ هـ ، نزل السلطان الغورى من القلعة وذهب إلى جامعته الذى أنشأه بالشرابشين وإلى مدرسته ، فد له هناك الأمير « خابر بك » مائدة حافلة . وأنعم السلطان في ذلك اليوم على صوفية المدرسة وعلى البوابين والفراشين وأيتام المكتب بنحو من خمسمائة دينار . ولكل شيخ من مشايخ الدروس بعشرة دنانير أشرفية . « ج حوادث جمادى الآخرة عام ٩١٧ هـ »

١٥ - وما فعله الغورى في باب البر والإحسان أنه لما وقف له في جمادى الأولى عام ٩١٩ هـ ، القاضى غفر الدين بن العفيف وشكا له ضيق حاله رسم له بألفي درهم في كل شهر ، وزبديتين من اللحم في كل يوم . وصنع مثل هذا الصنيع مع كثير من الناس في الشهر المذكور ، ورد كثيرا من الرواتب والمجريات التى قطعت عن أهلها ، إليهم .

« حوادث جمادى الأولى عام ٩١٩ هـ »

١٦ - وفي يوم الخميس ٢٢ جمادى الآخرة عام ١٩١٩ هـ حضر طومان باي الدوادار وكان مسافرا إلى الصعيد لجمع الغلال ، وساق معه عددا كبيرا من مشايخ العربان في الحديد بسبب ما تأخر عليهم من المخل . قيل إن عليهم نحواً من سبعين ألف أردب من القمح ، فلما عرضوا على السلطان سأل عن سبب قيدهم ، فأخبره فسكت قليلاً ثم قال : أطلقوهم جميعاً فقد تركت ما عليهم لوجه الله تعالى (١) .

« ج » حوادث جمادى الآخرة عام ١٩١٩ هـ

• - تشجيع حركة إحياء العلوم والآداب

أفردنا لهذا الموضوع جزءاً خاصاً من كتابنا هذا ، وهو الجزء الثاني منه استوفينا الكلام فيه عن هذه الناحية لأنها من أهم ما نعى به . وسقنا في خلال بحوثه كلاماً عن المدارس والمساجد التي أنشئت في هذا العصر لارتباطها به أكثر من ارتباطها بغيره ، ولهذا لم نتعرض لذكرها في الباب السابق وهو باب الكلام عن الأوقاف وأعمال البر والإحسان .

سـيـئـاتـه

١ - احتقار الشعب وإهمال حقوقه السياسية :

أعتقد أن أول فرض على سلطان البلاد ، وأولى الأمر فيها ، السهر على الرعية والحفاظ على كرامتها ، وإنهاضها من عثارها ، وتوجيهها إلى خيرها ، وتزويدها بوسائل القوة المعنوية وتقويم أخلاقها بطرق عملية ، وبت التعليم بين طبقاتها ، بسياسة ثابتة وخطط مرسومة دقيقة ، وإفهامها موضع حقوقها ومكان واجباتها لتسير في حياتها وفق هذه الحقوق والواجبات ، فلا تشبك فيها الأطلاع ، ولا تختلف

(١) في دار الكتب المصرية جنة شرعية مخطوطة تاريخها عام ٨٦٢ هـ سادسة من الأشرف إينال يوقفه على مدرسته بظاهر القاهرة خارج باب النصر . ومنه أملاك بطرابلس والقام ، وبالغربية بمصر وغير ذلك وهي رقم ٦٢ تاريخ .

الاهواء ولا تنضاد المصالح ، مادام كل فرد يعظلم بنصيبه الطبيعي من المسئولية .
بهذا كله تسعد الأمة . ويعيش الشعب عيشة هي أدنى إلى الكمال . والسعيد
هو الذى يحكم شعبا سعيدا ، الثقة بينهما موفورة ، والمحبة متبادلة ، والروابط
وثيقة تامة ، والصلة بينهما صلة ما بين الرأس والأعضاء فى الجسد الواحد .

فهل سرت هذه الروح الطيبة فى سلاطين مصر وأمرائها فى عصر المماليك ؟ وهل
كان هدفهم الأساسى من نضالهم فى الداخل والخارج إسعاد هذا الشعب وتزويده
بوسائل الرفاهية والطمأنينة والحياة الكريمة ؟ كلا ! ولن يستطيع إنسان ما أن
يقول إن الشعب كان وجهة هؤلاء السلاطين والأمراء . بل إن طبيعة وجودهم
والطريقة التى توخوها فى حكم هذه البلاد تتنافى تنافيا كليا مع ما كنا نرجوه أن
يكون بينهم وبين الشعب .

ونحن نعتقد أن على أولى الأمر واجب إنفاض الشعب ، وتبنيه ، وحسن
توجيهه إلى غايته هو الإنسانية لا إلى غايتهم هم الشخصية . نحن نعتقد ذلك لأن
الشعب المربي المتقف الكريم الذى حسن توجيهه ، يكون أكثر صلاحية على احتمال
أعباء الحياة ، وأكثر تماسكا عند نزول الحوادث وأكثر إنتاجا وأوفر إجمادا ،
وأعمق شعورا بلادة الحياة . وفى ذلك كله حياة أسمى لحكامه أنفسهم ، ومنزلة لهم
أعلى وأشرف . لهذا نعتقد أن واجبه الأول أيضا نحو أنفسهم ، هو إنفاض
الشعب ، لأنه نهوض لهم هم وسمو لمكانتهم وعلو لمزلتهم .

ولم تكن هناك فكرة كهذه الفكرة تنمى فى عقول حكام مصر أولئك ، بل
إن طريقة حكمهم - كما قلنا - تتنافى معها تنافيا كليا .

لم يكن هم المماليك إلا الاحتفاظ بحكم هذه البلاد فحسب . واستقلالها ، وتسخير
أهلها فى مصالحهم الخاصة وجني الضرائب منهم . فهم إذا كانوا قد دافعوا عنها ،
ودافعوا كثيرا من أعدائها فى الخارج ، فما فعلوا ذلك إلا خوفا على سلطانهم هم
أن يضيع ، وخشية على نفوذهم أن ينهار ، وحرصا على تعينهم أن يزول وربة
على دولتهم أن تدول .

هم عبارة عن شرائذ من الأفراد جمعتهم ظروف واحدة ، وغاية واحدة
فقرضوا أنفسهم حكاما لهذه البلاد ، دون أن يكون لأهلها رأى فيما فرضوه .
ولم يرضوا لأنفسهم أن يتدججوا في شعبها ، بل حافظوا على جنسيتهم ، وظلوا طبقة
ممتازة ، لها تعاليمها الخاصة ، وتقاليدها الخاصة . وهم جيش الدولة وموظفوها .
ولم يشركوا أفراد الطبقات الأخرى من الشعب في شيء من ذلك كله إلا قليلا .
مع أن للشعب حقوقا فيه طبيعية . ولكن الخطوة التي اتجهوها في معاملة الشعب
وإقصاء أفرادها عن كل نفوذ وسلطة ، جعلت هذه الحقوق مجعولة من الشعب إلى
درجة أنه لم تكن تحوم له حولها آمال . . ولم يقع على نفسه يوما أن له حقوقا
في هذه النواحي . . وهذا موت أدبي شنيع ، وتلك هي الجناية التي جناها المماليك
على الشعب المصري .

ويتجلى إهمالهم للشعب في عدة مظاهر منها : التعليم والجيش وملكية الأرض
والوظائف العامة ، والتقاضى . ولنتكلم كلمة يسيرة في كل موضوع من هذه
توضيحا له وبينا فقول :

١- التعليم .

كتبنا فيما سبق فصلا عن ثقافة المماليك وطريقة تعليمهم ، وبيننا فيه أنه كانت
ثمة عناية بتنشئتهم تنشئة حربية ممتازة وأنهم كانوا يلقبون في صغرهم ضروريا من
الكتابة والقراءة ، وبعض آيات من القرآن الكريم ، وكانوا يراقبون مراقبة دقيقة
ويؤخذون أحيانا بالحرم حتى يتشبهوا بنشأة خلقية صحيحة . فإذا ما شبوا دربوا أندريا
عسكريا ، وعاشوا عيشة رياضية بحتة تنمو فيها عضلاتهم ، ويمهرون في فنون
الحرب من كروفر وحمل سلاح وضرب فشاب ورمى سهم ، إلى غير ذلك .
بيننا هذا مفصلا في الفصل المذكور . فهل كان هذا النظام مباحا لفرد من أفراد
الطبقات الأخرى ، وهل كان هذا التعليم عاما لجميع الطبقات على السواء ، وهل كانت
تبهينات القلعة وطباقتها مبيتا لغير طبقة المماليك ؟ . . كلا ! بل كان ذلك
عليهم محرما .

أما طبقات الشعب الأخرى ، فقد كانت أمامهم أبواب المساجد مفتحة ، يلجأ إليها من يشاء منهم بمحض رغبته ، ووفق ظروف حياته - وبين أفتية هذه المساجد يجدون من الشيوخ والمدرسين أصنافا عدة يلقون دروسهم على الناس ، ولئن يشاء ، دون أن يتجشم في سبيل ذلك مالا يدفعه لقاء تعليمه .

وهذه الطريقة التعليمية نشعر بما فيها من ملاحه وجودة وتيسير ومعونة لطالب العلم ، إذ التعلم فيها حر وبالمجان . بل كانت المعونات المادية تتوالى على طلاب العلم والمتطعين له تواليا مشكورا . وبذلك كله تقوى النزعة إلى العلم الصحيح وتشتد الرغبة فيه ، وتنتج تليجتها المرجوة .

هذا حسن ! ولكننا هنا ننظر إلى المسألة من ناحية أخرى . ونسأل : هل كان السلاطين قد سنوا هذه السنة التعليمية لتثقيف الشعب باعتبار أنها حق من حقوقه وعلى أن له أن يتعلم ، وعلى أنها واجب عليهم نحو الشعب يقومون به ؟

الجواب على ذلك : كلا ! بل إنما كانوا ينشئون المدارس ويشيدون المساجد ، ويقررون بها الدروس المختلفة ، ويرتبون بها مشايخ العلم والفقهاء والمدرسين ، صدقة على الشعب وعلى محبي العلم من أفرادهم يتقربون بذلك إلى الله سبحانه وتعالى ونحن نحمد لهم الزاني إلى الله ، ولكننا نشعر بفرق بعيد بين من يقوم بعمل هو واجبه الذى يشعر بالإثم والجناية لو تركه ، ومن يقوم بهذا العمل صدقة وزكاة ونافلة لا يشعر بالإثم والجناية لو تركه ، هناك فرق بعيد بين الشعورين وبين العاطفتين ، فرق كبير بين اعتبار الشعب صاحب حق يؤدي إليه ، وبين اعتباره مستجديا يتصدق عليه .

بهذه الروح وبهذا الشعور وبنفس العاطفة كان سلاطين المماليك وأمرأؤهم يقومون بنشر العلم . وهى روح وشعور وعاطفة تسمى إلى كرامة الشعب أكبر إساءة ، فإن الشعب من حقه أن يتعلم ، ومن حقه أن تيسر له وسائل التعليم ، ومن حقه أن تنظم له طرق التعليم ومناهجه وتنظيما دقيقا يوصله إلى غاياته ويوجهه إلى سعادته .

ولعلنا نشعر بغضاضة إذا قلنا إنه يتدر أن نجد بين الممالك من اندمج في غمار الشعب وتلقى العلم كما يتلقى أفراد منه ، وتتلذد لبعض مشايخه كما يقتلبدون . وانقطع إلى طلبه كما كانوا ينقطعون . ثم أصبح من بعد شيخا يشار إليه في علم أو أدب . . وإن كان ثمة من كتب أو نظم أو تفقه فهو نادر .

ب - الجيش :

لم يسن سلاطين للممالك هذه السنة التعليمية التي أشرنا إليها إلا لتنشئتهم أسرة عسكرية ضخمة يكون سوادها جنودا ، وتكون خاصتها أمراء عليهم ، ويقطعون اسكل منهم الإقطاع الذي يناسبه . وسواء أكان جنودهم هم الجنود السلطانية الذين ينفق عليهم السلطان من الخزانة الشريفة . أم كانوا أتباع الأمراء . فالجميع سواسية في هذا الشعور وفي هذا التوجيه .

ولم يكن يسمح لفرد من أفراد الشعب من غير الطبقة المذكورة أن يندمج في عدادها وينغمر في غمارها ويصبح عضوا من أعضاء هذا الجيش ، وكيف يقضى لفرد أن يندمج هذا الاندماج وهو لم يتقف ثقافة عسكرية ، ولم يتدرب التدريب الرياضي المناسب الذي يؤهله لهذه العضوية ؟

كان غرض الممالك من هذا أن يظل جيشهم سليما من الشوائب الغربية المتجانسا بريثا من كل عضو دخيل ، ومن غريب الأمر أن كانوا يفضلون الجنود الأتراك أو الجراكسة الجدد الطارئين من الخارج والوافدين مع تجمار الرقيق ، على ناشئة البلاد وشباب الشعب المقيمين في داخل هذا الوطن . وكأنما كانوا يظنونهم طبقة عاملة لا تصلح لحرب أو ضرب ، أو تقييد في قتال أو نزال ، وكأنما ظنوها خلقت وليس في طبيعتها مهمة تقدرها على الثبات في ميادين الوغى ، أو أنها طبيعة متأينة على الفنون العسكرية ، تلك الفنون التي كانت وفقا على الجنس التركي في ذلك الحين

ومع ذلك لم ينبج الجيش من اختلاف الجنسية ، ولم ينبج من الحزبية التي تشعبت بتشعب الملوك والأمراء ، فكان لكل منهم طائفة تنتمي إليه ، فكان منهم في

بعض الظروف : الممالك الأشرفية وغير الأشرفية . والممالك الجبلان والممالك
القرانصة . وأكثر ما طرأ هذا الفساد في القسم الأخير من العصر .

ومع هذا كله ، كانت نظم جيشهم تنفر دون قبول فرد من أفراد الشعب ،
وكيف كان يتسع صدرها لقبول فرد منه وهم ينعثون هؤلاء الأفراد بالفلاحين
نارة ، وتارة بالعوام والزعر . . .

هذه الحالة التي وصفناها أقرت في نفس الشعب شعورا عجيبا أوفكرة عجيبة
وهي أن هؤلاء السادة طبقة ممتازة حقا منحها الله حكم هذه الديار ، وأصبحوا ولاية
أمرها بما لهم من قوة وشجاعة وجاه وحيلة ، وليس على الشعب سوى طاعتهم
والإتباع بأمرهم والإنتهاء بنهيهم ، ودفع ما يطلبون من الضرائب ، وقد ألفت
المشيئة أمر الدفاع عن البلاد على كاهلهم وحدهم . والله يولي منهم من يصلح ..

وقد يجب قارىء ويعترض على هذا ويحتج بأن كثيرا من العامة وعربان
البلاد اشتروا في بعض الحروب ورجحوا كافة سلاطينهم ، وهذا صحيح ، ولكنهم
كانوا يقاتلون معهم لأعلى أساس ثابت ونظام موضوع ، بل هو أمر مرتجل تدجو
إليه الساعة الشديدة والحدث القاسي المشترك . على أن هؤلاء العامة والعربان يغلب
عليهم اشتراكهم في القتال ، إما بدافع ديني أو حبا في النهب والسلب والاستحواذ
على ما يمكن الاستحواذ عليه بأي طريق ، ولم تكن غايتهم المستقرة في نفوسهم
غالبا ، الدفاع عن الوطن ، باعتباره وطننا . هذا على الرغم من ادعاء بعض العربان
حينذاك أن البلاد بلادهم دون الأتراك .

ولا أدل على ما وصفنا من أن الصلة الروحية لم تكن قوية بين جيش البلاد
وأفراد الشعب إذ كان هؤلاء الأفراد - كما قلنا - يشعرون أن هذا الجيش مسلط
على الشعب لحكمه وإخضاعه فحسب ، وقليل ما تجلى عطف الشعب على جيشه
المحارب ، أوزوده هذا العطف بقوة معنوية اعتمد عليها ، أو شعر الجيش نفسه
أنه في حاجة إلى هذا العطف عليه .

وهذا غير ما نفهم في عصرنا الحديث - على الأقل - من متانة الصلة بين الأمة وجيشها ، ومن أن الأمة تعتبر جيشها أعز فلانها ، وأنه يضم أفضل بنينها وأحبهم إليها ، وتظل توليهم عطفها ومحبتها الدائمة ، وتظل عواطفها متعلقة بهم ، ليدافعوا عنها بنفسية قوية كما يدافع العاشق عن معشوقه ، وكما يدافع الولد عن أمه وأبيه ، وكما يدافع الرجل عن نسائه وبنيه - وإن أفراد الأمة الآخرين ولو لم يشتركوا - كما اشترك أفراد الجيش - في قتال الأعداء فهم مشتركون معهم بالنفس والروح والقلب والعقل والعاطفة والمال وبكل شيء ، وهم على قدم الاستعداد للانضمام إلى صفوفهم إذا دعت الحاجة ، وينتظر كل منهم دوره في الذود عن وطنه بصبر فارغ ، وقلب يملؤه الشوق .

ولا ينهض حجة علينا ما قد يصادفه القارىء ، حين يقرأ أخبار الفتوح والانتصارات التي تمت على يد سلاطين المماليك ، من أن الأفراس قدسرت في البلاد وأن الزينات انتشرت في أرجائها ، ودقت الطبول ... إلى آخر ما هنالك ، فأغلب الظن أن هذه مظاهر رسمية قليلا ما اشترك في إقامتها أفراد الشعب عن إخلاص أو صدرت منهم عن عاطفة قلبية عميقة صادقة .. وإن كانت هذه الفتوح موافقة لهوام.

وإلا فكيف نفسر امتناع بعض المصريين عن دفع الضرائب المتأخرة عليهم حينما طلبها منهم نائب الغيبة الأمير «طومان باي» بعدما كان سلطان البلاد الأشرف النورى يقاتل العثمانيين في «مرج دابق» وكان «طومان باي» في حاجة قصوى إلى المال لتعويض القتال وإقامة الاستحكامات في مصر انتظارا للقضاء العثمانيين .. امتنع هؤلاء عن دفع المتأخر عليهم ، وكانت حججهم في ذلك أنهم لا يدرون لمن تكون البلاد ، ومن سيكون ولها الشرعى ١ . الذى يجب تأدية الضرائب إليه ، وقالوا إنهم صابرون حتى تتجلى هذه المعارك ثم يدفعوا هذه الضرائب لمن يغلب وتضع له البلاد ... وحسبنا هذا .

(ج) ملكية الأرض :

بعد أن دخل العرب مصر ، تصرف حكماها في الأراضي الزراعية ، ثم اتبع نظام « القبالات »^(١) ، ومعنى ذلك أن تقسم الأراضي أقساما ، ثم ينادى عليها قسما قسما في « مزاد علني » ، ويتقدم فيه لقبولها من يشاء من أهل مصر . ويزايد الناس في تقدير خراج القسم المعروض ، حتى يرسو المزاد على أحدهم ، بما قدره من خراج يتعهد بدفعه في مواعيده ، بعد أن ينضم منه مقدار المال الذي أنفقه في استصلاح أرضه . وكان هذا الخراج بمثابة إيجار للأرض لمدة معينة ، ويدفع خراجها المقدّر سنويا ، حتى تنتهي مدته . وحينئذ يعاد النداء على الأرض ويعقد لها كتاب الخراج مزادا جديدا ، وهكذا .

واعتمادوا إثر كل ثلاثين سنة ، أن يعيدوا تقسيم الأراضي تقسيما جديدا ، على ضوء التجارب وباعتبار ما زاد منها واتسع واستصلح ، أو ما قل وضاق وبار ، وهذه اعتبارات لها اتصال بتقدير خراجها الجديد . وظل نظام « القبالات » متباعنا حتى حل محله نظام الإقطاع ،

ونظام الإقطاع عبارة عن تقسيم الأراضي الزراعية أقساما أو إقطاعات أو « دوائر وتفاتيش » بلغة عصرنا . ثم يختص السلطان نفسه بنسبة خاصة من هذه الإقطاعات . ويمنح البقية لأمراءه وجنوده فحسب . أما عامة الشعب فقد حرموا ملكية الأراضي أو إيجارها .

ويبدو أن نظام الإقطاع أتبع منذ عصر صلاح الدين الأيوبي^(٢) . ثم ظل سائدا في مصر طيلة عصر المماليك ، فكان في جملة مساوئ المصريين .

(١) الذي نفسه من كلمة القبالات « الأراضي للقبيلة بما تقدر عليها من خراج » ومفردها قبالة ، وفي رأينا أن ثمةا مثلثة ، وكلها يؤدي المعنى . قال في المحيط ما مؤاده : قبائله بالجمع : قبايلة . وقيل المرأة كعلم أخذت الولد عند الولادة ، قبالة بالكسر . وقيل العامل العمل قبلا نادر ، والاسم القبالة .

(٢) مقسمة تقويم النيل ص ١٢٤ .

وصاحب الإقطاع يستغله لنفسه ما دام بمنوحاله ، سواء في ذلك السلطان أم الأمير أو الجندي . وجميع السكان الذين يعيشون في الإقطاع ، ويفلحون أرضه ، أجراء بل خدم وعبيد لصاحب الإقطاع . وقد عرفوا من ذلك الحين « بالفلاحين » قال المقرئ في خطبه (١) :

« واعلم أنه لم يكن في الدولة الفاطمية بديار مصر ، ولا فيما مضى قبلها من دول أمراء مصر ، لعساكر البلاد إقطاعات بمعنى ما عليه الحال اليوم في أجناد الدولة التركية . وإنما كانت البلاد تضمن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء والأجناد والوجوه وأهل النواحي من العرب والقبط وغيرهم . لا يعرف هذه الأبدية التي يقال لها اليوم « الفلاحة » . ويسمى المزارع المقيم بالبلد « فلاحا » قرارا . فيصير عبدا قنا لمن أقطع تلك الناحية ، إلا أنه لا يرجو قط أن يباع ولا أن يعتق ، بل هو قن ما بقي ، ومن ولده كذلك »

والإقطاعات لا تورث ، بل ترد إلى يد السلطان إذا مات أصحابها ، ليعود السلطان بدوره ، فيها لمن يشاء ، ولمن يستحقها من جديد . ومن هنا نفهم السرفى أن الأمراء كانوا يستغلون إقطاعاتهم إلى أقصى حدود الاستغلال ، لمصلحتهم الخاصة ، لكي يحوزوا من المال البعيد عن الإقطاع ، الشيء الكثير . وكثيراً ما كانوا يستعبدون على استبقاء ما في أيديهم من ممتلكات بوقفها ، حتى لا تمتد إليها يد السلطان في حياتهم أو بعد موتهم ، وحتى ينتفع بها ذريتهم . وأفراد الشعب على كل حال ، محرومون الملكية أو الانتفاع من أراضي بلادهم الزراعية ، إلا ما قد يصيبهم من الأجر على العمل ، أو المعونة من مال الأوقاف .

وقد قال ابن خلدون : ولقد وقع لهذه المصير بمصر ، منذ مائتين من السنين في دولة الترك ، من أيام صلاح الدين بن أيوب ، وهم جرا . وذلك أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادة سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم ، لماله عليهم

من الرق والولاء ، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته . فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ، ووقفوا عليها الأوقاف المغلة ، يجعلون فيها شركاء لولدكم ينظر عليها أو نصيب فيها . مع ما فيهم غالبا من الجنوح إلى الخير والتباس الأجور في المقاصد والأفعال . فكثرت الأوقاف . . .

على أن السلطان كان يتصرف أحيانا في الإقطاع ، فيسترده من صاحبه - لدواع من الرضا أو الغضب - فيمنحه إقطاعا آخر جديدا أكثر غلة ، أو يحرمه غير سله « طرخانا » - أى عاطلا - وينفيه إلى القدس أو مكة مثلا . كما أن بعض السلاطين كان يجترى على ما أوقفه أمراؤه ، فيأمر بحله . وقد أمر الناصر محمد بن قلاوون بحل ما أوقفه الأميران يبرس الجاشنكير وسلار نائب سلطنته . (١)

وقد روى المقريزي في خططه الحديث عن « القبالات » (٢) . أما الإقطاعات فقد اشتهر في عصر المماليك تقسيان لها يسميان « الروكين » هما الروك الحسامى ، والروك الناصرى . (٣)

أما الروك الحسامى . فقد تم في عهد المنصور حسام الدين لا جين . قيل : إنه لما أنضت إليه السلطنة ، رآك البلاد - أى قسمها - وذلك لما رأى أن الأرض ٢٤ قيراطا ، منها ١٠ للسلطان ، و١٠ للأمراء ، و١٠ للأجناد . وكانت إقطاعات الأجناد لا تفصل إليهم ، لتغول الأمراء عليهم ، فدخلت في إقطاعاتهم . فأبطل السلطان هذا التقسيم ، وجعل للأجناد والأمراء عشرة قرايط ، وللسلطان أربعة ، ولخدمته العسكر تسعة ، وواحد لزيادة من عساه يطلب الزيادة .

فكان هذا شذبا لتكرار قلوب الأمراء له ، وسرعان ما ذهبت دولته عام ٦٩٨ هـ . ولما عاد الناصر محمد بن قلاوون إلى سلطنته عودته الثانية ، رآك البلاد من جديد . وعرف روكه بالروك الناصرى وذلك عام ٧١٥ هـ .

(١) الخطط للمقريزي ج ١ ص ١٤٥ .

(٢) الخطط للمقريزي ج ١ ص ١٣١ .

(٣) ج ١ ص ١٤١ .

أما الروك الناصري ، فلخص ما قيل فيه : أن الناصر بن قلاوون رأى أن يروك البلاد المصرية وركا جديدا عام ٥٧١٥ . فأبطل مكوسا كثيرة . وقد نظم له هذا العمل القاضي غفر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش . فأرسل الأمراء والكتاب والقياسين إلى النواحي للاطلاع على مكلفات ، كل ناحية وضبط ما فيها من حيوان وما لها من غلة ، وما عليها من خراج . ثم القيام بقياس كل ضيعة ، وتطبيق ذلك على المكلفات ، والأوراق ، مسترشدين في ذلك بأهل الإقطاع ومشايخه وعدوله وقضائه . وقد أنجز هذا العمل في نحو ٧٥ يوما ، ثم انقسمت كل الأراضي إلى عدة مثالات — أقسام — منها الكثير الغلة ، ومنها القليل الغلة . وقام السلطان بعرض عام ، استعرض فيه الجنود جنديا جنديا ، كل طائفة مع مقدمها ، يقدمها ققيب الجيش أمام عيون الأمراء فيسأل السلطان الجندى عن اسمه وسنة مولده ووفوده على مصر ، والحوادث التي اشترك فيها ، إلى غير ذلك ، ثم يمنحه مثالا .

هكذا وزع الناصر الأراضي على أمرائه وأجناده مستبقيا لنفسه عشرة قراريط من مجموع الأراضي ، اختار مواقعها حسب مشيئته . وترك لجنوده وأمرائه أربعة عشر قيراطا . فكانت نسبة التقسيم ١٠ : ١٤ ، ويبدو أن تعديلات متكررة قد أدخلت على هذا التقسيم ومواضع الإقطاعات ، دون أن تمس نسبته . ومنها ما وقع في عهد الأشرف شعبان والظاهر برقوق .

وعما يتصل بهذا الموضوع ، ما أورده ابن إياس عن السلطان الغوري ، قال إنه : « أحدث شيئا لم يفعله أحد من الملوك قبله ، وهو أنه نقص من إطلاقات الأمراء أشياء كثيرة ، وأخذ منهم الخلوآن زيادة عن العادة . فنقص من إطلاق الأمير الكبير سودون العجمي مائتي فدان . وكان قبل ذلك سلخ من إقطاعه جهات بنحو من عشرين آلاف دينار ، كون أنه كان لين الجانب فاستضعفه . ونقص من إطلاق بقية الأمراء المقدمين كل واحد مائة فدان ، ومن إطلاق الأمراء الطلبخانات كل واحد عشرين فدانا ، ومن إطلاق الأمراء

العشرات كل واحد خمسة عشر فدانا . (١) .

ويبدو أن من الأمراء والمقطعين من كان يدفع أرضه إلى الزراع يفلحونها ويزرعونها وينالون من غلتها لقاء مال يفرضه عليهم صاحب الإقطاع . وكثيرا ما كان السلطان يفرض على هؤلاء المساكين الغرامات الفادحة ، ويسخرهم في إعداد جمال أو دواب ، أو تقديم شيء من التبن والغلل والفاكهة ، لقاصد يمر بهم ، أو أمير يجتاز إقطاعهم ، أو تجريدة أشخص لقتال أو إخماد فتنة .

ومهما يكن من شيء . فقد كان نظام الإقطاع ذا أثرين سيئين بارزين ، أولهما إغراء الأمراء بالإسراف والمباهاة وحب الظهور ، والإمعان في الترف والملذات ، لكي تتمتع هذه الأمور ثراءهم قبل أن تنتهي حياتهم فيثول إلى السلطان ، ولما يمتعوا به . وثانيهما فقر الشعب فقرا أورثه الهم والحول والشقاء .

(د) الوظائف العامة :

إذا استثنينا وظائف القضاء والكتابة وما إليهما ، وجدنا وظائف الدولة عسكرية ، لا يليها إلا الأمراء ، سواء في ذلك إمارات الجند وغيرها ، حتى ما كان منها أبعد عن الجندية وأدق إلى غيرها مثل الحسبة . فلم يكن لفرد من الشعب مهما سمحت همته أن يصل إلى منصب منها إلا نادرا جدا ، وفي أحوال فردية ، وبذلك حرم الشعب الهيمنة على إدارة شئونه . كما أن تصرف الموظف في شئون وظيفته كان منوطا برأي السلطان ، إذ كانت المناصب ذات متات وثيق به ، وكلها تسهر على خدمته ورعايته وتنفيذ إرادته .

أما العمل في مجال القضاء والكتابة فلا يتفق وطبيعة النشأة التي نشأ عليها أمراء الممالك . ويندر أن نجد لاحد منهم اجتهادا في فقه ، أو بروزا في أدب ، أو مشاركة في علم . والدولة في حاجة إلى قضاة يحكمون بين الخصوم بما أنزل الله ، حتى لا تتعطل

(١) البدائع ج ٤ حوادث شعبان سنة ٩١٨ هـ - والإطلاق أرض مظاة من الضرائب «راجع

السلوك ج ١ ص ٧٨٨ - حاشي ٤ .

مصلح الناس . وفي حاجة إلى كتاب ناهين في العرية لضبط أمورهما وحسابها . وكانت قد اتخذت العرية أداة لتفاهمها الرسمي - لهذا لجأت مضطرة إلى استخدام القضاة والمنشئين والكتاب من البارزين بين أبناء الشعب ، في مناصب القضاء والكتابة ، وهؤلاء هم المتخرجون في المساجد ، ويعرفون « بالمتعممين » .

وقد يكون لبعض هؤلاء نفوذ ما وجاه ، لما يتحلون به من فضل وعلم ، ولما يعرفون به من ورع وتقوى . ومن هؤلاء قضاة كان يؤخذ رأيهم عند فرض الضرائب الجديدة ، وفي مال الأوقاف عند الحاجة إلى شيء منه . ويستشارون في الحرب قبل إعلانها . كذلك كان بعض كبار الكتاب من أصحاب ديوان الإنشاء وكتاب السر يبلغ نفوذ أحدهم إلى مثل ما يبلغه وزير الخارجية في زماننا . فترد إليه المكاتبات الخارجية ويرد عليها ، بعد أخذ رأى السلطان .

هؤلاء وهؤلاء - إن جاز أن نعتبرهم يمثل الشعب في هذه الدولة - لاندسى أن تعيينهم في وظائفهم كان رهنا بمشيئة السلطان وحده ، لهذا غلب عليهم الخضوع له . وأن حوادث نفوذهم فردية . وأن آراءهم استشارية لحسب . ومن برزوا منهم ، وكان لهم رأى مسموع : عز الدين بن عبد السلام في عهد بيبرس . وسراج الدين عمر البلقيني في عهد برفوق . وأمين الدين يحيى الأنصراوى في عهد قايتباى . وزكريا الأنصارى في عهد الغورى . وكلهم من رجال الدين . ويحيى الدين بن عبد الظاهر في أيام بيبرس . وشهاب الدين بن فضل الله . وأخوه علاء الدين . وعلاء الدين بن الأثير في أيام الناصر بن قلاوون . وناصر الدين محمد بن البارزى ، وتقى الدين بن حجة الحوى في أيام المؤيد شيخ . وكلهم من رجال القلم .

(٥) التفاضلى :

كانت قوانين القضاء المعمول بها ، مستمدة من الدين الحنيف - كما بينا في فصل القضاء - والمتخاصمون متساوون أمامها . وهذا ما يحمده عليه العصر . ولكن وجود حاجب الحجاب وأعوانه وإعطاءهم حق الفصل في قضايا الممالك ، ثم اتساع

نفوذهم بعضى الأيام ، يشعروا بأنهم كانوا يتأبون على التساوى مع عامة الشعب أمام القانون .

ولا نترك هذا الباب دون أن نقول إن الممالك ، إلى جانب حرمانهم الشعب حقوقا كثيرة ، كانوا ينظرون إلى طبقاته على اعتبار أنها طبقات منحلة ، لا تصلح لحكم ولا رياسة . ولعلمهم كانوا يصرون فى ذلك لا عن عقيدة ، ولكنها شهوة الحكم وحب الاستئثار به ، وجهتهم هذه الوجهة . وكانوا يطلقون على عامة الشعب « الفلاحين أو الزعر » - كما مر - .

ومن لطيف ما انساق إليه ابن إياس متأثرا بهذه الروح السائدة - ج ٤ حوادث ربيع الثانى عام ٩٢٠ هـ - قوله عن شمس الدين بن عوض من رؤساء عصره :-
« ولما صار شمس الدين بن عوض من جملة الرؤساء ، لم يخرج عن طبع الفلاحين الذى ربي عليه . فكانت عمامته عمامة الفلاحين ، وكلامه كلام الفلاحين كأنه فلاح قحف ، كما جاء من وراء المحراث .. ولم ينظر فى رياسته . فكان كما يقال :

فتبته ريف يقول إني برعت فى العلم والرواية
فقلت لا شك أنت عندى تصلح للدرس والدراية ،

٢ - فداحة الضرائب وتعدد أنواعها :

لا بد للدولة من أن تفرض على رعيها ضرائب مختلفة لتكون وسيلتها إلى الإنفاق على شئونها . ولكن بشرط العدالة والمساواة ، والتبديل فيها والتغيير حسب مقتضيات الأحوال .

وقد كانت الأراضى الزراعية ملكا للسلطان - كما بينا - يقطع منها من يشاء من أمرائه وجنوده ، فى حدود أربعة عشر قيراطا . ويزرع « الفلاحون » هذه الأراضى ويؤدون ثمراتها للباقعين ، فيؤدون بدورهم ما فرض عليهم للسلطان من خراج إقطاعاتهم .

وبجوار طبقة الإزراع ، طبقات التجار والصناع وأرباب الحرف ، وملاك

النازل وسكانها . هؤلاء جميعا كانت تفرض عليهم ضرائب أخرى ، في نظير مزاوله البيع والشراء أو في نظير الحراسة أو نحو ذلك .

ويجبل إلينا أن السلاطين لم يتركوا ناحية يستطيعون فيها فرض ضريبة إلا سلكوها . وكثيراً ما فرضوها ظالمة فيها الشطط الكثير ، وفرضوها دون أن تدعو إليها مصلحة عامة ، بل كثيراً ما فرضوها للمصلحة الخاصة . ولكي يسد بها السلطان أفواه الثائرين عليه من الجنود . وكثيراً ما انتهر السلاطين فرصة الحرب لفرض الضرائب القادحة بدعوى الإنفاق عليها . ومنهم من تطلع في هذه المناسبة أو في غيرها - إلى مال الأرقاف ، ومنهم من أثقل على أبواب المناصب بالمصادرات وفرض الغرامات الباهظة ، عند وقوعهم في خطأ ما . فكانت هذه الغرامات لونا من ألوان الضرائب المستورة التي أثقل بها كاهل الناس . ومن الحق أن نذكر أن بعض السلاطين - مثل الناصر بن قلاوون - كان يلغى شيئاً من الضرائب المفروضة أو يخفف منها ، فيلجج الناس بالثناء عليه ، ويضجون له بالثناء... ولكنها حوادث فردية ونادرة .

ونسوق هنا عدداً من الأمثلة على الضرائب وثقلها ، وعدداً من الحوادث التي تشعرونا بظلم هذا العصر وفداحة مكوسه . فمن ذلك ما ذكره المقرئ في خطه بالجزء الأول عند الكلام عن الروك الناصري . قال ما ملخصه : أن السلطان الناصر محمد أبطل ضروبا من المكوس والمقررات فيها :

١ - مكس ساحل الغلة : وكان جل متحصل الديوان ، وعليه إقطاعات الأمراء والأجناد . ويتحصل منه في السنة أربعة آلاف ألف وستمائة ألف درهم . وعليه أربعمائة مقطع ، لكل منهم من عشرة آلاف إلى ثلاثة آلاف . ولكل من الأمراء من أربعين ألفاً إلى عشرة آلاف . وكانت جهة عظيمة .. لها متحصل كبير جدا . وينال القبط منها منافع كثيرة لا تحصى . ويجل بالناس من ذلك بلاء شديد وتعب عظيم من المغازم والظلم . فإن مظالمها كانت تتعدد ما بين نوتية تسرق ، وكيالين تبخس ، وشادين وكتاب ، يزيد كل منهم شيئاً . وكان مقرر الأردب درهمين

السلطان ، ويلحقه نصف درهم غير ما ينهب ويسرق . وكان لهذه الجهة مكان يعرف « بخص الكيالة » ، في ساحل بولاق ، يجلس فيه شادوستون متعماً ما بين كتاب ومستوفين ، وناظر وثلاثون جندياً مباشرون . ولا يمكن أحداً من الناس أن يبيع قدماً من غلة في سائر النواحي . بل تحمل الغلات حتى تباع في « خص الكيالة » ببولاق .

٢ - نصف السمسة عبارة عن أن البائع يدفع عن كل شيء يبيعه بمائة درهم نحو درهمن يدفعان للدلال ، فقرر على الدلال دفع درهم من الدرهمين . فأخذ كل دلال يبذل جهده لاستيفاء هذا الدرهم من البائع نفسه ، حتى لا يقل نصيبه ، فأصاب الخيف لكل بائع ، وعلا الضجيج والشكوى من الدلالين ، ولا من مغيث ولا سامع .

٣ - رسوم الولاية : ضريبة يجبيها الولاة والمقدمون من عرفاء الأسواق وبيوت الدعارة . وكثيراً ما نال الناس منها ظلم شنيع وفساد قبيح . وهتك قوم مستورين ومجوم على بيوت الناس .

٤ - مقرر الحوائض ^(١) والبالغ : وكان يجبيه من القاهرة وسائر مدن مصر ، الولاة والمقدمون أيضاً ، ويحمل متحصله إلى بيت المال . ويجبي عن الحياصة ثلثمائة درهم وعن البغل خمسمائة درهم . وكان يصيب الناس من هذه الضريبة كثير من عسف المراقبين .

٥ - مقرر السجون : ضريبة يدفعها كل من يدخل إلى السجن برئاً كان أم مظلوماً ، ولو لم يتم في السجن إلا لحظة قصيرة . وكان يدفع منها للسجان ستة دراهم من ضريبة كل مسجون .

٦ - مقرر طرح الفرائج : وهي عبارة عن أن الفرائج اختص ببيعها جماعة من الضامنين يطرحونها على الناس للشراء ، فمن احتاج إلى فروج ، اشتراه من الضامن بالثمن المفروض ، وفي ذلك كثير من الظلم : ومن اشترى أو باع فروجا عن طريق

(١) الحوائض جمع حياصة وهي المزمار .

آخر غير طريق الضامن ، قال المقرئى : « جاءه الموت من كل مكان وما هو بميت ... » .

٧ - مقرر الفرسان : ضريبة يجيها ولاية النواحي فوق كل ضريبة ، أى أنها ضريبة إضافية . فمن يدفع درهما ضريبة أصلية يدفع معها درهما آخر أو نحوه ضريبة إضافية للجباة .

٨ - مقرر الانقصاب والمعاصر : وهو ما يجي من مزارع قصب السكر ، ومن المعاصر ورجال المعاصر .

٩ - مقرر رسوم الأفراح : يجي ممن يقيمها ويغالى فيها أحيانا ، وتفرض فوقها غرامات عادة ..

١٠ - حماية المراكب : ضريبة تؤخذ من كل مركب ، وهى عبارة عن رسم يدفعه المسافر فيها ، وكل من ركبها حتى الفقير والمحتاج والسائل .

١١ - حقوق القينات : يجي هذه الضريبة من أهل الدمار ة وفرتكى المنكرات .

١٢ - مقرر المشاعلية : وهو عبارة عن ضريبة تؤخذ من أصحاب المنازل نظير كسح الأبنية ومحال القذارة . وكان هناك لهذه الحرفة صناع مخصوصون ، ولكل جهة ضامن - مقال - يقوم بهذه العملية ، ولا يستطيع أحد سواه أن يقوم بها . ولذلك كان يشتط كما يشاء فى فرض الأجر .

وإلى القارئ الآن بعض ما ذكره ابن إياس فى تاريخه عن الضرائب وفرضها وإلغائها وظروفها وما لا بس ذلك من الحوادث والاعتبارات فنه :

١ - لما قرر السلطان المظفر قطز أن يحارب التتار عام ٦٥٨ هـ أخذ فى جمع المال اللازم لذلك . فأخذ من أهل مصر والقاهرة دينارا واحدا لكل رأس ذكر أكلان أو أثنى . وأخذ من إيجار الأملاك والأوقاف أجره شهر ، ومن أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلة ؛ ومن ضرائب الأراضى الأهلية ثلث ما فرض عليها معجلا ، وعلى النيطان والسواقي أجره شهر . - قال : وأحدث من أبواب هذه المظالم أشياء كثيرة .. « ١٦ ص ٩٦ »

٢ - أبطل المنصور قلاوون وظيفة « ناظر الزكاة » ، وهو من يأخذ من عنده مال ، زكاة هذا المال ، فإن مات ذو المال أو عدم ماله ، يظل المقرر عليه يحجب منه إن كان حياً أو من ورثته أو من أقاربه إن مات ، ولو كانوا واحداً فحسب ، ولو كان المال قد هلك و زال منذ زمن بعيد . « ج ١ ص ١٢٠ »

٣ - في سنة ٧٤٨ هـ في عهد السلطان الناصر أبي المحاسن حسن تهدمت سواحل النيل من ناحية الجيزة ، فرسم للأمير منجك اليوسفي الوزير أن يتولى ترميم هذه الجسور . فعرض على كل دكان بمصر والقاهرة درهمي فضة ، وعلى كل نخلة بالشرقية درهمي فضة أيضاً . فاجتمع مال كثير اشترى به منجك حجارة كبيرة الحجم ورمها به . ولكنهم لم تقد شيئاً و طغى عليه الماء فقبض عليه بسبب ذلك و صودر ماله و عزل من الوزارة . « ج ١ ص ١٩٠ »

٤ - وما أبطله الناصر بن قلاوون « ضمان الفواق » ، وهو عبارة عن ضريبة تجبي من البغايا ، وذلك أن البني إذا أرادت احتراف البغاء و نزلت عند امرأة تسمى « الضامنة » ، و دفعت لها مالا معينا ، أمنت أن يدهمها أى إنسان . فكان يجبي من وراء ذلك مال كثير .

ويظهر أن هذه الضريبة قررت مرة أخرى بعد عهد الناصر ، لأن الأشرف شعبان أبطلها في عهده أيضاً . « ج ١ ص ١٧٥ ، ٢٣٠ »

٥ - وما أبطله الأشرف شعبان عام ٧٧٨ هـ « ضمان القرايط » . وهو عبارة عن ضريبة يدفعها البائع الذى يبيع ممتلكات ، فيؤخذ منه عن كل ما ثمنه ألف درهم عشرون درهما . « ج ١ ص ٢٣٠ »

٦ - وفي عام ٧٨٩ هـ أراد بوقوق أن يعد حملة عسكرية لملاقاة التتار في بلاد الشام و حلب . فمقد مجلسا كان في جلسته الخليفة والقضاة الأربعة و شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني ، و طلب إليهم أن يأخذ جانباً من مال أوقاف المساجد والمدارس ، فلم يوافق القضاة ولا البلقيني على ذلك ، و وقع بين الجميع جدال عنيف

ثم انجلى غباره عن أن يؤخذ من مال الأوقاف أجرة الأماكن لمدة سنة، ومن خراج الأرض لمدة السنة أيضا، وتبقى الأوقاف كما هي. وقد شرع السلطان في جبي هذه الأموال من الناس وقسا الجباة عليهم في ذلك حتى استعملوا معهم العصا والضرب والإكراه.

« ج ١ ص ٢٦٧ »

٧ - وفي عام ٨٠٣ هـ أراد السلطان فرج بن برقوق أن يخرج إلى الشام في تجريدة لقتال التتار. فرسم بأن يؤخذ من بلاد المقطعين ومن أملاك القاهرة وضواحيها أجرة شهر واحد، وعن كل فدان عشرة دراهم، ومن البساتين عن كل فدان مائة درهم، وأخذ الجباة يفتحون المتاجر قوة واقتدارا باحثين وراء المال زاعمين أن السلطان يريد الاقتراض من مال التجار. فن كل من التجار موجودا وقت البحث في متجره أخذوا نصف ماله وتركوا له النصف الآخر، وإلا جردوا المتجر مما فيه من قماش ومال.

ثم أخذ السلطان كذلك من أوقاف الجوامع والمساجد أجرة شهر واحد، حتى من أوقاف المستشفى المنصوري « البهارستان »، وقد أذى كثير من الناس في هذه الحوادث، وكثرت أضرار أموالهم وسجن رجال.

وكان القائم بحماية هذه الأموال الأمير « يلغا السالمى »، الاستادار. وقيل إنه أخذ لنفسه منها أضعاف ما ورده إلى السلطان. وهذا دليل على فوضى الجبي. فلما بلغت هذه الدعوى سمع السلطان قبض عليه وسجنه وعزله من الاستادارية.

« ج ١ ص ٢٣٠ »

٨ - وما صنعه السلطان فرج أيضا بمناسبة تجريدته إلى بلاد الشام أن عرض أجناد الحلقة، فن كان قادرا على حمل السلاح والسفر معه سافر، ومن لم يجده قادرا طلب إليه أن يقدم بديلا عنه أو يأخذ منه نصف خراج إقطاعه عن سنة كاملة، لجمع من وراء ذلك جزيل.

« ج ١ ص ٢٣١ »

٩ - وفي عام ٨٧٢ هـ أخذ السلطان قايتباي في إعداد حملة عسكرية ضد « سوار »، ولما كان المال ينقصه أراد أن يمس أوقاف المساجد، فبقى منها ما يكفي ريعه نفقت

المساجد ويستولى هو على البقية لينفق منها على تجاريدته وحملاته. فجمع لذلك مجلساً فيه الأمراء والخليفة المستنجد بالله يوسف والقضاة الأربعة وشيخ الإسلام أمين الدين يحيى الأقصرائى. فتجادلوا زمنافى الأمر وكادوا يوافقون السلطان على رأيه لولا أن أغلظ الأقصرائى لعم القول وأنكر هذا المساس بمال الأوقاف كل الإنكار وأنذر السلطان بعاقبة هذا العمل. وخوفه من الله سبحانه، وطلب إليه أن يلتمس ما يحتاج إليه من مال، من بيت المال، وإلا فن أموال الأمراء والجند وحل النساء أولاً. ثم بعد ذلك يمس مال الأوقاف فينال منه الضرورى الذى يدفع الأذى عن المسلمين. بذلك حفظ مال الأوقاف من العبث. ورضى السلطان مرغماً.

« ٢٦٥ س ٩٧ »

١٠ - وقد عاود السلطان قايتباى إظهار رغبته فى حل الأوقاف وإجراء حركة استبدال فى أعيانها، وذلك عام ٨٧٧ هـ فعارضه قاضى قضاة الحنفية شمس الدين المشاطى فى ذلك معارضة شديدة فلم ينفذ من رغبته السلطان شيئاً. « ٢٦٥ س ١٤٤ »
١١ - وقد استطاع قايتباى عام ٨٩٤ هـ أن ينال موافقة القضاة الأربعة على أن يحيى من أبواب الأملاك، ومن إيجار الأوقاف بمصر والقاهرة أجرة شهرين، معاونة له، للنفقة على الجند.

« ٢٦٥ س ٢٥٧ »

١٢ - وفى سنة ٨٩٦ هـ اضطر قايتباى إلى مال كثير لينفق منه على حملة يبعثها إلى بلاد الشام لرد اعتداء العثمانيين. فجمع لذلك مجلساً فيه القضاة الأربعة، فشرح لهم غرضه وطلب إليهم أن يقرروه على فرض إيجار سنة على الأوقاف والأملاك بمصر والقاهرة سواء أكانت أم أرضاً مزروعة أو حمامات أو طواحين أو أفراناً أو مراكب أو غير ذلك. وبعد جدال وتوقف وأخذ ورد اتفقوا على فرض إيجار خمسة أشهر فقط، وفرضت هذه الضريبة أيضاً على الأملاك والأوقاف. ومع هذا كله لم ينفق السلطان هذه الضريبة فى وجهها.

« ٢٦٥ س ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ »

١٣ - وفى سنة ٩٠١ هـ فرض قايتباى ضريبة على بيع التلال فجعل على كل إزدب مبيع نصفاً فضة.

« ٢٦٩ س ٢٩١ »

١٤ - وفي ذى الحجة عام ٩٠٣ هـ اشتط السلطان الناصر بن قايتباي في جمع الأموال لكي ينفق منها على المالك الجلبان الذين زادت أطعامهم ، واستشرى شرم وثاروا في وجه السلطان المذكور وأرغموه على أن يدفع لهم مالا . فلم يجد بدا من أن يفرض غرامات فادحة على كل من المباشرين وقضاة الشرع والأعيان والتجار وصغار الباعة واليهود والنصارى ، وكل أمر الجميع إلى خاله قانصوه وأعوانه ، فقتلوا في معاملة الناس ، وأذوا الكثير منهم ، وألحقوا بهم ضررا من الإهانة والتعذيب ، واستعملوا لذلك المعاصير والكسارات ، وأخذوا الحديدية الحماة ، فاخفى ابن تقي القاضي المالكي ، والشهاب الشيشيني القاضي الحنبلي ، وطرح شهاب الدين أحمد ناظر الجيش على الأرض ليضرب لامتناعه عن الدفع . وكذلك فعلوا بعلاء الدين بن الصابوني ناظر الخاص وبكثير من الأعيان . فجمعت هذه الضرائب أو الغرامات بالضرب والحبس ، فكان جمعها أحد مظاهر الظلم الصارخة . وقد كثرت دعاة الناس على هذا السلطان . « ٢٤٣ ص ٣٤٤ »

١٥ - وبعد أن ولي الأشرف الغوري بزمان قليل رأى الخزائن غارية وثار عليه المالك مرات متوالية لطلب النفقة التي تأخرت ثلاثة أشهر . ورأى الاستيلاء على مال الأوقاف وأرضها ثم تشارع مع الأمراء والخليفة والقضاة ، فقرر رأى الجميع بعد جدال عنيف على أن يأخذ من ريع الأوقاف سنة واحدة ، ومن إيجار الأملاك بالقاهرة عشرة أشهر . فثار الناس لهذا العمل وضجوا ، فأكثف بإيجار سبعة أشهر بدل عشرة . (١)

١٦ - وفي ١٤ جمادى الآخرة عام ٩٠٧ هـ أرسل الغوري خاسكيا يدهي « نايق » الخازن ليتوجه إلى بلاد الشرقية والغربية ليجمع المال من المقطعين . فضيق الخناق على الفلاحين . وأراد أن يحاسب المقطعين حسابا عسيرا . فنقص أصل خراج كل حصة ، حتى إن بعض الفلاحين غادر بلده خوفا وخشية . ثم إن بعضهم قدم

(١) من رقم ١٥ إلى ٢٤ مرجه بنائع ابن رياس ج ٤ في حوادث التواريخ المذكورة بكل رقم .

إلى « نائق » المذكور جملة من المال ، فرحل عنهم ، وبذلك ضاع خراج تلك السنة على المقتطين ما بين « نائق » والفلاحين .

١٧- وفي عام ٩٠٨ هـ عاد أمير الحج الأمير الناصري محمد بن خاص بك ، وكان العربان قد نهبوا ركبته في الحجاز . فأمر الغوري بحبسه وفرض عليه عشرين ألف دينار يؤديها غراماً . فزال مجبوساً نحواً من ثلاثة أشهر حتى أدى ما فرض عليه ، بعد أن أنقص منه السلطان خمسة آلاف دينار .

١٧- ومن غريب ما حدث في عهد الغوري عام ٩١٢ هـ أن تقدم إليه شخص اسمه « أبو الخير المرافع » والتزم للسلطان أن يجمع له مائتين وخمسين ألف دينار يستخلصها له من الناس من يعلم لديهم مالا . وبشرط أن يطلق السلطان يده في جميعها . وكاد السلطان يجيب دعوة هذا الرجل ، لولا أن اجتمع به بعض الأمراء وقبحوا هذا العمل .

١٩- وفي ٢٢ ربيع الأول عام ٩١٨ هـ رسم السلطان الغوري لكاشف الشريعة والغريبة مجابة ضريبة الحماية والشباخة عن السنة المذكورة قبل استحقاقها . فأخذهما وأخوانهما يجمعونهما من الفلاحين والمقتطين ، واستخدموا في ذلك الضرب والقوة والإهانة والهجوم على المنازل للبحث عن المال . ولم يرمعوا حرمة مسافر ، ولم يكثرثوا الهارب بل من لم يجدوه أرغوا أهله على دفع ما يطلب منه . ومن عجيب الأمر أن الخراج لم يكن قد استحق ، وكان القمح لا يزال في مزارعه لم يمحصد ، والنبل لم يصل حد الوفاء ، وقد زایل كثير من الفلاحين دورهم وبلادهم ، بسبب ما لا قوا حيثئذ من جور وفساد .

٢٠- ولما فشا الطاعون في أوائل عام ٩١٩ هـ وكثر الموتى رسم السلطان الغوري في شهر صفر منها ، للأمير مغلبای الزردكاش بأن يأخذ من تركه من يموت من الممالك السلطانية من له « جامكية » راتب سيفاً مسقطاً بفضة وزرديّة وخوذة وتركاش « وكلها أسلحة » وله أن يحجز وصيه حتى يني بما قرر عليه . فكان الأمير مغلبای يحجز زوجات المتوفين من الممالك حتى تؤدي كل ما عليها .

ورسم للأمير آخور كبير بأن من يتوفى من الممالك بمن له «جامكية» و«عليق» يأخذ من وصيه فرسين أو ثمنهما . وعن الخاصكى ثلاثة رؤوس خيل وبغلة ، وعن كل من أصحاب الوظائف خمسة رؤوس خيل وبغلة .

ورسم للألماس دوا دار سكين بأن يجي عن كل من يتوفى من الممالك الأجلاب خمسين ديناراً . وعن كل جدار عشرين دينار . هذا ولم يعهد الممالك مثل هذه الضرائب من قبل ولا فداحتها ، وكادت تكون فتنة بينهم بسببها .

٢١ - وفي أواخر صفر عام ٩١٩ هـ . أيضاً رسم الغورى بأبطال جملة من الضرائب منها المشاهرة والمجاعة وكل المكوس المقررة على السوق والباعة وعلى طواحين القاهرة ، وضريبة بيع الغلال . وذلك بمناسبة الغلاء وارتفاع أثمان الحاجيات . ففرح الناس بما رسم .

٢٢ - كان على أبواب الأمراء مقاعد يجلس عليها نقباؤهم الذين يقدمون إليهم أرباب القضايا ، للفصل فيها في نظير جعل خاص . فلبا فشا الطاعون عام ٩١٩ هـ رسم السلطان الغورى برفع هذه المقاعد وإبطال هؤلاء النقباء ، ونودى أن كل من له مظلة أو قضية فعليه أن يتوجه بها إلى الوالى أو إلى أحد قضاة الشرع . وسأول الأمراء أن يرجعوا السلطان عن قراره فلم يفعلوا . وكانت هذه الضريبة تدر على الأمراء أموالاً طائلة . وكانت حجة السلطان في رفض طلبهم أنه وضع عن الناس ضرائب قيمتها نحو أربعين ألف دينار . ثم أمر بأن من له حق عند غيره فليتوجه بغيره إلى القضاء ، وأما الجناة والصوص فيساقون إلى بيت الوالى .

هذا ، وقد عاد الغورى عن هذا القرار وطاوع الأمراء في رأيهم في يوم الخميس ٤ جمادى الأولى من السنة نفسها . وكانت حججهم الجديدة التى ساقوها إليه هي أن السلطان أصبح ولا حكم له ، وكذلك الأمراء لم تعد لهم يد في الحكم بين الناس ، وهذا - في نظرهم - فساد كبير . ومن هنا نودى بوضع المقاعد وإعادة الرسل والنقباء ، ونودى بأن من له مظلة يتوجه إلى الأمراء كالعادة ، وبشرط ألا يغلو النقباء في الجعل الذى يقرضونه على الاختصاص .

٢٣ - وظلت الضرائب التي رفعها الغورى عن العامة والسوق والباعة المتسعين ملغاة منذ صفر عام ٩١٩ هـ ، حتى كان رجب من العام نفسه إذ تعرض كثير من العوام للسلطان في الطريق شاكين إليه من فساد العملة ، فخنق عليهم وغضب ، وأمر بإعادة هذه الضرائب كما كانت . . . ١

٢٤ - وفي شهر رجب المذكور أراد السلطان الغورى إصلاح جسر أم دينار بجهة الجيزة ، ففرض على المقطعين بناحية هذا الجسر ألف درهم تدفع عن كل فدان ، فأنهم من ذلك ظلم كثير .

٢٥ - تقلبت ضريبة بيع القمح وما إليه بين الإلغاء والتقرير عدة مرات منذ عهد قايتباى ، فلما كان عهد الغورى زاد خطرهما . وأصبحت ثلاثة أنصاف فضة من البائع والمشتري - وكانت تسمى « الموجب » - بعد أن كانت نصفاً واحداً في عهد قايتباى . وقد رأينا كيف قررها الغورى مرة جديدة في رجب عام ٩١٩ هـ فلما حل يوم الخميس ٢٥ من شهر المحرم عام ٩٢٢ هـ أمر بإلغائها عن القمح والشعير والفل والبطيخ ، ونودى بذلك في سواحل مصر « العتيقة » وبولاق .

« ج ٢ حوادث المحرم عام ٩٢٢ هـ من ١٠ »

٢٦ - وفي يوم الاثنين ٦ صفر عام ٩٢٢ هـ أمر الغورى بإبطال ضريبة المشاهرة والمجاعة التي كانت تجبي للمحتسب وأمر بإلغاء بعض الضرائب التي كانت تؤخذ على الغلال وتعرف « بمكس البحرين » ففرح الناس بذلك . « جزء ٣ من ١٢ » ملحوظة : كتب ابن إياس في الجزء الثالث من تاريخه - عام ٩٢٣ هـ - معهداً بحامن ومساوى الغورى . وقد عرض لذكر بعض الضرائب التي فرضها والتي أشرنا إلى بعضها ، فليرجع إليها من يشاء في الجزء المذكور .

٣ - الجور والعسف :

رأينا عند الكلام عن الضرائب ، كيف كانت فادحة ثقيلة ، وأنها كانت تفرض على بعض الناس دون بعض ، وأنها لم يكن براعى في فرضها منفعة عامة في أحيان كثيرة ، ولم يكن الأمر مقصوراً على ذلك ، بل إن الطرق نفسها التي كانت تجبي بها الضرائب

طرق شاذة سقيمة ظالمة ، إذ كان الجباة يصبون جام غضبهم ويطلقون سوط عذابهم على الناس لاستخراج الأموال منهم ومضاعفة ما يطلبونه ، فمن يمين إلى تشريد إلى تعذيب إلى وعيد إلى مطاردة ، وهكذا حتى اضطر بعضهم إلى الاختفاء وحسبنا أن نقول إن الجمهور لم يكن يدفع ضريبة ما وهو يعتقد أن واجبه الوطنى يقضى عليه بدفعها ، فبدفعها إذن عن طيب خاطر ونفس راضية ، بل كان يشعر دائما أن كل ضريبة إنما هي غرم عليه ومغرم للسلطان وأتباعه .

وهناك ضروب أخرى من الظلم تجلت في غير الضرائب . وذلك كسوء معاملة العامة وازدراءها واعتبارها مثل السائمة . وتسخيرهم بلا أجر في عمل حكومى ، ومثل التماس التهمة عند البرى ، وإغفال الجاني حسب الظروف وما تدعو إليه . ومثل العنت والشدّة في الحكم على المتهم ، ومثل القسوة في تنفيذ العقوبات ، وهكذا . وقد تعددت الحوادث التي من هذا النوع . ونحن نسوق منها بعضا ، فيها :

١ - في عام ١٨٢٢ م . أنشأ المنصور قلاوون البيارستان المنصوري ، وقيل في سبب إنشائه أنه كان أمر بالسيك بأن يضعوا السيف في رقاب العوام لأنهم خالفوا أمره في بعض ما أمر ، فاستعمل السيف في قتلهم ثلاثة أيام وقتل منهم عددا لا يحصى وذهب البرى منهم مع المسىء ، والصالح مع الطالح ، وما زالوا حتى ضج الناس وعلا الصراخ وعمت الشكوى وطفحت الكأس ، فشفع ففهم القضاة وعلماء الدين فعفا عنهم المنصور . ثم ندم على ما فعل وتقرّب لله بهذا المستشفى . (ج ١ ص ١١٦)

٢ - حينما اعترم الملك المؤيد شيخ أن يبني مسجده الشهير بجوار باب زويلة عام ٨٢٢ هـ ، بث أعوانه في فجاج القاهرة يجمعون له الرخام قوة واقتدارا من كل منزل به أثارة منه ، فظلموا في ذلك كثيرا من أعيان الناس . (ج ٢ ص ٦٠)

٣ - وهناك رجل من الرؤساء والى الاستادارية أكثر من مرة وكذلك الوزارة وهز مجد الدين بن البقرى ، كان الأشرف قايتباى يكرهه . فترقب فرصة فيه ليطش به . وسنحت هذه الفرصة له حينما بلغه أن مجد الدين فرح هو وأهله في مقتل الأمير يشبك الدوادار أحد القواد العظماء في ذلك الحين ، وأحد المقرّبين

إلى السلطان . قبض عليه وأمر بقتله فقتل . « ج ٢ ص ٢٤٩ »
٤- «^(١) وفي يوم الأحد ١٤ ربيع الأول عام ٩٠٨ هـ ، رسم السلطان الغوري
بشنق رجل من أهل حلب لم يستطع أن يدفع مالا فرض عليه . فشنع على
باب زويلة .

٥- وفي سنة ٩١٢ هـ : ازداد ظلم الأمير « طراباي » رأس نوبة النوب .
وأطلقت يده في بلاد وفي بيوت وغيرها ، يستولى على ما فيها من الأوقاف ويأمر
بحبسها والتصرف فيها توا ، يأخذ منها ما يشاء بأجنس الأثمان . وكل من امتنع
وعارضه يضرب ضربا مجهدا ويحجر عليه . ومن هؤلاء شخص يدعى « يونس
ابن جاتم الزردكاش » أخذ منه بيت أیه - وكان في زقاق حلب - فامتنع من تسليمه
فضربه ضربا مؤلما ، وغيره كثيرون .

٦- ومن الحوادث في المحرم عام ٩١٣ هـ أن ضرب الأمير « أرزمك الناشف »
وهو أحد المقدمين ، شخصا من التوتية ، حتى مات من شدة الضرب . وكان سبب
ذلك أن التوتى حمل إلى هذا الأمير بضاعة فوصلته ناقصة ... فلما مات شكأ أولاده
للسلطان الغوري فتعاضى عن ذلك ، وأشار على الأمير أرزمك أن يرضى أولاد
المقتول ، وذهبت دماؤه عينا .

٧- ومن حوادث شهر رجب عام ٩١٥ هـ . أن « قرقاس » المقرئ أحد
أمرأء العشرة ، سرق من منزله بزقاق الكحل عملة بألف دينار ، فقبض على جيران
الحارة أجمعين وسلبهم لوالى القاهرة فعاقبهم أشد عقوبة وغرمهم أضعاف
ماسرق . ومن بينهم أسر مجيدة كأسرة البقرى .

ثم اتضح في أواخر المحرم عام ٩١٦ هـ أن سارق هذه العملة مملوك هذا الأمير
وهرب بها إلى الحجاز ، فقبض عليه وأعيد إلى القاهرة وسلم إلى سيده فضربه
فاعترف . ثم إن جيران الأمير شكوه إلى السلطان فوبخه وطلب إليه أن يرضى
هؤلاء الجيران ، ولكن بعد ما غرموا وضربوا وأوثقوا . . . فراضاهم .

(١) رقم ٤ وما بعده مرجعة إلى ابن لياس ج ٤ في حوادث تاريخ كل رقم .

ومادنا بصدد ذكر ضروب الظلم والقسوة فلا مانع من أن نقول كلمة في أنواع التعذيب في هذا العصر وننوه بذكر السجون الشهيرة :

وقبل أن ننوه بذكر التعذيب والسجون نرى لزاما علينا الاعتراف بأنهما أمران ضروريان للدولة حتى تصان الحقوق من العبث وتحفظ الأرواح من الاعتداء عليهما . وهما أمر مشروع فقد أمر الله بقتل القاتل وقطع يد السارق وحبس المدين وهلم جرا . وقال جل شأنه : « ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب » .

وكل البذى نعمل عليه هو أن يبدو في العقوبة الرغبة الأولية في الإيذاء ، ويبدو فيها القسوة والثبيل البشع وهكذا . وهناك حوادث ستقصها منقولة من تاريخ هذا العصر تدل على القسوة في العقوبة ، والافتتان في التعذيب ، ومن ذلك ما يلي :

الإعدام والتعذيب :

كان للإعدام طرق شتى : منها حز الرأس ثم وضعه أحيانا فوق حامل لإشهاره في المدينة ، وقد ينادى عليه ويسار به في شوارعها ويقال أمامه : « هذا جزاء من خالف السلطان » ، وهذا جزاء من صنّع كذا . ويقوم بهذه المناادة عادة عدد من حملة المشاعل ويوقدونها إذا كان الوقت ليلا .

ومن طرق الإعدام : « التوسيط » ، وهو على ما جاء في شرح سلوك المقرئى - ضرب وسط المحكوم عليه بالسيف بعد طرحه أرضا . ومنها استخدام الخازوق ، وهو - كما شرحه صاحب كتاب « تاريخ حماة » - عبارة عن عمود طويل رأسه مخروط الشكل يغرز في الأرض كأحد عمد السلك البرق ، يوضع الرجل عليه محمولا ، ويدخل رأس الخازوق في مقعده . ثم يترك على هذه الحال مدة ثم يجذب بعنف حتى يدخل جوفه . - ومنها . الشنق بالحبال ، فبعد أن يعلق المتهم على حامل مرتفع ويوضع الحبل في رقبته يخلى بينه وبين الأرض فيهوى مختفيا فيموت . ومنها أيضا الإغراق في النهر . ومنها الخنق في السجن .

ومن طرق التعذيب : التسمير في الأخشاب وهو مثل الصلب ، ثم وضع المسمرين فوق الدواب وإشهارهم في شوارع المدينة ، والمناادة عليهم بأنهم فعلوا كذا وكذا .

ومنها الاعتقال والسجن والقيد في الحديد والضرب بالمقارع . ومنها ضرب
الجسد عاريا . ومنها قيد الأرجل والضغط عليها وإيلامها بآلات تسمى
« المعاصير » ، و « الكسارات » ، وكذلك كانت تعصر الأصداغ والأيدى . ومنها
إحراق الأصابع بالنار ، ومنها وضع خوذة حديدية أو نحاسية في النار ثم تثبت
على رأس المتهم . . .

هذا وكان أعيوان السلطان يقومون بتنفيذ ما يأمر به من العقوبة ، وربما أمر
بتنفيذها أمام عينيه . وربما زاول هو بنفسه تنفيذها فضرب المتهم أوقته بيده .
وإلى القارىء بعض الحوادث التاريخية الناطقة بما ذكرنا فيها .

١- في عام ٦٨٩ هـ ولي السلطان الأشرف خليل الملك ، وكان يكره نائب
السلطنة الأمير « طرطاي » ، فقبض عليه وسجنه بالقلعة ثلاثة أيام ثم أمر بحرقه
في السجن ، فحقق ودفن . « ج ١ ص ١٢٢ » .

٢- روى المقرئ أن الناصر محمد بن قلاوون ، بينما كان « ضحكة يسليه » ،
وهو جالس في بستانه ، إذ بدت منه بادرة أشعرت الناصر بأنه يتقص عمله ،
فأمر لوقته بربطه في الساقية عاريا ، وألحبت ظهور دوابها فأسرعت ، والمسكين
يغرق في الماء آنا بعد آن حتى كاد يموت ، والناصر ينظر إليه ، ثم أطلقه ونفاه .
« المخطوط ١ ص ١٤٦ » .

٣- في عام ٧٦٨ هـ : قبض السلطان الأشرف شعبان على الصاحب نحر الدين
ابن قروينة واصله إلى الأمير قرايغا الصرغتمشى فزال يعاقبه حتى مات تحت
الضرب . قيل إنه أحرق أصابعه بالنار ، وأحمى له خوذة في النار وألبسها له حتى مات .
« ج ١ ص ٢٧٠ » .

٤- وفي عام ٧٨٨ هـ . قبض السلطان برقوق على القاضي موفق الدين أبي الفرج
ناظر الجيوش المنصورة ، وضربه مائة وخمسين عصا كما ضرب القاضي تقي الدين
ابن محب الدين التيمي . « ج ١ ص ٢٦٤ » .

٥- لما توفي فرج بن برقوق عرش البلاد شق عليه عصا الطاعة الأمير « وتم » ،

نائب الشام وانضم إليه عدد ضخم من الأمراء والنواب والجند ، تخف إليه السلطان فرج عام ٨٠٢ هـ ، وهزمه هو وأتباعه وقبض على كثيرين منهم . وقتل نحو أربعة عشر أميراً ، ذبحوا كلهم بـ برج الحمام بقلعة دمشق . وكان من بينهم الأتابكي إيتيمش البعاسي ، والأمير « فارس » ، حاجب الحجاب ، فبعث السلطان رأس هذين الأميرين إلى القاهرة فطيف بهما في شوارعها ثم علقا على باب زويلة . ثم خنق « تم » ، النائب من بعدهم أن استصنى أمواله ، وصادر ممتلكاته ، ودفعه إلى الاعتراف بما سلب من أموال البلاد . « ج ١ ص ٣٢٤ » .

٦ - وفي عام ٨١٢ هـ ازداد جور السلطان فرج بن برقوق على عماليك أبيه ، وخنق عليهم ، فشرذ بعضهم وأغرق الآخر ، ثم أنه أخذ يسفك دماءهم بـ لاروية ، وذلك أنه كان يسكر إلى نصف الليل ثم يخرج إلى حوش القلعة وهو سكران ، فيعرض عليه هؤلاء الممالك وهم في قيودهم الحديدية ويقدمون واحدا فواحدا ، فيقول . من هذا ؟ فيقولون له . فلان من الطبقة الفلانية فيقول : قدموه ، فيطحنونه على الأرض فيذبحه بيده ثم يدوس على وجهه برجله ، وربما بال عليه أو صب فوقه التييز . « ج ١ ص ٣٥٣ » .

٧ - في عام ٨٧١ هـ أمر السلطان خشمقدم بإغراق « برش » ، حازن دار الأمير جاني بك نائب جده ، وكان شابا صغيرا فأسف الناس لإغراقه . « ج ٢ ص ٨١ » .

٨ - وفي الخنيس ٢٩ ذي الحجة عام ٩١٧ هـ رسم الغوري بتسمير ثلاثة أشخاص قيل إنهم سرقوا حزمة من حوزاته ، تقوم بنحو مائتي دينار ، فسمروا ثم وسطوا أي أعدوا (١) .

٩ - في شهر جمادى الأولى عام ٩١٨ هـ : ادعى رجل شامى دعوى كذب بأن جائزة رودس فتحها المسلمون بلا حرب ولا قتال ، وألف في ذلك كتابا ، فصدق

(١) رقم ٨ وما بعده مترجمة ابن إلياس ج ٤ حوادث تاريخ كل رقم .

السلطان ما جاء به ١. ثم انتضح كذبه بعد ذلك . فأتى به وعرى وضرب بالمقارع وأرسل إلى المقصرة .

١٠ - في جمادى الآخرة عام ٩١٨ هـ قبض على رجل ينش القبور ويستخرج لحوم الموتى ، ويبيع جماجمها للإفرنج فسمروا على جبل وأشهر في القاهرة ثم شق .
١١ - وفي ذى القعدة عام ٩١٩ هـ ، ضبط أحد نواب الشافعية وهو المشالى ، مع زوجة أحد نواب الحنفية وهو غرس الدين خليل ، فضرهما حاجب الحجاب بالمقارع وأشهر في القاهرة والصليبية وقنطرة السباع . ثم حبسهما السلطان ورسم بشنقهما فشنقا وجها إلى وجه معا .

١٢ - وفي ربيع الآخر عام ٩٢٠ هـ : اعتدى خياط يقال له دنجا ابن تمساح ، على صبي صغير فأنلفه ، فاستغاث الصبي لحق عليه الخياط فذبحه ورماه في بئر ، ثم شاع خبرهما ، فقبض على الجاني فاعترف ، فرسم السلطان بشنقه في المكان الذى قبل فيه الصبي . وقبل رسم السلطان بقطع مذاكيره وتعليقها في عنقه وهو مشنوق . ففعلوا به ذلك . . .

ورسم السلطان في حادثة مماثلة أنهم فيها طحان ، بأن يوضع على الخزوق . ففعلوا به ذلك .

١٣ - وفي جمادى الأولى عام ٩٢٠ هـ أخذ الزينى بركات في تعذيب وشمس الدين بن عوض ، وولده ، وبذل في ذلك كل جهد مستطاع من ضرب كسارات وعصر أكمام وأصداغ وأيد ، وإحراق أصابع .

السجون الشهيرة :

تعددت السجون في هذا العصر ، وشهد كل منها عددا ضخما من المساجين ما بين أمراء عظام بل وملوك أجلاء ، وبين ممالك موظفين وجنود وعامة . ويبدو أنه كان في كل مدينة كبرى سجن حصين ، وكان في القاهرة وحدها عدة منها . ويبدو أيضا أن أمر الاعتقال في السجون ومدته منوطان بإرادة السلطان وحده . كما يبدو أن بعض السلاطين كان ينتهر فرجة ومضرب فيعرض المساجين في مستهل ثم يطلق

سراج بعضهم حسب مشيئته (١)

وتنوه هنا بذكر بعض هذه السجون وبعض من أقام فيها باختصار فنقول :

١ - الحب : كان بالقلعة جب يحبس فيه الامراء ، وكان مهولا مظلم كبير الخفافيش كرية الراحة ، يقاسى المسجون فيه ما هو كالموت أو أشد منه . عمره الملك المنصور قلاوون في سنة ٦٨١ هـ ، فلم يرل إلى أن أقام الأمير بكتمر الساق بحملة ضده لدى الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فأخرج من كان فيه من المحاييسن وتلقهن إلى الأبراج ، وردمه وأقام فوق أرضه طباقا في سنة ٧٢٩ هـ . وتم هدمه في يوم الاثنين ١٧ جمادى الأولى عام ٧٢٩ هـ . ومن ابتلى بالسجن فيه تفرى بردى الترحمان ، والجمالى يوسف بن أبى أصبع الحلبي .

« المخطوط ج ٣ ص ٣٠٦ ، ٣٤٦ - والسرور ج ١ ص ٣١٠ - ابن أبياس ج ٤ حوادث ربيع الآخر عام ٩١٩ هـ »

٢ - حبس المعونة : كان بالقاهرة ، استخدم سجننا منذ عصر الفاطميين ثم لما ولى الناصر محمد بن قلاوون أمر بهدمه . « المخطوط ج ٣ ص ٣٠٥ »

٣ - خزائن شمائل : مكانها الآن جامع المؤيد شيخ بجوار باب زويلة « بوابة المتولى » ، وهى منسوبة إلى الأمير « علم الدين شمائل » الذى كان من أتباع والى القاهرة فى العهد الأيوبي ، ثم اتصل بالملك الكامل محمد بن العادل بن أيوب ، فأقامه واليا على القاهرة ، فبنى له هذا السجن ليسجن فيه من وجب عليه القتل أو التقطع من السراق وقطاع الطريق ، ومن يريد السلطان إهلاكه من الممالك وأصحاب الجرائم العظيمة . وكان سجننا شيعا قبيح المنظر ، وقد استمر مستخدماً فى أداء هذه المهمة زمنا طويلا فى عهد الممالك ، حتى كان عصر المؤيد شيخ المحمودى ، وقد كان هذا السلطان فى جملة من حبس فى هذه الخزائن فى عهد السلطان رقوق ، ولقى فيها كثيرا من الآذى . فنذر إن من الله عليه بالخلاص منها ثم وصل إلى سلطنة مصر

(١) راجع ابن أبياس ج ٢ ص ٣٦٦ .

أن يهدمها ويبنى في مكانها مسجداً لله سبحانه وتعالى وقد من الله عليه بما أمل، فأمر
بهدمها في يوم الأحد العاشر من شهر ربيع الأول عام ٨١٨ هـ، وبنى مكانها مسجده
الشهير، ومن يحين فيها الأمير علاء الدين بن الطلائى وإلى القاهرة في عهد برقوق.
« ابن إياس ج ١ ص ٣١٣، ج ٢ حوادث عام ٨٢٢ هـ، الخطط المغربية ج ٣ ص ٣٠٥ تحت
عنوان « ذكر الجون » .

٤ - المقشرة : قال المغري : هذا السجن بجوار باب الفتوح فيما بينه وبين
الجامع الحاكمى . كان يقشر فيه القمح ، ومن جعلته برج من أبراج السور على يمتة
الخارج من باب الفتوح ، استجد بأعلاء دور لم تزل إلى أن هدمت خزانة شمتل ،
فعين هذا البرج والمقشرة انسجن أرباب الجرائم وهدمت الدور التي كانت هناك
في شهر ربيع الأول سنة ٨٢٨ هـ وعمل البرج والمقشرة بجنا . ونقل إليه أرباب
الجرائم ، وهو من أشنع السجون وأضيقها ، يقاسى فيه المسجونون من الغم
والكرب مالا يوصف .

هذا ، ومن يحين فيه « معين الدين بن شمس » وكيل بيت المال ، وأبو بكر بن مزهر
كاتب السر في أول زمن السلطان الغورى . وفيه عذب وضرب بالمقارع .
« الخطط ج ٣ ص ٣٠٦ ، وابن إياس ج ٤ حوادث الحرم عام ٩١٧ هـ » .

٥ - الحجر : يبدو أنها كانت خاصة بالنساء . قال ابن إياس في حوادث صفر
عام ٩١٩ هـ : عرض السلطان محاييس « الحجر » من النساء وأطلق من كان بها .
« ابن إياس جزء ٤ حوادث صفر سنة ٩١٩ هـ » .

٦ - العرقانة : يحين فيه « على شرف الدين الصغير » ، كاتب المالك ، وعلى
شرف الدين النابلى الأستاذار ، وقررت عليهما غرامة ووضعاً في الحديد ، وذلك
في ذى القعدة عام ٩١٦ هـ . « ابن إياس جزء ٤ حوادث القعدة سنة ٩١٦ هـ » .

هذا وكان ثمة سجون أخرى في الأقاليم هناك وأماكن أخرى وجود تستخدم
بجونا أحيانا فيها :

١ - قلعة دمشق : ويحين بها كثيرون .

٢ - سجن الكرك وهو في مدينة الكرك شرق مصر . وسجن به كثيرون من أمراء وغيرهم ومنهم الملك السعيد بن بيبرس بعد خلعهم . ومنهم الأمير « طوقدمر » نائب الشام ، سجن فيه بأمر السلطان الكامل شعبان بن الناصر بن قلاوون .
« ابن ايس جزء ١ ص ١٨٤ » .

٣ - سجن الإسكندرية : شهد هذا السجن كثيراً من السلاطين المخلوعين والأمراء المغضوب عليهم . ومنهم الأمير « آل ملك » الذي كان نائباً للسلطنة ، سجن فيه بأمر السلطان الكامل شعبان أيضاً .
« ابن ايس جزء ١ ص ١٨٤ » .

٤ - سجن دمياط : شهد كذلك كثيراً من السلاطين المنفيين والأمراء المنبوذين ، ومنهم الأمير « قارى » استأدار العالية ، سجن فيه بأمر السلطان الكامل شعبان كذلك .
« ابن ايس جزء ١ ص ١٨٤ » .

٥ - سجن قوص : وكذلك هذا السجن . ومن سجن فيه السلطان المنصور أبو بكر هو وأخوه . سجنوا فيه بأمر الأتابكي « قوصون » لما استبد بالملك .
« ابن ايس جزء ١ ص ١٧٧ » .

٦ - الجامع الصغير : وهو موجود - كان - بداخل الحوش السلطان بالقلعة . استخدم أحياناً سجنًا ، ومن سجن فيه بأمر الغورى « شريف الدين بونس النابلسي » الذي كان أستاذاراً . ظل فيه ثلاث سنوات ثم أفرج عنه في ١٦ شعبان عام ٥٩١٨ هـ .
« ابن ايس جزء ٤ حوادث شعبان عام ٩١٨ هـ » .

٧ - بيت الوالى ، وبيت المحتسب : كثيراً ما كان يساق المحكوم عليهم ، وخاصة بغرامة مالية إلى بيت والى القاهرة أو بيت محتسبها حيث يسجنون ويعذبون حتى يستخلص منهم المال المقرر . ومن هذه البيوت البيت المحتسب الزينى بركات ابن موسى في عهد الغورى ، ومن سجن وعذب فيه لذلك « شمس الدين بن عوض » .
« ابن ايس جزء ٤ حوادث ربيع الثانى سنة ٩٢٠ هـ » .

٨ - بيوت الأمراء : وكان يسجن فيها أحياناً المعتقلون « السياسيون » .

٤ - كثرة الفن الداخلية :

لأنغلو إذا قلنا إن شرآفة ابتليت بها مصر في هذا العصر ، هذه الفن المحتمدة والمؤامرات المستعرة الواسعة النطاق ، التي دبرها الأمراء بعضهم ضد البعض الآخر ، أو دبرها بعض الأمراء ضد سلطانهم أو قام بها عدد من المالك ضد ساداتهم من سلاطين أو أمراء .

وقد صحبت هذه الفن حياة دولتي المالك قريبا ، ولاسيما الدولة الجركسية ، وعما عون على وجودها طريقة الحكم المتبعة . فقد غرست الآمال الواسعة في نفوس الأمراء والجنود ، وأوحى إلى كل بالآمال المعسولة في الوصول إلى العرش والسلطنة ، أو الاستحواذ على المال والجاه والنفوذ . فامتلات صدورهم هوى ، وأفعمت قلوبهم طعما ، وصبت نفوسهم إلى استعجال الأمر ، فلم يجدوا بدا من إشعالها فتنة شعواء وثورة جامحة ، خبوا فيها ووضعوا وغامروا بحياتهم ، وقامروا بمستقبلهم ، ابتغاء أن تكون الورقة الراجعة من نصيبهم .

وعما ساعدهم على ذلك أيضا هذه الحرية ، وهذه العvisية التي كانوا يؤلفونها حول أنفسهم ، فكل أمير له أتباعه وأخصاؤه ، وله مالكة الذين اقتنأهم بماله وأمدم بخير وبره ، وألف من شتاتهم مجموعة قوية تبعه وتتعصب له . وتأنم بأمره وتنتهي بنيه ، لأنه إنما ادخرها للبلات ، ودلا قلوب أفرادها أملا قويا وطعما .

وطبيعى أن تؤثر هذه الفن والفلاقل في مرافق الحياة . بالبلاد فترميا بسهم صائب من الإهمال فتصميا . كما أنها تشغل بال السلاطين بإطفاها والفضاء على مثيرها ، عن أن يحسنوا القيام بشئون الدولة ، ويهينوا على أمورها ، كما أنها تطمع كل خارج على الدولة فيها ، وتوحى إلى أعدائها بالانقضاء عليها والانتقاص منها . وهذا هو ما حدث فعلا ، فإن هذه الفن ظلت كالسوس تنخر في عظام الدولة حتى تداعت أركانها ، وقوض بنيانها ، وسقطت في يد العثمانيين نتيجة للأطماع غير المشروعة وعاقبة لاختلاف القلوب . .

وكثيراً ما أفلحت هذه الفتن فوصلت إلى غايتها فسلبت العرش من معتليه ،
وفتكت بأرواح عدة ، وأسالت دماء كثيرة وأضاعت أموالاً وأضعفت جنداً .
ولكننا نلاحظ فيها جميعاً بوجه التقريب أنه لم يكن يقصد منها إلى مصلحة عامة أو
منفعة وطنية .

ونسوق فيما يلي أخباراً عن بعض هذه الفتن والمؤامرات ونتائجها ملحقين إليها
نحسب إذ سبق ذكرها في تاريخ الملوك والأمراء في القسم الأول من هذا الجزء ،
فنها (١) .

- ١ - أول المؤامرات التي فتحت بها هذه السلسلة الطويلة منها : مؤامرة شجرة الدر
على زوجها المعز بن أيك ، أول سلاطين المماليك . فإنها بعد أن نزلت له عن
الملك وتزوجها ، لقي منها ما أحققه عليها . فغضبته منه في نفسها وأخمرت له السوء .
واختارت له خمسة من خدامها أمرتهم بقتله واعتياله . فاقبحوا عليه حمامه وخفقوه
على مرأى منها وهو يستغيث بها فلم تنفعه ، وقبل يدها فلا تأبه له . وذلك عام ٦٥٥هـ .
- ٢ - المؤامرة التي قتل فيها يبرس ، سلطانه المظفر قطز عقب انتصاره على التتار .
- ٣ - وفي سنة ٦٧٧هـ كان سلطان البلاد ، هو الملك السعيد محمد بركة خان بن
يبرس . خرج عن طاعته نائب الشام فهب لتأديبه وسافر إلى دمشق في جمع من
الجند والأمراء . وهناك انضم بعضهم إلى نائب الشام بحجة أن السلطان يريد
القبض عليهم ، فأول هو وأمه لإصلاح الأمر بينهما فأبوا ، فجمع جموعاً من العربان
وغيرهم وفرق عليهم أموالاً ليكونوا عوناً له على أعدائه . فآلوا أموالهم ثم زابله
منهم عدد كبير . فأخذ سمته عائداً إلى القاهرة ، فهم من فيها من الأمراء بلقاءه وقتله
ولكنه أفلت منهم واحتمى بالقلعة . ثم سقر بين الفريقين الخليفة الحاكم بأمر الله
أحمد العباسي ، بعد حروب بينهما دامت سبعة أيام ، فاضطر السلطان إلى النزول
عن عرشه وسار إلى الكرك مسجوناً . ثم بايع الأمراء أخاه العادل سلامش .

(١) تراجع أخبار هذه الفتن والمؤامرات في مواضعها بالقسم الأول من هذا الكتاب ، وفي
تراجع الأمراء .

٤- ومنها المؤامرة التي دبرها الأمير ديدرا ، لقتل السلطان الأشرف خليل ابن قلاوون ، وهو يرتاض ، وقد فتل به في عام ٦٩٣ هـ .

٥- وفي عهد السلطنة الأولى للملك الناصر محمد بن قلاوون حدثت فتنة كبيرة بين نائب السلطنة الأمير كتبغا ، وبين الوزير سنجر الشجاعي . أثارها الشجاعي ودبرها لكي يخلو له الجو من كتبغا فيستبد هو بالسلطان لصغر سنه . فانقسم المماليك قسمين ، وشبت بينهما نار الحرب الداخلية عام ٦٩٣ هـ وظلت أياما ، وكانت عاقبتها قتل الشجاعي وعزل الناصر ، وأيلولة الملك إلى الأمير كتبغا فتلقب بالعاذل .

٥- وفي عام ٧٦٣ هـ وقعت فتنة حارة بين السلطان حسن بن الناصر ، وبين مملوكه ديلبغا ، وكان هذا السلطان قد رقى بمملوكه المذكور حتى أصبح في مصاف عظماء الأمراء . فحسده كثير منهم على هذا الجاه ، ووشوا به إلى السلطان ، وأوقعوا بينهما العداوة والبغضاء ، فجمع كل منهما عصابته وكيده واقتتلا ، فانهزم السلطان حسن . وكانت النتيجة أن قبض عليه ، وقيل إنه خنق بعد ذلك وآلت السلطنة إلى المنصور محمد ، ورقى ديلبغا . إلى منصب الأتابكية وأصبح صاحب الحل والعقد .

٦- وابتلى السلطان برقوق بعداوة مملوكه دمنطاش ، الذي ظل زمنا طويلا يعيث في الأرض فسادا طورا بمصر ، وطورا ببلاد الشام ، وكان سببا في زوال ساطنة برقوق الأولى عام ٧٩٢ هـ وارتقى السلطنة بعده أمير حاج ، وكان أتابكيه يلبغا الناصري ، فاشتدت الشحنة بينه وبين دمنطاش ، ووقعت بينهما حروب هزم فيها يلبغا ، فقبض عليه دمنطاش ، وخلاله الجو ، وظل يكيد لبرقوق وهو في سجنه بالكرك ، حتى أفل نجمه ، وعاد برقوق إلى السلطنة ، ففر دمنطاش إلى بلاد الشام عابثا بها حتى قبض عليه فانتحر .

٧- وفي سنة ٨٠٠ هـ أخذ الأمير ، على باي ، في الكيد للسلطان برقوق ، مع أنه مملوكه ، وهو الذي رقاؤه حتى صار رأس نوبة النوب ، وهيا له كينا من أتباعه

ليفتكوا به حين عودته من تخليق العمود في حفلة كسر السد ، ولكنه نبه عليه فلولى عنان فرسه مبتعدا عن هذا الكمين ، فخنق . على باى ، وكر على السلطان ومن معه بمن لديه من الجند والأتباع ، فترامى الفريقان ، ثم هزم « على باى » ثم قبض عليه بعد زمن ، وسيق إلى السلطان ، فسجنه ثم أخذ يسأله عن أموال لديه ، ثم خنق منه ولكره بحديد في يده فقتل عليه . وكان سبب هذه الفتنة كما قال « على باى » أن السلطان لم ينصفه من عوده الأمير « أقبای » .

٨ - وقد نوهنا في باب « الجور والعسف » بما ألحقه السلطان فرج بن برقوق بممالك آبيه من سجن وقتل وتعذيب جزاء لهم على خيانتهم له وإنكارهم نعمته .

٩ - ولما تولى الملك المظفر أحمد بن المؤيد شيخ عرش مصر عام ٨٢٤ هـ ، كان رضىعا ، فاستبد به أتابكيه ططر ، ونزع منه الملك وتزوج أمه ، فما كان من أمه - على ما قيل - إلا أنها دسست السم لهذا السلطان الجديد . . .

١٤ - ومن الفتن التي وقعت في عهد قايتباى ، تلك الفتنة التي كان يقوم بها الممالك الجلبان بين آن وآن . والعداوة التي شبت ناراهايين « قانصوه خمسمائة » و « أفردى الدوادار » والممالك الجلبان .

١١ - وفي عام ٩٠٣ هـ غدر الأمير طومان باى بالسلطان الناصر بن قايتباى وأعد له كينا بالجيزة ودعاه إلى النزول عنده ليقضى ساعة هنية ، ثم اغتاله . ومن آثار الفتن في عهد الناصر المذكور أيضا الأمير « قانصوه خمسمائة » حيث استمرت بين الفريقين نار حرب أهلية غشوم انهزم فيها قانصوه واستثنى .

١٢ - ولما تولى الملك العادل طومان باى السلطنة ، كان عن عاونه على بلوغها معاونة صادقة الأمير « قوصوره » نائب الشام ولكن هذا السلطان خانته وفنك به دون جريرة تخلفه عام ٩٠٦ هـ .

١٣ - وعن ابتلى بهم السلطان الغورى وأقلقوا باله وأقصوا مضجعه . الممالك الجلبان ، فقد أكثروا الفتن والمشاعبات وتعددت ثوراتهم بدعوى طلب أجورهم والسلطان يمنهم تارة ويلانهم تارة أخرى ، ويغلظ لهم القول أنا ، حتى هدمهم .

مرة بالنزول عن العرش وترك الأمور فوضى يزاولونها كما يشاءون ... وهم في كل مرة لا يزيدون إلا شراسة وعراما ، وما كانوا يهدون مرة إلا ليشوروا مرة أخرى وهكذا ... حتى كانوا من أم الأسباب التي أدت إلى سقوط الدولة . وفي يوم السبت ١١ المحرم عام ٩١٦ هـ ثاروا طلبا للنفقة المتأخرة ، وذهبوا إلى منزل الأتابكي قرقاس ومنزل غيره من الأمراء وأركبهم مكرهين ليفاضوا عنهم السلطان في أمرها ، فلما غضب عليهم ورفض مطالبهم تجمعت جموعهم وحجموا على نحي الصليبية وسوق جامع ابن طولون ، وانضم إليهم لقيف من العامة وخرّبوا نحو ١ من ٥٧ دكانا ونهبوا ما يقدر بنحو عشرين ألف دينار . وحاولوا أن يقيموا الأمير دولات باي ، سلطانا . ولكنه فر منهم إلى السلطان . ثم سمعوا أن الأمراء يتجمعون للبطش بهم ففرقوا وعادوا إلى طباقةم بالقلعة .

ومن ثوراتهم : ثورتهم في جمادى الأولى عام ٩١٧ هـ وثورتهم في ٥ رجب عام ٩١٧ هـ ، وثورتهم في ذى الحجة عام ٩٢٠ هـ وثورتهم في مسنهل رجب عام ٩٢١ هـ وفي شوال عام ٩٢١ هـ أيضا .

وكانوا في كل مرة يكررون ماضد منهم في المرة الأولى من التهديد والوعيد والنهب والسلب والقتل . « ابن إياس ج ٤ »

ثورات العربان (١) :

وبما يتصل ذكره بذكر الفتن الداخلية ثورات العربان . فقد كان في داخل البلاد كثير من هؤلاء يقيمون في أنحاء متعددة منها : الشرقية والغربية والبحرية والوجه القبلي ، وكذلك كان هناك عرب صحراء الشام ، وصحراء بلاد العرب . وإذا ثار هؤلاء اعتبرنا ثورتهم من الأمور الداخلية وقد تعددت منهم الفتن وشغلوا السلاطين والأمراء زمنا بمكائفتهم . ويغلب عليهم حب النهب والسلب والرغبة في الاستيلاء على ما بيد الأتراك من جاه ونفوذ . - وكثيرا ما كانوا ينتهزون فرصة الفتن الداخلية بين الأمراء ، أو خروج الجنود المماليك إلى غزوة في الشام أو غيرها ، أو

(١) النقل هنا عن ابن إياس ، وإذا قلنا من غيره فمصنعا عليه .

هزيمة تصيب جيشا محتربا، ثم يغيرون عليه أو على البلاد وفلاحها وزراعتها، فيسلمون مالههم من قوت ودابة. وكذلك قد يدفعهم سلطان أو أمير بوسيلة ما فيعاونونه في قتاله. وكانوا في معيشتهم أقرب إلى الاستقلال بشؤونهم منهم إلى اندماجهم في عداد الشعب، ونشعر أنهم كانوا أكثر استقلالا واتباعا لتقاليدهم الخاصة في هذا العصر منهم في عصرنا الحديث... وإلى القارىء نبذا من أخبارهم:

١- في سنة ٦٥١ هـ ثار العربان ببلاد الصعيد والوجه البحرى، وقطعوا الطريق برا وبحرا بقيادة الأمير الشريف «حسن الدين بن ثعلب»، وكان بناحية «دهروط صرّبان» وهى دبروط الحالية بمديرية أسيوط - وقالوا: «نحن أصحاب البلاد، وصرحوا بأنهم أحق بالملك من الممالك»، وكفى أنهم عاونوا بنى أيوب! ولكن لن يعاونوا عبيدكم....

وتجمعت جموعهم من أماكن عدة حتى بلغت عدة فرسانهم ١٢ ألف، ورجلتهم لا تعد كثرة. فتجمع لهم الترك بقيادة الأميرين «فارس الدين أقطاي» المتعرب و«فارس الدين أقطاي» الجندار وأوقعوا بهم في ناحية «ذروة» وغيرها. وكذلك فعلوا بحرب الغرية والمنوفية من قبيلتي «سلسيس» ولواته. فقتلوا منهم وسلبوا وغنموا، وأخذوا جذوة ثورتهم. وفر أميرهم «ابن ثعلب»، ثم طلب الأمان فأجيب إليه. ثم قبض عليه مع عدد من أصحابه وشقوا جميعا إلا «ابن ثعلب»، فإنه يهجن بالإسكندرية... «السلوك ج ١ ص ٣٨٦»

٢- وفي عام ٦٩٩ هـ في عهد الناصر بن قلاوون اختلفت قبيلتا جابر ومرديس بالبحيرة فأغاروا على أجزائها وأحرقوا ما فيها. فبعث إليهم السلطان حملة تأديبية بقيادة الأمير «بيبرس المنصورى الدوادار». فوصلوا إلى تروجه وكسروا العرب كسرة قوية، فهربوا إلى الجبال... وغنم جنود السلطان جملهم وغنمهم وعددا من أولادهم ونسائهم... «ج ١ ص ١٢٢»

(٢٠٠ - ممالك)

وفي عام ٧١٣ هـ سافر الناصر محمد إلى بلاد الصعيد لاعتلال عربانها عليه ، فضيق عليهم الخناق حتى جلوا ورحلوا إلى الجبال ، ومات منهم كثيرون بالجوع والعطش ، وأسر منهم الناصر عددا كبيرا أساقه إلى القاهرة ، وسجنهم هناك واستخدم بعضهم في حفر الجسور .

وفي عام ٧١٦ هـ ثار عربان هيزاب بأعلى الصعيد فجرد عليهم الناصر ألف مملوك بقيادة ستة أمراء مقدمين ، ولكنهم عادوا بلا طائل . « ج ١ ص ٢٥٩ ، ١٦٠ »

٣ - وفي عام ٧٥٤ هـ عهد سلطنة الملك الصالح صلاح الدين صالح ، ثار عربان الصعيد ثورة جاعحة ونشروا الفساد في أرجائه ونهبوا جميع الغلات وقتلوا عددا من المال ، والتفوا حول كبير منهم اسمه « ابن الاحب » شيخ قبيلة « عرك » ، واجتمعوا حوله جموعا كثيرة . فخرج إليهم السلطان بنفسه ومعه أمراؤه وجنده بقيادة الأمير « طاز » ، والأمير « شيخو العمرى » ، والأمير « صرغتمش الناصرى » . وأوقعوا بهم وقتلوا نحو نصفهم وقطعوا رؤوس كثير منهم . وعادوا معهم أسرى وغنائم عدة من خيل وجمال وأغنام وسيوف وغيرها . وما دخلوا بها القاهرة حتى أهدموا الأسرى وكانوا نحو سبعمائة . وقيل فر كثير من البقية إلى بلاد الزنج ... وبعد مدة طلب شيخهم ابن الاحب الأمان من السلطان فأمنه وخلع عليه وأقره على مشيخته . « ج ١ ص ٢٠٠ »

٤ - وفي عام ٧٨١ هـ في عهد الملك المنصور على بن الأشرف شعبان ، سطانحو خمسة آلاف عربى من عربان البحيرة بزعامة كبيرهم « بدر بن سلام » ، على مدينة دمنهور . ونهبوا أسواقها ويوتها وما حولها من القرى . فبعث إليهم أتابكى العصر برفوق ، ثمانية من الأمراء المقدمين ومعهم نحو أربعمئة جندى . فغيموا في ناحية من البحيرة ، فهجم عليهم العربان ليلا . وكان الأتراك قد أخذوا الحيلة لذلك ، فكروا عليهم كرة شنتت شملهم وقتلوا نحو ألف منهم ، وأسرروا عددا آخر من بينهم نساء وصغار ، وغنموا ما لديهم من ذواب ومال . وهرب زعيمهم . وعاد

الجنود إلى القاهرة بما معهم ظافرين^(١).

وقد عادوا إلى عصيانهم عام ٧٨٢ هـ فساد إليهم نحو ٥٠٠ جندي فهزمهم العرب ثم سار إليهم نائب الإسكندرية ومعه عربان من الغربية فهزموهم وانتصروا عليهم هذه المرة حتى فر كثير منهم إلى برقة. «١٦٩ ص ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٤».

٥ - وفي سنة ٨٠٤ هـ في عهد فرج بن برقوق اعتدى عربان بنى عقبة على الحاج ونهبوا ما معهم، ففكر عليهم أمير الحاج وأسر شيخهم «منجد بن خاطر»، فمهم السلطان فرج بقتله، فالتزم برد ما نهب، فظل أسيرا حتى رده.

«١٦٩ ص ٣٤٠، ٣٤١».

٦ - وفي عام ٨٦٥ هـ في عهد الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال ثار عربان «لبيد»، ووصلوا إلى البحيرة وشنوا عليها الغارات ونهبوا الغلال. فبعث إليهم السلطان تهريدة. «٢٦٧ ص ٦٦، ٦٨».

٧ - وفي عام ٨٧٠ هـ في عهد الملك خشقدم خرجت تهريدة إلى البحيرة بسبب عصيان العربان بها وثوراتهم، وكانت بقيادة الأمرين بلباى المؤيدى وبرديك «هجين»، فطردوهم وعادوا.

وفي عهد هذا الملك عام ٨٧٢ هـ ثار العربان بجهة العقبة وأفسدوا البلاد، فبعث إليهم جندا بقيادة الأمير «أزبك بن ططنخ». وثار كذلك عربان الصعيد فسارت إليهم جنود أخرى. «٢٦٩ ص ٨١».

٨ - وفي عهد قايتباى حدثت من العربان جملة من الحوادث نلخصها فيما يلي.

١ - إنه في عام ٨٧٢ هـ تحالف عربان البحيرة على الخروج على السلطان، فوثبوا على بلادها وأحرقوا أجزائها ونهبوا بلاد المقطعين. فعين السلطان تهريدة لهم، وأخرى إلى الشرقية، وثالثة إلى الوجه القبلى بسبب ثورة عربان أولاد ابن عمر. وخلع على شيخ العرب «حقر»، وقرره شيخا لعربان البحيرة. «ولكن جاءت

(١) لقيم خلف النبارى الزجال زجل في هذه الواقعة تراهق باب الزجل بالجزء الرابع من هذا الكتاب.

الأخبار بهزيمة جند السلطان على يد «سوار» ملك الألبانيين ، فشغل السلطان بأمرهم عن التجاريد السالفة وعن إتمامها . «ج ٢ ص ٩٦»

ب- وفي ذى الحجة عام ٨٧٥ هـ خلع السلطان على شيخ عربان الشرقية وصقر ابن بقر ، وقرره في مشيختها عوضا عن قريبه «عيسى بن بقر» الذي سجن بالمقشرة بعد ضربه ضربا مبرحا بين يدى السلطان . وبعث الأمير بن «تمرا» حاجب الحجاب و«قانسوه» الخفيف ، الإينالى ليسيرا إلى الشرقية بسبب فساد عربانها ، وأمرهما بالقبض على كل من يحدونه من بنى سعد وبني وائل . وقد عاد حاجب الحجاب المذكور في صفر عام ٨٧٦ هـ ، وقد قبض على جماعة من المفسدين وفيهم «موسى بن عمران» وآخر اسمه «طاجن» وجماعة من بنى سعد وبني وائل . فرسم السلطان بإعدامهم . فكان ذلك سببا في أن عاود عربان الشرقية الثورة ، لذلك عاد إليهم حاجب الحجاب لتأديبهم مرة أخرى . - إلا أن فسادهم زاد وعيهم استشرى ، وخاصة في ذى الحجة من العام المذكور ، إذ ثار عربان بنى حرام وبني وائل بالشرقية وأفسدوا أمورهما على السلطان ، وزحفوا على القاهرة حتى بلغوا حتى الحسينية ونهبوا حيوانيتها وسلبوا سكانها أثوابهم ، وغنوا بها ساعات ثم عادوا . فجهز لهم قايتباي حملة تأديبية بها عدد من الأمراء الكبار «أزبك بن ططخ» و«قاي بك قلسير» و«أزدر الطويل» . فهموا سراعا إلى الشرقية ، وعاد أزبك بعد قليل ومعه عدد من أسراهم فسجنوا بالمقشرة . وأقام بقية الأمراء زمنا في الشرقية لإصلاحها وتطهيرها من هذا الفساد .

ومالبت عربان البحيرة أن ثاروا مرة جديدة في صفر عام ٨٧٧ هـ فأدبهم أزبك بن ططخ وأمر عددا منهم سجنوا بالمقشرة . وماهدأت هذه الفتنة حتى جددتها عرب الشرقية من بنى وائل وبني حرام . فخرج لتأديبهم الأمير «يشبك الدوادار» ، وذلك في شوال عام ٨٧٩ هـ . وفي ذى القعدة من العام نفسه هجم عرب عزالة على ضواحي الجزيرة ونهبوا خيول الممالك وقتلوا جماعة من الغلبان وأطلقوا من كان في السجن ، فجرد عليهم السلطان عددا من الجنود فلم يظفروا منهم بطائل . ولكن لم

يلت بعد قليل أن وفد على السلطان خلال عام ٨٨٠ هـ شيخ العربان «مهناب بن عطية»
رأس المفسدين ، وشفع فيه بعضهم ، فأمنه السلطان وعفا عنه فدخل تحت طاعته .

« ج ٢ ص ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٦٢ »

ج - هدأت فن العربان حيناً حتى كانت أواخر عام ٨٨٢ هـ حيث ثار عرب
«هواره» في بلاد الصعيد ومعهم «يونس بن عمر» في وجه كاشف الوجه القبلي
«برسباى» ، ووقع بين الفريقين معركة دموية حارة قتل فيها كثير من الجند وكسر
الكاشف كسرة قاسية . فهم السلطان قايتباى بالسفر إلى الوجه القبلي لتأديبهم
- وكان حينئذ يرتاض بالفيوم - فتعه الأمرأه ، فأخذ يحث الأمير «يشبك» الدردار
على الخروج إليهم - وكان مريضاً - فخرج بعد قليل ومعه جماعة كثيفة من الجنود .
فقبض على يونس بن عمر الهوارى ، بعد أن تتبعه إلى بلاد النوبة ثم قطع رأسه
وبعثه إلى القاهرة فطيف به ثم علقه على باب زويلة أياماً . وكذلك قبض على أخيه
أحمد وعلى فئة كثيرة من أتباعه . ثم عاد في جمادى الأولى عام ٨٨٣ هـ ومعه أسراه فأمر
ببعضهم فأعدموا ، وبالبعض الآخر فسجن . وفي ذى القعدة عام ٨٩١ هـ أمر السلطان
بإعدام «عبد العزيز بن عمر الهوارى» المعروف بعزوز ، وجماعة من أقاربه .

« ج ٢ ص ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٤٠ »

د - وفي شهر شعبان من العام نفسه ٨٨٣ هـ ، أطلق السلطان سراح شيخ العرب
«محمد بن هجلان» وكان منذ عشر سنوات مقبلاً في السجن بالقلعة في البرج . فأفرج
عنه وخلع عليه وأعادته إلى مشيخته بالشرقية .

« ج ٢ ص ١٨٤ »

هـ - وثار بعد ذلك عرب الأحامدة بالوجه القبلي أيضاً فسار الأمير «أقبردى
الدردار» إليهم وأدبهم خير تأديب وأسّر منهم عدداً وقتل عدداً آخر ، وعذبهم
تعذيباً شديداً ودفن بعضهم أحياء ، وباع بعضهم بيع الأرقاء ، وقد بلغت أخبار
نصرته مدينة القاهرة في جمادى الأولى عام ٨٩٢ هـ وظهر بلاد الصعيد منهم .

« ج ٢ ص ٢٤٣ »

٨- وفي عصر الناصر بن قايتباى وقعت فتنة « قانصوه خمساته » واضطربت القاهرة بمن فيها عام ٨٩٠ هـ ، فانتهر عرب الشرقية والغربية هذه الفرصة وعاثوا في أرجائهما فسادا وقطعوا الطرق حتى اعتاص السفر إليها من القاهرة . وفي العام نفسه بعد قليل هبت فتنة كبيرة بين فريقين من عربان الصعيد أحدهما بزعامه « محمد بن عمر » أمير هواة ، والثاني بزعامه « إبراهيم » الهواري . وهبت الشحنة كذلك بين بني حرام وبني وائل . ولذلك ظل « أفردى » ببلاد الصعيد زمنا يقضى على هذه الفتن ، ثم عاد بعد قليل إلى القاهرة . د ج ص ٢١٢ ، ٣٢٢ ، وفي شوال عام ٩٠٤ هـ يوم عيد الفطر جاءت الأخبار بأن عربان « عزالة » ثاروا في وجه كاشف البحيرة لحارثهم ، ففروا منه وعبروا النيل من « الوراق » ، وانجموا قريبا من « شبرا » ثم توجهوا من خلف الجبل الأحمر إلى ناحية « طرا » ، « فالمعصرة » حيث ضربوا خيامهم . فحرد عليهم السلطان الناصر بن قايتباى تجريدة بها عدد كبير من الأمراء الكبار منهم « قانصوه البرجي » ، أمير المجلس و « قرقاس بن ولى الدين » رأس النوبة و « قيت الرجى » حاجب الحجاب و « سناى » نائب خيس وأحد المقدمين ، و « طراباى الشربى » الدردار الثانى ، ومعهم عدد ضخم من الجنود . واتجهت الحملة فى اليوم نفسه إلى المعصرة ، حيث التقت بعرب « عزالة » ، فاقتتل الفريقان قتالا شديدا انهزم فيه جنود السلطان هزيمة منكرة وقتل منهم نحو خمسين ، ومن غلبانهم نحو خمسين ، وجرح « قرقاس » و « قيت » و « طراباى » ، ونهب العرب ما معهم وحملوا أمتعتهم وفروا إلى بلاد الصعيد وعادت فلول الحملة إلى القاهرة فاشتد فيها النواح والعويل . . .

وقد خفف من هذا المصاب ووقعه أن كان الأمير « طومان باى » الدردار - وهو الذى ملك فيها باسم العادل - كان فى ناحية الصعيد وسمع بأخبار هذه الهزيمة فجمع جنوده وبغت بها عرب عزالة وشتت شملهم وأسر منهم نحو ثلثمائة إنسان من رجال ونساء وأطفال ، وعاد بهم إلى القاهرة ، فطيف بهم فى الحيدور الحبال بعد أن رسم السلطان بتسميرهم ووضعهم على الجمال ، ثم أمر الناس برجمهم بالأحجار

وقد نظم الشيخ بدر الدين الزيتوني زجلا في هذه الموقعة ، فانظره في الجزء الرابع من كتابنا هذا بعون الله .
« ج ٢ ص ٣٠٦ إلى ٣٠٨ »

٩ - وفي عصر السلطان الغورى وقعت من العربان حملة حوادث نلخصها فيما يلي :

١ - في عام ٩٠٧ هـ اعتاص على السلطان أمر عرب الشرقية ، فبحث إليهم في شهر شعبان الأمير ، قانصوه بن سلطان جركس ، كاشفا . فلم يستطع هذا الكاشف أن يتفاهم معهم ، وازدادوا عصياناً فوق عصيانهم ، وتندروا على هذا الكاشف وسموه « هات لبن » . ويظهر أنه كان يكثر من ترديد هذه الكلمة لهم - فلبث فيهم أربعين يوماً ، ثم عاد بغير جدوى .

وفي أواخر العام نفسه اعتدى عربان مكة بزعامه « الجازافى » على ركبى الحاج المصرى والشامى وقتلوا عددا من رجالها ونهبوا المال وعروا النساء من نياهن . وعاد الحجاج فى أوائل عام ٨٠٩ هـ على أسوأ حال . ولذلك أعد لهم السلطان حملة مكونة من ستائة مملوك رافقوا المحمل فى خروجه من القاهرة فى شوال عام ٩٠٨ هـ .

وفى ذى القعدة عام ٩٠٨ هـ ازداد شر عربان الشرقية والغربية وبلاد الصعيد وكادوا يملكون البلاد من أبدى مقاطعها ، فجرد عليهم الغورى حملات عدة بقيادة امراء ، هزم بعضها فأمده ، حتى كسروا شوكتهم بكل مكان وأثخنوا فيهم حتى قتل منهم نحو ألفين ، وقيل كان الأمير « طراباى » ينشر بعضهم بالمناشر من الرأس إلى القدم . وقطعت رؤوس شبانهم وأرسلت إلى القاهرة فى تبين على جمال . ثم عاد الامراء فى صفر عام ٩٠٩ هـ .

وقبلها فى المحرم عام ٩٠٩ هـ قبض على أحد عصاة العرب الكبار واسمه « علاء الدين بن قرطام » من بنى حرام فى جبل الطور ، قبض عليه « نجم » أحد مشايخ العربان . فقطع هو رأسه وبعثه إلى القاهرة . فطيف به وعلق على باب زويلة .

وفي القعدة عام ٩٠٩ هـ أيضا أرسل « إقبای الكاشف » رأس أعرابي شرير من عربان الشرقية كان من العصاة واسمه « ابن بيسار » فعلق كذلك على باب زويلة . ثم بعث شخصاً آخر من العصاة أيضا اسمه « ابن بهيج » فرسم السلطان بشنقه على باب النصر .

وفي شهر رجب عام ٩١٠ هـ خلع السلطان على شيخ العرب « بيبرس بن بقر » وأعادته إلى شياخة العرب كما كان - وأقر « أقبای » في كشف الشرقية ليهدها من الثائرين فيها من العربان بهمته المبررة .

وفي شوال ٩١١ هـ جاءت الأخبار من مكة بأن الأحوال فاسدة ، وأن عربان « بنى إبراهيم » قد التفوا على « يحيى بن سبع » أمير ينبع - وهو الذى عينه في تلك الإمارة السلطان الناصر بن قايى عام ٩٠٣ هـ . والتفوا كذلك حول « مالك بن روى » أمير خليص . وعقدوا النية على الثورة والفتنة والفساد ، ول هذه الأسباب أبطل السلطان الحج في هذا العام .

وفي ذى الحجة عام ٩١١ هـ وقعت فتنة هائلة بين شيخ العرب « بيبرس بن بقر » وبين « نجم » شيخ العابد . فقتل فيها عدد كبير وفر من وجههم « أقطوه » الكاشف بالشرقية . واستمرت الفتن زمنا حتى وردت الأخبار إلى القاهرة في ربيع الأول عام ٩١٢ هـ بأن العربان العصاة المذكورين قطعوا جسور الماء على الأجران حتى غرقت . وكان النيل قد أشرف على الوفاء - وفي ربيع الثانى عام ٩١٢ هـ جاءت أخبار الكرك بأن عربان « بنى لام » هزموا نائب القدس وقتلوا عددا من الممالك السلطانية . فحقق الغورى وبعث إلى نائب الشام ونائب طرابلس بقتال « بنى لام » . وبينما هؤلاء في عبثهم إذ جاءت أخبار عربان الشرقية في شوال عام ٩١٢ هـ كذلك بأنهم قطعوا طريق المحلة ونهبوا ما فيه وفي جملة أهوال السلطان - وفي ٢٤ من الشهر المذكور حضر إلى القاهرة « خابر بك المعار » ومعه خمسون رأساً ممن قتل من العربان من « بنى إبراهيم » ، فأنعم عليه السلطان .

ثم طيف بهذه الروس ونودى عليها : « هذا جزاء من يقطع الطريق على الحجاج » ثم علفت على أبواب القاهرة . ثم رسم السلطان للأمير « أزدمر » الدوادار ، بالخروج على حين غفلة ليباغت عربان « بنى لام » ، في الكرك ونابلس ونرج مع نحو خمسمائة جندي .

وفي ذى القعدة عام ٩١٢ هـ وفد إلى القاهرة عدة من المهجانة وأخبروا أن الجند السلطانية برئاسة « خاير بك » انتصروا على « يحيى بن سبع » بالقرب من ينبع . وهو الذي ثار في العام الفائت ووجه إليه السلطان هذه الحملة .. فقتل من الفريقين عدد كبير ، ثم انتصرت الجنود المصرية ، وفر « يحيى بن سبع » .

أما ثورة عربان الشرقية فقد شغلت بال السلطان وجرد عليها الحملة تلو الحملة بغير جدوى ، ثم قبض على « أحمد بن منها » شيخ بنى وائل بعد أن هرب من السجن وقتل السجناء . ورسم السلطان بشنقه ، فسر هو وأقاربه وطيف بهم في القاهرة ، ثم شقوا على باب النصر في ربيع الأول سنة ٩١٣ هـ .

وفي ١٤ ربيع الأول عام ٩١٣ هـ جاءت الأخبار من عند الأمير « أزدمر » الدوادار أنه لما وصل إلى الكرك ونابلس قاتل عربان « بنى لام » الذين كانوا من عصابة « يحيى بن سبع » فانتصر عليهم وقتل منهم عددا ضخما .

وقبض على « عبيد بن أبي الشوارب » أحد كبار العربان المفسدين ، وكذلك قبض على « قاسم الغريب » ، أحد أشرار عربان الشرقية ورسم السلطان بإعدامهما في ٢ جمادى الآخرة عام ٩١٣ هـ .. وخلع على شيخ العرب « عبد الدايم بن أبي الشوارب » وقرره في مشيخة العرب بالقلبوية .

وفي رجب عام ٩١٤ هـ وفد إلى الأبواب السلطانية « ابن يحيى بن سبع » ، ذلك العربي الثائر على السلطان من أعوام : فطلب السلطان إليه أن يخاطب والده في المشول بين يديه ، وأعطاه ماشاء من الأمان . - ولما نزل هذا الابن من لدن السلطان كاد العوام يفتكون به لأن أباه وجماعته نهبوا مال الحجاج . ولكن الأمراء تقدمت لحمايته منهم ، ورسم السلطان ألا يتعرض له إنسان وإلا قتل . وقد فسر

العوام هذا الأمر بأن السلطان تسلم منه مالا وبذلك سكت عن محاسبته عن أموال الحجاج فضاعت هباء . . .

وفي رمضان عام ٩١٤ هـ وفد إلى القاهرة كاشف الشرقية ومعه شيخ العرب « عبد الدايم » بن الأمير « أحمد بن بقر » وقد قبض عليه بحيلة . وكان عاصيا مفسدا ، فرسم السلطان بتقييده وإيداعه في البرج مسجوناً .

وفي جمادى الآخرة عام ٩١٦ هـ رسم السلطان بشتق أحد العربان المفسدين واسمه « عمر بن موسى » ، النقي من عربان ثعلبة . وكان شجاعاً .

ولما فر « يحيى بن سبع » من وجه السلطان وجنوده عام ٩١٢ هـ أقام السلطان أميراً لينبع بدلا منه وهو « حجار » . ثم توفي هذا الأمير عام ٩١٧ هـ فحاول « يحيى ابن سبع » أن يعود إلى إمارته فرفض السلطان وعين ابن عم المتوفى واسمه « أجد » ابن مسفار ، في ١٤ صفر من العام المذكور .

وفي الخميس ١٤ ربيع الآخرة عام ٩١٧ هـ قبض نائب القية بالشرقية على عربي مفسد يقال له « أحمد بن شكر » ، فسلخ جلده وحشاه وتبنا وأرسله إلى السلطان . .

وفي الثلاثاء ٢٦ المحرم عام ٩١٨ هـ وردت أخبار عربان البحيرة واتفاقهم على الثورة والعصيان . وقيل تحالفت على ذلك منهم سبع طوائف . فأمر السلطان بعض الأمراء بالخروج إليهم ، فما ظلوا وتباطأوا حتى حق السلطان عليهم ، وعزم على الخروج إليهم بنفسه . وظل يعرض الجنود آناً بعد آناً . حتى تواتت الأخبار في يوم الجمعة ٢٩ منه بأن عرب « عزالة » ، وغيرهم من العربان قد أظهروا العصيان وزحفوا على البلاد بالبحيرة ، وأفسدوا الزروع ونهبوا الغلال وأنهم ضيقوا الخناق على شيخ العرب « الجويلي » . وأنهم طردوا كاشف المتوفية وغيره من البلاد . فبعث إليهم السلطان تجميعة بها من الأمراء الأمير « طومان باي » ، الدوادار الكبير ، وأمدم السلطان بحملة من الجنود فخرجوا لتأديبهم . ثم عاد « طومان باي » في ١٦ صفر عام ٩١٨ هـ . ورسم لبعض الجنود بالإقامة بالبحيرة زمناً حتى يتم وفاء النيل .

وفي السبت ٢٨ صفر عام ٩١٨ هـ أرسل الأمير قانصوه بن سلطان جركرس،
الذى توجه إلى الصعيد، ثمانية رموس من عرب « عزالة » منهم شخص يسمى
« حنين بن كروان » وكان من كبار المفسدين .

وفي ٥ جمادى الأولى عام ٩١٨ هـ وفد على السلطان الأمير « بريس » بن الأمير
« أحمد بن بكر » شيخ العرب نخلع عليه ورضى عنه . وكان عاصيا منذ أمد .

وفي ٤ ذى الحجة عام ٩١٨ هـ رسم السلطان بشناق « ابن حمادة » شيخ العرب
بالقليوبية ، فشنق على قطرة الحاجب .

وفي الثلاثاء ٤ ربيع الأول عام ٩١٩ هـ بعث السلطان طائفة من الجنود إلى
الغربية لفساد عربائها الذين قتلوا كاشفها .

وفي شهر ربيع الأول عام ٩٢٠ هـ أخبر أن عرب « عزالة » نزلوا بالقرب من
البدرشين ، فركب إليهم الأمير « طومان باى » وبجأهم بها وقبض على عدد منهم
وسبقوا إلى القاهرة ، فسجنوا فى المشقرة وخيف من أن يحكم عليهم بالشنق لثلاث
ينب أقر باؤهم لإقليم الجيزة جميعه انتقاما لهم .

وفي شعبان عام ٩٢٢ هـ عاث عربان « بنى عطية » و « النعام » بضياغ الشرقية
ونهبوا منها نحو أربعائة رأس غنم من غنم السلطان والدوادار طومان باى .
ودخلوا وادى العباسية . فخرج إليهم الدوادار المذكور معه خمسمائة مملوك وبجأهم .
فهربوا من وجهه بما غنموه . فعاد إلى القاهرة ، وما لبث العربان أن عاثوا مرة
أخرى فى بلاد الشرقية وغيرها وسرقوا كثيرا من مواشيها وحل نسايتها وقتلوا من
فلاحها عددا كبيرا . وكان هذا الفساد أيام شاعت أخبار انكسار الجيش المصرى
أمام العثمانيين ، وعلم أن الفورى قد قتل فانتهم مؤلاء الناس الفرصة ، وقطعوا
الطرق وسلبوا المارة وتلسوا الفارين من الجنود العائدين إلى الوطن فنهبوا ما معهم
وقتلوا من قتلوا . فكان ذلك أحد أسباب الفوضى الضاربة فى البلاد إثر
هذه الهزيمة : « تراجع هذه الموائد فى الجزء الرابع والخامس . من تاريخ ابن اياس فى أخبار
التواريخ المذكورة » .

٥ - الزلازل والطواعين والقحط والغلاء :

فشبت في مصر في هذا العصر جملة من الزلازل والأوبئة ، وضروب من القحط وسنون من الغلاء ، زادت في شقاء الناس ، وأطالت تعسهم . ولا يد للسلاطين ولا لأمرائهم في هذه الحوادث إلا قليلا . ولكنها كانت من سيئات ما أحديب به الناس في أيام حكمهم . ونشعر أنهم لو طورا من بينهم هذه الشحنة واللجاجة في البغضاء ولووا عنان عنايتهم إلى مرافق الشعب الحيوية لأمكنهم إلى حد ما تخفيف هذه الويلات الطبيعية عن المصابين بها .

ولكنهم - والحق يقال - عنوا بعض العناية بهذه الحوادث بعد نزولها ، فرموا من الأبنية ما تهدم ، وبنوا المستشفيات للرضى والمصابين . وأقاموا المغاسل للأموال . وتبرعوا بالأموال والكسب والأطعمة للمسكين ومدوا يد المعونة للأسر المفجوعة . وهكذا . . صنعوا ضروبا من المروءة والجميل مما نشير إليه في الحوادث التالية . والآن نسرده بعض هذه الحوادث ليكون تقارىء على ذكر منها . فنها :

١ - الزلازل :

١ - في عام ٧٠٢ هـ في عهد السلطنة الثانية للناصر محمد بن قلاوون ، حدثت زلزلة عظيمة في ٢٣ من ذى الحجة وشعر بها الناس في أماكن عدة وخاصة في مدينة الإسكندرية ، إذ هدمت سورها وسبعة عشر من أبراجها وجزءا من منارتها وأربعين من مآذنها ، وقاض من جرائها ماء بحر ها وطغى على بساطتها - وهدم أكثر جدران الجامع الحاكمي ، ومثناة المدرسة المنصورية ، ومثناة جامع الظاهر بالشواوين ، ومثناة جامع الصالح بباب زويلة ، وبعض جدران جامع عمرو بن العاص ، وأحدثت شقوقا في جبل المقطم ، وأسقطت كثيرا من الدور . وهلك من جراء ذلك كثير من الناس . وأخذت الزلزلة تعاودهم في مدى عشرين يوما ، حتى ظنوا أنها القيامة . . . فخرجوا من دورهم إلى العراء وأقاموا في الصحراء ، حتى هدأت الاهتزازات . وهبت في عقبها ريح سوداء لائحة لم يلقها كثير من الناس ، فأغشى عليهم . وأصاب

هذه الزلزاله دمشق والكرك والشوبك وصفد وكثيرا من البلاد الشاميه .

وقد اهتم الامراء بترميم المساجد والابرار والابنيه التي تهدمت ، وشرعوا في إصلاحها عام ٧٠٣ .

قال المقرئ في سلوكه يصف هذه الزلزاله ما ملخصه : . أنها بدأت عند صلاة الصبح فاهتزت الأرض كلها وقفقت الحيطان وصوتت السقوف ، وسقط الماشي والراكب ، وخيل للناس أن السماء انطبقت على الأرض . فلا قلوب الناس الفرع ، وهرعوا إلى الطرقات ومعهم النساء غير مستترات والكل يعول ويصيح . ووضعت الحوامل . وتهدمت مآذن الجوامع والمدارس . وأعقبها ربح عاصفة وقاض النيل وقذف بما فيه من السفن بعيدا عن الشاطئ . وسرق من الدور كثير من المتاع . ولم تكدر دار بمصر تسلم من الهدم . وتهدمت مدينة سقا ، وانشق منار الإسكندرية وتهدم جزء منه كبير . وقاض بها البحر وقذف سفينة بعيدا عن شاطئه ، وخربت ضيعتان بالشرقية .

وأصبحت مدينة قوص . واكتسحت الرياح دورا عدة ومواقع من الأرض كثيرة ، وحتى بان من تحتها عمائر مطمورة . وتهدم بعض جامع عمرو . وجامع الحاكم والأزهر ، فقام بترميمها جميعا الأمير «سلار» النائب وعادونه في ترميم الأزهر الأمير منقر الأعسر . وتهدم مساجد أخرى وأمكنة أخرى ثم قام الأمراء بإصلاحها . وقد مات في هذه الحوادث خلائق لا تحصى . .

« ج ١ ص ١٤٦ - سلوك المقرئ ج ١ ص ٩٤٢ »

٢ - وفي رجب عام ٨٨١ هـ في عهد قايتباي وقع بالقاهرة زلزاله أخرى في الليل تهدم بسببها بعض الأماكن . « ج ٢ ص ١٦٧ »

٣ - وفي ١٧ المحرم عام ٨٨٦ هـ في عهد قايتباي أيضا حدث بمصر زلزاله هائلة ماتت بها الأرض والمآذن . وسمع لذلك دوى عظيم وخاف الناس فبهوا مذعورين خارج المنازل ، ومعهم النساء حاسرات ، وتوفي بسببها خلق منهم : قاض القضاة شرف الدين بن عبد الحنفى ، سقط عليه ما أهلكه . « ج ٢ ص ٢٠٣ »

٤ - في عهد الغورى عام ٨٩١٦ في يوم الجمعة ٧ ذى الحجة وقعت زلزلة خفيفة ارتجعت لها الأرض ولم يشعر بذلك إلا قليل من الناس .

ب - الطواعين والأوبئة^(١)

١ - في عام ٨٦٧١ حدث وباء قتل به كثير من الناس ، وظل نحو ستة أشهر .

« ج ١ ص ١٠٨ »

٢ - في عام ٨٧٤٩ في عهد الناصر حسن بن الناصر محمد وقع طاعون جارف : قيل مات به في شهرى شعبان ورمضان نحو تسعمائة ألف إنسان . وقيل كان يخرج من القاهرة في اليوم الواحد أكثر من عشرين ألف جنازة . وظل في البلاد زمنا طويلا حتى أهلك الحرث والنسل ، ومات به مالا يحصى من الفلاحين ، فبارت الأرض وأقفرت وكثر الجذب وعم الخراب وأصيبت به الحيوانات حتى السكاب والقطط والوحوش . وارتفعت أثمان الحاجيات لقلتها وزاد الغلاء وخرج الناس للسماء كما يفعلون في الاستسقاء ونظم الشعراء في ذلك مقطوعات . « ج ١ ص ١٩١ ، ١٩٢ »

٣ - وفي عام ٨٧٦٩ في عهد الأشرف شعبان ، فشا في القاهرة الوباء حتى أفنى كثير من الناس . قيل كان يخرج من القاهرة كل يوم اثنا عشر ألف جنازة .

« ج ١ ص ٢٢٢ »

٤ - وفي عام ٨٧٩١ في عهد برقوق وقع طاعون مات به كثير من الناس وارتفعت أثمان الحاجيات . « ج ١ ص ٢٦٩ »

٥ - وفي عام ٨٨٠٧ في عهد فرج بن برقوق في سلطنته الأولى ، فشا بالبلاد وباء جارف وكثر موت الفجاءة واشتد مرض السعال ، فمات بذلك خلق لا يحصى ، وكانوا يتساقطون في الطرق جماعات . وقد تبرع المقر السعدي ابن غراب بافتتاح غسل على نفقته بغسل فيه الموتى ويكفنون . فكان الخيالون يقدون إلى هذا المغسل بمن حملوا

(١) اعتمدنا في هذا الموضوع على ابن إياس ، وإذا قلنا عن غيره نصمنا عليه . ويبدو لنا أنه ابن إياس اعتمد فيه على « بذل الطاعون في أخبار المأمون » لابن حجر ، وأجم البدائع ج ١ ص ١٩٢ .

من الموتى . - وقد سمي فصل الوباء المذكور «فصل ابن غراب» نسبة إلى هذا الرجل .

« ج ١ ص ٣٤٨ »

٦- وفي عام ٨١٣هـ في عهد السلطنة الثانية لفرج ، وقع طاعون آخر وزاد واشتد في شعبان ورمضان حتى قال فيه القاضي مجد الدين بن فضل الله . .

تزايد الطاعون لما أتى شعبان والحى به صعبه
ودام في الصوم على فتكه وفطر الضيف على كبه

« ج ١ ص ٣٥٣ »

٧- وفي عام ٨١٩هـ في عهد المؤيد شيخ فشا طاعون آخر فتك بالناس فتسكا

ذريعا . « ج ٢ ص ٤٠ »

٨- وفي عام ٨٢١هـ في عهده أيضا ازداد الطاعون واستمر حتى دخلت سنة ٨٢٢هـ .

« ج ٢ ص ٦٠ »

٩- وفي عام ٨٣٣هـ في عهد السلطان برسباي انتشر الطاعون بالبلاد ، وكان طاغيا فتسكا . قال ابن إياس : « كان هذا الطاعون مخالفا لبقية الطواعين . فإن عادة الطعن يقع في فصل الربيع . وهذا وقع في وسط الشتاء واستمر أربعة أشهر ، وقال « وكانت قوة عمله في الغرباء والأطفال والماليك والعبيد والجواري . فمات فيه من الناس مالا يحصى عددم ، حتى قيل انتهى من مات في يوم واحد إلى أربعة وعشرين ألف جنازة . حتى ضج الناس من ذلك وصار يودع بعضهم بمضا . » وقال فيه بعض الشعراء :

قد نقص الطاعون ثلث الورى وأهلك الوالد والدة
كم منزل كالشمع سكانه أطفأهم في نفخة واحدة

وقد انتهى خطره في شعبان ليلة واحدة منه بعد أن مات به كثير من الأعيان قال ابن إياس نقلا عن ابن حجر : ولما كثر الطاعون بمصر اجتمع أعيان العلماء بالجامع الأزهر ، ودعوا الله برفعه ، فازداد أمر الطاعون ولم يتناقص ، ١١

« ج ٢ ص ١٨ و ١٩ »

١٠- وفي عام ٨٤١ هـ وقع طاعون بمصر كان أخف من سابقه ، وهذا هو الطاعون الثاني الذي وقع في عهد برسباي . قيل : مات به عدد لا يحصى من الممالك وأطفال وجوار وعبيد وغيرهم .
« ج ٢ ص ٢١ »

١١- وفي عام ٨٤٩ هـ في عهد الظاهر جتمع وقع طاعون خفيف مات به كثير من.
« ج ٢ ص ٢٩ »

١٢- وفي عام ٨٥٣ هـ وقع طاعون آخر في عهد الظاهر جتمع كذلك هلك به عدد كبير من الناس قبل كان يموت في كل يوم نحو عشرة آلاف إنسان .
« ج ٢ ص ٣٢ »

١٣- وفي عام ٨٦٤ هـ في عهد الأشرف إينال فشا طاعون جارف قاس سرت عدواه من البلاد الشامية ، وتفشا في مصر . قيل مات به ثلث الممالك والأطفال والجواري والعبيد والغرباء ، واستمر خمسة أشهر . وقيل : كان تعداد الجنائز يوميا اثني عشر ألف جنازة . وكان الورد في تلك الأثناء كثيرا فاتخذوه للتواييت زينة .
« ج ٢ ص ٦٤ »

١٤- وفي عام ٨٧٣ هـ في عهد قايتباي ، وقع أول طاعون في عهده ، وكان في شهر رجب من العام المذكور . وقد فشا في مصر والشام ، واستمر حتى شهر رمضان فاشتد فيه وزادت ضحاياه وكثرتك بالناس ، ثم زال خطره في شوال . وقد أنشأ الأمير يشبك في هذا العام مغسلا للموتى يكفنون به فعمت فائدة .
« ج ٢ ص ١٠٦ الى ١٠٨ »

١٥- وفي عام ٨٨١ هـ وقع ثاني طاعون في أيام دولة قايتباي ، وكان وقوعه في شهر رمضان ، واشتد خطره في شوال وقتك بالممالك والأطفال والعبيد والجواري والغرباء فتكا ذريعا ، وكان المطعون يموت في يوم إصابته . وظل في تفاقم خطره حتى شهر ذى القعدة وذى الحجة إذ مات به نحو ألفين من الممالك السلطانية ، ومات عدد من خدم السلطان وطواشيه ، وعدد آخر من أعيان الناس ووجهائهم ، منهم عمر بن الأمير دولاباى الدردار . وكان جميل الصورة شابا ، ومنهم محمد

ابن الأمير يونس العلائي أمير آخور كبير ، وعدد كبير من الأمراء العشرات ومن الحاصكية . ومات بترك النصارى البعاية وهو « ميخائيل المنفلوطي » ، وقد كثير من الناس أولادهم . ولما هبت ريح الخناسين بدأ خطره يزول . « ج ٢ ص ١٦٧ ، ١٧٠ »
١٦ - وفي عام ٨٩٧ هـ في عهد قايتباي كذلك ، حدث في ربيع الثاني بدء وقوع الطاعون ، وأخذ في الانتشار ، وهو الطاعون الثالث في عهد قايتباي . وقد عجب ابن إياس من بقاء هذا الطاعون ، فقد مضى على سابقه نحو ستة عشر عاما . . . فكانما اعتادوا أن تكون الفترة بين كل طاعونين أقل من هذه الأهمام المذكورة . ويقول ابن إياس : « وكان في مدة انقطاعه عن مصر ، كثرتها الزنا والواط وشرب الخمر وأكل الربا وجور المالك في حق الناس . . . فكانما يجعل هذه الأمور من أسباب وقوع الطاعون في البلاد . ولذلك قال بعد ذلك : « وقد روى عن رسول الله ﷺ : أنه قال : « ما من قوم يظهر فيهم الزنا إلا أخذوا بالقضاء . . . »

وزاد شره في جمادى الآخرة وانتشر خطره في القاهرة في هذا الشهر . وبالف في الفتك بالناس حتى فر كثير منهم وغادروا البلاد خوفا من العدوى . وارتفعت أثمان الحاجيات . وتوفي به عدد من كبار الناس منهم والى القاهرة دقت الساق . وما زال في شدة وخطر حتى أواخر رجب خفت وطأته ثم زال في شعبان ، بعد أن أخلى كثير أ من الدور من سكانها . وقيل أحصى من ثبت موتهم بطريقة رسمية ، فكانوا نحو مائتي ألف ، من بينهم عشرة آلاف بنت عذراء من مصر والقاهرة والضواحي . وقد قال الشيخ بدر الدين الزبوتوني زجلا في هذا الحادث يرثي فيه أهل مصر « انظره في الجزء الرابع » . « ج ٢ ص ٢٧٢ الى ٢٧٦ »

١٧ - وفي عام ٩٠٣ هـ في عهد الناصر بن قايتباي . ظهر الطاعون في جمادى الآخرة بجهة قطيا . ثم في رجب ظهر في مدينة القاهرة ، ومات به كثير من ، منهم « الشاه بضاع بن دلفادر » أمير التركان ، وكان ضيفا بالقاهرة . وزاد خطره في رمضان . وفي أواخر هذا الشهر خفت وطأته بعد أن لبث زهاء ثلاثة أشهر ، ومات به نحو مائتي ألف إنسان من بينهم نحو ألف ومائتين من المالك السلطانية .

« ج ٢ ص ٣٣٨ الى ٣٤١ »
(٢١ م - بمالك)

١٨ - وفي عهد الغورى وقع طاعون خفيف عام ٩٠٩ هـ واشتد خطره فى
أواخر ذى الحجة بعد أيام فطر النصارى فى الخامسين .

١٩ - وفى عام ٩١٠ هـ فشا الطاعون فى مصر - ويظهر أنه امتداد لظهور
السنة الماضية . فتوى خطره فى رمضان من هذه السنة وازداد فى شوال حتى بلغ
عدد الجنازات فى اليوم الواحد أربعة آلاف . فلما تزايد أمره فتح السلطان مغسلا
للأموات بجوار سبيل المؤمنى فانتفع به الناس أيما انتفاع . وصحبه غلاء فاحش
حتى بيع الرطل من السكر النباقي بثمانية أنصاف ، وعن وجود البطيخ الصينى والمان .
وجاءت أيام الخامسين فى ذى الحجة والطاعون يفكك بالناس فتسكا لاحد له . وقد
نظم السيوطى فى هذه الحوادث شعرا تجده بالجزء الرابع .

٢٠ - وفى أواخر ٩١٢ هـ فشا الطاعون ببلاد الصعيد . مع أنه لم يفش بها
عام ٩١٠ هـ أيام كان بالقاهرة .

٢١ - وفى أوائل عام ٩١٩ هـ ظهر طاعون آخر وقتل عدداً من الأطفال
والعبيد والجوارى . ثم فكك بالناس فتسكا ذريعا . . وازداد خطره فى صفر ،
حتى ألقى الرعب منه فى قلوب الناس وفر بعضهم بأولاده وأهلهم إلى جبل الطور
لأنه - كما قيل - لا يقرب الطاعون ! وظل فى شدته إلى أواخر ربيع الأول .

قال ابن إياس : إن بعض الأطباء أشار على السلطان بأن يلبس فى أصابعه
خواتم من الباقوت الأحمر ، فإنه يمنع الطاعون ! فأخرج من الذخيرة فصين
منه ثمينين صاغهما على قطع من الذهب غاتمين . وكان يلبسهما فى المواكب . .
قال ابن إياس : وفقد ذلك غريباً وخصوصاً من سلطان تركى .

« ج » فى التواريخ المذكورة .

ج - القحط والغلاء .

١ - فى عام ٦٦١ هـ فى عهد الظاهر بيبرس ، شح النيل وفشا الغلاء فتعاون
السلطان والأمراء على معونة الفقراء . « ج ١ ص ١٠٣ »

٢ - في عام ٦٩٥ هـ . في عهد كتبغا : أجذبت البلاد وشح النيل وارتفع ثمن الحاجيات وبلغ سعر أردب القمح مائة وسبعين درهما . وكذلك الفول ، ورطل اللحم بسبعة دراهم ، وبيعت البيضة بأربعة دراهم ، وبيعت التفاح والرمات والسفرجلة كل واحدة بثلاثين درهما . وبيعت الدجاجة بخمسة عشر درهما . واشتد الأمر على الناس حتى أكلوا الكلاب والخيول والبغال والحيل والجمال ، وحتى لم يبق عند أحدهم شيء من الدواب . وقيل كان يباع الكلب السمين بخمسة دراهم ، والقط بثلاثة دراهم ! ثم أرسل الله على الناس الجراد بوفرة عظيمة ، فأقبلوا على تناوله ، وبيع منه كل أربعة أروطال بدرهمين . وقد عم الغلاء سائر البلاد المصرية والشامية والحجازية وكل ممتلكات مصر - وقد أعقب ذلك فناء عظيم ومات الناس جماعات وفي الطرقات . وقيل إن الملك العادل كتبغا كفن على نفقته في مدة يسيرة مائتين وسبعين ألف إنسان . - ثم كشف الله عن الناس هذه الغمة وأزال الكرب بعد انقضاء هذا العام ، فأنحطت الأسعار وصلاح الحال . « ج ١ ص ١٢٣ »

٣ - في ٧٠٦ هـ . في أيام السلطنة الثانية للناصر محمد وقع غلاء فاحش في البلاد المصرية وقلت الغلال وزادت أثمانها ، واضطرب الناس لذلك . وبلغ ثمن الرغيف درهما من الفضة . ثم انجلى الحال قريبا . « ج ١ ص ١٤٧ »

٤ - في عام ٧٣٦ هـ في أيام السلطنة الثالثة للناصر محمد ، اشتد بالناس الغلاء . وانعدم الخبز من الأسواق . وبيع أردب القمح بسبعين درهما ، واضطربت نفوس الناس . فأمر السلطان بفتح مخازن غلاله ، ففتحت وبيع منها للناس بشمن رخيص . فصلاح الأمر وانخفضت أسعار القمح حتى بلغ ثمن الأردب ثلاثين درهما . وما جاء شهر رمضان حتى ملأ القمح الأسواق وزالت الشدة عن الناس .

« ج ١ ص ١٦٨ ، ١٦٩ »

٥ - وفي عام ٧٧٥ هـ . في عهد السلطان الأشرف شعبان لم يف النيل في مواعده . وقل القمح وامتنع الخبز من الأسواق . فخرج القوم للاستسقاء فلم يجدوا ذلك فتبلا

وإزداد الغلاء وبلغ ثمن كل أردب من القمح مائة وعشرين درهماً . ومن الشعير ثمانين درهماً ، وثمان الرغيف أربعة دراهم ، وثمان رطل اللحم من الضأن درهمين ونصفاً ، ومن البقر درهماً ونصفاً ، وبلغ ثمن البيضة عشرة دراهم ، وراوية الماء خمسة دراهم . واشتد أمر الغلاء حتى بلغ ثمن البطيخة مائة درهم ، والرامنة ستة عشر درهماً . واضطر الناس إلى الإقبال على خبز الذرة والبقول ، وماتت الدواب لقلة علفها ، واضطر السلطان والأمراء إلى بذل المعونة للفقراء . (ج ١ ص ٢٢٩)

٦ - وفي عام ٨٥٣ هـ في عهد جقمق : انتشر الغلاء وارتفع ثمن القمح والبقول والشعير ، وبلغ ثمن أردب القمح خمسة دنانير أشرفية ، ثم بلغ سبعة ، وعلت أثمان الحاجيات حتى روبا الماء ، وشرقت البساتين لعدم وفاء النيل وذهلت الأشجار ، وماتت الدواب ، واضطرب بسبب ذلك حبل الأمن في البلاد واعتدى العامة على بعض الرؤساء . قال ابن إياس : واستمرت هذه الغلوة نحو ستين ، وقدرت في بعض الشعراء الخبر رثاء فكاهياً ، تجده في الجزء الرابع . (ج ١ ص ٣١ ، ٣٢) .

٧ - وفي عام ٨٧٥ هـ . في عهد قايتباي ارتفعت الأسعار في شهر المحرم ، وغلت جميع أصناف المأكولات وغيرها . وعز وجود الأوز والدجاج ، وأقبل الناس على خبز الذرة والدخن . (ج ٢ ص ١١٨) .

٨ - وفي أوائل سنة ٨٩٢ هـ انتشر الغلاء وغلت الأسعار في جميع البضائع واختفى الخبز من الحوانيت . حتى بيع كل رطل منه بنصف من الفضة ؛ وذلك بسبب الاضطراب في النقد وارتفع ثمن راوية الماء وعز وجود جمال السقائين . وما زال الأمر يشتد حتى بيع القمح بسعر الأردب ستة دنانير أشرفية ؛ وبيعت « بطة » الدقيق بأربعمائة وخمسين درهماً ، وظهر خبز الذرة في الأسواق - ولم يكن يظهر فيما سبق . حتى صنف العوام فيه رقصة وأغنية هي :

« زويجي دى المصخرة يطعمنى خبز الذرة »

وقسا الخطب على الفقراء ومات منهم على الطرقات كثيرون بتأثير الجوع .

فاضطر السلطان إلى فتح مخازن قمحه وبيع الأردب بسعر خمسة دنانير أشرفية ، وأخذ المحتسب يضرب باعة الخبز لعدم إعدادهم الخبز وإظهاره للناس وتعرضه للبيع . وما زال الأمر كذلك حتى فرج الله الكرب وخفف الخطب ، وقل سعر القمح إلى أربعة دنانير أشرفية بفضل ما جلب من الذرة ، فحمد الناس الله على ذلك فهو المعين والموفق . .

٩- وفي عهد الغوري وقع غلاء عام ٩١٤ هـ في شهر رجب ، وارتفع ثمن القمح حتى بلغ الأردب خمسمائة درهم وعز وجود الخبز في الأسواق ، وغلاتين حتى صار ثمن الحمل ديناراً .

١٠- وفي عام ٩١٦ هـ في شهر ذي القعدة بدت القواكه والخضراوات والرياحين والازهار حتى البطيخ والثوم والبصل والقمح فاسدة ، وأصبحت زراعتها ، فضعف المحصول ، وبذلك ارتفعت الأثمان واشتد الغلاء .

١١- وفي أواخر صفر عام ٩١٧ هـ قل القمح فارتفع ثمنه وبلغ الأردب أشرفياً بعد أن كان كل أردبين بأشرفي . وسبب ذلك قلة ماء النيل . ثم زاد سعر القمح إلى أشرفين . وسرى الغلاء إلى جميع البضائع من خضراوات وسكر وعسل وزيت وسمن وزبيب وأرز وبرسيم وشعير وفول . غير أن هذا الغلاء زال في أواخر العام المذكور .

١٢- ثم عاود الغلاء الناس في جمادى الأولى عام ٩١٨ هـ . وكذلك في ذي الحجة عام ٩١٩ هـ إذ ارتفعت أثمان الأضاحي في عيد النحر ، وذلك لأن المالك اشتد أذام بالناس واحتفظوا الأغنام والأبقار . وقد حرم الغوري في ذلك الحين بيع الملح ، وعمل على احتكاره فارتفع ثمن الأردب منه إلى ثمانمائة درهم وزاد ثمن القمح فبلغ ثمن قنطاره ثمانية أنصاف وحجر السلطان على الخشب «خشب السنط» ومنع بيعه بسبب احتياجه إليه في إنشاء السفن المجردة إلى بلاد الهند بسبب عبث الفرنجة . وبعث أعوانه لاقتطاع الخشب من حقول الناس رغم أنوفهم . وعز وجود الكبريت حتى يبع كل رطل بثمانية أنصاف .

ج ٤ في التواريخ المذكورة

العادات والتقاليد

لكل قوم عادات وتقاليد ، يتبعها السلطان في قصره والسوقة في وكره . ولكل جيل ، ولكل طبقة ، في كل عصر ، أمور عرفية ، وخطط عامة ، يتبعونها دون وعي ، وتحل منهم محل العقيدة ، ويسرون عليها سيرا غير شعورى ، مدفوعين بدافع التقليد والاعتiad . وقد يشعر أحدهم بفساد ما يجرى عليه ، وبقبح ما يتبعه ، وينقله على نفسه أحيانا . ولكنه لا يجد لنفسه مقرا من اتباع ما تعود ، وانتهاج مارسمته له الوراثة والظروف الاجتماعية . ولأنه يرى من العسير على نفسه أن يلوى عنانها إلى طريق جديد ، وأن يتجه بها وجهة أخرى قد لا يأمن عليها - برغمه - فيها من العثار أو الملام .

وهذا العصر الذى نؤرخه ، كان لأهله تقاليدهم وعاداتهم . وما تزال منها بقية باقية حتى اليوم ، بيدنا موروثة ، لم نجد عنها حولا ، رغم تقلبات العصور وتغاير الأجيال وتحول القرون ،

ومن يتصفح هذا الجزء من كتابنا ، يرى خلال ما أثبتناه فيه ، ضروبا من العادات والتقاليد ، رسمية وغير رسمية ، متناثرة هنا وهناك . ونحن الآن نورد بعضها مدعوما ببعض الحوادث التاريخية أو بذكر مراجعه ، وذلك بما لم نذكره في باب من الأبواب السابقة أو ذكرناه عرضا ودون تركيز .

وكان بوجدنا أن نرسم في مقالة صورة عامة متخيلة ، للمجتمع المصرى ، نكون أدنى إلى الحقيقة . ولكننا لم نستطع إحكامها لضيق ما بيدنا من المؤلفات الواصفة ، التى تعين على رسم هذه الصورة .

ومع هذا فمن يقرأ كتاب المدخل ، لابن الحاج ، والتعريف ، لابن خلدون ، وإغاثة الأمة بكشف الغمة ، للمقرئى ، ومتناثرات فى السلوك والبدايع والنجوم والضوء والطالع ، والمؤلفات فى العلوم الكونية المذكورة فى الجزء الثانى من كتابنا

هذا ، وأمثال ذلك ، يستطيع أن يكون فكرة أو رسم صورة لهذا المجتمع ، أقرب إلى الصواب .

وما يذكر هنا أن المقرئ يكتب في كتابه ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، فضلا يفهم منه أن المجتمع المصرى في عهده كان ينقسم سبعة أقسام هي :

- ١ - أهل الدولة وهم السلطان والأمراء وكبار الجنود .
 - ٢ - أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهة .
 - ٣ - الباعة وهم متوسطو الحال من التجار ، ويقال لهم « أصحاب البر » ويلحق بهم أصحاب المعاش وهم السوق .
 - ٤ - أهل الفلح وهم أهل الزراعات والحراث وسكان القرى والريف .
 - ٥ - الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم ، والكثير من أجناد الحلقة .
 - ٦ - أرباب المصانع والأجراء وأصحاب المهن .
 - ٧ - ذور الحاجة والمسكنة ، وهم السؤل الذين يتكففون الناس ، ويعيشون منهم .
- هذا وإليك بعض عاداتهم وتقاليدهم ، فمنها .
- ١ - حفلة تولية السلطان :

إذا خلا عرش البلاد من سلطانه ، يتشاور الأمراء فيما بينهم ، ثم يختارون كبيرا من كبرائهم لولايته . فإذا تم هذا الاختيار ووقع الاتفاق عليه ، أقيمت حفلة شامة لتنصيب السلطان ، فيجتمع الخليفة والقضاة وسائر الأمراء ومن حولهم كبار موظفى الدولة والجنود ، ويكتب تقليد للسلطان بالسلطنة ، يتلى في هذا الحفل العظيم . وهذا التقليد عن لسان الخليفة يولى به شئون المسلمين . ويتقدم الخليفة بالقضاة فالأمراء بمبايعته . ويلبسونه شعائر المملكة وخلع السلطنة ، وهى - عادة - عمامة سوداء لها عذبة مذهبة ، وجبة سوداء ، وسيف ثمين ذو حمايل . ثم تقدم إليه فرس ذات سرج مذهب ، وهى مزدانة بما عليها من الثياب والحلى . ويختار له لقب من الألقاب كالأشرف والظاهر ، وكنية كأبى المعالى وأبى النصر ، ثم يركب الفرس المذكورة ويسير وسط هذه الجموع ، وهم فى ثيابهم الرسمية ، ويعبرون عندها بالشاش

والقماش : وطورا يشقون به شوارع القاهرة ، وطورا يسرون به ابتداء من أماكن قريبة إلى القلعة - حسب مقتضيات الأحوال - ويقصدون القلعة ويصعدون به إلى القصر الكبير بها ، حيث يجلسونه على سرير الملك . ثم يقبل الأمراء له الأرض ، فيخلع على من يشاء منهم ويرقى من يشاء ، ويسمرون زمنا ، ثم ينقض هذا الحفل . وينادى باسم السلطان في أرجاء مدينة القاهرة ، ويرسل باسمه إلى الأقاليم الأخرى .

وفي أثناء مسير السلطان إلى القلعة تنشر فوق رأسه « القبة والطير » وهما من شعار المملكة كذلك . وكان يحملهما عادة أكبر الأمراء مقاما . ومن رشح ليلي النيابة أو الأتابكية . - ويبدو أن القبة كانت كالمظلة وهي مصنوعة من قماش ثمين . أما الطير فهو من الذهب ، ويوضع فوق القبة . أما الشاش فقطعة واسعة من القماش الرقيق تضيئ على الرأس والأكتاف . وقد وقع قليل من التغيير والتبديل في هذه الشعائر - فقد بدل الغورى بالطير هلالا من الذهب المخرم في شوال عام ٨٩٢٠ . ومعه جلالة منبهة كذلك . (راجع تولية بيبرس في ابن إياس ج ١ ص ١٠١ . وتولية برقوق في ج ١ ص ٢٥٩ . وتولية الغورى بالجزء الرابع منه ، . ونسوق هنا ملخصا عن وصف ابن إياس لحفلة تولية السلطان الغورى فنقول :

« عقدت البيعة لقانصوه الغورى . وبايعه الخليفة . ثم أحضر إليه شعار السلطنة وهو الجبة والعمامة السوداء فأفيض عليه ذلك ، فلقبوه بالملك الأشرف وكنوه بأبي النصر . ثم قدمت إليه فرس التوبة بالسرج الذهبية والكنبوش . فركب من سلم الحراقة بباب السلسلة . فتقدم « قيت الرجبى » وحمل القبة والطير على رأسه - وقد رشح للأتابكية - فركب الخليفة عن يمين السلطان . ومشى بين يديه الأمراء وهم بالشاش والقماش . حتى طلع من باب سر القصر الكبير . وجلس على سرير الملك . فأول من قبل له الأرض « قيت الرجبى » ثم بقية الأمراء شيئا فشيئا ، ثم خلع السلطان على الخليفة ونزل إلى داره . وخلع على « مصر باى » وقرره في الدوادارية

الكبرى والوزارة ، والأستدارية عوضا عن نفسه . فزول إلى داره في موكب جافل . ثم دقت له البشائر بالقلعة ونودي باسمه في القاهرة وارتفعت له الأصوات بالدعاء .

٢ - حفلات الاستقبال .

وأعنى بها تلك الحفلات التي يقيمها السلاطين حفادة بمقدم ضيف كبير أو سفير خطير ، ترحيبا به وإظهارا لعظمة مصر وقوتها . ويرسل السلطان عادة إلى القادم من يلقاه في طريقه . ويهيء له مكانا مناسبيا يقيم به مدة مكثه بالبلاد ، ويعين من يقوم بخدمته ، ويعاونه عادة بالمال والحراس . ويستقبله في الحوش السلطاني ، وهو بملابسه الرسمية ، وحول أمراؤه وأعوانه ورجال دولته وحراسه . وهناك في الحوش يجلس السلطان فوق الدكة السلطانية - وهي مكان رسمي للسلطان في مثل هذه المناسبات - وتقرش عليه وأمامها وحولها البسط الثنية . فإذا ما وفد القادم على مجلس السلطان يصحبه أحد رجال الدولة ، قام له السلطان - عادة - وسلم عليه ورحب به ودعاه إلى الجلوس والحديث .

ثم يخلع عليه السلطان خلعة وينزل من لدنه مكرما إلى مسكنه المعد . وتقام له فيها بعد ولائم يعدها بعض الأمراء ويحضرها السلطان بنفسه أحيانا مبالغة في الترحيب والعناية . وقد تزيد هذه العناية ومظاهرها أو تنقص ، حسب مقام الضيف .

ومما يذكر أن النورى في عام ٩٢٠ هـ بنى بدلا من الدكة مصطبة في مكانها ، كما أشرنا - فلم يقع هذا التغيير في النفوس موقع قبول .

هذا وقد نوهنا ببعض هذه الحفلات عند الكلام عن السفارة . وحسبنا هنا أن نذكر حفلة استقبال رائته أعدها السلطان النورى احتفاء بمقدم الأمير « قرقند العثماني بن ملك الروم :

قال ابن إياس في الجزء الرابع من تاريخه ما ملخصه :

« وفي يوم الأربعاء ١٨ صفر سنة ٩١٥ هـ وصل « قرقد بيك بن عثمان » إلى شعيرا . وهو ابن « بايزيد » ملك بني عثمان . فلما وصل إلى شعيرا أخلى له السلطان قاعات البرابجية التي ببولاق . ورسم لناظر الخاص بأن يحضر إليه جميع ما يحتاج إليه من فرش وأواني وصيني وغير ذلك . وخرج جماعة من الأمراء للقاءه . وكان السلطان قد رسم للكشاف ومشايخ العربان بأن يلاقوه بطول الطريق ، ويصنعوا له الاسمطة والموائد الخافلة . فلما بلغ البرابجية أقيمت له مأدبة بأمر السلطان . ثم توجه إليه الاتابكي « قرقاس » والأمراء قاطبة ، فسلموا عليه . ثم توجه القضاة الأربعة وأعيان المباشرين من أرباب الوظائف ، واستمر وفود الناس إليه حتى يوم الاثنين ٢٣ صفر ، وهو مقيم بالبرابجية . ثم أرسل إليه السلطان عشرين فرسا له ولبن معه ، منها أربعة بالسروج الذهبية ، والكنائيش المزركشة والفواشي الحربية الصفراء . ثم رسم السلطان لنقيب الجيش بإعلان الأمراء أن الموكب في الحوش بالشاش والقماش . ثم نصبت السحابة الزركشية فوق « الدكة » وفرشت هذه بالحرير الأطلس الأصفر . وزين باب الزردخاة بالصناجق السلطانية والأسلحة . وصفت على جانبيه المسكاحل . وتوجه المهندار ودهوس التوب بأمر السلطان إلى الأمير المضاف ، وهم بشاشهم وقاشهم ، وبملا بسهم الرسمية ، فصحبوه ركوبا وساروا أمامه إلى القلعة . والجميع في زينة خافلة ، والناس يملئون الطريق للتمتع بمشاهدتهم . ثم بلغ الركب القلعة ، فطفقوا به إلى مصطبة باب الدمشية حيث أعد هناك مقعد حريري ، استراح عليه الضيف قليلا استجماما للقاء السلطان . ثم دخل إلى الحوش السلطاني حيث « الدكة » السلطانية فحينما بلغ طرف البساط السلطاني نزل السلطان حينئذ بجواره « الدكة » ، وانتظر واقفا حتى بلغ إليه الأمير ، فتعانقا . وقيل إن الأمير قبل يد السلطان ووضعها على عينه . ثم تحدثا نحو ساعة وقفا ثم خلع السلطان عليه خلعة ذهبية لامعة . ثم عاد ركبة مكرما إلى سكناه ومعه بعض الأمراء . وأرسل إليه السلطان بعد ذلك هدايا قيمة . »

٣ - الاحتفاء بخروج السلطان من القاهرة وأعودته إليها :

يحتفى أهل القاهرة والأمراء والرؤساء بالسلطان إذا خرج منها لأمر من الأمور كحرب خارجية أو زيارة لناحية من نواحي البلاد المصرية أو ممتلكاتها . وذلك كحجة الإسكندرية أو الفيوم أو الشام أو الحجاز للحج مثلا . فتقام الزينات المختلفة في أماكن مروره من أعلام وثرىات زينة مختلفة الألوان وأقشة نفيسة ذات أشكال وألوان عدة . ويسير في ركبه احتفالا به ونود يعالاه عدد من الرؤساء والأمراء ، وحين مروره يقف الناس له تعظيما ورغبة في المشاهدة كذلك ، وتمتلي نوافذ المنازل وشرفاتنا بالنسوة يزغردن .

ويقام مثل هذا الاحتفاء إذا عاد من غيبته . وقد يكون هذا الاحتفاء أبلغ من سابقه وأهم وأرقي زينة . وقد يهدى إليه . وهو قد يمتنع ويبب ويرقى من يشاء . بمناسبة هذه العودة .

وقد سافر الغورى إلى الفيوم لزيارتها ولابتغاء الرياضة وإصلاح جسر اللاهون . وذلك في ذى القعدة عام ٩١٨ هـ . فلما عاد من زيارته بعد ١٧ يوما خف إلى لفاته بدعشور الخليفة ، وقدم إليه بعض الهدايا فشكره السلطان وخلع عليه ثم نزل السلطان بجوار الأهرام في وطاق خاص . فأسرع إلى مؤانسته هناك القضاة الشافعى والمالكي والحنبل - بينا كان القاضى الحنفى عبد البر بن الشحنة يصحبه في رحلته . ثم عبر السلطان نهر النيل ونزل بمقياس الروضة ثم عبر إلى مصر . ثم ركب جواده ومشى أمامه رهوس التوب بالعصى . . وعدد كبير من الخاصكية بغير شاش ولا قماش . وركب أمامه الأتابكي « سودون المسمى » ، والأمير « أركاس » ، والأمير « طومان باى الدودار » ، وحاجب الحجاب « أنصبى » ، وجماعة من الأمراء والمباشرين غير هؤلاء . فنحهم السلطان بهذه المناسبة خلعا ثمينة . وكان حولهم وأمامهم الجنود فساروا وقت الصباح إلى الصليبة في أبهى زينة وأجمل ملبس . ويتقدم ركبه الأفيال الكبار التي أهديت إليه من قبل ، وهى مزينة بالأقشة والكسى

الحمراء الثمينة ، وعلى ظهورها الأعلام حمراء حريرية . والموسيقا تصدح خلال ذلك . وأمام الركب كذلك بعض أمراء بني عثمان ، وكانوا ضيوفا بمصر . وكذلك عدد من العربان . وما زال الركب حتى يبلغ القلعة . ثم قدمت هدايا كثيرة إلى السلطان كما قدمت إليه هدايا أخرى وقت قيامه بالرحلة . ثم إنه فرق بعضا منها على أمراءه . . « ابن أبيس جزء ٤ حوادث في القعدة سنة ٩١٨ هـ »

٤ - الفرج بشفاء السلطان من مرضه :

اعتاد الناس أن يظهروا للمسيكهم ابتهاجهم وفرحهم إذا من الله عليه بالشفاء بعد مرض ألم به . وكذلك كان المصريون في عصر المماليك . ونذكر أن السلطان الغوري مرضت عيناه في عام ٩١٩ هـ حتى خيف عليه العمى ، وامتنع عليه النزول لمزاولة شئون الدولة ، وتوارى عن الأنظار مدة حتى أرجف الناس في المدينة ، وأشيع أنه ابتلى بالعمى .

ولكن الله من عليه بالشفاء . فأقيمت له بهذه المناسبة زينة بالغة في مدينة القاهرة إعلانا بابتهاج الناس وفرحهم بشفاء ملكهم . وذلك في يوم الاثنين ٤ شعبان عام ٩١٩ هـ .

وكان مجتمع الزينة في « بركة الرطلى » حيث نادى محاسب القاهرة « الزينى بركات ابن موسى » بإقامتها ، فامتألت نواحيها بالقناديل والثريات وعلفت على وجوه المحال وطاقات المنازل ، الأعلام وأقسمة الأقنعة الحزيرية ما بين صفراء وحمراء وغيرها . وانتشرت أنواع الموسيقا في جهاتها ، وهناك في الخليج المار بتلك الجهة انتشرت المراكب والزوارق تحمل الناس من مكان إلى آخر للرياضة والمشاهدة والتفرج برؤية الزينة ، كما كانت تحمل أعيان الناس من سكان بركة الرطلى ليتبادلوا التحية والتهنئة والتعجيل بشفاء السلطان . كما ترددت هنا وهناك من هذه الناحية أصوات المغنين والمغنيات يغردون ويسمرون ، والناس طوال الليل وفود إلى مجالسهم للأنس والسباع ، ومشاهدة الألعاب النارية التي كان يستخدم فيها زيت النفط . وظل هذا الأنس العظيم والمتعة البالغة ثلاثة أسابيع على هذا النمط الصخى . .

وبدأت الزينة في القاهرة يوم ٥ شعبان المذكور وهو يوم الثلاثاء فامتلات الأسواق بالزينات الحافلة ، وكذلك زينت مصر « العتيقة » وبولاق ، وزين سوق الخانكاه وحارة زويلة وعان الخليل وغير هذه النواحي والاحياء .
وبدت الزينات البالغة كذلك على أبواب منازل الأمراء والرؤساء والخليفة والقضاة . وظلت الزينة سبعة أيام متوالية .

« ابن راس جزء ٤ حوادث شعبان عام ٩١٩ هـ »

٥ - عاداتهم في شهر رمضان (١) :

إذا اقترب مجيء هذا الشهر استعرض السلطان من في السجون من المسجونين ، فتقع مشيئته على بعض منهم فيأمر بإطلاق سراحه ويتلمس أحياناً بعض أهل الديون فيقضى ديونهم ، وقد يجمع بين المتخاصمين فيزيل من بينهم أسباب الخصام . واشتهر الغورى بضروب كثيرة من هذه الصنائع .

ثم إن ناظر الدولة ومحتسب القاهرة أو من يشابهها من كبار الموظفين ذوى الصلة بأموال السلطان ، يقومون بإعداد كيات هائلة من اللحوم والأغنام والدقيق والسكر ، وضروب كثيرة من الأطعمة مما يحتاج إليه قصر السلطان لطفيه وأولاديه على الفقراء خلال شهر رمضان . ثم يحمل الخمالون هذه الأشياء في حفل حاشد وركب حافل تقدمهم الآلات الموسيقية الصادرة ، ويسيرون بها في شوارع القاهرة لإشهار أمرها بين الناس . وما يزالون يسيرون بها حتى يصلوا إلى ميدان القلعة لتعرض على الأنظار السلطانية . فيطل السلطان حيثئذ من القلعة ليراها . فتتال من لدنه القبول ، ويجرد بالخلع السنية على من تولى أمر إعدادها .

ثم إذا ما سنحت ليالي رمضان كانت فرصة لأعمال البر والإحسان ، وتقديم ما يستطاع من معونة للفقراء والمحتاجين . يوجد بذلك السلطان والأمراء وذوو الجاه والممولون والأعيان والرؤساء ، كل منهم حسبما تقضي به ظروفه ومشيئته . وسرت هذه العادة واتبعت حتى أصبحت هذه المساعدات بمثابة ضرائب تقليدية يدفعها

(١) نصرت هذه الكلمة بجر ينة الأهرام في شهر رمضان عام ١٣٥٨ هـ .

هؤلاء العظماء للفقراء بمناسبة شهر رمضان .. وإذا ما حدث أحد الأمراء نفسه بالإفلات من دفعها ، وإزاحة عبئها عن كاهله ، زایل القاهرة قبيل رمضان وأقام في إقطاعه مثلا .. ولكن هذا الإفلات سرعان ما يصبح أمرا مكشوبا ، ولا يمر على الناس مرور الكرام .. بل يلحظونه ويلهجون بذكره ثم يذيع أمره ويعرف خبره وتكثر تقولاتهم حول هذا العظيم الهارب الفار من ضريبة الإحسان ..

ومن عادات السلاطين في هذا الشهر العناية بقراءة الأحاديث النبوية في صحيح البخارى ، يأمرون بها القارئین من الفقهاء ويؤجرونهم لذلك . ودرجوا على أن تكون قراءتها بقصر السلطان ثم تقم بالقصر الكبير بالقلعة .

ويكون ختام البخارى في يوم مشهود تجتمع فيه الأمراء والقضاة والعلماء والأعيان والفقهاء ويقبل السلطان في أبهة وعظمة ، فيجرى الختام على مسمع منه ، ثم يأمر بتفرقة الخلع السلطانية والهبات المالية على من اعتاد ذلك منه في مثل هذه المناسبة ، كل حسب مقامه ومنزلته .

وقد تكون قراءة البخارى في الجامع الأزهر . وفي عهد الغورى كانت تتلى في جامع القلعة وتقم بفنائها ختاماً يسيراً هينا :

وفي النصف الثانى من شهر رمضان يكون ناظر الخاص قد حيا خلع العيد التى اعتاد السلطان أن يهب منها لمن يشاء بمناسبة انقضاء رمضان وحلول العيد . فتزف هذه الخلع في أحد الأيام من أواخر رمضان وتعرض على الناس في الطرقات وتشر بينهم ، ثم تعرض على الأنظار السلطانية لتتال من لدنها الرضا والقبول .. فإذا ما حظى ناظر الخاص برضا السلطان ، تناول منه خلمة نفيسة وعاد إلى داره شاكراً ..

وكان أهل هذا العصر يستعينون على الإشعار بدخول وقت السحور بأن يؤذن المؤذنون في المساجد ، ويقولون جملاً متعارفة بين الناس يعلمون منها دخول وقت السحور ، ومنها : « تسحروا .. كلوا واشربوا » ، ومنها بعض الآيات القرآنية كقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ، وقوله

تعالى . إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ، . . . ويتبعون ذلك بالتغنى وإنشاد بعض القصائد ، وهذا كله قبل ميعاد الأذان الشرعى للسحور . ويستعينون مع الأذان المذكور بالدق على الطبل والمناداة فى الطرقات كما هو الشأن فى أيامنا . وكذلك بقرع الدور والمناداة على سكانها كما هو الشأن فى بعض عواصم المحافظات وبعض بلاد الريف المصرى اليوم . وكذلك يستعينون بإضاءة المصابيح حتى إذا ما انتهى وقت السحور أطفئت فيعلم الناس دخول وقت الفجر .

« ابن رياس ج ٤ حوادث شهر رمضان عام ٩١١ هـ ، ٩١٢ هـ ، ٩١٨ هـ » وراجع كتاب المنهل لابن الحاج ج ٢ »

٦ - الاحتفال بعيد الفطر وعيد الأضحى :

كان أهل العصر يستعدون للاحتفال بعيد الفطر والأضحى - كما نستعد نحن أهل العصر الحاضر - وفى رمضان - كما ذكرنا - قبل عيد الفطر ، تعد خلع العيد وتزف . - وفى يوم العيد يخرج السلطان للصلاة بمسجده - الذى أنشأه غالبا - أو غيره ، ويكون بصحبته فى الصلاة - عادة - الخليفة والقضاة الأربعة وكثير من عظماء الأمراء . ثم يعود إلى قصره ، فيصعد إليه القوم للتهنئة ، فيهب الخلع الثمينة لمن يشاء منهم - وهذه الخلع كانت فى ذلك الزمن بمثابة النياشين والأوسمة فى زماننا الآن .

ومن العادات التى اتبعت زمانا طويلا أن ينزل الوزير من القلعة إلى داره فى موكب حافل يوم عيد الفطر فيمتطى بغلته ، وعلى رأسه « طرحة » بيضاء ، وتحت عمامته « عرقية » مذهبة ويسمونها « الطاسة » ويتقلد سبحة بأكر من العنبر ، وتسير أمامه الأوجاقية وهى لابسـة ثيابا خاصة من الحرير الأصفر تعرف « بالثريات » ، وتوقد جنائب الوزير ، وأمامه كذلك « مبخرة السلطان » وبها البخور ، وقد بظلت هذه العادة وهذا الموكب بعد أن لبثت مدة طويلة من شعائر الدولة . وآخر من فعل ذلك من الوزراء صاحب علاء الدين على بن الأهناسى المتوفى عام ٨٧٠ هـ . راجع باب الأفاذ . ثم أضمحل أمر هذه العادة وانقضى

شأن هذا الموكب حتى أصبح الوزير «تغرى برمش» في عهد الغورى إذا نزل يوم العيد من القلعة إلى داره لا يشعر به إنسان ..

ومن العادات التي اتبعت زمنا : أن يخرج السلطان إلى صلاة العيد ، وفوق رأسه « القبة والطير » . وقد أبطل برقوق ، هذه العادة ..

وللناس إذ ذاك عادات لا يزال كثير منها يبتنا موروثا حتى اليوم ، منها خروجهم إلى الصلاة ثم الذهاب إلى زيارة المقابر حيث يختلط الرجال هناك بالنساء ، وتقع ضروب من المفاسد . ثم العودة إلى الدور بعد زمن طويل ، وكذلك يقالون في عيد الفطر في إعداد الكحك والخشكنان « البسكوييت » ، والبسندود ، والسلك المشقوق .. ولعله السلك المقدد الذي يطلق عليه الآن « البكلاء » .

ويحشى الكحك عادة بالعجوة وبرش عليه ماء الورد وكذلك يشتري النفل « الفطرة » .

وفي عيد النحر يتبارى كثيرون في ذبح الأضحية . وكثيرا ما يخالفون تلك السنة ، فيذبحون قبل الميعاد الشرعى . كما أنهم قد يتهادون بلحوم الأضاحي لآله وإنما للسمعة ولانتظار العوض ، كما أنهم قد يقبلون على اتهامها حبا في الطعام .

وقد لا يفعلون هذا كله توسعة على الصغار والفقراء ، وإنما مباهاة وحبا للظهور . كما أن كثيرا من الأسر تعاني المشقات الكثيرة في إعداد هذه الأشياء ، وتقع بينها الشحنا وتعد بها الدين . وبعضها قد يقاسى ألم الحرمان .. . انظر إلى البوصيرى الشاعر المتوفى عام ١٦٩٥ هـ في شكواه إلى أحد الوزراء من قصيدة يقول فيها واصفا أسرته وأطفاله :

وأقبل العيد وما عندهم	قمح ولا خبز ولا فطرة
فارحمهم وإن عاينوا كحكة	في كف طفل أو رأوا تمره
تشخص أبصارهم نحوها	بشبهة تتبعها زفرة

هذا وفي الأعياد تطوف جماعات من العذارى الأبيكار والمراهقات ، ويسمين « بنات العيد » ، في الطرقات وفي الأسواق على التجار والعلماء وغيرهم وعلى البيوت

كذلك ، يجمعن من الناس ما يجدن به مكارمهم في تلك المناسبة ، ومعهن الدفوف يدقن عليا ويغنين ... وهذا شبيه بما اعتاده الصغار في أيامنا في شهر رمضان من الطواف ليلا في الطرقات يطرقون أبواب المنازل والخوانيت والمقاهي طلبا للعطاء ، وفي أيديهم المصاييح الملونة وهم ينشدون أناشيد مختلفة .

« ابن ياسر ج ٤ في حوادث رمضان وشوال عام ٩١٢ هـ أيضا وج ١ ص ٢٦٠ - والمدخل لابن الحاج ج ١ » ،

٧ - الزواج وحفلاته :

لم يكن زواج السلاطين ولا زواج الأمراء خاضعا لاعتبارات سياسية ومشيتة عامة ، كما يحدث كثيرا في عصرنا الحاضر لدى بعض الدول . ولكن كان كل من السلطان والأمير حراً في اختيار زوجته حسبما يشاء ، ومع ذلك نرى أن هذه الطائفة الحاكمة صاهر بعض أفرادها البعض الآخر حتى كانت بين كثير منهم صلات نسب متينة . وقد تزوج - مثلا - الأمير يشيك الدوادار بنت الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال . ثم توفيت فتزوج بأخت الأمير قانصوه خمسمائة . كما أن قانصوه خمسمائة المذكور تزوج بنت الاتابكي أزيك بن ططخ . وهذا الاتابكي كانت زوجته - حماء قانصوه - ابنة الملك الظاهر جقمق . وهكذا ..

ولم تكن هناك غضاضة على زوجة السلطان أن يتزوج غيرها مستخدماً حق الشرعى في تعدد الزوجات ولا غرامة في ذلك فإن من المحال على زوجة أن تسكر إنكاراً أديبا على زوجها السلطان . أن يتزوج سواها ، مع وجود نظام التسرى وبيع الرقيق . وقد كان السلاطين أنفسهم يعاونون على جلبهم ويأمرون به ويعيدون الأسواق خصيصا لذلك كخان الخليلي مثلا . - وهكذا تعددت الزوجات والجوارى معابل قد يتزوج السلطان أرملة أحد الأمراء أو مطلقته ..

وكذلك لم تعدد الزوجة - زوجة السلطان - في نفسها أية غضاضة أو مرارة أو شيئا محرراً أو موقفا غير عادى إن هي أقدمت على الزواج بعد وفاة

زوجها وانقضاء دولته. ولو كان السلطان الجديد ولدها وفلذة كبدها وكبد الراحل الكريم. وقد تزوج بسلطان آخر، وقد تزوج بكبير من الأمراء، وقد تزوج برجل كان مملوكا لزوجها...

وإذا كانت هذه عادة زوجات السلاطين فلا غرابة أن اتبعها كذلك زوجات الأمراء وغيرهم.

ومن الأمثلة على ذلك: السلطان برسبای العلاقی تزوج أرملة الظاهر خشقدم، والسلطان الناصر بن قايتباي تزوج مطلقة الأمير «كرتباي» نائب صفد. وهي التي تدعى «خوند مصر باي الجركسية» ويظهر أنها كانت فاتنة، لرغبة الرجال في زواجها. فقد تزوجها السلطان الظاهر قانصوه لما ملك البلاد بعد زوجها الثاني الناصر بن قايتباي. ومن الأمثلة: أن السلطان العادل «طومان باي» عقد على «خوند فاطمة» بنت العلاقی على بن خاص بك، وهي التي كانت زوجة للأشرف قايتباي. والأشرف جان بلاط قبل أن يملك البلاد تزوج أم الملك الناصر بن قايتباي وهي أخت الملك الظاهر قانصوه بن قانصوه الذي ملك بعد الناصر المذكور... وهكذا.

وكانت حفلات الزواج والدخول والزفاف وإعداد المتاع يبالغ فيها القوم ويغلب عليهم فيها حب الظهور والفخر ويشند غناؤهم وتعلو أصواتهم ويدقون بالدفوف ويرقصون ويرغرد النساء...

وحسبنا هنا أن نقل ملخصا عن ابن إياس عما ذكره في زواج الأمير قانصوه خسمائة، بابنة الأتابكي «أزبك بن ططنخ». قال ما مؤداه:

«في عام ٨٩٢ هـ في شهر جمادى الآخرة وفي يوم جمعة كان عقد قانصوه خسمائة، على بنت الأتابكي «أزبك»، من خوند بنت الظاهر جقمق. عقد بجامع القلعة وحضر القضاة الأربعة وأعيان الناس وكان عقدا حافلا، وأحضر السلطان عدة «زبادي» صيني - وهي أوعية معروفة لأن بهذا الاسم - فيها سكر، وأوعية مملوءة بالفاكهة، فرقت في القلعة.

وفي شهر رجب من نفس العام تم حفل الزفاف والدخول. فحمل الجهاز من

الأزبكية - حيث دار أبها - إلى دار الزوج بقناطر السباع ، نحو أربعائة حمال : وقيل أنفق على هذا الجهاز نحو من مائتي ألف دينار . ولما كانت ليلة الزفاف زينت الأزبكية بأبهى زينة . وركب « قانسوه » من باب السلسلة وأمامه الأمراء المقدمون بالشاش والقماش - أى بالملابس الرسمية - وهى لا تلبس فى غير حفلة التولية وصلاة الجمعة والعديد مع السلطان . ومشى الخاصكية وبأيديهم الشموع حتى بلغوا الأزبكية .

ونقل أيضا وصفه لموكب زوجة الملك العادل طومان باى يوم زفافها إليه بالقلعة قال :

« يوم الخميس ٧ شعبان عام ٩٠٦ هـ صعدت خوند الخاصكية زوجة الملك العادل طومان باى إلى القلعة . فخرجت من يديها بقنطرة سنقر فى عفة زركشية وأمامها رءوس الثوب والحجاب والخاصكية وهم بالشاش والقماش . وأمامها كذلك الوالى ونيق الجيـش والزام عبد اللطيف وأعيان الأكابر والمباشرين والخواشية ، وفى محبتها نحو مائتين من أعيان نساء الأمراء ، والعظماء . فلما وصلت إلى باب الستارة فرشت لها الشقق الحربية تحت حوافر يقال المحفة ، ونثر عليها خفاف الذهب والفضة ، وحمل الزمام فوق رأسها القبة والطير . حتى جلست بقاعة العواميد ، والموسيقا تصدح فى خلال ذلك . واستمر الابتهاج بقدموها فى القلعة ثلاثة أيام . ووضع أمامها فى موكبها كذلك جملة من الصرر وطست وإبريق من البلوك ومنديل كبير من الزركش » .

« لاس ج ٢ ص ٢١١ ، ٢٢٤ ، ٢٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ . »

٨ - حفلات الختان :

كان الناس فى ذلك الزمان يعنون بالختان ويقيمون له الحفلات . كما هو الشأن فى زماننا - ويهتمون بختان الذكور أكثر من اهتمامهم بختان الإناث . وكما عظم مركز أهل هذا الحفل عظم اهتمام الناس بهم ، وعنوا بالاحتفال بهم ، وأجيانا زين وجوه المنازل والحوانيت المجاورة لمنزل الأسرة المحتفلة وتوقد الشموع فى القناديل ،

ويقبل الناس عليهم للتهنئة ، وتبادل الهدايا . ويعني المغنون والمغنيات ، وتمد الموائد وتقدم الأطعمة الشبيهة والحلويات . وقد تعرض على الحاضرين بعض الألعاب الظرفية . ومن الأمثال على ذلك :

١ - ختان أولاد القاضي كاتب السر ابن مزهر عام ١٨٨٦ هـ . وكان منزله ببركة الرطلى . فأم منزله في ليلة الختان كثير من الأمراء المقدمين والعشرات . وزاره الأمير ججمة العثماني - وكان ضيفاً في مصر - وبات عنده تلك الليلة . وأوقد الناس لذلك منازلهم وحلواها بالقناديل ، حتى انقلب الليل نهارة لشدة الضوء . وانتشرت الزينات هنا وهناك حتى جذبت إليها أنظار الناس فتوافدوا إليها زهراً للاحتجاج بها وللتفرج بمشاهدتها . وامتلات بركة الرطلى بالمراكب وركابها . وجلس المغني وابن رحاب ، وغيره من مغنين ومغنيات يطربون الحضور بأصواتهم الشجيبة . . . وريح بانعو الحلوى أرباحاً وفيرة في تلك الليلة . وبعث القاضي ابن مزهر إلى كل بيت في البركة عشرة أرطال من الزيت ، ومائدة فيها مالد وطاب من الطعام . . . وقد عني القاضي ابن مزهر بهذه الليلة عنايته المذكورة بناء على أمر السلطان قايتباي إذ كانت له عناية بالأمير العثماني ججمة ، فأحب أن يبهجه بالمبالغة في هذه الحفلة . ثم إنهما فرصة للظهور . . . انتهزوها . ابن لياس ج ٢ ص ٢٠٨ .

ب - ومن الأمثلة كذلك ليلة ختان ابن الملك الأشرف قايتباي عام ٨٩٤ هـ في شهر رجب . وقد استمر الاحتفال به سبعة أيام متوالية ، وزينت طرقات القاهرة وأسواقها ، واجتمع سائر المغنين لإطراب الناس ، وابتهج الناس في هذه الأيام أيما ابتهاج . وقدمت الهدايا الحافلة إلى السلطان بهذه المناسبة ، من مال وخيل وقماش وسكر وأغنام وأبقار وغير ذلك ، وقد قومت هذه الهدايا بأكثر من خمسين ألف دينار . وفي جلستها طست وإبريق من الذهب زنة ستمائة مثقال ، قدمها الشهابي أحمد ابن العيني . واختن مع ابن السلطان عدة من أبناء الأعيان والأمراء والخاصكية . وأقيم لابن السلطان موكب شائق ركب فيه فرسا وسار من قاعة البحرة إلى باب

الستارة ، والسلطان ينظر إليه في مقعد خاص . وسارت أمامه الأمراء والخاصة
وسائر أعيان المباشرين ، وكثير من كبار الخدم ، وأمسك لجام فرسه الأمير
، أقبردى الدوادار ، ، والشهابى ، أحمد بن العبنى ، وجميعهم بالشاش والقماش
والملابس الرسمية . وفرشت الشقق الحربية تحت حوافر فرسه ، ونثرت على رأسه
خفاف الذهب والفضة ، وتلقته المغنيات بأناشيدهن ، وأدخل إلى قاعة البيسرية
حيث جرى ختانه بوساطة أحد المزينين . . . وقيل دفعت إليه على سبيل «النفقة»
خمسة آلاف دينار أو تزيد فقال منها وحده ألف دينار ، وفرق الباقي على رؤساء
المزينين . . ورسم السلطان بأن تصنع كسوة لكل طفل ممن يشتركون بمختانهم في
ليلة ختان ابنه ، وكانوا نحو أربعين من أبناء الأعيان كما ذكرنا .

« ابن إياس ج ٢ ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ »

ج - ومن الأمثلة كذلك ليلة ختان ابن « على بن أبى الجواد » برددار السلطان
الغورى ، في ذى القعدة عام ٩٠٧ هـ . إذ زينت له القاهرة وحوانيتها . وأوفدت له
الشموع والقناديل من المدرسة الأشرفية إلى الصليبية ، ومشى في موكبه كثير من
الأعيان والرؤساء حتى تغرى بردى الأستاذار ، وجماعة من الطواش . .

« ابن إياس جزء ٤ حوادث ذى القعدة عام ٩٠٧ هـ »

٩ - الجنازات وما يتصل بها .

اعتاد هؤلاء الناس في الاحتفال بالجنازات أن يكثرُوا حولها من البكاء
والعويل والنواح . وأن يسير النسوة ليلًا إذا اقتضى الحال ، فيصوتن ويعلو
صياحهن الملقى بالطرقات - على نحو ما نسمع ونرى في مدينة الإسكندرية ،
وغيرها الآن .

ثم يؤجر أهل النفيد من ينادى على باب مسجد أو يؤذن فوق منذته بما
يشعر الناس أن فلانا قد مات . ثم يأخضون في إعداد الميت فيقومون بغسله ، ولحم
في ذلك عوائد غريبة . ويكفنونه في نوع خاص من الأقمشة يعرف بعضه
بالأثواب البعلبكية . وعند تمام إعداده ، ولحم بالمسبر به ، بتقديم شخص يلقب

والمدير، وينادى في وسط الجمع الحاشد مثنيا على الفقيد، ناسبا إليه كل خير وبر . ولدى بروز الجنازة من منزل الأسرة مثلا، يتبارى النسوة في إخراج صيحة مزعجة جدا وهي صيحة الوداع، يودعون بها فقيدهن الكريم . وهنا تجد اختلاط النساء بالرجال قد ازداد ، وأسفر النسوة ومشين حافيات الأقدام في صحبة الجنازة . - ويقدم أهل الفقيد في بعض الأحيان خبزا ونحوه ، يحمل في أوعية خاصة يسعى بها الساعون أمام الجنازة لتفريقها على العامة وهي المسماة « الكفارة » . وكذلك قد يحملون معهم ، خرافا في أقفص ، وخبزا كذلك ، فيذبحون الخراف على القبر ، ويوزعون منها ومن الخبز على العامة قصدا للصدقة في ظاهر الأمر ، وقصدا للسبحة في باطنه .

ووقت التفريق يشتد الزحام والهرج والمرج ، وقد يعطى من لا يستحق ويمحرم من يستحق العطاء . .

فإذا سارت الجنازة في الطرقات ترى على بعض جوانبها حصرأ وأبسطة يجلس عليها القراء يقرءون القرآن الكريم أو الأوراد المختلفة . كما قد تتقدم الجنازة طوائف من محترفي القراءات المختلفة يرتلون بصوت واحد وبنغمة واحدة ويسمونهم « الفقراء » . ثم يصلى على الميت في الجامع حيث يكون في انتظاره بعض الناس جلوسا ، ثم يسعى به إلى المقبرة ويأخذ ، ثم ينادى « المدير » على الناس بأن يتقدموا لعزاء أهل الميت ، فيعزونه وينصرفون . وهناك في دار الفقيد تقام - عادة ثلاث لبال قرأ فيها آيات الكتاب الحكيم ويسعى الناس إليهم لمواساتهم . وكثيرا ما يعنون عناية خاصة باليوم الثالث وأيام الخميس الثلاثة الأولى ويوم الأربعاء . - وفي هذه الأيام المذكورة يقبل النسوة لتقديم العزاء لأسرة الفقيد وعند اقترابهن من الدار يبادرون بالنواح والويل المقتعل ، والصراخ ولطم الخدود فيقابلهن عدد من نساء أهل الفقيد يمثل ذلك . وهذا منهن بمثابة التحية وردها . الجميع بلباس سوداء أو زرقاء ويقوم بينهن في كثير من الأحيان نادبات لطنن خدودهن ويسودن وجوههن ويردن كلمات مثيرة بخزنة ، تؤثر في

الحاضرات . فيقابلن هذا بمثله ، وقد بحثون فوق رؤسهن التراب ، ويشركن الدفوف معهن في هذا الصخب البذيء . . . ويضعن الغللات السود في رقابهن . وقد حاول بعض السلاطين - الغوري - وضع حد لهذه المفاسد ، وأغلب الظن أنه لم يفلح . . .

ويعنى بعض ذوى الموقى بتقديم صنوف الطعام للمعزين والمعزيات تفاخرا وظهورا لا صدقة ولا كفارة . . .

هذا . أما المقابر فيعنى عادة بتجميلها ، ويعنى أحيانا ببناء دار خاصة بجوار كل قبر لتقيم بها أسرة صاحب هذا القبر بعد دفنه . وتزيد مدة إقامتها أو تنقص حسب منزلته منها ومكانته بينها . . . يقيمون في تلك الدور يأكلون ويشربون ويبيتون ويوقدون الشموع والقناديل . ثم يعودون إليها بين الفينة والفينة في المواسم والأعياد فيقيمون مرة أخرى وهكذا . وفيهم الرجال والنساء والأطفال .

ويقال إن الظاهر يبغرس حاول أن يهدم مرة تلك الدور المقامة حول المقابر فحذره أحد وزرائه مخبة هذا الهدم ، وخشى أن تكون من ورائه فتنة بين السلطان والأمراء لأن لهم فيها دورا ومواضع . . . وطلب إليه أن يستغنى في شأنها العلماء ليعتز بفتوَاهم إذا عارضه معارض . فأففى العلماء بضرورة هدمها ، ولكن الوزير أحمل تنفيذ هذا المشروع .

• راجع هذه المعلومات في كتاب النخل لابن الحاج ، ج ١ ص ٢٥٠ وما بعدها .
ج ٣ ص ٢٣٣ وما بعدها - ابن إياس ج ٤ حوادث شوال عام ٩١٠ هـ ، وحوادث الحرم عام ٩١٧ هـ - ج ٢ ص ٢٩٥

١٠ - إقامة الموالد والمواسم :

وتلك عادة ورثوها من اليهود التي سبقتهم إذ انتشرت الموالد والمواسم في مصر منذ أيام الفاطميين بصفة خاصة ، فرسخت هذه العادة وتأصلت بالبلاد المصرية حتى اليوم ، واهتم بمرعاتها ملوكها وسوقتها على حد سواء في عهد سلاطين المماليك . والغرض منها إشباع العاطفة الدينية وتغذيتها ، وحج الظهور بالزعة الدينية

والمحافظة على الدين وإقامة شعائره ، وتثبيت الجاه وبث النفوذ عن طريقه .
ومن هذه الموالد والمواسم : موالد النبي عليه الصلاة والسلام ، وموالد بعض
آل البيت النبوي الشريف ، وموالد بعض الأولياء ذوى الأضرحة الشهيرة بالبلاط
ومنها موسم عاشوراء وليلة نصف شعبان ورأس السنة الهجرية وغير ذلك من
الأمور التى لاتزال مرعبة بين سوادنا حتى اليوم . - وفى هذه الليالى يشتد إقبال
العامة على الطعام والحلوى ، ويتجمعون فى أماكن مخصوصة أو فى المساجد لإحياء
مراسيم هذه المواسم ، وللهو كذلك .

أما المولد النبوى فيقام طبعاً فى شهر ربيع الأول ، ويهتم سلطان البلاد بإحيائه
ويجتمع فى ليلته الكبرى بالقضاء الأربعة وأهيان الأمراء والمباشرين فى حوش
القلعة . وقد تنصب لهم خيمة كبرى مزدانة . وتمد موالد الطعام . ويمنح السلطان
بعض الخلع أو الوظائف يريد بهذه المناسبة .

ومن الموالد التى اهتموا بها مولد « سيدى إسماعيل الإنبائى » ، فكانوا يحيون
ليلته فى شهر المحرم أو صفر أو ربيع من كل عام . واستمر ذلك سنين عدة فى عهد
الغورى خاصة ، وكانت ليلته حافلة إذ تضرب فيها خيام عدة قد تبلغ خمسمائة ، فى
الجزيرة تجاه بولاق وتقام بها سوق مؤقتة للبيع والشراء .

قال ابن إياس فى حوادث المحرم عام ٨٩١٣ هـ ، وفى ١١ منه ما ملخصه : « كان
ببولاق ليلة حافلة بنسب وقت سيدى إسماعيل الإنبائى رحمه الله عليه . فضربت
فى تلك الجزيرة التى تجاه بولاق نحو خمسمائة خيمة ، وصنعوا سوقاً بدكاكين .
وخرج الناس فى الفرجة عن الحد . وأقاموا هناك ليلتى متواليه . »

ثم قال : « وهى عقب ذلك عمل مولد للشيخ سودان المجنوب فى مدرسة ابن
الزمن التى ببولاق عند الرصف . فكان له مولد حافل . وضربت هناك الخيام
الكثيرة عند المدرسة . »

هذا وقد أقيم مولد الإنبائى فى صفر عام ٨٩١٤ هـ ، وفى صفر عام ٨٩١٥ هـ ،
وصفر ٨٩١٦ هـ ، وصفر عام ٨٩١٧ هـ وفى ربيع الثانى عام ٨٩٢٠ هـ .

وفي عيد رأس السنة الهجرية ينزل السلطان عادة إلى ميدان القلعة ويتقدم إليه القضاة والأمراء بالتهنئة . . وكثيرا ما تمد الموائد بالأطعمة الشبيهة في ذلك اليوم للمهتئين .

وأول من أحدث الاحتفال بمولد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، السلطان قايتباى فى ربيع الأول عام ٨٨٩ هـ ويطلق عليه مولد الخليفة .

• وراجع المدخل لابن الحاج • وابن إياس جزء ٤ حواش شهر ربيع الأول من كل عام .
• وحواش التواريخ المذكورة هنا • وحواش شهر المحرم من كل عام وخاصة عام ٩١٦ هـ ،
• وراجع جزء ٢ ص ٢٢١ •

١١ - حفلة كسر الخليج :

كتبنا وصفا لهذه الحفلة والعادات المرعية بها فى مقدمة الكلام على فيضان النيل فى هذا الجزء من الكتاب فنكتفى بمراجعتها والإشارة إليها هنا . ونسوق للقارىء ما وصف به ابن إياس مشاركة الغورى فى إحدى حفلاته ، فنقول ملخصا :

• فى مساء الأربعاء ١٣ جمادى الآخرة عام ٩١٨ هـ نزل السلطان من القلعة ثم انحدر إلى المقياس وطلع إلى القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس . ودعا الأمراء قاطبة . ونصب لهم خياما على الشاطئ تجاه بر الجزيرة ، فبات السلطان فى تلك اللبلة فى المقياس هو والأمراء . ومد له القاضى كاتب السر محمود بن أجا أسمطة حافلة أفنق فيها نحو ٧٠٠ ديناراً . وكان معه القضاة الأربعة وأعيان الناس . وحضر قراء ووعاظ البلد . ثم إن السلطان أوقد فى قاعة المقياس ، وعلق أحمالا بقناديل فى القصر على شرفات المقياس . وكذلك جامع المقياس المثمنة .

ثم إن سكان بر مصر ، وبر الروضة علقوا فى بيوتهم القناديل فى الأحمال والامشاط بطول البرين حتى أوقدوا المربع الذى أنشأه السلطان للسواقى تجاه

بر الروضة - ثم أحضر السلطان المركب الكبير ، الغليون ، الذى عمره وأنفق عليه نحواً من ٢٠ ألف دينار ، فأرسوا به قبالة المقياس وصنعوا له ثمانى مراسى فى البحر وعلقوا فى صواريه القناديل فى الأمشاط فكان الذى أوقد فى المقياس تلك الليلة خمسة قناطير زيت وعشرة آلاف قنديل - ثم صنع السلطان فى تلك الليلة إحراقاً ، فكان مصروفها نحواً من مائة وسبعين ديناراً ، مثل إحراقه فقط المحمل التى كانت تصنع بالرملة أمام القلعة - فشقوا بالنفط من القاهرة مزرفوا بالطليل والزمر . وكانت عدة قلاع النفط خمسين قلعة ، والمآذن ستون ، والأزهار عشرة ، والجدران أربعون ، والصواريخ الكبار ثلثمائة . والمآويات : ألف ومائتان . والشجرات عشر . والثناوير عشرون . والقطع ألفان ، والشعل أربعون - فلما وصلوا بالنفط إلى شاطئ البحر أنزل فى خمسين مركباً . وصفوا المراكب قبالة المقياس عند البهظة ، ورسم السلطان للأمراء المقدمين بأن يحضروا طليخاناتهم فى مراكب عند المقياس . ففعلوا ذلك . فكان صوت الطليل والزمر مع الكنوسات كالرعد القاصف .

فلما صلى السلطان صلاة العشاء جلس على سطح القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس والأمراء حوله ، وأحرقوا قدامه النفط - وكان النيل فى ثلاثة أصابع من عشرين ذراعاً - وكانت الليلة ليلة البدر . فدقت الكنوسات السلطانية مع كنوسات الأمراء المقدمين وهم ٢٤ ، فقاموا فى صعيد واحد عند إحراق النفط فكانت ليلة لم يسمع بمثلاً . . . وقد بلغت أجرة كل مركب فى تلك الليلة خمسة دنائير أو أكثر . وازدحمت المراكب بالخلائق حتى كان النوتية يجبون من كل عابر عليها أربعة أنصاف ، فاجتمع لهم من ذلك مال كثير . وخرج الناس للمشاهدة وأقام السلطان هناك الأربعاء والخميس وفى ذلك الليل الأول كان والى القاهرة وأعوانه يطوفون خلال المدينة محافظة على الأمن ورعاية للسكينة . ومع ذلك لم يخل الأمر من اضطراب وعبث .

١٢ - خروج المحمل :

أفرنا للمحمل والحج بابا خاصا في فيما مضى ، فليراجع .

١٣ - الحفلات الأخرى وليالي السمر والمغنون والمغنيات :

وصفنا فيما مر ضروبا من الحفلات والعادات المرحية فيها ، ونذكر هنا أن القوم حفلات أخرى خاصة تقام بمناسباتها ومثال ذلك : نزول السلطان إلى ناحية ما كالمطرية أو الأزبكية أو غيرهما . فتقام لذلك حفلة يسهر عليها بعض أمراء الناحية المذكورة وأعيانها . ومنها احتفال السلطان أو أحد الأمراء أو الأعيان بنائم إنشاء بناء أسسه على نفقته كمسجد أو قصر أو حديقة ، ومنها احتفال السلطان بختام فصل لعب الكرة .

ومن الأمور المرحية في هذه الحفلات أحيانا تجهيز شراب الليمون والسكر في أحواض كبيرة وسقى الناس منها . أو فريق لون من اللبن على الحضور . أو مد موائد الأطعمة الشبيهة .

وقد كان لبعض السلاطين مضحكون يضحكونهم في مجالسهم ومحافلهم . فقد روى ابن إياس أن الغوري كان له نديم يضحكه يدعى « الشنفجي العجمي » ، لعب بالصحون النحاسية والجريد . « حوادث شوال عام ٥٩٢١ » ، وروى المقرئ في خطه بالجزء الأول ص ١٤٦ أن الناصر محمد بن قلاوون كان له مضحك يسليه في مجلسه .

وكانوا يستعينون في حفلاتهم أحيانا بالطلل والزمر والمغنين والمغنيات ، وكانوا يطلقون لفظ « أستاذ » على المغنى ، ولفظ « الرئيسة » على المغنية ، ولفظ « الرئيس » على المضحك ذى التسلية واللطفة والألعاب الطريفة « راجع طيف الخيال لابن دانيال » . وكانوا يقيمون للمغنى دكة يجلس عليها وحوله الناس يسمعون . وبهذه المناسبة نذكر أن البحث عن أغاني أمة ، وضروب تسليتها ، موضوع طريف جدا يتصل اتصالا وثيقا بالبحث عن عقليتها ، وعقيدتها ونفسياتها ودرجة ثقافتها وطريقة تهذيبها وذوقها . ثم هو يتصل بترقيتها ومقدار تحولها وكيفية اتجاهها ، وهو بذلك

كله يطلعنا على جانب هام من جوانب تاريخها . فلعل أحد الأدباء يولى هذا البحث عناية ما حتى يقدم لناوصفا شائقا لأغاني الأمة المصرية وألعابها يتضح منه جانب من تاريخها العلى والعاطفى .

ونذكر الآن بعضا من المغنين والمغنيات بمن ورد لهم ذكر فى بدائع ابن إياس ، وبعض الحوادث التى لها صلة بتوضيح هذا الموضوع فنقول :

١ - قال ابن إياس عن السلطان المنصور محمد بن المظفر جاحى : « إنه لما خطعه الأتابكى بلبغا العبرى من السلطنة عام ٧٦٤هـ أدخله فى دور الحرم بالقلعة . واستمر مقبىا فى غبوق وصبح لا يفيق من السكر ساعة . وعنده جوقة جوارى مغنيات نحو عشرة يدقون بالطارات عند الصباح والمساء . »

قال : وكانت هذه عادة رؤساء مصر تغنيهم المغنيات . وآخر من كان يفعل ذلك من أعيان مصر الأمير جمال الدين محمود الأستاذار . ثم بطل ذلك مع جملة ما بطل من محاسن عيشة الأكابر بالديار المصرية « ج ١ ص ٢١٢ » .

ب - وقال فى حوادث عام ٨٦٢هـ فى جمادى الأولى توفى المغنى الأستاذ فى فن الشيد فريد عصره ، وحيد دهره « ناصر الدين محمد المازونى القاهرى » . وكان بارعا فى فن الغناء . وكان يضرب به المثل فى حسن النغم ، ومعرفة الفن ولم يجنىء بعده من هو فى طبقته إلى يومنا هذا . وقد رثاه الشهاب المنصورى بهذه الايات :

يانزومة السمع سكنت الثرى فللماهى أيمى لمنى
كم لطفة من قدم أو يد فى خدى الدوكة والدف
وقال أيضا :

كانت به لذاتنا موصولة فانقطعت بموته اللغات
وكانت الأصوات تزهر بهجة فارقت لموته الأصوات
وكان قد أصيب المازونى بفالج فأقام به مدة طويلة حتى مات . وكان يقول :
« ارحموا من سكك حسه وبطل نصفه » . « ج ٢ ص ٦٢ »

ج - وقال في حوادث عام ٨٦٢ هـ : « إن الأمير جاني بك لما كملت عمارة القبة التي أنشأها في منشية المهراني عمل هناك وقعة عظيمة . وأحضر صواري طوالا على البر ، وعلق فيها قناديل ، وعزم على جماعة من الأمراء ، ومد مدة عظيمة ، وكانت ليلة لم يسمع بمثلها ، وحضر هناك « ابن رحاب المغني » ، « إبراهيم ابن الجندي » ، وجمع بين قراء البلد والوعاظ - وكان ذلك في ليلة الجمعة . » « ج ٢ ص ٧٦ »

د - نور الدين علي بن رحاب المغني : يظهر أن هذا المغني كان ذا شهرة فاققة وذا فن بارع ، ولذلك كان كثيرا ما يستدعى لإحياء ليالي الملوك والأمراء . وقد ورد ذكره مرارا في سياق حوادث عصر قايتباي وقبلة . فمن ذلك ما ذكرناه في « ج » ، ومنه أيضا أنه في رجب عام ٨٧٥ هـ توجه السلطان قايتباي إلى قناطر العشرة وإلى الأهرام وأقيمت له الزينات ومدت له الموائد ، وظل كذلك سبعة أيام أحياما المغني « ابن رحاب » ، ومعه كثير من المغنين المعروفين ، وأحيا كذلك ليلة ختان أولاد الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال وكان مقبلا بالإسكندرية في عهد قايتباي .

وفي عهد السلطان الظاهر قانصوه بن قانصوه قبض الأمير طومان باي على هذا المغني « ابن رحاب » ، في شهر ربيع الأول عام ٩٠٤ هـ ، وكان سبب ذلك أنه كان يتشيع للأمير أفردي الدوادار الناصر على السلطان . وكان يسب الأمراء في مجلس الغناء ، ويهجوم بأفش هجاء . فنقل عنه ذلك فقبض عليه وضرب بالمقارع وشهر في القاهرة وهو عريان مكشوف الرأس على حمار ، وكان قد قبض عليه مرة أخرى قبل هذه المرة ، قبض عليه الأمير كرتباي الأحمر وهم بضربه ثم اكتفى بتوبيخه جراه وعفا عنه ..

فلما عاد إلى مانهى عنه ضرب وشهر كما ذكر ، والمشاعلي ينادى عليه : « هذا من يكثر كلامه ويدخل نفسه فيما لا يعنيه » .

وقد توفي ابن رحاب « في شهر ذي القعدة عام ٩٠٥ هـ . » وقال عنه ابن إياس : « في ذي القعدة كانت وفاة الرئيس نور الدين بن رحاب المغني المشهد المساح فريد

عصره ووحيد دهره ، وكان من نوادر الزمان . ينظم الشعر ويلحن الحفائذ
بالحن غريبة . وكان آخر مغاني الدكة في الدخول والطرب ، ولم يبق بعده أحا
في الدخول مثله : وقد رثيته بعد موته بهذه الآيات .

توفى نزهة الأسماع طرا وصار العيش منا في ذهاب
وناحت بعده الآلات حزنا وأظهرت الصراخ مع انتحاب
وأبدى النف والمأصول زعقا كن جاء المسآتم في المصاب
وأضحى الناس في قلق ولم لا وقد ضاق الوجود بلارحاب

« راجع ابن أبياس جزء ٢ ص ٧٦ ، ١٦٣ ، ٢٠٨ ، ٢١٣ ، ٣٥٢ ، ٣٦٨ »

٥ - ولما خرجت خوند فاطمة زوجة السلطان قايتباي ، وهي بنت العلائي علا.
الدين بن خاص بك ، إلى الحج عام ٨٧٩ هـ كان لها ركب حافل وموكب عظيم سار
أمامه أربعة من الحداة منهم « إبراهيم بن الجندی » و « أبو الفوز الواعظ » .
« ابن أبياس جزء ٢ ص ١٥٦ »

٥ - خديجة الرحاية : قال عنها ابن أبياس : « إن الأمير يشبك من حيدروال
القاهرة قبض عليها وهي تنفى في بعض الأفراح بتهمة إفساد عقول الناس . وكان
ذلك في شعبان عام ٨٨٦ هـ . وأمر بضربها بين يديه نحو خمسين عصا وقرر عليها
غرامة مالية ، وكتب عليها تعهدا بأنها لا تزاول مهنتها . وقد لبثت بعد هذه الحادثة
مريضة حتى ماتت ولها من العمر نحو ثلاثين عاما ، فأسف كثير من الناس لو فاتها .
وكانت خديجة من مشهورات المغنيات بمصر ، ذات صوت جميل وإنشاد بديع
وكانت في بدء أمرها من مغنيات العرب ، ثم عظم أمرها جدا ، فخطبت عند أرباب
الدولة وروسائهم . وكانت مع حسن صوتها جميلة الخلق حتى افتتن بها كثير من
الناس . وقد قال فيها بعض الشعراء :

رحاية بخنى الشموس جمالها لها حسن إنشاديرين مقالها (١)

وقد غايلت بالبدر ليلة تمه فما زال من عيني وقلبي وخيالها

« ج ٢ ص ٢٠٧ »

(١) هكذا ، فافية بفتح اللام ، وفافية بضمها .

٦ - شمس الدين محمد بن حلة : كان من مشاهير الوعاظ ، وكان منشدا مطربا وله نظم جيد ، ولد قبل سنة ٨٢٠ هـ توفي في شهر المحرم عام ٨٩٢ هـ ، ج ٣ ص ٢٤٢ .
٧ - في ربيع الآخر عام ٨٩٩ هـ اختار السلطان قايتباي الأمير ماماي بن خداد الدوادار الثاني رسولا إلى ملك بنى عثمان . فأخذ ماماي يستعد للرحيل ، وكانت توقد له كل ليلة بناحية بركة الرطلى وقدة حافلة يمثل فيها «خيال الظل» ، أو يغنى بعض من مغنى العرب أو ابن رحاب المغنى أو يتفككون بالعاب ونكات فرقة المحبطين .
ج ٢ ص ٢٨١ .

٨ - في ١٣ شهر ربيع الأول عام ٩٠٤ هـ نزل السلطان الناصر محمد بن قايتباي من القلعة واتجه نحو القناطر العشرة ، ومعه أولاد عمه قيت وهما جانيه وجاني بك ومعدد من الخاصكية . وقد سبق هذا الجمع الخدم والطهاة ، فضربوا لهم وطاقا في ناحية الجيزة حيث أقاموا ثلاثة أيام . واستدعى لإيئاس السلطان ومن معه «أبو الخير» ، ومعه «خيال الظل» وجوق مغاني العرب و«برايوه» رئيس المحبطين .
ج ٢ ص ٣٤٧ .

٩ - عزيزة بنت السطمي : قال عنها ابن إياس : «إنها توفيت في أوائل شهر شوال عام ٩٠٦ هـ . وكانت من أعيان مغنيات مصر ، فريدة عصرها في التشيد مع حسن الصوت وفصاحة الإعراب في الشعر ، فلم يخلفها من بعدها إحدى النساء . وراى لندن أعيان مصر وأرباب دولتها غاية العز والعظمة ، بما لم يره غيرها من أهل هذا الفن . وماتت وهي في العقد الثامن من عمرها ولها من الشهرة ما زاد عن الحد . وما قاله فيها الشهاب المنصوري :

وفساة نزهت طرفي فيها شفت مسمعى بجوهر فيها
مذ زارت محبا وتفتت كاد يرى بنفسه من أبيها^(١)

ج ٤ .

(١) - مرجع كل من هذا الرقم وما يليه ج ٤ حوادث العام التى ذكر فيه .

- ١٠ - علي بن غانم : كان علامة في ضرب الطنبورة ومعرفة الأنغام . وهو الذي أظهر الخفافف الجديدة بمصر ولحنها في التلاحين الغريبة ، حتى أبطل بها فن الموسيقى ، توفي عام ٩١٣ هـ « ج ٤ ص ١٣٠ »
- ١١ - الريسة إنعام ريسة خوند الخاصبكية : كانت من أعيان مغنيات البلد . وكانت لا بأس بها . وتوفيت في أواخر شهر ربيع الآخر سنة ٩١٧ هـ . « ج ٤ »
- ١٢ - الريسة خديجة أم خوخة : كانت من أعيان الدكة . ولها في هذا الفن اليد الطولى . توفيت في يوم الاثنين المحرم عام ٩١٨ هـ « ج ٤ »
- ١٣ - الريسة بدرية بنت جريعة : كانت من أعيان المغنيات ولها بينهن شهرة توفيت قبل أم خوخة بقليل . « ج ٤ حوادث المحرم سنة ٩١٨ هـ »
- ١٤ - هيفه اللنذية : كانت رئيسة المغنيات . ادعى عليها بعض أعدائها دعاوى رافعها بها أمام السلطان الغورى فقبض عليها في رمضان عام ٩١٨ هـ ، وسجنّت وحُذبت ثم غرمت خمسة آلاف دينار . وتوسط لها القاضي بركات بن موسى فدفعتم ألف دينار ، باعته في سبيلها جميع مائمه . وقسطت عليها خمسمائة دينار تدفع منها في كل شهر مائة . « ج ٤ »
- ١٥ - وفي ذى القعدة عام ٩١٨ هـ رحل السلطان الغورى إلى زيارة الأهرام فنصب له مبرادق ووطاق واستقدم معه طائفة من المغنين وأرباب الآلات منهم ومحمد بن عويبة العواد ، و جلال السنطيرى ، و البوالقة ، و ابن الليمونى .
-
- ١٦ - الناصرى محمد بن قبحق : نديم السلطان الغورى وكان علامة في ضرب الطنبورة عارفاً بصناعة الأنغام لطيف الذات حسن المعاشرة . توفي في ١٨ رمضان سنة ٩٢٠ هـ وكانت جنازته حافلة ، مشى فيها أعيان الناس وكبار أهل الفن من مغنين وآلانية . فقد كان شيخاً لهم ومقرباً إلى السلطان « ج ٤ »
- ١٧ - وما يذكر أن السلطان الغورى في عام ٩٢٢ هـ وهو آخذ في الخروج إلى الشام لملاقاة العثمانيين عرض مغاني الدكة وهم أحمد أبو سنة ، و المحوج ،

و «المخلّوى» وأمرهم بأن يسافروا صحبته . «ج ٣ ص ٢٣»

١٨ - محمد الرئيس فئات العنبر : وهو رئيس المحبطين في عهده وكان أستاذاً في صنعة الخيال وفاق في ذلك «بريه» . وقد توفى في جمادى الآخرة عام ٩٢٦ هـ .
«ج ٣ ص ٢٢١»

١٩ - أصيل القلعية : كانت من كبريات مغنيات عصرها ذات إنشاد لطيف ، وكانت بارعة في غناء الحفائف ورأت لدن رؤساء الدولة وأعيانها غاية الحظ والحظوة ، وقد توفيت في يوم الاثنين ٨ ذى القعدة عام ٩٢٨ هـ . «ج ٣ ص ٣١٢»
٢٠ - الصلاح الثعلبي القوصى : وهو أحمد بن كامل بن الحسن الثعلبي القوصى ، كان مغنياً ملحناً شاعراً موسيقياً . توفى بقوص عام ٦٩٩ هـ .

«الطالع السعدي رقم ٥٩»

٢١ - التقي بن الثقة الإسناقي : وهو صالح بن عبد القوى بن علي بن زيد . كان موسيقياً مغنياً حسن الصوت مقرئاً . مات بقوص عام ٧٢٤ هـ .

«الطالع السعدي رقم ١٩١»

٢٢ - إبراهيم بن بابي - بفتح البائين - وهو صارم الدين العواد المغني . كان مقرباً عند المؤيد شيخ . وكان أبي النفس ، إليه المنتهى في العود والموسيقا . وهو روى الأصل ، في حديثه بالعربية بحجة . كان يسكن في بستان الحلبي المطل على النيل . ومات عام ٧٢١ هـ وخلف مالا جزيلاً . «الضوء اللامع ج ١ ص ٣٧»

٢٣ - ابن القرداح : وهو أحمد بن محمد بن علي بن أحمد بن عبد الرحمن ، شهاب الدين القاهري الواعظ . ويدعى القرداح أيضاً بضم القاف . برع في فنون عدة منها الميقات والفلك وفاق في الموسيقا . وكان ينظم الشعر الحسن ويخترع ألحانه ويغنيها . وله اليد الطولى في الضرب بالعود ، والبراعة في ضرب السنطير . وانتهت إليه الرئاسة في حسن الإنشاد ورخامة الصوت في زمانه مع فصاحة وطلاقة وباهر الأذان والتسديد عند المؤيد شيخ . وكان المؤيد يميل إليه ويستصحبه في (٧٣١ هـ مالك)

خلواته ورياضاته . ولد في نحو عام ٥٧٨ هـ ، ومات عام ٨٤١ هـ بالقاهرة بالطاعون .
« الضوء اللامع ج ٢ رقم ٤٠٧ »

٢٤ - شهاب الدين القلقيلي المقدسي . وهو أحمد بن محمد بن أحمد ، كان حسن
الصورت نازلاً كاتباً . توفي عام ٨٤٩ هـ . « الضوء اللامع ج ٢ رقم ٢١٣ » .

هذا ويضيق بنا المقام إذا رحنا نعدد ما كان لهؤلاء الأسلاف من تقاليد
وعادات . وحسبنا أن نجمل هنا القول عما يحاطرنا منها فنقول :

من ذلك جهيم البناء وقد يتغالون في ذلك تغاليا يدفعهم إلى الإسراف أحيانا
أو الظلم أحيانا أخرى : وقل أن ترى سلطانا أو أميراً أو أميرة أو أحداً من أعيانهم
لم يخلف أثر أكقصر مشيد أو مسجد جامع أو قنطرة نافعة أو بستان رائق أو غير
ذلك . وتلك مساجد تملأ فجاج مدينة القاهرة ، وتترامى مآذنها في سمائها . كما
لا يزال كثير من أسمائهم وقصورهم وشوارعهم وأزقمتهم يتردد ذكره أو يلوح فيها .
ومن ذلك : منح السلاطين الخلع للرؤساء وكبار الدولة في المناسبات . وكانت هذه
الخلع عادة متخذة من أغنم الأقبشة وأغلاها ، وتعد بمنابة النياشين أو الأوسمة .

ومن عادات السلاطين لبس الصوف والألوان القاتمة في الشتاء ، والملابس
البيضاء في الصيف .

ومنها تخصيص موسم في كل عام يشترك السلطان فيه مع بعض الأمراء في
لعب الكرة وهم ركوب على الخيل ، وقد تصاحبهم الموسيقى أثناء لعبهم .

ومنها أن يحلف السلطان الأمراء على المصحف بالإشور واضده ولا يتأثروا
عليه ، وذلك إذا وقعت منهم فتنة ثم خمدت ريحها .

هذا وقد كان كثير من المفاسد منتشراً في هذا العصر كشرب الخمر وتعاطي
الحشيش وإقتراف الزنا بأنواعه والغش في السكيل وما شابه ذلك ، وقد عمل كثير
من السلاطين على ملافة ذلك ومن هؤلاء .

ملاحظات عامة

تتبع الفصل السابق بذكر ملاحظات عامة عنت لنا أثناء تصفحنا تاريخ هذا العصر ، لم نجد لها فرصة لتدوينها تحت أحد الأبواب السالفة من هذا الجزء . واضطررنا أمام أهميتها أحيانا ، وطرافتها أحيانا أخرى ، إلى إثباتها هنا تحت العنوان المتقدم فيها :

١ - عيد النيروز : كان عيد النيروز أول السنة القبطية ، من أجل المواسم بالديار المصرية ، يحمل فيه لأكابر مصر من الأقباط والمبشرين الكثير من أصناف الفاكهة كالرمان والموز والسفرجل والتفاح الشامى والبلع والعب والتمر القوصى والبطيخ الصغير والرطب والنخوخ المشعر وقندور ، الهريسة ، المحشوة بلحوم الدجاج وغير ذلك من ضروب الحلوى . وذلك على سبيل الهدايا .

وكان جمع من « العياق » والسفلة يتعرض في ذلك اليوم لأكابر الناس وأعيانهم فيقفون على أبواب منازلهم ، أو يقطعون عليهم طريق سيرهم ليعتصروا منهم ضريبة خاصة ، ومن امتنع عن دفعها أودى أكبر الأذى ، طوراً يرش بالماء النجس ، أو يقذف بالبيض النقي ، أو يصفع بالنعال والآنخاف وقد أمر السلطان برقوق بإبطال هذه للعادة السخيفة وذلك في سنة ١٧٨٧ هـ .

وكذلك كان بعض الناس ينتهز فرصة اليوم المذكور ويرسل نفسه إلى ملذاتها وعلى هواها فيشرب الخمر ويعترف الزنا ، وربما وقعت بسبب هذا الفساد حوادث قتل .

« ابن اليس جز ١ ص ٢٦٣ »

٢ - اهتمام برقوق بلعب الرمح : اهتم السلطان برقوق عام ١٧٨٩ هـ بلعب الرمح ، وقد أمر المالك في ربيع الآخر بأن يزولوا من طباق القلعة لمزاولة لعب الرمح من الظهر إلى العصر في الحوش السلطاني ، وهو أول من اهتم بذلك من السلاطين . « ابن اليس جز ١ ص ٢٦٦ »

٣ - شرب القمز : في أوائل صفر عام ٨٧٩١ هـ ابتداء السلطان برفوق بشرب القمز . وهو عبارة عن لبن مصنوع مخمس ، وكان الملوك تعودوا ذلك . فرسم برفوق للأمراء بأن يجتمعوا في كل يوم أربعاء في الميدان تحت القلعة ليشربوا القمز ، وكان ذلك من جملة شعائر المملكة . فاجتمع الأمراء بمحضرة السلطان جالسين في مراتبهم بالشاش والقماش « أى بالزى الرسمى » ، والسقاة يسقونهم القمز في الزبادى الصينى وكان القمز يسكر . « ابن لياس جزء ١ ص ٢٦٩ »

٤ - التصدق بثمان الفرس : لما مرض السلطان خشقدم باع أحد أفراسه وتصدق بثمانه على الفقراء . وكانت هذه عادة قديمة عند الملوك إذا أصيبوا بمرض يتقربون بذلك لينعم الله عليهم بالشفاء . « ابن لياس جزء ٢ ص ٨٢ »

٥ - عصائب النساء : كان النساء إلى عهد الأشرف قايتباى يلبسن على رموسهن عصابات مقنعة وسراقوسات حريرية ويخرجن بذلك في الأسواق . فرسم قايتباى للأمير يشبك الجمالى المحتسب في رجب عام ٨٧٦ هـ بأن يتأدى في القاهرة بمنع ذلك ، وألا تلبس المرأة إلا عصابة طولها ثلث ذراع محتومة من جانبها بحتم السلطان . وشدد في ذلك على بائعى العصائب . كما شدد التنكير على كل امرأة تخرج من بيتها بعصابتها المقنعة أو سرقوسها الحربرى ، وإلا تضرب وتشنهر في الأسواق . فاضطر النسوة عند خروجهن إلى لبس العصابة الطويلة كارهات ، أو عدم لبس العصابات بتاتا ، واستيقنين المقنعة للبسها داخل منازلهن . وقد قال في ذلك الأديب زين الدين بن النحاس :

أمر الإمام مليكنا بعصائب في لبسها عسر على النسوان
فقلن ثم أطلعنه ولبسنا ودخلن تحت عصائب السلطان
واستمر الحال كذلك مدة ثم عاد النسوة إلى ما كن عليه من قبل .

« ابن لياس جزء ٢ ص ١٣٢ »

٦ - خلع أبواب الإسكندرية عند مقدم السلطان : كان من العادات القديمة

أن السلطان إذا توجه إلى الإسكندرية لزيارتها وتفقد أحوالها تخلع له أبوابها وتلقى على الأرض حتى يرحل عنها . فلما زارها الأشرف قايتباي عام ٨٨٢ هـ لم يوافق على هذه العادة وأبطلها . « ابن أبياس ج ٢ ص ١٧٣ »

٧ - عمائم النصارى واليهود : اتجهت أنظار بعض السلاطين إلى جعل عمائم النصارى واليهود من ألوان خاصة تميزها عن عمائم المسلمين . ومنهم السلطان الناصر محمد بن قلاوون فقد رسم في عام ٧٠٠ هـ لليهود بأن يلبسوا عمائم صفراء وللنصارى بأن يلبسوا عمائم زرقاء ، والسامرية بأن يلبسوا عمائم حمراء . وأشهر النداء بذلك في مدينة القاهرة . وكان النصارى - أى الأقباط - من قبل يلبسون عمائم بيضاء كعمائم المسلمين .

قيل : وكان سبب ذلك أن بعض المغاربة كان جالسا بباب القلعة فدخل بعض الكتّاب الأقباط بالديوان وهم بعمائم البيضاء . فبالغ في تعظيمهم على اعتبار أنهم مسلمون ثم تبين له أنهم أقباط . فشكا ذلك إلى السلطان الناصر فوسم بما سبق ذكره .

وفي عام ٧٥٤ هـ رسم لهم السلطان الصالح صلاح الدين بأن تكون عمائمهم عشرة أذرع لا غير . .

وبهذه المناسبة نذكر أنه رسم لهم كذلك ألا يستعان بهم في ديوان . ولا يركبوا دابة مكارية مسلم . وإذا مروا بالمسلمين ترجلوا . ولا يدخلوا الحمام إلا والصليب معلق في أعناقهم . « ابن أبياس ج ١ ص ١٤٣ ، ٢٠١ »

٨ - الأسر البارزة : أشرقت في أفق هذا العصر أسر عدة من صميم الأمة أنجبت ، ونبع منها رجال خدموا الدولة في مصر أو الشام خدمات جليلة ، سواء أكان ذلك في وظائف الجيش أم الإدارة أو القضاء أو الكتابة ، أو في العلم والأدب . والبحث عن هذه الأسر ونجبائها وذكر ماثرهم بحث طريف يحتاج إلى عناية مستقلة يبذلها أحد الأدباء .

ونذكر هنا بعضاً منها على سبيل المثال :

(١) أسرة الديري : ومنها القاضي سعد الدين الديري الحنفي . وبرهان الدين الديري الحنفي ، ذكرناهما في القضاة . وإبراهيم بن الديري كاتب السر ، ذكره ابن إياس ج ٢ ص ٨٣ - والضوء ج ١ ص ١٥٠ ، وعبد الرحمن بن عبد الرحمن الديري الحنفي ، ذكره ابن إياس ج ٣ ص ٦٣ ، وعبد الرحمن الديري أخو القاضي سعد الدين . ذكره الضوء ج ٤ رقم ٣٥٣ .

ب - أسرة البارزي : ومنها بهاء الدين بن البارزي ، ذكره ابن إياس ج ٣ ص ١٢٢ - وتاريخ حماة للصافري ، ومنها : زين الدين عبد الرحمن بن علي بن أحمد البارزي المتوفى في رمضان عام ٧٣٣ هـ متجاوزاً الستين ، مدحه ابن نباتة فقال :

أمولاي لا زالت مساعيك للعلی ويمثلك للجدوى ورأيتك للحزم
مضى السلف الأزكى وأبقاك للندى فله ما أبقى الولي من الوسى

« ذكر في طبقات السبكي ج ٢ رقم ٢٣٣ »

ومنها : هبة الله بن عبد الرحيم بن إبراهيم بن عبد الله بن المسلم ، وهو شرف الدين بن البارزي الذي كان قاضي قضاة حماة ، ولد بها عام ٦٤٥ هـ ومات عام ٧٣٨ . وكان فيها محدثاً مشاركاً في فنون كثيرة ، وألف .

« ذكر في طبقات السبكي ج ٦ ص ٢٤٨ »

ومنها عبد الرحيم بن إبراهيم بن هبة الله بن المسلم بن هبة الله بن حسان ، وهو نجم الدين البارزي قاضي حماة وأبو قاضيها ، ولد في حماة عام ٦٠٨ هـ ومات عام ٦٨٣ هـ ، ودفن في البقيع .

« ذكر في طبقات السبكي ج ٥ ص ٧١ »

ومنها : الناصري محمد بن البارزي الذي كان كاتب المملكة في زمن المؤيد شيخ ، ومدحه ابن حجة الحموي .

ج - أسرة ابن بنت الأعز : منها القاضي الأشهر تاج الدين بن بنت الأعز

ومنها أبناء تقي الدين وصدر الدين . « ذكرناهم في القضاة » قال عنهم أبو حيان : « ولا يعلم أهل بيت بالديار المصرية أنجب من هذا البيت ، كانوا أهل علم ورياسة »

وسؤدد وجمالة ، « راجع طبقات السي ج ٥ ص ١٣١ » .

د - أسرة ابن جماعة : ومنها القاضي الشهير بدر الدين بن جماعة . وابنه عز الدين بن جماعة ، وكلاهما ولي قضاء القضاة بمصر . ومنها برهان الدين بن جماعة ولي قضاة الشافعي بمصر . « ترجنا لهم في باب القضاة وغيره » .

هـ - أسرة ابن العديم : منها صاحب كمال الدين بن العديم الحلبي صاحب تاريخ حلب . وولده مجد الدين . « حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٠ » .

و - أسرة البلقيني : ومنها سراج الدين عمر البلقيني ، وابناه جلال الدين ، وعلم الدين . وهم من قضاة مصر . « ذكرناهم في القضاة » .

ز - أسرة القزويني : ومنها جلال الدين القزويني المشهور في علوم البلاغة .
ح - أسرة ابن عبد الظاهر : ومنها الكاتب المشيخي الدين وأولاده ولاسيما فتح الدين وعلاء الدين .

ط - أسرة ابن فضل الله العمري : ومنها القاضي شهاب الدين وهلاء الدين وغيرها ، أصحاب دواوين الإنشاء والرسائل بمصر والشام :

ي - أسرة السبكي : ومنها القاضي تاج الدين السبكي صاحب طبقات الشافعية الكبرى . وأبوه تقي الدين رأس الشافعية في زمانه . وأخوه أبو حامد بهاء الدين « راجع الطبقات ج ٥ » .

ك - أسرة ابن مزهر . ومنها كاتب السر الشهير أبو بكر بن مزهر .

ل - أسرة ابن الشحنة : ومنها القاضي عبد البر بن الشحنة الحنفي صديق الغوري .

م - أسرة ابن الجيعان . ومنها الشهابي أحمد بن الجيعان وعبد الغني بن الجيعان وأولاده الخمسة ومنهم شاعر ابنه . ومنها زين الدين عبد الباسط بن شاعر القاضي

محمد بن يحيى بن شاعر ابن الجيعان . « انظر تراجمهم في الضوء اللامع » .

ن - أسرة الدميري : ومنها القاضي يحيى الدين بن الدميري .

ص - أسرة ابن حنا : ومنها الوزير صاحب بهاء الدين بن حنا وأولاده نحر الدين محمد ، وزين الدين ثم أبناؤهما . « المخطوط القرظية ج ٤ ص ٩٠ ، ٢٠٤ ، ٢٩٥ »
١١ - الآثار النبوية والمصحف العثماني : قيل إن هذه الآثار كانت في حيازة جماعة من بني إبراهيم ببنيع ، فإزال صاحب بهاء الدين بن حنا يتلطف بهم حتى اشتراها منهم بستين ألف درهم من الدراهم القديمة . ونقلها إلى الديار المصرية وبني لها مسجدا خاصا مطلقا على النيل تقصده الناس بالزيارة كل أربعاء ، وفي عهد الغوري نقلت إلى مدرسته هي والمصحف العثماني الذي كان حيازته ، وذلك في جمادى الأولى عام ٩١٠ هـ بعد فتوى من القضاة . ونقل أيضا إلى هذه المدرسة مصحفا آخر مكتوبا بالذهب كان بحاقه بكتمر بالقرافة . وقيل إن هذه الآثار اشترت بألف دينار - وقد احتفل بنقلها احتفالا رائعا .

« ابن رياس ج ٤ حوادث جمادى الأولى عام ٩١٠ هـ »

١٢ - البلسان : وهو البلسم . قيل إنه من آثار عيسى عليه السلام والإفرنج عنابة به خاصة ويشترونه بثمن جيد . قيل إنه انقطع من مصر عام ٩٠٥ هـ فعمل الغوري على إعادة زرعه وجلب بذره من بلاد أخرى . وبذلك أعاد إلى مصر ثروة لأبأس بها . وكان يزرع من قبل جهة المطرية .

والبلسم ذكي الرائحة يشبه أوراق الملوخية ويصلح دهنه الأمراض الباردة كوجع الظهر والركب ، قيل وللأمراض البلغمية . وكان يعنى باستخراج دهنه في ١٤ بشنس . « ابن رياس جزء ٢ ص ٣٧٣ »

١٣ - كبار الأضياف : أم مصر في خلال هذا العصر عديد من الملوك والأمراء والأعيان زوار فنهم :

١ - الملك الصالح إسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وأخوه الملك المجاهد سيف الدين أسحق صاحب الجزيرة وأخوه الملك المظفر : وفدوا جميعا عام ٦٦٢ هـ لتهنئة الظاهر بيبرس بالملك . « جزء أول ص ١٠٣ »

ب - ملك النوبة : وفد على مصر إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٢هـ
ومعه هدايا حافلة . « جزء أول ص ١٥٧ »

ج - ملك السكرور : وفد على مصر عام ٧٢٤هـ ومعه هدايا نفيسة للملك
الناصر بن قلاوون في طريقه للحج . « جزء أول ص ١٦٣ »

د - القان أحمد بن أويس : وفد على مصر عام ٧٩٦هـ في عهد السلطان
برقوق ولقيه السلطان لقاء حسنا . « جزء أول ص ٣٠١ »

هـ - السيد على بن بركات الحسني أخو سلطان مكة : وفد إلى مصر عام ٨٧٢هـ
في عهد قايتباي غاضبا من أخيه المذكور فقتله السلطان لقاء كريما « جزء ٢ ص ٩٥ »
و - الجام بن عثمان وهو ابن محمد الفاتح سلطان الترك ، وأخو بايزيد : فر من
أخيه هاربا إلى مصر هو وأهله عام ٨٨٦هـ فقتلهم السلطان قايتباي خير لقاء .

« ج ٢ ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٣ »

ز - شاه بضاع بن دلفادر ملك الأبلستين : وفد إلى مصر ٨٩٥هـ وأقام بها
حتى توفي عام ٩٠٣هـ مطمونا . « ج ٢ ص ٢٦١ ، ٣٤٠ »

١٤ - « الطابور الخامس : قال السخاوي في الضوء اللامع في ترجمة تيمورلنك
ج ٣ رقم ١٩٢ : « إن تيمورا كانت له جواسيس في جميع البلاد التي يملكها ،
والتي يملكها ، وكانوا ينهون إليه الحوادث الكائنة على جليتها . ويكاتبونه بجميع
ما يروم ، فلا يتوجه إلا وهو على بصيرة من أمرها . »
وهذا هو ما تتبعه الدول المحاربة في عصرنا الحديث فأمر « الطابور » الخامس
ليس جديدا ..

١٥ - « تعليم الحيوانات : ذكر ابن خلدون في مقدمته ص ٣٠٤ قال : « واند
بلغنا في تعليم الصنائع عن أهل مصر غايات لا تدرك ، مثل أنهم يعلمون الخمر
الأنسية والحيوانات العجم من الماشي والطائر مفردات من الكلام والأفعال
يستغرب بدورها ، ويعجز أهل المغرب عن فهمها ، »

١٦ - الأولياء والصالحون تجاه هذا العصر عقب أيام ملئت بالحروب الصليبية وعاصر بدؤه حادثة سقوط بغداد على يد التتار الوثنيين ، فكان لذلك رد فعل في العقلية المصرية إذ ملأها حماسة للإسلام وتعصبا له وجبا في الالتفاف حول الداعين إليه . ثم عنى السلاطين والأمراء بإنشاء الربط والزوايا والخوانق وترتيب دروس في التصوف بين المواد الدراسية . فكان لهذا كله أثره في كثرة الأولياء أو مدعى الولاية ، وإيمان العامة بهم وتلبس الخير بوساطتهم ونهج بعض السلاطين والأمراء هذا النهج فاقترعوا بأمرهم ونزلوا على إرشادهم ، وعنوا بإحياء ذكرى موالد المتوفين منهم ، وهكذا . ويرد عليك في الباب القادم أمثلة توضح ذلك .

قصص هذا العصر ونواذره

نختتم هذا الجزء من كتابنا بذكر طائفة من القصص والنوادر التي وقعت في عصر الماليك . نذكرها بلا تعليق ، ونتركها تتكلم وحدها إلى القارئ أو يستنبط القارئ منها ما يشاء من ناحية الثقافة أو الأخلاق أو المعاملات أو النواحي الأخرى الاجتماعية ونوع التفسير . وكثيرا ما تكون القصة خير شارح لإحدى هذه الأحوال بغير حاجة إلى بيان مبين أو توضيح موضح . فنها :

١ - نادرة عن الشيخ تاج الدين الفاكهاني والشاطر الدمنهوري : وهو ممن عاشوا في المائة الثامنة . قال عنه صاحب الدرر الكامنة ما يلي . « قرأت بخط المحدث بدر الدين حسن النابلسي قال . حكى لنا شمس الدين محمد بن عبد المحسن بن أبي الربيع العباسي الدمنهوري قال . قال الشيخ تاج الدين الفاكهاني : كان الشيخ أبو العباس الشاطر الدمنهوري يقول : لا يجبني عن أصحاب التراب . فكان . فطلبت من الله تعالى عند قبره ثلاث حوائج . تزويج البنات من فقراء صالحين ، وحفظ كتاب الله ، وكان تعمس على ، والحج وكنت أعوز من النفقة ألف درهم . فرأيت الشيخ في المنام قبل طلوع الشمس ، وهو يقول . يأتيك فلان التاجر بألف درهم كف بها حالك . وما تدخل مكة حتى يفتح عليك بها . - قال . فاقترضت الألف وسافرت حتى وصلت إلى المعلي ولم يفتح علي شيء . فلما طلعت الحدة وأنا ماش ، وإذارجل يسأل عني ، فأشاروا إلى ، فناولني ألف درهم ، وقال . رأيت البارحة قائلا يقول . خذ معك ألف درهم ، وإلق بها فلانا ، ففعلت . فأخذتها ، وأتيت إلى الذي اقترضت منه الألف فدفعها إليه . فقال . ما أريدها ، فإنني اشتريت بضاعة بثلاثين ألفا فكسدت فلا تسارى الآن النصف . قال : فلما كان أمس ، رأيت رجلا عليه ثياب خضر وطاقيّة نيضاء . فقال : الألف التي بعث بها إليك أبوك مع الشيخ تاج الدين ، لا تأخذها منه . وأنت تبيع البضاعة في أيام مني بخمسة وأربعين ألفا ، فكان كذلك . » الدرر الكامنة ج ٣ رقم ٢٩٥

٢ - رؤيا الشيخ فرج بن عبد الله المغربي الصفدى الخاصة بالأمرد .

وهو نزيل صفد وعن عاشوا في المائة الثامنة ؛ قيل إنه تحول إلى قرب بحيرة طبرية واشتهر أمره وصار له بها أتباع ومريدون . حكى الثماني قاضى صفد أنه توجه لزيارته حجة الشيخ تاج الدين المقدسى . فجرت مسألة النظر إلى الأمرد ، وأن الرافعى يحرم بشرط الشهوة . والنوى يحرم مطلقا . فقال الشيخ فرج . رأيت النبي ﷺ في المنام فقال لى : الحق في هذه المسألة مع النوى . فصاح الشيخ تاج الدين وقال : صار الفقه بالمنامات انخفض الشيخ فرج وقال : استغفر الله ، أنا حكيت ما رأيت ، والبحث له طريق . « الدرر الكامنة جزء ٣ رقم ٥٧٩ » .

٣ - زهد ابن تمام مصالحى ، وهو محمد بن أحمد بن تمام بن حسان الصالحى ، عاش بين سنة ٨٦٥ إلى ٥٧٤١ ، كان عالما زاهدا قال عنه البدر النابلسي : « العالم الزاهد له المراقبة التامة على ملوك الدنيا ! كان تنكر ملك الأمراء يدخل عليه وهو يخط الثياب ، وإحدى رجله منصوبة بالأخرى عمدة فلا يتغير عن هيئته وكان يفرق كل شئ يهدى إليه على الحاضرين ، ولا يقتات إلا من الخياطة » . « الدرر الكامنة جزء ٣ رقم ٨٣٥ »

٤ - من توفى بالبلن ، في عهد الغورى حضر شخص من فقراء الصعبد يقال له مهدي ، مثل بين يدي السلطان المذكور وقامت عليه البيعة بأنه زنديق ساحر يتوفى بالبلن ويستنجى به . وذكرت عنه أشياء كثيرة على هذا النمط يخالف الشريعة . فأرسله السلطان إلى قاضى قضاة المالكية فحكم بكفره بموجب ما قامت به عليه البيعة ، وضرب عنقه تحت شباك المدرسة الصالحية بعد أن أشهروه على جمل وهو عريان . « ابن راس جزء ٤ حوادث شعبان عام ٩١١ هـ »

٥ - الشيخ سنبطاي المتصوف المزيف : كان من الأتراك ، وكان يدعى التصوف وكان مقبلا بالمدرسة السنقرية الواقعة تجاه خانقاه سعيد الشعداء . وشي به إلى السلطان الأشرف الغورى وقيل عنه إنه يزيف الدراهم والدنانير ، فتغير عليه خاطر السلطان

وقبض عليه وقاشت داره ، فوجدت لديه آلات التزييف ، وعمال يزاولونه ، فأمر السلطان بقطع أيديهم . أما الشيخ سنطباى فشفع فيه الأتابكى « قرقاس » من قطع اليد ، فرسم له السلطان بأن يتوجه إلى القدس يقيم هناك عاطلا . - وقد كان من قبل من بمالك قايتباى . ثم ادعى الصلاح ولكن انكشف أمره . « ج » ،

٦ - حادث حريق في مولد الشيخ سويدان : في المحرم عام ٩١٣ هـ أقيم مولد الشيخ سويدان المجذوب في مدرسة ابن الزمن ببولاى . لحدث في تلك الليلة حادثة رائعة ، وهى أن امرأة طبخت على شاطئ البحر . فطار منها شرارة فتعلقت بمركب هناك ، فعملت النار فيه . وكانت الريح في تلك الليلة عاصفة ، فشتت النار إلى « شونة » تبين في معصرة هناك ، فذهبت فيها النار ومرت في نواحها ، حتى احترقت المعصرة ونهب ما بها من قصب وسكر وعسل ، وألم الناس لهذا الحادث . ولو لا لطف الله تعالى ، ثم بركة الشيخ سويدان . لاحتقرت الأماكن عن آخرها . « ج » ،

٧ - قاذف سيدنا إبراهيم : صدر كلام شاذ فاحش في حق سيدنا إبراهيم عليه السلام من رجل كان خطيبا في بعض الجوامع ويدعى عمر بن علاء الدين النقيب الحنفى المحلى . وذلك في عهد الغورى عام ٩١٣ هـ . فاستتابه بعض القضاة ولكن بلغ السلطان أمره فغضب وتعصب للخليل إبراهيم عليه السلام . وجمع مجلسا من قضاة الشرع موظفين وغير موظفين ، ووقع بينهم نقاش شديد اختلفوا فيه اختلافا كبيرا بشأن الحكم على هذا الرجل . ثم انفض مجلسهم على أن يسجن الرجل مدة طويلة . ثم يتوب ويطلق سراحه . وكان السلطان قد صمم في دخيلة نفسه على قتله . ثم سجن قلبت في السجن زمنا كبيرا . « ج » ،

٨ - خديجة الكلبيانية : كانت تدعى الصلاح . وتدخل بيوت عظام الناس . وقد توفيت في ذى الحجة عام ٩١٣ هـ فوجد في تركتها ذهب خالص ، يقدر بثلاثة آلاف دينار ، وأثاث منزلى بنحو خمسمائة دينار . ومع ذلك كانت تأخذ الصدقات من الناس . وقد عدت حالتها من النادر . « ج » ،

٩- جملان يحدثن حريقاً دخل أحد الفلاحين ومعه جملان يحملان تبناً إلى القاهرة وقت العشاء، مارا بها من السوق الواقعة عند بيت الخليفة . فتعلق في ذلك السكتان طيب من مسارج البائمين هناك . فلما أحس الجملان بالنار هاجا وفرا بين الناس مرتعين . فقتلا كثيراً من الصغار وأصابا عدداً آخر من الناس، وأتلفا كثيراً من البضائع ولم يستطع أحد كيح جماعهما حتى بلغا مشهد السيدة نفيسة فهدأ ومات أحدهما . « ج »

١٠- رؤيا بواب جامع الحاكم : من النوار أن شخصاً قيل إنه بواب جامع الحاكم ، طلع إلى السلطان الغورى وذكر ما رآه في منامه من أن قائلاً يقول له : قل للسلطان إن جامع الحاكم تحت بعض دعائمه دنائير ذهبية لا ينحصر عددها . فلما سمع السلطان ذلك مال إلى كلامه وظن أنه حق وأرسل الأمير خابر بك الخازن دار وبركات بن موسى المحتسب وجماعة آخرين من أخصائه ومعهم عدد من المهندسين والبنائين ، وأحضروا ذلك الرجل القائل . وطلبوا إليه أن يعين لهم الدعامة التي رآها في منامه وتحتها الدنائير . فقال : لا أعلم فقال المهندسون ، إن لم نعرفها فقد يجرنا هذا إلى هدم جميع دعائم المسجد . وكثر بينهم القيل والقال والأخذ والرد . ثم شاوروا السلطان في الأمر وفي هدم جميع الدعائم ، فأبى ولم يوافق . « ج »

١١- جمال الدين الزغلي صاحب دار الضرب : كان قد التزم دار الضرب في عهد

الغورى ، فأنلف سائر العملة ، واتضح فيها غشه وتزييفه ، حتى ضج الناس ومعهم الأمراء منها وبلغ الخبر مسامع السلطان ، وهاله ألم الناس من هذه العملة الرسمية المغشوشة والتي أكرهوا على التعامل بها ، مما أدى إلى اختفاء الدنائير البرسبية والجصقية والإينالية والخشقدمية والفايتبائية . فاستدعاه السلطان وقبض عليه وأودعه سجن المقررة بعد أن ضربته ضرباً مبرحاً . ولكنه استطاع الهرب من سجنه بعد أيام . فعاقب السلطان بسببه فأنصوه أبا سنة الرالى وفرض عليه غرامة مالية قدرها خمسة عشر ألف دينار . واختفى بسبب هربه كذلك عدد من رجال سجن المقررة خوف أن يبطش بهم السلطان . ثم إن السلطان تمكن من القبض

على الحارب وطيف به على حمار ، والمشاعلية تنادى عليه بين الناس لتفضع أمره .
ثم شفق . « ج »

١٢ - طفلة ترى النبي في منامها : في رمضان عام ٩١٥ هـ ظهرت في قلوب -
وقيل بقلبة - ابنة صغيرة دون البلوغ ، قيل إنها رأت النبي صلى الله عليه وسلم في
المنام مراراً عدة ، وظهرت لها كرامات خارقة . فتوجه إليها الناس أفواجا أفواجا .
واشتهر عنها أنها تقبم المتعد ، وترد بصر الأعمى وحكى عنها من هذا النمط أشياء
غريبة ليس لها صحة ! فبلغ كرى كل حمار من القاهرة إلى قلوب أبرفيا . ووفد
عليها جماعة من الخاصكية والأمراء العشرات وكثير من أعيان الناس . وترددت
الاحاديث عنها في القاهرة . « ج »

١٣ - ملك يرفس النيل برجله : في عام ٩١٦ هـ نقص النيل عن مقداره في العام
الماضي ، حتى شرفت نواحي كثيرة من البلاد . فكثرت الخرافات والقصص بسبب
ذلك . فمنها ما قيل : إن امرأة سالحة رأت في المنام أن ملكين نزلا من السماء ،
وتوجها إلى البحر ، النيل ، فرفسه أحدهما برجله فهبط سريعا . ثم قال أحدهما
للآخر : إن الله تعالى كان أمر النيل أن يزيد إلى عشرين ذراعا ، فلما تزايد الظلم
بمصر أذن له بالهبوط وهو في ١٨ ذراعا . . . فلما انتهت من منامها هبط النيل
في تلك الليلة دفعة واحدة . . . « ج »

١٤ - رؤيا تضطر السلطان إلى العدل : قيل في اواخر صفر عام ٩١٩ هـ ،
لما فشا الطاعون بالبلاد المصرية ثم اشتط السلطان في فرض الضرائب على تركات
الموتى ، ثم نكص لخط عنها بعض أعباء هذه الضرائب ، قيل إن ذلك بسبب رؤيا
رآها ، ومودها . أنه رأى النجوم من السماء قد تساقطت على الأرض ، ثم بعد ذلك
سقط القمر . فأول ذلك بأن النجوم هي الجند ، وأن القمر هو الملك . فعند ذلك
أخذ في أسباب العدل وإبطال المظالم . « ج »

١٥ - عبد العظيم يكبر عمامته : قال ابن إياس : إنه في أواخر شوال عام
٩١٩ هـ خلع السلطان على عبد العظيم الصيرفي وقرره في التحدث في أمر الشئون

السلطانية ، وجهات الذخيرة . فتعاطم عبد العظيم وكبر عمامته ، وصار من أعيان
الرؤساء ، وركب الخيول ونسى ما جرى عليه من الضرب بالسكسارات ، وعصر
أكعابه بالمعاصير ، وإحراق أصابعه بالنار . فنتى ذلك كله وصار في شمم عظيم !
« ٤ »

١٦ - حادثة زنى بهم فيها أحد نواب الحكم وعزل بسببها القضاة : وقعت
هذه الحادثة في عهد السلطان الغورى ، وقد أشرنا إليها في باب القضاء والقضاة .
وملخصها أن رجلا من نواب الخففة يدعى « غرس الدين خليل » له زوجة حسنة
عشقتها أحد نواب الشافعية واسمه « نور الدين على مشالى » . وكانت بين العاشقين
صلات ود ورفاق . ولذلك انتهزا فرصة تغيب « غرس الدين » بحجة الإمام الليث
لبعض أعماله ، واجتمعوا في منزلة لمفارقة الفسق والزنا - ولكن كان هناك رقيب
يفار على المرأة وفي نفسه منها شيء واسمه « شمس » وهو ابن أخت القاضي
« نور الدين الدباصلى » . فلاحظ ما هنالك . فلحق بالزوج وأطلعه على الخبر فأسرع
إلى منزله ، ورأى مارأى بمعنى رأسه فهاله الأمر وطغت على نفسه الحماسة وعزم
على شكواها . فتوسلت إليه زوجته وعشيقها بأن يسترحما لقاء مال يدفعانه ، فأبى
وأبلغ خبرهما إلى حاجب الحجاب قبض عليهما ، فاعترفا بما كان منهما من المنكر .
وكتب الفاسق « نور الدين مشالى » كتابة بهذا الاعتراف . فما كان من الحاجب
إلا أن ضربهما بالمقارع وأشهرهما فى القاهرة .

ثم إن الحادثة بلغت مسامع السلطان الغورى فاستاء أ كبر استياء . وصمم
على قتل الزانى . وجمع لذلك القضاة الأربعة ، ووبخهم وقرعهم لأن نوابهم يعيشون
فى الأرض فسادا . وظل يجمعهم ويفرقهم ليظفر منهم بحكم قاس ضد هذا الفاسق .
وحزم إليهم عددا آخر من قضاة الشرع المعزولين ومن علمائه فكان مجمعا عليهما
عظيما ، ولكنه لم يظفر . وذلك - ربا للعجب - بسبب من تعصب للزانى من
القضاة ونواب الحكم . ومن بينهم رجل يدعى « شمس الدين الزنكلونى » أحد
نواب الحكم وصديق المتهم ، وهو شافعى المذهب . وقد قام بكتابة ورقة فيها فتوى

شرعية ملخصها أن المعترف له حق الرجوع عن اعترافه ، وحيث لا يحد . ووقع بمسماه على هذه الفتوى عدد من القضاة ، ودفعها إلى قاضى قضاء الشافعية ، الشيخ برهان الدين بن أبى شريف المقدسى ، فأبدى هذا القاضى الحكم الشرعى فى هذا الموضوع للسلطان ، وهو أن الزانى له حق الرجوع عن الاعتراف وحيث لا يحد ولا يرجم . فاشتد غضب السلطان وقال : يا مسلمين ! رجل يطلع إلى بيت رجل يفسق فى زوجته ، ويقبض عليه تحت اللحاف مع زوجته ، ويعترف بذلك ويكتب بخط يده بما وقع منه ، تقولون بعد ذلك : له الرجوع !

ثم اضطر السلطان إلى جمع المجمع الذى أشرنا إليه لاستفتائه ، فكان من جملة من كان فيه من القضاة الأعلام : برهان الدين بن أبى شريف . وبرهان الدين القلقشندى وبرهان الدين بن الكركى الحنفى ، ونور الدين المحلى ، وعبد الحق السبأطى وشيخ الإسلام زين الدين زكريا الأنصارى المنفصل عن القضاء . وبين هؤلاء القضاة الأربعة .

طلب إليهم الرأى . فكرر ابن أبى شريف رأيه السابق وأورد النقول التى تثبت ذلك . فلم يلتفت إليه السلطان . وقال أنا ولى الأمر ، ولى النظر العام فى ذلك ! فقال ابن أبى شريف : نعم ! ولكن بموافقة الشرع الشريف ، وإن قتلتهما تترك ديانتان منهما . . . فحق السلطان وكان يعطش به .

ثم سأل الشيخ زكريا ، فرد بما رده ابن أبى شريف . فزاد حق السلطان ، وقيل إنه أهانه ورماه بخور قواه العقلية . . . ثم بهال الشيخ نور الدين على المحلى . فقال كما قالوا ، وقال إنه نص ما نقله الإمام الشافعى ، فغضب منه السلطان وقال : « إن شاء الله تطلع إلى بيتك فتجد من يفعل فى زوجته الفاحشة كما فعل المشالى فى زوجة خليل » ، فقال له المحلى . عافانا الله من ذلك .

وكان من نتيجة هذه المحنة العظيمة أن عزل الشيخ برهان الدين بن أبى شريف من مشيخة مدرسته وقيل نفى إلى القدس . وعزل محيى الدين يحيى بن الدميرى من قضاء المالكية ومن خطابة جامعه . وتغير السلطان على قاضى قضاء الحنفية (م ٢٤ - مالهيك)

عبد البر بن الشحنة وكاد يبطش به ، مع أنهما صديقان حميمان .

وقد سجن المذنبان ، سجن المشاي في المقشرة . وسجنت الزوجة في الحجر

ثم استدعى السلطان القاضي الشافعي « شمس الدين الزنكلوني » الذي كان سببا في إظهار الفتوى بحق الرجوع ، وقال : « يا زنكلوني احكمك أنت بمشي ، وحكمي أنا بيطل » . ثم بطحه على الأرض وضربه نحواً من ألف عصا ونفاه إلى الواحات وأشيع موته بعد ذلك من الضرب .

ثم عزل السلطان قضاة القضاة الأربعة وبقيت مصر خمسة أيام بغير قضاة .

ثم أمر السلطان بشنق الزائنين على باب منزل القاضي ابن أبي شريف نكابة به . « ج ٤ » .

١٧ - نبوة قلاوون بعصيان قفجق : قيل إن الملك المنصور قلاوون - وكان

الأمير قفجق أحد ممالك - خرج يوماً إلى جهة المطرية في أيام النيل على سبيل الرياضة . ومعه جماعة من أخصائه الأمراء . فانشرح السلطان في ذلك اليوم . وذبح خروفاً مميّناً بيده ، فلما حضر السباط قدموا ذلك الذبيح بين يديه ، فقطعه بيده ، ثم أخذ السكتف منه وجرده من لحمه ، وتركه ساعة حتى جف ، ثم لوحه على النار . قليلاً قليلاً ، ثم أخرجه . ونظر في لوحة السكتف ساعة ، وأطال التأمل ، ثم ثقل عليه وألقاه من يديه وظهر في وجهه الغضب . فسأله بعض الأمراء عن ذلك بعد ما سكن غضبه . فقال : إن وليتم قفجق بعدى نيابة الشام يحصل منه غاية الفساد ، فلا تخرجه بعدى من مصر لئلا تتعبوا من أمره . فكان الأمر كما قال الملك المنصور .

وذلك أن قفجق تولى نيابة الشام بعد موت المنصور ، وذلك في دولة المنصور لاجين ، فعبث بها وهوى ، ثم فر إلى غازان ملك التتر وحجب إليه غزو البلاد المصرية والشامية . فغزاهما ووقع بين العسكرين وقائع هائلة .

١٨ - خيبة ابن مفلح : لما غزا تيمور لك الترى بلاد الشام وخرّب ديارها عام ٨٠٣ هـ وحاصر دمشق ، وذعر أهلها من فظاظته ، بعث إليهم يطلب منهم أن يرسلوا إليه أحد عقلائهم لمفاوضته في الصلح . فوقع اختيارهم على القاضي تقي الدين بن مفلح الخنبل لمعرفته التركية والعجمية ، وجماعة معه . فتلطف معه تيمور لك وأفهمه أنه لا يقصد بدمشق سوءاً لأنهم بلاد الأنبياء وبها قبر أم حبيبة زوجة رسول الله عليه السلام . . .

فعاد ابن مفلح من لدنه يخذل الناس عن قتاله حتى تخاذلوا . ثم عاد ابن مفلح إلى تيمور . فكتب له أماناً لأهل دمشق . فعاد إليهم وقرأ عليهم هذا الأمان . ففرحوا به وفتحوا باب المدينة لتيمور وجنده . فاحتل أحد أمرائه هذا الباب . ثم طلب تيمور أن يحضر إليه ابن مفلح فحضر . فأمره بأن يجي من أهل المدينة ألف ألف دينار . فعاد إليهم وجمعها منهم وحملها إليه . فحنق منه تيمور ، وادعى أنها ليست المقدار الذي طلب إليه جبايته ، وأنه يطلب عشرة أمثال هذا المبلغ .

عاد ابن مفلح إلى دمشق وأخذ في إرهاب أهلها ليجمع منهم المال وأصبح عليهم سوط عذاب ، وسلط عليهم ضروب الأذى حتى جمع منهم هذا المقدار وحمله إلى تيمور ، بعد أن أقر الناس وأجاعهم .

لم يكتف تيمور لك بذلك بل طلب إليه استحضار جميع الودائع الخاصة بأمرائه السلطان وعسكره ، فأحضرها إليه ، فقال له تيمور . قد بقي عليك أن تجمع لنا كل دابة في البلد من فرس وبغل وحمار وجل . . . فعاد ابن مفلح إلى المدينة يجمع لتيمور دوابها ، ثم ساقها إليه . .

لم يكتف تيمور بذلك بل قال له : بقي عليك أن تكتب لنا أسماء حارات دمشق جميعها وجميع خططها . فكتب له ذلك وقدمه إليه . . . فقال له تيمور :

قد بقى عليك أن تنجي لنا بقية ما قررناه على المدينة من المال . . وعدته سبعة آلاف ألف دينار . . فقال له ابن مفلح : لم يبق في البلد لا درهم ولا دينار ، ففحق منه تيمور وقبض عليه وعلى أصحابه وقيدهم بالحديد . « ج ١ ص ٣٣١ إلى ٣٣٣ » .

١٩ - الشيخ أسد الدين المزيف . ذكر ابن إياس في حوادث عام ٨٥٢ هـ وفي عهد الظاهر جقق ، أن رجلاً أعجمياً يدعى « الشيخ أسد الدين » كان يدعى أنه شريف ، فجاء إلى الشيخ - على المختص - وقال له اجمعني على السلطان فأني أعرف صنعة الكيمياء ، فجمعه عليه فأرسل إليه أنه يطبخ الكيمياء ، وأن هذا وجه حل . فانطاع السلطان لكلامه ، وأجرى عليه ما يحتاج إليه من أسباب ذلك ، وصرف عليه جملة مال نحواً من عشرة آلاف دينار ، ولم تصح معه الكيمياء ، فكان يأخذ الحريز الأحمر بالأرطال ويوقده في النار ولا يأكل شيئاً فيه روح . فأتلف على الملك الظاهر جملة مال ولم يفد ذلك شيئاً ، وقد قيل :

كاف الكنوز وكاف الكيمياء معا لا يوجدان فدع عن نفسك الطمعا
وقد تحدث قوم باجتماعهما وما أظنهما كانا ولا اجتماعهما

فأرسل إلى السلطان أنه يعبد النار . وتحدث بعضهم في حقه بكلمات كثيرة . فأرسله السلطان إلى المدرسة الصالحية لحكم عليه القاضي المالكي بدر الدين التونسي نائب الحكم بأنه كافر فاضربوا عنقه تحت شباك المدرسة الصالحية وكان له يوم مشهود . « ج ٢ ص ٣٠ » .

٢٠ - الاستسقاء ببني العباس . لما آن أوان زيادة النيل في عام ٨٦٦ هـ توقف عن الزيادة نحو خمسة عشر يوماً حتى ضج الناس وارتفعت أثمان البضائع ، فرسم السلطان خشدق للقضاة الأربعة والمشايخ والعلماء بأن يتوجهوا إلى المقياس ويثبتوا هناك يتلون القرآن والحديث ويدعون الله ليزيد النيل . فتوجه عدد منهم ومكثوا أياماً ثم رجعوا بلا جدوى ، ولم يزد النيل . فأرسل السلطان رسلاً إلى شيخ

الإسلام في عصره أمين الدين يحيى الأقصرائى واستفتاه في هذه المسألة فقال له .
اجمعوا بنى العباس من الرجال والنساء ومن الصغار والكبار ، ثم ليضعوا في
أفواههم شيئاً من الماء يمجونه في إناء ثم يصبونه في فسقية المقياس . . . ففعلوا
ذلك فكان فيه البركة . . . ووفى النيل بعد ذلك « ج ٧ ص ٧٤ » .

٢١ - انشقاق بين العلماء بسبب ابن الفارض : في عام ٨٧٥ هـ وقعت فتنة
مروعة بين علماء الشرع ونهائهم بسبب ابن الفارض الشاعر المتصوف المشهور
وذلك لاختلافهم في فهم بعض الآيات الشعرية من قصيدته الثانية . وكثرت
بينهم المحاجة والمناظرة ، ففهم من أخذه بظاهر قوله ، ونسبه إلى الحلول والاتحاد
وحكم بنفسه وكفره ، وعلى رأس هذا الفريق ، برهان الدين البقاعي ، وقاضى
القضاة محب الدين بن الشحنة ، وولده عبد البر ، ونور الدين المحلى ، وقاضى القضاة
عز الدين المحلى ، فتبعهم جماعة كبيرة من العلماء .

ومنهم من لم يأخذ بظاهر القول ، وتناول كلام الشيخ ، ولم ينسبه إلى فسق أو
كفر أو حلول أو اتحاد ، بل حكم بإيمانه الثابت الراسخ . وعلى رأس هذا الفريق :
الشيخ يحيى الدين الكافيجى الحنفى ، والشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفى ، والشيخ بدر
الدين بن الغرس ، ونجم الدين يحيى بن حجي ، وجلال الدين السيوطى ، وزكريا
الأنصارى ، وتاج الدين بن شرف .

وكثر القول والتبيل بين الفريقين ، وزاد التراشق بينهما ، وكل يعزى منهجه وسيله .
فلما زاد بينهما الأمر كتبت مقالات عدة وفتاوى كثيرة ، فيها مقالة للكافيجى . ومنها
كتاب للجلال السيوطى سماه « وقع المعارض في الرد عن ابن الفارض » . ومنها كتاب
البدر بن الغرس . وهو واضح شافى في الرد على من طعن على ابن الفارض .
وصنف أحدهم كتاباً سماه « درياق الأفاعى في الرد على البقاعى » ،

واشترك في المشاحنة بعض شعراء العصر من يحيى ابن الفارض ، ونظمو

الآيات فمن طعنوا عليه بهجونهم بها ، ويلصقونها أحيانا بجزائه . ومن هؤلاء الشعراء الشهاب المنصوري حيث يقول هاجيا البقاعي مع التورية .

أن البقاعي بما قد قاله مطالب
لا تحسبوه سالماً فقلبه يعاقب

ونظم كذلك قصيدة طويلة ضمنها كثيراً من آيات قصيدة لابن الفارض منها:

بين البقاعي وبين التاج من شرف ما بين معترك الاحداق والمهج
يقول من صح فيه سهم صاحبه أنا القليل بلا إثم ولا حرج
كلاهما مدح خوضاً بفكرته .. في كل معنى لطيف رائق بهج
ولبعضهم بهجو ابن الشحنة :

أصبحت يا ابن الشحنة الحنفي في كل القبائح أوحده الأزمان
في مصر علم أبي حنيفة تدعى جهلاً وأنت معرفة النعمان

هذا ولما طال الأمر وزاد الخطب وتفاقم الجدل ، وبلغ الأمر مسامع السلطان قايتباي ، تعصب لابن الفارض رسم لكتاب السر ابن مزهر أن يكتب سؤالاً في الموضوع يوجهه إلى الشيخ زكريا الأنصاري الشافعي فكتب ما صيغته .

« ما يقول الشيخ الإمام العالم العلامة البحر الفهامة زكريا الأنصاري الشافعي ، نفع الله المسلمين به - عن قال بكفر سيدنا ومولانا الشيخ العارف بأقنه سيدي عمر بن الفارض نعمده الله تعالى برحمته ورضوانه ، فيمن زعم أن عقيدته فاسدة بناء على ما فهمه من كلامه في مواضع مرجعها إلى إطلاقات معلومة عند السادة الصوفية باصطلاح مخاطبهم ، لا يحذور فيها شرعاً ، فهل يحمل كلاماً هذا العارف على اصطلاح أهل طريقته ، أم على اصطلاح أهل ملة خير الإسلام ، فما الجواب عن ذلك ؟ أفتونا مأجورين » .

فأجاب الشيخ زكريا على هذا الاستفتاء بعد تمنع شديد ونص إجابته ما يلي :
« يحمل كلام هذا العارف - رحمة الله عليه ونفع ببركاته - على اصطلاح أهل

طريقته ، بل هو ظاهر فيه عندهم ، إذا لفظ المصطلح عليه حقيقة في معناه الاصطلاحي مجازي في غيره كما هو مقرر في محله . ولا ينظر إلى ما يورمه تعبيره في آيات في الثانية من القول بالحلول والاتحاد ، فإنه ليس من ذلك في شيء بقرينتي حاله ومقاله المنظوم في تأنيته بقوله من آيات في القصيدة .

ولي من أتم الرؤيتين إشارة تنزه عن رأى الحلول عقيدتي

وهذا يصدر عن العارف بالله إذا استغرق في بحر التوحيد والعرفان بحيث تضمحل ذاته في ذاته ، وصفاته في صفاته ، ويغيب عن كل ما سواه ، بعبارات تشعر بالحلول والاتحاد لقصور العبارة عن بيان حالته التي يرقى إليها كما قاله جماعة من علماء الكلام رضى الله عنهم ، ولكن ينبغي كتم تلك العبارات عن لم يدركها ، فما كل قلب يصلح للسر ، ولأكل صدف ينطبق على الدر ، ولكل قوم مقال ، وما كل ما يعلم يقال . وحق لمن لم يدركها عدم الطعن فيها . كما قيل .

وإذا كنت بالمدارك غرا ثم أبصرت حاذقا لا تمارى
وإذا لم تر الحلال فسلم لأناس رأوه بالآبصار
ولو ذاق المنكر ما ذاق هذا العارف لما أنكر عليه . كما قال القائل :
ولو يذوق عاذلي صبايتي صبا مى لكنه ما ذاقها

والحالة هذه . والله يمنح بفضلته من يشاء بعدله . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . وكتبه زكريا بن محمد الأنصارى الشافعى .

وقد كانت هذه الفتوى سببا في ركود ربح الخلاف وسكون الفتنة بين المتراشقين « ج ٢ ص ١١٩ إلى ١٢١ » .

٢٢ - كتاب الفصوص لابن عربي : في جمادى الآخرة عام ٨٨٧ هـ توفي المدعو يحيى بن حمى ، وأحيلت تركته على « شمس الدين الحلبي » ، لحصرها ، فرأى بين كتيبه كتاب « الفصوص » لابن عربي . فقال : هذا الكتاب ينبغي أن يحرق وأن ابن عربي كان كافرا أشد من كفر اليهود والنصارى وعبدة الأوثان . فقال له

بعض الحاضرين : كيف تحرق كتاب الفصوص وفيه آيات من كتاب الله تعالى؟ فقال : ولو كان اتمسكوا عليه بذلك ، وأرادوا تكفيره ، فيادر وترأى على كاتب السر ابن مزهر . فعاونته حتى آل أمره إلى الاكتفاء بتعزيه وكشف رأسه . ثم حكموا بإسلامه وحققوا دمه . (ج ٧ ص ٢١٩)

٢٣ - السلطان قايتباي يقبل رجل الدشطوطى : فى شهر المحرم عام ٨٩٤ هـ وقعت للسلطان قايتباي نادرة غريبة ، وهى أن عبد القادر بن الرماح أحد أخصائه العقلاء . قال له : « إن الشيخ عبد القادر الدشطوطى من عباد الله الصالحين » . فرغب السلطان فى لقائه للتبرك به ، فأخبره ابن الرماح أن الشيخ المذكور يفد أحياناً إلى جامع فى مكان عند القراقة تحت جبل المقطم . فطلب إليه السلطان أن يراقبه حتى إذا حضر يعلمه لينذهب إلى لقائه هناك ، فعمد عبد القادر بن الرماح إلى شخص كان شبيهاً بالشيخ عبد القادر الدشطوطى ، واتفق وإياه على ملاقة السلطان . ثم ذهب ابن الرماح إلى قايتباي وأخبره أن الدشطوطى سيكون الليلة بالمكان الذى يفد إليه وأخبره عنه .

فلما كانت العشاء صلى السلطان ونزل ومعه ثلاثة من رجاله وأتى إلى المكان المعين ، ونزل عن فرسه ، فوجد ذلك الشخص جالساً ورأسه فى قبضه . فشرع السلطان يقبل وجليه ويقول : يا سيدى ! احمل حملتى مع ابن عثمان - وكان بينه وبين العثمانيين نزاع - فصار ذلك الشخص يقرب عليه ، ويقول : « أنت لا ترجع عن ظلم العباد » . فطال المجلس بينهما ، ثم دفع السلطان إليه كيساً فيه ألف دينار - وقيل خمسمائة - فتمنع الشيخ عن قبولها والسلطان يتلطف به ويقول له : فرق ذلك على الفقراء . ثم ركب فرسه وانصرف من لدنه معتقداً أنه الدشطوطى .

ثم نعى إلى السلطان بعد حين سر المسألة وانكشفت له حقيقتها وأطلع به بعضهم على جليتها . فاستدعى ابن الرماح والشخص المزيف والخدم المقيمين بتلك الجهة وأمر بهم فضربوا بالمقارع بين يديه . ووسم بحلق ذقن ابن الرماح ، وتشهيره بالقاهرة على حمارة . ثم سجنه بالمقشرة إلى أن مات . . . (ج ٢ ص ٢٥٦)

٢٤ - عبد الصليب يذم النبي : في رمضان عام ٩١٨ هـ ضبط نصراني يقال له « عبد الصليب » من نواحي دجلة بالوجه القبلي ، وهو يتحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، حديثاً فاحشاً ، وشهد عليه بذلك جماعة ، وكتبوا له محضراً ، وثبت لدى قاضي الناحية . فاشخص النصراني إلى السلطان الغوري ، فاعترف لديه بما قال . فعرض عليه الإسلام فأبى ، فبعثه السلطان إلى بيت الأمير طومان باي الدردار ، فبعد له فيه مجلس بين يدي القضاة ، فاعترف فيه أيضاً بما قال ، وصمم عليه ، وباع نفسه على ألا يرتد عن دينه . فحكم القضاة بسفك دمه ، ثم أركبوه جملاً وسروه على خشب ، وأشهبوه في القاهرة . ثم ضربوا عنقه تحت شباك المدرسة الصالحية . ثم إن العوام أحرقوا جثته بالحطب وسط السوق وتركوه . فلما جن الليل نهش الكلاب لحمه وعظمه ، ومضى كأن لم يكن . « ج » ،

٢٥ - النحال ينظم الشعر : ولد إبراهيم بن خلف النحال ببليس قبل عام ٧٨٠ هـ بقليل . وكان يحفظ القرآن الكريم ، ثم نسيه . . وكان لا يعرف النظم وكان يحمل النحو . . ثم وفد عليه واعظ يقال له « الطنبدي » فتكلم في تفسير قوله تعالى : « ألسنت بربكم قالوا بلى » ، والناس يسمعون . وقال : إن الله لما استخرج ذرية آدم من ظهره في صورة الذر وقال لهم « ألسنت بربكم » ، انقسموا فريقين : فريقاً قال : بلى ، وفريقاً سكت . ثم انقسم كل منهما قسمين فن قال « بلى » أحدهما ظل على إجابته ، والثاني قال : ليتنا سكتنا . ومن سكت : أحدهما ظل على سكوته ، والثاني قال : « ليتنا أجبنّا » . ولهذا انقسم الناس أربع فرق : مؤمن يموت مؤمناً . ومؤمن يموت كافراً . وكافر يموت كافراً . وكافر يموت مؤمناً . ثم قال :

حكى أن عابداً عبد الله مائة سنة ثم حضرته الوفاة ، فاستدار نحو المشرق - أي على عادة النصارى - فاستعظم غلامه ذلك ، وقال إن نفسه ملكها

الإعجاب نفذت ، فمات على غير التوحيد ، فطار قلب الخادم خوفا . وأكثر من النحيب ، فبينما هو كذلك إذ طرق الباب فخرج ، فإذا راهب ، فقال : ما شأنك ؟ قال : « إن راهبا منا مات فوجهناه إلى الشرق فتوجه إلى القبلة ومات مسلما ، فجئت إليك لتسأل لى شيخك ، ماذا نصنع به ؟ فقال ، إن شيخى قد مات إلى الشرق كافرا ، فهاث ميثنا وخذ ميتكم . . . » فدفن الراهب بالزاوية ، وقلوا الشيخ إلى مقبرة الرهبان

قال النحال : فلما سمعت هذه الحكاية حصل منها ما أزعج نفسى وأطار عقلي وأدهش فكري وأطال غمى وأدام همى ، بحيث بقيت أياما لا أنام أصلا ، ولا آكل إلا كايأكل العليل وكانت هذه الحادثة سبب جريان الشعر على لسانه بسهولة ، بغير معرفة للنحو « الضوء اللامع ج ١ ص ٤٧ »

اتهى والحمد لله

الحمد لله

تم القسم الثاني من الجزء الأول من كتاب
« عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي »

وقد تمت طبعته الأولى في يوليو عام ١٩٤٧ م

وتمت طبعته الثانية في يونيو عام ١٩٦٥ م

ويليه المجلد الثالث : وهو القسم الأول من الجزء الثاني - الذي يؤرخ الحركة

العلمية وأوله : « مدينة بغداد ومركزها العلمي والأدبي »

فهرس موضوعات المجلد الثاني

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
المتوكل على الله الثالث	٤٣	مراجع الكتاب	٣
القضاء	٤٦	مقدمة الطبعة الثانية	٥
السلطان وجولسه للقضاء	٤٨	مقدمة الطبعة الأولى	٧
حاجب الحجاب	٥١	الخلافة العباسية الثانية	٩
القضاء الشرعى	٥٥	الخلفاء العباسيون فى مصر :	٢٢
تعدد القضاة	٥٩	المستنصر بالله	٢٢
محاسن التعدد ومساوئه	٦٤	الحاكم بأمر الله الأول	٢٣
شعور الشافعية نحو تعدد القضاة	٦٦	المستكنى بالله الأول	٢٥
تعيين القضاة وعزلهم	٦٨	الوائق بالله الأول	٢٦
أعوان القضاة ونوابهم	٧٣	الحاكم بأمر الله الثانى	٢٧
أجورهم	٧٦	المعتضد بالله الأول	٢٨
جلوس القضاة للقضاء	٧٩	المتوكل على الله الأول	٢٩
القضاة :	٨٠	المستنصر بالله	٣٢
عماد الدين الخوى	٨٠	الوائق بالله الثانى	٣٣
عز الدين بن عبد السلام	٨٠	المستنصر بالله	٣٣
بدر الدين السنجارى	٨١	المعتضد بالله الثانى	٣٥
تاج الدين بن بنت الأعر	٨٣	المستكنى بالله الثانى	٣٦
محيى الدين عبدالله بن عين الدولة	٨٧	القائم بأمر الله	٣٧
تقى الدين بن رزىن الخوى	٨٧	المستنجد بالله	٣٨
صدر الدين بن بنت الأعر	٨٨	المتوكل على الله الثانى	٣٩
وجيه الدين الهنسى	٨٨	المستمسك بالله	٤١

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
شمس الدين الأمشاطي	١٠٩	برهان الدين السنجاري	٨٩
شرف الدين موسى بن	١٠٩	شهاب الدين محمد الخوي	٩٠
محب الدين بن الشحنة	١١٠	تقي الدين بن بنت الأعز	٩١
ولي الدين الأسيوطي	١١٢	تقي الدين بن دقيق العيد	٩٤
شمس الدين الغزي بن اله	١١٢	القشيري	
سراج الدين بن حرير	١١٣	بدر الدين بن جماعة	٩٦
محيي الدين بن تقي	١١٣	جلال الدين القزويني	٩٩
برهان الدين المغربي	١١٣	ناصر الدين بن الملق	١٠٠
بدر الدين السعدي	١١٤	بدر الدين السبكي	١٠٠
ناصر الدين الإخميمي	١١٥	موفق الدين الحنبلي	١٠٠
عبد الغني بن تقي	١١٥	صدر الدين المناوي	١٠١
شهاب الدين أحمد بن فرا	١١٥	ولي الدين بن خلدون	١٠١
برهان الدين الدميري	١١٦	تقي الدين القرشي	١٠١
بدر الدين المكيني	١١٧	صدر الدين بن العديم	١٠٢
شهاب الدين أحمد الشيشي	١١٧	جلال الدين البلقيني	
سري الدين بن الشحنة	١١٨	مجد الدين أبو البركات الحنبلي	
محيي الدين بن النقيب	١٢١	زين الدين التفهني	
برهان الدين بن السكر	١٢٣	شهاب الدين بن حجر العسقلاني	
عز الدين الشيشيني	١٢٥	سعد الدين الديري	
علاء الدين الإخميمي	١٢٥	علم الدين البلقيني	
جمال الدين الفلفشندي	١٢٦	شرف الدين يحيى المناوي	
برهان الدين بن أبي شرف	١٢٦	حسن الدين بن حرير	
حسن الدين بن الشحنة	١٢٦	عز الدين أحمد الحنبلي	
جلال الدين بن قاسم	١٢٧	برهان الدين الديري	

المصنف	الموضوع	المصنف	الموضوع
١٢٧	زين الدين زكريا الانصارى	٢٥٨	٢ - دفع الفرنجة عن تلك مصر ودوائر نفوذها
١٢٩	شمس الدين السمديسى	٢٦١	٣ - المحافظة على استقار البلاد وبسط نفوذها
١٢٩	محيى الدين بن الدميرى	٢٦٣	٤ - رصد الأوقاف الأموال وصنع البر
١٣١	كمال الدين محمد الطويل	٢٦٧	٥ - تشجيع حركة العلوم والآداب
١٣٣	شهاب الدين الفتوحى	٢٦٧	سنياته
١٣٤	محيى البردينى	٢٦٧	١ - احتقار الشعب حقوقه السياسية
١٣٤	قضاة آخرون	٢٦٩	التعليم
١٣٩	المحمل والحج	٢٧١	الجيش
١٤٨	أخبار ركبى الحج وأمراتها وما يتصل بذلك	٢٧٤	ملكية الأرض
١٨٠	فيضان النيل والاهتمام به	٢٧٨	الوظائف العامة
١٨٨	أخبار فيضان النيل وما يتصل به	٢٧٩	التقاضى
٢٠٩	السفارة	٢٨٠	٢ - فداحة الضرائب أنواعها
٢١٠	من سفراء مصر إلى غيرها من الدول	٢٩٠	٣ - الجور والعسف : الإعدام والتعذيب
٢١٨	من سفراء الدول إلى مصر	٢٩٦	السجون الشهيرة
٢٣٩	الهدايا	٣٠٠	٤ - كثرة الفن الد
٢٤٧	حسنات هذا العصر ومساوئه	٣٠٤	ثورات العربان
٢٤٧	حسناته		
٢٤٧	١ - دفع التتار عن اقتحام الأراضي المصرية		
٢٤٩	حروب التتار في الممتلكات المصرية ومقاومة سلاطينها لهم		

الموضوع	الصفحة	الموضوع
عصائب النساء	٣٥٦	-- الزلازل والطمسواعين
خلع أبواب الإسكندرية عند	٣٥٦	القطر والغلاء
مقدم السلطان		العادات والتقاليد
عمائم النصارى واليهود	٣٥٧	عجلة تولية السلطان
الأمر البارزة	٣٥٧	مقاربات الاستقبال
الآثار النبوية والمصحف العثماني	٣٦٠	سجدة بجزيرة السلطان
اللباس	٣٦٠	العمرة أو عودته إليها
كبار الأضياف	٣٦٠	رحيل بقاء السلطان من مرضه
الطابق الخامس	٣٦١	انهم في شهر رمضان
تعلم الحيوانات	٣٦١	حشمال بعيد الفطر وعيد
الأولياء والصالحون	٣٦٢	مضى
قصص هذا العصر ونوادره	٣٦٣	أح وحفلاته
نادرة عن الشيخ تاج الدين	٣٦٣	زيت الختان
الفاكهة والشاطر الذهري		زيت وما يتعلق بها
رويا الشيخ فرج الصفدى	٣٦٤	الماء الد والمواسم
الخاصة بالأمرد		كسر الخليج
زهد بن أبى تمام الصالحى	٣٦٤	الحمل
من توضحاً بالبن	٣٦٤	مات الأخرى ولبات
الشيخ سنطباى المتصوف	٣٦٤	والغنون والمغنيات
المزيف		ملاحظات عامة
حادث حريق في مولد الشيخ	٣٦٥	شعر
سويدان		برقوق بلعب الرمح
قاذف سيدنا إبراهيم	٣٦٥	الشمس
خديجة السكلمانية	٣٦٥	يشمن الفرس

الموضوع	الصفحة	الموضوع
نبوءة فلاوون بعصيان قفجق	٣٧٠	جملان يحدثنان حريقا
خبيبة ابن مفلح	٣٧١	رؤيا بواب جامع الحاكم
الشيخ أسد الدين المزيق	٣٧٢	جمال الدين الزغلي صاحب دار
الاستسقاء ببني العباس	٣٧٢	الضرب
انشقاق العلماء بسبب ابن القارض	٣٧٣	علقة ترى النبي في منامها
كتاب الفصوص لابن عربي	٣٧٥	ملك برفس النيل برجله
السلطان يقبل رجل الدشوطي	٣٧٦	رؤيا تضطر السلطان إلى
عبد الصليب يذم النبي	٣٧٧	الحذل
النحال ينظم الشعر	٣٧٧	سيد العظيم يكبر عمامته
أ هـ		حادثة زنى يتهم فيها أحد نواب
		الحكم ويعزل بسببها القضاة

* * *

فهرس أعلام المجلد الثاني

ابن أبي كامل : ٦١
 ابن الأحبب : ٣٠٦
 ابن بيج : ٣١٢
 ابن بيسار : ٣١٢
 ابن تقي المالكي : ٢٨٧
 ابن حجر السقلاوي و شهاب الدين :
 ٢٨ ، ٣٤ ، ٧٣ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
 ١٠٦ ، ١٣١
 ابن حمادة : ٣١٥
 ابن درغل التركاني : ٢٣١
 ابن رهاب المغني : في علم
 ابن الرقة : ٨٠
 ابن رمضان التركاني : ٢٣٠
 ابن السعولوس و الوزير : ٧٠ ، ٩٢ ،
 ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٧
 ابن سوار التركاني ملك : الألبستين ٢٣٤
 ٢٣٥ ، ٢٣٧
 ابن عربي : ٢٧٥
 ابن القراوح المغني : ٢٥٣
 ابن اليسوي المغني : ٢٥٢
 ابن مفلح تقي الدين : ١١٤ ، ٢٥٦
 ابن ميسر : ٦١
 ابن نياطة المصري : ٣٥٨
 أبو أحمد بن الأفضل : ٦١
 أبو البقا بن الجيعان : ١٦٠ ، ٢١٣ ، ٢٥٩
 أبو بكر بن الشحنة : ١٢٧
 أبو بكر بن بزرهر : ٢٢٩ ، ٢٩٨ ،
 ٣٤٠ ، ٣٥٩

(١)
 آل ملك و نائب السلطنة : ٢٩٩
 آمنة بنت المستكفي : ٤١
 آفص باي : ١٦٩ ، ١٨٠
 إبراهيم بن أبي شريف و برهان الدين :
 ١١٦ ، ١٢٦
 إبراهيم بن بابي : ٣٥٣
 إبراهيم بن الجندى المغني : ١٥٨ ، ٢٤٩ ،
 ٣٥٠
 إبراهيم بن خلف النحال : ٣٧٧
 إبراهيم بن عبد الرحمن و برهان الدين
 ابن الكركي : ١١٩ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،
 ١٢٥ ، ١٦٠
 إبراهيم بن علاء الدين و جمال الدين
 الفاضلندي : ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٣١
 إبراهيم بن محمد و برهان الدين الديري :
 ١٠٨ ، ١٠٩ ، ٣٥٨
 إبراهيم بن محمد و برهان الدين المغربي :
 ١١٢
 إبراهيم الحواري : ٣١٠
 إبراهيم و الواثق بالله العباسي الاول :
 ١٦ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨
 أيضا ملك التتار : ٢٥٩
 ابن أبي حجلة المغربي و شهاب الدين :
 ٢٤١
 ابن أبي الرداد : ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٩١ ،
 ٢٠٢ إلى ٢٠٧

أحمد بن شكر : ٣١٤
 أحمد بن طولون : ١٨٣
 أحمد بن عبد الحائق : ولى الدين
 الأسيوطى : ١١٢ ، ١١٤ ، ١٢٨
 أحمد بن عبد العزيز وشهاب الدين
 الفتوحى :
 أحمد بن عمر الهوارى : ٣٠٩
 أحمد بن العيني وشهاب الدين : ١٠٨ ،
 ١١٢ ، ١٥٤ ، ٣٤٠ ، ٣٤١
 أحمد بن فرفور وشهاب الدين : ٧٠ ،
 ١١٥ ، ١١٦ ، ١٣٦
 أحمد بن المؤيد شيخ والمظفر : ٣٥ ،
 ٣٦ ، ١٣٦ ، ٣٠٣
 أحمد بن محمد بن محمد بن الموحدين : ٢٤١
 أحمد بن مهنا : ٣١٢
 أحمد بن وجيه : ١٥٧
 أحمد الحاكم بأمر الله العباسى الأول :
 ١٤ ، ١٦ ، ٢٠٣ ، ٢٠١
 أحمد الحاكم بأمر الله العباسى الثانى :
 ٢٧
 أحمد والمستنصر بالله العباسى الأول :
 ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٢ ،
 ٢٣ ، ٢٤ ، ٨٤ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢
 أرومك الناشف : ١٧٨ ، ٢٩٢
 أركاس : ٢٣١
 أزيك بن ططخ : ١٥٨ ،
 ١٦٠ ، ١٦٦ ، ١٧٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧
 ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢١٢ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ،
 ٣٢٧ ، ٣٢٨
 أزيك خان : ٢٢٧

أبو بكر بن الليث : ١٦٣
 أبو حامد الأنطاكي : ١٨١
 أبو حيان النحوى : ٢٥٨
 أبو الخير المرافع : ٢٨٨
 أبو الخير المغنى : ٣٥١
 أبو زرعة : محمد بن عثمان : ٦٧
 أبو السعادات البلقينى : ١١٢
 أبو السهود بن الأمين الأقصرائى : ١٥٨
 أبو السهود الجارحى : ١٨
 أبو عبد الله بن الأحمر : ٢٢٤
 أبو عمر بن أبي محمد الصنهاجى : ١٢
 أبو الفضل بن الأزرقي : ٦١
 أبو الفوز الواعظ : ١٥٨ ، ٢٥٠
 أبو محمد عبد المولى بن الليث : ٦١
 أبو نعيم : أمير مكة : ١٤٩
 أجود بن مسقار : ٣١٤
 أحمد أبو سنة : ٣٥٢
 أحمد بن إبراهيم وشهاب الدين الخنيلى :
 ٥٥ ، ١٠٨ ، ١١٤ ، ١١٧ ، ١٢٥
 ٢٨٧
 أحمد بن أحمد موفق الدين الخنيلى :
 ٢٤١ ، ٢٢٠ ، ٢١٩ ، ٢٢٠
 ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦١
 أحمد بن إسماعيل المؤيد : ٢٧ ، ٢٨
 ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٩٤ ، ٢٠٧ ، ٢٣٧
 ٢٤٩
 أحمد بن بقر : ٢٣٢ ، ٣١٥
 أحمد بن قاتى بك البرديكى : ١٥٦
 أحمد بن الجلال : ١٦٢
 أحمد بن سعيد بن السوسى : ٦٩

أصطغر بن ولى الدين : ١٦٨ ، ١٦٦
 أصلان صاحب الأبلستين : ٢٤٣
 أصيل القطمية : ٣٥٣
 أطلش التتري : ٢٥٤ ، ٢٢٠
 أقبای الطويل : ٢١٦
 أقبای الكاشف : ٣١٢
 أقبردى بن أصبای : ١٥٦ ، ١٥٥
 أقبردى الأشقر الأشرفي : ١٥٩
 أقبردى الدوادار : ١٦٤ ، ١٧٠ ، ١٩٨
 ١٩٩ ، ٢١٣ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩ ، ٣١٠
 ٣٤٩ ، ٣٤١
 أقطوه الكاشف : ٣١٢
 أمير حاج « الملك » : ١٣٥ ، ٣٠٢
 الأمين بن زبيدة : ٤١
 أمين الدين الأقصراني : ٣٩ ، ١١٨
 ١٠٨ ، ١٨٨ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٧٩
 ٢٨٦
 أمين الدين الطرابلسي : ١٠٤ ، ١٣٥
 أنصبای : ٣٣١
 أنعام المغنية : ٣٥٢
 الأوزاعي : ٦٧
 إيتش الجاسي : ٢٩٥
 إيدكن « علاء الدين البندقدار » :
 ١١ ، ١٤٩
 إيدمر « عز الدين الحل » : ٤٨ ،
 ٦٥ ، ٨٦
 إينال باي دوادار سكين : ٢١٦
 إينال حطب : ٢٥٥
 إينال الحكيم : ٢٢٣
 إينال العلاقي « الملك الأشرف » :

أزبك السيفي : ١٩٧
 أزبك المكمل : ١٦٧
 أزبك اليوسفي : ١٥٨ ، ١٦٢
 أزدمر الأشقر : ١٦٢
 أزدمر تمساح : ١٦٢ إلى ١٦٥ ، ١٩٨
 أزدمر الدوادار : ٢٢٥ ، ٣١٣
 أزدمر الطويل : ٣٠٨
 أزدمر المرطبي : ١٦٣
 أزدمر المهندار : ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠
 ٢٣٢ ، ٢٣٥
 أسامة بن زيد التنوخي : ١٨٣
 أسد الدين المزيف : ٣٧٢
 إسماعيل بن حيدر الصوفي : ٢١٥ ،
 ٢١٨ ، ٢٢٦ إلى ٢٣٣ ، ٢٤٥
 إسماعيل بن لؤلؤ « الصالح » :
 إسماعيل الإنبائي « الشيخ » : ٣٤٤
 إسماعيل « المؤيد صاحب حمة » : ١٤٤ ،
 ١٤٥ ، ١٥٠
 أسنای الخاسكي : ١٦٠ ، ١٦١
 الأشرف إينال : في إينال
 الأشرف برسباي : في ب
 الأشرف جان بلاط : في ج
 الأشرف خليل : في خ
 الأشرف شعبان : في شعبان
 الأشرف طومان باي : في ط
 الأشرف فرج : في ف
 الأشرف قابقبای : في ق
 الأشرف قانصوه الغوري : في ق
 الأشرف محمد بن الفضل : ٢٤٢

برسيای « الملك الأشرف » : ٣٦ ،
 ١٠٤ ، ١٥٥ ، ٢٠٣ ، ٢٢٠ ،
 ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ،
 ٢٤٩ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٣٨ ،
 برسيای الأشرف « استادار الصحبة » :
 ٢١٠ ، ٢١١ ،
 برسيای امير آخور : ٢١٠ ، ٢٢١ ،
 برسيای الشرقي : ١٥٦ ،
 برسيای العلاني : ١٦٣ ،
 برسيای الفيل : ١٧٨ ،
 برسيای قرا : ١١٢ ،
 برسيای كشف الوجه القبلي : ٣٩ ،
 برسيای اليوسفي : ١٦٣ ،
 برقوقي « الملك الظاهر » : ١٧ ، ٣٠ ،
 ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٠ ، ١٠١ ،
 ١١٠ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٦ ،
 ١٥١ ، ١٥٦ ، ١٨٥ ، ١٩١ ،
 ١٩٢ ، ٢٠٣ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ،
 ٢٠٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٥٣ ،
 ٢٥٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٧٧ ،
 ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ،
 ٢٩٨ ، ٣٠٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٨ ،
 ٣٥٥ ، ٣٦١ ،
 برکات بن موسى « الزينى المختب » :
 ٢٢٩ ، ٣٥٢ ،
 برکات شريف مكة : ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٧ ،
 برهان الدين بن أبي شريف : في ابراهيم
 برهان الدين بن جماعة : ١٣٤ ، ٣٥٩ ،
 برهان الدين البقاعي : ١١١ ،
 برهان الدين الدميرى : ١١٦ ، ١١٧ ،

٣٧ ، ٣٨ ، ٧١ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،
 ١٠٧ ، ١١٠ ، ١٣٧ ، ١٤٣ ، ١٥٢ ،
 ١٥٣ ، ٢١٠ ، ٢٢١ ، ٢٤٣ ،
 ٢٥٩ ، ٣٢٠ ،
 إبنال الفقيه : ١٦٤ ، ١٦٥ ،
 إيليك البدرى : ١٦ ، ٢٩ ، ٣٢ ،
 (ب)
 بابندر « نائب حسن الطويل » : ٢٢٤ ،
 بايزيد الاول « ملك العثمانيين » :
 ٣٢ ، ٢١٢ ، ٢٢٠ ،
 بايزيد الثاني « ملك العثمانيين » : ٣٣٠ ،
 بدر بن سلام : ٣٠٦ ،
 بدر الدين بن جماعة : في محمد بن ابراهيم
 بدر الدين بن القرس : ٣٧٣ ،
 بدر الدين البغدادي : ١٣٧ ،
 بدر الدين التونسي : ١٣٦ ، ١٣٧ ،
 بدر الدين حسن النابلسي : ٣٦٣ ، ٣٦٤ ،
 بدر الدين الديري : ٣٥٨ ،
 بدر الدين الزيتوني : ٣٢١ ،
 بدر الدين السبكي : ١٠٠ ،
 بدر الدين السعدي : في محمد
 بدر الدين السنجاري : في يوسف
 بدر الدين العيني : في محمود
 بدر الدين محمد أبو السعادات : ١٣٨ ،
 بدر الدين المسكينى : ١٢٢ ، ١٢٣ ،
 بدرية بنت جريفة : ٣٥٢ ،
 برايه : ٣٥١ ، ٣٥٣ ،
 برد بك البقمقدارى : ١٥٣ ،
 برد بك نائب حمدة : ١٦٦ ،
 برد بك هجين : ٣٠٧ ،

٧٣ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ ،
٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ،
١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٨ ، ٢٤٠ ، ٢٥٠ ،
٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٧٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٨ ،
٣٤٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦٠

بيرس المنصوري الدوادار : ٣٠٥
بيرس ، الملك المظفر : ١٨٩ ،
٢٥١ ، ٢٧٦
بيدرا ، الأمير بدر الدين :
٩٢ ، ٩٣ ، ٩٣ ، ٣٠٢

بيسرى : ٢٥٠
بيغوا ، سيف الدين : ٥٣

(ب)

تاج الدين بن بنت الأعر : في
عيد الوهاب :

تاج الدين بن شرف : ٣٧٣
تاج الدين البقيني : ١٠٣
تاج الدين الديري : ١٠٥
تاج الدين السبكي : ٥٨ ، ٦٣ ، ٧٣ ،

٧٩ ، ٣٥٩
تاج الدين الفاكهاني : ٣٦٣
تاج الدين المقدسي : ٣٦٤
ثاني بك الأيخ : ١٦٥ ، ١٧
ثاني بك الجرهمي : ١٥٢
ثاني بك الجبالي : ١٥٨ ، ١٥٩ ،
١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٨

ثاني بك قرا : ١٦٦
ثاني بك المعلم : ١٥٥
تغري بردى بن ططر : ١٦١
تغري بردى الأستاذان : ١١٢ ، ٣٤١

برهان الدين الديري : ٦٩ ، ٣٥٨
برهان الدين السنجاري : في الخضر
برهان الدين المستلاني : ١٣٥

برهان الدين القلقشندي : ١٢٢ ، ١٢٣
برهان الدين الكركي : في إبراهيم
برهان الدين اللقاني : ١٣٨
برهان الدين المحلل التاجر الكارمي : ٢٤٢
برهان الدين المغربي : في إبراهيم

بشر الطراشي : ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٦
بضاع بن دلفادر : ٣٦١
بكار بن قتيبة : ١٨٤
بك باي : ١٧٤

بكتاش الفخري ، بدر الدين : ٩٣
بكتمر الساق : ٢٩٧
بلباي المؤيدي : ٣٨ ، ٣٠٧
البوالة : ٣٥٢

بهاء الدين بن حنا : ١١ ، ٨٩ ، ٣٦٠
بهاء الدين بن قدامة ، عبد الرحمن :
١٣٨

بهاء الدين البارزي : ٣٥٨
بهاء الدين السبكي : ١٣٤ ، ٣٥٩
بهادر الجبالي : ١٥٢
بهرام : ٢٤٢

بيبردي بن كسباي : ١٧٨
بيبرس بن أحمد بن بقر : ٣١٢
بيبرس الأشرفي : ١٥٣

بيبرس ، الملك الظاهر : ١٠ ، إلى
١٦ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ،
٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٦ ، ٥٧ ،
٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨

(ج)

الجازاني : ١١٩ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ٣١١
 الجام بن عثمان : ١٦٢ ، ٣٦١
 جان يردى تاجر الماليك : ١٧١
 جان بلاط بن يسبك ، الأشرف :
 ٤١ ، ١١٥ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ١٦٧
 ٢١٣ ، ٣٢٨
 جان بلاط ، الأشرف : ١٦٤
 جان بلاط ، الخاصكي : ١٦٣
 جان بلاط الموتور : ١١٦ ، ١٦٧
 جاتم الوردكش : ١٦٥
 جاتم الخاصكي : ٢١٧
 جاني بك الأنقر : ١٥٦ ، ١٥٧ ،
 ١٥٨
 جاني بك حبيب العلاقي : ٢١١ ،
 ٢١٢ ، ٢١٣
 جاني بك الحسن : ١٥٧ ، ١٥٨
 جاني بك الطريف : ١٥٣
 جاني بك الفقيه : ١٥٩
 جاني بك نائب جدة : ٢٩٥
 جاني بك اليحيوي : ٢٥٤
 جرجي ، سيف الدين : ٥٤
 جتقي ، الملك الظاهر : ٣٦ ، ٣٧
 ١٥٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٣٦
 ١٣٧ ، ١٥٨ ، ٢٣٦ ، ٣٢٠
 ٣٢٤ ، ٣٢٧
 جلال الدين بن قاسم : في عبد الرحمن
 جلال الدين البلقيني : في عبد الرحمن
 جلال الدين السيوطي : ٢٠ ، ٢٨ ،
 ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢

نقري بردى الترجان : ٢١٤ ، ٢٩٧
 نقري بردى نائب الشام : ٢١٤
 نقري يرمش : ٢٣٦
 نقي الدين بن بنت الأعر : في عبد الرحمن
 نقي الدين بن تيمية الحراشي : ٢٥٢
 نقي الدين بن الثقة الإسناني :
 ٣٥٣
 نقي الدين بن حجة الجوى : ٢٧٩
 ٣٥٨
 نقي الدين بن دقيق العيد القشيري :
 في محمد بن علي
 نقي الدين بن رزين : ٧٩ ، ٨٠
 نقي الدين بن محب الدين التيمي : ٢٩٤
 نقي الدين بن مفلح : في ابن مفلح
 نقي الدين الحصني : ١٢٨
 نقي الدين الزبيدي : ١٣٥
 نقي الدين السبكي : ٦٧ ، ٣٥٩
 نقي الدين شبيب الحراشي : ٧٨
 نقي الدين الشمني : ١١٨
 نقي الدين القرشي : في عبد الرحمن
 التلاشاعوني : ٦٧
 تمرار ، الأمير الكبير : ١٩٩
 تمر باي الهندى : ٢١٥ ، ٢٢٩
 تمر باي ، الملك : ٢٨ ، ١٠٧ ، ١١١
 تمر الحاجب : ٣٠٨
 تمر الحسنى الوردكش : ١٧٠ ، ١٧٥
 تم نائب الشام : ٢٤٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥
 تيمورلنك ، ملك التار :
 ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٣٥ ، ١٣٩ ، ٢١٩
 ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٤١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤
 ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٣٦١

جنكيز خان : ٥٣ ، ٥٢
الجويل : شيخ العرب : ٣١٤

(ح)

الحاكم بأمر الله أحمد الأول : ١٤ ،
٢٦ ، ٢٣ ، ١٥
الحاكم بأمر الله أحمد الثاني : ١٦ ،
٢٩ ، ٢٨ ، ٢٧
حامد المغربي : ٢١٦
حسام الدين بن بغداد : ١٧٥
حسام الدين بن حرير المالكي : ٧٠ ،
١٣٧ ، ١١٣ ، ١٠٧
حسام الدين بن الشحنة : في محمود
حسام الدين مظفره أستاذ الفارقات :
١٤٩

حسن بن أحمد الثاني : ٢٣٢
الحسن بن علي : ٤١
حسن الطويل : ١٥٧ ، ١٦٨ ، ٢١٠ ،
٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٤٥
حسين الكردى : ٢٣١
حسن بن ثعلب : ٣٠٥
حضر بن كروان : ٣١٥
حمزة الخليفة القائم بأمر الله : ٣٧ ،
٣٨

حميد بن عمر : ٣١٠

(خ)

خاتون ، أم الخليفة المستعين باقة
العباسي : ٣٣
خاير بك ابن لينال وكشف الغريبة :
١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤

١٤٠ ، ٧٦ ، ٧٣ ، ٦٩ ، ٦٦

جلال الدين القزويني : في محمد
جلال الدين السطري : ٣٥٢
جمال الدين بن غير السكندري :
١٠١ ، ١٢٤
جمال الدين أفض الباخل : ١٤٩
جمال الدين الأقصى : ١٣٦
جمال الدين إلبغدي : ٥٩ ، ٦٠ ،
٨٥

جمال الدين الزدعي : ١٢٤
جمال الدين الزغل : ٣٦٦
جمال الدين خضر أبو نوكبة : ١٤٩
جمال الدين السلوني : ٧٨ ، ١١٩ ،
١٢٠

جمال الدين عبد الله التركاني : في
عبد الله

جمال الدين عبد الله القابوني : ٢٢١
جمال الدين القلقشندي : في إبراهيم
جمال الدين محمود الأستاذ : ٢٤٨
جمال الدين محمود القصيري : ١٣٥

جمال الدين يحيى بن عبد المنعم : ١٢
جمال الدين يوسف المظلي : ١٣٥ ،
١٣٦

الجمال يوسف بن أبي الأصبع : ٢٩٧
الجمال يوسف بن برسباي : ١٩٣
الجمال يوسف الخليل : ١٣٨
الجمال يوسف فاخر الخاص : ١٠٧ ،
١٥٣ ، ١٥٤

جمجمة بن عثمان : ٢٤٠

جهان شاه : ٢٢١

خوند أصلياي دأم الناصر بن قايتباي :
١٧٢ ، ٢٧٣
خوند بركة : ٢٦٤
خوند جان كلدي د زوجة الظاهر
قانسوه : ١٧٣
خوند الخاصكية د زوجة المعادل
طومان باي : ٣٢٩ ، ٣٥٢
خوند زينب د زوجة الملك إينال :
١٥٣ ، ١٥٤
خوند فاطمة : ٣٤٨ ، ٣٥٠
خوند مصر باي المجرسية : ٣٣٨
خوند منقل بنت البارزي د زوجة
جقق : ٢٦٥

(د)

داود باشا دوزير العثمانيين : ٢٢٤
٢٢٥
داود دالخليفة المعتضد بالله العباسي :
١٩ ، ٣٥
دقاش المحمدي : ٢٥٤
دلوكة السجوز : ١٨٢
دولات باي د الأمير : ٣٠٤
دولات باي المجرسي : ١٥٢
دولات باي الحسي : ١٦٢
دولات باي حمام الاشرفي : ٢١٠
دولات باي قرموط : ١٦٧

(ر)

رستم د أمير الزكبي العراقي : ١٥٧
رستم بن حسن الطويل : ٢١٤
رستم بن قراملك : ٢٢٥
رسلان بصل : ٥٣

خاير بك الخازندار : ٣٦٦
خاير بك كاشف المحلة : ٣٦٤
خاير بك المعار : ٣١٢
خاير بك د ملك الاسراء : ١٣٠ ، ٤٣
٢١٤ ، ٢١٣
خاتون بنت خليل : ١٦٨
خديجة أم خوخة المعنية : ٣٥٢
خديجة الرحاية : ٣٥٠
خديجة السكيباتية : ٣٦٥
خشقدم الاحمدى الزمام : ١٦٠ ،
١٦١
خشقدم د الملك الظاهر : ١٠٥ ، ٣٨
١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ،
١١٢ ، ١٣٨ ، ١٤٣ ، ١٥٤ ،
١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٧٠ ، ١٨٥
١٨٨ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢١١ ، ٢٩٥
٣٠٧ ، ٣٣٨ ، ٣٥٦
خشكلى السيفي : ٣٩
الخضر بن الحسين د برهان الدين
السنجاري : ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٢ ،
٧٩ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٢
خليل بن شاهين د غرس الدين :
١٥٢
خليل ابن عم المستمك بالله : ٢٠ ،
٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤
خليل بن قلاوون د الملك الاشرف :
٢٤ ، ٢٥ ، ٤٨ ، ٧٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ،
٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٢٥٨ ، ٢٩٤ ، ٣٠٢
خوند الاحمدية د زوجة الملك خشقدم :
١٥٤

السعيد و محمد بن بيبرس - : الملك

١٤٨ ، ١٤٠ ، ٨٩ ، ٨٧ ، ٢٤

٣٠١ ، ٢٩٩

سلار المنصورى : ٤٩ ، ٣٧٦ ، ٣١٧

سلامش و الملك العادل : ٢٤ ، ٨٩

٣٠١

سلطان بن رشا : ٦١

سليم و ملك بن عثمان : ٣١ ، ٤٣

١٢٩ ، ١٢٧ ، ٧٨ ، ٤٥ ، ٤٤

١٢٣ ، ١٣٢ ، ١٣١ ، ١٣٠

٢٠١٧ ، ٢١٦ ، ١٣٨ ، ١٣٤

٢٣٣ ، ٢٣٢ ، ٢٣١ ، ٢١٨

٢٢٢ ، ٢٣٧ ، ٢٣٤

سليمان بن عبد الملك : ١٨٣

سليمان و المستكنى بالله الاول : ١٦

١٩٣ ، ٢٨ ، ٢٤ ، ١٨

سليمان و المستكنى بالله الثانى : ٣٦

٣٧

سنيان نائب سيس : ٣١٠

سنجر الشجاعى و علم الدين : ٨٩

٣٠٢ ، ٩٧ ، ٩٤ ، ٩٣

سقطباى المتصوف : ٣٦٤ ، ٣٦٥

سقر الاهر : ٢١٧

سوار اخو على دولات و ملك

الابلسين : ٢٢٢ ، ٢٣٣ ، ٣٠٨

سودون بن زاده : ٢٥٥

سودون العجمى و الانايكى : ١٦٧

٢٠٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠١ ، ١٧٦

٣٣١ ، ٢٠٧

(ز)

زبيدة أم الامين : ٤٩

زكريا الانصارى و زين الدين : ٧٢

١٢٨ ، ١٢٧ ، ١٢٣ ، ١٢٢ ، ١٢١

٢٧٩ ، ١٢٩

زكريا و المستعصم بالله العباسى الاول :

٢٩ ، ١٦

زين الدين بن البارزى : ٣٥٨

زين الدين بن حنا : ٣٦٠

زين الدين بن التحاس : ٣٥٦

زين الدين أبو محمد عبد السلام

الرواوى : ٦٣

زين الدين الانصارى : في زكريا :

زين الدين التفتنى : في عبد الرحمن :

زين الدين عبادة بن علي الجوزاني : ٧٢

زين الدين الفارفى : ٢٥٢

زين العابدين بن الطويل : ١٣٢

الزين قاسم بن قطوبغا : ١١٨

الزين بركت بن موسى : في بركت

(س)

سالم و مجد الدين الحنبلى : ١٠٣

ست الخلفاء : ٣٩

الستارى و صاحب النوادر : ١١٨ ، ١٠٢ ، ٧٢ ، ٥٥

سيد الدين عثمان بن عبد الكريم : ١٢

سراج الدين بن خريز : في عمر بن

أبي بكر :

سراج الدين بن الشحنة : في عبد البر

سعد الدين الدينى : ١٠٥ ، ١٠٩

٢٥٨

شمس الدين بن عوض : ٢٨٠ ، ٢٩٦ ،

٢٩٩

شمس الدين بن عيسى : ٨٩

شمس الدين بن المرق : ١١٦

شمس الدين الامشاطي : في محمد

شمس الدين البساطي : ٧٢ ، ١٣٦

شمس الدين التتائي : ١٣٨ ، ١٧٢

شمس الدين الحلبي : ٣٧٥

شمس الدين الحلبي : ٥١

شمس الدين الحنطلي : في محمد بن ابراهيم

شمس الدين الديري : ١٠٤

شمس الدين الزكراكي : ١٣٥

شمس الدين الزنكلوني : ٣٦٨

شمس الدين السمديسي : في محمد

شمس الدين الصغير : ٢٢٠ ، ٢٤١

شمس الدين الطرابلسي : ١٣٥

شمس الدين عبد الرحمن بن قدامة : ٦٣

شمس الدين عبد الله بن عطا : ٦٣

شمس الدين الغزوي : ١١٢ ، ١٢٩

شمس الدين القاياني : ١٣١ ، ١٣٧

شمس الدين القسطلاني : ١٩٠

شمس الدين ابن أخت القاضي الدماطي : ٣٦٨

الشفقي العجمي : ٢٤٧

شهاب الدين بن الجيمان : ٣٥٩

شهاب الدين بن حجر القسطلاني : في

ابن حجر

شهاب الدين بن فرغور : في أحمد

شهاب الدين بن فضل الله العمري :

٤٩ ، ٥٠ ، ١٤٠ ، ٢٧٩ ، ٣٥٩

سويدان المجذوب : ٣٤٤ ، ٣٦٥

سبياي نائب الشام : ٢١٥

سيف الدين إسحاق ، المجاهد : ٣٦٠

(ش)

شاد بك الأمير آخور : ١٦٢

الشاطر المنهري : ٣٦٣

شاهين الجلي : ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٤

شاهين النوري : ١٦٢

شجرة الد : ٣٠١

شرف الدين بن حسين الدولة

الإسكندراني : ٨٢

شرف الدين البارزي : في هبة الله

شرف الدين البرديني : في يحيى

شرف الدين البوصيري : ٣٣٦

شرف الدين السبكي : ٥٧ ، ٦٠ ، ٦١

شرف الدين الصغير ، علي : ٢٩٨

شرف الدين موسى بن عبيد الدمشقي :

١٠٩ ، ١١٠ ، ٣١٧

شرف الدين الفارزي : ٨٢

شرف الدين المناوي : في يحيى

شرف الدين الثعالبي الأستاذ دار : ٢٩٨

الشريف بن حزم المالكي : ١٩٤

شعبان ، الملك الأشرف : ١٩ ، ٢٩

١٥١ ، ١٣٤ ، ١٩٠ ، ٢٥٩

٢٦٤ ، ٢٧٧ ، ٢٩٤ ، ٣١٨

٣٢٣

شعبان ، الملك الكامل : ٥٣ ، ٢٩٩

شمس الدين بن خلسكان : ٦٣

صدر الدين بن منصور : ١٣٥
صدر الدين سليمان الخنفي : ٦٠٠ ، ٥٧
صدر الدين عبد البر بن رزين : ٨٨
صدر الدين المناوي : ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٣٥

صدر الدين موهوب الجوزي :
صرغتمش الناصري : ٣٠٦
صفى الدين بن جوهر والطواشي الرومي :
٢١٩

صقر بن بقر : ٣٠٧ ، ٣٠٨
صلاح الدين بن بركوت المكي : ١٣٨
صلاح الدين بن الجيعان : ١٧٢
صلاح الدين الأيوبي : ٢٧٤
الصلاح الثعلبي القوصي : ٣٥٣
صلاح الدين الصفدي : ٩٩

(ط)

طاجن : ٣٠٨
طاز : ١٥٠
طراباي الشريفي : ١٧٢ ، ٢٩٢ ، ٣١٠
٣١١

طرنطاي : نائب السلطنة : ٢٩٤
ططر : الملك الظاهر : ٣٦ ، ٣٠٣
طناي : ٢٥٣

طغودمر : نائب الشام : ٢٩٩
طغطبای : نائب القلعة : ١٧٦ ، ١٧٣
طومان باي : الملك الأشرف : ١٨ ، ٤١ ، ٤٣ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣٢
١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٦٧ ، ١٦٤ ، ١٧٥
١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٨
٢٦٢ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ ، ٣١٥ ، ٣١٤
٣٣١

شهاب الدين أحمد ناظر الجيش : ٢٨٧
شهاب الدين الخوري : في محمد
شهاب الدين السومسي : ٣٧٥
شهاب الدين الشيشي الخنيل : في أحمد
شهاب الدين الفتوح : ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٣٣

شهاب الدين الثقيل المقي : ٣٥٤
الشهاب المنصوري : ٣٤٨ ، ٣٥١
شهاب الدين التحريري : ١٢٥
شيخ الحمودي « الملك المؤيد » : ١٨ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ١٠٢
١٣٦ ، ٢٥١ ، ١٨٥ ، ١٩٢ ، ٢٦٥ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٣١٩
٣٥٣ ، ٣٥٨
شيخو العمري : ٣٠٦

(ص)

صارم الدين المواد المقي : ٣٥٣
الصالح إسماعيل : ملك دمشق : ٨١
الصالح إسماعيل : ملك الموصل : ٣٦٠
صالح البلقيني : علم الدين : ٣٧ ، ٣٨ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٩٥
الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد :
٢٨ ، ٥٤ ، ٣٠٦ ، ٣٥٧
الصالح علاء الدين بن الناصر محمد
« الملك » : ١٤٥ ، ١٥٠
الصالح نجم الدين الأيوبي : ٨١ - ٨٢
صدر الدين بن بنت الأعز : في صر
ابن عبد الوهاب :
صدر الدين بن العديم : ٧١ ، ١٠٢
صدر الدين بن المرحل : ٦٧

عبد الرحمن بن علي و زين الدين

التقي : ١٠٤

عبد الرحمن بن عمر و جلال الدين

البقي : ٣٥٩، ١٠٦١، ٢٠٣٥

عبد الرحمن بن قاسم و جلال الدين :

١٣٦، ٢٢٧

عبد الرحمن بن قدامة و بهاء الدين :

١١٢

عبد الرحمن بن محمد و تقي الدين

القرشي : ١٠١

عبد الرحيم البارزي : ٣٥٨، ٧٧

عبد العزيز بن عبد السلام و عز الدين :

٨٠، ٧٦، ٧٤، ٧٣، ٢٢، ١٢

٢٧٩، ٩٥، ٩٤، ٩١، ٨٤

عبد العزيز بن عمر الحواري و عزوز :

٣٠٩

عبد العزيز بن محمد بن جماعة : ٩٨

عبد العزيز بن محمد الصغير : ١٥٢

١٥٣

عبد العزيز بن مروان : ١٧٢

عبد العزيز و المتوكل على الله الثاني :

٤١، ٤٠، ٣٩، ١٨

عبد العظيم الصيرفي : ٣٦٧

عبد النبي بن الجيعان : ٣٥٩

عبد النبي بن أحمد بن تقي الدين :

١١٧، ١١٦، ١١٥، ١١٣

عبد القادر بن أحمد و يحيى الدين بن تقي :

١١٤، ١١٣

عبد القادر بن الرماح : ٣٧٦

عبد القادر بن النقيب و يحيى الدين :

١٢١، ١١٩، ٧٨، ٧٧، ٦٩، ٦٨

١٣١، ١٢٥، ١٢٣، ١٢٢

علي دولات أمير التركان :

١٧٠، ٣٤٤، ٣٣٧، ٢٣٥

علي الكيكا : ١١٩، ١١٧، ١١٦

علاء الدين : ٣٣٨، ٣٠٣، ٢٠١، ١١٠، ٩

٣٤٩، ٤١٠

عبيد الله الأتابكي : ٣٩

العفيف الخوارزمي و ناصر الدين :

١٤٩

طبريس الوزيري و علاء الدين : ١١

(ط)

الظاهر برقوق : في ب

الظاهر بيبرس : في ب

الظاهر جقمق : في ج

الظاهر خشمقدم : في خ

الظاهر طاهر : في ط

الظاهر قانصوه : في ق

(ع)

العادل طومانباي : في ط

العادل كتبغا المنصوري في ك

عبد البر بن الصحنة و سري الدين :

١١٩، ١١٨، ١١١، ٧٩، ٦٥

٣٥٩، ١٢٤، ١٢١، ١٢٠

عبد الحق السبائي : ٣٦٩

عبد الدايم بن أحمد بن بكر : ٣١٤

عبد الدايم بن أبي الشوارب : ٣١٣

عبد الرحمن بن بنت الأعر و تقي الدين :

٣٥٨، ٩٤، ٩٣، ٩٢، ٩١، ٧٠، ٦٢

عبد الرحمن بن خلدون و ولي الدين :

١٣٦، ١٣٤، ١٠١، ٢٨

عبد الرحمن الديري : ٣٥٨

علاء الدين منصور : ١٣٥
 علاء الدين ابراهيم الخنفي : ٥٧ ، ٦٠
 ١٦٤ ، ٣٥٠ علاء الدين بن الصابوني : ٨٨
 علاء الدين بن الطبلالوي : ٢٩٨
 علاء الدين بن عبد الظاهر : ٣٥٩
 علاء الدين بن فضل الله العمري
 ٢٧٩ ، ٣٥٩
 علاء الدين بن قراطام : ٣١١
 علاء الدين بن مغلي : ١٣٦
 علاء الدين بن القتيب : ١٥٥
 علاء الدين ابيديكر البندقدار : في
 ابيديكر
 علاء والي القاهرة : ١٧٨
 علم الدين بن شاذلي الجيعان : ١٥٤
 علم الدين البلقيني : في صالح
 علم الدين منجر الشجاعى : في سنجر
 علم الدين شمائل : ٢٩٧
 علي بن ابي الجود : ٣٤٦
 علي باي الامير : ٣٠٢ ، ٣٣٤
 علي بن ابي طالب : ٤١
 علي بن احمد بن ارنال : ١٧٨
 علي بن الاشرف شعبان د الملك
 المنصور : ١٦ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢
 ٥٠٦
 علي بن يركات الحسنى : ٣٦١
 علي بن رحاب المغني د نور الدين :
 ٣٤٩ ، ٣٥١
 علي بن عبد الرحيم بن الاثير : ٧٦
 علي بن غانم : ٣٥٢
 علي التبراي : ٢٦

عبد القادر الشطوطي : ١٢٥ ، ١٩٩
 عبد الله بن شرف : د علي الدين
 ابن عين الدولة : ٨٧ ، ٨٨
 عبد الله التركاني جمال الدين : ٥٤
 عبد المؤمن المجمل : ٢١٤ ، ٢٤٣
 عبد الوهاب بن بنت الاعز د تاج الدين :
 ١١ ، ١٢ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٣٩ ، ٥٣
 ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٥
 ٧٢ ، ٧٣ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥
 ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٣٥٨
 عبد الوهاب البهنسي د وجه الدين :
 ٨٨ ، ٩١
 عبيد بن ابي الشوارب : ٣١٣
 عثمان بن بنت ابي سعيد د القاضي
 غفر الدين : ١٤٩
 عثمان بن حقيق د الملك المنصور : ١٥٥
 عز الدين بن ابيك د الملك المعز : ٨٢
 عز الدين بن تركي : ٢٥٢
 عز الدين بن جماعة المقدسي : ١٣٤ ، ٢٥٩
 عز الدين بن عبد السلام : في عبد العزيز
 عز الدين بن القلانسي : ٢٥٢
 عز الدين الحبلي : في احمد بن ابراهيم
 عز الدين الحلبي : في ايدمر
 عز الدين الشيبيني الحبلي : ١١٨ ، ١٢٥
 عز الدين الكنتاني : ١٣٧
 عز الدين المحلي : ٣٧٣
 عزيزة بنت السطحي : ٣٥١
 عفيف الدين بن النجعة : ١١١
 علاء الدين بن الاثير : ١٤٤ ، ١٥٠
 ٢٧٩
 علاء الدين بن الانصاري : ١٢٥ ، ١٢٦

غرس الدين خليل : ٣٦٨، ٢٩٦
غياث الدين ملك الهند : ٣٩١، ٢٢٢

(ف)

فارس الدين أقطاي الجندار : ٣٠٥
فارس الدين أقطاي المستعرب : ٣٠٥
فارس حاجب الحجاب : ٢٩٥
فارس الدين الزكفي : ١٥٩
فاطمة بنت أسد : ٤١

فاطمة بنت رسول الله عليه السلام : ٤١
فاطمة زوجة قابيبي : ١٥٨
فتح الدين بن عبد الظاهر : ٣٥٩
نغر الدين بن الصفيق .

نغر الدين بن فضل الله : ٢٧٧
نغر الدين بن حنا : ٢٦٠

نغر الدين بن قروينة : ٢٩٤
نغر الدين بن لقمان : ٨٩

نغر الدين ناظر الجيوش : ١٤٥، ١٥٠
فرج بن برقوق « الملك » : ١٨، ٤٣،
١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٣٥، ١٣٦،
٢١٥، ٢٢٠، ٢٤٢، ٢٥٤، ٢٥٥،
٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٤، ٢٩٥،
٣٠٣، ٣٠٧، ٣١٩

فرج بن عبد الله المغربي : ٣٦٤

(ق)

القاسم بن إبراهيم وعهاد الدين الحوي : ٨٠
قاسم بن قطلوبغا : ٣٧٣
قاسم الفريب : ٣١٣
قانسوه بن سلطان جركس : ١٧٤،
٣١١، ٣١٥

قانسوه بن قانسوه « الملك الظاهر » :
٤١، ١٢٤، ١٣٨، ١٦٧، ٢٠٠،
٢١٤، ٣٣٨، ٣٤٩

علي دولات أمير التركان : ٢٢٨، ٢٣٣،
٢٣٥، ٢٣٧، ٢٤٤

علي الكيزاني : ٢٦٠

عهاد الدين الحوي « الوالد » إبراهيم :
في القاسم

عهاد الدين الكركي : ١٠١
عمر بن إبراهيم « الواقف بالله الثاني » :
عمر بن أبي بكر « سراج الدين بن

حريز » : ١٠٧، ١١٣، ١١٤

عمر بن الأمير دولات باي : ٣٢٠

عمر بن الخطاب : ١٨٣، ١٨٤

عمر بن العاص : ١٨٢، ١٨٤

عمر بن عبد الرحمن القزويني « إمام
الدين » : ٩٧

عمر بن علاء الدين النقيب : ٣٦٥

عمر بن الفارض : ١١١، ١٢٨

عمر بن الملك المنصور بن جقمق : ١٧٦
عمر بن موسى : ٣١٤

عمر البلقيي « سراج الدين » : ١٠٢،
٢٧٩، ٢٨٤، ٣٠٩

عمر السبكي المالكي « شرف الدين » :
عمر « صدر الدين بن عبد الوهاب

ابن بلة الأعز » : ٧٥، ٨٨، ٩١
و ٣٥٨

عنان بن مغاس : ١٥١

عيسى بن بكر : ٣٠٨

عيسى بن مهنا :

(خ)

غازان « ملك التتار » : ٩٨، ١٠١، ٢٥٢، ٢٥٣

كمال الدين بن إمام الكاملية : ١٥٥
كمال الدين بن الطويل : في محمد بن علي
كمال الدين بن العديم : ٢٥٩
كمال الدين بن السريجي : ١٥٥
كمال الدين الأديوي : ٧٦
كمال الدين القادري : ١٢٦

(ل)

لاجين الظاهري : ١٥٨ ، ١٩٥ ، ١٩٦
لاجين « الملك المنصوري » : ٢٥١ ، ٢٤٥
٢٧٦ ، ٩٥

(م)

الماسي الأشرف « أستاذار الصحبة » :
٢١١
الماس دودار سكين : ٢٨٩
مالك بن رومي : ٢١٢
ماماي جوشن : ١٧٣
ماماي الحازندار : ٩٣
ماماي الحاصكي بن خداد : ١٦٣ ،

٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢٢٥ ، ٢٥١
الأمون العباسي : ١٨٣
المؤيد بن إينال : في أحمد
المؤيد شيخ الحمودني : في شيخ
المؤيد صاحب حماة : في إسماعيل
المتوكل العباسي : ١٨٣
المتوكل على الله الأول : ١٦ ، ١٧ ،
٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ،
٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ١٥١ ، ١٩٠
المتوكل على الله الثاني : في عبد العزيز
المتوكل على الله الثالث : ١٠ ، ٢٠ ،

قطلو شاه : ٢٥٢
قنجق : ٢٥١ ، ٢٥٢
قلاوون « الملك المنصور » : ١٩ ،
٢٤ ، ٥٠ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٢ ، ١٤٩
١٨٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤
٢٨٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٧

قلج البندادي « سيف الدين » : ١١
قلقير الأتابكي : ١٩٥
قاري أستاذار العالي : ٢٩٩
قنك بن شاد بك : ١٨١ ، ١٧٢
قوصون الأتابكي : ٢٩٩
قبت الرجي : ١١٩ ، ١٦٩ ، ٢٠١
٢٠٢ ، ٣١٠ ، ٣٢٨
قبت الساق : ٢٦٠

(ك)

الكامل بن العادل الأيوبي : ٢٩٧
الكامل شعبان « الملك » في شعبان
كتيغا فوزيك « أمير التتر » : ٢١٨ ،
٢٥٠
كتيغا المنصوري « الملك العادل » :
٧٢ ، ٩٤ ، ١٩٥ ، ١٨٩ ، ٢٠٢ ، ٢٢٣
كرای نائب دمشق : ٩٩
كرتباي بن أخت قايتباي : ١٦٥ ،
١٦٦ ، ٣٣٨
كرتباي الأحمر : ٧٦ ، ٣٤٩
كرتباي كشف البحيرة : ١٦٤
كرتباي والي القاهرة : ٢٣٠
كريم الدين بن السديد : ١٤٥ ، ١٥٠
كزل أم المعتضد الثاني : ٣٥

محمد بن الحسن « تقي الدين بن روزين » :

٨٨ ، ٨٧

محمد بن حلة الغنى « شمس الدين » :

٣٥١

محمد بن خاص بك : ١٦٧ ، ٢٨٨

محمد بن عبد الدايم « ناصر الدين بن

الميلق » : ١٠٠

محمد بن عبد الرحمن « جلال الدين

القزويني » : ٩٩ ، ١٠٠ ، ٢٥٢ ، ٣٥٩

محمد بن جلان : ٣٠٩

محمد بن الملاي علي : ١٦٥ ، ١٦٨

محمد بن علي بن وهب « تقي الدين بن دقيق

البيد التشريعي » : ٧٦ ، ٧٢ ، ٢٥

٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧

محمد بن علي « كمال الدين الطويل » :

١٣٠ ، ١٢٥ ، ١٢٣ ، ١١٧ ، ٥١

١٣٤ ، ١٣٣ ، ١٣٢ ، ١٣١

محمد بن حويثة المواد : ٣٥٢

محمد بن المعني : ١٦٦

محمد بن قايتباي « الملك الناصر » :

١١٨ ، ٤١٤ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٤

١٦٦ ، ١٨٥ ، ٢٠٠ ، ٢١٥ ، ٢٨٧

٣٠٣ ، ٣١٠ ، ٣٣٨ ، ٣٥١

محمد بن الحق : ٣٥٢

محمد بن قلاوون « الملك الناصر » :

١٠١ ، ١٦٦ ، ١٨٤ ، ٢٤٤ ، إلى ٢٩٩ ، ٤٨٠

٤٩ ، ٥٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧

١٣٤ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٥٠

١٥١ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢١٨ ، ٢٣٦

٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٥١ ، ٢٥٢

٢٥٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩

٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧

٢٤٥ ، ٤٥٠ ، ٤٤٤ ، ٤٣٠ ، ٤٢٠ ، ٤١٠ ، ٢١

محمد الدين بن سالم الجعفي : ١٣٦

محمد الدين بن فضل الله : ٣١٩

محمد الدين بن العديم : ٣٥٩

محمد الدين بن البقري : ٢٩١

محمد الدين الحنبلي : في سالم

محمد الدين الكنتاني : ١٣٥

عبد الدين بن الأشقر : ١١٠ ، ١٥٤

عبد الدين بن الشحنة : في عمد

عبد الدين المسقلاني : ١٣٧

الحلاوي : ٣٥٣

محمد بن إبراهيم « بدر الدين بن جماعة » :

٢٧ ، ٧٠ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧

٩٨ ، ٩٩ ، ٢٥٢ ، ٣٥٩

محمد بن إبراهيم « شمس الدين الحنبلي » :

٥٧ ، ٥٨ ، ٦٦ ، ٧٨

محمد بن أبي سعيد التتوي : ٢٤٨

محمد بن أحمد بن تمام الصالحى : ٣٦٤

محمد بن أحمد الانصارى « ناصر

الدين الإخميمي » : ١١٥ ، ١٢٤

محمد بن أحمد « بلدي الدين المكيني » :

١١٧

محمد بن أحمد « شهاب الدين الحرق » :

٦٢ ، ٩١

محمد بن أوزبك : ١٦٥

محمد بن الفضل « الأشرف ملك اليمن » : ٣١٧

محمد بن الأمير يونس العلاقي : ٣٢١

محمد بن أيوب « الكامل الأيوبي » : ٢٩٣

محمد بن بركات « شريف مكة » : ١٥٧

محمد بن حاجي « الملك المظفر » : ٣٧٤

محمد بن الحسين « علم الدين » : ١٢

عبي الدين بن عبد القادر بن النقيب :
في عبد القادر

عبي الدين بن عين الدولة د عبد الله :
في عبد الله

عبي الدين الكافجي : ١٢٣
مراد خان بن يعقوب : ٢٢٦

مرادش الطويل : ١٥٤

مرحف الطواشي : ٣٧١

مسعود الكيجاري : ٢٤٢

المستصم بالله بن إبراهيم د زكريا :
في زكريا

المستصم بالله العباسي : ١١٠٩ ، ٢٩
٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣

المستصم بالله العباسي الخليفة السلطان :

١٩ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٥

المستكفي بالله العباسي الأول : في سليمان

المستكفي بالله العباسي الثاني : في سليمان

المستكف بالله يعقوب : في يعقوب

المستنجد بالله العباسي : في يوسف

المستنصر بالله العباسي : في أحمد

مصر باي : ١٦٦ ، ٢٢٨

المظفر بن المؤيد شيخ : في أحمد ٢٩

المظفر حاجي : ٣٤٨

المظفر شاه صاحب كنجاية : ٢٣١ ، ٣٥

المظفر قطز : في ق

المتنجد بالله العباسي الأول : ٢٨ ، ٩٠

المتنجد بالله العباسي الثاني : ٣٥ ، ١٦

معز الدين الحنفى : ١٩٣

معين الدين بن شمس : ١١٩ ، ٩٨

٣٠٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣١٦

٣٢٣ ، ٣٥٧ ، ٣٦١

محمد بن كثير المهندس : ١٨٣

محمد بن محمد بن أبي بكر د بدر الدين

السعودي : ١٠٨

محمد بن محمد د بدر الدين السبكي :

١١٤

محمد بن محمد شمس الدين الأمشاطي :

١٠٩ ، ٢٨٦

محمد بن محمد د محب الدين بن الشحنة :

١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٨

محمد بن النقيب د شمس الدين السمدلي :

١٢٩

محمد الرئيس قتات المنير : ٣٥٣

محمد الفايح : ٢١٠ ، ٢٢١ ، ٣٦١

محمود بن أجا الحلبي : ٧١ ، ١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٧٦

١٧٧ ، ٣٤٥

محمود بن عبد البر د حسام الدين بن

الشحنة : ١١١ ، ١٢٠ ، ١٢٦

١٢٧

محمود د بدر الدين العيني : ١٠٤

١٠٥ ، ١٣٦

محمود شاه ملك الهند : ٢١٥ ، ٢٢٦

٢٢١

الموجب الحنفى : ٣٥٢

عبي الدين بن تقى د عبد القادر :

في عبد

عبي الدين بن الدمري : في عبي

عبي الدين بن عبد الظاهر : ٦٣ ، ٢٧٩

٣٥٩

موفق الدين ناظر الجيوش «أبو الفرج»

٢٩٤

موهوب الجوزي «صدر الدين» : ١٢

ميخائيل المنفلوطي «البترك» : ٢٢١

(ق)

ناصر الدين بن الملق : في محمد بن

عبد الدائم

ناصر الدين الأنخيي : في محمد

ناصر الدين البارزي : ٢٧٩ ، ٢٥٨

ناصر الدين التونسي : ١٣٤

ناصر الدين الصالحى : ١٢٥

ناصر الدين العسقلاني : ١٢٥

ناصر الدين محمد المازوني : ٢٤٨

ناصر الدين مهنا : ٢٢

الناصر حسن بن الناصر محمد : ١٥٠ ،

٢٤١ ، ٢٨٤ ، ٣٠٢

الناصر فرج بن يرقوق : في ف

الناصر محمد بن قايتباي : في م

الناصر محمد بن قلاوون : في م

الناصر ملك دمشق : ٢٤٩

الناصر محمد بن قانصوه الغوري : ١٧٦ ،

١٧٧

نائق الحازن : ١٧٦ ، ٢٨٧

نجا بن تمساح : ٢٩٦

نجم شيخ العرب : ٣١١ ، ٣١٢

نجم الدين بن مصرى : ٩٩

نجم الدين أبو بكر بن سنى الدولة : ٣٥٢

منقباي دوادار سكين : ٢١٧ ، ٢١٨

منقباي الزردكلش : ١٧٤ ، ٢٠١ ، ٢٨٨

القريري «نق الدين» : ٥٦ ، ٥٣ ، ٥٢

٥٧ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٣

٧٨ ، ٧٩ ، ٧٤

منجد بن خاطر : ١٥٢ ، ٣٠٧

منجك اليوسفي : ٣٧٠

منصور بن خشمقدم : ١٦٢

المنصور بن المعز بن أيك : ٨٤

المنصور أبو بكر : ١٦ ، ٢٨ ، ٢٩٩

المنصور عثمان بن جقمق : ٣٧

المنصور علي بن الأشرف : في ع

المنصور قلاوون : في ق

المنصور لاجين : ٢٩٥

المنصور محمد حفيد الناصر بن قلاوون :

٢٩ ، ٢٤٨

منطاش : ٣٠٢

منكوتمر أمير التار : ٩١

منكوتمر نائب السلطنة : ٩٥

مهنا بن عطية : ٣٠٩

موسى بن عمران : ٣٠٨

موسى بن عيد «شرف الدين دمشق»

١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٢

موسى عم الخليفة المتوكل على الله

الثاني : ٣٩

موفق الدين الخليل : ١٠٠ ، ١٣٦

(٨)

هبة الله بن البارزي « شرف الدين » :

٢٥٨

هجار أمير ينيق : ٣١٣

هولاكو ملك التتار : ١١ ، ٢١٨ ،

٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣

هيفة اللذينة : ٣٥٢

(٩)

يحيى بن إبراهيم « يحيى الدين بن

الدميري » ١١٧ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ،

١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٨ ، ٣٥٩

يحيى بن الأمير يشبك الفقيه : ١٥٤

يحيى بن سبع : ١١٩ ، ١٧٢ ، ٣١٢ ،

٣١٣ ، ٣١٤

يحيى بن عبد المنعم « جمال الدين » : ١٢٠

يحيى البرديني « شرف الدين » : ١٣٤

يحيى المناوي « شرف الدين » : ١٠٦

١٠٧ ، ١٣٥ ، ٣٨١ ، ١٩٣ ، ١٩٤

يرش « خازندار جاني بك » : ٢٩٥

يزيد بن عبد الملك : ١٨٣

يشبك بن حيدر : ١٦١ ، ١٦٢ ، ٣٠٠

يشبك بن مهدي : ١٦٠

يشبك الأشقر : ١٦٥

يشبك الجاني : ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٠ ،

٢١١

يشبك جن : ١٥٥

نجم الدين البارزي : ١٦٥

نجم الدين يحيى بن يحيى : ٣٠٢

نجيب الدين الحراتي : ١٢

نصر الدين بن التونسي : ١٣٦

نكسيه الأزمري : ١٥٢

نور الدين بن الجلال المالكي : ١٣٥ ،

١٣٦

نور الدين « الخطيب » : ١٨٩

نور الدين المحلى : ٣٧٢

نور الدين المشالي : ٢٩٦ ، ٣٦٨

نوروز تاجر الماليك : ١٧٤

نوروز الحافظي : ١٩٠ ، ٢٣٣ ،

١٩٢ ، ٢٥٧

(١٠)

الوائق بالله العباسي الأول : في إبراهيم

الوائق بالله العباسي الثاني : ١٧ ، ٣٠ ، ٣٣

وجيه الدين الجهنسي « عبد الوهاب » :

في عبد الوهاب

الوليد بن عبد الملك : ١٨٣

ولي الدين بن خلدون « عبد الرحمن » :

في عبد

ولي الدين الأرموي : ١٢٧

ولي الدين الأسيوطي : في أحمد

ولي الدين السقطي : ١٣٧

ولي الدين السنباطي : ١٠٧ ، ١٣٧

ولي الدين العراقي : ١٣٦

السنجاري : ٨٢ ، ٨١ ، ٦٠ ، ٥٦ :
 ٨٩ ، ٨٥ ، ٨٤ ، ٨٣
 يوسف الصديق : ١٨٢
 يوسف الصوفي : ٢٣١
 يوسف د المستنجد بالله العباسي :
 ٢٨٦ ، ٢٩ ، ٣٨ ، ١٧
 يوسف الناصري : ١٧٥
 يونس بن جاتم الزردكاش : ٢٩٢
 يونس بن الأفرح : ١٧٤
 يونس بن عمر الهواري : ٣٠٩
 يونس النوادر : ٢٥٩
 يونس العادلي : ٢٤٤ ، ٢١٥
 يونس النابلسي « شريف الدين » :
 ٢٩٩

يشبك النوادر : ١٥٥ ، ١٥٧ ،
 ٣٠٨ ، ٢٩١ ، ٢٢٤ ، ٢١١ ، ١٦١
 ٣٣٧ ، ٣٠٩
 يشبك الفقيه : ١٥٤
 يشبك الناصري : ٢٥٢
 يعقوب بن حسن الطويل : ٢١٢ ، ٢٢٣
 يعقوب بن عليبة : ٢٦٠
 يعقوب أخو المتوكل الأول : ٢٩
 يعقوب شاه الممندان : ١١٢
 يعقوب د المستنجد بالله العباسي :
 ٤٤ ، ٤٣ ، ٤٢ ، ٤١ ، ٤٠ ، ٢٠
 يلغا السالي : ٢٨٥
 يلغا العبدي : ٢٥٩ ، ٣٠٢ ، ٢٤٨
 يوسف بن الحسن بن علي « بدر الدين »

